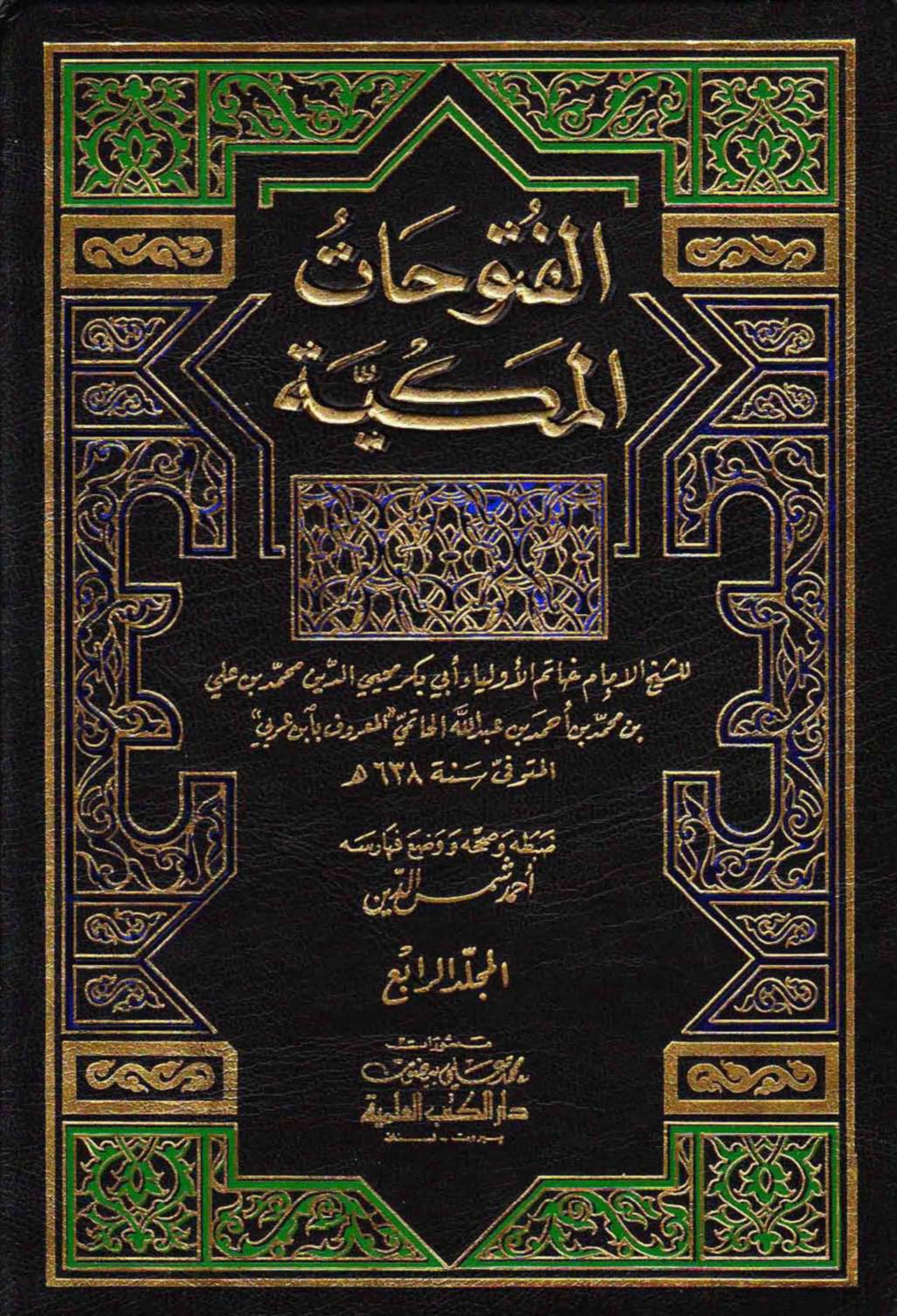

الفتوحات المكية
للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ
ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين
المجلد الرابع
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

الجزء الرابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

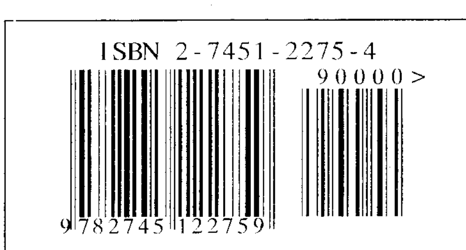
الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon
Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon





http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com



الفتوحات المكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السابع والثمانون ومائة
في معرفة مقام المعجزة وكيف يكون هذا المعجز كرامة لمن كان له معجزاً لاختلاف الحال

[نظم: البسيط]

مـا كـان مـعـجـزةً فـلا سـبـيـلَ إلـى ... ظُـهُـوره مـرّةً أخـرى إلـى الأبَـدِ
لا فـي وِلـيٍّ ولا فـي غـيـره فـإذا ... حقَّقْتَ قولي فلا تَعْدِلْ عن الرَّشَدِ
ولـو تَـحَـدَّى بـه خَـلْـقٌ لأكْـذَبَـهُ ... صِدْقُ المُقَدَّم في الأدنى وفي البَعَدِ
لـذلـك اخـتَـلَـفَـتْ فـي الأنـبـيـاء فـلـم ... يَـظْـهَـرْ لـهـا أثـرٌ مـن بَـعْـدُ فـي أحَـدِ

اختلف الناس فيما كان معجزة لنبيّ هل يكون كرامة لوليّ أم لا؟ فالجمهور أجاز ذلك إلاّ الأستاذ أبا إسحاق الإسفرايني فإنه منع من ذلك وهو الصحيح عندنا، إلاّ أنا نشترط أمراً لم يذكره الأستاذ وهو أن نقول: إلاّ إن قام الوليّ بذلك الأمر المعجز على تصديق النبيّ لا على جهة الكرامة به فهو واقع عندنا بل قد شهدناه، فيظهر على الوليّ ما كان معجزة لنبيّ على ما قلناه، ولو تنبّه لذلك الأستاذ لقال به ولم ينكره فإنه ما خرج عن بابه، فإن الذي وقع فيه الخلاف أنه هل يكون كرامة لوليّ؟ وهذا ليس بكرامة لوليّ إلاّ أن الذين أجازوا ذلك قالوا بشرط أن لا يظهر عليه بالطريق التي ظهرت على يد الرسول الذي بها سميت معجزة، وجوّزوا أن الوليّ لو تحدّى بذلك على ولايته لجاز أن يخرق الله له تلك العادة، والكاذب لو تحدّى بها على كذبه وهو صادق في أنه كاذب فجائز أن يخرق الله له تلك العادة على صدقه أنه كاذب، فإن الفارق عندهم حاصل وهو وجه يقال، والصحيح ما ذهب إليه الأستاذ وهو الذي يعطيه الدليل النظري إلاّ أن يقول الرسول في وقت تحدّيه بالمنع في الوقت خاصة أو في مدة حياته خاصة، فإنه جائز أن يقع ذلك الفعل كرامة لغيره بعد انقضاء زمانه الذي اشترطه، وأما إن أطلقه فلا سبيل إلى ما قاله الأستاذ، وهذا التفصيل الذي ذكرناه يقتضيه الدليل النظري للطائفتين، على أنا ما رأينا أحداً تنبّه إلى هذا في علمنا ولا ذكره والله أعلم.

والإعجاز على ضربين: الضرب الواحد أن يأتي بأمر لا يكون مقدور البشر ولا يقدر عليه إلاّ الله وذلك عزيز أعني الوصول إلى العلم به كإحياء الموتى لا يقدر عليه إلاّ الله، ولكن الوصول إليه على طريق العلم أنه حيّ في نفس الأمر عزيز فإنا رأينا عصا موسىٰ عليه السلام حية وعصيّ السحرة حيات ولم تفرق العامّة بين الحياتين، فلهذا قلنا: إن الوصول إلى علم

ذلك عزيز؛ والضرب الآخر وهو الذي يمكن أن يكون أقرب وهو الصرف فيدعي في ذلك أن الذي هو مقدور لكم في العادة إذا أتيت أنا به على صدق دعواي، فإن الذي أرسلني يصرفكم عنه فلا تقدرون على معارضته، فكل من في قدرته ذلك يجد في نفسه العجز في ذلك الوقت فلا يقدر على إتيان ما كان قبل هذه الدعوى يقدر عليه وهذا أرفع للبس من الأوّل، فهذا معنى الأمر المعجز ومع هذا فقد وقع وعرف أنه معجزة وحصل العلم به عند الناظر بصدق هذا الرسول وما رزق الإيمان به وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، فتعلم أن الإيمان لا تعطيه إقامة الدليل بل هو نور إلهي يلقيه الله في قلب من شاء من عباده، وقد يكون عقيب الدليل وقد لا يكون هناك دليل أصلاً كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السابع عشر ومائة.

(الجزء الثامن عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والثمانون ومائة

في معرفة مقام الرؤيا وهي المبشرات

[نظم: البسيط]

بالصِّدْق رؤيا الرجالِ الصادقين ومَنْ ... يُصَاحِبِ الضدَّ لم تَصْدُقْ له رؤيَا

الصِّدْقُ بالعَدْوة القُصْوَى مَنَازِلُه ... وضدُّه ضدُّه بالعَدْوة الدُّنيَا

هي النُّبوَّةُ إلاَّ أنها قَصُرَتْ ... عن نَسْخ شَرْعٍ وهذي رتبةٌ عُلْيَا

إني رأيتُ سيوفاً للهوى انْتُضِيَتْ ... وفي يميني سَيفٌ للهوَى دُنْيَا

فما تركتُ لها عَيْناً ولا أثراً ... بذلك السيفِ في الأُخْرى وفي الدنْيَا

اعلم أيّدك الله أن للإنسان حالتين: حالة تسمّى النوم، وحالة تسمّى اليقظة، وفي كلتا الحالتين قد جعل الله له إدراكاً يدرك به الأشياء تسمّى تلك الإدراكات في اليقظة حساً، وتسمّى في النوم حسّاً مشتركاً، فكل شيء تبصره في اليقظة يسمّى رؤية، وكل ما تبصره في النوم يسمّى رؤيا مقصوراً، وجميع ما يدركه الإنسان في النوم هو ممّا ضبطه الخيال في حال اليقظة من الحواس وهو على نوعين: إما ما أدرك صورته في الحسّ، وإما ما أدرك أجزاء صورته التي أدركها في النوم بالحسّ لا بدّ من ذلك، فإن نقصه شيء من إدراك الحواس في أصل خلقته فلم يدرك في اليقظة ذلك الأمر الذي فقد المعنى الحسيّ الذي يدركه به في أصل خلقته فلا يدركه في النوم أبداً، فالأصل الحسّ والإدراك به في اليقظة والخيال تبع في ذلك، وقد يتقوّى الأمر على بعض الناس فيدركون في اليقظة ما كانوا يدركونه في النوم وذلك نادر وهو لأهل هذا الطريق من نبيّ ووليّ هكذا عرفناه.

فإذا علمت هذا فاعلم أيضاً أن النبوّة خطاب الله تعالىٰ أو كلام الله تعالىٰ كيفما شئت قلت لمن شاء من عباده في هاتين الحالتين من يقظة ومنام، وهذا الخطاب الإلهيّ المسمّى نبوّة على ثلاثة أنواع: نوع يسمّى وحياً، ونوع يسمعه كلامه ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] ونوع بوساطة رسول فيوحي ذلك الرسول من ملك أو بشر بإذن الله ما يشاء لمن أرسله إليه وهو كلام الله، إذ كان هذا الرسول إنما يترجم عن الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] فالوحي منه ما يلقيه إلى قلوب عباده من غير واسطة فأسمعهم في قلوبهم حديثاً لا يكيف سماعه ولا يأخذه حدّ ولا يصوّره خيال، ومع هذا يعقله ولا يدري كيف جاء ولا من أين جاء ولا ما سببه، وقد يكلمه من وراء حجاب صورة ما يكلمه به، وقد يكون الحجاب بشريته، وقد يكون الحجاب كما كلّم موسىٰ من الشجرة من جانب الطور الأيمن له لأنه لو كلّمه من الأيسر الذي هو جهة قلبه ربما التبس عليه بكلام نفسه، فجاءه الكلام من الجانب الذي لم تجرِ العادة أن تكلمه نفسه منه وقد يكلمه بوساطة رسول من ملك كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٩٣] يعني بالقرآن الذي هو كلام الله، وقد يكون بوساطة بشر وهو قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فأضاف الكلام إلى الله، وما سمعته الصحابة ولا هذا الأعرابي إلاّ من لسان رسول الله ﷺ، وليست النبوّة بأمر زائد على الإخبار الإلهيّ بهذه الأقسام والقرآن خبر الله وهو النبوّة كلها لأنه الجامع لجميع ما أراد الله أن يخبر به عباده، وصحّ في الحديث: **«أَنَّهُ مَنْ حَفِظَ القُرْآنَ فَقَدْ أُدرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَينَ جَنْبَيهِ»**.

فإذا تقرّر ما ذكرناه فاعلم أن مبدأ الوحي الرؤيا الصادقة وهي لا تكون إلاّ في حال النوم، قالت عائشة في الحديث الصحيح: **«أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحِي الرُّؤيَا الصَّادِقَة»** فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، وسبب ذلك صدقه ﷺ فإنه ثبت عنه أنه قال: **«أَصْدَقُكُم رُؤيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً»** فكان لا يحدث أحداً ﷺ بحديث عن تزوير يزوّره في نفسه بل يتحدث بما يدركه بإحدى قواه الحسيّة أو بكلها ما كان يحدّث بالغرض ولا يقول ما لم يكن ولا ينطق في اليقظة عن شيء يصوّره في خياله ممّا لم ير لتلك الصورة بجملتها عيناً في الحسّ، فهذا سبب صدق رؤياه، وإنما بدىء الوحي بالرؤيا دون الحسّ لأن المعاني المعقولة أقرب إلى الخيال منها إلى الحسّ، لأن الحسّ طرف أدنى والمعنى طرف أعلى وألطف، والخيال بينهما والوحي معنى، فإذا أراد المعنى أن ينزل إلى الحسّ فلا بدّ أن يعبر على حضرة الخيال قبل وصوله إلى الحسّ، والخيال من حقيقته أن يصوّر كل ما حصل عنده في صورة المحسوس لا بدّ من ذلك، فإن كان ورود ذلك الوحي الإلهيّ في حال النوم سمّي رؤيا، وإن كان في حال اليقظة سمّي تخيّلاً أي خيّل إليه فلهذا بدىء الوحي بالخيال، ثم بعد ذلك انتقل الخيال إلى الملك من خارج، فكان يتمثل له الملك رجلاً أو شخصاً من الأشخاص المدركة بالحسّ، فقد ينفرد هذا الشخص المراد بذلك الوحي بإدراك هذا الملك، وقد يدركه الحاضرون معه، فيلقي على سمعه حديث ربّه وهو الوحي، وتارة ينزل على

قلبه ﷺ فتأخذه البرحاء وهو المعبر عنه بالحال فإن الطبع لا يناسبه فلذلك يشتدّ عليه وينحرف له مزاج الشخص إلى أن يؤدّي ما أوحى به إليه ثم يسرّي عنه فيخبر بما قيل له، وهذا كله موجود في رجال الله من الأولياء، والذي اختصّ به النبيّ من هذا دون الوليّ الوحي بالتشريع، فلا يشرع إلاّ النبيّ ولا يشرع إلاّ رسول خاصة، فيحلل ويحرّم ويبيح ويأتي بجميع ضروب الوحي. والأولياء ليس لهم من هذا الأمر إلاّ الإخبار بصحة ما جاء به هذا الرسول وتعيينه حتى يكون هذا التابع على بصيرة فيما تعبده به ربه على لسان هذا الرسول، إذ كان هذا الوليّ لم يدرك زمانه حتى يسمع منه كما سمع أصحابه، فصار هذا الوليّ بهذا النوع من الخطاب بمنزلة الصاحب الذي سمع من لفظ رسول الله ﷺ ما شرع، ولذلك جاء في القرآن: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم هؤلاء الذين ذكرناهم، فرب حديث صحيح من طريق رواية الثقات عندنا ليس بصحيح في نفس الأمر، فنأخذه على طريق غلبة الظنّ لا على العلم، وهذه الطائفة التي ذكرناها تأخذه من هذا الطريق، فنكون من عدم صحة ذلك الخبر الصحيح عندنا على بصيرة أنه ليس بصحيح في نفس الأمر وبالعكس وهو أن يكون الحديث ضعيفاً من أجل ضعف الطريق من وضاع فيه أو مدلس، وهو في نفس الأمر صحيح، فتدرك هذه الطائفة صحته فتكون فيه على بصيرة، فهذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ وهم هؤلاء، فهم ورثة الأنبياء لاشتراكهم في الخبر وانفراد الأنبياء بالتشريع، قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فجاء بمن وهي نكرة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] فجاء بما ليس بشرع ولا حكم بل بإنذار، فقد يكون الوليّ بشيراً ونذيراً ولكن لا يكون مشرّعاً، فإن الرسالة والنبوّة بالتشريع قد انقطعت فلا رسول بعده ولا نبيّ أي لا مشرع ولا شريعة فاعلم ذلك. فلنرجع إلى ما بوّبنا عليه.

ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوةَ قَدِ انقَطَعَتْ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**»، قال: فشق ذلك على الناس فقال: لكن المبشرات، فقالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ فقال: رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوّة. هذا حديث حسن صحيح من حديث أنس بن مالك حدثنا به إمام المقام بالحرم المكي الشريف تجاه الركن اليماني الذي فيه الحجر الأسود سنة أربع وستمائة شيخنا مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني البزار وغيره عن أبي الفتح عبد الملك بن أبي القاسم بن أبي سهل الكرخي الهروي قال: أخبرني أبو عامر محمود بن القاسم الأزدي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقي وأبو بكر أحمد بن أبي حاتم الغورجي التاجر قالوا: أخبرنا محمد بن عبد الجبار الجراحي قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال: أخبرنا أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي قال: حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد، حدثنا المختار بن فلفل، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ وذكر هذا الحديث. قال: وفي الباب عن أبي هريرة وحذيفة وابن عباس وأم كرز فأخبر ﷺ أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوّة، فقد بقي للناس من النبوّة هذا وغيره، ومع هذا لا يطلق اسم النبوّة ولا النبي إلاّ على

المشرع خاصة، فحجر هذا الاسم لخصوص وصف معين في النبوّة، وما حجر النبوّة التي ليس فيها هذا الوصف الخاص وإن كان حجر الاسم فنتأدّب ونقف حيث وقف ﷺ بعد علمنا بما قال وما أطلق وما حجر فنكون على بيّنة من أمرنا، وإذا علمت هذا فلنقل أن الرؤيا ثلاث: منها بشرى وهي ما نحن بصدده في هذا الباب، ورؤيا ممّا يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيرتقم في خياله فإذا نام أدرك ذلك بالحسّ المشترك لأنه تصوّره في يقظته فبقي مرتسماً في خياله فإذا نام وانصرفت الحواس إلى خزانة الخيال أبصرت ذلك، وسيأتي علم ذلك كله وصورته. والرؤيا الثالثة من الشيطان.

وروينا في هذا حديثاً صحيحاً من حديث أبي عيسىٰ الترمذي قال: حدثنا نصر بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا المُؤْمِنِ تَكْذِب، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثاً، وَرُؤْيَا المُسْلِمِ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزءاً مِنَ النُّبُوَّة، وَالرؤيَا ثَلاثٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَىٰ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرُؤْيَا مِنْ تَخزِينِ الشَّيطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الرَّجُلُ بِهِ نَفْسَهُ، وَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ وَليَتْفُلْ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ**» الحديث وقال فيه: حديث صحيح. وفي حديث أبي قتادة عن رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثَ مَراتٍ وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لاَ تَضُرهُ**» وهو حديث حسن صحيح. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ رُؤْيَا المُسْلِمِ عَلَىٰ رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ**» فاعلم أن لله ملكاً موكلاً بالرؤيا يسمّى الروح وهو دون السماء الدنيا وبيده صور الأجساد التي يدرك النائم فيها نفسه وغيره، وصور ما يحدث من تلك الصور من الأكوان، فإذا نام الإنسان أو كان صاحب غيبة أو فناء أو قوّة إدراك لا يحجبه المحسوسات في يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور فيدرك هذا الشخص بقوّته في يقظته ما يدركه النائم في نومه، وذلك أن اللطيفة الإنسانية تنتقل بقواها من حضرة المحسوسات إلى حضرة الخيال المتصل بها الذي محله مقدم الدماغ، فيفيض عليها ذلك الروح الموكل بالصور من الخيال المنفصل عن الإذن الإلهي ما يشاء الحق أن يريه هذا النائم أو الغائب أو الفاني أو القوي من المعاني متجسدة في الصور التي بيد هذا الملك، فمنها ما يتعلق بالله وما يوصف به من الأسماء فيدرك الحق في صورة، أو القرآن أو العلم أو الرسول الذي هو على شرعه، فهنا يحدث للرائي ثلاث مراتب أو إحداهن: المرتبة الواحدة أن تكون الصورة المدركة راجعة للمرئي بالنظر إلى منزلة ما من منازله وصفاته التي ترجع إليه، فتلك رؤيا الأمر على ما هو عليه بما رجع إليه، والمرتبة الثانية أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى حال الرائي في نفسه، والمرتبة الثالثة أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى الحق المشروع والناموس الموضوع أي ناموس كان في تلك البقعة التي ترى تلك الصورة فيها في ولاة أمر ذلك الإقليم القائمين بناموسه، وما ثم مرتبة رابعة سوى ما ذكرناه.

فالأولى وهي رجوع الصورة إلى عين المرئي فهي حسنة كاملة ولا بدّ لا تتصف بشيء

من القبح والنقص، والمرتبتان الباقيتان قد تظهر الصورة فيهما بحسب الأحوال من الحسن والقبح والنقص والكمال، فلينظر إن كان من تلك الصورة خطاب فبحسب ما يكون الخطاب يكون حاله وبقدر ما يفهم منه في رؤياه، ولا يعول على التعبير في ذلك بعد الرجوع إلى عالم الحسّ إلاّ إن كان عالماً بالتعبير أو يسأل عالماً بذلك، ولينظر أيضاً حركته أعني حركة الرائي مع تلك الصورة من الأدب والاحترام أو غير ذلك، فإن حاله بحسب ما يصدر منه في معاملته لتلك الصورة فإنها صورة حق بكل وجه، وقد يشاهد الروح الذي بيده هذه الحضرة وقد لا يشاهده، وما عدا هذه الصورة فليست إلاّ من الشيطان إن كان فيه تحزين أو ممّا يحدث المرء به نفسه في حال يقظته، فلا يعول على ما يرى من ذلك، ومع هذا وكونها لا يعول عليها إذا عبرت كان لها حكم ولا بدّ يحدث لها ذلك من قوّة التعبير لا من نفسها، وهو أن الذي يعبرها لا يعبرها حتى يصورها في خياله من المتكلم، فقد انتقلت تلك الصورة عن المحل الذي كانت فيه حديث نفس أو تحزين شيطان إلى خيال العابر لها وما هي له حديث نفس، فيحكم على صورة محققة ارتسمت في ذاته فيظهر لها حكم أحدثه حصول تلك الصورة في نفس العابر كما جاء في قصة يوسف مع الرجلين وكانا قد كذبا فيما صوراه، فكان ممّا حدثا به أنفسهما فتخيلاه من غير رؤيا وهو أبعد في الأمر إذ لو كان رؤيا لكان أدخل في باب التعبير، فلما قصاه على يوسف حصل في خيال يوسف عليه السلام صورة من ذلك لم يكن يوسف حدث بذلك نفسه فصارت حقاً في حق يوسف، وكأنه هو الرائي الذي رأى تلك الرؤيا لذلك الرجل وقاما له مقام الملك الذي بيده صور الرؤيا، فلما عبر لهما رؤياهما قالا له: أردنا اختبارك وما رأينا شيئاً، فقال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤١] فخرج الأمر في الحسّ كما عبر.

ثم إن الله تعالىٰ إذا رأى أحد رؤيا فإن صاحبها له فيما رآه حظ من الخير والشر بحسب ما تقتضي رؤياه أو يكون الحظ في ناموس الوقت في ذلك الموضع، وأما في الصورة المرئية فلا، فيصور الله ذلك الحظ طائراً وهو ملك في صورة طائر كما يخلق من الأعمال صوراً ملكية روحانية جسدية برزخية، وإنما جعلها في صورة طائر لأنه يقال: طار له سهمه بكذا والطائر الحظ قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [سورة يس: الآية ١٩] أي حظكم ونصيبكم معكم من الخير والشرّ، وبجعل الرؤيا معلقة من رجل هذا الطائر وهي عين الطائر، ولما كان الطائر إذا اقتنص شيئاً من الصيد من الأرض إنما يأخذه برجله لأنه لا يد له وجناحه لا يتمكن له الأخذ به فلذلك علّق الرؤيا برجله فهي المعلقة وهي عين الطائر، فإذا عبرت سقطت لما قيلت له وعندما تسقط ينعدم الطائر لأنه عين الرؤيا فينعدم بسقوطها ويتصوّر في عالم الحسّ بحسب الحال التي تخرج عليه تلك الرؤيا فترجع صورة الرؤيا عين الحال لا غير فتلك الحال إما عرض أو جوهر أو نسبة من ولاية أو غيرها هي عين صورة تلك الرؤيا وذلك الطائر، ومنه خلقت هذه الحالة ولا بدّ سواء كانت جسماً أو عرضاً أو نسبة أعني تلك الصورة كما خلق آدم من تراب ونحن من ماء مهين، حتى إذا دلّت الرؤيا على وجود ولد فذلك الولد مخلوق من

عين تلك الرؤيا ماء في صلب أبيه، وإن كان الماء قد نزل في الرحم تصورت فيه تلك الرؤيا ولداً فهو ولد رؤيا، وإن لم تتقدم له رؤيا فهو على أصل نشأته كما هو سائر الأولاد. فاعلم ذلك فإنه سرّ عجيب وكشف صحيح، وكل ولد يكون عن رؤيا ترى له تمييزاً على غيره، ويكون أقرب إلى الأرواح من غيره إن جعلت بالك هكذا تبصره، وكل مخلوق من حالة أو عرض أو نسبة من ولاية أو غيرها يكون عن رؤيا يكون له ميّز على من ليس عن رؤيا، وانظر ذلك في رؤيا آمنة أم رسول الله ﷺ يبد لك صحة ما ذكرناه، فكان ﷺ عين رؤيا أمّه ظهرت في ماء أبيه بتلك الصورة التي رأته أمه، ولذلك كثرت المرائي فيه ﷺ فتميز عن غيره، ولا يعرف ما قلناه إلاّ أهل العلم بصورة الكشف وهو من أسرار الله في خلقه.

وإن أردت تأنيساً لما ذكرناه فانظر في علم الطبيعة إذا توحمت المرأة وهي حامل على شيء خرج الولد يشبه ذلك الشيء، وإذا نظرت عند الجماع أو تخيّل الرجل صورة عند الوقاع وإنزال الماء يكون الولد على خلق صورة ما تخيّل، ولذلك كانت الحكماء تأمر بتصوير صور الفضلاء من أكابر الحكماء في الأماكن بحيث تنظر إلى تلك الصورة المرأة عند الجماع والرجل فتنطبع في الخيال فتؤثر في الطبيعة فتخرج تلك القوّة التي كانت عليها تلك الصورة في الولد الذي يكون من ذلك الماء وهو سرّ عجيب في علم الطبيعة. وانظر في تكوين عيسىٰ عليه السلام عن مشاهدة مريم جبريل في صورة بشر كيف جمع بين كونه روحاً يحيي الموتى وبين كونه بشراً إذا كان الروح به تحيا الأجسام الطبيعية، وأقوى من ذلك ما فعله السامريّ من قبضه أثر جبريل لما علم أن الروح تصحبه الحياة حيث حلّ فرمى ما قبضه في العجل فخار العجل بذلك الأثر المقبوض من وطء الروح، ولو رماه في شكل فرس لصهل أو في شكل إنسان نطق، فإن الاستعداد لما ظهر بالحياة إنما كان للقابل، ومن هنا تعرف صورة الظاهر في المظاهر، وأن المظاهر تعطى باستعدادها في الظاهر فيها ما يظهر به من الصور الحاملة والمحمولة، ولهذا أظهر الله هذه الحكمة لتقف من ذلك على ما هو الأمر عليه، ثم إن تسمية النبي ﷺ لها بشرى ومبشرة لتأثيرها في بشرة الإنسان، فإن الصورة البشرية تتغير بما يرد عليها في باطنها ممّا تتخيله من صورة تبصرها أو كلمة تسمعها إما بحزن أو فرح، فيظهر لذلك أثر في البشرة لا بدّ من ذلك فإنه حكم طبيعي أودعه الله في الطبيعة فلا يكون إلاّ هكذا.

تكملة: للرؤيا مكان ومحل وحال، فحالها النوم وهو الغيبة عن المحسوسات الظاهرة الموجبة للراحة لأجل التعب الذي كانت عليه هذه النشأة في حال اليقظة من الحركة وإن كان في هواها قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٩] يقول: وجعلنا النوم لكم راحة تستريح به النفوس وهو على قسمين: قسم انتقال وفيه بعض راحة أو نيل غرض أو زيادة تعب، والقسم الآخر قسم راحة خاصة وهو النوم الخالص الصحيح الذي ذكر الله أنه جعله راحة لما تعبت فيه هذه الآلات والجوارح والأعضاء البدنية في حال اليقظة، وجعل زمانه الليل وإن وقع بالنهار، كما جعل النهار للمعاش وإن وقع بالليل ولكن الحكم للغالب. فأما قسم الانتقال فهو النوم الذي يكون معه الرؤيا فتنتقل هذه الآلات من ظاهر الحسّ إلى باطنه

لبرى ما تقرر في خزانة الخيال الذي رفعت إليه الحواس ما أخذته من المحسوسات وما صورته القوّة المصورة التي هي من بعض خدم هذه الخزانة لترى هذه النفس الناطقة التي ملكها الله هذه المدينة ما استقرّ في خزانتها كما جرت العادة في الملوك إذا دخلوا خزائنهم في أوقات خلواتهم ليطلعوا على ما فيها وعلى قدر ما كمل لهذه النشأة من الآلات التي هي الجوارح والخدام الذين هم القوىٰ الحسيّة يكون الاختزان، فثم خزانة كاملة لكمال الحياة، وثم خزانة ناقصة كالأكمة فإنه لا ينتقل إلى خزانة خياله صور الألوان، والخرس لا ينتقل إلى خزانة الخيال صور الأصوات ولا الحروف اللفظية، هذا كله إذا عدمها في أصل نشأته. وأما إذا طرأت عليه هذه الآفات فلا فإنه إذا انتقل بالنوم إلى باطن النشأة ودخل الخزانة وجد صور الألوان التي اختزنها فيها قبل طرق الآفة، وكذلك كل ما أعطته قوّة من قوى الحسّ الذين هم جباة هذه المملكة، ولله تجلّ في هذه الخزانة في صورة طبيعية بصفات طبيعية مثل قوله ﷺ: «**رَأَيْتُ رَبِّي فِي صُورَةِ شَابٍّ**» وهو ما يراه النائم في نومه من المعاني في صور المحسوسات لأن الخيال هذه حقيقته أن يجسد ما ليس من شأنه أن يكون جسداً وذلك لأن حضرته تعطي ذلك، وما ثم في طبقات العالم من يعطي الأمر على ما هو عليه سوى هذه الحضرة الخيالية فإنها تجمع بين النقيضين، وفيها تظهر الحقائق على ما هي عليه، لأن الحق في الأمور أن تقول في كل أمر تراه أو تدركه بأي قوّة كان الإدراك أن ذلك الذي أدركته هو لا هو كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فلا تشك في حال الرؤيا في الصورة التي تراها أنها عين ما قيل لك أنه هو، وما تشك في التعبير إذا استيقظت أنه ليس هو، ولا تشك في النظر الصحيح أن الأمر هو لا هو، قيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدّين، فكل عين متصفة بالوجود فهي لا هي، فالعالم كله هو لا هو، والحق الظاهر بالصورة هو لا هو، فهو المحدود الذي لا يحدّ، والمرئيّ الذي لا يرى، وما ظهر هذا الأمر إلاّ في هذه الحضرة الخيالية في حال النوم أو الغيبوبة عن ظاهر المحسوسات بأيّ نوع كان وهي في النوم أتمّ وجوداً وأعمه لأنه للعارفين والعامة، وحال الغيبة والفناء والمحو وشبه ذلك ما عدا النوم لا يكون للعامة في الإلهيات، فما أوجد الله شيئاً من الكون على صورة الأمر على ما هو عليه في نفسه إلاّ هذه الحضرة فلها الحكم العامّ في الطرفين كما للممكن قبول النقيضين فيكون له ذلك ذوقاً، فإن الذي يستحيل عليه العدم وإن كان له العلم بالعدم لا يكون علمه ذاتياً وهو الذي يسمّى ذوقاً بخلاف الممكن فإنّ العدم له ذوق، والذي يستحيل عليه الوجود والعلم به لا ذوق له في الوجود رأساً والممكن له في الوجود ذوق، فأوجد الله هذه الحضرة الخيالية ليظهر فيها الأمر الذي هو الأصل على ما هو عليه.

فاعلم أن الظاهر في المظاهر مظاهر الأعيان هو الوجود الحق وأنه ما هو لما ظهر به من الأشكال والنعوت التي أعيان الممكنات عليها، وجعل هذه الحضرة كالجسر بين الشطين للعبور عليه من هذا الشط إلى هذا الشط، فجعل النوم معبراً وجعل المشي عليه عبوراً قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٣] وجعل إدراك ذلك في حالة تسمّى

راحة وهي النوم من حقيقة قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] فأضاف العمل إليه وذكر في الخلق أنه بيديه وبأيد وبيده وبقوله، ثم أعلمنا أنه وإن اتصف بالعمل أنه لم يؤثر فيه تعب فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٨] وقال: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٣٣] فمن هذه الحقيقة ظهرت الأعمال العظيمة المحرجة المتعبة في النوم الذي هو راحة البدن أي الطبيعة مستريحة في هذه الحال من الحركات الحسية الظاهرة، فهذا هو العمل العظيم في راحة من حيث لا يشعر أنه في راحة، ولا سيما إذا رأى في النوم أموراً هائلة مفزعة، فإذا استيقظ وجد الراحة فعلم أنه كان في راحة من حيث لا يشعر، ومنهم من يعلم في النوم أنه في النوم، والناس فيه على طبقات، وإنما سمينا هذه الحالة بانتقال لأنّ المعاني تنتقل من تجريدها عن الموادّ إلى لباس الموادّ، كظهور الحق في صور الأجسام والعلم في صورة اللبن وما أشبه ذلك.

والانتقال الثاني انتقال الحواس من الظاهر المحسوس إلى هذه الحضرة بالظاهر المحسوس، ولكن له في هذه الحضرة ثبوته الذي له في حضرة اليقظة فإنه سريع التبدّل في هذه الحضرة، كما يتبدّل في اليقظة في صور مختلفة في باطنه لا في ظاهره، فباطنه في اليقظة هي هذه الحضرة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٧] لها فإنّ الليل لا يعطي للناظر في نظرة سوى نفسه فهو يدرك ولا يدرك به فإنه غيب وظلمة، والغيب والظلمة يدركان ولا يدرك بهما، والضوء يدرك ويدرك به وهو حال اليقظة، فلهذا تعبر الرؤيا ولا يعبر ما أدركه الحسّ، فإذا ارتقى الإنسان في درج المعرفة علم أنه نائم في حال اليقظة المعهودة وأن الأمر الذي هو فيه رؤيا إيماناً وكشفاً، ولهذا ذكر الله أموراً واقعة في ظاهر الحسّ وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [سورة آل عمران الآية ١٣] أي جوزوا واعبروا ممّا ظهر لكم من ذلك إلى علم ما بطن به وما جاء له، قال عليه السلام: **«النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ»** ولهذا قلنا إيماناً. وقد ذكرنا هذا المقام مستوفى في باب المعرفة من هذا الكتاب وقد تقدم وهو الباب السابع والسبعون ومائة، فالوجود كله نوم ويقظته نوم، فالوجود كله راحة والراحة رحمة فوسعت كل شيء فإليها المآل تقول الملائكة لله: وسعت كل شيء رحمة وعلماً، وهنا سرّ ان بحثت عليه انتهيت إليه وهو رحمته بالأسماء الحسنى في ظهور آثارها، فمنتهى علمه منتهى رحمته.

ثم أرجع وأقول: وإن حصل في الطريق تعب فهو تعب في راحة كالأجير يحمل التعب أو يستلذه لما يكون في نفسه من راحة الأجرة التي لأجل حصولها عمل فيحجبه عن التعب وجود راحة الأجرة فإذا قبضها دخل في راحة النوم بالليل فركدت جوارحه عن الحركة فوجد الراحة فانتقل من راحة الأجرة إلى راحة النوم، فعلى التحقيق أن صور العالم للحق من الاسم الباطن صور الرؤيا للنائم والتعبير فيها كون تلك الصور أحواله فليس غيره، كما أن صور الرؤيا أحوال الرائي لا غيره فما رأى إلاّ نفسه فهذا هو قوله أنه ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الروم: الآية ٨] وهو عينه وهو قوله في حق العارفين: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: الآية ٢٥] أي الظاهر فهو الواحد الكثير، فمن اعتبر الرؤيا يرى أمراً هائلاً ويتبين له ما لا يدركه من غير هذا الوجه ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أصبح في أصحابه سألهم: هل رأى أحد منكم رؤيا، لأنها نبوّة فكان يحب أن يشهدها في أمته، والناس اليوم في غاية الجهل بهذه المرتبة التي كان رسول الله ﷺ يعتني بها ويسأل كل يوم عنها، والجهلاء في هذا الزمان إذا سمعوا بأمر وقع في النوم لم يرفعوا به رأساً وقالوا: بالمنامات يريد أن يحكم، هذا خيال وما هي إلاّ رؤيا، فيستهونوا بالرائي إذا اعتمد عليها، وهذا كله لجهله بمقامها وجهله بأنه في يقظته وتصرّفه في رؤيا وفي منامه في رؤيا، فهو كمن يرى أنه استيقظ في نومه وهو في منامه وهو قوله عليه السلام: «النَّاسُ نِيَامٌ» فما أعجب الأخبار النبوية لقد أبانت عن الحقائق على ما هي عليه وعظمت ما استهونه العقل القاصر فإنه ما صدر إلاّ من عظيم وهو الحق، فهذا معنى قولنا في التقسيم: إنه قسم الانتقال.

وأما القسم الآخر من النوم فهو قسم الراحة وهو النوم الذي لا يرى فيه رؤيا فهو لمجرّد الراحة البدنية لا غير فهذا هو حال الرؤيا، وبقي معرفة المكان والمحل، فأما المحل فهو هذه النشأة العنصرية لا يكون للرؤيا محل غيرها فليس للملك رؤيا وإنما ذلك للنشأة العنصرية الحيوانية خاصة، ومحلها في العلم الإلهيّ الاستحالات في صور التجلي، فكل ما نحن فيه رؤيا الحق في راحة ارتفاع الإعياء والتعب لا غير. وأما المكان فهو ما تحت مقعر فلك القمر خاصة، وفي الآخرة ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة، وذلك لأنّ النوم قد يكون في جهنم في أوقات ولا سيما في المؤمنين من أهل الكبائر وما فوق فلك الكواكب فلا نوم وأعني به هذا النوم الكائن المعروف في العرف. وأما الذي ذهبنا إليه أوّلاً في معرفة حال النوم فذلك أمر آخر قد بيّناه وصورة مكانه هكذا فانظر إلى ما صوّرناه في الهامش وهو هذا.[1] هذا صورة مكان الرؤيا وهو يشبه بالقرن وهو الصور: أعلاه واسع وأسفله ضيق مقلوب النشء فإن الذي يلي الرأس منه هو الأعلى وهو الأوسع، والذي هو الأضيق منه هو الأسفل وهو الذي بعد عن الأصل فذلك القرن مكان الرؤيا، فإذا خرج عن هذا الصور خرج عن مكان الرؤيا المعلومة في العرف، فلا يرى بعد هذا رؤيا لأنه لا تقوم به صفة نوم فهو في راحة الأبد، وهذا القدر كاف فيما نرومه من التعريف بمقام الرؤيا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. والذي سكتنا عنه عظيم لأنّ الفكر يعجز عن تصوّره من أكثر الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٦] كما أن ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وإلى العلم يرجع الفقه والعقل في قوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٩] ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٢].

انتهى الجزء الثامن عشر ومائة.

---

(١) لم نجد بالهامش الصورة التي أشار إليها.

(الجزء التاسع عشر ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

أبواب الأحوال

الباب التاسع والثمانون ومائة

في السالك والسلوك

[نظم: الكامل]

إن السُّلوكَ هو الطريقُ الأقْوَمُ — فإذا اسْتَقَمْتَ فأنتَ فيه السَّالِكُ
اشتُقَّ من سِلْكِ اللآلي لَفْظُهُ — فحُسَامُه عَضْبُ المَضارب بَاتِكُ
لا تَمنَعَنْكَ عن السلوك مَضَايِقٌ — من خَلْفِهِنَّ أرائِكٌ ودَرَانِكُ
لا تسْلُكَنَّ لغايةٍ ونهايةٍ — طُرُقَ المُحَال بمُثْبِتِيها فَاتِكُ

اعلم وفّقك الله أن السلوك انتقال من منزل عبادة إلى منزل عبادة بالمعنى، وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريق القربة إلى الله إلى عمل مشروع بطريق القربة إلى الله بفعل وترك، فمن فعل إلى فعل، أو من ترك إلى ترك، أو من فعل إلى ترك، أو من ترك إلى فعل، وما ثم خامس للصورة وانتقال بالعلم من مقام إلى مقام، ومن اسم إلى اسم، ومن تجلّ إلى تجلّ، ومن نفس إلى نفس، والمنتقل هو السالك وهو صاحب مجاهدات بدنية ورياضات نفسية قد أخذ نفسه بتهذيب الأخلاق، وحكم على طبيعته بالقدر الذي يحتاج إليه من الغذاء الذي يكون به قوام مزاجها واعتدالها ولا يلتفت إلى جوع العادة والراحة المعتادة فإن الله ما كلف نفساً إلاّ وسعها، فإذا بذلت الوسع في طاعة الله لم يقم عليها حجة، غير أن السالكين في سلوكهم على أربعة أقسام: منهم سالك يسلك بربه، وسالك يسلك بنفسه، وسالك يسلك بالمجموع، وسالك لا سالك، فيتنوّع السلوك بحسب قصد السالك ورتبته في العلم بالله.

فأما السالك الذي يسلك بربه فهو الذي يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه فإن عينه ثابتة، ولهذا أعاد الضمير عليه لوجوده في قوله: «كنت سمعه» فهذه الهاء هي عينك الذي الحق سمعها وبصرها وما سلكت إلاّ بهذه القوىٰ، وهذه القوىٰ قد أخبر الحق أنه لما أحبك كان سمعك وبصرك فهو قواك فبه سلكت في طاعته التي أمرك بأن تعمل نفسك فيها وتحلّي ذاتك بها. وهي زينة الله وهو سبحانه الجميل والزينة جمال فهو جمال هذا السالك فزينته ربه فبه يسمع وبه يبصر وبه يسلك ولا مانع من ذلك، ولهذا قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٢] لما أحبهم حين تقربوا إليه بنوافل الخيرات زيّنهم به فكان

قواهم التي سلكوا بها ما كلفهم من الأعمال وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وهي كلمة تطلبها المجازاة فاستعانوا بالله على عبادته بأن كان قواهم كما أنه بوجود أعيانهم، وإن كان وجودهم قد استفادوه منه لم يتمكن خلق الأعمال التي هي محاب الله إلاّ في وجود أعيانهم، فحصل لديهم ضرب من الإعانة على إيجاد الأعمال التي لا تقوم بنفسها، فلما عملوا بها وما زالوا يطلبون الاستعانة منه على ذلك جزاء وفاقاً أعانهم بنفسه بأن قال لهم: بي تسمعون وتبصرون وتبطشون، وغير ذلك من القوىٰ التي هم عليها ليست غير الحق بإخبار الحق، والناس في عماية لا يعرفون من هذه صورته، فكثيراً ما يسيئون الأدب على من هذه صفته، فتكون إساءة ذلك الأدب مع الله، فالاحتياط تعظيم عباد الله، فإنه ما من شخص إلاّ ويمكن أن يكون هو ذلك العبد، فإن الأمر غيب ما هو بمحسوس حتى يتميز إلاّ عند أهله، فوجب مراعاة كل مؤمن على كل مكلف، فإنه إذا فعل ذلك أحرز الأمر واستبرأ لنفسه ولا يقال له: لم فعلت كذا؟ فإنه قصد جميل، فإن وافق محله وإلاّ فقد وفى الأمر حقّه لقصده احترام الجناب الإلهيّ لما دخل في المسألة من الإمكان لكل شخص شخص، وهذا لا يكون إلاّ للأدباء من أهل الله.

والقسم الآخر: السالك بنفسه وهو المتقرب إلى ربّه ابتداء بالفرائض ونوافل الخيرات الموجبين لمحبة الحق من أتى بهما لتحصيل المحبتين فهو يجهد فيما كلفه الحق ويبذل استطاعته وقوّته فيما أمره به ربه ونهاه من عبادة ربه في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] وإن كانوا قد سمعوا هذا الخبر الإلهي واعتقدوه إيماناً به ولكن ما حصل لهم هذا ذوقاً فيكون الحق قواهم، فهم سالكون بنفوسهم في جميع مراتب السلوك من حال وعمل ومقام واسم وتجلٍ، وما يصحّ فيه الانتقال من أمر إلى أمر، وهذا هو سلوك الأدباء من أهل الله، وذلك أن الله كلّف عباده فعلموا أن ثم حقيقة تقتضي أن تكون المخاطبة بالتكليف وما ثم إلاّ هم فيعلمون أنهم المرادون، وإن لم يتعين عندهم بأيّ حقيقة توجه عليهم الخطاب فيسلكون بنفوسهم في العموم مع علمهم بأن الأمر لا بدّ فيه من نسبة خاصة أو عين موجودة تستحق التكليف، فيبذلون المجهود ويوفون بالعقود وإن جهلوا المقصود إلى أن يفتح الله لهم كما فتح لمن سلك بربه.

وأما السالك بالمجموع فهو السالك بعد أن ذاق كون الحق سمعه وبصره وعلم سلوكه أوّلاً بنفسه على الجملة من غير شهود نفسه على التعيين، فلما علم أن الحق سمعه وعلم أن السامع بالسمع ما هو عين السمع ورأى ثبوت هذا الضمير وعاين على من عاد فعلم أن نفسه وعينه هي السميعة بالله والناظرة بالله والمتحركة بالله والساكنة بالله، وأنها المخاطبة بالسلوك والانتقال فسلك بالمجموع.

وأما القسم الرابع وهو سالك لا سالك فهو أنه رأى نفسه لم تستقل بالسلوك ما لم يكن الحق صفة لها، ولا تستقل الصفة بالسلوك ما لم تكن نفس المكلف موجودة ويكون كالمحل

لها فيبدو له أنه سالك بالمجموع، فإذا تبين له أن بالمجموع ظهر السلوك بأن له أن المظهر لا وجود له عيناً وأن الظاهر تقيد بحكم استعداد المظهر ورأى الحق يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وكذلك لو قال: وما رمى لصحّ كما صحّ في الطرف الأوّل. فمن وقف على هذا العلم من نفسه علم أنه سالك لا سالك.

ثم اعلم أن السالكين الذين ذكرناهم على مراتب، فمنهم السالك منه إليه، ومنهم السالك منه إليه فيه، ومنهم السالك منه إليه فيه به، ومنهم السالك منه لا فيه ولا إليه، ومنهم السالك إليه لا منه ولا فيه، ومنهم السالك لا منه ولا إليه ولا فيه وهو موصوف بالسلوك وبأنه سالك، ومنهم السالك من غير سفر، ومنهم السالك المسافر وهو في الباب الذي يلي هذا الباب، فكل مسافر سالك وما كل سالك مسافر كما سنذكره إن شاء الله بعد هذا الباب في باب المسافر. وأنواع السلوك كثيرة وما ذكرنا منها إلاّ القليل، فأمّا السالك منه إليه فهو المنتقل من تجلّ إلى تجلّ. وأما السالك إليه منه فيه فهو السالك من اسم إلهيّ إلى اسم إلهيّ في اسم إلهيّ. وأما السالك منه إليه فيه به فهو السالك من اسم إلهيّ من اسم إلى اسم في اسم. وأما السالك منه لا فيه ولا إليه فهو الذي خرج من عند الله في الكون إلى الكون. وأما السالك إليه لا منه ولا فيه فهو الفار إليه في الكون من الكون كفرار موسىٰ عليه السلام. وأما السالك لا منه ولا فيه ولا إليه فهو المنتقل في الأعمال الصالحة من الدنيا إلى الآخرة وهم الزهاد غير العارفين، وكلما ذكرناه قد يكون على التقسيم الذي تقدّم في حرف الباء من أنه سلك بربه أو بنفسه إلى نهاية التقسيم فيه. وللسلوك مراتب وأسرار يطول النظر فيها ويخرجنا عن المقصود في هذا الكتاب من الاقتصاد والاقتصار على الضروري من العلم الذي يحتاج إليه أهل طريق الله أن يبينه لهم من فتح عليه به من أمثالنا، وهذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وأبوابه ما استوفينا فيه خاطراً واحداً من خواطرنا في الطريق فكيف الطريق؟ ولا أخللنا بشيء من الأصول التي يعوّل عليها في الطريق فحصرناها مختصرة العبارة بين إيماء وإيضاح.

الباب التسعون ومائة

في معرفة المسافر وهو الذي أسفر له سلوكه عن أمور مقصودة له وغير مقصودة وهو مسافر بالفكر والعمل والاعتقاد

[نظم: الطويل]

إلـى أيـنَ أو مِـنْ أيـنَ أنـتَ مُسَـافِـرُ ... وذاك لَـعَـمْـر الله أمـرٌ يُـنَـافِـرُ

قَـضِـيَّـةَ مـعـقـولِ الـدَّلـيـل وشَـرْعِـهِ ... فَـلا تَـكُ مـمَّـنْ لـلإلـه يُـسَـافِـرُ

ولا تُـخْـلـهِ مِـن كـلِّ كَـوْنٍ فـإنـه ... هـو الـعـيـنُ إلاَّ أنـه الـعَـبْـدُ حَـائِـرُ

فـفـيـه فَـسَـافِـرْ لا إلـيـه ولا تـكُـنْ ... جـهـولاً فـكَـمْ عَـقْـلٍ عـلـيـه يُـثَـابِـرُ

اعلم أيّدك الله أن المسافر في طريق الله رجلان: مسافر بفكره في المعقولات والاعتبارات، ومسافر بالأعمال وهم أصحاب اليعملات. فمن أسفر له طريقه عن شيء فهو

مسافر ويجب عليه قصر الصلاة على الله وهو مخيّر في الصوم، ومن لم يسفر له طريقه عن شيء فهو سالك متصرّف في طرق مدينته وشوارعها غير مسافر فليصم وليتم صلاته. فلنذكر حالة المسافر في الطريق والله المؤيّد والموفق إن شاء الله.

المسافر من سافر بفكره في طلب الآيات والدلالات على وجود صانعه فلم يجد في سفره دليلاً على ذلك سوى إمكانه، ومعنى إمكانه هو أن ينسب إليه وإلى جميع العالم الوجود فيقبله أو العدم فيقبله، فإذا تساوى في حقّه الأمران لم تكن نسبة الوجود إليه من حيث ذاته بأولى من نسبة العدم، فافتقر إلى وجود المرجح الذي رجح له أحد الوصفين على الآخر، فلما وصل إلى هذا المنزل وقطع هذه المنهلة وأسفرت له عن وجود مرجحه أحدث سفراً آخر في علم ما ينبغي لهذا الصانع الذي أوجده فأسفر له الدليل على انفراده بصفات التنزيه تنزيه ما هو عليه هذا الممكن من الافتقار، وأن هذا المرجح واجب الوجود لنفسه لا يجوز عليه ما جاز على هذا الممكن، ثم انتقل مسافراً إلى منزلة أخرى فأسفر له عن أن هذا الواجب الوجود لنفسه يستحيل عليه العدم لثبوت قدمه، وأنه من ثبت قدمه استحال عدمه لأنه لو كان عدمه لنفسه لما كان واجب الوجود لنفسه، ولو انعدم بمعدم فلا بدّ أن يكون ذلك المعدم له وجوداً أو عدماً محال أن يكون عدماً فبقي أن يكون وجوداً، وإذا كان وجوداً فلا بدّ أن يكون المعدم شرطاً أو ضداً، وأنّ كل واحد من هذين إمّا أن يكون واجب الوجود أيضاً لنفسه فمن المحال وجود هذا الذي دلّ الدليل على وجوب وجوده لنفسه، ثم يساق الدليل على مساق الأدلة في المعقولات، ثم يسافر في منزلة أخرى إلى أن ينفي عنه كل ما يدل على حدوثه، فيحيل أن يكون هذا المرجح جوهراً متحيزاً أو جسماً أو عرضاً أو في جهة، ثم يسافر في علم توحيده بوجود العالم وبقائه وصلاحه، إذ لو كان معه إله آخر لم يوجد العالم على تقدير الاتفاق والاختلاف كما يعطيه النظر، ثم ينتقل مسافراً أيضاً إلى منزلة تعطيه العلم بما يجب لهذا المرجح من العلم بما أوجده وخلقه، والإرادة لذلك ونفوذها وعدم قصورها وعموم تعلّق قدرته بإيجاد هذا الممكن وحياة هذا المرجح لأنها الشرط في ثبوت هذه النعوت له وإثبات صفات الكمال من الكلام والسمع والبصر بأنه لو لم يكن على ذلك لكان مؤوفاً لأنّ القابل لأحد الضدين إذا عرى عن أحدهما لم يعر عن الآخر، فإذا عرف هذا سافر إلى منزلة أخرى يعلم منها وتسفر له عن إمكان بعثة الرسل ثم يسافر فيعلم أنه قد بعث رسلاً وأقام لهم الدلالة على صدقهم فيما ادعوه من أنه بعثهم، ولما تقرّر هذا وكان هو ممّن بعث إليه هذا الرسول فآمن به وصدقه واتبعه فيما رسم له حتى أحبه الله فكشف له عن قلبه وطالع عجائب الملكوت وانتقش في جوهر نفسه جميع ما في العالم وفرّ إلى الله مسافراً من كل ما يبعده منه ويحجبه عنه إلى أن رآه في كل شيء، فلما رآه في كل شيء أراد أن يلقي عصا التسيار ويزيل عنه اسم المسافر فعرّفه ربه أن الأمر لا نهاية له لا دنيا لا آخرة، وأنك لا تزال مسافراً كما أنت على ذلك لا يستقرّ بك قرار كما لم تزل تسافر من وجود إلى وجود في أطوار العالم إلى حضرة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] ثم لم تزل تنتقل من منزلة إلى منزلة إلى أن نزلت في

هذا الجسم الغريب العنصريّ فسافرت به كل يوم وليلة تقطع منازل من عمرك إلى منزلة تسمّى الموت، ثم لا تزال مسافراً تقطع منازل البرازخ إلى أن تنتهي إلى منزلة تسمّى البعث فتركب مركباً شريفاً يحملك إلى دار سعادتك، فلا تزال فيها تتردد مسافراً بينها وبين كثيب المسك الأبيض إلى ما لا نهاية له. هذا سفرك بهيكلك وأمّا في المعارف فمثل ذلك وكذلك لا تزال مسافراً بالأعمال البدنية والأنفاس من عمل إلى عمل ما دام التكليف، فإذا انتهت مدة التكليف فلا تزال مسافراً سفراً ذاتياً تعبده لذاته لا بأمره ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] فسافر به ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وقد ذكرنا هذا السفر في جزء لنا سميناه الإسفار عن نتائج الأسفار، وقال تعالى في المسافرين: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ [سورة الروم: الآية ٩] ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [سورة النور: الآية ٦٤] فهذا معنى المسافر.

الباب الحادي والتسعون ومائة
في معرفة السفر والطريق وهو توجه القلب إلى الله
بالذكر عن مراسم الشرع بالعزائم لا بالرخص ما دام مسافراً

[نظم: البسيط]

تَـوَجُّـهُ الـقـلـب بـالأذكـار مـرتـحـلاً ... عـلـى مـراسـمِ ديـنِ الله عُـنْـوَانُ
علـى التَّحَقُّـقِ إن القـلـب في سَفَرٍ ... عـزمـاً وفـيـه دلالاتٌ وبُـرْهـانُ
وكـلُّ مُـتَّـصـفٍ بـالسَّـيْـر راحَـتُـه ... مَـعْـدومةُ الـعـينِ والأَحْـوالُ سُـلْـطَانُ
الـربُّ يـنـزلُ مـن عَـرْشٍ إلـى فَـلَـكٍ ... أدنـى أتـاكَ بـه وَحْـيٌ وفُـرْقَـانُ
إلـيـكَ وحـدكَ دونَ الـخَـلْـقِ كُـلِّـهِـم ... وفـي تَـنَـزُّلِـهِ لـلـكـون تِـبْـيَـانُ
عـلـى مـحـبَّـتـه فـيـنـا وصـورتُـهُ ... تـدعـوه مـنّـي فـلا يَـحْـجُـبْـكَ إنـسـانُ
وأنـتَ حـقٌّ وذاك الـحـقُّ أَنْـزَلَـه ... فـي مـظْـهَـر قَـيَّـدَتْـهُ فـيـه أَرْكَـانُ

اعلم أيّدك الله أن السفر حال المسافر والطريق هو ما يمشي فيه ويقطعه بالمعاملات والمقامات والأحوال والمعارف، لأنّ في المعارف والأحوال الأسفار عن أخلاق المسافرين ومراتب العالم ومنازل الأسماء والحقائق، ولهذا استحقت هذا اللقب، وقد مشى الكلام في السالك والسلوك بما قد وقفت عليه، والإنسان لما كان مجموع العالم ونسخة الحضرة الإلهية التي هي ذات وصفات وأفعال احتاج إلى مطرق يطرق له السلوك عليها والسفر فيها ليرى العجائب ويقتني العلوم والأسرار فإنه سفر تجارة فكان المطرق الشارع والطريق المطرقة الشريعة، فمن سافر في هذه الطريق وصل إلى الحقيقة، فثم سفر بحق وسفر بخلق، فالسفر بالحق على نوعين: سفر ذات وسفر صفة، والإنسان الكامل يسافر هذه الأسفار كلها، فيسافر بربه عن كشف إلهيّ ومعية محققة يكون فيها مع الحق كما هو الحق معنا أينما كنا، وقد عين سبحانه لنفسه أماكن كما يليق بجلال ووصف نفسه بتردّده فيها، فإذا كان العبد معه سافر بسفره فيسفر له أنه هو كما أسفر له أنه ليس هو، فالسفر الرباني من العماء إلى العرش فيظهر

في العرش بالاسم الرحمن، ثم ينزل معه بالاسم الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا، ثم ينزل بالاسم الإله إلى الأرض، ثم يصحبه بالهوية مع كل واحد من الكون، ثم يسافر معه بالصحبة في سفر الكون، ثم يتخلف معه بالخلافة في الأهل، ثم يسافر صحبة القرآن في سفره من كونه صفة الله إلى السماء الدنيا، ثم يصحبه في سفره ثلاثاً وعشرين سنة، ثم يصحب الأسماء الإلهية في سفرها في الكون، ثم يصحبه الكون في سفره من العدم إلى الوجود، ثم يصحب الأنبياء في سفرهم، فيصحب آدم في سفره من الجنة إلى الأرض، ثم يصحبه في سفره في سبعمائة عمرة وثلاثمائة حجة، ثم يصحب إدريس في سفره إلى المكان العلي، ثم يصحب نوحاً في سفره في سفينة نجاته إلى الجودي، ثم يصحب إبراهيم عليه السلام في جميع أسفاره، وكذلك كل نبي وملك كأسفار جبريل إلى كل نبي ورسول، وكسفر ميكائيل والملائكة بالعروج والنزول وسفر السياحين منهم، وسفر الكواكب في سيرها، وسفر الأفلاك في حركاتها، وسفر العناصر في استحالاتها، وسفر التجلي في صوره إلى أن يقف على حقائق هذا كله ذوقاً من نفسه لا يرتاب ولا يشك ويجرد من ذاته في كل سفر ما يناسب صاحب ذلك السفر من حق وخلق، فهذا هو سفر العارفين وطرق العلماء بالله الراسخين.

الباب الثاني والتسعون ومائة

في معرفة الحال

[نظم: البسيط]

الحال ما يَهَبُ الرحمنُ من مِنَحٍ ... عنايةٌ منه لا كَسْبٌ ولا طَلَبُ

تَغَيُّرُ الوصف برهانٌ عليه فكنْ ... على ثَبَاتٍ فإنّ الحالَ تَنْقَلِبُ

ولا تقولَنَّ إن الحالَ دائمةٌ ... فإن قوماً إلى ما قُلْتَه ذَهَبُوا

أبو عُقَالٍ إمامٌ سيدٌ سَنَدٌ ... في الحالِ كان له في حاله عَجَبُ

دامَتْ عليه إلى وقتِ البُدور منَ الـ ... ـمئينَ أيامُها ما أُسْدِلَتْ حُجُبُ

وزاد مِيْقَات موسىٰ في إقامته ... على المئين كذا جاءت به الكتبُ

الحال عند الطائفة ما يرد على القلب من غير تعمّل ولا اجتلاب فتتغير صفات صاحبه له واختلف في دوامه، فمنهم من قال بدوامه، ومنهم من منع دوامه وأنه لا بقاء له سوى زمان وجوده كالعرض عند المتكلمين ثم يعقبه الأمثال فيتخيل أنه دائم وليس كذلك وهو الصحيح لكنه يتوالى من غير أن يتخلل الأمثال ما يخرجه عنه، فمنهم من أخذه من الحلول فقال بدوامه وجعله نعتاً دائماً غير زائل فإذا زال لم يكن حالاً وهذا قول من يقول بدوامه، قال بعضهم: ما أقامني الله منذ أربعين سنة في أمر فكرهته، قال الإمام: أشار إلى دوام الرضى وهو من جملة الأحوال. هذا الذي قاله الإمام يحتمل ولكنه في طريق الله بعيد، وإنما الذي ينبغي أن يقال في قول هذا السيد إنه أقام أربعين سنة ما أقامه الله في ظاهره ولا في باطنه في حال مذموم شرعاً بل لم تزل أوقاته عليه محفوظة بالطاعات وما يرضي الله، ولقد لقيت شخصاً صدوقاً صاحب

حال على قدم أبي يزيد البسطامي بل أمكن في شغله له إدلال في أدب فقال لي يوماً: لي خمسون سنة ما خطر لي في نفسي خاطر سوء يكرهه الشرع فهذه عصمة إلهية، فيكون كلام ذلك السيد من هذا القبيل والأحوال مواهب لا مكاسب.

اعلم أن الحال نعت إلهيّ من حيث أفعاله وتوجهاته على كائناته، وإن كان واحد العين لا يعقل فيه زائد عليه قال تعالىٰ عن نفسه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وأصغر الأيام الزمن الفرد الذي لا يقبل القسمة فهو فيه في شؤون على عدد ما في الوجود من أجزاء العالم الذي لا ينقسم كل جزء منه بهذا الشرط فهو في شأن مع كل جزء من العالم بأن يخلق فيه ما يبقيه سوى ما يحدثه ممّا هو قائم بنفسه في كل زمان فرد، وتلك الشؤون أحوال المخلوقين وهم المحال لوجودها فيهم فإنه فيهم يخلق تلك الشؤون دائماً فلا يصحّ بقاء الحال زمانين لأنه لو بقي زمانين لم يكن الحق في حق من بقي عليه الحال خلاقاً ولا فقيراً إليه وكان يتصف بالغنى عن الله وهذا محال، وما يؤدّي إلى المحال محال، وهذا مثل قول القائلين بأن العرض لا يبقى زمانين وهو الصحيح، والأحوال أعراض تعرض للكائنات من الله يخلقها فيهم عبر عنها بالشأن الذي هو فيه دنيا وآخرة، هذا أصل الأحوال الذي يرجع إليه في الإلهيات، فإذا خلق الله الحال لم يكن له محل إلاّ الذي يخلقه فيه فيحل فيه زمان وجوده، فلهذا اعتبره من اعتبره من الحلول وهو النزول في المحل وقد وجد، ثم أنه ليس من حقيقته أن يبقى زمانين، فلا بدّ أن ينعدم في الزمان الثاني من زمان وجوده لنفسه لا ينعدم بفاعل يفعل فيه العدم، لأنّ العدم لا ينفعل لأنه ليس شيئاً وجودياً ولا بانعدام شرط ولا بضدّ لما في ذلك كله من المحال، فلا بدّ أن ينعدم لنفسه أي العدم له في الزمان الثاني من زمان وجوده حكم لازم، والمحل لا بقاء له دونه أو مثله أو ضده، فيفتقر في كل زمان إلى ربه في بقائه فيوجد له الأمثال أو الأضداد، فإذا أوجد الأمثال يتخيل أن ذلك الأول هو على أصله باقٍ وليس كذلك.

وإذا كان الحق ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وكل شأن عن توجّه إلهيّ والحق قد عرفنا بنفسه أنه يتحول في الصور، فلكل شأن يخلقه بصورة إلهية، فلهذا ظهر العالم على صورة الحق، ومن هنا نقول: إن الحق علم نفسه فعلم العالم، فمثل هذا اعتبر من اعتبر الحال من التحول والاستحالة فقال بعدم الدوام فلا يزال العالم مذ خلقه الله إلى غير نهاية في الآخرة، والوجود في أحوال تتوالى عليه الله خالقها دائماً بتوجهات إرادية تصحبها كلمة الحضرة المعبر عنها بكن، فلا تزال الإرادة متعلقة وهو المتوجه، ولا تزال ﴿كُن﴾ ولا يزال التكوين، هكذا هو الأمر في نفسه حقاً وخلقاً.

وقد يطلقون الحال ويريدون به ظهور العبد بصفة الحق في التكوين ووجود الآثار عن همته وهو التشبه بالله المعبر عنه بالتخلق بالأسماء وهو الذي يريده أهل زماننا اليوم بالحال ونحن نقول به ولكن لا نقول بأثره لكن نقول: إنه يكون العبد متمكناً منه بحيث لو شاء ظهوره لظهر به، لكن الأدب يمنعه لكونه يريد أن يتحقق بعبوديته ويستتر بعبادته فلا ينكر عليه أمر

بحيث إذا رؤي في غاية الضعف ذكر الله عند رؤيته فذلك عندنا ولي الله فيكون في الكون مرحمة وهو قول النبيّ ﷺ في أولياء الله: «إِنَّهُمُ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ» مِنْ صَبْرِهِم عَلَىٰ البَلاَءِ ومحنة الله لهم الظاهرة فلا يرفعون رؤوسهم لغير الله في أحوالهم، فإذا رىء منهم مثل هذه الصفة ذكر الله بكونه اختصهم لنفسه ومن لا علم له بما قلناه، يقول الوليّ صاحب الحال الذي إذا رؤي ذكر الله هو الذي يكون له التكوين والفعل بالهمة والتحكم في العالم والقهر والسلطان وهذه كلها أوصاف الحق، فهؤلاء هم الذين إذا رؤوا ذكر الله وهذا قول من لا علم له بالأمور، وأن مقصود الشارع إنما هو ما ذكرناه، وأما هذا القول الآخر فقد ينال التحكم في العالم بالهمة من لا وزن له عند الله ولا قيمة وليس بوليّ، وإنما سُئِل النبيّ وأجاب بهذا عن أولياء الله فقيل له: من أولياء الله؟ فقال: «الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ» لما طحنتهم البلايا وشملتهم الرزايا فلا يتزلزلون ولا يلجؤون لغير الله رضى بما أجراه الله فيهم وأراده بهم، فإذا رأتهم العامة على مثل هذا الصبر والرضى وعدم الشكوى للمخلوقين ذكرت العامة الله وعلمت أن لله بهم عناية. وأصحاب الآثار قد يكونون أولياء وقد تكون تلك الآثار التكوينية عن موازين معلومة عندنا وعند من يعرف همم النفوس وقوّتها وانفعال أجرام العالم لها، ومن خالط العزابية ورأى ما هم عليه من عدم التوفيق مع كونهم يقتلون بالهمة ويعزلون ويتحكمون لقوّة هممهم، وأيضاً لما في العالم من خواص الأسماء التي تكون عنها الآثار التكوينيات عند من يكون عنده علم ذلك مع كون ذلك الشخص مشركاً بالله فما هو من خصائص أولياء الله تعالىٰ التأثير في الكون فما بقي إلاّ ما ذكرناه.

الباب الثالث والتسعون ومائة

في معرفة المقام

[نظم: البسيط]

إن المقامَ من الأعمال يُكْتَسَبُ ... له التعمُّلُ في التحصيل والطَّلَبُ
به يكونُ كمالُ العارفينَ وَمَا ... يَرُدُّهم عنه لا سِتْرٌ ولا حُجُبُ
له الدوامُ وما في الغَيْب من عَجَبٍ ... الحكمُ فيه له والفَضْلُ والنَّدَبُ
هو النهايةُ والأحوالُ تابعةٌ ... وما يُجَلِّيه إلاّ الكدُّ والنَّصَبُ
إن الرسولَ مِنَ أجلِ الشُّكرِ قد وَرِمَتْ ... أقدامُه وَعَلاَه الجَهْدُ والتَّعَبُ

اعلم أن المقامات مكاسب وهي استيفاء الحقوق المرسومة شرعاً على التمام، فإذا قام العبد في الأوقات بما تعين عليه من المعاملات وصنوف المجاهدات والرياضات التي أمره الشارع أن يقوم بها وعين نعوتها وأزمانها وما ينبغي لها وشروطها التمامية والكمالية الموجبة صحتها، فحينئذ يكون صاحب مقام حيث أنشأ صورته كما أمر كما قيل له: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] فأقاموا نشأتها صورة كاملة فخرجت طائراً ملكاً روحاً مقدساً فلم يكن له استقرار دون الحق، ثم ينتقل هذا العبد إلى مقام آخر لينشىء أيضاً صورته، وبهذا يكون العبد

خلاقاً، هذا معنى المقام، ولم يختلف أحد من أهل الله أنه ثابت غير زائل كما اختلفوا في الحال، وليس الأمر عندنا على إطلاق ما قالوه بل يحتاج إلى تفصيل في ذلك، وذلك لاختلاف حقائق المقامات فإنها ما هي على حقيقة واحدة، فمن المقامات ما هو مشروط بشرط، فإذا زال الشرط زال كالورع لا يكون إلاَّ في المحظور أو المتشابه، فإذا لم يوجد أحدهما أو كلاهما فلا ورع، وكذلك الخوف والرجاء والتجريد الذي هو قطع الأسباب وهو ظاهر التوكل عند العامة. ومن المقامات ما هو ثابت إلى الموت ويزول كالتوبة ومراعاة التكليفات المشرّعة، ومن المقامات ما يصحب العبد في الآخرة إلى أوّل دخول الجنة، كبعض المقامات المشروطة من الخوف والرجاء، ومن المقامات ما يدخل معه الجنة كمقام الإنس والبسط والظهور بصفات الجمال، فالمقام هو ما يكون للعبد فيه إقامة وثبات وهو عنده لا يبرح، فإن كان مشروطاً وجاء شرطه أظهره ذلك الوقت لوجود شرطه فهو عنده معد فلذلك قيل فيه إنه ثابت لا أنه يستعمل في كل وقت فافهم.

الباب الرابع والتسعون ومائة

في معرفة المكان

[نظم: الكامل]

نَفْيُ المُقَام هو المكانُ وإنه ... لليَثْرِبيِّ بسورة الأحزابِ
من كان فيه يكونُ مجهولاً لذا ... ما نالَهُ أحدٌ بغير حجابِ
ربُّ المكان هو الذي يُدْعَى إذا ... دُعيَ الرجالُ بسيِّدِ الأحْبَابِ
وله الوسيلةُ لا تكون لغَيْرِهِ ... وهو المُقَدَّمُ من أُولي الألْبَابِ
وهو الإمامُ وما له من تابع ... وهو المُصَرِّفُ حاجبُ الحُجَّابِ

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] وقال تعالىٰ في إدريس: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٧] والمكان نعت إلهيّ في العموم والخصوص أما في العموم فقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] وأما في الخصوص فقوله: «وَسِعَني قَلْبُ عَبْدي المؤمن». وأما عموم العموم فأن يكون بحيث أنت وهو قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فذكر الأينية، والمكان في الذوات كالمكانة في المراتب والمكان عند القوم منزلة في البساط هي لأهل الكمال الذين جازوا المقامات والأحوال والجلال والجمال فلا صفة لهم ولا نعت ولا مقام كأبي يزيد. اعلم أن عبور المقامات والأحوال هو من خصائص المحمديين ولا يكون إلاَّ لأهل الأدب جلساء الحق على بساط الهيبة مع الأنس الدائم لأصحابه الاعتدال والثبات والسكون، غير أن لهم سرعة الحركات في الباطن في كل نفس ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٨] إن تجلّى لهم الحق في صورة محدودة أطرقوا فرأوه في إطراقهم مقلباً أحوالهم على غير الصورة التي تجلّى لهم فيها فأورثهم الإطراق فهم بين تقييد وإطلاق لا مقام يحكم عليهم

فإنه ما ثم فهم أصحاب مكان في بساط النشأة وهم أصحاب مكانة في عدم القرار، فهم من حيث مكانتهم متنوّعون، ومن حيث مكانهم ثابتون، فهم بالذات في مكانهم، وهم بالأسماء الإلهية في مكانتهم، فمن الأسماء لهم المقام المحمود والمكانة الزلفى في اليوم المشهود والزور والوفود، ومن الذات لهم المكان المحدود والمعنى المقصود والثبات على الشهود وحالة الوجود ورؤيته في كل موجود في سكون وخمود يشهدونه في العماء بالعين التي يشهدونه بها في الاستواء بالعين التي يشهدونه بها في السماء الدنيا بالعين التي يشهدونه بها في الأرض بالعين التي يشهدونه بها في المعية بالعين التي يشهدونه بها في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وهذا كله من نعوت المكان.

وأما شهودهم من حيث المكانة فتختلف عيونهم باختلاف النسب، فالعين التي يشهدونه بها في كذا ليست العين التي يشهدونه بها في أمر آخر، والمشهود في عين واحدة والشاهد من عين واحدة والنظرة تختلف باختلاف المنظور إليه، فمنا من يرى اختلاف النظر لاختلاف المنظور، ومنا من يرى اختلاف المنظور لاختلاف النظر وكل له شرب معلوم، فالمكان يطلب فرغ ربك، والمكانة تطلب: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] و: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] فجاء بلفظ الثقلين إعلاماً من خاطب ومن يريد ونحن مركبون من ثقيل وخفيف، فالخفيف للمكانة والثقيل للمكان ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فثبتت الرحمة فلم تزل وأثرت في النزول إلى السماء الدنيا، فما نزل ليسلط عذاباً وإنما نزل ليقبل تائباً ويجيب داعياً ويغفر لمستغفر ويعطي سائلاً، فذكر هذا كله ولم يذكر شيئاً من القهر لأنه نزل من عرش الرحمن، فالمكان رحمة حيث كان لأنّ فيه استقرار الأجسام من تعب الانتقال، ألا تراهم في حال العذاب كيف وصفهم بالانتقال بتبديل الجلود والتبديل انتقال إلى أن يفرغ الميقات والأمر الحقيقيّ للمكانة، فإنه لا يصحّ الثبوت على أمر واحد في الوجود، فالمكان ثبوت في المكانة كما نقول في التمكين إنه تمكين في التلوين لا أن التلوين يضاد التمكين كما يراه من لا علم له بالحقائق، وللتمكين باب يرد بعد هذا إن شاء الله.

الباب الخامس والتسعون ومائة

في معرفة الشطح

[نظم: الكامل]

الشَّطْحُ دَعْوَى في النفوس بطَبْعها	لبقيَّةٍ فيها مِنَ آثارِ الهَوَى
هذا إذا شَطَحَتْ بقولٍ صادقٍ	من غيرِ أمرٍ عند أرباب النُّهَى

اعلم أيّدك الله أن الشطح كلمة دعوى بحق تفصح عن مرتبته التي أعطاه الله من المكانة عنده أفصح بها عن غير أمر إلهيّ لكن على طريق الفخر بالراء، فإذا أمر بها فإنه يفصح بها تعريفاً عن أمر إلهيّ لا يقصد بذلك الفخر، قال عليه السلام: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْر»** يقول: ما قصدت الافتخار عليكم بهذا التعريف لكن أنبأتكم به لمصالح لكم في ذلك

ولتعرفوا منة الله عليكم برتبة نبيكم عند الله، والشطح زلة المحققين إذا لم يؤمر به فيقولها كما قالها عليه السلام ولهذا بيّن فقال: «وَلاَ فَخْرَ» فإني أعلم أني عبد الله كما أنتم عبيد الله، والعبد لا يفتخر على العبد إذا كان السيد واحداً، وكذا نطق عيسىٰ فبدأ بالعبودية وهو بمنزلة قوله عليه السلام: «وَلاَ فَخْرَ» فقال لقومه في براءة أمه ولما علم من نور النبوّة التي في استعداده أنه لا بدّ أن يقال فيه إنه ابن لله فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٠] فبدأ في أوّل تعريفه وشهادته في الحال الذي لا ينطق مثله في العادة فما أنا ابن لأحد، فأمي طاهرة بتول ولست بابن لله، كما أنه لا يقبل الصاحبة لا يقبل الولد، ولكني عبد الله مثلكم ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٣٠] فنطق بنبوّته في وقتها عنده وفي غير وقتها عند الحاضرين، لأنه لا بدّ له في وقت رسالته أن يعلم بنبوّته كما جرت عادة الله في الأنبياء قبله، فهم مأمورون بكل ما يظهر عليهم ومنهم من الدعاوى الصادقة التي تدل على المكانة الزلفى والتميز عن الأمثال والأشكال بالمرتبة المثلى عند الله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي محلاً وعلامة على زيادات الخير عندكم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [سورة مريم: الآية ٣١] يعني في كل حال من الأحوال ما تختص البركة بسببي فيكم في حال دون حال، وذكرها كلها بلفظ الماضي وهو يريد الحال والاستقبال، فما كان منه في الحال فنطقه شهادة ببراءة أمه وتنبيهاً وتعليماً لمن يريد أن يقول فيه إنه ابن الله فنزّه الله وهو نظير براءة أمه ممّا نسبوا إليها، فهو في جناب الحق تنزيه، وفي جناب الأم تبرئة، ويدل لفظ الماضي فيه ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أن يكون له التعريف بذلك من الله كما كان لمحمد ﷺ لما قال: «كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ» فعلم مرتبته عند الله وآدم ما وجدت صورته البدنية، وأعلم عيسىٰ بلفظ الماضي أن الله آتاه الكتاب وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في عالم التكليف والتشريع وهو قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٣١] يريد حياة التكليف في ظاهر الأمر عند السامعين ويريد عندنا هذا، وأمراً آخر وهو قوله تعالىٰ في عيسىٰ أنه كلمة الله والكلمة جمع حروف، وسيأتي علم ذلك في باب النفس بفتح الفاء فأخبر أنه آتاه الكتاب يريد الإنجيل ويريد مقام وجوده من حيث ما هو كلمة والكتاب ضم حروف رقمية لإظهار كلمة أو ضم معنى إلى صورة حرف يدل عليه فلا بدّ من تركيب، فلهذا ذكر أنّ الله أعطاه الكتاب مثل قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] ويريد بالوصية بالصلاة والزكاة العبادة، كما تدل على العمل هي على العبادة أدل لأنها لا تفتقر في كونها عبادة إلى بيان، وإذا أريد بها العمل احتيج إلى تعيين ذلك العمل وبيان صورته حتى يقيم نشأته هذا المكلف به، فإذا كانت العبادة دل على أنه لا يزال حياً أينما كان وإن فارق هذا الهيكل بالموت فالحياة تصحبه لأنها صفة نفسية له، ولا سيما وقد جعله روح الله ثم ذكر أنه برّ بوالدته أي محسن إليها، فأول إحسانه أنه برّأها ممّا نسب إليها في حالة لا يشكون في أنه صادق في ذلك التعريف، ثم تمّم فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ [سورة مريم: الآية ٣٢] فإنّ الجبروت وهو العظمة يناقض العبودة وهو قوله إنه ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ويريد بقوله: ﴿جَبَّارًا﴾ أي لا أجبر الأمة التي أرسل إليها بالكتاب والصلاة والزكاة إنما أنا مبلغ عن الله لا غير ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية:

الآية ٢٢] فأكون جباراً فأجبر وأبلغ عن الله كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة النور: الآية ٥٤] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢١، ٢٢] فقوله: ﴿مُذَكِّرٌ﴾ والمذكر لا يكون إلاّ لمن كان على حالة منسية، ولو لم يكن كذلك لكان معلماً لا مذكراً، فدل أنه لا يذكرهم إلاّ بحال إقرارهم بربوبيته تعالىٰ عليهم حين قبض الذرية من ظهر آدم في الميثاق الأوّل ثم قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ بما نطقت فيكم به من أني عبد الله فسلمت من انتساب وجودي إلى سفاح أو نكاح ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٣] فأسلم من وقوع القتل الذي ينسب إلى من يزعم أنه قتلني وهو قول بني إسرائيل: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧] فأكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧] فقال لهم: إنّ السلام عليه يوم يموت سالماً من القتل، إذ لو قتل قتل شهادة والشهيد حيّ غير ميت ولا يقال فيه أنه ميت كما ورد النهي عن ذلك عندنا، وكذلك لم يزل الأمر فأخبر أنه يموت ولا يقتل، فذكر السلام عليه يوم يموت، ثم ذكر أن السلام عليه يوم يبعث حياً يعني في القيامة، وهو موطن سلامة الأبرياء من كل سوء مثل الأنبياء وغيرهم من أهل العناية فهو صاحب سلامة في هذه المواطن كلها، وما ثم موطن ثالث ما هي إلاّ حياة دنيا وحياة أخرى بينهما موت، فهذه كلها لو لم تكن عن أمر إلهي لكانت من قائلها شطحات، فإنها كلمات تدل على الرتبة عند الله على طريق الفخر بذلك على الأمثال والأشكال، وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا.

ولهذا كان الشطح رعونة نفس فإنه لا يصدر من محقق أصلاً، فإن المحقق ما له مشهود سوى ربه، وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي بل هو ملازم عبوديته مهيأ لما يرد عليه من أوامره فيسارع إليها وينظر جميع من في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح فقد انحجب عمّا خلق له وجهل نفسه وربه، ولو انفعل عنه جميع ما يدعيه من القوّة فيحيي ويميت ويولي ويعزل وما هو عند الله بمكان بل حكمه في ذلك حكم الدواء المسهل أو القابض يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله، كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة في عيون الناظرين فيخطف أبصارهم عن رؤية الحق فيما أتوا به، وكل من شطح فعن غفلة شطح، وما رأينا ولا سمعنا عن وليّ ظهر منه شطح لرعونة نفس وهو وليّ عند الله إلاّ ولا بدّ أن يفتقر ويذل ويعود إلى أصله ويزول عنه ذلك الزهوّ الذي كان يصول به فذلك لسان حال الشطح، هذا إذا كان بحق هو مذموم فكيف لو صدر من كاذب؟ فإن قيل: وكيف صورة الكاذب في الشطح مع وجود الفعل والأثر منه؟ قلنا: نعم ما سألت عنه، أما صورة الكاذب في ذلك فإن أهل الله ما يؤثرون إلاّ بالحال الصادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المسمّى شطحاً عندهم حيث لم يقترن به أمر إلهيّ أمر به كما تحقق ذلك عن الأنبياء عليهم السلام، فمن الناس من يكون عالماً بخواص الأسماء فيظهر بها الآثار العجيبة والانفعالات الصحيحة ولا يقول إن ذلك عن أسماء عنده وإنما يظهر ذلك عند الحاضرين أنه من قوّة الحال والمكانة عند الله والولاية الصادقة وهو كاذب في هذا كله، وهذا لا يسمّى شطحاً ولا صاحبه شاطحاً بل هو كذب محض ممقوت، فالشطح كلمة صادقة

صادرة من رعونة نفس عليها بقية طبع تشهد لصاحبها يبعده من الله في تلك الحال، وهذا القدر كاف في حال معرفة الشطح.

الباب السادس والتسعون ومائة

في معرفة الطوالع

[نظم: الكامل]

لا تَنْظُرَنَّ إلى طَوَالِع نوره ... فطَوَالِعُ التَّوْحيدِ ما لا تُبْصَرُ

لو أبصرتها كان شَرْكَ ثابتاً ... فبه المُحَنَّكُ ذو الحِجَى يَتَحيَّرُ

إن المُجرِّبَ للأمور هو الذي ... بمِجَنِّه يَلْقَى فلا يَتَأثَّرُ

ومِجَنُّهُ نَصْرُ الإله فعَيْنُه ... فبه يراه وعَيْنُه لا تُبْصِرُ

الطَّمْسُ رفْعُ الحُكْم ليس ذَهَابُه ... فهي الوجودُ وما سواها مَظْهَرُ

الطوالع عند الطائفة المصطلح عليها أنوار التوحيد تطلع على قلوب العارفين فتطمس سائر الأنوار، وهذه أنوار الأدلة النظرية لا أنوار الأدلة الكشفية النبوية، فالطوالع تطمس أنوار الكشف، وذلك أن التوحيد المطلوب من الله الذي طلبه من عباده وأوجب النظر فيه إنما هو توحيد المرتبة وهو كونه إلهاً خاصة فلا إله غيره، وعلى هذا يقوم الدليل الواضح، وعند بعض العقول فضول من أجل القوى التي هي آلاته، فتعطيه في بعض الأمزجة أمزجة تراكيبها فضولاً يؤديه ذلك الفضول إلى النظر في ذات الله، وقد حجر الشرع التفكّر في ذات الله، فزلّ هذا العقل في النظر في ذلك وتعدّى وظلم نفسه، فأقام الأدلة على زعمه وهي أنوار الطوالع، على أن ذات الإله لا ينبغي أن تكون كذا ولا أن تكون على كذا، ونفت عنه جميع ما ينسب إلى المحدثات حتى يتميز عندها فجعلته محصوراً غير مطلق بما دلت عليه أنوار أدلته، ثم عدلت بعد ذلك إلى الكلام في ذوات صفاته، فاختلف في ذلك أشعة أنوارهم أعني طرق أدلتهم على ما ذكر في علم النظر، ثم عدلوا إلى النظر في أفعاله فاختلفوا في ذلك بحسب اختلاف أشعة أنوارهم ممّا قد ذكر وسطر، وليس هذا الكتاب بمحل لما تعطيه أدلة الأفكار فإنه موضوع لما يعطيه الكشف الإلهي فلهذا لم نسردها على ما قررها أهلها في كتبهم، ثم عدلوا إلى النظر في السمعيات وهو علمنا الذي نعول عليه في الحكم الظاهر، ونأخذ بالكشف الإلهي عند التعمّل بالتقوى، فيتولى الله تعليمنا بالتجلي فنشهد ما لا تدركه العقول بأفكارها ممّا ورد به السمع وأحاله العقل وتأوّله عقل المؤمن وسلّمه المؤمن الصرف، فجاءت أنوار الكشف بأن هذه الذات التي حجر التفكّر فيها فرأيناها على النقيض ممّا دلت عليه العقول بأفكارها، فيشاهد صاحب الكشف يمين الحق ويده ويديه والعين والأعين المنسوبة إليه والقدم والوجه.

ثم من النعوت الفرح والتعجب والضحك والتحوّل من صورة إلى صورة هذا كله شاهدوه، فالله الذي يعبده المؤمنون وأهل الشهود من أهل الله ما هو الذي يعبده أهل التفكّر

في ذات الله، فحرموا العلم لكونهم عصوا الله ورسوله في أن فكروا في ذات الله وتعدوا مرتبة الكلام والنظر في كونه إلهاً واحداً إلى ما لا حاجة لهم به، وقد فعل ذلك من ينتمي إلى الله كأبي حامد وغيره وهي مزلة قدم، وإن كان جعل ذلك ستراً له فإنه قد نبّه في مواضع على خلاف ما أثبته وبالجملة أساء الأدب، فمن حكم على نفسه فكره ونظره وأدخل عقله تحت سلطان نظره في ذلك وتخيّل أنه على نور من ربه في نظره فطمس بأنوار أدلته أعين أنوار ما جاء به أهل الشهود والكشف، فما جاء من ذلك عن رسول ونبي في كتاب أو سنّة وكان صاحب هذه الأنوار النظرية مؤمناً صادقاً في إيمانه تأوّل ذلك في حق الرسول حتى لا يرجع عن النظر بنور فكره لأن اعتماده عليه وهو الذي أنشأ في نفسه رباً يعبده كما ينبغي لنظره فعبد عقله، ثم أنه نقل الأمر في التأويل لقصوره من التشبيه بالأجسام لحدوثها إلى التشبيه بالمعاني المحدثة أيضاً فما انتقل من محدث إلاّ إلى محدث، فكان فضيحة الدهر عند المؤمنين والذين شاهدوا الأمر على ما هو عليه، وأصل ذلك كله أنه نتيجة عن معصية الله إذ قد نهاه رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى عن التفكّر في ذات الله فلم يفعل، جعلنا الله وإياكم من أهل الشهود والوجود، فيا ليت هذا المؤمن إذا لم يكن من أهل الشهود أن يسلم الأمر إلى الله على علم الله فيه ولا يتعدى، وأما إذا جاء بمثل هذه العلوم غير الرسول عند هذا الناظر كفره وزندقه وجهله وبهذا بعينه آمن به لما جاءه به الرسول فأي حجاب أعظم من هذا الحجاب؟ فيقول له: الأمر على كذا، فيقول: هذا كفر، فإذا قلت له: كذا ورد في الصحيح عن النبي عليه السلام ما هو قولي سكت وقال بعد أن جاء عن النبي ﷺ فله تأويل ننظر فيه فلا يقبله ذلك القبول لولا رائحة هذا النظر الذي يرجوه في تأويله فما أبعده عن الحق المبين، وقد يريد أصحابنا بالطوالع طوالع أنوار الشهود فتطمس أنوار الأدلة النظرية فما كان ينفيه عقلاً مجرداً عاد يثبته كشفاً ولم يبق لذلك النور الفكري في عقله عيناً ولا أثراً ولا جعل له عليه سلطاناً، فهذا معنى الطوالع.

الباب السابع والتسعون ومائة

في معرفة الذهاب

[نظم: الوافر]

قـلـوبُ الـعـاشـقـيـن لـهـا ذَهَـابُ ... إذا هـي شـاهَـدَتْ مَـنْ لا تَـراهُ

وذا مـن أَغْـجَـبِ الأشـيـاءِ فـيـنـا ... نَـراهُ ومـا نَـراهُ إذا نَـرَاهُ

دلـيـلـي إذ يـقـولُ رمَـيْـتَ عـبـدي ... فَـلا تَـعـجَـبْ فـمـا الـرَّامـي سـواهُ

كـذا قَـدْ جـاء فـي الـقـرآن نـصّـاً ... لأمـرٍ فـي حُـنَـيْـنٍ قـد دَهـاهُ

حال الذهاب عند الطائفة غيبة القلب عن حسّ كل محسوس بمشاهدة المحبوب، وذلك يا ولي أن القلب والباطن لا يتمكن للعارف فكيف للمحب أن يمر عليه نفس ولا حال لا يكون المحبوب فيه مشهوداً له بعين قلبه ووجوده، وما بقي حجاب إلاّ في الحسّ بإدراكه

المحسوسات حيث يراها ليست عين محبوبه فيحجبه فيطلب اللقاء لأجل هذا الحجاب، فإذا ذهب المحسوس عن حسّه في ظاهر الصورة كما يذهب في حق النائم انصرف الحسّ إلى الخيال، فرأى مثال محبوبه في خياله وقرب من قلبه فرآه من غير مثال، لأنّ الخيال ما بينه وبين المعنى واسطة ولا درجة، كما أنه ليس بينه وبين المحسوس واسطة ولا درجة فهو واسطة العقد إليه ينزل المعنى وإليه يرتفع المحسوس فهو يلقى الطرفين بذاته، فإذا انتقل العارف أو المحب من المحسوس إلى الخيال قرب من معنى المحبوب فشاهده في الخيال ممثلاً ذا صورة وشاهده وهو في الخيال لما عدل بنظره إلى حضرة المعاني المجاورة لحضرة الخيال عاين المعنى مجرداً عن المثال والصورة، ثم نظر إلى المثال وإلى المحسوس فعلم أنه لو تصوّر هذا المعنى في المحسوس لكان جميع صور المحسوسات صورته، فغاب هذا المشاهد عن شهود كل محسوس أنه غير صورة محبوبه بل كل محسوس صورة محبوبه ولا بدّ، فذهب عنه صورة المحسوس أنها غير صورة محبوبه فصار يشاهده في كل شيء فهذا هو الذهاب، ومنه المذهب الذي هو الطريق سمّي مذهباً للذهاب فيه فهذا المحب ذاهب في صور المحسوسات كلها أنها صورة عين محبوبه، فلا يزال في اتصال دائم في عالم الحسّ وفي حضرة الخيال وفي حضرة المعاني، فله الذهاب في هذه الحضرات كلها وصارت مذهباً له حتى نفسه في جملة الصور ولهذا يقول: [الرمل]

أنـــا مَـــنْ أَهْـــوَى ومـــن أهْـــوى أَنَـــا

ومثل هذا قلنا في قصيدة: [مخلع البسيط]

أنـــا مُـــحِـــبِّـــي أنـــا حـــبـــيـــبـــي ... أنـــا فَـــتَـــايَ أنـــا فَـــتَـــاتِـــي

وقد قلنا في هذا الباب أيضاً من قصيدة: [مخلع البسيط]

فـإنـنـي مـا عَـشِـقْـتُ غـيـري ... فـعَـيْـنُ فَـضْـلـي هـو اتِّـصَـالـي

الباب الثامن والتسعون ومائة

في معرفة النفس بفتح الفاء

[نظم: المديد]

نَـــفَـــسُ الأكْـــوَان مـــن نَـــفَـــسِـــهْ ... وهـــو وَحْـــيُ الـــحـــقِّ فـــي جَـــرَسِـــهْ

وكـــلامُ الـــحـــقِّ شـــاهِـــدُه ... أثـــرٌ فـــي الـــكـــون مـــن نَـــفَـــسِـــهْ

إنَّ مـــوســـىٰ قَـــبْـــلُ أبْـــصَـــرَهُ ... فـــي اشْـــتِـــعَـــال الـــنَّـــار فـــي قَـــبَـــسِـــهْ

مَـــعْـــدِنُ الـــرَّاحـــات فـــيـــه فَـــمَـــنْ ... نَـــاظِـــرٌ فـــيـــه وفـــي حَـــرَسِـــهْ

كان رسول الله ﷺ قبل أن يعرف بعصمته من الناس وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] إذا نزل منزلاً يقول: من يحرسنا الليلة مع كونه يعلم أنّ الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة هود: الآية ٥٧] وقال عليه السلام لما اشتدّ عليه كرب ما يلاقي من الأضداد: «إنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يأتيني مِنْ قبلِ اليَمَنِ» فكانت الأنصار. اعلم أن الموجودات هي

كلمات الله التي لا تنفد، قال تعالىٰ في وجود عيسىٰ عليه السلام أنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو عيسىٰ عليه السلام، فلهذا قلنا: إن الموجودات كلمات الله من حيث الدلالة السمعية، إذ كان لا يصدقنا كل أحد فيما ندعي فيه الكشف أو التعريف الإلهي، والكلمات المعلومة في العرف إنما تتشكل عن نظم الحروف من النفس الخارج من المتنفس المتقطع في المخارج، فيظهر في ذلك التقاطع أعيان الحروف على نسب مخصوصة فتكون الكلمات.

وبعد أن نبهتك على هذا لتجعل بالك لما نورده في هذا الباب فاعلم أن الله سبحانه ما استوى على عرشه إلاّ بالاسم الرحمن إعلاماً بذلك أنه ما أراد بالإيجاد إلاّ رحمة بالموجودين ولم يذكر غيره من الأسماء، وذكر الاستواء على أعظم المخلوقات إحاطة من عالم الأجسام فإن الآلام ليس محلها إلاّ التركيب، وأمّا البسائط فلا تقبل في ذاتها قيام معنى بها بل هي عين المعنى يدل على شمول الرحمة للعالم، وإن طرأت عوارض البلايا فإنها رحمة كما ذكرنا في شرب الدواء الكريه ليس المقصود منه عذاب من شربه ولا إيلامه، وإنما المقصود من استعماله ما يؤول إليه من استعمله من الراحة والعافية.

ثم اعلم بعد هذا أن الحق تسمّى بالظاهر والباطن، فالظاهر للصور التي يتحوّل فيها، والباطن للمعنى الذي يقبل ذلك التحوّل والظهور في تلك الصور، فهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ من كونه الباطن ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٩] من كونه الظاهر، وقد أعلمتك أن العالم نسخة إلهية على صورة حق ولذلك قلنا: علم الله بالأشياء علمه بنفسه فلذلك حكمنا عليه بالصورة، وبذا وردت الأسماء الإلهية، وورد في الصحيح أن الله خلق آدم على صورته وهو الإنسان الكامل المختصر الظاهر بحقائق الكون كله حديثه وقديمه، وجعل سبحانه النفس يخرج من القلب للأمر الذي قد علم وقررناه، فيجد المخارج إذا قصد المتنفس الكلام، وإن لم يقصد الكلام كان النفس بالحرف الهاوي خاصة وما هو عندنا من الحروف، وهو يهوي على ثلاث مراتب هوياً ذاتياً يعبر عنه بالألف، وهو المسمّى عند القراء الحرف الهاوي، فإذا مرّ بالأرواح العلوية في هويه حدث له منها واو العلة وهو امتداد الهواء من المتنفس عن ضم الحرف وهو إشباع حركة الضم، وإذا مرّ بالأجسام الطبيعية السفلية في هويه حدث له من ذلك ياء العلة وهو امتداد الهواء من المتنفس عن خفض الحرف وهو إشباع حركة الخفض لأنّ الخفض من العالم الأسفل وما لهذا النفس في هويه أكثر من هذه الثلاث المراتب فاعلم ذلك، فحدثت رسالة الملك بالواو المضموم ما قبلها، وحدثت رسالة البشر بالياء المكسور ما قبلها، وكان الألف على الأصل عن الله وهو سبب الأسباب كلها.

ولما ذكر الله عن نفسه أنه الظاهر وأنه الباطن وأن له كلاماً وكلمات، ذكر أن له نفساً من الاسم الرحمن الذي به استوى على العرش ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٩] وهو العارف من عباد الله من نبيّ وغيره ممّن شاء الله من عباده لأنه قال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] فنكر الأمر ولم يعرفه فهو نكرة في معرفة يعلمها هو لا غيره، لأنّ الأمور

معينة عنده مفصلة ليس في حقّه إجمال ولا يصحّ ولا مبهم مع علمه بالمجمل في حق من يكون في حقه الأمر مجملاً ومبهماً وغير ذلك، فلما علمنا أن له نفساً وأنه الباطن وأن له كلاماً وأن الموجودات كلماته علمنا أن الله ما أعلمنا بذلك إلاً لنقف على حقائق الأمور بأنا على الصورة، فنقبل جميع ما تنسبه الألوهة إليها على ألسنة رسلها وكتبها المنزلة، وجعل النطق في الإنسان على أتم الوجود، فجعل له ثمانية وعشرين مقطعاً للنفس يظهر في كل مقطع حرفاً معيناً ما هو عين الآخر ميّزه المقطع مع كونه ليس غير النفس، فالعين واحدة من حيث أنها نفس وكثيرة من حيث المقاطع، وجعلها ثمانية وعشرين لأن العالم على ثمانية وعشرين من المنازل التي تجول السيارة فيها وفي بروجها وهي أمكنتها من الفلك المستدير كأمكنة المخارج للنفس لإيجاد العالم وما يصلح له، ولكل عالم أعطت هذه المقاطع التي أظهرت أعيان الحروف، ثم قسم هذه المقاطع إلى ثلاثة أقسام: قسم أقصى عن الطرف الأقصى الآخر فالأقصى الواحد يسمى حروف الحلق وهو على طبقات، والأقصى الثاني حروف الشفتين وما بينهما حروف الوسط، فإنّ الحضرة الإلهية على ثلاث مراتب: باطن وظاهر ووسط، وهو ما يتميز به الظاهر عن الباطن وينفصل عنه وهو البرزخ فله وجه إلى الباطن ووجه إلى الظاهر بل هو الوجه عينه فإنه لا ينقسم وهو الإنسان الكامل أقامه الحق برزخاً بين الحق والعالم فيظهر بالأسماء الإلهية فيكون حقاً، ويظهر بحقيقة الإمكان فيكون خلقاً، وجعله على ثلاث مراتب: عقل وحسّ وهما طرفان وخيال وهو البرزخ الوسط بين المعنى والحسّ.

فلما عرّفنا الله أنه باطن وظاهر وله نفس وكلمة وكلمات نظرنا ما ظهر من ذلك ولم ينسب إلى ذاته النفس وما يحدث عنه فقلنا عين النفس هو العماء، فإن نفس المتنفس المقصود بالعبارة عنه ما يتنزل منزلة الريح وإنما يتنزل منزلة البخار، فالنفس هذا حقيقته حيث كان فكان عنه العماء كما يحدث العماء عن بخار رطوبات الأركان فيصعد ويعلو فيظهر منه العماء أوّلاً ثم بعد ذلك يكثف والهواء يحمله والريح تسوقه فما هو عين الهواء وإنما هو عين البخار، ولذلك جاء في صفة العماء الذي كان فيه ربنا قبل خلق الخلق أنه عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، فذكر أن له الفوق وهو كون الحق فيه والتحت وهو كون العالم فيه فلم يكن ثم غير نفس الحق ففيه يكون الهواء، وجرت الرياح ما بين زعزع ورخاء وهي الحروف الشديدة والرخوة، وظهر عن هذا النفس أصوات الرعود كالحروف المجهورة وهبوب النسيم وهي الحروف المهموسة، وظهرت الطباق في الأفلاك كالحروف المطبقة من تنفس الإنسان بالقول إذا قصده وهو في الإلهيات إذا أردناه أن نقول له ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فالحروف المطبقة في النفس الإلهي وجود سبع سموات طباقاً، وكل موجود في العالم على جهة الإنطباق وأبرز في هذا النفس الإلهيّ افتتاح الوجود بالكون إذ كان ولا شيء معه وجعلها في المتنفس حقيقة الحروف المنفتحة، ثم لما أوجد العالم وفتح صورته في العماء وهو النفس الذي هو الحق المخلوق به مراتب العالم وأعيانه وأبان منازله جعل منه عالم الأجسام كالحروف المنسفلة لأنها من جانب الطبيعة وهو حدّ

الكون المظلم، وجعل منه عالم الأرواح وهو الحروف المستعلية في المتنفس بالنفس ألا وكل ذلك كلمات العالم، فتسمى في الإنسان حروفاً من حيث آحادها، وكلمات من حيث تركيبها، كذلك أعيان الموجودات حروف من حيث آحادها، وكلمات من حيث امتزاجاتها، وجعل في النفس الإلهيّ علة الإيجاد من جانب الرحمة بالخلق ليخرجهم من شرّ العدم إلى خير الوجود فكان بالحرف الهاوي. ثم أبان لهم أيضاً بوجود ما يؤدّي إلى السعادة ببعثة الرسول الملكي والبشري إرسال رحمة فكانت حروف اللين في المتنفس الإنساني. ثم أوجد في هذا النفس الصوت عند خروجه من الباطن إلى الظاهر بطريق الوحي الذي شبهه رسول الله ﷺ سلسلة على صفوان، فكان في تنفس الإنسان حروف الصفير، ثم أنفش ذلك النفس الإلهيّ على أعيان العالم الثابتة ولا وجود لها فكان مثل ذلك في الكلام الإنساني حروف التفشي.

ثم إن النفس الإلهيّ استطالت عليه الأكوان بالدعوى والتحكم حيث عدّدت وكثرت ما هو إحدى العين وهو في نفس المتنفس الإنساني الحرف المستطيل وهو الضاد وحده لأنه طال حتى أدرك مخرج اللام، ثم إن هذا النفس الإلهيّ في إيجاد الشرائع قد جعل طريقاً مستقيماً وخارجاً عن هذه الاستقامة المعينة ويسمّى ذلك تحريفاً وهو قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] مع كونه ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] يقول: وإن تعدد فالنفس يجمعه فسمّي ذلك التحريف في نفس المتنفس الإنساني الحرف المنحرف، فخالط أكثر الحروف وهو اللام وليس لغيره هذه المرتبة وهو كبعض الأحكام الذي تجتمع فيه الشرائع. ثم إنه ظهر في النفس الإلهيّ في الصور الأمثال فلم يقع التمييز فتخيل فيه التكرار والحقيقة تعطي أنه لا تكرار، فظهر في عالم الحروف البشرية الحرف المكرّر وهو الراء، فإذا كان النفس يحمل الروائح فيعرف أن خروجه على المشام وهو المسمّى في الحروف في النطق الإنساني حروف الغنة لأنها من الخيشوم وتمّت مراتب الحروف بكمالها، والحمد لله. انتهى الجزء التاسع عشر ومائة.

(الجزء العشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

وقد رأينا من رجال الروائح جماعة وكان عبد القادر الجيلي منهم يعرف الشخص بالشم.

أخبرني صاحبي أبو البدر عنه أن ابن قائد الأواني جاء إليه وكان ابن قائد يرى لنفسه حظاً في الطريق، فأخذ عبد القادر يشمه نحو ثلاث مرات ثم قال له: لا أعرفك فكان ذلك تربية في حقه فعلت همة ابن قائد إلى أن التحق بالأفراد. والنفس أبداً أكثر ما يظهر حكمه في المحبين العشاق وهو مقامهم ومرتبتهم ويضيفون ذلك إلى نفس الرياح لا إلى نفس الأرواح كما قال بعضهم: [السريع]

نـاشَـدْتُـكَ الله نَـسِـيـمَ الـصَّـبَـا	مـن أيـن هـذا الـنَّـفَـسُ الـطَّـيِّـبُ
هَـلْ أودَعَـتْ بُـرْداك عـنـد الـضُّـحَـى	مـكـانَ ألـقَـتْ عـقْـدَهَـا زَيْـنَـبُ

أو نـاسَـمَـتْ ريَّـاك رَوْضَ الـحِـمَـى وذَيْـلَـهـا مـن فـوقـهـا تَـسْـحَـبُ
فَـهَـاتِ أتْـحِـفْـنـي بـأخـبـارهـا فَـعَـهْـدُك الـيـومَ بـهـا أقْـرَبُ

هذه الأبيات على لطافتها ورقتها من أكثف ما قيل في عشق الأرواح، لأن نسيم الأرواح ألطف من نسيم الرياح، لأنها بعيدة المناسبة عن عالم الطبيعة، والرياح ليست كذلك، فالأرواح إذا تنسمت لا تسوق إلاّ طيباً فإنها تهب من الحضرة الذاتية من الغيب الأقدس، فلا تأتي إلاّ بكل طيب وطيبة، والرياح ليست كذلك لأنها من عالم الطبيعة، فإن مرت على خبيث جاءت بخبيث، وإن مرت بطيب جاءت بطيب، ونسيم الأرواح إذا مرّ بخبيث ردّه طيباً، وإذا مرّ بطيب زاده طيباً، فلو كان هذا القائل عاشقاً حقيقةً لا يتكلم بدعوى زور لم يجعل الطيب من زينب وإن كانت طيبة، فلو ذكر أن طيبها زاد به طيب المكان طيباً، وجعل محبوبته تنم بأسرارها الرياح فليست بمنيعة الحمى، وعالم الطبيعة يخترقها وهو الريح، وأخذ يهجو الريح حيث تعجب من أين له هذا النفس الطيب، فلو ساق الطيب بطريق المفاضلة بأن يقول: من أين هذا النفس الأطيب فإنه لم يكن الريح بأمر زائد على نفس محبوبته إذا حققت لأنها عين الطيب حيث ظهر طيب، وسألني بعض أصحابي أن أشرح له هذه الأبيات ولو قالها عارف من المحبين الإلهيين فأجبته إلى ذلك، فأنا أشرحها إن شاء الله. ثم أعود إلى الكلام على تحقيق النفس في هذا الباب فنقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل :

قوله يخاطب نسيم الصبا: «ناشدتك الله»: اعلم أن الصبا هي ريح القبول والصبا الميل والميل قبول، وسميت الصبا قبولاً لأن العرب لما أرادت أن تعرف الرياح حتى تجعل لها أسماء تذكرها بها لتعرف فاستقبلت مطلع الشمس، فكل ريح هبت عليها من جهة مطلع الشمس استقبلته إذ كان وجهها إلى تلك الجهة فسمتها قبولاً، وما أتى إليها من الريح عن دبر في حال استقبالها ذلك سمته دبوراً وهي الريح الغربية، وما أتاها منها في هبوبها عن الجانب الأيمن سمته جنوباً، وعن جانب الشمال سمته شمالاً، وكل ريح بين جهتين من هذه الجهات تهب سمتها نكباء من النكوب وهو العدول أي عدلت عن هذه الأربع الجهات، والنسيم أوّل هبوب الريح والشيء المستلذ إذا فاجأك ابتداء فهو ألذ من استصحابه مثل قوله: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل. ولهذا نعيم الجنان جديد في كل نفس، فلذلك ما ناشد إلاّ النسيم لالتذاذه به وجعله نسيم الصبا لأنها ريح شرقية قبول، فأعطته الريح من أخبارها بما جاءت به من طيبها ما يعطيه قبولها لو أقبلت ورؤيتها لو طلعت عليه كما تطلع الشمس لأن الصبا ريح شرقية والشروق طلوع الشمس والإشراق ضوء الشمس. وقوله: ناشدتك أي طالبتك مقسماً بالله والناشد الطالب فهو كالمستفهم، وهذا يدلك على قلة معرفته بمحبوبه حيث جعل له أمثالاً لقوله: من أين هذا النفس الطيب، فإنه ثم من له أنفاس طيبة، فلو استفرغ في شغله بمحبوبه ولم ير مشهوداً له سواه ما استفهم، إذ كل من استفهم فقد أحضر ذلك في ذهنه، فهذا شاعر أحضر الاشتراك في ذهنه فشهد على نفسه بنقصان المعرفة إن كان عارفاً ونقصان المحبة إن كان محباً عاشقاً، فإن أراد من المحبوب كثرة وجوهه وتجليه في أعيان متعدّدة

كالأسماء الإلهية لله مع كونه ذاتاً واحدة ومع هذا فله تسعة وتسعون اسماً فما فوق ذلك فيريد في أي اسم كان لما هبت هذه الريح وهي نسمة قبول إلهيّ لطيفة الهبوب أورثت في القلب لطفاً ورقة بهبوبها فاستفهم الريح لما جاءت به من الطيب المستلذ فقال: [السريع]

هـل أودَعَـتْ بُـرْدَاكَ عـنـد الـضُّحَـى مـكـانَ ألـقَـتْ عَـقْـدَهـا زيـنَـبُ

اعلم أن هذا البيت من أدل دليل على أنه ليس بمحب، وأن هذا القول هو إلى هجاء المحبوب أقرب منه إلى الثناء والمدح، وذلك أنه لما جاءته الريح بهذا النفس الطيب أضاف ذلك الطيب إلى ما حصل للمكان الذي ألقت عقدها زينب فيه فهو ثناء على العقد، فإنه يريد أن عقدها كان عنبرية ذا طيب فطاب المكان بذلك العقد، وما ذكر أن العقد إنما اكتسب الطيب من روائح زينب أو عرفها أو أنفاسها، فلو سلك في كلامه أن طيب المكان ممّا تنفست فيه زينب، فلو قال مثل ما قلنا: [السريع]

هـل أودَعَـتْ بُـرْدَاكَ عـنـد الـضُّحَـى طـيـبَ مَـكَـانٍ طَـيَّـبَـتْ زيـنَـبُ
أنـفـاسُـه مـن طِـيـب أنـفـاسـهـا فَـطِـيـبُـهـا مـن طِـيـبِـهِ أعْـجَـبُ

ولنا هذا المعنى في غير هذا الرويّ: [البسيط]

ما الطِّيبُ في المِسْك إلاَّ طيبُ رَيَّاهَا والنورُ في الشَّمس إلاَّ من مُحَيَّاهَا
الخُلْدُ مَأوى الحسانِ الحورِ تَسْكُنُه وذاتُـهـا لـجِـنَـان الـخُـلْـدِ مَـأْواهَـا

وأمّا قوله بعد هذا: [السريع]

أو نـاسَـمَـتْ ريَّـاكَ روضَ الـحِـمَـى وذَيْـلُـهـا مـن فـوقـه تَـسْـحَـبُ

فهذا مثل الأوّل جعل الطيب للروض من ذيل زينب لما سحبته على ذلك المكان طاب من طيب ذيلها، وطيب ذيلها من طيب طيبت ثيابها به مثل العقد سواء، فما ذكر ما يدل على أن طيب هذه الأماكن من طيب أنفاسها، وإذا كان هذا فلا يطيب إلاَّ من ليس بطيب أو ليس له ذلك الطيب ولذا قلنا: لو قال النفس الأطيب لا الطيب لكان أشعر وأثبت في المدح، ثم قوله للنسيم: [السريع]

فـهـاتِ أتْـحِـفْـنـي بـأخـبـارهـا فـعَـهْـدُك الـيـومَ بـهـا أقـرَبُ

كلام غير محقق فإن نسيم الريح ما له عهد قريب إلاَّ بالمكان وروض الحمى لا بزينب، والطيب للمكان من العقد وللروض من الذيل، فلم ينقل هذا النسيم شيئاً من طيبها المختص بذاتها ولو كانت مشهودة للنسيم حين هب على المكان والروض بقوله: وذيلها، فذكر ما يدخله الاحتمال في الحال فإنه يحتمل أن يكون الحال في قوله: وذيلها، أي في حال مرورها أكسبت هذا الروض الطيب من ذيلها، ويحتمل أن يكون شهود الريح لها في حال مرورها على روض الحمى وهذا بعيد والأوّل أقرب، فإنه لو مرّ بها مشاهداً لها في حال انسحاب ذيلها على الروض لنقل طيب ذيلها الأطيب الروض من ذيلها، فدل أنه ما شاهدها نسيم الريح، وإذا لم يشاهدها فليس عهده بها قريباً، وإنما عهده قريب بالمكان الذي مرّت عليه. ثم فيه من النقص بقوله «أقرب» وصفها بالأمر العام في كل طيب إذ المكان الذي يبقى فيه

الطيب إنما يكون قريب العهد بالطيب في جلوسه فيه أو مروره عليه وهذا ليس بمخصوص بها، بل قال إن طيبها في المكان لا يزول بعد أن اكتسبه منها وأنه بها بعيد عهد ومع هذا فالطيب باق لقوّة سلطانه لكان أشعر، والنسيم ما نقل إليه إلاَّ طيب المكان والروض فكان ينبغي أن يصدق، فكان يقول: فعهدك اليوم به أقرب يعني بالمكان أو بكل واحد منهما يعني الروض والمكان، أو يقول بهم أقرب فكذب بقوله بها أقرب، ثم إنه لا يلزم طيب المكان ولا طيب الروض من إلقاء العقد ولا من طيب الذيل، قد يكون طيب الروض من الزهر وطيب المكان من أمر آخر مع وجود العقد فيه وانسحاب الذيل على الروض فهو قاصر بكل وجه، فهذا شعر لطيف اللفظ مليح وهو بالمعنى ليس بشيء، لأنّ جمال الشعر والكلام أن يجمع بين اللفظ الرائق والمعنى الفائق فيحار الناظر والسامع فلا يدري اللفظ أحسن أو المعنى أو هما على السواء، فإنه إذا نظر إلى كل واحد منهما أذهله الآخر من حسنه، وإذا نظر فيهما معاً حيراه، فما يستحسن مثل هذا الشعر إلاَّ ذو قلب كثيف، فإن اللفظ لطيف والمعنى كثيف، وإذا كان المعنى قبيحاً عند الصحيح النظر لم يحجبه حسن اللفظ عن قبح المعنى، فإن مثاله عندي مثال من يحب صورة في غاية الحسن منقوشة في جدار مزينة بأنواع الأصبغة تامة الخلق لا روح لها، فإن المعنى للفظ كالروح للصورة هو جمالها على الحقيقة، انظر في إعجاز القرآن تجده كما ذكرنا حسن النظم مع توفير المعنى وحسن مساقه وجمع المعاني بعضها إلى بعض في اللفظ الحسن النظم الوجيز مع وجود تكرار القصة الموجب للملل، ولا تجد هذا في القرآن فتجد مع تكرار القصة الواحدة مثل قصص الأمم كآدم وموسىٰ ونوح وغيرهم ممّا تكرّر بزيادة لفظ أو نقصه ما تجد إخلالاً في المعنى جملة واحدة، وسبب ذلك أنه قول حق ما فيه تزوير.

ولما أتينا على تنبيه ما في قول هذا الشاعر مع كونه لم يخرج عن حقيقة هذا الباب في ذلك فإنه باب النفس بفتح الفاء والشعر من الكلام فهو من باب الأنفاس، فثم أنفاس يخرج معها تحقيق المعاني على ما هي عليه في تركيب بعضها مع بعض، وثم أنفاس بالعكس. فلنرجع إلى النفس الرحماني الذي ظهر عنه حروف الكائنات وكلمات العالم على مراتب مخارج الحروف من نفس المتنفس الإنساني الذي هو أكمل النشآت كلها في العالم وهي ثمانية وعشرون حرفاً لكل حرف اسم عينه المقطع مقطع نفسه، فأوّلها الهاء وآخرها الواو، ومنها حروف مفردة المخرج كالحرف المستطيل والمنحرف والمكرّر، ومنها مشتركة في المخرج كحروف الصفير، وإن كان بين المشترك تفاوت فهو قريب بعضها من بعض يجد اللافظ الصحيح اللفظ في حال التلفظ بها الفرق بين الحرفين المشتركين كالطاء والتاء والدال، فهذه الثلاثة وإن كانت من مخرج واحد فهو على التقارب لا على التحقيق، ولهذا اختلفت الألقاب عليه لاختلاف أحوالها في المخارج، فيكون للحرف الواحد ألقاب متعددة لدرجات له في النفس عند التكوين منه في مقطع الحرف يمتاز به عن الذي يقاربه في المخرج الذي أوجب له أن يقال فيه أنه مشترك كحرف الصاد غير المعجمة مثلاً فإنه من الحروف

المهموسة، ويشارك الكاف في الهمس وهو من حروف الصفير، فهو يشارك الزاي في الصفير وهو من الحروف المطبقة، فهو يشارك الطاء في الإطباق وهو من الحروف الرخوة، فهو يشارك العين في الرخاوة وهو من الحروف المستعلية، فهو يشارك القاف في الاستعلاء فهذا حرف واحد اختلف عليه ألقاب كثيرة لظهوره في مراتب متعددة قابل بذاته كل مرتبة صالح لها فاختلفت الاعتبارات فاختلفت الأسماء، كذلك نقول في العقل الأوّل عقلاً لمعنى يخالف المعنى الذي لأجله نسميه قلما يخالف المعنى الذي لأجله نسميه روحاً يخالف المعنى الذي لأجله نسميه قلباً: [البسيط]

والعينُ واحدةٌ والحُكْمُ مختَلِفٌ لـذا تَنَوَّعَتِ الأرواحُ والصُّوَرُ

كذلك الحق أصل الوجود الواحد الأحد الذي لا يقبل العدد، فهو وإن كان واحد العين فهو المسمّى بالحي القيوم العزيز المتكبر الجبار إلى تسعة وتسعين اسماً لعين واحدة وأحكام مختلفة، فما المفهوم من الاسم الحيّ هو المفهوم من الاسم المريد ولا القادر ولا المقتدر كما قلنا في حرف الصاد وكذلك سائر الحروف، فخرجت الحروف من نفس المتنفس الإنساني الذي هو أكمل النشآت وبه ظهرت وبنفسه جميع الحروف، فكان على الصورة الإلهية بالنفس الرحماني، وظهور حروف الكائنات وعالم الكلمات سواء، وكلها النفس الإنساني ثمانية وعشرين حرفاً محققة لما صدر من النفس الرحماني أعيان الكلمات الإلهية ثمانياً وعشرين كلمة لكل كلمة وجوه فصدر عن نفس الرحمن وهو العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، فكان العماء كالنفس الإنساني وظهور العالم في امتداده في الخلاء بحسب مراتب الكائنات كالنفس الإنساني من القلب وامتداده إلى الفم، وظهور الحروف في الطريق والكلمات كظهور العالم من العماء الذي هو نفس الحق الرحماني في المراتب المقدّرة في الامتداد المتوهم لا في جسم وهو الخلاء الذي ملأه العالم، فكما كان أوّل حرف ظهر من أعيان العالم من هذا النفس لما طلب الخروج إلى الغاية وهو نهاية الخلاء كما كان غاية امتداد النفس إلى الشفتين فظهرت الهاء أوّلاً والواو آخراً وليس وراء ذلك حرف يعقل، فكانت أجناس العالم منحصرة وأشخاصه لا تتناهى وجوداً فإنها تحدث ما دام السبب موجوداً والسبب لا ينقضي، فإيجاد أشخاص النوع لا ينقضي.

فأما حصر العالم على عدد الحروف من أجل النفس في ثمانية وعشرين لا تزيد ولا تنقص، فأوّل ذلك العقل وهو القلم وهو قول النبيّ ﷺ: «**إِنَّهُ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ العَقْل**» وفي خبر آخر: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَم**» الحديث، فكان أوّل خلق خلقه الله من النفس الذي هو العماء القابل لفتح صور العالم فيه العقل وهو القلم، ثم النفس وهو اللوح، ثم الطبيعة، ثم الهباء، ثم الجسم، ثم الشكل، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم الأطلس، ثم فلك الكواكب الثابتة، ثم السماء الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، ثم كرة النار، ثم كرة الهواء، ثم كرة الماء، ثم التراب، ثم المعدن، ثم النبات، ثم الحيوان، ثم الملك، ثم الجنّ، ثم البشر، ثم المرتبة، والمرتبة هي الغاية في كل موجود،

كما أن الواو غاية حروف النفس، وقصدت ذكر أسماء العالم لا ترتيب وجوده كما قصد في: أبجد هوّز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ، حصر الحروف لا ترتيب وجودها في المخارج، ولكل موجود ممّا ذكرنا مرتبة وأحكام ونسب معلومة عند العلماء بالله، وكل واحد له مقام معلوم يتميز به لا يكون للآخر، كما أن له أموراً يشترك فيها مع غيره خلقاً وحكماً. فأما في الخلق فكأشخاص النوع الواحد، وأنواع الجنس الواحد مثل الأفلاك تشترك في الاستدارة الفلكية وفي الجسمية من حيث التركيب، وما ذكرنا إلاّ ما يختص بعالم الدنيا، كما أنه ما ذكرنا من الحروف إلاّ ما يختص بالنفس الإنساني اليوم إذ لا نتكلم إلاّ في وجود، فإنا لا نحيط بالله علماً، فتكلمنا على قدر ما أعطانا من العلم به، وليس في الإمكان أبدع ممّا خلق لأنه الصادق وقد قال: إنه خلق العالم على صورته وأكمل منه فلا يكون فأكمل من هذا العالم فلا يكون. وقد وقعت لنا واقعة في هذا الباب من الحق قد تقدم ذكرها.

ثم لتعلم أن أقرب شبه بالنفس بل هو عين النفس حروف العلة وهو الألف والواو المضموم ما قبلها والياء المكسور ما قبلها، وليست هذه الثلاثة الحروف من الحروف الصحاح المحققة في الحرفية هي أجل من ذلك وإطلاق الحرف عليها بطريق المجاز، وما يدل عليها إلاّ الحرف إذا انفتح وأشبع الفتحة، أو ضم فأشبع الضمة، أو كسر فأشبع الكسرة، فذلك الدليل على إبراز هذه الحروف، كما كان العالم من أجل حدوثه الذي هو بمنزلة إشباع الحركات في الحروف دليلاً على وجود الحق سواء فافهم ما ذكرناه. وثم إن الحروف لها خواص هي عليها أعطتها لها المخارج فهي في النفس مجموعة إذ هو يجمعها وفي أعيان الحروف والكلمات مفترقة، فإذا جرى النفس من أول الحروف إلى غايتها فإنه يفعل كل حرف يتأخر وجوده لتأخر مخرجه عند انقطاع النفس ما يفعله كل حرف في مخرج تقدمه فهو يحوي على قوّة كل حرف تقدمه، لأن النفس مرّ في خروجه على تلك المخارج إلى أن انقطع عند هذا المخرج فنقل معه مرتبة كل حرف، فظهرت في قوّة الحرف المتأخر، وآخر الحروف الواو، ففي الواو قوّة جميع الحروف، كما أن الهاء أقل في العمل من جميع الحروف فإن لها البدو، فكلمة هو جمعت جميع قوى الحروف في عالم الكلمات، فلهذا كانت الهوية أعظم الأشياء فعلاً، وكذلك الإنسان آخر غاية النفس، والكلمات الإلهية في الأجناس، ففي الإنسان قوّة كل موجود في العالم فله جميع المراتب ولهذا اختصّ وحده بالصورة، فجمع بين الحقائق الإلهية وهي الأسماء وبين حقائق العالم فإنه آخر موجود، فما انتهى لوجوده النفس الرحماني حتى جاء معه بقوّة مراتب العالم كله، فيظهر بالإنسان ما لا يظهر بجزء جزء من العالم ولا بكل اسم اسم من الحقائق الإلهية، فإن الاسم الواحد ما يعطي ما يعطي الآخر ممّا يتميز به، فكان الإنسان أكمل الموجودات والواو أكمل الحروف، وكذا هي في العمل عند من يعرف العمل بالحروف، فكل ما سوى الإنسان خلق إلاّ الإنسان فإنه خلق وحق، فالإنسان الكامل هو على الحقيقة الحق المخلوق به أي المخلوق بسببه العالم، وذلك لأنّ الغاية هي المطلوبة بالخلق المتقدم عليها، فما خلق ما تقدم عليها إلاّ لأجلها وظهور عينها ولولا ما ظهر

ما تقدمها، فالغاية هو الأمر المخلوق بسببه ما تقدم من أسباب ظهوره وهو الإنسان الكامل، وإنما قلنا الكامل لأنّ اسم الإنسان قد يطلق على المشبه به في الصورة كما تقول في زيد إنه إنسان، وفي عمرو إنه إنسان، وإن كان زيد قد ظهرت فيه الحقائق الإلهية وما ظهرت في عمرو، فعمرو على الحقيقة حيوان في شكل إنسان كما أشبهت الكرة الفلك في الاستدارة وأين كمال الفلك من الكرة؟ فهذا أعني بالكامل، فحاز الإنسان جميع المراتب برتبته، كما حازت الواو جميع قوى الحروف، فدل أن الواو كانت المطلوبة بالكلام لتوجد، فوجد بسببها جميع ما وجد في الطريق باستعداد المخارج من الحروف حتى انتهى إلى الواو.

ثم لتعلم أن نفس المتنفس لم يكن غير باطن المتنفس فصار النفس ظاهراً وهو أعيان الحروف والكلمات، فلم يكن الظاهر بأمر زائد على الباطن فهو عينه، واستعداد المخارج لتعيين الحروف في النفس استعداد أعيان العالم الثابتة في نفس الرحمان، فظهر عين الحكم الاستعدادي الذي في العالم الظاهر في النفس فلهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وقال للنفس المطمئنة: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [سورة الفجر: الآية ٢٨] كما قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] أي إن لم ترجعي راضية من ذاتك وإلاّ أجبرت على الرجوع إلى ربك، فتعلم أنك ما أنت أنت، وإذا رجعت راضية فهي النفس العالمة المرضية عند الله فدخلت في عباده فلم تنسب ولا انتمت إلى غيره ممّن اتخذ إلهه هواه ودخلت في جنته أي في كنفه وستره، فاستترت هذه النفس به فكان هو الظاهر وهي غيب فيه فهي باطنة، إذ كانت هي عين النفس والنفس باطن، فقامت للرحمن بهذا النعت من الدخول في الستر المضاف إليه بقوله: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [سورة الفجر: الآية ٣٠] مقام الروح للجسم الصوري فإنه ستر عليه، فالجسم المشهود والحكم للروح، فالظاهر الحق والحكم للروح وهو استعداد العالم الذي أظهر الاختلاف في الحق الظاهر، فهذا معنى قوله: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ وأضافه إلى نفسه: [الكامل]

فالربُّ والمَرْبُوبُ مرْتَبطانِ ثَنَّى الوجودَ به وليس بثَانِ
ما إن رأيتُ ولا سمِعْتُ بمثله إلاّ الذي قالوه في العُمَرانِ

والقمران. يريدون أبا بكر وعمر ﴿والشمس والقمر﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فأثبت بالضمير ونفى بالفعل الذي هو خلق كما انتفى أبو بكر، فلم يظهر له اسم في العمران وأثبته ضمير التثنية وهو قولهم: العمران، فسبحان من أخفى عنه حكمته فيه فظهر في الوجود العليم الذي لا يعلم كالرامي الذي ما رمى، فالحروف ليست غير النفس ولا هي عين النفس، والكلمة ليست غير الحروف وما هي عين الحروف: [الكامل]

والجَمْعُ حالٌ لا وجودَ لعَيْنه وله التَّحكُّمُ ليس للآحادِ

وصل: واعلم أن الله لما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فجعل الأسماء الحسنى لله كما هي للرحمن، غير أن هنا دقيقة وهي أن الاسم له معنى وله صورة، فيدعى الله بمعنى الاسم، ويدعى الرحمن بصورته لأنّ

الرحمن هو المنعوت بالنفس، وبالنفس ظهرت الكلمات الإلهية في مراتب الخلاء الذي ظهر فيه العالم فلا ندعوه إلاّ بصورة الاسم، وله صورتان صورة عندنا من أنفاسنا وتركيب حروفنا وهي التي ندعوه بها وهي أسماء الأسماء الإلهية وهي كالخلع عليها، ونحن بصورة هذه الأسماء التي من أنفاسنا مترجمون عن الأسماء الإلهية، والأسماء الإلهية لها صور من نفس الرحمن من كونه قائلاً ومنعوتاً بالكلام، وخلف تلك الصور المعاني التي هي لتلك الصور كالأرواح، فصور الأسماء الإلهية التي يذكر الحق بها نفسه بكلامه وجودها من نفس الرحمن ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأرواح تلك الصور هي التي للاسم الله خارجة عن حكم النفس لا تنعت بالكيفية، وهي لصور الأسماء النفسية الرحمانية كالمعاني للحروف.

ولما علمنا هذا وأمرنا أن ندعوه بأسمائه الحسنى وخيّرنا بين الله والرحمن فإن شئنا دعوناه بصورة الأسماء النفسية الرحمانية وهي الهمم الكونية التي في أرواحنا، وإن شئنا دعوناه بالأسماء التي من أنفاسنا بحكم الترجمة وهي الأساء التي يتلفظ بها في عالم الشهادة، فإذا تلفظنا بها أحضرنا في نفوسنا أما الله فننظر المعنى، وأما الرحمن فننظر صورة الاسم الإلهي النفسي الرحماني كيفما شئنا فعلنا، فإن دلالة الصورتين منا ومن الرحمن على المعنى واحد سواء علمنا ذلك أو لم نعلمه.

ولما كان ذكر أسمائه عين الثناء عليه ذكرنا في هذا الباب ما هو فينا مثل كلمة ﴿كُن﴾ منه وذلك البسملة، يقول أهل الله: إن بسم الله منّا في إيجاد الأفعال بمنزلة ﴿كُن﴾ منه، ولما كان القرآن ذكراً وجامعاً لأسمائه صوراً ومعاني جعلنا التلاوة في هذا الباب من جملة الأذكار، فلا نذكر من الأذكار إلاّ ما يختص بالقرآن، فنذكره بكلامه من حيث علمه بذلك لا من حيث علمنا، فيكون هو الذي يذكر نفسه لا نحن، ولما كان دعاؤنا بأسمائه القرآنية وكنا ذاكرين تالين وجب علينا التعوّذ وهو من الذكر فيعيذنا، وسقنا من الأذكار الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا إله إلاّ الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، فلنذكر فهرست ما أنا ذاكره في هذا الباب من فصول ما يتكلم عليه ممّا يختص بالنفس الإلهيّ، ومراتب الذاكرين من العالم في الذكر، لأن الذاكرين هم أعلى الطوائف لأنه جليسهم، ولهذا ختم الله بذكرهم صفات المقرّبين من أهل الله ذكرانهم وإناثهم فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] وما ذكر بعد الذاكرات شيئاً، والذكر من نعوت كونه متكلماً وهو نفس الرحمن الذي ظهرت فيه حقائق حروف الكائنات وكلمات الحضرة.

ذكر فهرست الفصول وهي خمسون فصلاً

الفصل الأوّل: في ذكر الله نفسه بنفس الرحمن وبه أوجد العالم من كونه أحب ذلك.

الفصل الثاني: في كلام الله وكلماته.

الفصل الثالث: في ذكر التعوّذ.
الفصل الرابع: في الذكر بالبسملة.
الفصل الخامس: في كلمة الحضرة وهي كلمة ﴿كُن﴾.
الفصل السادس: في الذكر بالحمد.
الفصل السابع: في الذكر بالتسبيح.
الفصل الثامن: في الذكر بالتكبير.
الفصل التاسع: في الذكر بالتهليل.
الفصل العاشر: في الذكر بالحوقلة.
الفصل الحادي عشر: في الاسم البديع وتوجّهه على إيجاد العقل والعقول وهو القلم الأعلى، ومن الحروف على الهمزة وتفاصيل الهمزة، ومن المنازل على الشرطين والإمداد الإلهيّ النفسي ومراتبه الذاتية والزائدة.
الفصل الثاني عشر: في الاسم الباعث وتوجهه على إيجاد اللوح المحفوظ وهو النفس الكلية وهو الروح المنفوخ منه في الصور المسوّاة بعد كمال تعديلها، فيهبها الله بذلك النفخ أيّ صورة شاء وتوجهه على إيجاد الهاء من الحروف وهاء الكنايات وتوجهه على إيجاد البطين من المنازل.

الفصل الثالث عشر: في الاسم الباطن وتوجهه على خلق الطبيعة وما يعطيه من أنفاس العالم وحصرها في أربع حقائق وافتراقها واجتماعها وتوجهه على إيجاد العين المهملة وإيجاد الثريا من المنازل.

الفصل الرابع عشر: في الاسم الآخر وتوجهه على خلق الجوهر الهبائي الذي ظهر فيه صور الأجسام وما يشبه هذا الجوهر في عالم التركيب، وإيجاد الحاء المهملة من الحروف، وإيجاد الدبران من المنازل المقدرة.

الفصل الخامس عشر: في الاسم الظاهر وتوجهه على إيجاد الجسم الكل، وإيجاد الغين المعجمة من الحروف، وإيجاد الميسان وهي الهقعة من المنازل.

الفصل السادس عشر: في الاسم الحكيم وتوجهه على إيجاد الشكل وحرف الخاء المعجمة والتحية من المنازل.
الفصل السابع عشر: في الاسم المحيط وتوجهه على إيجاد العرش والعروش المعظمة والمكرّمة والممجدة، وحرف القاف من الحروف والذراع من المنازل.
الفصل الثامن عشر: في الاسم الشكور وتوجهه على إيجاد الكرسي والقدمين وحرف الكاف والنثرة.
الفصل التاسع عشر: في الاسم الغنيّ وتوجهه على إيجاد الفلك الأطلس فلك البروج

وحدوث الأيام بوجود حركته واستعانته بالاسم الدهر على ذلك وحرف الجيم والطرف.

الفصل العشرون: في الاسم المقدّر وتوجهه على إيجاد فلك الكواكب الثابتة والجنات وتقدير صور الكواكب في مقعر هذا الفلك وكونه أرض الجنة وسقف جهنم وحرف الشين المعجمة والجبهة.

الفصل الحادي والعشرون: في الاسم الرب وتوجهه على إيجاد السماء الأولى والبيت المعمور وسدرة المنتهى وإبراهيم الخليل ويوم السبت، وحرف الياء بالنقطتين من أسفل، والخرثان من المنازل المقدرة وخانس هذه السماء وكوكبها.

الفصل الثاني والعشرون: في الاسم العليم وتوجهه على إيجاد السماء الثانية وخانسها ويوم الخميس وموسىٰ عليه السلام، وحرف الضاد المعجمة والصرفة من المنازل.

الفصل الثالث والعشرون: في الاسم القاهر وتوجهه على إيجاد السماء الثالثة وخانسها ويوم الثلاثاء وحرف اللام والعوّا.

الفصل الرابع والعشرون: في الاسم النور وتوجهه على إيجاد السماء الرابعة وهي قلب جسم العالم المركب وإيجاد الشمس وحدوث الليل والنهار في عالم الأركان وروح إدريس عليه السلام وقطبيته وحرف النون والسماك الأعزل ويوم الأحد ونفخ الروح الجزئي عند كمال تصوير النطف.

الفصل الخامس والعشرون: في الاسم المصوّر وتوجهه على إيجاد السماء الخامسة وخانسها والتصوير والحسن والجمال ويوسف عليه السلام، وحرف الراء والغفر ويوم الجمعة.

الفصل السادس والعشرون: في الاسم المحصي وتوجهه على إيجاد السماء السادسة وخانسها وعيسىٰ عليه السلام والاعتدال، وحرف الطاء المهملة والزبانا ويوم الأربعاء.

الفصل السابع والعشرون: في الاسم المتين وتوجهه على إيجاد السماء الدنيا والقمر وآدم عليه السلام والمد والجزر، وحرف الدال المهملة والإكليل ويوم الاثنين.

الفصل الثامن والعشرون: في الاسم القابض وتوجهه على إيجاد الأثير وما يظهر فيه من ذوات الأذناب والاحتراقات، ومن الحروف حرف التاء المنقوطة باثنتين من فوق والقلب من المنازل.

الفصل التاسع والعشرون: في الاسم الحيّ وتوجهه على إيجاد ما ظهر في ركن الهواء، وحرف الزاي من الحروف ومن المنازل الشولة.

الفصل الثلاثون: في الاسم المحيي وتوجهه على إيجاد ما ظهر في الماء، وحرف السين المهملة والنعائم.

الفصل الحادي والثلاثون: في الاسم المميت وتوجهه على إيجاد التراب وحرف الصاد المهملة والبلدة.

الفصل الثاني والثلاثون: في الاسم العزيز وتوجهه على إيجاد المعادن وحرف الظاء المعجمة والذابح.

الفصل الثالث والثلاثون: في الاسم الرزاق وتوجهه على إيجاد النبات، وحرف الثاء المعجمة بثلاث ومن المنازل بلع.

الفصل الرابع والثلاثون: في الاسم المدل وتوجهه على إيجاد الحيوان، وحرف الذال المعجمة ومن المنازل السعود.

الفصل الخامس والثلاثون: في الاسم القويّ وتوجهه على إيجاد الملائكة، وحرف الفاء والأخبية.

الفصل السادس والثلاثون: في الاسم اللطيف وتوجهه على إيجاد الجن، حرف الباء المعجمة بواحدة والفرع المقدم.

الفصل السابع والثلاثون: في الاسم الجامع وتوجهه على إيجاد الإنسان، وحرف الميم والمؤخر.

الفصل الثامن والثلاثون: في الاسم رفيع الدرجات وتوجهه على تعيين الرتب والمقامات والمنازل، وحرف الواو ومن المنازل الرشا.

الفصل التاسع والثلاثون: في النقل وأين مقامه في الأنفاس.

الفصل الأربعون: في معرفة الجلي والخفي من الأنفاس وهو بمنزلة الإدغام والإظهار في الكلام.

الفصل الحادي والأربعون: في الاعتدال والانحراف في النفس وهو بمنزلة الفتح والإمالة وبين اللفظين.

الفصل الثاني والأربعون: في الاعتماد على الناقص والميل إليه، وهو في الكلام معرفة الوقف على هاء التأنيث وهو من باب الأنفاس أيضاً.

الفصل الثالث والأربعون: في الإعادة وهي التكرار وأين هو في النفس.

الفصل الرابع والأربعون: في اللطيف من النفس يرجع كثيفاً وما سببه والكثيف يرجع لطيفاً من النفس وما سببه وعليه مبنى أصوات الملاحن.

الفصل الخامس والأربعون: في الاعتماد على أصناف المحدثات وهو في باب النفس الإنساني الوقف على أواخر الكلم في اللسان.

الفصل السادس والأربعون: في الاعتماد على العالم من حيث ما هو في كتاب مسطور في رق الوجود المنشور في عالم الأجسام الكائن من الاسم الظاهر.

الفصل السابع والأربعون: في الاعتماد على الوعد قبل كونه، وهو الاعتماد على المعدوم لصدق الوعد وهو في الأنفاس السكوت على الساكن قبل الهمزة.

الفصل الثامن والأربعون: في الاعتماد على الكائنات وما يظهر منها من الفتوح وهو الأينية في الطريق وكيف يرجع المعلول صحيحاً والصحيح عليلاً.

الفصل التاسع والأربعون: فيما يعدم ويوجد ممّا يزيد على الأصول التي هي بمنزلة النوافل مع الفرائض.

الفصل الخمسون: في الأمر الجامع لما يظهر في النفس من الأحكام في كل متنفس حقاً وخلقاً وحيواناً ونطقاً، وبه تمام باب النفس على الاقتصاد والاختصار إن شاء الله. ثم اللواحق وهي الأقسام الإلهية التي نفس الله بها عن عباده وهي من نفس الرحمن.

الفصل الأول: في ذكر الله نفسه بنفس الرحمن. ورد في الحديث الصحيح كشفاً لغير الثابت نقلاً عن رسول الله ﷺ عن ربه جلّ وعزّ أنه قال ما هذا معناه: «**كُنْتُ كَنْزاً لَمْ أُعْرَفْ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ وَتَعَرَّفْتُ إِلَيهِمْ فَعَرَفُونِي**»: ولما ذكر المحبة علمنا من حقيقة الحب ولوازمه ممّا يجده المحب في نفسه، وقد بيّنا أن الحب لا يتعلق إلاّ بمعدوم يصح وجوده وهو غير موجود في الحال والعالم محدث والله كان ولا شيء معه، وعلم العالم من علمه بنفسه، فما أظهر في الكون إلاّ ما هو عليه في نفسه، وكأنه كان باطناً فصار بالعالم ظاهراً، وأظهر العالم نفس الرحمن لإزالة حكم الحب وتنفس ما يجد المحب، فعرف نفسه شهوداً بالظاهر، وذكر نفسه بما أظهره ذكر معرفة وعلم وهو ذكر العماء المنسوب إلى الرب قبل خلق الخلق وهو ذكر العام المجمل، وأن كلمات العالم بجملتها مجملة في هذا النفس الرحماني وتفاصيله غير متناهية، ومن هنا يتكلم من يرى قسمة الجسم عقلاً إلى ما لا يتناهى مع كونه قد دخل في الوجود، وكل ما دخل في الوجود فهو متناه، والقسمة لم تدخل في الوجود فلا تتصف بالتناهي، وهؤلاء هم الذين أنكروا الجوهر الفرد الذي هو الجزء الذي لا ينقسم، وكذلك العماء وإن كان موجوداً فتفاصيل صور العالم فيه على الترتيب دنيا وآخرة غير متناهي التفصيل، وذلك أن النفس الرحماني من الاسم الباطن يكون الإمداد له دائماً، والذكر له في الإجمال دائماً، فهو في العالم كآدم في البشر. لما علم آدم الأسماء كلها أعلمنا بهذا أن العماء من حيث ما هو نفس رحماني قابل لصور حروف العالم وكلماته هو حامل الأسماء كلها، وكلمات الله ما تنفد، فذكر الله لا ينقطع، والرحمن يذكر الله بأسمائه وهو أيضاً مسمّى بها ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] ويذكر نفسه من كونه متكلماً ومفصلاً، فذكر الرحمن مجمل وذكر الله مفصل.

الفصل الثاني: في كلام الله وكلماته. الكلام والقول نعتان لله، فبالقول يسمع المعدوم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وبالكلام يسمع الموجود وهو قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] وقد يطلق الكلام على الترجمة في لسان المترجم، وينسب الكلام إلى المترجم عنه في ذلك، فالقول له أثر في المعدوم وهو الوجود، والكلام له أثر في الموجود وهو العلم، والموصوف بالتبديل في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٥] هو في الترجمة فإنها تقبل التبديل والمعاني تابعة للكلام، فلا يفهم من الأمر الذي حرف به وبدل المعنى الذي يفهم من الأصل، ولذلك ألحق التبديل والتحريف بالأصل، وإن كان لا يقبل التحريف ولا التبديل لأنه كلام إلهي لا يحكى ولا يوصف بالوصف الذاتي، فإذا وقع التجلي في أي صورة كانت فلا تخلو أن تكون من الصور

المنسوب إليها الكلام في العرف أو لا تكون، فإن كانت من الصور المنسوب إليها الكلام فكلامها من جنس الكلام المنسوب إليها لحكم الصورة على التجلي مثل قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [سورة النمل: الآية ١٦] ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [سورة النمل: الآية ١٨] وإن كان ممّا لا ينسب إليه الكلام في العرف فلا يخلو إما أن تكون ممّن ينسب إليها القول بالإيمان مثل قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٩] وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١] وإما أن لا تكون ممّن نسب إليه قول ولا نطق، وهو الذي نسب إليه التسبيح الذي لا يفقه وما قال لا يسمع، إذ الكلام أو القول هو الذي من شأنه أن يتعلق به السمع والتسبيح، لو كان قولاً أو كلاماً لنفى عنه سمعنا وإنما نفى عنه فقهنا وهو العلم، والعلم قد يكون عن كلام وقول وقد لا يكون، فإذا تجلّى في مثل هذه الصور فيكون النطق بحسب ما يريده المتجلي ممّا يناسب تسبيح تلك الصورة لا يتعداه، فيفهم من كلام ذلك المتجلي تسبيح تلك الصورة وهو علم عجيب قليل من أهل الله من يقف عليه فيكون الكلام المنسوب إلى الله عزّ وجلّ في مثل هذه الصور بحسب ما هي عليه، هذا إذا وقع التجلي في المواد النورية والطبيعية، فإن وقع التجلي في غير مادة نورية ولا طبيعية وتجلّى في المعاني المجردة فيكون ما يقال في مثل هذا أنه كلام، فمن حيث أثره في المتجلى له لا من حيث إنه تكلم بكذا، وتلك الآثار كلها من طبقات الكلام الذي تقدم تسمّى كلمات الله جمع كلمة وهي أعيان الكائنات قال تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو عين عيسىٰ لم يلق إليها غير ذلك ولا علمت غير ذلك، فلو كانت الكلمة الإلهية قولاً من الله وكلاماً لها مثل كلامه لموسىٰ عليه السلام لسرت ولم تقل: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٢٣] فلم تكن الكلمة الإلهية التي ألقيت إليها إلاّ عين عيسىٰ روح الله وكلمته وهو عبده فنطق عيسىٰ ببراءة أمه في غير الحالة المعتادة ليكون آية، فكان نطقه كلام الله في نفس الرحمن، فنفس الله عن أمه بذلك ما كان أصابها من كلام أهلها بما نسبوها إليه ممّا طهرها الله عنه، ومن هنا قالت المعتزلة: إن المتكلم من خلق الكلام وفيما ليس من شأنه أن يتكلم فذلك كلام الله مثل الجماد والنبات وحالة عيسىٰ إلاّ القائلين بالشكل الغريب فيجعلون مثل هذا من الأشكال الحادثة في الكون، فقد بيّنا لك معنى كلام الله وكلماته.

وكلام الله تعالىٰ علمه وعلمه ذاته، ولا يصحّ أن يكون كلامه ليس هو، فإنه كان يوصف بأنه محكوم عليه للزائد على ذاته وهو لا يحكم عليه عزّ وجلّ، وكل ذي كلام موصوف بأنه قادر على أن يتكلم متمكن في نفسه من ذلك، والحق لا يوصف بأنه قادر على أن يتكلم فيكون كلامه مخلوقاً، وكلامه قديم في مذهب الأشعري، وعين ذاته في مذهب غيره من العقلاء، فنسبة الكلام إلى الله مجهولة لا تعرف، كما أن ذاته لا تعرف، ولا يثبت الكلام للإله إلاّ شرعاً ليس في قوّة العقل إدراكه من حيث فكره، فافهم أن النفس للرحمن، والكلام لله والقول، وهو انتهاء النفس إلى عين كلمة من الكلمات، فيظهر عينها بعد بطونها

وتفصيلها بعد إجمالها. فإن قلت: فائدة الكلام الإسماع وما في الوجود إلاّ الله وهو متكلم فمن أسمع؟ قلنا: ليس من شرط السامع أن يكون موجوداً فإنه يقول للمعدوم في حال عدمه: ﴿كُن﴾ فيكون المعدوم عندما يتعلق بسمعه الثبوتي كلام الله وأمره بالوجود، وكذلك المرئي علة رؤيته جواز رؤيته الوجود بل الاستعداد والتهيؤ، سواء كان موجوداً أو معدوماً. والجواب الآخر كما أنه تكلم من حيث ما هو منعوت بالكلام يسمع كلامه من كونه سميعاً وهما نسبتان مختلفتان. فإن قلت: ففائدة سماع الكلام حصول العلم وهو عالم لذاته. قلنا: ما كل كلام موضوع لحصول ما لا يعلم، فإن المتكلم يثني على نفسه بما هو عالم به أنه عليه فلا يستفيد بل هو للابتهاج بالكمال الذاتي، فالحق لم يزل متكلماً وإن حدث في الكون فلا يدل على حدوثه في نفس الأمر، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] يعني عندهم وإن كان قد تكلم به مع غيره قبل هذا مثل ما في التوراة وغيرها ممّا هو في القرآن، هذا إذا قلنا إنه يريد كلام الله الذي هو صفة له، وإن كان الظاهر أن السامع إنما سمع كلام المترجم عن الله كما قال إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فلنذكر فصول الأذكار الإلهية ما تيسر منها من المذكورة في القرآن فنبدأ بالتعوّذ من أجل أنه من أذكار القرآن.

الفصل الثالث في ذكر التعوّذ: قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٨] وقال ﷺ: «**وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» والحق هنا هو الذاكر بالقرآن نفسه، فالتعوّذ يكون باسم إلهيّ من اسم إلهيّ وهو الذي نبّه عليه ﷺ بقوله: «**وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» فإن كان التالي أعني الذاكر بالقرآن ممّن للشيطان عليه سبيل حينئذ يجب عليه أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فاستعاذة الحق بما هو عليه من صفات التقديس والتنزيه ممّا ينسب إليه ممّا لا يليق به كما قال تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٣] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فوقع العياذ برب العزة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] يريد ممّا يطلق عليه ممّا لا ينبغي لجلاله من الصاحبة والولد والأنداد، فهذا كله عياذ إلهيّ لأنه كلامه، وأمّا الاستعاذة به منه فهو ما ورد من تجليه في صورة تنكر فيتعوّذ المتجلي له منها بتجلّ في صورة يعرف وهو عين الصورة الأولى والثانية، وقد بيّنا لك في هذا الكتاب أنه الظاهر في مظاهر الأعيان فهو المستعيذ به منه، ومن هذا الباب قوله: «**أعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**» هو قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٦] ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٠] فيتعوّذ بالناصر من الخاذل وبالنافع من الضار، وهو القائل على لسان العبد ما ظهر عنه من التعوّذ.

الفصل الرابع في ذكر البسملة: البسملة قولك: بسم الله، وهو للعبد كلمة حضرة الكون للتكوين بمنزلة كلمة الحضرة في قوله ﴿كُن﴾ فينفعل عن العبد بالبسملة إذا تحقق بها ما ينفعل عن كن فكأنه يقول: بسم الله يكون ظهور الكون، فهو إخبار عن حقيقة اقترن بها صدق

محبوب كان الحق سمعه ولسانه فيكون عنه ما يكون عن ﴿كُن﴾ وهو قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فبإذني متعلق بقوله: فتنفخ ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] وإذ تخرج الموتى بإذني أي بأمري لما كنت لسانك وبصرك تكوّنت عنك الأشياء التي ليست بمقدورة لمن لا أقول على لسانه، فالتكوين في الحالين لي، فبسم الله عين كن.

الفصل الخامس في كلمة الحضرة الإلهية: وهي كلمة كن. لله تجلّ في صور تقبل القول والكلام بترتيب الحروف، كماله تجلٍ في غير هذا قد ذكرناه في التجلي الإلهيّ الذي خرجه مسلم في الصحيح قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فقولنا هو كونه متكلماً ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فكن عين ما تكلم به، فظهر عنه الذي قيل له كن فأضاف التكوين إلى الذي يكون لا إلى الحق ولا إلى القدرة، بل أمر فامتثل السامع في حال عدمه شيئية وثبوته أمر الحق بسمع ثبوتي فأمره قدرته وقبول المأمور بالتكوين استعداده فظهرت الأعيان في النفس الرحماني ظهور الحروف في النفس الإنساني، والشيء الذي يكون إنما هو الصورة الخاصة كظهور الصورة المنقوشة في الخشب أو الصورة في الماء المهين أو الصورة في الضلع أو الصورة في الطين أو الصورة. فإن قلت: عن وجود صدقت، وإن قلت: لم أكن صدقت. [مخلع البسيط]

فلو رأيتَ الذي رأينا ما قُلْتَ إلاّ أنا هو أنْتَا
فاعلَمْ بأن الذي سمعْتَا من قَوْلِ كُنْ منه قد خُلِقْتَا
فظَاهِر الأمْر كان قَوْلٌ وباطِن الأمر أنتَ كُنْتَا
والشَّكْلُ عينُ الذي بدا لي وهو الوجودُ الذي رأيْتَا
قد أثْبَتَ الشَّيءَ قَوْلُ ربي لو لم يَكُنْ ذاك ما وُجِدْتَا
فالعَدَمُ المَحْضُ ليس فيه ثُبُوتُ عَيْنٍ فَقُلْ صَدَقْتَا
لو لم تَكُنْ ثمَّ يا حبيبي إذ قال كُنْ لم تَكُنْ سمعْتَا
فأيَّ شيء قَبِلْتَ منه الكونَ أو كَوْنَ عَيْنِ أنْتَا

فكلمة الحضرة كلمات كما قال﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] فلم يكرّر فعين الأمر عين التكوين، وما ثم أمر إلهيّ إلاّ ﴿كُن﴾ وكن حرف وجودي عند سيبويه من واجب الوجود لا يقبل الحوادث، فالأمر في نفسه صعب تصوّره من الوجه الذي يطلبه الفكر سهل في غاية السهولة من الوجه الذي قرّره الشرع، فالفكر يقول: ما ثم شيء ثم ظهر شيء لا من شيء، والشرع يقول وهو القول الحق. [مخلع البسيط]

بل ثَمَّ شيءٌ فصَارَ كَوْنَا وكان غَيْباً فصار عَيْنَا

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧] يعني السحاب الكائن من الأبخرة هنا الصاعدة للحرارة التي فيها، والأبخرة نفس عنصريّ وليس بشيء زائد على السحاب، ولم يكن سحاباً في المتنفس بل هو شيء فظهر سحاباً فتكاثف ثم تحلل ماء فنزل

فتكون بخاراً فصعد فكان سحاباً، فانظر ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [سورة النور: الآية ٤٣] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [سورة النبأ: الآية ١٤] فينشئه ﴿سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [سورة الروم: الآية ٤٨] وهو تعدّد الأعيان ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٨] فبما في السحاب من الماء يثقل فينزل كما صعد بما فيه من الحرارة فإن الأصغر يطلب الأعظم، فإذا ثقل اعتمد على الهواء فانضغط الهواء فأخذ سفلاً فحكّ وجه الأرض فتقوت الحرارة التي في الهواء فطلب الهواء بما فيه من الحرارة القوية الصعود يطلب الركن الأعظم فوجد السحاب متراكماً فمنعه من الصعود تكاثفه فأشعل الهواء فخلق الله في تلك الشعلة ملكاً سمّاه برقاً فأضاء به الجوّ، ثم انطفأ بقوّة الريح كما ينطفىء السراج فزال ضوءه مع بقاء عينه فزال كونه برقاً وبقي العين كوناً يسبح الله، ثم صدع الوجه الذي يلي الأرض من السحاب فلما مازجه كان كالنكاح فخلق الله من ذلك الالتحام ملكاً سمّاه رعداً فسبح بحمد الله فكان بعد البرق لا بدّ من ذلك ما لم يكن البرق خلباً، فكل برق يكون على ما ذكرناه لا بدّ أن يكون الرعد يعقبه، لأن الهواء يصعد مشتعلاً فيخلقه ملكاً يسميه برقاً وبعد هذا يصدع أسفل السحاب فيخلق الله الرعد مسبحاً بحمد ربه لما أوجده ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وثم بروق وهي ملائكة يخلقها الله في زمان الصيف من حرارة الجوّ لارتفاع الشمس فتنزل الأشعة الشمسية فإذا أحرقت ركن الأثير زادت حرارة فاشتعل الجوّ من أعلى وما ثم سحاب لأنّ قوّة الحرارة تلطف الأبخرة الصاعدة عن كثافتها فلا يظهر للسحاب عين، وهنالك حكم الشين المعجمة من الحروف ولهذا سمّي حرف التفشي، فخلق الله من ذلك الاشتعال بروقاً خلباً لا يكون معها رعد أصلاً، وهذه كلها حوادث ظهرت أعيانها عن كلمة ﴿كُن﴾ في أنفاس.

وإنما جئنا بمثل هذا تأنيساً لك لتعلم ما فتح الله من الصور والأعيان في هذا النفس العنصريّ المسمّى بخاراً لتكون لك عبرة إن كنت ذا بصر فتجوز بالنظر في هذا إلى تكوين العالم من النفس الرحمانيّ الظاهر من محبة الله أن يعرفه خلقه، فما في العالم أو ما هو العالم سوى كلمات الله، وكلمات الله أمره وأمره واحدة وهو كلمح بالبصر أو هو أقرب لأنه ما ثم أسرع من لمح البصر، فإنه زمان التحاظه هو زمان إلتحاقه بغاية ما يمكن أن ينتهي إليه في التعلّق، وكذلك قوّة السمع دون ذلك، فتدبر يا أخي كلام الله، وهذا القرآن العزيز وتفاصيل آياته وسوره، وهو أحديّ الكلام مع هذا التعداد، وهو التوراة والفرقان والإنجيل والزبور والصحف، فما الذي عدّد الواحد أو وحّد العدد؟ انظر كيف هو الأمر؟ فإنك إذا علمته علمت كلمة الحضرة، وإذا علمت كلمة الحضرة علمت اختصاصها من الكلمات بكلمة ﴿كُن﴾ لكل شيء مع اختلاف ما ظهر، ومن الحروف الظاهرة بالكاف والنون، ومن الحروف الباطنة بالواو، وكيف حكم العارض على الثابت بمساعدته عليه، فردّه غيباً بعدما كان شهادة، فإن السكون هو الحاكم من النون وهو عرض لأن الأمر الإلهيّ عرض له فسكنه فوجد سكون

الواو فاستعان عليها بها كما يستعين العبد بربه على ربه، فلما اجتمع ساكنان وأرادت النون الاتصال بالكاف لسرعة نفوذ الأمر حتى يكون أقرب من لمح بالبصر كما أخبر فزالت الواو من الوسط فباشرت الكاف النون، فلو بقيت الواو لكان في الأمر بطء، فإن الواو لا بدّ أن تكون واو علة لأجل ضمة الكاف، فلا يصل النفس إلى النون الساكنة بالأمر إلاَّ بعد تحقق ظهور واو العلة فيبطىء الأمر وهي واو علة، فيكون الكون عن علتين: الواو والأمر الإلهيّ وهو لا شريك له، وإذا جاز أن يبطىء المأمور عن التكوين زماناً واحداً وهو قدر ظهور الواو لو بقيت ولا تحذف لجاز أن يبقى المأمور أكثر من ذلك فيكون أمر الله قاصراً فلا تنفذ إرادته وهو نافذ الإرادة، فحذف الواو من كلمة الحضرة لا بدّ منه والسرعة لا بدّ منها، فظهور الكون عن كلمة الحضرة بسرعة لا بدّ منه، فظهر الكون فظهرت الواو في الكون لتدل أنها كانت في ﴿كُن﴾ وإنما زالت لأمر عارض فعملت في الغيب فظهرت في الكون لما ظهر الكون بصورة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] قبل حذف الواو ليدل على أن الواو لم تعدم وإنما غابت لحكمة ما ذكرناه، فليس الكون بزائد على ﴿كُن﴾ بواوها الغيبية فظهر الكون على صورة كن، وكن أمره، وأمره كلامه، وكلامه علمه، وعلمه ذاته، فظهر العالم على صورته، فخلق آدم على صورته، فقبل الأسماء الإلهية، وقد بيّنا ما فيه الكفاية للعاقل في كلمة الحضرة والله يضرب الأمثال لعباده.

الفصل السادس في الذكر بالتحميد: الحمد ثناء عام ما لم يقيده الناطق به بأمر، وله ثلاث مراتب: حمد الحمد، وحمد المحمود نفسه، وحمد غيره له، وما ثم مرتبة رابعة في الحمد، ثم في الحمد بما يحمد الشيء نفسه أو يحمده غيره تقسيمان: إما أن يحمده بصفة فعل، وإما أن يحمده بصفة تنزيه، وما ثم حمد ثالث هنا، وأما حمد الحمد له فهو في الحمدين بذاته، إذ لو لم يكن لما صحّ أن يكون لها حمد. [الوافر]

فَحَمْدُ الحَمْدِ يُعطي الحَمْدَ فيه ولولا الحمدُ ما كان الحَميدُ

ثم إن الحمد على المحمود قسمان: القسم الواحد أن يحمد بما هو عليه وهو الحمد الأعمّ. والقسم الثاني: أن يحمد على ما يكون منه وهو الشكر وهو الأخص، فانحصرت أقسام التحميدات والمحامد وتعيين الكلمات التي تدل على ما ذكرناه لا تتناهى، فإن النبي ﷺ يقول في المقام المحمود: «**فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ**» وقال: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ**» لأَنَّ مَا لاَ يَتَنَاهَى لاَ يَدْخُلُ فِي الوُجُودِ. ولما كان كل عين حامدة ومحمودة في العالم كلمات الحق الظاهرة من نفس الرحمن ونفس الرحمن ظهور الاسم الباطن والحكم الغيب وهو الظاهر والباطن رجعت إليه عواقب الثناء، فلا حامد إلاَّ الله، ولا محمود إلاَّ الله، وحمد الحمد صفته لأن الحمد صفته وصفته عينه إذ لا يتكثر: [المتقارب]

ولا يَكْمُلُ بالزائد تعالىٰ اللّهُ فحَمْدُ الحَمْد هو فليس إلاَّ هُو

فما حَمَدَ الله إلاَّ الإلهُ ومَحْمودُه عَيْنُه لا سِواهُ

فمن حمد الله على هذا النحو فقد حمده، ومن نقصه من ذلك شيئاً فهو بقدر ما نقصه،

فإن كنت حامداً لله فلتحمده بهذا الحضور وهذا التصور، فيكون الجزاء من الله لمن هذا حمده عينه فافهم.

الفصل السابع: في الذكر بالتسبيح. التسبيح التنزيه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ [سورة النصر: الآية ٣] هذا أمر ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] خبر التسبيح قسم من أقسام الحمد، ولهذا فإن الحمد يملأ الميزان على الإطلاق ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وغير ذلك من الأذكار تحت حيطة الحمد، فإذا ظهر التسبيح فانظر كيف تسبحه، فإن الجهل يتخلل هذا المقام تخللاً خفياً لا يشعر به فإنه كما قال ﷺ لحسان بن ثابت لما أراد أن يهجو قريشاً ينافح بذلك عن رسول الله ﷺ لما هجته قريش وهو منها فنفسها هجت ولم تعلم بذلك وعلم بذلك رسول الله ﷺ فإنه العالم الأتم، وقد علم رسول الله ﷺ أن الذي انبعث إليه حسان بن ثابت من هجاء قريش أن ذلك ممّا يرضي الله لحسن قصده في ذلك، وما علم ذلك رسول الله ﷺ إلاّ لما رأى روح القدس الذي يجيئه قد جاء إلى حسان بن ثابت يؤيّده من حيث لا يشعر ما دام ينافح عن عرض رسول الله ﷺ، وإنما أقرّ الله ذلك إعلاماً لقريش بأن أعمالهم تعود عليهم، إذ كان الهجاء ممّا عملته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٢] ليعلموا صدق رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**إنّي مِنهُمْ فَانْظُرْ مَا تَقولُ وَكَيفَ تَقولُ؟ وَائتِ أَبَا بَكرٍ فَإنَّهُ أَعرَفُ بِالأَنْسَابِ فَيُخبِرُكَ حَتّى لاَ تَقُولَ كَلاماً يَعُودُ على رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَتَكُونَ قَدْ وَقَعْتَ فِيما وَقَعُوا فِيهِ**»، فَقَالَ لَهُ حَسّانُ بنُ ثَابِتٍ: وَاللّهِ لأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ؛ لأنه لا يعلق بها شيء من العجين، وهكذا باب التسبيح فإنه تنزيه، والتنزيه عبارة عن العدم ليس بتنزيه، وإنما يكون التنزيه عن كل صفة تدل على الحدوث لاتصافه بالقدم، وصفات الحدوث إنما هي للمحدثات وهنا زلّت الأقدام في العلم بالمحدثات ما هي المحدثات وما في الوجود إلاّ الله، فإن الموجودات كلمات الله وبها يثنى على الله، فإذا نزّه المنزّه ربه ولا ينزهه إلاّ عما هو صفة للمحدث والمحدث ليس له من نفسه شيء ولا عينه له وإنما هي لمن أظهرها، فإذا نزّه الحق عن شيء لا يثنى عليه إلاّ به وبأمثاله فقد تركت من الثناء عليه ما كان ينبغي لك أن تثني عليه به، فإذا سبحته فتحقق عن أي شيء تنزهه إذ ما ثم إلاّ هو، فإن نفس الرحمن هو جوهر الكائنات، ولهذا وصف الحق نفسه بما هو من صفات المحدثات ممّا تحيله الأدلة النظرية العقلية.

واحذر أن تسبحه بعقلك، واجعل تسبيحه منك بالقرآن الذي هو كلامه فتكون حاكياً لا مخترعاً ولا مبتدعاً، فإن كان هناك ما يقدح كنت أنت بريء الساحة من ذلك إذ ما سبحه إلاّ كلامه وهو أعلم بنفسه منك وهو يحمد ذاته بأتم المحامد وأعظم الثناء كما قال ﷺ: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وقد أثنى على نفسه بما يقول فيه دليل العقل أنه لا يجوز عليه ذلك وينزهه عنه، وهذا غاية الذم وتكذيب الحق فيما نسبه إلى نفسه وعلمك بأنك أعرف به منه، فاحذر أن تنزهه عن أمر ثبت في الشرع أنه وصف له كان ما كان، ولا تسبحه تسبيحة واحدة بعقلك جملة واحدة وقد نصحتك فإن الأدلة العقلية كثيرة التنافر للأدلة الشرعية في الإلهيات،

فسبح ربك بكلام ربك وبتسبيحه لا بعقلك الذي استفاده من فكره ونظره، فإنه ما استفاد أكثر ما استفاد إلاّ الجهل فتحفظ ممّا ذكر لك فإنه داء عضال قليل فيه الشفاء، فذمّ بذم الله، وامدح بمدح الله، وارحم برحمة الله، والعن بلعنة الله، تفز بالعلم وتملأ يديك من الخير والتسبيح ثناء كل موجود في العالم لا غير التسبيح، وهذا هو الذي أضلّ العقلاء، وهو من المكر الإلهيّ الخفي، وغابت عقولهم عن قوله تعالىٰ بحمده وهو ما ذكرناه فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وما قال يحمد ولا يكبر ولا يهلل فإنها كلها ثناء بإثبات وجودي، والتسبيح ثناء بعدم، فدخله المكر الإلهي فأثر في العقول المفكرة فجاء العارفون فوجدوا الله قد قيد تسبيح كل شيء بحمده المضاف إليه، فسبحوه بما أثنى على نفسه، فما استنبطوا شيئاً بخلاف الناظرين بعقولهم في الإلهيات ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] لأنهم نسوا بحمده حجتهم عن ذلك أدلة عقولهم إذ ستر الله عنها ذلك بستر أفكارهم، فلم يؤاخذهم على ذلك لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٤] مع ما فيه من سوء الأدب من وجه لما كان الشفيع فيهم عند الله قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وفيه غلطوا فقبل الله فيهم سؤال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فعفا عنهم فيما توقفوا فيه أو أحالوه ممّا أثبته الحق لنفسه من استواء ومعية وظرفية ونزول وغير ذلك ممّا لا يحصى كثرة ممّا نطقت به كتبه ورسله، فقد أفهمتك كيف تسبح ربك وألقيت بك على الطريق فاذكرني عند ربك.

الفصل الثامن: في الذكر بالتكبير. قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] وذكر الله القرآن فاذكره بالقرآن لا تكبره بتكبيرك إذ قد أمرك أن تكبره فقال: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] عن الولد والشريك والوليّ، ولا تغفل في هذا التكبير عن قوله: ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] فقيده فإنه يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٧] فما نصرناه من ذلّ فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] فإنه قد دعاك إلى نصرته ليوفي الصورة التي خلقك عليها حقها لأنه يقول: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فمن إعطائه الصورة التي خلقك عليها خلقها الذي هو عين حقها أن يطلب منها نصرته فإنه الناصر فقال: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الصف: الآية ١٤] والناصر هو الوليّ فلهذا قيده، فإذا كبرته عن الوليّ فاعلم عن أيّ وليّ تكبره، وكذلك أيضاً الشريك في الملك، وعلى هذه المسألة تبتني مسألة العبد هل يملك أو لا يملك؟ فمن رأى شركة الأسباب التي لا يمكن وجود المسببات إلاّ بها لم يثبت الشريك في الملك لأن السبب من الملك وهو كالآلة والآلة يوجد بها ما هو ملك للموجد كما هي الآلة ملك للموجد، وما تملك الآلة شيئاً، فلهذا قيد التكبير عن الشريك في الملك لا في الإيجاد، لأن الله تعالىٰ أوجد الأشياء على ضربين: ضرب أوجده بوجود أسبابه مثل صنائع العالم كالتابوت للنجار، والحائط للبناء، وجميع صنائع العالم والكل صنعته تعالىٰ، والإضافة إلى النجار وإن كان النجار ما استقلّ في عمل التابوت بيده فقط بل بآلات متعدّدة من الحديد وغير ذلك فهذه أسباب النجارة، وما أضيف عمل

التابوت إلى شيء منها بل أضيف التابوت من كونه صنعة لصانعه ولم يصنع إلاّ بالآلة، ثُمَّ ثَمَّ إضافة أخرى وهو إن كان النجار صنع في حق نفسه أضيف التابوت إليه لأنه ملكه وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢] وإن كان الخشب لغيره فالتابوت من حيث صنعته يضاف إلى النجار، ومن حيث الملك يضاف للمالك لا إلى النجار، فالنجار آلة للمالك، والله ما نفى إلاّ الشريك في الملك لا الشريك في الصنعة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤].

وأمّا الضرب الثاني فهو ما أوجده لا بسبب وهو إيجاده أعيان الأسباب الأول، فإذا كبرت ربك عن الوليّ والشريك فقيده في ذلك بما قيده الحق ولا تطلق فيفتك خير كثير وعلم كبير، وكذلك قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ أن يتخذ ولداً فإن الولد للوالد ليس بمتخذ لأنه لا عمل له فيه على الحقيقة، وإنما وضع ماء في رحم صاحبته وتولى إيجاد عين الولد سبب آخر والمتخذ الولد إنما هو المتبنى كزيد لما تبناه رسول الله ﷺ فقال لنا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] لأنه لو اتخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء فكان يتبنى ما شاء فما فعل فعل من لم يتخذ ولداً. وقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ذلك ولد الصلب فليس له تعالىٰ ولد ولا تبنى أحداً، فنفى عنه الولد من الجهتين لما ادّعت طائفة من اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأرادوا التبني فإنهم عالمون بآبائهم، وقالوا في المسيح إنه ابن الله إذ لم يعرفوا له أباً ولا تكوّن عن أب لجهلهم بما قال الله من تمثّل الملك لمريم ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] وجعله الحق تعالىٰ روحاً إذ كان جبريل روحاً، فما تكوّن عيسىٰ إلاّ عن اثنين، فجبريل وهب لها عيسىٰ في النفخ فلم يشعروا لذلك، كما ينفخ الروح في الصورة عند تسويتها، فما عرفوا روح عيسىٰ ولا صورته، وأن صورة عيسىٰ مثل تجسد الروح لأنه عن تمثل، فلو تفطنت لخلق عيسىٰ لرأيت علماً عظيماً تقصر عنه أفهام العقلاء، فإذا كبرت ربك فكبره كما كبر نفسه تعالىٰ عمّا يقول الظالمون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٣] وهم الذين يكبرونه عمّا لم يكبر نفسه في قوله: يفرح بتوبة عبده ويتبشبش إلى من جاء إلى بيته ويباهي ملائكته بأهل الموقف ويقول: «**جعت فلم تطعمني**» فأنزل نفسه منزلة عبده، فإن كبرته بأن تنزههُ عن هذه المواطن فلم تكبره بتكبيره بل أكذبته، فهؤلاء هم الظالمون على الحقيقة، فليس تكبيره إلاّ ما كبر به نفسه، فقف عند حدّك ولا تحكم على ربك بعقلك.

الفصل التاسع في الذكر بالتهليل: هذا هو ذكر التوحيد بنفي ما سواه وما هو ثم، فإن لم يكن ثم ونفيت النفي فقد أثبت، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فما عبد فيما عبد إلاّ الله، وهذا التوحيد على ستة وثلاثين أعني الواردة في القران من حيث ما هو كلام الله، فمنه ما هو توحيد الواحد ولهذا يرى بعض العلماء الإلهيين أن الله هو الذي وحد الواحد ولولا توحيده لم يكن، ثم من يقال فيه أنه واحد فوحدانيته أظهرت الواحد ومنه ما هو توحيد الله وهو توحيد الألوهية، ومنه ما هو توحيد الهوية، ولنذكر هذا كله في هذا الفصل وما له تعالىٰ في هذا التهليل من الأسماء الإلهية ولا

نزيد على ما ورد في القرآن من ذلك وهو ستة وثلاثون موضعاً وهي عشر درجات الفلك الذي جعل الله إيجاد الكائنات عند حركاته من أصناف الموجودات من عالم الأرواح والأجسام والنور والظلمة، فهذه الستة وثلاثون حق الله ممّا يكون في العالم من الموجودات، فإنها ممّا تكون في عين التلفظ الإنساني بالقرآن، فهو كالعشر فيما سقت السماء وهو المسمّى الأعلى من قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] فالتهليل عُشر الذكر وهو زكاته لأنه حق الله فهو عشر ثلثمائة وستين درجة فمن ذلك:

التوحيد الأول: وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] فهذا توحيد الواحد بالاسم الرحمن الذي له النفس فبدأ به لأن النفس لولاه ما ظهرت الحروف، ولولا الحروف ما ظهرت الكلمات، فنفى الألوهية عن كل أحد وحده الحق تعالىٰ إلاّ أحديته، فأثبت الألوهية لها بالهوية التي أعاد على اسمه الواحد، وأوّل نعت نعته به الرحمن لأنه صاحب النفس، وسمّى مثل هذا الذكر تهليلاً من الإهلال وهو رفع الصوت، أي إذا ذكر بلا إله إلاّ الله ارتفع الصوت الذي هو النفس الخارج به على كل نفس ظهر فيه غير هذه الكلمة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلاّ الله**» وما قالها إلاّ نبي لأنه ما يخبر عن الحق إلاّ نبي، فهو كلام الحق، فأرفع الكلمات كلمة لا إله إلاّ الله وهي أربع كلمات نفي ومنفي وإيجاب وموجب، والأربعة الإلهية أصل وجود العالم، والأربعة الطبيعية أصل وجود الأجسام، والأربعة العناصر أصل وجود المولدات، والأربعة الأخلاط أصل وجود الحيوان، والأربع الحقائق أصل وجود الإنسان، فالأربعة الإلهية: الحياة والعلم والإرادة والقول وهو عين القدرة عقلاً والقول شرعاً. والأربع الطبيعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، والأربعة العناصر: الأثير والهواء والماء والتراب. والأربعة الأخلاط: المرتان والدم والبلغم. والأربع الحقائق: الجسم والتغذي والحسّ والنطق. فإذا قال العبد: لا إله إلاّ الله على هذا التربيع كان لسان العالم ونائب الحق في النطق فيذكره العالم والحق يذكره، وهذه الكلمة إثنا عشر حرفاً، فقد استوعبت من هذا العدد بسائط أسماء الأعداد وهي إثنا عشر: ثلاث عقود العشرات والمئين والآلاف ومن الواحد إلى التسعة، ثم بعد هذا يقع التركيب بما لا يخرجك عن هذه الآحاد إلى ما لا يتناهى فقد ضمّ ما يتناهى وهو هذه الإثنا عشر ما لا يتناهى وهو ما يتركب منها فلا إله إلاّ الله، وإن انحصرت في هذا العدد في الوجود فجزاؤها لا يتناهى فبها وقع الحكم بما لا يتناهى، فبقاء الوجود الذي لا يلحقه عدم بكلمة التوحيد وهي لا إله إلاّ الله فهذا عمل نفس الرحمن فيها ولهذا ابتدأ به في القرآن وجعله توحيد الأحد لأن عن الواحد الحق ظهر العالم.

التوحيد الثاني: من نفس الرحمن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فهذا توحيد الهوية وهو توحيد الابتداء، لأن الله فيه مبتدأ ونعته في هذه الآية بصفة التنزيه عن حكم السنة والنوم، لما يظهر به من الصور التي يأخذها السنة والنوم كما يرى الإنسان ربه في المنام على صورة الإنسان التي من شأنها أن تنام، فنزّه نفسه ووحدها في هذه الصورة، وإن

ظهر بها في الرؤيا حيث كانت فما هي ممّن تأخذها سنة ولا نوم، فهذا هو النعت الأخص بها في هذه الآية، وقدم الحيّ القيوم لأن النوم والسنة لا يأخذ إلاّ الحي القائم أي المتيقظ إذ كان الموت لا يرد إلاّ على حي، فلهذا قيل في الحق إنه الحي الذي لا يموت، كذلك النوم والسنة، والسنة أول النوم كالنسيم للريح فإن النوم بخار وهو هواء والنسيم أوله، والسنة أوّل النوم فلا يرد إلاّ على متصف باليقظة، فهذا توحيد التنزيه عمّن من شأنه أن يقبل ما نزّه عنه هذا الإله الحيّ القيوم، ولولا التطويل لذكرنا تمام الآية بما فيها من الأسماء الإلهيّة.

التوحيد الثالث: من نفس الرحمن وهو ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: الآيتان١، ٢]، وهذا توحيد حروف النفس وهو الألف واللام والميم، وقد ذكرنا من حقائق هذه الحروف في الباب الثاني من هذا الكتاب ما فيه غنية، وهذا التوحيد أيضاً توحيد الإبتداء، وله من أسماء الأفعال منزل الكتاب بالحق من الله المسمّى بالحيّ القيوم، فبين أنه منزل الكتاب بالحق من الله المسمّى بالحيّ القيوم، فبين أنه منزل الأربعة الكتب يصدّق بعضها بعضاً لأن أكثر الشهود أربعة، والكتب الإلهية وثائق الحق على عباده وهي كتب مواصفه وتحقيق بماله عليهم وما لهم عليه ممّا أوجبه على نفسه لهم فضلاً منه ومنة، فدخل معهم في العهدة فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فأدخلنا تحت العهد إعلاماً بأنا جحدنا عبوديتنا له، إذ لو كنا عبيداً لم يكتب علينا عهده فإنا بحكم السيد، فلما أيقنا بخروجنا عن حقيقتنا وادّعينا الملك والتصرّف والأخذ والعطاء كتب بيننا وبينه عقوداً وأخذ علينا العهد والميثاق وأدخل نفسه معنا في ذلك، ألا ترى العبد المكاتب لا يكاتب إلاّ أن ينزل منزلة الأحرار، فلولا توهم رائحة الحريّة ما صحّت مكاتبة العبد وهو عبد، فإن العبد لا يكتب عليه شيء ولا يجب له حق فإنه ما يتصرّف إلاّ عن إذن سيده، فإذا كان العبد يوفى حقيقة عبوديته لم يؤخذ عليه عهد ولا ميثاق، ألا ترى العبد الآبق يجعل عليه القيد وهو الوثاق لأباقه، فهذا بمنزلة الوثائق التي تتضمن العهود والعقود التي لا تصحّ بين العبد والسيد، فمن أصعب آية تمرّ على العارفين كل آية فيها: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] أو ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٤] فإنها آيات أخرجت العبيد عن عبوديتهم لله.

التوحيد الرابع: من نفس الرحمن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] هذا توحيد المشيئة ووصف الهوية بالعزة وهو قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] فهو عزيز الحمى، إذ كان هو الذي صوّرنا في الأرحام من غير مباشرة، إذ لو باشر لضمّه الرحم كما يضم القابل للصورة، ولو لم يكن هو المصوّر لما صدقت هذه النسبة وهو الصادق فإنه ما أضاف التصوير إلى غيره فقال: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي كيف أراد، فظهر في هذه الكيفية أن مشيئته تقبل الكيفية مع نعته بالعزة ثم بالحكمة، والحكيم هو المرتب للأشياء التي أنزلت منازلها، فالتصوير يستدعيه إذ كان هو المصوّر لا الملك مع العزّة التي تليق بجلاله، فحيّر العقول السليمة التي تعرف جلاله، وأما أهل التأويل فما حاروا ولا أصابوا أعني في خوضهم في التأويل، وإن وافقوا العلم فقد

ارتكبوا محرّماً عليهم يسئلون عنه يوم القيامة هم وكل من تكلم في ذاته تعالىٰ ونزّهه عمّا نسبه إلى نفسه ورجح عقله على إيمانه وحكم نظره في علم ربه ولم يكن ينبغي له ذلك وهو قوله تعالىٰ: « كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ »، وذكر بعض ما كذبه فيه لا كله، وأبقى له ضرباً من الرجاء حيث أضافه إليه في الحديث الذي يقول فيه عبدي فإن قال ابن آدم وهو الأصحّ في الرواية فأبعده عن نفسه وأضافه إلى ظاهر آدم عليه السلام لأن المعصية بالظاهر وقعت وهو القرب من الشجرة والأكل ونسي ولم يجد له عزماً وهو عمل الباطن فبرأ باطنه منها ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٩] مجتبى كما قال تعالىٰ.

التوحيد الخامس: من نفس الرحمن وهو قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] هذا توحيد الهوية والشهادة على الاسم المقسط وهو العدل في العالم وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فوصف نفسه بإقامة الوزن في التوحيد، أعني توحيد الشهادة بالقيام بالقسط، وجعل ذلك للهوية، وكان الله الشاهد على ذلك من حيث أسماؤه كلها فإنه عطف بالكثرة وهو قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فعلمنا حيث ذكر الله ولم يعين اسماً خاصاً أنه أراد جميع الأسماء الإلهية التي يطلبها العالم بالقسط إذ لا يزن على نفسه، فلم يدخل تحت هذا إلاَّ ما يدخل في الوزن فهذا توحيد القسط، وقد روينا في ذلك حديثاً ثابتاً وهو ما حدّثناه يونس بن يحيىٰ عن أبي الوقت عبد الأوّل الهروي عن ابن المظفر الداوديّ عن أبي محمد الحمويّ عن الفربريّ عن البخاري عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: **«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»**. وقال: **«يَدُ اللَّهِ مَلأَى لاَ يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهَارَ»** وقال: **«أَرَأَيتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَان يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»** خرجه مسلم أيضاً عن أبي هريرة وقال يمينه لم يقل يده، وقال بيده الأخرى وهو حديث صحيح، فإذا قام العبد بالقسط في تهليل ربه صدقه ربه فقال مثل قوله فهذا من تزكية الله عبده.

حدّثنا غير واحد منهم ابن رستم مكين الدين أبو شجاع الأصفهاني إمام المقام بالحرم المكيّ الشريف وعمر بن عبد المجيد الميانشيّ عن أبي الفتح الكرخيّ عن الترياقيّ أبي نصر عن عبد الجبار بن محمد عن المحبوبي عن أبي عيسىٰ الترمذي عن سفيان بن وكيع عن إسماعيل بن محمد عن جحادة عن عبد الجبار بن عباس عن الأغرابي مسلم قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة أنهما شهدا على النبيّ ﷺ قال: **«مَنْ قَالَ لاَ إِلٰه إلاَّ اللَّهُ واللَّهُ أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ وَقَالَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ، وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلٰه إلاَّ اللَّه وَحْدَهُ قَالَ: يَقُول اللَّهُ: لا إِلٰه إلاَّ أَنَا وَأَنَا وَحْدِي، وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّه لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلٰه إلاَّ أنا لِي المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ، وَإِذا قَالَ: لاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّه وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه، قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بي»** وكان يقول: **«مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ»**. فمن أعطى الحق من نفسه لربه ولغيره ولنفسه من نفسه بإقامة الوزن على نفسه في ذلك فلم يترك لنفسه

ولا لغيره عليه حقاً جملة واحدة قام في هذا المقام بالقسط الذي شهد به لربه فإنها شهادة أداء الحقوق من يكتمها فإنه آثم قلبه، وما كان له من حق تعين له عند غيره أسقطه ولم يطالب به إذ كان له ذلك فوقع أجره على الله.

ثم يؤيّد ما ذكرناه في إعطاء الحق في هذه الشهادة قوله بعد قوله: ﴿قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] فشهد الله لنفسه بتوحيده وشهد لملائكته وأولي العلم أنهم شهدوا له بالتوحيد، فهذا من قيامه بالقسط وهو من باب فضل من أتى بالشهادة قبل أن يسألها، فإنّ الله شهد لعباده أنهم شهدوا بتوحيده من قبل أن يسأل منه عباده ذلك، وبيّن في هذه الآية أن الشهادة لا تكون إلاَّ عن علم لا عن غلبة ظنّ ولا تقليد إلاَّ تقليد معصوم فيما يدّعيه، فتشهد له بأنك على علم كما نشهد نحن على الأمم أن أنبياءها بلغتها دعوة الحق ونحن ما كنا في زمان التبليغ ولكنا صدّقنا الحق فيما أخبرنا به في كتابه عن نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم موسىٰ وشهادة خزيمة، وذلك لا يكون إلاَّ لمن هو في إيمانه على علم بمن آمن به لا على تقليد وحسن ظنّ فاعلم ذلك.

التوحيد السادس: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧] هذا أيضاً توحيد الإبتداء وهو توحيد الهوية المنعوت بالاسم الجامع للقضاء والفصل، فمن رحمة الله أنه قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ فما نجتمع إلاَّ فيما لا نفترق فيه وهو الإقرار بربوبيته سبحانه، وإذا جمعنا من حيث إقرارنا له بالربوبية فهي آية بشرى وذكر خير في حقنا بسعادة الجميع، وإن دخلنا النار فإن الجمعية تمنع من تسرمد الانتقام لا إلى نهاية لكن يتسرمد العذاب وتختلف الحالات فيه، فإذا انتهت حالة الانتقام ووجدان الآلام أعطى من النعيم والاستعذاب بالعذاب ما يليق بمن أقرّ بربوبيته ثم أشرك ثم وحّد في غير موطن التكليف، والتكليف أمر عرض في الوسط بين الشهادتين لم يثبت، فبقي الحكم للأصلين الأوّل والآخر، وهو السبب الجامع لنا في القيامة، فما جمعنا إلاَّ فيما اجتمعنا: [الخفيف]

فـإذا اسـتَـعْـذَبـوا الـعـذابَ أُريـحـوا ... مـن أَلـيـمِ الـعـذابِ وهـو الـجَـزَاءُ

قال أبو يزيد الأكبر البسطاميّ: [الوافر]

وكـلُّ مـآربـي قـد نِـلْـتُ مـنـهـا ... سـوى مَـلْـذوذِ وَجْـدي بـالـعَـذَابِ

لم يقل بالألم، ولنا في هذا الباب نظم كثير.

التوحيد السابع: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٢] هذا توحيد الرب بالاسم الخالق وهو توحيد الهوية، فهذا توحيد الوجود لا توحيد التقدير، فإنه أمر بالعبادة ولا يأمر بالعبادة إلاَّ من هو موصوف بالوجود وجعل الوجود للرب، فجعل ذلك الاسم بين الله وبين التهليل، وجعله مضافاً إلينا إضافة خاصة إلى الرب، فهي إضافة خصوص لنوحده في سيادته ومجده وفي وجوب وجوده فلا يقبل العدم كما يقبله الممكن فإنه الثابت وجوده لنفسه، ويوحد أيضاً في ملكه بإقرارنا بالرق له، ولنوحده توحيد المنعم لما أنعم به علينا من تغذيته إيانا في ظلم

الأرحام وفي الحياة الدنيا، ولنوحده أيضاً فيما أوجده من المصالح التي بها قوامنا من إقامة النواميس ووضع الموازين ومبايعة الأئمة القائمة بالدين، وهذه الفصول كلها أعطاها الاسم الرب فوحدناه ونفينا ربوبية ما سواه، قال يوسف لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٩].

التوحيد الثامن: من نفس الرحمن قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٦] هذا توحيد الإتباع وهو من توحيد الهوية، فهو توحيد تقليد في علم، لأنه نصب الأسباب وأزال عنها حكم الأرباب لما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فلو قالوا ما نتخذهم وأبقوا العبودية لجناب الله تعالىٰ لكان لهم في ذلك مندوحة بوضع الأسباب الإلهية المقرّرة في العالم، فأمر ﷺ أن يعرض عن الشرك لا عن السبب فإنه قال في مصالح الحياة الدنيا ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٩] فعلل، ولام العلة في القرآن كثير، وهذا أيضاً فيه ما في السابع من توحيد الاسم الرب وعمّم إضافة جميعنا إليه، وهنا خصّص به الداعي، فكأنه توحيد في مجلس محاكمة، فيدخل فيه توحيد المقسط لإقامة الوزن في الحكم بين الخصماء بين ذلك قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٦] وخصّ به الداعي لمجيئه بالتوحيد الإيماني لا التوحيد العقلي، وهو توحيد الأنبياء والرسل، لأنها ما وحدت عن نظر وإنما وحدت عن ضرورة علم وجدته في نفسها لم تقدر على دفعه، فترك المشركين وآلهتهم وانفرد بغار حرّاء يتحنث فيه من غير معلم إلاّ ما يجده في نفسه حتى فجئه الحق وهو قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٦] أي إنه لا يقبل الشريك فأعرض عنهم حتى يستحكم الإيمان وأقمه بنفس الرحمن فاجعل له أنصاراً وآمرك بقتال المشركين لا بالإعراض عنهم.

التوحيد التاسع: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٨] توحيد الهوية في الاسم المرسل وهو توحيد الملك ولهذا نعته بأنه يحيي ويميت، إذ الملك هو الذي يحيي ويميت ويعطي ويمنع ويضر وينفع، فمن أعطى أحيا ونفع، ومن منع أضرّ وأمات، ومن منع لا عن بخل كان منعه حماية وعناية وجوداً من حيث لا يشعر الممنوع، وكان الضرر في حقّه حيث لم يبلغ إلى نيل غرضه لجهله بالمصلحة فيما حماه عنه النافع، ومات هذا الممنوع لكونه لم تنفذ إرادته كما لا تنفذ إرادة الميت، فهذا منع الله وضرره وإماتته فإنه المنعم المحسان، فأرسل الرسل بالتوحيد تنبيهاً لإقرارهم في الميثاق الأوّل فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فمن وحده بلسان رسوله لا من لسانه جازاه الله على توحيده جزاء رسوله، فإن وحده لا بلسان رسوله بل بلسان رسالته جازاه مجازاة إلهية لا تعرف يدخل تحت قوله: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. انتهى الجزء العشرون ومائة.

(الجزء الحادي والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد العاشر: من نفس الرحمن قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣١] هذا توحيد الأمر بالعبادة وهو من أعجب الأمور كيف يكون الأمر فيما هو ذاتي للمأمور؟ فإن العبادة ذاتية للمخلوقين ففيم وقع الأمر بالعبادة، فأما في حق المؤمنين فأمرهم أن يعبدوه من حيث أحدية العين لما قال في حق طائفة: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فما هي هذه الطائفة التي أمرت أن تعبد إلهاً واحداً؟ فلا تنظروا في الأسماء الإلهية من حيث ما تدل على معان مختلفة فتتعبدهم معانيها فتكون عبادتهم معلولة حيث رأوا أن كل حقيقة منهم مرتبطة بحقيقة إلهية يتعلق افتقارها القائم بها إليها وهي متعدّدة، فإن حقيقة الطلب للرزق إنما تعبد الرزاق، وحقيقة الطلب للعافية إنما تعبد الشافي فقيل لهم: لا تعبدوا إلاّ إلهاً واحداً، وهو أن كل اسم إلهي وإن كان يدل على معنى يخالف الآخر فهو أيضاً يدل على عين واحدة تطلبها هذه النسب المختلفة. وأما من حمل العبادة هنا على الأعمال فلا معرفة له باللسان، فالعمل صورة والعبادة روح لتلك الصورة العملية التي أنشأها المكلف. وأما غير المؤمنين وهم المشركون فهم الذين نسبوا الألوهة إلى غير من يستحقها ووضعوا اسمها على غير مسمّاها وادّعوا الكثرة فيها، كما ادّعوا الكثرة في الإنسانية فدعواهم فيها صحيحة وما عرفوا بطلانها في الإلهية، ولذلك تعجبوا من توحيدها فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] وما علموا أن جعل الألوهة في الكثيرين أعجب فقيل لهم: وإن كنتم ما عبدتم كل من عبدتموه إلاّ بتخيلكم أن الألوهة صفته فما عبدتم غيرها ليس الأمر كذلك فإنكم شهدتم على أنفسكم أنكم ما تعبدونها إلاّ لتقربكم إلى الله زلفى فأقررتم مع شرككم أن ثم إلهاً كبيراً هذه الآلهة خدمتكم إياها تقربكم من الله، فهذه دعوى بغير برهان وهو قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] وهذه أرجى آية للمشرك عن نظر جهد الطاقة وتخيّله في شبهه أنها برهان فيقوم له العذر عند الله، فإذ وقد اعترفوا أنهم عبدوا الشريك ليقربهم إلى الله زلفى فتح القائل على نفسه باب الاعتراض عليه بأن يقال له: ومن أين علمتم أن هذه الحجارة أو غيرها لها عند الله من المكانة بحيث إنْ جعلها معبودة لكم كما قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] فالذين عبدوا من ينطق ويدعي الألوهة أقرب حالاً من عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، وهذا قول إبراهيم لأبيه وهو الذي قال فيه تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] وأبوه من قومه وهذه وغيرها من الحجة التي أعطاها الله فأمرهم الله أن لا يعبدوا إلاّ إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو في نفس الأمر سبحانه أي هو بعيد أن يشرك في ألوهته فهذا توحيد الأمر.

التوحيد الحادي عشر: من نفس الرحمن قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا

هُوَّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٩] هذا توحيد الاستكفاء وهو من توحيد الهوية لما قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] فأحالنا علينا بأمره فبادرنا لامتثال أمره، فمنا من قال: لولا أن الله قد علم أن لنا مدخلاً صحيحاً في إقامة ما كلفنا من البرّ والتقوى ما أحالنا علينا، ومنا من قال: التعاون الذي أمرنا به على البرّ والتقوى أن يردّ كل واحد منا صاحبه إلى ربه في ذلك ويستكفي به فيما كلفه وهو قوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨] خطاب تحقيق ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٣] خطاب ابتلاء، فإذا سمع القوم الذين قالوا إن لنا مدخلاً محققاً في العمل ولهذا أمرنا بالتعاون ما قاله من جعله خطاب ابتلاء أو حمله على الردّ إلى الله في ذلك لما علمنا أن نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ وهو قول موسىٰ لقومه، مع أنهم ما طلبوا معونة الله إلاَّ وعندهم ضرب من الدعوى، ولكن أعلى من أصحاب المقام الأوّل وأقرب إلى الحق، فتولوا عنهم في هذا النظر ولم يقولوا به، فكيف حالهم مع من هو مشهده ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فقال تعالىٰ لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عمّا دعوتموهم إليه ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي في الله الكفاية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإذا كان رب العرش والعرش محيط بعالم الأجسام وأنت من حيث جسميتك أقل الأجسام فاستكف بالله الذي هو رب مثل هذا العرش، ومن كان الله حسبه انقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء وجاء في ذلك بما يرضي الله، والله ذو فضل عظيم على من جعله حسبه، والفضل الزيادة أي ما يعطيه على موازنة عمله بل أزيد من ذلك ممّا يعظم عنده إذا رآه ذوقاً.

ومن أعجب ما رأيت من بعض الشيوخ من أهل الله ممّن كان مثل أبي يزيد في الحال وربما أمكن منه فيه فقعدت مع هذا الشخص يوماً بجامع دمشق وهو يذكر لي حاله مع الله وما يجري له معه في وقائعه فقال لي: إن الحق ذكر له عظم ملكه، قال الشيخ: فقلت له: يا رب ملكي أعظم من ملكك، فقال لي: كيف تقول وهو أعلم؟ فقلت له: يا رب لأن مثلك في ملكي فإنك لي تجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك وما في ملكك مثلك، قال: فقال لي: صدقت وما رأيت أحداً ذهب إلى ما يقارب هذا المذهب أو هو هو سوى محمد بن عليّ الترمذي الحكيم فإنه يقول في هذا المقام: مقام ملك الملك، وقد شرحناه في مسائل الترمذي في هذا الكتاب التي سأل عنها أهل الله في كتاب ختم الأولياء ثم بكى هذا الشيخ أدباً مع الله ويقول: يا أخي هو يجزئني عليه ويباسطني فكنت أقول له: إذا كان يفرح بتوبة عبده كما قاله عنه رسوله ﷺ فكيف يكون نظره إلى العارفين به؟

التوحيد الثاني عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] هذا توحيد الاستغاثة وهو توحيد الصلة فإنه جاء بالذي في هذا التوحيد وهو من الأسماء الموصولة، وجاء بهذا ليرفع اللبس عن السامعين كما فعلت السحرة لما آمنت برب العالمين فقالت: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [سورة

الأعراف: الآية ١٢٢] لرفع اللبس من أذهان السامعين، ولهذا توعدهم ثم تمّم وقال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٠] لما علم أن الإله هو الذي ينقاد إليه ولا ينقاد هو لأحد. قال علي بن أبي طالب: أهللت بما أهلّ به رسول الله ﷺ وهو لا يعرف بما أهلّ به فقبل منه مع كونه أهلّ على غير علم محقق، فأحرى إذا كان على علم محقق فاعلم بذلك فرعون ليعلم قومه برجوعه عمّا كان ادّعاه فيهم من أنه ربهم الأعلى فأمره إلى الله فإنه آمن عند رؤية البأس وما نفع مثل ذلك الإيمان فرفع عنه عذاب الدنيا إلاّ قوم يونس ولم يتعرض للآخرة. ثم إن الله صدّقه في إيمانه بقوله: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [سورة يونس: الآية ٩١] فدل على إخلاصه في إيمانه، ولو لم يكن مخلصاً لقال فيه تعالىٰ كما قال في الأعراب ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٤] فقد شهد الله لفرعون بالإيمان وما كان الله ليشهد لأحد بالصدق في توحيده إلاّ ويجازيه به وبعد إيمانه، فما عصى فقبله الله إن كان قبله طاهراً، والكافر إذا أسلم وجب عليه أن يغتسل فكان غرقه غسلاً له وتطهيراً حيث ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ في تلك الحالة ﴿نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٥] وجعل ذلك ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٦] وما أشبه إيمانه إيمان من غرغر فإن المغرغر موقن بأنه مفارق قاطع بذلك، وهذا الغرق هنا لم يكن كذلك لأنه رأى البحر يبساً في حق المؤمنين فعلم أن ذلك لهم بإيمانهم فما أيقن بالموت بل غلب على ظنه الحياة فليس منزلته منزلة من حضره الموت فقال: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٨] ولا هو من الذين يموتون وهم كفار فأمره إلى الله تعالىٰ. ولما قال الله له: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [سورة يونس: الآية ٩٢] كما كان قوم يونس، فهذا إيمان موصول، وقدم الهوية لبعيد ضميريه عليه ليلحق بتوحيد الهوية.

التوحيد الثالث عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة هود: الآية ١٤] هذا توحيد الاستجابة، وهو توحيد الهو وهو توحيد غريب، فإن قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ يعني المدّعين لكم يعني الداعين ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فالضمير في فاعلموا يعود على الداعين وهم عالمون بأنه إنما أنزل بعلم الله، ولو أراد المدعين لقال فيعلموا بالياء كما قال: ﴿يَسْتَجِيبُوا۟﴾ بياء الغيبة، ثم قال: ﴿وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أنه لا إله إلاّ هو كما علمتم أنه إنما أنزل بعلم الله، ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وقد كانوا مسلمين، وهذا كله خطاب الداعين إن كانت هل على بابها، وإن كانت هنا مثل ما هي في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ [سورة الإنسان: الآية ١] اعتماداً على قرينة الحال فأخرجت عن الاستفهام، وإلاّ فما هذا خطاب الداعين إلاّ أن يكون مثل قولهم: إياك أعني فاسمعي يا جاره. فالخطاب لزيد والمراد به عمرو ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٥] ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٤] ومعلوم أنه مغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وهو على بينة من ربه في مآله، فعلمنا بقرائن الأحوال أنه المخاطب والمراد غيره لا هو، وحكمة ذلك مقابلة الإعراض

بالإعراض لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الداعين، فأعرض الله عنهم بالخطاب والمراد به هم فأسمعهم في غيرهم.

وأمّا فائدة العلم في ذلك فهي أن تقول لما علم الله أن قوماً لا يؤمنون ارتفعت الفائدة في خطابهم وكان خطابهم عبثاً فأخبرهم الله تعالىٰ أن نزول الخطاب بالدعوة لمن ليس يقبله في علم الله أنه إنما أنزل بعلم الله أي سبق في علم الله إنزاله فلا بدّ من إنزاله لأن تبدّل المعلوم محال كما قال ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] لأنه سبق في علم الله أن تكون خمس صلوات في العمل وخمسون في الأجر، فما زال يحط من الخمسين بعلم الله إلى أن انتهى إلى علم الله بإثبات الخمس فمنع النقص من ذلك وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ وهكذا يكون الله علمه في الأشياء سابق لا يحدث له علم بل يحدث التعلّق لا العلم، ولو حدث العلم لم تقع الثقة بوعده لأنا لا ندري ما يحدث له. فإن قلت: فهذا أيضاً يلزم في الوعيد. قلنا: كذا كنا نقول ولكن علمنا أنه ما أرسل رسولاً ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] وبما تواطؤا عليه من كل ما هو محمود فيعاملهم بذلك في شرعهم كذا سبق علمه، وهذا لسان عربيّ مبين، وممّا يتمدح به أهل هذا اللسان بل هو مدح في كل أمة التجاوز عن إنفاذ الوعيد في حق المسيء والعفو عنه والوفاء بالوعد الذي هو في الخير وهو الذي يقول فيه شاعر العرب: [الطويل]

وإنـــي إذا أَوْعَـــدْتُـــه أو وَعَـــدْتُـــه ... لَمُـخْـلِفُ إيعادي ومُـنْـجِـزُ مَـوْعِـدي

فكان إنزال الوعيد بعلم الله الذي سبق بإنزاله ولم يكن في حق قوم إنفاذه في علم الله، ولو كان في علم الله لنفذ فيهم كما ينفذ الوعد الذي هو في الخير لأن الإيعاد لا يكون إلاّ في الشرّ، والوعد يكون في الخير وفي الشرّ معاً، يقال: أوعدته في الشرّ ووعدته في الشرّ والخير، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فما بيّن لهم تعالىٰ التجاوز عن السيئات في حق من أساء من عباده والأخذ بالسيئة من شاء من عباده ولم يفعل ذلك في الوعد بالخير، فأعلمنا ما في علمه، فكما هو واحد في ألوهيته هو واحد في أمره، فما أنزل إلاّ بعلم الله سواء نفذ أو لم ينفذ.

التوحيد الرابع عشر: من نفس الرحمن وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٠] هذا توحيد الرجعة وهو توحيد الهوية، أخبر أنهم يكفرون بالرحمن لأنهم جعلوا هذا الاسم إذ لم يكن عندهم ولا سمعوا به قبل هذا فلما قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ هذا الاسم ﴿نُفُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] فإنهم لا يعرفون إلاّ الله الذين يعبدون الشركاء ليقربوهم إلى الله زلفى، ولما قيل لهم: اعبدوا الله لم يقولوا: وما الله؟ وإنما أنكروا توحيده، وقد نقل أنهم كانوا يعرفونه مركباً الرحمن الرحيم اسم واحد كبعلبك ورام هرمز، فلما أفرده وبغير نسب أنكروه فإنه يقال في النسب بعليّ فقال لهم الداعي الرحمن هو ربي ولم يقل هو الله وهم لا ينكرون الرب، ولما كان الرحمن له النفس وبالنفس حياتهم فسره بالرب لأنه المغذي وبالغذاء

حياتهم، فلا يفرقون من الرب ويفرقون من الله، ولهذا عبدوا الشركاء ليشفعوا لهم عند الله إذ بيده الاقتدار الإلهيّ والأخذ الشديد وهو الكبير عندهم المتعالي فهم معترفون مقرّون به، فتلطف لهم بالعبارة بالاسم الرب ليرجعوا فهو أقرب مناسبة بالرحمن قال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] والترجي من الله واقع كما قالوا في عسى فإنهما كلمتا ترج ولم يقل لهما لعله يتذكر أو يخشى في ذلك المجلس ولا بدّ ولا خلصه للاستقبال الأخراوي فإن الكل يخشونه في ذلك الموطن، فجاء بفعل الحال الذي يدخله الاحتمال بين حال الدنيا وبين استقبال التأخير للدار الآخرة، وذلك لا يكون مخلصاً للمستقبل إلاّ بالسين أو سوف، فالذي ترجى من فرعون وقع لأن ترجيه تعالىٰ واقع، فآمن فرعون وتذكر وخشي كما أخبر الله وأثر فيه لين قول موسىٰ وهارون ووقع الترجي الإلهي كما أخبر، فهذا يدلك على قبول إيمانه لأنه لم ينص إلاّ على ترجي التذكر والخشية لا على الزمان، إلاّ أنه في زمان الدعوة ووقع ذلك في زمان الدعوة وهو الحياة الدنيا وأمر نبيه أن يقول بحيث يسمعون: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في أمركم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٠] أي مرجعي في أمركم عسى يهديكم إلى الإيمان، فما أغلظ لهم بل هذا أيضاً من القول اللين لتتوفر الدواعي من المخاطبين للنظر فيما خاطبهم به، إذ لو خاطبهم بصفة القهر وهو غيب لا عين له في الوقت إلاّ مجرّد إغلاظ القول لنفرت طباعهم وأخذتهم حمية الجاهلية لمن نصبوهم آلهة فأبقى عليهم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] ولم يقل للمؤمنين، وكان سبب نزولها أن دعا على رعل وذكوان وعصية شهراً كاملاً في كل صلاة بأن يأخذهم الله فعتبه الله في ذلك، وفيه تنبيه على رحمة الله بعباده لأنهم على كل حال عباده معترفون به معتقدون لكبريائه طالبون القربة إليه، لكنهم جهلوا طريق القربة، ولم يوفوا النظر حقّه ولا قامت لهم شبهة قوية في صورة برهان، فكانوا يدخلون بها في مفهوم قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] ويريد بالبرهان هنا في زعم الناظر، فإنه من المحال أن يكون ثم دليل في نفس الأمر على إله آخر، ولم يبق إلاّ أن تظهر الشبهة بصورة البرهان فيعتقدانها برهان وليس في قوّته أكثر من هذا.

التوحيد الخامس عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] هذا توحيد الإنذار وهو توحيد الإنابة استوى في هذا التنزّل في التوحيد رسل البشر والمرسلون إليهم، فإن الملائكة هي التي نزلت بالإنذار من أجل أمر الله لهم بذلك، والروح هنا ما نزلوا به من الإنذار ليحيي بقبوله من قبله من عباده كما تحيي الأجسام بالأرواح، فحييت بهذا الروح المنزل رسل البشر فأنذروا به، فهذا توحيد عظيم نزل من جبار عظيم بتخويف وتهديد مع لطف خفيّ في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاجعلوني وقاية تدفعون بي ما أنذرتكم به هذا لطفه ليس معناه فخافوني لأنه ليس لله وعيد وبطش مطلق شديد ليس فيه شيء من الرحمة واللطف، ولهذا قال أبو يزيد

وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة البروج: الآية ١٢] فقال: بطشي أشد، فإن بطش المخلوق إذا بطش لا يكون في بطشه شيء من الرحمة، بل ربما ما يقدر أن يبلغ في المبطوش به ما في نفسه من الانتقام منه لسرعة موت ذلك الشخص، ولما كانت الرحمة منزوعة عن بطشه قال: بطشي أشد، وسبب ذلك ضيق المخلوق فإنه ما له الاتساع الإلهيّ، وبطش الله وإن كان شديداً ففي بطشه رحمة بالمبطوش به وبطش المخلوق ليستريح من الضيق والحرج الذي يجده في نفسه بما يوقعه بهذا به المبطوش فيطلب في بطشه الرحمة بنفسه في الوقت وقد لا ينالها كلها بخلاف الحق تعالىٰ فإن بطشه لسبق العلم يأخذ هذا المبطوش به للسبب الموجب له لا غير والمنتقم لغيره ما هو كالمنتقم لنفسه.

التوحيد السادس عشر: من نفس الرحمن وهو قوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٧، ٨] هذا توحيد الأبدال فإنه أبدل الله من الرحمن وهذا في المعنى بدل المعرفة من النكرة لأنهم أنكروا الرحمن، وفي اللفظ بدل المعرفة من المعرفة، وهو من توحيد الهوية القائمة بأحكام الأسماء الحسنى، لا أن الأسماء الحسنى تقوم معانيها بها، بل هي القائمة بمعاني الأسماء كما هو قائم على كل نفس بما كسبت، كذلك هو قائم بكل اسم بما يدل عليه وهذا علم غامض ولهذا قال في هذا التوحيد: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ لما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ فالأخفى عن صاحب السرّ هو ما لا يعلمه ممّا يكون لا بدّ أن يعلمه خاصة وما تسمّى إلاّ بأحكام أفعاله من طريق المعنى فكلها أسماء حسنى، غير أنه منها ما يتلفظ بها ومنها ما يعلم ولا يتلفظ بها لما هو عليه حكمها في العرف من إطلاق الذم عليها فإنه يقول: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وقدم الفجور على التقوى عناية بنا إلى الخاتمة والغاية للخير، فلو أخّر الفجور على التقوى لكان من أصعب ما يمرّ علينا سماعه، فالفجور يعرّض للبلاء، والتقوى محصل للرحمة وقد تأخّر التقوى فلا يكون إلاّ خيراً، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥] ولا يشتق له منه اسم لما ذكرناه فله الأسماء الحسنى في العرف، وحسن غيرها مبطون مجهول في العرف إلاّ عند العارفين بالله، ويندرج في هذا العلم بسبب الألف واللام التي هي للشمول جميع ما ينطلق عليه اسم السرّ وما هو أخفى من ذلك السرّ، ومن السرّ النكاح قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥] أي نكاحاً فإن الله أيضاً يعلمه، وإن كانت الآية تدل بظاهرها على ما يحدّث المرء به نفسه لقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ﴾ ذلك، ويعلم ما تحدث به نفسك وهو قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ومع هذا فإن الألف واللام لها حكم في مطلق اسم السرّ فيعلم ما ينتجه النكاح وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٤] فإنه الخالق ما فيها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ لعلمه بالسرّ ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٤] لعلمه بما هو أخفى. ومن هذه الحضرة نصب الأدلة على معرفته وجعل في نفوس العلماء تركيب المقدمات على الوجه الخاص والشرط الخاص، فأشبهت المقدمات النكاح من الزوجين بالوقاع ليكون منه الإنتاج، فالوجه الخاص الرابط بين

المقدمتين وهو أن واحداً من المقدمتين يتكرّر فيهما ليربط بعضهما ببعض من أجل الإنتاج، والشرط الخاص أن يكون الحكم أعمّ من العلة أو مساوياً لها حتى يدخل هذا المطلوب تحت الحكم، ولو كان الحكم أخص لم ينتج وخرج عنه كقولهم: كل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فالحادث هنا هو الحكم، والمقدمة الأخرى والأجسام لا تخلو عن الحوادث، فالحوادث هو الوجه الخاص الجامع بين المقدمتين فأنتج أن الجسم حادث ولا بدّ فالحكم أعمّ لأن العلة الحوادث القائمة به، والحكم كونه حادثاً، وما كل حادث يقال فيه إنه لا يخلو عن الحوادث فهذا حكم أعمّ من العلة فالنتيجة صحيحة، ثم الاستفصال في تصحيح المقدمتين معلوم الطريق في ذلك، وإنما قصدنا التمثيل لا معرفة حدوث الأجسام ولا غيرها، وإذا علمت أن الإيجاد لا يصحّ إلاَّ على ما قررناه وهو بمنزلة السرّ في النكاح ينتقل إلى العلم بما هو أخفى من السرّ كما تنتقل ممّا ضربت لك به المثل إلى كون الحق أوجد العالم على هذا المساق وظهر العالم عن ذات موصوفة بالقدرة والإرادة فتعلقت الإرادة بإيجاد موجود ما وهو التوجه مثل اجتماع الزوجين فنفذ الاقتدار فأوجد ما أراد فكان أخفى من السرّ لجهلنا بنسبة هذا التوجّه إلى هذه الذات ونسبة الصفات إليها لأنها مجهولة لنا لا تعرف، فيعرف التوجّه والصفة من حيث عينه وعين الصفة، ويجهل كيفية النسبة لجهلنا بالمنسوب إليه لا بالمنسوب، فهذا توحيد الموجد للأشياء مع كثرة النسب فهو واحد في كثير فأوقع الحيرة هذا العلم في هذا المعلوم إلاَّ لمن كشف الله عن عينه غطاء الستر فأبصر الأمر على ما هو عليه فحكم بما شاهد، واختلفوا هل يجوز وقوع مثل هذا أو لا يجوز؟

التوحيد السابع عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [سورة طه: الآية ١٣، ١٤] هذا توحيد الاستماع وهو توحيد الإنابة وقوي بالجمع إذ قد قرىء «وأنا اخترناك» فكثّر ثم أفرد فقال إنني و«إن» كلمة تحقيق، فالانية هي الحقيقة، ولما كان حكم الكناية بالياء يؤثر في صورة الحقيقة نظرت من في الوجود على صورتها فوجدت نوناً من النونات فقالت لها: قني بنفسك من أجل كناية الياء لئلا تؤثر في صورة حقيقتي فيشهد الناظر والسامع التغيير في الحقيقة أن الياء هي عين الحقيقة، فجاءت نون الوقاية فحالت بين الياء ونون الحقيقة فأحدثت الياء الكسر في النون المجاورة لها فسميت نون الوقاية لأنها وقت الحقيقة بنفسها، فبقيت الحقيقة على ما كانت عليه لم يلحقها تغيير فقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ولولا نون الوقاية لقال: إني أنا الله، فغيرها، وتغيير الحقيقة بالضمير في الآن هو مقام تجليه في الصور يوم القيامة وما ثم إلاَّ صورتان خاصة لا ثالثة لهما صورة تنكر وصورة تعرف ولو كان ما لا يتناهى من الصور فإنها محصورة في هذا الحكم إما أن تنكر أو تعرف لا بدّ من ذلك، فإذا قرىء: «وأنا اخترتك» كان أحق بالآية وأنسب وأنفى للتغيير، فإنه ما زال التوحيد يصحبها إلى آخر الآية في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ [سورة طه: الآية ١٤] وإذا قرىء بالجمع ظهر التغير بالانتقال في العين الواحدة من الكثير إلى الواحد، فمساق الآية يقوّي «وأنا اخترناك» لأنه عدد أموراً تطلب أسماء مختلفة، فلا بدّ من التغيير والتجلي في كل صورة يدعى

إليها، وكان جملة ما تحصل من الصور في هذه الواقعة لموسىٰ على ما روي إثنتي عشرة ألف صورة يقول له في كل صورة: يا موسىٰ، ليتنبه موسىٰ على أنه لو أقيم لصورة واحدة لاتسق الكلام ولم يقل في كل كلمة يا موسىٰ، فاعلم ذلك، فإن هذا التوحيد في هذه الآية من أصعب ما يكون لقوله: «وأنَا اخترناك» فجمع ثم أفرد ثم عدد ما كلم به موسىٰ عليه، السلام، فهذا توحيد الجمع على كل قراءة، غير أن قوله: وأنا اخترناك قرأ بها حمزه على رب العزّة في المنام فقال له ربه: وأنا اخترناك فهي قراءة برزخية فلهذا جمع لأنه تجلّ صوري في منام، فلا بدّ أن تكون القراءة هكذا، فإذا أفردتها بعد الجمع فلأحدية الجمع لا غير.

التوحيد الثامن عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ٩٨] هذا توحيد السعة من توحيد الهوية وهو توحيد تنزيه لئلا يتخيل في سعته الظرفية للعالم من أجل الاسم الباطن والظاهر، ونفس الرحمن والكلمات التي لا تنفد والقول فقال: إن سعته علمه بكل شيء لا أنه طرف لشيء، وسبب هذا التوحيد لما جاء في قصة السامريّ وقوله عن العجل لما نبذ فيه ما قبضه من أثر الرسول فكان العجل ظرفاً لما نبذ فيه، فلما خار العجل قال: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٨٨] فقال الله: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] لا تركيب فيه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ٩٨] أي هو عالم بكل شيء أكذب السامريّ في قوله ثم نصب لهم الدلالة على كذب السامري مع كون العجل خار فقال مثل ما قال إبراهيم في الأصنام: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [سورة طٰه: الآية ٨٩] أي إذا سُئِل لا ينطق والله يكون متصفاً بالقول ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً أي لا ينتفعون به لأنه قال: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [سورة طٰه: الآية ٩٧] ومن لا يدفع الضرر عن نفسه كيف يدفع عن غيره؟ وإذا حرقه ونسفه لم ينتفع به فإنه لو أبقاه دخلت عليهم الشبهة بما يوجد في الحيوان من الضرر والنفع. وفي إقامة هذه الأدلة أمور كبار قال تعالىٰ عن اليهود أنهم قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وأصمنا عن إدراك هذا القول إلاّ بطريق الإيمان، وأعمانا عن توجهه على إيجاد الأشياء بما نصب من الأسباب فأنزل المطر فنزل وحرثت الأرض وبذر الحب وانبسطت الشمس وطلع الحب وحصد وطحن وعجن وخبز ومضغ بالأسنان وابتلع ونضج في المعدة وأخذه الكبد فطبخه دماً ثم أرسل في العروق وانقسم على البدن فصعد منه بخار فكان حياة ذلك الجسم من أجل ذلك النفس، فهذه أمهات الأسباب مع تحريك الأفلاك، وسير الكواكب، وإلقاء الشعاعات على مطارح الأنوار مع نظير النفس الكلية بإذن الله مع إمداد العقل لها، هذه كلها حجب موضوعة أمهات سوى ما بينها من دقائق الأسباب، فيحتاج السمع إلى شق هذه الحجب كلها حتى يسمع قول: ﴿كُن﴾ فخلق في المؤمن قوة الإيمان فسرت في سمعه فأدرك قول ﴿كُن﴾ وسرت في بصره فشاهد المكون للأسباب وفعل هذا كله من نفس الرحمن ليرحم بها من عبد غير الله إذا استوفى منه حقوق

لشركاء الذين يتبرؤون منهم يوم القيامة، فإذا استوفى حقوقهم بالعقوبة والانتقام رجع الأمر إليه على الإنفراد وانقضت الأيام التي استوجب الشركاء فيها حقوقهم، فلما انفرد ورجع الأمر إليه رحمهم فيما هو حق له بهذه الحجب التي ذكرناها لعلمه بما وضع وبأنه أنطق ألسنتهم بما قالوه وخلق في نفوسهم ما تخيلوه، فسبحانه من حكم عدل لطيف خبير يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي لا إله إلاَّ هو فعّال لما يريد.

التوحيد التاسع عشر: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٥] هذا توحيد الإقتدار والتعريف وهو من توحيد الإنابة وهو توحيد عجيب، ومثل هذا يسمّى التعريض أي كذا فكن أنت مثل قوله ما يقال لك إلاَّ ما قد قيل للرسل من قبلك، وجاء بالعبادة ولم يذكر الأعمال المعينة فإنه قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وذلك تعيين الأعمال وهي التي ينتهي فيها مدة الحكم المعبر عنه بالنسخ في كلام علماء الشريعة، وما ثم من الأعمال العامة السارية في كل نبوة إلاَّ إقامة الدين والاجتماع عليه وكلمة التوحيد وهو قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣] وبوّب البخاري على هذا باب ما جاء أن الأنبياء دينهم واحد وليس إلاَّ التوحيد وإقامة الدين والعبادة، ففي هذا اجتمعت الأنبياء عليهم السلام، واختصاص هذا الوحي بالإنابة دلّ على أنه كلام إلهيّ بحذف الوسائط فما أوحى إليهم منهم فإنه لا يقول أنا إلاَّ من هو متكلم، فإن قيل فقد قال أنه ينزل بمثل هذا الملائكة، فهذا لا يبعد أن تأخذه الرسل من وجهين إذا نزلت به الملائكة يكون على الحكاية كما قال: [الوافر]

سَمِعْتُ النَاسُ يَنْتَجِعُون غيثاً فقلتُ لصَيْدَحَ انْتَجِعي بلالا

فرفع السين من« الناس» على الحكاية، فلو كان هذا السامع انتجاعهم لنصب السين فهذا قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] ونزلت به الملائكة، وإذا ورد مثل هذا معرى عن القرائن أو النص عليه حمل على ما هو الأصل عليه فما يقول أنا إلاَّ المتكلم، ألا ترى ما ذكرناه في الحديث المتقدم أن الله يصدق عبده في موطن، كما يحكى عنه في موطن فقال في التصديق: «**إذا قال العبد: لا إله إلاَّ الله والله أكبر صدقه ربه فقال لا إله إلاَّ أنا وأنا أكبر**» فهو القائل بالإنابة لا غيره.

وأما حكايته ما قال فهو قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] بهذا اللفظ عينه، فإن حكى على المعنى فمثل قوله عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [سورة غافر: الآية ٣٦] فإنه قالها بلسان القبط ووقعت الترجمة عنه باللسان العربي والمعنى واحد، فهذه الحكاية على المعنى، فهكذا فلتعرف الأمور إذا وردت حتى يعلم قول الله من قول ما يحكيه لفظاً أو معنى كل إنسان بما هو عليه فقول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨١] وانتهى كلام الله. ثم حكى معنى قولهم مترجماً عنهم

أقررنا وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟﴾ إلى هنا قول الله ﴿ءَامَنَّا﴾ حكاية ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟﴾ إلى هنا قول الله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤] حكاية فإذا ذكرت فاعلم بلسان من تذكّر، وإذا تلوت فاعلم بلسان من تتلو وما تتلو وعمّن تترجم؟

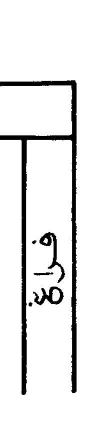
التوحيد العشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧] هذا توحيد الغم وهو توحيد المخاطب وهو توحيد التنفيس، كما نفس الرحمن عن محمد ﷺ بالأنصار فقال: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يأتيني مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**» فكانت الأنصار التي تكونت من ذلك النفس الرحماني وهي كلمات الحق كما نفّس الله عن يونس بالخروج من بطن الحوت فعامل قومه بما عاملهم به من كونه كشف عنهم العذاب بعدما رأوه نازلاً بهم فآمنوا أرضاه الله في أمته ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٨] ولم يفعل ذلك مع أمة قبلها إذ كان غضبه لله ومن أجله وظنه بربه أنه لا يضيق عليه وكذلك فعل، ففرج الله عنه بعد الضيق ليعلم قدر ما أنعم الله به عليه ذوقاً كما قيل: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل. فدلّ على أن يونس كان محبوباً بالله حيث خصّ قومه من أجله بما لم يخصّ به أمّة قبلها وعرفنا بذلك فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٨] فأمدّ لهم في التمتع في مقابلة ما نالوه من الألم عند رؤية العذاب، فإنه معلوم من النفوس الإنسانية أن ليالي الأنس والوصال قصار، وإن كانت في نفس الأمر لها مدة طويلة وليالي الهجران والعذاب طوال، وإن كانت في نفس الأمر قصار كما ذكروا في تفسير أيام الدجال أنه أول يوم كسنة لشدة فجأة البلاء يطول عليهم ثم كشهر ثم كجمعة، فإذا استصحبوه كان كسائر الأيام المعلومة التي لا يطوّلها حال ولا يقصرها حال، وكما قيل في يوم القيامة إن مقداره خمسون ألف سنة لهول المطلع وما يرى الخلق فيه من الشدة وهو عند الآمنين الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر في الإمتداد كركعتي الفجر، وأين زمان ركعتي الفجر من زمان خمسين ألف سنة؟ فلما اشتدّ البلاء على قوم يونس وكانت اللحظة الزمانية عندهم في وقت رؤية العذاب كالسنة أو أطول ذكر أنه تعالىٰ جعل في مقابلة هذا الطول الذي وجدوه في نفوسهم أن متعهم إلى حين، فبقوا في نعيم الحياة الدنيا زماناً طويلاً لم يكن يحصل لهم ذلك لولا هذا البلاء، فانظر ما أحسن إقامة الوزن في الأمور وقد قيل: إن الحين الذي جعله غاية تمتعهم أنه القيامة والله أعلم، ورأينا من رأى منهم رجلاً رأينا أثر رجله في الساحل وكان أمامي بقليل فلم ألحقه فاكتلت طول قدمه في الرمل ثلاثة أشبار وثلثي شبر وكان من قوم يونس، وبعث إلينا بكلام عن حوادث تحدث بالأندلس حيث كنا سنة خمس وثمانين وسنة ست وثمانين وخمسمائة فما ذكر شيئاً إلاّ رأيناه وقع كما ذكر، فانظر في هذه العناية الإلهية بهذا النبي وما جاء به من الاعتراف في توحيده.

التوحيد الحادي والعشرون: من نفس الرحمن ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٦] هذا توحيد الحق وهو توحيد الهوية قال تعالىٰ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣٨] وهو قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٥] فلا إله إلاَّ هو من نعت الحق، فالأمر الذي ظهر فيه موجود العالم هو الحق وما ظهر إلاَّ في نفس الرحمن وهو العماء فهو الحق رب العرش الذي أعطاه الشكل الإحاطي لكونه بكل شيء محيطاً، فالأصل الذي ظهر فيه صور العالم بكل شيء من عالم الأجسام محيط، وليس إلاَّ الحق المخلوق به، فكأنه لهذا القبول كالظرف يبرز منه وجود ما يحوي عليه طبقاً عن طبق عيناً بعد عين على الترتيب الحكمي، فأبرز ما كان فيه غيباً ليشهده فيوحده مع صدوره عنه فيحار إن عدده فما ثم غيره وإن وحده فيرى أن عينه ليس هو، فأوجد طرفين وواسطة لتميز الأعيان في العين الواحدة، فتعدّدت الصور وما تعدّدت الخشبية ولا العودية، فالعودية في كل صورة بحقيقتها من غير تبعيض وهذه الصورة ما هي هذه الصورة وليس ثم شيء زائد على العودية فقيل: ما ثم شيء، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [سورة ص: الآية ٢٧] ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩] قيل: فأين هو؟ قال: في عين التمييز فلا أقدر على إنكار التمييز ولا أقدر أثبت سوى عين واحدة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٦].

التوحيد الثاني والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٦] هذا توحيد الخبء وهو من توحيد الهوية، لما كان الخبء النباتيّ تخرجه الشمس من الأرض بما أودع الله فيها الحرارة ومساعدة الماء بما أعطى الله فيه من الرطوبة فجمع بين الحرارة ومنفعل البرودة حتى لا تستقل الشمس بالفعل فظهرت الحياة في الحيّ العنصري وكان الهدهد دون الطير قد خصّه الله بإدراك المياه، كان يرى للماء السلطنة على بقية العناصر تعظيماً لنفسه وحماية لمقامه حيث اختصّ بعلمه ليشهد له بالعلم بأشرف الأشياء حيث كان العرش المستوي عليه الرحمن على الماء، فكان يحامي عن مقامه، ووجد قوماً يعبدون الشمس وهي على النقيض من طبع الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ وعلم أنه لولا حرارة الشمس ما خرج هذا الخبء وأنها مساعدة للماء، فأدركته الغيرة في المنافر فوشى إلى سليمان عليه السلام بعابديها وزاد للتغليظ بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٤] ينبهه على موضع الغيرة، والشمس وإن أخرجت خبء الأرض بحرارتها فهي تخبأ الكواكب بإشراقها وتظهر المحسوسات الأرضية بشروقها فلها حالة الخبء والإظهار، وبها حد الليل والنهار، فزاحمت من يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون، فابتلى الله الماء فأصبح غوراً، وابتلى الشمس فأمست آفلة، ففجر العيون فأظهر خبء الماء وفار التنور فأظهر خبء الشمس فأخرج الخبء في السموات والأرض فوسع كل شيء رحمة وعلماً فاستوى على العرش العظيم، إذ حكم على فلك الشمس بدورته وعلى الماء باستقراره وجريته فهما في كل درجة في خبء وظهور، فوحده الظهور بظهوره، ووحده الخبء بسدل ستوره، فعلم سبحانه ما يخفون وما يعلنون ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

التوحيد الثالث والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٠] هذا توحيد الاختيار وهو من توحيد الهوية، لما كان العالم كلمات الله تعالىٰ كانت نسبة هذه الكلمات إلى النفس الرحماني الطاهرة فيه نسبة واحدة، فكان يعطي هذا الدليل أنه لا يكون في العالم تفاضل ولا مختار بفضل عند الله على غيره، ورأينا الأمر على غير هذا خرج في الوجود عاماً في الموجودات فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠] وقال: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقال: ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] وقال: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] مع كونها تسقى بماء واحد، فما ثم آية أحق بما هو الوجود عليه من التفاضل من هذه الآية حيث قال: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] فظهر الاختلاف عن الواحد في الطعم بطريق المفاضلة، والواقع من هذا كثير في القرآن من تفضيل كل جنس بعضه على بعض حتى القرآن وهو كلام الله يفضل على سائر الكتب المنزّلة وهي كلام الله، والقرآن نفسه يفضل بعضه على بعض مع نسبته إلى الله أنه كلامه بلا شك، فآية الكرسي سيدة آي القرآن وهي قرآن، وآية الدين قرآن، فما أعجب هذا السر، فعلمنا من هذا أن الحكمة التي يقتضيها النظر العقلي ليست بصحيحة، وأن حكمة الله في الأمور هي الحكمة الصحيحة التي لا تعقل وإن كانت لا تعلم فما تجهل لكن لا تعين بمجرد فكر ولا نظر بل ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]. ولقد رأيت في حين تقييدي لهذا التوحيد الذي يعطي التفاضل واقعة عجيبة أعطيت رقاً منشوراً عرضه فيما يعطي البصر ما يزيد على العشرين ذراعاً، وأما طوله فلا أحققه وهو على هذا الشكل المصور في الهامش:



وهو جلد واحد جلد كبش تنظره فتراه أبيض عند القراءة، وتنظر إليه في غير قراءة فتراه أخضر، فإذا قرأته تراه جلداً، وإذا لم تقرأه تراه شقة لا أدري حريراً أو كتاناً وهو صداق أهلي فيقال لي: هذا صداق إلهيّ لأهلك، ولا أسأل عن الزوج ولا أعلم أنها خرجت عن عصمة نكاحي وأنا فارح بهذا الأمر مسرور غاية السرور، ثم يؤتى بسرقة حرير خضراء تنبعث من الكتاب كأنها منه تكوّنت فيها ألف دينار ذهباً عيناً كل دينار ثقيل لا أدري ما وزنه فيقال: قسمه على أهلها خمسة دنانير لكل شخص، فأوّل ما آخذ أنا منها خمسة دنانير عليها نور ساطع أعظم من ضياء أضوأ كوكب في السماء، له شعاع، وأرى نفس ذلك

الكتاب هو عين أهلي ما كتابها غيرها وأنا بكل جسمي راقد عليها متكىء فكنت أنظر إلى رقم ذلك الكتاب فأجده بخط زين الدين عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن المعروف بابن الأستاذ قاضي مدينة حلب كتبه عن إملاء القاضي الكبير بهاء الدين بن شداد، والصداق من أوله إلى آخره مسجع الألفاظ تسجيعاً واحداً على رويّ الراء المفتوحة والهاء، فضبطت منه بعد البسملة: الحمد لله الذي جعل قرآنه وفرقانه وتوراته وإنجيله وزبوره رقوم هذا الكتاب المكنون وسطوره. وأودعه كل آية في الكتب وسوره. وأظهره في الوجود في أحسن صوره. وجعل أعلامه في العالم العلوي والسفليّ مشهوره. وآياته غير متناهية ولا محصورة. وكلماته بكل لسان في كل زمان وغير زمان مذكورة. هكذا على هذا الرويّ إلى آخره إن كان له آخر بخط مثل الذر، فلما رددت إلى حسّي وجدتني أكتب هذا الفصل من فصول التوحيد وإذا به توحيد الاختيار، فعلمت أن ذلك عين هذا الفصل وأن لأهلي من هذا الفصل أوفر حظ وأعظم نصيب.

فلما رأينا التفاضل والاختيار وقع في العالم حتى في الأذكار الإلهية المشروعة كما ذكرنا علمنا أن ثم أمراً معقولاً ما هو عين النفس ولا هو غير النفس الذي تتكوّن فيه الكلمات وهي أعيان الكائنات، فإذا بذلك عين المشيئة فيها ظهر هذا التفضيل في الواحد والتفضيل في المتساوي، والواحد لا يتصف بالتفضيل والمتساوي لا ينعت بالتفضيل، فعلمنا أن سرّ الله مجهول لا يعلمه إلاً هو فوجدناه توحيد الاختيار في حضرة السرّ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو حمد الإجمال ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٠] وهو حمد التفضيل، فتميزت المحامد في العين الواحدة فكان حمدها عينها، فما أعجب مقام هذا التوحيد لمن شاهده، وتعجبت من اسم أهلي في الواقعة واسمها مريم ومعنى هذا الاسم معلوم في اللسان الذي فيه سميت وهي محرّرة لله حاملة لروح الله محل لكلمة الله مثنيّ عليها بكلام الله مبرأة بشهادة ما سقط من التمر في هزّها جذع النخلة اليابس ونطق ابنها في المهد بأنه عبد الله وهما شاهدان عدلان عند الله فكانت كلها لله وبالله وعن الله، ولهذا غبطها زكريا نبي الله فتمنى مثلها على الله، فأعطاه يحيى حصوراً مثلها لم يجعل له سميا من قبل من أنبياء الله، فخصّه بالأولية من أسماء الله، فانظر في بركة هذا الاسم في وجود الله بين عباد الله، فهذا ما كان إلاً من اختيار الله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] ما كان لهم الخيرة بل هي لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧].

التوحيد الرابع والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٨] هذا توحيد الحكم بالتوحيد الذي إليه رجوع الكثرة إذ كان عينها وهو توحيد الهوية، فنهى كونه أن يدعو مع الله إلهاً فنكر المنهيّ عنه إذ لم يكن ثم إذ لو كان ثم لتعين، ولو تعين لم يتنكر، فدل على أنه من دعا مع الله إلهاً آخر فقد نفخ في غير ضرم واستسمن ذا ورم وكان دعاؤه لحماً على وضم، ليس له متعلق يتعين ولا حق يتضح ويتبين، فكان مدلوله دعائه العدم المحض فلم يبق إلاً من له الوجود

المحض، فكل شيء يتخيل فيه أنه شيء فهو هالك في عين شيئته عن نسبة الألوهية إليه لا عن شيئته، فوجه الحق باق وهو ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٧] والآلاء الجسام، فما دعا من دعا إلاّ إلى معروف فما هو الذي نكر فما هو عين ما ذكر، فالحق الخالص من كان في ذاته يعلم فلا يجهل ويجهل فلا يحاط به علماً، فعلم من حيث إنه لا يحاط به علماً وجهل من حيث إنه لا يحاط به علماً فعلم من حيث جهل فالعلم به عين الجهل به، فما ثم من يقبل الأضداد في وصفه إلاّ الله.

التوحيد الخامس والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣] هذا توحيد العلة وهو من توحيد الهوية، لو لم يوحد بالعلة كما يوحد بغيرهما لم يكن إلهاً لأن من شأن الإله أن لا يخرج عنه وجود شيء إذ لو خرج عنه لم يكن له حكم فيه وقد قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] فلا بدّ أن يكون له توحيد العلة وهو أن يعبد بهذا التوحيد لسبب لكون العابد في أصل كونه مفتقراً إلى سبب، فلم يخرج عن حقيقته وسببه رزقه الذي به بقاء عينه، فتخيله المحجوب في الأسباب الموضوعة وهو تخيل صحيح أنه في الأسباب الموضوعة لكن بحكم الجعل لا بحكم ذاتها، فجاعل كونها رزقاً هو الله الذي ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بما ينزل منها من أرزاق الأرواح ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بما يخرج منها من أرزاق الأجسام، فهو الرازق الذي بيده هذا الرزق، غير أن الحجب لما أرسلها الله على بعض أبصار عباد الله ولم يدركوا إلاّ مسمّى الرزق لا مسمّى الرازق قالوا هذا فقيل لهم ما هو هذا هو في هذا مجعول من الذي خلقكم، فكما خلقكم هو رزقكم فلا تعدلوا به ما هو له ومنه فأنتم ومن اعتمدتم عليه سواء، فلا تعتمدوا على أمثالكم فتعتمدوا على الكثرة، والاعتماد على الكثرة يؤدّي إلى عدم حصول ما وقع فيه الاعتماد، إذ كل واحد من الكثيرين يقول غيري يقوم له بذلك فلا يقوم له شيء فيدعوه الحال الصحيح إلى التفرّغ والتجرّد إلى واحد على علم من ذلك الواحد أنه تجرّد إليه وتفرغ ممّا سواه فتعين القيام به عليه، فأدّى إلى حصول المطلوب من وراء حجاب في حق قوم، وعلى الشهود والكشف في حق آخرين وهم أهل الله وخاصته.

التوحيد السادس والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٣٥] هذا توحيد التعجّب وهو توحيد الله لا توحيد الهوية، فقوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي يستعظمون ذلك ويتعجبون منه كيف يصحّ في الكون لا إله إلاّ الله، والشيء لا يكون إلاّ على صورة واحدة وعين واحدة، والصور كثيرة مختلفة بالحد والحقيقة وبيدها المنع والعطاء وذلك لله ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] أي الكثرة في عين الواحد ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٣٦] فما أنكروه ولا ردّوه بل استعظموه واستكبروه وتعجبوا كيف تكون الأشياء شيئاً واحداً، واستكبروا مثل هذا الكلام من مثل هذا الشخص حيث علموا أنه منهم وما شاهد إلاّ ما شاهدوه، فمن أين له هذا الذي ادّعاه؟ فحجبهم الحسّ عن معرفة النفس والاختصاص الإلهيّ

فامتثلوا أمر الله من حيث لا يشعرون لأنه الآمر عباده بالاعتبار وهو التعجّب فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣] وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] فاعتبروا كما أمروا فهم من أولي الأبصار وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [سورة ص: الآية ٧] لما جاءهم التعريف بهذا على يدي واحد منهم ولم يعرفوا العناية الإلهية والاختصاص الربانيّ، والاختلاق لم يكن فيما تعجبوا منه لأنه لو أحالوه بالكلية ما تعجبوا، وإنما نسبوا الاختلاق لمن جاء به إذ كان من جنسهم، وممّا يجوز عليه ذلك حتى يتبين لهم برؤية الآيات فيعلمون أنه ما اختلق هذا الرسول وأنه جاءه من عند الله الذي عبد هؤلاء هذه المسمّاة آلهة عندهم على جهة القربة إلى الله الكبير المتعالي فأنزلوهم بمنزلة الحجبة للملك وأعطوهم اسمه كما يعطى اسم الولاية لكل وال، وإن كان الوالي هو الله فالولاة كثيرون، فكأنه أخبرهم عن الله أنه ما ولى هؤلاء الذي يعبدون بل آباؤكم نصبوهم آلهة هذا الإله الذي أدعوكم إليه تعرفونه وأنه اسمه الله لا تنكرونه وأنتم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فسميتموه فسموا آلهتكم فتعرفوا عند ذلك الأمر الحق بيد من هو؟ هل هو بأيديكم أو بيدي؟ يقول الرسول: فلما عرفوا قوله وتحققوه علموا أنهم في فضيحة لأنهم إذا سمّوهم لم يسموهم الله ولا عقلوا من أسمائهم مسمّى الله فإنهم عارفون بأسمائهم فقالوا مثل ما قال قوم إبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٥] فتلك الحجة الإلهية عليهم منهم فما حاجهم إلاّ بهم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣].

التوحيد السابع والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦] هذا توحيد الإشارة فما في الكون مشار إليه إلاّ هو ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ لأن الإشارة لا تقع من المشير إلاّ لأمر حادث عنده، وإن لم يكن في عينه في نفس الأمر حادثاً ولكنه يعلم أنه حدث عنده وما يحدث أمر عند من يحدث عنده إلاّ ولا بدّ أن يجهل أمره عندما يحدث عنده لشغله بحدوثه عنده وأثره فيه فيشير إليه في ذلك الوقت، وفي تلك الحالة رفيقه وهو على نوعين، إذ ماله رفيق سوى اثنين: إمّا عقله السليم، وإما شرعه المعصوم، وما ثم إلاّ هذا لأنه ما ثم من يقول له في هذه الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلاّ أحد هذين القرينين: إما العقل السليم أو الشرع المعصوم، وما عدا هذين فإنه يقول له خلاف ما قال هذان القرينان فيقول له: هذا الدهر وتصرّفه، ويقول الآخر: هذه الطبيعة وأحكامها، ويقول الآخر: هذا حكم الدور، فيصرفه كل قائل إلى ما يراه فهو قول هذين القرينين ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] بالقرآن ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] الخارجين عن حكم هذين القرينين ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤].

التوحيد الثامن والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة غافر: الآية ٣] هذا توحيد الصيرورة وهو من توحيد الهوية وهو على

الحقيقة مقام الإيمان لأن المؤمن من اعتدل في حقّه الخوف والرجاء واستوت فيهما قدماه فلم يحكم فضله في عدله ولا عدله في فضله، فكما تجلى في شديد العقاب تجلّى في الطول الأعم المؤيد بغافر الذنب وقابل التوب ولم يجعل للشديد العقاب مؤيداً وذلك للدعوى في الشدّة، فوكل إلى ما ادعاه فهو غير معان ومن لم يدع فهو معان فإنها ولاية في الخلق، ولأنه جاء بالشدة في العقاب ولم يجىء في الطول مثل هذه الصفة، فلهذا شدّد أزره بـ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [سورة غافر: الآية ٣]، فأشار إلى ذوي الأفهام من عباده بإعانة ذي الطول بغافر الذنب وقابل التوب على الشديد العقاب إلى ترك الدعوى، فإن الشديد في زعمه أنه لا يقاوم، ولو علم أن ثم من يقاومه ما ادّعى ذلك فنبّه تعالىٰ عباده على ترك الدعوى، فيكون الحق يتولى أمورهم بنفسه وعصمهم في حركاتهم وسكناتهم ليقفوا عند ذلك ويعلموا أنه الحق.

التوحيد التاسع والعشرون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٢] هذا توحيد الفضل وهو من توحيد الهوية لأنه جاء بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٠] فيكون هذا التوحيد شكراً لما تفضل به الله على الناس مع قوله: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] أراد في المنزلة فإن الجرم يعلمه كل أحد ولكن ما تفطن الناس لقوله تعالىٰ: ﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ من كونهم ناساً ولم يقل: أكبر من آدم ولا من الخلفاء، فإنه ما خلق على الصورة من كونه من الناس، إذ لو كان كذلك لما فضل الناس بعضهم بعضاً ولا فضلت الرسل بعضهم بعضاً، ففضل الصورة لا يقاومها فضل فقوله: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ كان الفاضل ممّن له أيضاً هذا الاسم، والمراد بالفضل العام والخاص فوحده بلسان العموم والخصوص فظهر توحيد الفضل من حضرة الكرم والبذل.

التوحيد الثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٥] هذا توحيد الحياة وهو توحيد الكل، وهو من توحيد الهوية الخالصة، والحياة شرط في كل متنفس، فلهذا هذا العالم حيّ بما فيه من الأبخرة الصاعدة منه، فتوحيد الحياة توحيد الكل، فإنه ما ثم إلاّ حيّ فإنه ما ثم إلاّ الحق وهو المسبح نفسه بما أعطى الرحمن في نفسه من الكلام الإلهيّ فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ١٧] وما ثم إلاّ العالم وما من شيء من العالم إلاّ وهو مسبح بحمده ولا ثناء أكمل من الثناء بالأحدية فإن فيها عدم المشاركة، فالتوحيد أفضل ثناء وهو لا إله إلاّ الله فلهذا قلنا أنه توحيد الحياة وتوحيد الكل وهو إخلاص التوحيد لله من الله ومن العالم.

التوحيد الحادي والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [سورة الدخان: الآية ٨] هذا توحيد البركة لأنه في السورة التي ذكر

فيها أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر الموافقة ليلة النصف من شعبان المخصوصة بالآجال ولهذا نعت هذا التوحيد بأنه يحيي ويميت وهو قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] أي محكم فتظهر الحكم فيه التي جاءت بها الرسل الإلهيون ونطقت بها الكتب الإلهية رحمة بعباد الله عامة وخاصة، فكل موجود يدركها وما كل موجود يعلم من أين صدرت فهي عامة الحكم خاصة العلم، إذ كانت الاستعدادات من القوابل مختلفة، فأين نور الشمس من نور السراج في الإضاءة؟ ومع هذا فأخذ الشمس من السراج اسمه وافتقر إليه مع كونه أضوأ منه وجعل نبيه في هذا المقام سراجاً منيراً وبه ضرب الله المثل في نوره الذي أنار به السموات والأرض فمثل صفته بصفة المصباح، ثم ذكر ما أوقع به التشبيه ممّا ليس في الشمس من الإمداد والاعتدال مع وجود الاختلاف بذكر الشجرة من التشاجر الموجود في العالم لاختلاف الألسنة والألوان التي جعل الله فيها من الآيات في خلقه، وذكر المشكاة وما هي للشمس فنور السموات والأرض الذي هو نور الله مشكاة يعرفها من وحدّه بهذا التوحيد المبارك الذي هو توحيد البركة، وفي هذه المشكاة مصباح وهو عين النور الذي تحفظه هذه المشكاة من اختلاف الأهواء وحكمها فيما يقع في السرج من الحركة والاضطراب، وإذا تقوّت الأهواء أدّى إلى طفي السرج كذلك يغيب الحق بين المتنازعين ويخفى ويحصل فيه الحيرة لما نزلت ليلة القدر تلاحَى رجلان فارتفعت فإنها لا تقبل التنازع، ولما كانت الأنبياء لا تأتي إلاّ بالحق وهو النور المبين لذلك قال عليه السلام« عَنْدَ نَبِيّ لا يَنْبَغِي تَنَازُع »فلا ينازع من عنده نور، ثم إن لهذا المصباح الذي ضرب به المثل فللنور الإلهي زجاجة يعرفك هذا التوحيد ما هي تلك الزجاجة وليس ذلك للشمس، والزجاجة تشبه الكوكب الدري فإذا كان المحل الذي ظهر فيه المصباح مشبه بالكوكب الدريّ الذي هو الشمس فكيف يكون قدر السراج في المنزلة وهو صاحب المنزل؟ ثم قال في هذا السراج أنه توقد أي يتوقد ويضيء ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فلا بدّ للنور الإلهيّ من حقيقة بها يقع التشبيه بالشجرة كما جاء في اختلاف الأسماء الإلهية من الضار النافع، والمعز المذل، والمحيي المميت، وأسماء التقابل. ثم إن هذه الشجرة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فوصفها بالاعتدال فلهذا كان السراج المذكور الذي وقع به التشبيه هو السراج الذي في المشكاة والزجاجة فيكون محفوظاً عن الحركة والاضطراب لكون الشجرة لا شرقية ولا غربية، فهذا كله لا يوجد في غير السراج ولا بدّ أن يعتبر هذا كله في النور الإلهيّ.

التوحيد الثاني والثلاثون: من نفس الرحم هو قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] هذا توحيد الذكرى وهو توحيد الله. فاعلم أن الإنسان لما جبله الله على الغفلات رحمة به فيغفل عن توحيد الله بما يطالعه في كل حين من مشاهدة الأسباب التي يظهر التكوين عندها وليس ثمة إدراك يشهد به عين وجه الحق في الأسباب التي يكون عنها التكوين وهو لاستيلاء الغفلة، وهذا الغطاء يتخيل أن التكوين من عين الأسباب، فإذا جاءته الذكرى على أي وجه جاءته علم بمجيئها أنها

تدل لذاتها على أنه لا إله إلاّ الله، وأن تلك الأسباب لولا وجه الأمر الإلهيّ فيها أو هي عين الأمر الإلهيّ ما تكوّن عنها شيء أصلاً، فلما كان هذا التوحيد بعد ستر رفعته الذكرى أنتج له أن يسأل ستر الله للمؤمنين والمؤمنات فإن لرفع الستر ووجود الكشف عند الرفع أو العلم بأنه عين الستر لا غيره لذة لا يقدر قدرها فهي من منن الله على عبده.

التوحيد الثالث والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢] هذا توحيد العلم وهو من توحيد الهوية، وهو توحيده من حيث التفرقة لأنه ميّز بين الغيب والشهادة وجمع بين العلم والرحمة وهذا لا يكون إلاّ في العلم اللدني، وهو العلم الذي ينفع صاحبه، قال في عبده الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وهو قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثم قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] من قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فعلم الرحمة يكون معه اللين والعطف وهو الذي من لدنه والغصن اللدن هو الرطيب ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٤٠] فعظمه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وما أرسل إلاّ بالعلم ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فجعل إرساله رحمة فهو علم يعطي السعادة في لين ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالعلم وإن كان شريفاً فإن له معادن أشرفها ما يكون من لدنه، فإنّ الرحمة مقرونة به ولها النفس الذي ينفس الله به عن عباده ما يكون من الشدّة فيهم.

التوحيد الرابع والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] هذا توحيد النعوت، وهو من توحيد الهوية المحيطة فله النعوت كلها نعوت الجلال، فإن صفات التنزيه لا تعطي الثبوت والأمر وجودي ثابت، فلهذا قدم الهوية وأخّرها حتى إذا جاءت نعوت السلب وحصلت الحيرة في قلب السامع منعت الهوية بإحاطتها أن يخرج السامع إلى العدم فيقول: فما ثم شيء وجوديّ إذ قد خرج عن وجود العقل والحسّ فيلحقه بالعدم فتمنعه الهوية فإن الضمير لا بدّ أن يعود على أمر مقرّر فافهم.

التوحيد الخامس والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٣] هذا توحيد الرزايا والرجوع فيها إلى الله ليزول عنه ألمها إذ رأى ما أصيب فيه قد حصل بيد من يحفظ عليه وجوده، ولهذا أثنى الله على من يقول إذا أصابته مصيبة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٦] فهم لله في حالهم، وهم إليه راجعون عند مفارقة الحال، فمن حفظ عليه وجوده وحفظ عليه ما ذهب منه وكان ما حصل عنده أمانة إلى وقتها فما أصيب ولا رزي، فتوحيد الرزايا أنفع دواء يستعمل ولذلك أخبر بما لهم منه تعالىٰ في ذلك فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والرحمة لا يكون معها ألم ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٧] يقول: الذين تبين لهم الأمر على ما هو عليه في نفسه قسمين: مصيبة في حقه لنزولها به وفي حق من ليس له هذا الذوق لنزول ألمها في قلبه فيتسخط فيحرم خيرها.

التوحيد السادس والثلاثون: من نفس الرحمن هو قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] هذا توحيد الوكالة وهو من توحيد الهوية في هذا التوحيد، ملك الله العالم الإنساني جميع ما خلقه له من منافعه وأمره أن يوكل الله في ذلك، ليتفرّغ الإنسان لما خلق له من عبادة ربه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وأين هذا المقام من قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فجعل الإنفاق بأيديهم والملك لله، وفي هذا القدر الذي أمرهم به من الإنفاق فيه أمرهم أن يتخذوه وكيلاً فلا تنافر بين المقامين، فالملك لله والإنفاق للعبد، بحث الأمر وما أطلق له في ذلك، وفي الإنفاق أمر الله أن يوكل الله في ذلك لعلمه بمواضع الإنفاق والمصارف التي ترضى رب المال في الإنفاق، فنزل الشرائع أبانت له مصارف المال فأنفق على بصيرة بنظر الوكيل، فمن أنفق فيما لم يأمره الوكيل بالإنفاق فيه فعلى المنفق قيمة ما استهلك من مال من استخلفه فيه ولا شيء له فإنه مفلس بحكم الأصل فلا حكم عليه، فأعطاه هذا التوحيد رفع الحكم عنه فيما أتلف من مال من استخلفه، وهذا آخر تهليل ورد في القرن الذي وصل إلينا وهو ستة وثلاثون مقاماً قد ذكرناها بكمالها مبينة إلهية قرآنية ذكر الله بها نفسه وأمرنا أن نذكره بها فامتثلنا، فلما ذكرناه بها علمنا من لدنه علماً، وكان ذكرها رحمة منه بنا، فهذا قد أدينا العشر الواجب علينا مكملاً فوقع في يد الحق فيتولى تربيته إلى وقت اللقاء ورد الأمانات إلى أهلها . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الفصل العاشر في الذكر بالحوقلة: وهو قول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وهو ذكر كل حامل بقدر ما حمل، فالذاكرون به على طبقات كما أنهم في الصورة على طبقات، فمن كان أكثر دخولاً كان أكثر دؤوباً على هذا الذكر، والذي حاز الكمال فيها كان شرطه أن لا يفتر من هذا الذكر بالقول، كما أنه لا يفتر عنه بشاهد الحال، وهو كل مكلف في العالم، والعالم كله مكلف وما كلف به من العالم، ومن العالم ما هو مجبور فيما كلف حمله وهو المعبر عنه بفرائض الأعيان وفرائض الكفاية ما لم يقم واحد به فيسقط الفرض عن الباقي، ومن العالم ما لم يجبر في الحمل وإنما عرض عليه فإن قبله فما قبله إلاّ لجهله بقدر ما حمل من ذلك كالإنسان لما عرضت عليه الأمانة﴿ وَحَمَلَهَا﴾ كان لذلك﴿ ظَلُومًا﴾ لنفسه﴿ جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] بقدرها، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ لما عرضت عليهنّ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] لمعرفتهنّ بقدر ما حملوا فلم يظلموا أنفسهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٤٤] فما وصف أحد من المخلوقات بظلمه لنفسه إلاّ الإنسان، فكان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس في المنزلة، فإنهنّ كن أعلم بقدر الأمانة من الإنسان، فبهذا كن أيضاً أكبر من خلق الناس في المنزلة من العلم فإنهن ما وصفن بالجهل كما وصف الإنسان، وكذلك لما أمرنا بالإتيان أمر وجوب فإن لم يجبن جيء بهن على كره ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] لعلمهنّ بأن الذي أمرهنّ قادر على الإتيان بهنّ على كره منهنّ فقلن ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فالإتيان حاصل والطوع في معرض الاحتمال أن يكنّ

صدقن في دعواهنّ، فإن كان الحق القائل فما كذبا بل صدقا، وإن كان القول بالواسطة فيحتمل ما قلناه، فالعالم منا إذا قال لا حول ولا قوّة إلاّ بالله يقولها على امتثال الأمر الإلهيّ والاقتداء، فالاقتداء قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] إذا كان الحق المتكلم وهي الاستعانة بالأسباب التي لا يمكن رفعها ولا وجود المسبب إلاّ بوجودها، والأمر قوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨] على حمل هذه المشقات بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله. انتهى الجزء الحادي والعشرون ومائة.

(الجزء الثاني والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الحادي عشر: **في الاسم الإلهيّ البديع وتوجهه على كل مبدع وعلى إيجاد العقل الأوّل وهو القلم، وتوجهه على إيجاد الهمزة من الحروف ومراتبها، وتوجهه على إيجاد الشرطين من المنازل، وتوجهه بالإمداد الإلهيّ النفسيّ بفتح الفاء الذاتيّ منه والزائد وسبب زيادته:**

قال الله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] لكونهما ما خلقا على مثال متقدّم، وأوّل ما خلق الله العقل وهو القلم فهو أوّل مفعول إبداعيّ ظهر عن الله تعالىٰ، وكل خلق على غير مثال فهو مبدع بفتح الدال وخالقه مبدعه بكسر الدال، فلو كان العلم تصوّر المعلوم كما يراه بعضهم في حد العلم لم يكن ذلك المخلوق مبدعاً بفتح الدال لأنه على مثال في نفس من أبدعه أوجده عليه مطابقاً له، وذلك الذي في نفس الحق منه على قول صاحب هذا الحد للعلم لم يزل واجب الوجود في نفس الحق فلم يبتدعه في نفسه كما يفعله المحدث إذا ابتدع ولا وجد في العين إلاّ على الصورة التي قامت في نفس المصوّر لمثلها لا لها إذ ليس محلاً لما يخلقه فما هو بديع وهو بديع، فليس في نفسه صورة ما أبدع ولا تصوّرها، وهذه مسألة مشكلة فإن من المعلومات ما يقبل التصوّر، ومنها ما لا يقبل التصوّر وهو معلوم فما حد العلم تصوّر المعلوم، وكذلك الذي يعلم قد يكون ممّن يتصوّر لكونه ذا قوّة متخيلة، وقد يكون ممّن يعلم ولا يتصوّر لكونه لا يجوز عليه التمثّل فهو تصوّر من خارج ولا يقبل الصورة في نفسه لما صوّره من خارج لكن يعلمه. واعلم أوّلاً أن الإبداع لا يكون إلاّ في الصور خاصة لأنها التي تقبل الخلق فتقبل الابتداع، وأما المعاني فليس شيء منها مبتدعاً لأنها لا تقبل الخلق فلا تقبل الإبتداع فهي تعقل ثابتة الأعيان، هذه هي حضرة المعاني المحققة.

وثم صور تقبل الخلق والإبتداع تدل عليها كلمات هي أسماء لها فيقال تحت هذا الكلام أو لهذه الكلمة معنى تدل عليه، ويكون ذلك المعنى الذي تتضمنه تلك الكلمة صورة لها وجود عيني ذو شكل ومقدار كلفظ زيد، فهذه كلمة تدل على معنى يفهم منها وهو الذي وضعت له وهو شخص من الأناسي ذو قامة منتصبة وطول وعرض وجهات، فمثل هذا يسمى

معنى لهذه الكلمة، فهذا المعنى يقبل الخلق ولسنا نريد بالمعاني إلاً ما لا يقبل الخلق، وكل ما لا يقبل الخلق فإنه لا يقبل المثل، فلا يقبل المثل إلاً الصورة خاصة المادية وغير المادية، وأعني بالمادية المركبة وهي الأجسام على تنوّع ضروبها، وأعني بغير المادية كالبسائط التي لا جزء لها سوى عينها ولكنها تقبل المجاورة فتقبل التركيب فينشأ لذلك صور مختلفة إلى ما لا يتناهى، فالأوّل منها وإن كان صورة فهو المبدع، والثاني ليس بمبدع فإنه على مثاله ولكنه مخلوق، فهو بالخلق الأوّل بديع وبالخلق الثاني المماثل للخلق الأوّل خالق، فأوّل ما خلق الله العقل أظهره في نفس الرحمن في العماء في أوّل درجته التي هي في نفس الإنسان المخلوق على صورة الهمزة، فهي أوّل مبدع من حروف تنفس الإنسان ولها وجوه وأحكام مثل ما للعقل في النفس، فمن ذلك الإمداد الإلهيّ الذي في قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] وفي قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦] والزيادة حيث وقعت من الخير والشر، ولا تعقل الزيادة إلاً بعد عقل الأصل، فإذا علم مقداره علم الزائد لئلا يتخيل في الزائد أنه أصل، فأقل الزيادة مثل الأصل إلى رابع درجة وليس فوقها زيادة، وكل زيادة زائدة على الزيادة مثل الأصل سواء مثاله الأصل وجود عين العقل والزائد وجود النفس وهو على قدر العقل، ثم الطبيعة وهي على قدر العقل، ثم الهباء وهو على مقدار العقل، ثم الجسم الكل وهو الرابع وليس وراءه شيء إلاً الصور، وكذلك المد الطبيعيّ بمنزلة العقل مثل مد الألف من قال وشبهه فهذا سار في كل موجود، فإن له من الحق إمداداً به بقاؤه، فما زاد على ما به بقاؤه وظهور عينه فلسبب آخر.

ولما كان العقل أوّل موجود جعل سبباً لكل إمداد إلهيّ في الوجود، كذلك الهمزة في النفس الإنسانيّ أوجبت الإمداد في الصوت سواء تأخرت أو تقدمت، وتنتهي الزيادة في ذلك على المد الطبيعيّ إلى أربع مراتب، كل زيادة على قدر الأصل التي هي الألف الطبيعية في كل ممدود، مثال ذلك أ ا من في قراءة أبي عمرو، و أ ا ا من في قراءة ابن عامر والكسائي، و أ ااا من في قراءة عاصم، وأ اااا من في قراءة ورش وحمزة. وكذلك جاء، وجااء، وجاااء، وجااااء، على ما ذكرناه، فهذا الإمداد الإلهيّ قبل الموجب له وبعده هو بحسب المعرفة بالله، فمن لم يعرف الله بدليل العالم عليه كان الإمداد متقدماً على العلم بالله من حيث لا يعلم العبد، فهو يتقلب في نعمة الله ولا علم له بالمنعم من هو على التعيين، ومن عرف العالم بالله كان الإمداد متأخراً لأنه علم الله فرآه قبل إمداده وإن كان علمه به من إمداده ولكن ذلك هو المد الطبيعيّ، فالإمداد في النفس الرحمانيّ إيجاد النعم على التضعيف بالزيادة منها ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦١] كما هو في النفس الإنسانيّ مد الصوت طلباً للوصول إلى الموجب أو خروجاً من عند الموجب بالإمداد الإلهيّ لعين الحرف المطلوب وهو العين المقصود بذلك النعيم من الكائنات، كما يطلب الوصول إلى حرف الميم بالمد من أا من، وإلى حرف الدال من آادم، فاعلم ذلك. وكذلك توجه هذا الاسم على إيجاد الشرطين من المنازل ليبين بذلك عين البروج المقدرة في الفلك الأطلس إذ ليس لها علامة تعرف بها،

فجعل لها هذه المنازل علامة على تلك المقادير تقطع في هذا الفلك الأطلس الجواري الخنس الكنس فيعرف بالمنازل كم قطعت من ذلك الفلك، ولهذه المنازل أيضاً وكل كوكب في الفلك المكوكب قطع في هذا الأطلس، لكن لا يبلغ عمر الشخص الواحد إلى الشعور به، وقد نقل إلينا أن بعض أهرام مصر وجد تاريخ عمله والنسر في الأسد وهو اليوم في الجدي فانظر ما مرّ عليها من السنين، ويقول أصحاب تسيير الكواكب: إن هذه الكواكب الثابتة تقطع في كل ستين سنة من الفلك درجة واحدة، ونقلت عن بعضهم مائة سنة، فمتى يدرك الحسّ انتقاله كما يدرك انتقال الجواري الخنس الكنس.

ثم إنا نعود إلى كلامنا في العقل الأوّل ومنزلته في النفس الرحمانيّ منزلة الهمزة من حروف الإنسان فنقول: إن الله لما خلق الملائكة وهي العقول المخلوقة من العماء وكان القلم الإلهيّ أوّل مخلوق منها اصطفاه الله وقدمه وولاّه على ديوان إيجاد العالم كله وقلّده النظر في مصالحه وجعل ذلك عبادة تكليفه التي تقربه من الله فما له نظر إلاّ في ذلك وجعله بسيطاً حتى لا يغفل ولا ينام ولا ينسى، فهو أحفظ الموجودات المحدثة وأضبطه لما علمه الله من ضروب العلوم، وقد كتبها كلها مسطرة في اللوح المحفوظ عن التبديل والتحريف، وممّا كتب فيه فأثبته علم التبديل أي علم ما يبدّل وما يحرف في عالم التغيير والإحالة فهو على صورة علم الله لا يقبل التبديل، فلما ولاّه الله ما ولاّه أعطاه من أسمائه المدبر والمفصل من غير فكر ولا روية وهو في الإنسان الفكر والتفكر، فإذا انفرد بذلك في نفسه كان له حكم، وإذا دبر مع غيره كان له حكم، يقال له في عالم الإنسان المشاورة، يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ آمراً ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] فحكم التدبير الذي يدبر به ولايته على أقسام، سواء انفرد بالتدبير أو طلب المشاركة بحكم المشورة، والسبب الموجب للمشورة كون الحق له وجه خاص في كل موجود لا يكون لغير ذلك الموجود، فقد يلقي إليه الحق سبحانه في أمر ما ما لا يلقيه لمن هو أعلى منه طبقة، كعلم الأسماء لآدم مع كون الملأ الأعلى عند الله أشرف منه، ومع هذا فكان عند آدم ما لم يكن عندهم، وقد ذكرنا في هذا الكتاب دليل تفضيل الملأ الأعلى من الملائكة على أعلى البشر، أعطاني ذلك الدليل رسول الله ﷺ في رؤيا رأيتها وقبل تلك الرؤيا ما كنت أذهب في ذلك إلى مذهب جملة واحدة، وإذا كان هذا فقد ينفرد في أمور نصبها في العالم بما هو مدبر ومفصل لا عن فكر فإنه ليس من أهل الأفكار، وقد يشاركه في تدبيره عقل آخر مثل النفس الكلية التي أذكرها في الفصل الذي يلي هذا إن شاء الله، فمثل هذا هو حظ المشورة في عالم الخلق، وسبب ذلك توفية الألوهة ما تستحقه لما علم أن لله تعالىٰ في كل موجود وجهاً خاصاً يلقي إليه منه ما يشاء ممّا لا يكون لغيره من الوجوه، ومن ذلك الوجه يفتقر كل موجود إليه وإن كان عن سبب.

فإن قلت: فقد أعلمه الله علمه في خلقه حين قال له: اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة. قلنا: الجواب على هذا من وجهين: الوجه الواحد وإن علم ما يكون فمن جملة ما أعلمه به من الكون مشورته ومشاركة غيره له في تدبيره كما نعلم أن الله يعلم ما يكون من

خلقه ولكنه قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وأعلم من الله فلا يكون، وقد جاء مثل هذا في حق الله. والوجه الآخر في الجواب وهو أنّا قد علمنا أن لله في كل كائن وجهاً يخصه وذلك الوجه الإلهيّ لا يتصف بالخلق وقال للقلم: اكتب علمي في خلقي، وما قال له: اكتب علمي في الوجه الذي مني لكل مخلوق على انفراده، فهو سبحانه يعطي بسبب وهو الذي كتبه القلم من علم الله في خلقه، ويعطي بغير سبب وهو ما يعطيه من ذلك الوجه، فلا تعرف به الأسباب ولا الخلق، فوقعت المشورة ليظهر عنها أمر يمكن أن يكون من علم ذلك الوجه فيلقى إليه من شاوره في تدبيره علماً قد حصل له من الله من حيث ذلك الوجه الذي لم يكتب علمه ولا حصل في خلقه، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] يعني على إمضاء ما اتفقتم عليه في المشورة أو ما انفردت به دونهم. وقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾في مثل هذا ما لم يقع الفعل فإن العزم يتقدم الفعل فقيل له: توكل على الله فإنه ما يدري ما لم يقع الفعل ما يلقي الله في نفسك من ذلك الوجه الخاص الإلهيّ الخارج عن الخلق وهو الأمر الإلهيّ فإن له الخلق والأمر، فما كان من ذلك الوجه فهو الأمر، وما كان من غير ذلك الوجه فهو الخلق. وكذلك جرى الأمر في حركات الكواكب فيعطي كل كوكب في الدرجة الفلكية على انفراده من الحكم ما لا يعطيه إذا اجتمع معه في تلك الدرجة كوكب آخر أو أكثر، فاجتماعهم بمنزلة المشورة وعدم اجتماعهم بمنزلة ما ينفرد به، فيكون عن الاجتماع ما لا يكون عن الانفراد، بـ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] ممّا تنفرد به ومما لا تنفرد به فذلك ما يحدث من الاجتماع فإنه خارج عن الأمر الذي تنفرد به كل سماء.

ثم في الاجتماعات أحوال مختلفة فيكون ما يحدث بحسب اختلاف الأحوال، والأحوال هنالك في القرانات كالأغراض عندنا، فكل يقول بحسب غرضه ونظره ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] ثم ينزل الأمر إلى النفس الإنسانيّ فيكون حكم الحرف الواحد خلاف حكمه إذا اجتمع مع غيره، فالقاف في قِ مفرد يدل على الأمر بالوقاية، فإذا اجتمع مع لام جاء منه صورة تسمّى قل فحدث للقاف أمر بالقول وأين هو من الأمر بالوقاية، وكذلك لو اجتمع بحرف الميم ظهر من هذا الاجتماع صورة قم فحدث للقاف أمر بالقيام، وهكذا ما زاد على حرف من حروف متصلة لإبراز كلمة أو منفصلة لإبراز كلمات فتحدث أمور لحدوث هذه الكلمات فيقول السيد لعبده: قل فيحدث في العبد القول فيقول أو قم فيقوم فيظهر من المأمور حركة تسمّى قياماً عن ظهور صورة ذلك الاجتماع، فهكذا تحدث الكائنات في النفس الرحمانيّ، فتظهر أعيان الكلمات وهو المعبر عنها بالعالم، فالكلمة ظهورها في النفس الرحمانيّ، والكون ظهورها في العماء فبما هو للنفس يسمّى كلمة وأمر أو بما هو في العماء يسمّى كوناً وخلقاً وظهور عين فجاء بلفظة ﴿كُن﴾ لأنها لفظة وجودية فنابت مناب جميع الأوامر الإلهية، كما نابت الفاء والعين واللام الذي هو فعل في الأوزان مناب جميع الأوزان وجميع الموزونات من الأسماء والأفعال، فهي حروف وزن الكلمة ووزن عين

الموجود، فكن قامت مقام قل وقم وخذ وقص واخرج وادخل واقترب وجميع ما يقع به الأمر، فيكون إن كان أمر قيام فقيام، وإن كان أمر قعود فقعود إلى جميع الأعيان، فتحدث الكلمة في النفس فيحدث الكون في العماء على الميزان صلة في ذلك، وهذه الصلة في أنواع ما يحدثه التدبير على الإنفراد وبالمشورة في الكون، فأمّا ما يحدث من ذلك على الانفراد وهو إذا حكم على المدبر اسمان إلهيان أو خاطران في حق أصحاب الخواطر وهو في الإلهيات التردّد، ولا يخلو هذا المدبر في هذه الحال وغيرها من الأحوال أن يكون تحت حكم اسم إلهيّ من الأسماء السبعة المتحكمة في النفس، وما يظهر فيه من الكلمات وهو الاسم الجامع والنافع والعاصم وهو الواقي والسريع والستار، وهذه الخمسة الأسماء هي التي تعطي مقام العبودية في العالم، والاسم البصير والباريء وهما اللذان يعطيان مقام الحريّة في الاسم الجامع، فمنه يكون الإمداد لأهل الفضائل، وهم الذين يثابرون على مكارم الأخلاق، ومن هذا الاسم قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**». ويمدّ أيضاً أهل الجمع والوجود والحماية وترك المؤاخذة بالجرائم فيذبون عن أصحابها ما يريد بهم الاسم المنتقم والمعاقب فهو معطي الأمان وهو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وفعله أبداً لا يكون إلاّ فيمن هو في مقام العبودية.

وأما الاسم الإلهيّ النافع فمنه يكون الإمداد للعلماء بالله على مراتبهم، وأكثر ما يكون إمداده فيهم في علماء الأرواح وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] أي نور هداية، ويمد أيضاً أهل الجود من أصناف الكرماء خاصة وهم الذين يجودون بالعطاء قبل السؤال من كل ما يقع به المنفعة للمعطي إياه وهو مختص العطاء، وإمداد هذا الاسم بالذين أقامهم الله في مقام العبودية والعبودة، فإنّ رجال الله على إحدى حالتين: إما حال عبودية أو حال حرية، وقد تقدم لك باب العبودية وباب الحرية في هذا الكتاب.

وأما الاسم الواقي فهو الاسم العاصم من أمر الله، فمنه يكون الإمداد للصديقين وأصحاب الأسرار وأهل النظر والأفكار في مباحثهم في المناظرات لاستخراج الفوائد في مجالس أهل الله من غير منازعة، ولا يمدّ هذا الاسم إلاّ لأرباب مقام العبودية، وأهل الاستكفاء بالله وهم المتوكلون على الله توكل العبد على سيده، لا توكل الابن على أبيه، ولا الميت على غاسله، ولا الأجير على من آجره، ولا توكل الموكل على وكيله.

وأما الاسم السريع فإنه مثل الواقي في أنه لا يمدّ إلاّ أهل هذا التوكل الخاص، ومن هو في مقام العبودية ويكون إمداده للمنفقين بالخلف وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٩] ويمد أيضاً أهل البقاء لأهل الفناء وعنه يأخذون وإليه يلجؤون.

وأما الاسم الستار وهو الغفار والغفور والغافر فهو في الإمداد مثل السريع والواقي في العبد والمتوكلين، ومن هذا الاسم يكون الإمداد لأهل الاكتساب والقائلين بالأسباب مع الاعتماد على الله، غير أنهم وإن اعتمدوا على الله فما في ظاهرهم الاكتفاء بالله وهكذا كل ذي

سبب وإن كان من المتوكلين، فما كل متوكل يظهر منه الاكتفاء بالله في ظاهره، وهذا الاسم يمدّ أيضاً أصحاب المنازل والمنازلات، ولهم أبواب في هذا الكتاب نحواً من مائتي باب ترد فيما بعد إن شاء الله.

وأمّا الاسم الباري فمنه يكون الإمداد للأذكياء المهندسين أصحاب الاستنباطات والمخترعين الصنائع والواضعين الأشكال الغريبة، عن هذا الاسم يأخذون وهو الممد للمصوّرين في حسن الصورة في الميزان، وأعجب ما رأيت من ذلك في قونية من بلاد يونان في مصور كان عندنا اختبرناه وأفدناه في صنعته من صحة التخيل ما لم يكن عنده فصوّر يوماً حجلة وأخفى فيها عيباً لا يشعر به وجاء بها إلينا ليختبرنا في ميزان التصوير وكان قد صورها في طبق كبير على مقدار صورة الحجلة في الجرم، وكان عندنا بازي فعندما أبصرها أطلقه من كان في يده عليها فركضها برجله لما تخيل أنها حجلة في صورتها وألوان ريشها فتعجب الحاضرون من حسن صنعته فقال لي: ما تقول في هذه الصورة؟ فقلت له: هي على غاية التمام إلاّ أن فيها عيباً خفياً وكان قد ذكره للحاضرين فيما بينه وبينهم، فقال لي: وما هو هذه أوزانها صحيحة، قلت له: في رجليها من الطول عن موازنة الصورة قدر عرض شعيرة، فقام وقبل رأسي وقال: بالقصد فعلت ذلك لأجربك، فصدقه الحاضرون وقالوا إنه ذكر ذلك لهم قبل أن يوقفني عليها، فتعجبت من وقوع البازي عليها وطلبه إياها، ويمد أيضاً هذا الاسم أرباب الجود في وقت المسغبة خاصة لا المنفقين على الإطلاق من غير تقييد، وهذا الاسم لا ينظر من الرجال إلاّ لمن أقيم في مقام الحرية ما بينه وبين من أقيم في العبودية إمداد.

وأما الاسم البصير فإنه يمد أهل الحرية والعبودة وأمداد أهل الحرية أكثر ونظره إليهم أعظم، وهذا الاسم والاسم الباري يمدان أهل الفصاحة والعبارات ولهما أعجاز القرآن وحسن نظم الكلام الرائق هذا لهذين الاسمين، ويمدّ هذا الاسم البصير أصحاب المنازل والمنازلات في بصائرهم، وهم الذين تعملوا في اكتسابها الذين أكلوا من تحت أرجلهم ما أنزلوها بطرق العناية من غير عمل لأن أهل هذا المقام على نوعين: فطائفة نزلت هذه المنازل عن تعمّل واكتسبتها، وطائفة نزلتها بالإنزال الإلهي عناية من غير تعمّل ولا تقدم عمل بل باختصاص إلهيّ، ويمدّ أيضاً هذا الاسم أهل التفرقة وهم الذين يميزون ما تعطيه أعيان المظاهر في الظاهر باستعداداتها وهو مقام عجيب لا يعرفه أكثر أهل التفرقة، وأكثر علم أهل التفرقة العلم بمعاني الأسماء الإلهية من حيث معانيها لا من وجه دلالتها على الذات، فهذا حصر ما تعطيه هذه الأسماء وحصر من تعطيه. ومنتهى العالم في هذا الباب الذي شاهدناه كشفاً ألفاً من العالمين لا زائد على ذلك، والذي شاهدناه ذوقاً وجاريناهم قدماً بقدم وسابقناهم وسبقناهم في حضرتين: حضرة النكاح وحضرة الشكوك ستة عشر عالماً من ثماني حضرات وباقي العالم كشفاً وتعريفاً لا ذوقاً، فدخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامة أهل الله، وزدنا عليهم باسم إلهيّ وهو الآخر أخذنا منه الرياسة وروح الله الذي يناله المقربون من قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [سورة

الواقعة: الآية ٨٨ ـ ٨٩] ونلت هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة في حضرة النكاح مع أهل الصفاء، وفي حضرة الشكوك مع أهل القهر والغلبة من أجل الاختلال في الشروط وهي المواثيق التي أخذت على العالم بالله، فمنا من غدر ومنا من وفى، فكنا ممّن وفى بحمد الله، وهذه علوم غريبة وأذواق عزيزة لقينا من أربابها رجالاً بالمغرب ورجالاً بالإسكندرية ورجلين أو ثلاثة بدمشق ورجلاً بسيواس كان قد نقصه من هذا المقام شيء قليل فعرضه علينا فأتممناه له حتى تحقق به في زمان يسير، وكان غريباً لم يكن من أهل البلاد كان من أهل أخلاط، ولكل طائفة ممّن ذكرنا ممّن هم تحت إحاطة هذه الأسماء الإلهية التميز في ثلاث حضرات: حضرة عليا، وحضرة وسطى، وحضرة سفلى، وحضرة مشتركة، فلا تخلو هذه العقول المدبرة أن تكون في إحدى هذه الحضرات في زمان مرور الخواطر عليها أو الأسماء المتقابلة أو المتقاربة، فالمتقابلة كالضار والنافع أو المعزّ والمذلّ أو المحيي وللميت. ومثل المقاربة: كالعليم والخبير أو القدير والقاهر أو الكبير والعظيم، وما جرى هذا المجرى في عالم الخلق والأمر، وها أنا إن شاء الله أذكر ما يحدث من حكم ذلك كله في العالم.

تفصيل: أما تفصيل ما ذكرناه فهو أن نقول بعد أن تعلم أن كل من ذكرنا من هؤلاء الطبقات فإنما هم أهل الأنفاس خاصة من أهل الله لا غيرهم أن المدبر من عالم الأنفاس إذا أراد تنفيذ أمر ما برزخي يطلب تنفيذه حكمين والأمر واحد، فإن الاسم الجامع والنافع والبصير والقائلين بالجود على مسغبة ينظرون إلى الحكم الأسهل فيحكمون به على ذلك الأمر، والعلماء بالله يجعلون التوحيد بين الحكمين ويحكم بالأسهل من الحكمين، وأما الباري والسريع والواقي والغفور فإنهم يسلكون طريق التحقيق في ذلك فيعطي كل حكم حقه لا يراعي جانباً دون جانب، ولا يحكمون بذلك إلاً المكملون من رجال الله، فإن كان أحد الحكمين برزخياً والآخر سفلياً فالاسم الجامع والنافع والبصير يحكمون بما فيه رفع الحرج، غير أن الاسم البصير وأهل الجود يجعلان التوحيد بين الحكمين حتى يرفعان الاشتراك، وبقية الأسماء السبعة وجميع الطبقات الخارجين عن طبقات هؤلاء الأسماء الثلاثة يسلكون مسلك الاعتدال فيوفون الحقوق على ما تعطي المراتب، مثال الأول البرزخي: أن ترى الحق في صورة يدركها الحسّ فالمحققون يعطون الألوهية حقّها ويعطون الحضرة التي ظهر الحق فيها بهذه الصورة حقها. والطائفة الأخرى تحكم على الحق بالصورة وتقول: لولا أنه على حقيقة تقبلها ما صحّ أن يظهر بها إذ لم تكن غيره في وقت التجلي. وأما الذين جعلوا التوحيد بين الحكمين فقالوا الحق على ما هو عليه في نفسه، وهذه الصورة ظهرت بالحق لا أن الحق ظهر بها، وجعلوا التوحيد فاصلاً بين الحق والصورة، وهكذا في الحالة الثانية ومثال ذلك في الحالة الثانية هو تجلّي من يقول في رؤيته جميع الأكوان: ما رأيت إلاً الله من حيث أن البرزخ لا يتعين فيه الصور إلاً من عالم الطبيعة وهو المحسوس والحكم كما قررناه، فإن كان الأمر بين حكم برزخي وصورة عليا كرؤية الحق في صورة ملك فالجامع والبصير والنافع يرفعون الحرج فيما

وقع فيه التشبيه ويوفون حق أحد الحكمين وهو الحكم الذي يلي جانب العزّة، وأصحاب الجود الإلهي يعتبرون التوحيد فيبرزونها مع رفع الحرج، فالتوحد مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ورفع الحرج تمام الآية وهو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

مرتبة أخرى: إذا ظهر أمران إلهيان في صورتين مختلفتين والأمران برزخيان فالحكم الإلهي في ذلك وهو أن ترى صورة الحق في البرزخ وصورة الملك في البرزخ على صورة أنسيين كصورة موسىٰ وهارون مثلاً، أو ترى الحق في صورة شخصين معاً في رؤيا واحدة في عالم البرزخ مثل أن ترى الحق في صورة شاب وشيخ في حال واحدة ولا شك أنها الحق ليس غيره، فحكم العلم من العلماء بالله وأهل الجود الإلهي في هذه الواقعة أن هذا إمداد إلهيّ لهذه الصورة التي ظهر فيها الحق وأهل الجود أيضاً والفضلاء أصحاب الزيادات من العلم الإلهي مع الاسم البصير من الأسماء الإلهية يزيلون الحق بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ويتأولون الصورة بما يليق بها، وما بقي من الأسماء الإلهية والطبقات من أهل الله أرباب المقامات والتحقيق يتركون الحق حقاً بما يليق به، والصورة صورة بما يليق بها وهو الأولى عندي.

مرتبة أخرى: نبي من الأنبياء كعيسىٰ روح الله وكلمته يظهر حقاً من كونه كلمة الله وظهر ملكاً من كونه روح الله، فالحكم في هذه الواقعة عند العلماء بالله وأهل الجود من أهل الله يلحقون الملك بذلك النبي وينزهون الحق عن تلك الصورة. وأما الراسخون في العلم وهم أهل الزيادات ويوافقهم أيضاً أهل الجود الإلهي يقولون: الجناب الإلهي أقبل للصور من العالم فيلحقون بصورة ذلك النبي ويبقون صورة الملك على ما هي عليه لا يتأولونها ولا سيما في عيسىٰ فإنه تمثل لأمه بشراً سوياً حين أعطاها عيسىٰ، وأما الاسم الإلهي البصير فإنه يسقط صورة الحق من ذلك تنزيهاً ويبقى ما بقي على حاله.

مرتبة أخرى: ملك من الملائكة ظهر في صورة محسوسة وظهر في مقام حق وقال: أنا الحق كما سمع موسىٰ الخطاب من الشجرة ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [سورة طه: الآية ١٤] فحكم العلماء العارفون وأهل الجود الإلهي يقولون في الصورة المحسوسة أنها ملك، وفي مقام الحق أنه حق، وأما أهل الزيادات من العلماء بالله وأهل الجود الإلهي يوافقونهم على حكمهم أيضاً، يحكمون على الحق بالملكية والاسم البصير الإلهي يسقط بحكمه الحق من أجل ما دخله من التشبيه ويبقى ما بقي على ما هو عليه، وجميع أهل الله يقولون: لما كان الحق يقبل الصور لم يبعد على الصور أن تدعي فيه وتقول: أنا الحق فالذي يعتمد عليه في هذه المسألة أن يعطي الحق من جهة الشرع حقه لا من جهة العقل، ويعطي الحسّ حقه ويعطي الملك حقه، ومع هذا فلا بدّ عند غير المحققين أن يصحبوا التوحيد بين الحكمين مخافة الاشتراك والمحقق لا يبالي فإنه قد عرف ما ثم.

مرتبة أخرى: إذا كانت إحدى الصورتين علوية والأخرى برزخية فالأسماء الثلاثة: الجامع والبصير والنافع يرفعون الحرج في الصورة البرزخية وغيرها ولا يعطون كل ذي حق

حقه من الصورتين. واعلم أن جميع ما ذكرناه هو حكم العقل في الأمور، فتارة يعطي التشديد فيها، وتارة يعطي اليسر فيها، وتارة يعطي كل ذي حق حقه، فيكون في كل حكم بحسب ما يتجلى له الحق فيه، سواء كان ذلك في الإلهيات أو في الطبيعيات أو فيما تركب منهما في الجمع والفرق والفناء والبقاء والصحو والسكر والغيبة والحضور والمحو والإثبات.

إفصاح بما هو الأمر عليه: اعلم أن الأمر حق وخلق، وأنه وجود محض لم يزل ولا يزال، وإمكان محض لم يزل ولا يزال، وعدم محض لم يزل ولا يزال، فالوجود المحض لا يقبل العدم أزلاً وأبداً، والعدم المحض لا يقبل الوجود أزلاً وأبداً، والإمكان المحض يقبل الوجود لسبب ويقبل العدم لسبب أزلاً وأبداً، فالوجود المحض هو الله ليس غيره، والعدم المحض هو المحال وجوده ليس غيره، والإمكان المحض هو العالم ليس غيره ومرتبته بين الوجود المحض والعدم المحض، فيما ينظر منه إلى العدم يقبل العدم، وبما ينظر منه إلى الوجود يقبل الوجود، فمنه ظلمة وهي الطبيعة، ومنه نور وهو النفس الرحمانيّ الذي يعطي الوجود لهذا الممكن، فالعالم حامل ومحمول، فبما هو حامل هو صورة وجسم وفاعل، وبما هو محمول هو روح ومعنى ومنفعل، فما من صورة محسوسة أو خيالية أو معنوية إلاّ ولها تسوية من جانب الحق وتعديل كما يليق بها وبمقامها وحالها وذلك قبل التركيب أعني اجتماعها مع المحمول الذي تحمله، فإذا سوّاها الرب بما شاءه من قول أو يد أو يدين أو أيد وما ثم سوى هذه الأربعة لأنّ الوجود على التربيع قام وعدله وهو التهيؤ والاستعداد للتركيب والحمل تسلمه الرحمن فوجه عليه نفسه وهو روح الحق في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو عين هذا النفس قبلته تلك الصورة.

واختلف قبول الصور بحسب الاستعداد، فإن كانت الصورة عنصرية واشتعلت فتيلتها بذلك النفس سميت حيواناً عند ذلك الاشتعال، وإن لم يظهر لها اشتعال وظهر لها في العين حركة وهي عنصرية سميت نباتاً، وإن لم يظهر لها اشتعال ولا حركة أعني في الحسّ وهي عنصرية سميت معدناً وجماداً، فإن كانت الصورة منفعلة عن حركة فلكية سميت ركناً وهي على أربع مراتب، ثم انفعلت عن هذه الأركان صورة مسوّاة معدلة سميت سماء وهي على سبع طبقات، فوجه الرحمن عزّ وجلّ نفسه على هذه الصور فحييت حياة لا يدركها الحسّ ولا ينكرها الإيمان ولا النفس، ولذلك لم يقبل الاشتعال، فكل موضع كان في هذه السموات قبل الاشتعال سمّي نجماً فظهرت النجوم وتحرّكت أفلاكها بها فكانت كالحيوان فيما اشتعل منها وكالنبات فيما تحرك منها، وإن كانت الصورة عن حركة معنوية وقوّة عملية وتوجّه نفسي سميت جسماً كلاً وعرشاً وكرسياً وفلكاً فلك برج وفلك منازل، وتوجّه الرحمن بنفسه على هذه الصور فما قبل منها الاشتعال سمّي نجوماً وهي له كالحدق في وجه الإنسان، وما لم يقبل الاشتعال سمّي فلكاً، فإن كانت الصورة عقلية انبعثت انبعاثاً ذاتياً عن عقل مجرّد تطلب باستعدادها ما تحمله توجّه الرحمن عليها عند تسويتها التي سواها ربها بنفسه، فما اشتعل منها سمّي نور علم، وما تحرك منها ولم يشتعل سمّي عملاً، والذات الحاملة لهاتين القوتين نفساً،

فإن كانت الصورة الإلهية فلا تخلو إمّا أن تكون جامعة فهي صورة الإنسان، أو غير جامعة فهي صورة العقل، فإذا سوّى الرب الصورة العقلية بأمره وصور الصورة الإنسانية بيديه توجّه عليهما الرحمن بنفسه فنفخ فيهما روحاً من أمره، فأما صورة العقل فحملت في تلك النفخة بجميع علوم الكون إلى يوم القيامة وجعلها أصلاً لوجود العالم وأعطاه الأولية في الوجود الإمكاني. وأما صورة الإنسان الأوّل المخلوق باليدين فحمل في تلك النفخة علم الأسماء الإلهية ولم يحملها صورة العقل فخرج على صورة الحق. وفيه انتهى حكم النفس إذ لا أكمل من صورة الحق ودار العالم وظهر الوجود الإمكاني بين نور وظلمة وطبيعة وروح وغيب وشهادة وستر وكشف، فما ولي من جميع ما ذكرناه الوجود المحض كان نوراً وروحاً، وما ولي من جميع ما ذكرناه العدم المحض كان ظلمة وجسماً وبالمجموع يكون صورة. فإن نظرت العالم من نفس الرحمن قلت: ليس إلاّ الله. وإن نظرت في العالم من حيث ما هو مسوّى ومعدل قلت: المخلوقات ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ من كونك خلقاً ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ من كونك حقاً ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] لأنه الحق، فبالنفس كان العالم كله متنفساً والنفس أظهره وهو للحق باطن وللخلق ظاهر، فباطن الحق ظاهر الخلق، وباطن الخلق ظاهر الحق، وبالمجموع تحقق الكون، وبترك المجموع قيل حق وخلق، فالحق للوجود المحض والخلق للإمكان المحض، فما ينعدم من العالم ويذهب من صورته فمما يلي جانب العدم، وما يبقى منه ولا يصحّ فيه عدم فممّا يلي جانب الوجود ولا يزال الأمران حاكمين على العالم دائماً، فالخلق جديد في كل نفس دنيا وآخرة، فنفس الرحمن لا يزال متوجهاً، والطبيعة لا تزال تتكون صوراً لهذا النفس حتى لا يتعطل الأمر الإلهي إذ لا يصحّ التعطيل، فصور تحدث وصور تظهر بحسب الاستعدادات لقبول النفس، وهذا أبين ما يمكن في إبداع العالم ؛ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الفصل الثاني عشر: من هذا الباب في الاسم الإلهي الباعث وتوجهه على إيجاد اللوح المحفوظ وهو النفس الكلية وهو الروح المنفوخ منه في الصور المسوّاة بعد كمال تعديلها فيهبها الله بذلك النفخ أية صورة شاء من قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] وتوجهه على إيجاد الهاء من الحروف وهاء الكنايات وتوجهه على إيجاد البطين من المنازل المقدرة.

اعلم أن هذه النفس هي اللوح المحفوظ وهو أول موجود انبعاثي، وأوّل موجود وجد عند سبب وهو العقل الأوّل وهو موجود عن الأمر الإلهيّ والسبب، فله وجه إلى الله خاص عن ذلك الوجه قبل الوجود، وهو وكل موجود في العالم له ذلك الوجه، سواء كان لوجوده سبب مخلوق أو لم يكن. واعلم أن الأسباب منها خلقية ومنها معنوية نسبية، فالأسباب الخلقية كوجود مخلوق ما على تقدّم وجود مخلوق قبله له إلى وجوده نسبة ما بأي وجه كان، إمّا بنسبة فعلية أو بنسبة بخاصية لا بدّ من ذلك وحينئذ يكون سبباً وإلاّ فليس بسبب، وقد يكون ذلك الأثر في غير مخلوق كقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فالسؤال

سبب في وجود الإجابة كان المجيب ما كان، ومن هذه الحقيقة نزل قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] أي أحدثت بعض هذه الأمور السؤالات.

وأما السبب المعنويّ فهو من جهة المسبب بفتح الباء اسم مفعول، ومن المسبب اسم فاعل، فمن جهة المسبب اسم المفعول استعداده لقبول الأثر فيه، إذ لو لم يكن فيه استعداد لما وقع فيه الأثر فذلك الاستعداد أمنع من المحال فما يكون، ومع هذا فله استعداد في قبول الفرض فيه، فلهذا نفرض المحال في بعض المسائل وإن كان لا يقبل لوجود لنستخرج من ذلك الفرض علماً لم يكن عندنا، فلولا استعداده لقبول الفرض ما تمكن للعقل أن يفرضه، فالممكن أقبل لعين الوجود، والسبب الذي من جهة المسبب اسم فاعل، فما ذكر الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ فأثبت عينه، وقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأثبت الإرادة والتعلّق بالمراد، فلا بدّ من هذا شأنه أن يكون عالماً حياله اقتدار على ما يريد تكوينه، فهذه كلها استعدادات نسبية معنوية، إلاّ العين الذي هو المسبب فإنه سبب وجودي لا يكون علة لكن هو شرط ولا بدّ، ولما خلق الله هذا العقل الأوّل قلما طلب بحقيقته موضع أثر لكتابته فيه لكونه قلماً فانبعث من هذا الطلب اللوح المحفوظ وهو النفس فلهذا كانت أوّل موجود انبعاثيّ لما انبعثت من الطلب القائم بالقلم، ولم يكن في القوّة العقلية الاستقلال بوجود هذا اللوح، فتأيّد بالاسم الباعث وبالوجه الخاص الذي انبعثت عنه هذي النفس، فألقى العقل إليها جميع ما عنده إلى يوم القيامة مسطراً منظوماً وهو موجود ثالث بين اللوح والقلم مرتبته وبعد اللوح وجوده، وجعل الله في القلم الإلقاء لما خلق فيه، وجعل في اللوح القبول لما يلقي إليه، فكان ما ألقى إليه وما ضمّه اللوح من الكلمات المخلوقة في ذات القلم واللوح بعد فراغه من الكتابة مائتي ألف آية وتسعاً وستين ألف آية ومائتي آية، وهو ما يكون في الخلق إلى يوم القيامة من جهة ما تلقيه النفس في العالم عند الأسباب، وأما ما يكون من الوجوه الخاصة الإلهية في الموجودات فذلك يحدث وقت وجوده لا علم لغير الله به ولا وجود له إلاّ في علم الله. وهذا جميع ما حصله العقل من النفس الرحمانيّ من حيث ما كلمه به ربه تعالىٰ كما كلم موسىٰ ربه باثنتي عشرة ألف كلمة في كل كلمة يقول له: يا موسىٰ، وصورة التلقي الإلهيّ للعقل تجلّ رحمانيّ عن محبة من المتجلي والمتجلى له.

ومن هذا المقام جعل الله بين الزوجين المودّة والرحمة ليسكن إليها، وجعل الزوجة مخلوقة من عين الزوج ونفسه كما قال: ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] أي علامة ودليلاً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أنه الحق. وفائدة هذا التفكر أن الإنسان إذا تزوج بالمرأة ووجد السكون إليها وجعل الله بينهما المودّة والرحمة علم أن الله يريد التحامهما فإذا ارتفع السكون من أحدهما إلى صاحبه أو منهما وزالت المودّة وهي ثبوت هذا السكون وبهذا سمّي الحب ودّاً لثبوته، وتسمّى بالودود لثبوت حبه من أحب من عباده وزالت الرحمة من بينهما أو من أحدهما بصاحبه فأعرض عنه، فيعلم أن الله قد أراد طلاقهما فيبادر لذلك فيفوز عند الله بهذا

المقام، فإن لجّ وعاند يحرم القرب الإلهيّ فإن الحضرة الإلهية لا تقبل اللجاج والمعاندة، وقد ثبت في الشرع ما ثبت وما يعرف ما قلناه إلاَّ أهل التفكر من عباد الله، فإن الله ما جعله آية إلاَّ لهم، فجعل سبحانه سبب حصول هذه العلوم في ذات العقل التجلي ومنة تلقي ذلك، وكان سبب التجلي الحب فإنه أصل سبب وجود العالم والسماع سبب كونه، وقد بيّنا هذا في باب السماع والمحبة.

وأما صورة تلقي النفس ما عندها من العلوم فهو على وجهين هي وكل موجود عن سبب ويختلف باختلاف تنوّع الأسباب، الوجه الواحد: إذا كان التلقي لكل موجود عند سبب من وجهه الخاص به فلا يكون إلاَّ عن تجلّ إلهيّ سواء علمه المتجلى له أو لم يعلمه، فإن علمه كان من العلماء بالله وإن لم يعلمه كان من أهل العناية وهو لا يشعر أنه معتنى به، فإن أكثر الناس لا يعلمون حديث هذا الوجه الخاص ولا يعرفونه فإنه علم خاص لا يعطيه الله إلاَّ لمن اختصه واصطنعه لنفسه من عباده. وأما الوجه الآخر من التلقي فهو ما يستفيده من السبب ولا تحصى طرقه، فإن الأسباب مختلفة، فأين سببية العقل فيما يظهر على النفس من توجهه وتلقيها من سببية السماء فيما يظهر على الأرض من النبات من توجهها عليها بما تلقيه من الغيث فيها وتلقيها لذلك، ولكل حركة فلكية ونظر كوكب في العالم العلويّ وإمداد الطبيعة، كل ذلك أسباب لوجود زهرة تظهر على وجه الأرض، أين هذا من توجه سببية العقل؟ فلهذا قلنا ما تنحصر أسبابه مع كونها منحصرة في نفس الأمر فمن النفس إلى آخر ركن في العالم، وبعض المولدات ما بين النفس وآخر ركن من الأفلاك والكواكب والحركات في وجود عين تلك الزهرة والورقة أثر وحكم عن أمر إلهيّ قد يعلمه السبب الحادث وقد لا يعلمه وهي أسباب ذاتية كلها، ومنها عرضية كإلقاء المدرس الدرس على الجماعة فهذا من الأسباب العرضية، وهو كل ما كان للسبب فيه إرادة، وما عدا ذلك فهو ذاتيّ، فالعلاقة التي بين الأسباب والمسببات لا تنقطع فإنها الحافظة لكون هذا سبباً وهذا مسبباً عنه.

ولما أوجد الله هذه النفس الكلية من نفس الرحمن بعد العقل كوجود الهاء بعد الهمزة أو الهمزة بعد الهاء في النفس الإنساني المخلوق على الصورة فهو في النفس الرحماني نفس كلية، وفي النفس الإنساني هاء وضمير وكناية، فهي تعود من حيث ما هي ضمير على من أوجدها فإنها عين الدلالة عليه فافهم، فإن الدلالة لا تكون إلاَّ في الثاني فإنه يطلب الأوّل وليس الأوّل يطلب الثاني بحكم الدلالة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وهو الثاني فإنه موضع الدلالة، وقال في الأوّل: ﴿**ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [سورة آل عمران: آية ٩٧] فنزّهه عن الدلالة، ولهذا لا يصحّ أن يكون علة وإليه الدلالة بقوله ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» فهو غني عن الدلالة، وفي هذه الرتبة أوجد الله البطين من المنازل التي تنزلها الجواري والكواكب البطيئة الحركة، وأعطى الله هذه النفس قوّتين: قوّة علمية وقوّة عملية، فبالقوّة العلمية تظهر أعيان الصور، وبالقوّة العملية تعلم المقادير والأوزان، ومن الوجه الخاص يكون القضاء والقدر لهذا، ولا يعرف ذلك إلاَّ بعد وقوعه إلاَّ من عرفه الله بذلك،

فحكم القضاء والقدر لا يعرف إلاَّ ممّا ذكرناه بخلاف المقادير والأوزان فإن ذلك في علم النفس، ونسبة هذه النفس إلى كل صورة في العالم نسبة واحدة من غير تفاضل، إلاَّ أن الصور تقبل من ذلك بحسب استعداداتها التي هي عليها في ذاتها فيظهر التفاضل، وأما هناك فلا تفاضل إلاَّ بينها وبين العقل.

ولما بينت لك حصر الآيات في الكلام الإلهيّ الظاهرة في النفس الرحمانيّ كالآيات في القرآن العزيز وفي الكتب المنزّلة والصحف المرسلة فإن لها سوراً تجمع تلك الآيات وتفصل بعضها من بعض كما جاءت سور القرآن وهي منازله المعلومة الجامعة للآيات، كما الآيات جامعات للكلمات، كما الكلمات جامعة للحروف، كما هي الحروف ظروف المعاني، فسور هذه الآيات عشر سور من غير زيادة ولا نقصان، فمنها سورة الأصل وهي السورة التي تتضمن كل آية تدل على عين قائمة بنفسها في العالم الحاملة غيرها، السورة الثانية: سورة المحمول وهي تتضمن كل آية تدل على عين لا تقوم بنفسها بل تفتقر إلى محل وعين يظهر وجودها بذلك المحل، وقد تكون تلك العين لازمة، وقد تكون عرضية على قدر ما تعطيه حقيقتها. والسورة الثالثة: سورة الدهر. والرابعة: سورة الاستواء وله أصلان: الأصل الأوّل ظرفية العماء، والأصل الثاني ظرفية العرش، فالأول ظرفية المعاني، والثاني ظرفية السور. والسورة الخامسة: سورة الأحوال. والسورة السادسة: سورة المقدار. والسورة السابعة: سورة النسب. والسورة الثامنة: سورة التوصيل والأحكام والعبارات والإشارات والإيماء وما يقع به الإفهام بين المخاطبين وهو نطق العالم وقول كل قائل وهي الأسماء الإلهية التي علم الله آدم، فمنها ما كانت الملائكة تعلمه وما اختصّ آدم إلاَّ بالكل، وما عرض من المسميات إلاَّ ما كانت الملائكة تجهله. والسورة التاسعة: سورة الآثار الوجودية. والسورة العاشرة: سورة الكائنات وهي الانفعالات الإلهية والكونية، فهذه عشر تتضمن هذه الآيات، فمن علمها كشفاً علم الحق والخلق، ومن علمها دلالة لم يكمل في علمها كمال أصحاب الكشف، ولا تقل هذا رمز بل هذا كله تصريح وإيضاح يعرفه كل عاقل إذا حقق النظر فيه أن الآيات كلها محصورة في هذه السور قديماً وحديثاً، والنفس الكلية هي التي ظهرت عنها معرفة هذه السور لأنها كانت محل إلقاء القلم الإلهيّ إليها، فهي أول منكوح لناكح كوني، وكل ما دونها فهو من عالم التولد العقل أبوه والنفس أمه فافهم ولا تلحق بمن قال الله فيهم: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] وهم الذين أعرضوا عن كل ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢]، وقد قلنا في مرتبتنا في هذا: [مجزوء الرمل]

أنا في خَلْقٍ جديدِ ... كلَّ يوم في مَزيدِ
وأنا من حيثُ حُبِّي ... بين وَجْدٍ ووجودِ
شاكراً شُكْرَ مُحبٍّ ... قائلٍ هل من مَزيدِ
فأنا واحدُ وقتي ... في وجودي وشُهُودي
يا رفيعَ الدَّرجاتِ ... في مَنَازل السُّعودِ

ارفَــعِ الــلــهــمَّ عــنــي فــي مَــعَــارجِ الــصُّــعــودِ
كــلَّ ســتْــرٍ فــي طــريــقــي فــي هُــبــوطــي وصُــعــودي
واجْــعَــلِ الــلّــهُــمَّ حَــظّــي فــي اســمــكَ الله الــوَدودِ

الفصل الثالث عشر: في الاسم الإلهيّ الباطن وتوجهه على خلق الطبيعة وما تعطيه من أنفاس العالم وحصرها في أربع حقائق وافتراقها واجتماعها وتوجهها على إيجاد العين المهملة من الحروف وإيجاد الثريا من المنازل المقدّرة. اعلم أن الطبيعة في المرتبة الثالثة عندنا من وجود العقل الأوّل وهي معقولة الوجود غير موجودة العين، فمعنى قولنا مخلوقة أي مقدرة لأنّ الخلق التقدير وما يلزم من تقدير الشيء وجوده، قال الشاعر: [الكامل]

وَلأَنْــتَ تَــفْــري مــا خَــلَــقْــتَ وبَــعْــضُ الــنــاس يَــخْــلُــقُ ثــم لا يَــفْــري

وهو من الثلاثيّ لأنه قصد المدح وليس من الرباعيّ، فإن الرباعيّ لا يقال إلاّ في معرض الذمّ والهجاء، فما كل من قدر أمراً أوجده، ومن هذه الحقيقة الإلهية ظهر في الوجود النظريّ عند العلماء فرض المحال في العلوم فهو يقدر ما لا يصحّ وجوده وقد يقدر ما يصحّ وجوده ولا يوجد، وكذلك قال هذا العربيّ وبعض الناس يعد بالخير ولا يفعله، وأنت أيها الملك ما ترى مصلحة إلاّ وتفعلها، فالخالق له معنيان: المقدر والموجد، فمن خلق فقد قدر أو أوجد فقدر سبحانه مرتبة الطبيعة أنه لو كان لها وجود لكان دون النفس، فهي وإن لم تكن موجودة العين فهي مشهودة للحق، ولهذا ميّزها وعين مرتبتها، وهي للكائنات الطبيعية كالأسماء الإلهية تعلم وتعقل وتظهر آثارها ولا تجهل ولا عين لها جملة واحدة من خارج، كذلك الطبيعة تعطي ما في قوّتها من الصور الحسيّة المضافة إليها الوجودية ولا وجود لها من خارج، فما أعجب مرتبتها وما أعلى أثرها، فهي ذات معقولة مجموع أربع حقائق يسمّى أثر هذه الأربع في الأجسام المخلوقة الطبيعية: حرارة ويبوسة وبرودة ورطوبة، وهذه آثار الطبيعة في الأجسام لا عينها، كالحياة والعلم والإرادة والقول في النسب الإلهية، وما في الوجود العينيّ سوى ذات واحدة، فالحياة تنظر إلى الحرارة، والعلم ينظر إلى البرودة، والإرادة تنظر إلى اليبوسة، والقول ينظر إلى الرطوبة، ولهذا وصفه باللين فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [سورة طه: الآية ٤٤] فهو يقبل اللين والخشونة والإرادة يبوسة فإنه يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وقال: «وجدت برد أنامله فعلمت»، فلهذا جعلنا العلم للبرودة في الطبيعة وكذلك الحياة للحرارة، فإن الحي الطبيعي لا بدّ من وجود الحرارة فيه. وأما الذي تعطيه من نفس العالم فهو ما تقع به الحياة في الأجسام الطبيعية من نموّ وحسّ لا غير ذلك، وكل نفس غير هذا فما هو من الطبيعة بل علته أمر آخر وهي الحياة العقلية حياة العلم وهي عين النور الإلهي والنفس الرحماني.

ثم لتعلم أن مسمّى النفس من هذه الحقيقة الوجودية لا يكون إلاّ إذا كانت للرحمن وما يماثله من الأسماء الإلهية، وقد تكون حقيقة لأسماء أخر تقتضي النقيض، فلا تكون

عند ذلك نفساً من التنفيس في حق ذلك الكائن منه، فهو وإن كان حقيقة فكونه نفساً باعتبار خاص يقع به التنفيس أما في حق من ينفس الله عنه من الكائنات ما يجده من الضيق والحرج. وأما في حق من هو صفته من حيث نفوذ إرادته. وأما إذا لم ينظر من هذه الجهة فهو عبارة عن حياة من وصف به من حيث حقيقته لا غير. ألا ترى النفس الحيواني يرفع وجوده فيه اسم الموت به سمّي نفساً، فإن الموت صفة مكروهة من حيث الألفة المعهودة إذ كان الموت مفرقاً فيكون مكروهاً عنده، فإذا نظر من يلقاه في ذلك الموت وهو الله فيكون تحفة عند ذلك، ويكون اسم النفس به أحق في هذا الشهود. ولما كان لها وجود أعيان الصور لهذا كان لها من الحروف العين المهملة لأنّ الصورة الطبيعية لا روح لها من حيث الطبيعة، وأنها روح للصور الطبيعية من الروح الإلهي، وكان لها وجود الثريا وهي سبع كواكب لأنّ الطبيعة في المرتبة الثالثة وهي أربع حقائق كما تقدم فكان من المجموع سبعة وظهرت عنها الثريا وهي سبعة أنجم، كما كان للعقل ثلاث نسب ووجوه فوجدت عنه الكثرة التي ذكرها بعض أهل النظر في سبب صدور الكثرة عن العقل الأوّل مع كونه واحداً، فكان الشرطين ثلاثة أنجم، والنفس مثل العقل في ذلك فكان البطين ثلاثة أنجم، ومن كون النفس ثانية كان البطين في المرتبة الثانية من الشرطين، وعن هذه السبعة التي ظهرت في الطبيعة ظهرت المسبعات في العالم، وهي أيضاً السبعة الأيام أيام الجمعة، اعتبر ذلك محمد بن سيرين رحمه الله جاءته امرأة فقالت له: أرأيت البارحة القمر في الثريا؟ فقال: أنا قمر هذا الزمان في هذه البلدة والثريا سبعة أنجم وبعد سبعة أقبر، فإن الثريا من الثرى وهو اسم للأرض، فمات إلى سبعة أيام، فانظر ما أعجب هذا، وبينا أنا أقيد هذه المسألة من الكلام في الطبيعة إذ غفوت فرأيت أمي وعليها ثياب بيض حسنة فحسرت عنها ذيلها إلى أن بدا لي فرجها فنظرت إليه ثم قلت: لا يحل لي أن أنظر إلى فرج أمي فسترته وهي تضحك، فوجدت نفسي قد كشفت في هذه المسألة وجهاً ينبغي أن يستر فسترته بألفاظ حسنة بعد كشفه قبل أن أرى هذه الواقعة، فكانت أمي الطبيعة، والفرج ذلك الوجه الذي ينبغي ستره، والكشف إظهاره في هذا الفصل، والتغطية بذلك الثوب الأبيض الحسن ستره بألفاظ وعبارات حسنة.

ثم إني أيضاً كما أنا في كلامي على الطبيعة في هذا الفصل أخذتني سنة فرأيت كأني على فرس عظيم وقد جئت إلى ضحضاح من الماء أرضه حجارة صغار فأردت عبوره فرأيت أمامي رجلاً على فرس شهباء يعبر وإذا فيه مثل الساقية عميقة مردومة بتلك الحجارة لا يشعر بها حتى يغرق فيها وإذا بذلك الفارس قد غرق فيها فرسه وقد نشب إلى أن وصل الماء إلى كفل فرسه ثم خلص إلى الجانب الآخر فنظرت من أين أعبر فوجدت مبنياً عليه مجازاً ذا أدراج من الجهتين للرجالة لا يمكن للفرس أن يصعد عليه فيصعد فيه بأدراج متقاربة جدّاً وأعلاه عرض شبر وينزل من الجانب الآخر بأدراج فركضت جنب فرسي والناس يتعجبون ويقولون: ما يقدر فرس على عبوره وأنا لا أكلمهم، ففهم الفرس عني ما أريده منه فصعد برفق فلما وصل إلى أعلاه وأراد الانحدار توقف وخفت عليه وعلى نفسي من الوقوع فنزلت من عليه وعبرت وأخذت بعنانه وما زال من يدي فعبر الفرس وتخلصنا إلى الجانب الآخر

والناس يتعجبون، فسمعت بعض الناس يقولون: لو كان الإيمان بالثريا لنالته رجال من فارس، فقلت: ولو كان العلم بالثريا لنالته العرب والإيمان تقليد فكم بين عالم وبين من يقلد عالماً فقالوا: صدق، فالعربيّ له العلم والإيمان، والعجم مشهود لهم بالإيمان خاصة في دين الله، ورددت إلى نفسي فوجدتني في مسألة في الطبيعة تطابق هذه الرؤيا، فتعجبت من هاتين الواقعتين في هذا الفصل، ونظرت في كواكب المنازل من كوكب واحد كالصرفة إلى اثنين كالذراع، إلى ثلاثة كالبطين، إلى أربعة كالجبهة، إلى خمسة كالعوا، إلى ستة كالدبران، إلى سبعة كالثريا، إلى تسعة كالنعائم، ولم أر للثمانية وجوداً في نجوم المنازل، فعلمت أنه لما لم تكن للثمانية صورة في نجوم المنازل لهذا كان المولود إذا ولد في الشهر الثامن يموت ولا يعيش، أو يكون معلولاً لا ينتفع بنفسه، فإنه شهر يغلب على الجنين فيه برد ويبس وهو طبع الموت وله من الجواري كيوان وهو بارد يابس، فلذلك لم أر للثمانية وجوداً في المنازل، ثم علمت أن السيارة لا نزول لها ولا سكون بل هي قاطعة أبداً، وقد يكون مرورها على عين كواكب المنزلة، وقد يكون فوقها وتحتها على الخلاف الذي في حدّ المنزلة ما هو فسميت منزلة مجازاً، فإن الذي يحل فيها لا استقرار له وأنه سابح كما كان قبل وصوله إليها في سباحته، فراعى المسمّى ما يراه البصر من ذلك، فإنه لا يدرك الحركة ببصره إلاّ بعد المفارقة، فبذلك القدر يسميها منزلة لأنه حظ البصر فغلبه.

واعلم أن الطبيعة هذا حكمها في الصور لا يمكن أن تثبت على حالة واحدة فلا سكون عندها، ولهذا الاعتدال في الأجسام الطبيعية العنصرية لا يوجد فهو معقول لا موجود، ولو كانت الطبيعة تقبل الميزان على السواء لما صحّ عنها وجود شيء ولا ظهرت عنها صورة، ثم نشأة الصور الطبيعية دون العنصرية إذا ظهرت أيضاً لا تظهر، والطبيعة معتدلة أبداً، بل لا بدّ من ظهور بعض حقائقها على بعض لأجل الإيجاد، ولولا ذلك ما تحرّك فلك ولا سبح ملك ولا وصفت الجنة بأكل وشرب وظهور في صور مختلفة، ولا تغيّرت الأنفاس في العالم جملة واحدة، وأصل ذلك في العلم الإلهيّ كونه تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] واليوم الزمن الفرد، والشأن ما يحدث الله فيه، فمن أين يصحّ أن تكون الطبيعة معتدلة الحكم في الأشياء وليس لها مستند في الإلهيات؟ فهذا قد أبنت لك وجود الطبيعة. انتهى الجزء الثاني والعشرون ومائة.

(الجزء الثالث والعشرون ومائة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الفصل الرابع عشر: في الاسم الإلهيّ الآخر وتوجهه على خلق الجوهر الهبائي الذي ظهرت فيه صور الأجسام وما يشبه هذا الجوهر في عالم المركبات وتوجهه على إيجاد حرف الحاء المهملة من الحروف وإيجاد الدبران من المنازل.

اعلم أن هذا الجوهر مثل الطبيعة لا عين له في الوجود، وإنما تظهره الصورة، فهو معقول غير موجود الوجود العينيّ، وهو في المرتبة الرابعة من مراتب الوجود، كما هو الحاء

المهملة في المرتبة الرابعة من مخارج الحروف في النفس الإنسانيّ، غير أن الحرف له صورة لفظية في القول محسوسة للسمع، وليس لهذا الجوهر الهبائي مثل هذا الوجود، وهذا الاسم الذي اختصّ به منقول عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وأمّا نحن فنسميه العنقاء فإنه يسمع بذكره ويعقل ولا وجود له في العين، ولا يعرف على الحقيقة إلاً بالأمثلة المضروبة، كما أن كون الحق ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يعرف بحقيقته، وإنما عرفنا الحق به بضرب المثل فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] الآية، فذكر الأمور التي تنبغي للمصباح المشبه به ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي أنارت به العقول العلوية وهو قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والصور الطبيعية وهو قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ كذلك هذا المعقول الهبائي لا يعرف إلاً بالمثل المضروب، وهو كل أمر يقبل بذاته الصور المختلفة التي تليق به وهو في كل صورة بحقيقته وتسميه الحكماء الهيولى وهي مسألة مختلف فيها عندهم، ولسنا ممّن يحكى أقوالهم في أمر ولا أقوال غيرهم، وإنما نورد في كتابنا وجميع كتبنا ما يعطيه الكشف ويمليه الحق هذا طريقة القوم، كما سُئِل الجنيد عن التوحيد فأجاب بكلام لم يفهم عنه، فقيل له: أعد الجواب فإنا ما فهمنا، فقال جواباً آخر، فقيل له: وهذا أغمض علينا من الأوّل فأمله علينا حتى ننظر فيه ونعلمه، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، أشار إلى أنه لا تعمّل له فيه، وإنما هو بحسب ما يلقي إليه ممّا يقتضيه وقته، ويختلف الإلقاء باختلاف الأوقات، ومن علم الاتساع الإلهيّ علم أنه لا يتكرّر شيء في الوجود، وإنما وجود الأمثال في الصور يتخيل أنها أعيان ما مضى وهي أمثالها لا أعيانها، ومثل الشيء ما هو عينه.

واعلم أن هذا المعقول الرابع من وجود العقل فيه تظهر العين التي تقبل حكم الطبيعة وهو الجسم الكل الذي يقبل اللطيف والكثيف والكدر والشفاف، وهو الذي يأتي ذكره في الفصل الثاني بعد هذا، وهذا المعقول إنما قيدنا مرتبته بأنها الرابعة من حيث نظرنا إلى قبوله صورة الجسم خاصة، وإنما بالنظر إلى حقيقته فليست هذه مرتبته ولا ذلك الاسم اسمه، وإنما اسمه الذي يليق به الحقيقة الكلية التي هي روح كل حق، ومتى خلى عنها حق فليس حقاً ولهذا قال عليه السلام: «**لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ**» فجاء باللفظ الذي يقتضي الإحاطة إذا تعرى عن القرائن المقيدة وهو لفظة كل كمفهوم العلم والحياة والإرادة، فهي معقولة واحدة في الحقيقة، فإذا نسب إليها أمر خاص لنسبة خاصة حدث لها اسم، ثم إنه إذا نسب ذلك الأمر الخاص إلى ذات معلومة الوجود وإن لم يعلم حقيقتها فنسب إليها ذلك الأمر الخاص بحسب ما تقتضيه تلك الذات المعينة، فإن اتصفت تلك الذات بالقدم اتصف هذا الأمر بالقدم، وإن اتصفت بالحدوث اتصف هذا الأمر بالحدوث، والأمر في نفسه لا يتصف بالوجود إذ لا عين له، ولا بالعدم لأنه معقول، ولا بالحدوث لأنّ القديم لا يقبل الاتصاف به، والقديم لا يصحّ أن يكون محلاً للحوادث ولا يوصف بالقدم، لأن الحادث يقبل الاتصاف به، والحادث لا يوصف بالقديم، ولا يصحّ أن يكون القديم حالاً في المحدث فهو لا قديم ولا حادث، فإذا اتصف به الحادث سمّي حادثاً، وإذا اتصف به القديم سمّي قديماً وهو قديم في القديم

حقيقة، وحادث في المحدث حقيقة، لأنه بذاته يقابل كل متصف به كالعلم يتصف به الحق والخلق، فيقال في علم الحق أنه قديم فإن الموصوف به قديم، فعلمه بالمعلومات قديم لا أوّل له، ويقال في علم الخلق أنه محدث فإن الموصوف به لم يكن ثم كان فصفته مثله، إذ ما ظهر حكمها فيه إلاّ بعد وجود عينه فهو حادث مثله، والعلم في نفسه لا يتغير عن حقيقته بالنسبة إلى نفسه وهو في كل ذات بحقيقته وعينه وما له عين وجودية سوى عين الموصوف فهو على أصله معقول لا موجود، ومثاله في الحسّ البياض في كل أبيض والسواد في كل أسود هذا في الألوان، وكذلك في الأشكال التربيع في كل مربع، والاستدارة في كل مستدير، والتثمين في كل مثمن، والشكل بذاته في كل متشكل، وهو على حقيقته من المعقولية، والذي وقع عليه الحسّ إنما هو المتشكل لا الشكل والشكل معقول، إذ لو كان المتشكل عين الشكل لم يظهر في متشكل مثله، ومعلوم أن هذا المتشكل ليس هو المتشكل الآخر، فهذا مثل مضروب للحقائق الكلية التي اتصف الحق والخلق بها، فهي للحق أسماء وهي للخلق أكوان، فكذلك هذا المعقول الرابع لصور الطبيعة يقبل الصور بجوهره وهو على أصله في المعقولية والمدرك الصورة لا غيرها، ولا تقوم الصورة إلاّ في هذا المعقول، فما من موجود إلاّ وهو معقول بالنظر إلى ما ظهرت فيه صورته موجود بالنظر إلى صورته، ألا ترى الحق تعالىٰ ما تسمّى باسم ولا وصف نفسه بصفة ثبوتية إلاّ والخلق يتصف بها وينسب إلى كل موصوف بحسب ما تعطيه حقيقة الموصوف وإنما تقدمت في الحق لتقدم الحق بالوجود، وتأخرت في الخلق لتأخر الخلق في الوجود، فيقال في الحق إنه ذات يوصف بأنه حيّ عالم قادر مريد متكلم سميع بصير، ويقال في الإنسان المخلوق إنه حيّ عالم قادر متكلم سميع بصير بلا خلاف من أحد، والعلم في الحقيقة والكلام وجميع الصفات على حقيقة واحدة في العقل، ثم لا ينكر الخلاف بينهم في الحكم فإن أثر القدرة يخالف أثر غيرها من الصفات، وهكذا كل صفة والعين واحدة، ثم حقيقة الصفة الواحدة واحدة من حيث ذاتها، ثم يختلف حدّها بالنسبة إلى اختصاص الحق بها وإلى اتصاف الخلق بها، وهذه الحقيقة لا تزال معقولة أبداً لا يقدر العقل على إنكارها ولا يزال حكمها موجوداً ظاهراً في كل موجود: [السريع]

فـكـلُّ مـوجـودٍ لـهـا صـورةٌ ... فـيـه ولا صـورةَ فـي ذاتـهَـا

فـحـكْـمُـهـا لـيـس سـوى ذاتِـهـا ... وذلـك الـحـكـمُ مـن آيـاتـهَـا

تـجـتـمـع الأضـدادُ فـي وصـفـهـا ... فـنَـفْـيُـهـا فـي عَـيْـن إثْـبَـاتـهَـا

فالمعنى القابل لصورة الجسم هو المذكور المطلوب في هذا الفصل وهو المهيأ له، والجسم القابل للشكل هو هباء لأنه الذي يقبل الإشكال لذاته فيظهر فيه كل شكل وليس في الشكل منه شيء وما هو عين الشكل، والأركان هباء للمولدات وهذا هو الهباء الطبيعيّ، والحديد وأمثاله هباء لكل ما تصوّر منه من سكين وسيف وسنان وقدّوم ومفتاح وكلها صور أشكال، ومثل هذا يسمّى الهباء الصناعيّ، فهذه أربعة عند العقلاء والأصل هو الكل وهو الذي وضعنا له هذا الفصل، وزدنا نحن حقيقة الحقائق وهي التي ذكرناها في هذا الفصل التي

تعمّ الخلق والحق، وما ذكرها أحد من أرباب النظر إلاّ أهل الله، غير أن المعتزلة تنبهت على قريب من ذلك فقالت: إنّ الله قائل بالقائلية وعالم بالعالمية وقادر بالقادرية لما هربت من إثبات صفة زائدة على ذات الحق تنزيهاً للحق فنزعت هذا المنزع فقاربت الأمر، وهذا كله أعني ما يختص بهذا الفصل من حكم الاسم الآخر الظاهر التي هي كلمة النفس الرحمانيّ وهو الذي توجه على الدبران من المنازل وكواكبه ستة وهو أوّل عدد كامل فهو أصل كل عدد كامل، فكل مسدّس في العالم فله نصيب من هذه الكمالية، وعليه أقامت النحل بيتها حتى لا يدخله خلاء، ومن أهل الله من يراه أفضل الأشكال فإنه قارب الاستدارة مع ظهور الزوايا وجعله أفضل، لأن الشكل المسدّس كبيوت النحل لا يقبل الخلل مع الكثرة فيظهر الخلوّ، والمستدير ليس كذلك وإن أشبهه غيره في عدم قبول الخلل كالمربع فإنه يبعد عن المستدير والاستدارة أوّل الأشكال التي قبل الجسم وجعل بعضها في جوف بعض لأن الخلاء مستدير، ولو لم يكن كذلك ما استدار الجسم لأنه ما ملأ إلاّ الخلاء، فلا يقبل استدارة أخرى من خارج فإنه ما ثم خلاء غير ما عمره الجسم، فلو عمر بعض الخلاء لم يقبل سوى الشكل المسدّس، وإنما وصف بالكمال لأنه يظهر عن نصفه وثلثه وسدسه فيقوم من عين أجزائه.

الفصل الخامس عشر: من النفس الرحماني في الاسم الإلهيّ الظاهر وتوجهه على إيجاد الجسم الكل، ومن الحروف على حرف الغين المعجمة، ومن المنازل على رأس الجوزاء وهي الهقعة وتسمّى الميسان.

اعلم أن الله تعالىٰ لما جعل في النفس القوّة العملية أظهر الله بها صورة الجسم الكل في جوهر الهباء فعمّر به الخلاء والخلاء امتداد متوهم في غير جسم، ولما رأينا هذا الجسم الكل لم يقبل من الأشكال إلاّ الاستدارة علمنا أن الخلاء مستدير، إذ كان هذا الجسم عمر الخلاء، فالخارج عن الجسم لا يتصف بخلاء ولا ملأ، ثم إن الله فتح في هذا الجسم صور العالم وجعل هذا الجسم لما أوجده مستديراً لما عمر به جميع الخلاء كانت حركته في خلائه فما هي حركة انتقال عنه، وإنما حركته فيه بكله كحركة الرحى تنظر في حركتها بجميعها فتجدها لم تنتقل عن موضعها وتنظر إلى حركة كل جزء منها فتجده منتقلاً عن حيّزه إلى حيّز آخر بحركة الكل، وهكذا كل حركة مستديرة فهي متحركة ساكنة لأنها ما أخلت حيّزها بالانتقال من حيث جملتها ولا سكنت فتتصف بالسكون وهذا لا يكون إلاّ في المستدير، وأما غير المستدير فلا يسمّى لشكله فلكاً أي مستديراً، وهذا هو أوّل الصور الطبيعية، فأظهرت الطبيعة فيه حكمها، فقبل الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة بحكم التجاوز في النقيضين خاصة فتحرك بغلبة الحرارة عليه، فإن الاعتدال لا يظهر عنه شيء أصلاً، ولهذا وصف الحق نفسه بالرضا، والغضب، والرحمة، والانتقام، والحلم، والقهر، فالاعتدال لا يصحّ معه وجود ولا تكوين، ألا ترى أنه لولا التوجّه الإلهي على إيجاد كون ما ما وجد؟ ولولا ما قال له: ﴿كُنْ﴾ ما تكوّن، فلما كانت كمية الحرارة أكثر من غيرها في الجسم أعطته الحركة، وما ثم خلاء إلاّ ما عمره هذا الجسم ولا بدّ له من الحركة فتحرك في مكانه وهي حركة الوسط لأنه ليس خارجه خلاء فيتحرك إليه،

والحركة تطلبها الحرارة وهي حركة في الجميع من انتقال، وأظهر الله صور العالم كله في هذا الجسم على استعدادات مختلفة في كل صورة وإن جمعها جسم واحد وحاكم واحد فقبلت الصور الأرواح من النفس الرحماني كما قبلت الحروف المعاني عند خروجها لتدل على المعنى الذي خرجت له، وظهر حكم الزمان بالحركة فظهرت الصور بالترتيب فقبلت التقدّم والتأخر الزماني، وظهر حكم الأسماء الإلهية بوجود هذه الصور وما تحمله.

وقد ذكرنا في عقلة المستوفز ترتيب وجود العالم كيف كان، ولله كما ذكرنا فيه وجه خاص وفي كل ما وجد فيه، وعن ذلك الوجه الخاص وجد ولا يعرف السبب قط ذلك الوجه الخاص الذي لمسببه المنفعل عنه ولا عقل ولا نفس إلاّ الله خاصة وهو رقيقة الجود، فتحرك بالوجود الإلهي لا بفعل النفس وهي حركة النفس الرحماني لإيجاد الكلمات، فسوّى العرش ووحد فيه الكلمة الرحمانية، ثم أوجد صورة الكرسي وانقسمت فيه الكلمة وتدلت إليه القدمان، ولهذا التدلي انقسمت الكلمة فله الخلق والأمر، وكان انقسامها إلى حكم وخبر، ثم أدار الفلك الأطلس بتوجه خاص لحكمة أخفاها عمن شاء وأظهرها وقسمه على إثني عشر مقداراً فعمت المقادير وجعلها بروجاً لأرواح ملكية على طبائع مختلفة سمّي كل برج باسم ذلك الملك الذي جعل ذلك المقدار برجاله يسكنه كالأبراج الدائرة بسور البلد وكمراتب الولاة في الملك، وهي البروج المعلومة عند أهل التعاليم، ولكل برج ثلاث وجوه: فإن العقل الأوّل له ثلاث وجوه وإن كان واحداً، وما من حقيقة تكون في الأول إلاّ ولا بدّ أن يتضمنها الثاني ويزيد بحكم لا يكون للأوّل إذا كان المتقدم غير الله، وأما الله فهو مع كل شيء فلا يتقدمه شيء ولا يتأخر عنه شيء، وليس هذا الحكم لغير الله، ولهذا له إلى كل موجود وجه خاص لأنه سبب كل موجود، وكل موجود واحد[١] لا يصحّ أن يكون اثنين وهو واحد[٢] فما صدر عنه إلاّ واحد[٣] فإنه في أحدية كل واحد[٤] وإن وجدت الكثرة

---

(١) (قوله: وكل موجود واحد، إلى قوله: وهو ممّا أخطأت فيه) اشتملت هذه الجملة من كلام الشيخ على مسألتين: الأولى وحدة كل موجود، والثانية أحدية الوجود. (قوله: وكل موجود واحد) يعني باعتبار الوجه الخاص به الذي لا يشاركه فيه غيره من سائر الموجودات.

(٢) (قوله: لا يصحّ أن يكون اثنين وهو واحد) يعني أنه لما كان لكل موجود وجه خاص كان لا يصحّ أن يكون هذا الموجود اثنين وهو واحد لما فيه من اجتماع النقيضين، إذ الفرض أنه واحد من حيث حقيقته اثنان من حيث صورته، لأن حقيقة كل موجود هو وجهه الخاص به، وإن قلنا زيد مثل عمرو وهذه الحبة من البر مثل هذه فما هي مثلية حقيقية، إذ زيد غير عمرو، وهذه الحبة غير الآخرى ضرورة فما تميز به زيد عن عمرو والحبة عن الأخرى هو أثر وجهها الخاص وهو حقيقتها.

(٣) (قوله: فما صدر عنه إلاّ واحد) يعني من حيث إنّ الوجه الخاص لا يتكرر في صورتين أبداً.

(٤) (قوله: فإنه في أحدية كل موجود) يعني أنه لما ثبت أنه ما صدر عنه إلاّ واحد من حيث الوجه الخاص، والوجه معنى لا يقوم بنفسه ولا ينفصل عن المتوجه به تعالىٰ فلا بدّ أن تكون الذات المقومة لكل وجه خاص سارية في أحدية كل موجود.

فبالنظر(١) إلى أحدية الزمان الذي هو الظرف فإن وجود الحق في هذه الكثرة في أحدية كل واحد فما ظهر منه إلاَّ واحد، فهذا معنى لا يصدر عن الواحد إلاَّ واحد، ولو صدر عنه جميع العالم لم يصدر عنه إلاَّ واحد، فهو مع كل واحد من حيث أحديته، وهذا لا يدركه إلاَّ أهل الله. وتقوله الحكماء(٢) على غير هذا الوجه وهو ممّا أخطأت فيه، وجعل الله لكل وال ساكن في هذا البرج أحكاماً معلومة عن دورات محصورة ليس هذا الفصل موضع حصرها ولا تعيينها. ثم فتح الله صورة الفلك المكوكب وبعده الأرض والماء والهواء والنار عن حركة فلك البروج وشعاعات كواكب الفلك المكوكب، ثم علا الدخان من نار الأركان لما كانت ناراً مركبة فأظهر في ذلك الدخان صور السموات أفلاكاً مستديرة وجعل في كل فلك كوكباً، كما سيأتي ذكر ذلك كله إن شاء الله تعالىٰ، وعن هذا الاسم الإلهي أوجد في النفس الإنساني الغين المعجمة ومنزلة الهقعة.

الفصل السادس عشر: في الاسم الإلهيّ الحكيم وتوجهه على إيجاد الشكل، وحرف الخاء المعجمة ومنزله النحية من المنازل وتسمّى الهنعة الشكل القيد، وبه سمّي ما تقيد به الدابة في رجلها شكالاً، والمتشكل هو المقيد بالشكل الذي ظهر به، يقول الله ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] أي ما يعمل إلاَّ ما يشاكله، وإلى هذا يرجع معناه. يقول: ذلك الذي ظهر منه يدل على أنه في نفسه عليه والعالم كله عمل الله فعمله على شاكلته، فما في العالم شيء لا يكون في الله والعالم محصور في عشر لكمال صورته، إذ كان موجوداً على صورة موجده، فجوهر العالم لذات الموجد وعرض العالم لصفاته وزمانه لأزله ومكانه لاستوائه وكمّه لأسمائه وكيفه لرضاه وغضبه ووضعه لكلامه وإضافته لربوبيته، وأن يفعل

(١) (قوله: وإن وجدت الكثرة فبالنظر إلخ) يعني أنه لا يقدح في قولنا: كل موجود واحد، وفي قولنا: ما صدر عنه إلاَّ واحد وجود الكثرة، فإن سبب وجودها في المدارك البشرية والعقول النظرية، إنما هو النظر إلى أحدية الزمان وأنه امتداد واحد لا كثرة فيه ولا جزء بالفعل، وقد ظهرت فيه الأشياء مترتبة متكثرة بالتقدم والتأخر، يقال: هذا قبل هذا وهذا بعد دورات هذا، وهذا مع هذا، مع كون الزمان جامعاً، فإن الوهم يخيل أن الزمان شيء والموجودات الزمانية مظروفة فيه وهو ظرف لها، فمن شهود الزمان مع أحديته وظرفيته للموجودات المترتبة جاءت الكثرة، وأما من أخرج من سجن الزمان وفكت القيود عن نظره فإنه يرى وجوداً واحداً متجلياً بلا بداية إلى غير نهاية بلا قيد زماني أو مكاني، وموجوداته حاضرة لديه، وهو عين الموجودات الاعتبارية الخيالية العارضة له بحسب المدارك لا غير، فتوحدت الكثرة بهذه الوحدة الحقيقية، وصحّ قولنا ما ظهر عن الواحد إلاَّ واحد. ومثال ذلك الشخص الواحد فإنه لا يتكثر ولا يتعدد بأعضائه وحواسه الظاهرة والباطنة المتعددة فهو واحد مع هذه الأشياء.

(٢) (قوله: وتقوله الحكماء إلخ) يعني لأن الحكماء تقول في معنى ما صدر عن الواحد إلاَّ واحد أنه تعالىٰ أول ما خلق العقل الأول، ووجود العقل الأول الذي هو موجود به وجود حادث، وأن العقل الأول هو الفاعل في كل ما سواه من الموجودات يخلق لها وجودات حادثة إلى غير ذلك من أقوالهم في العقل، وأهل الله تعالىٰ يقولون: أول ما صدر عن الحق تعالىٰ الوجود المفاض والعقل الأول وغيره من المخلوقات سواء في هذا الوجود المفاض، أهـ تقرير سيدي عبد القادر ونقلت من خطه.

لإيجاده، وأن ينفعل لإجابته من سأله، فعمل العالم على شاكلته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] وإنه ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فالعالم على صراط مستقيم. اعوجاج القوس استقامته فلا تعجب، ألا ترى الخلاء حكم على الجسم بالاستدارة فأظهره فلكاً مستديراً؟ فتلك شاكلته، فحكمت عليه شاكلة الموطن، جبريل ظهر في صورة دحية فجهل فقيل فيه إنسان وهو ملك وعلم من علمه ملكاً والصورة إنسان فلم يؤثر علم الملكية منه في صورة إنسانيته ولم يؤثر الجهل بها فيها فالأشكال مقيدة أبداً، هذا ما أعطاه الاسم الحكيم مرتب الأمور مراتبها ومنزل الأشياء مقاديرها، وظهر من النفس الإنسانيّ في المخارج حرف الخاء المعجمة، ومن المنازل النحية، وما من شيء ظهر في تفاصيل العالم إلاّ وفي الحضرة الإلهية صورة تشاكل ما ظهر أي يتقيد بها ولولا هي ما ظهر، ألا ترى الفلك الأطلس كيف ظهر من الحيرة في الحق لأنّ المقادير فيه لا تتعين للتماثل في الأجزاء كالأسماء والصفات للحق لا تتعدد، فالحيرة ما ظهرت إلاّ في الفلك الأطلس حيث قيل: إن فيه بروجاً ولا تتعين فوضع على شكل الحيرة، ووضع الفلك المكوكب بالمنازل على شكل الدلالات على ما وقعت فيه الحيرة، فاستدل بالمنازل على ما في الأطلس من البروج فهو على شكل الدلالة، وجعل تنوّع الأحكام بنزول السيارة في المنازل، والبروج بمنزلة الصور الإلهية التي يظهر فيها الحق فبما للأطلس فيها من الحكم تجهل، ويقال: ليس لله صورة بالدلالة العقلية، وبما للمنازل فيها من الدلالات تعلم، ويقال هذا هو الحق فانظر حكم الأشكال ما فعل، ومنه الأشكال في المسائل فإنه يعطي الحيرة في المعلوم، وشكل الشيء شبهه، والشكل يألف شكله، والضد يجهل ضده. والدنيا للامتزاج، والآخرة للتخليص، فهي على شكل القبضتين.

الفصل السابع عشر: في الاسم المحيط وتوجهه على إيجاد العرش، والعرش الممجدة والمعظمة والمكرمة، وحرف القاف، ومن المنازل الذراع. اعلم أن العرش أحاط بالعالم لاستدارته بما أحاط به من العالم، وكل ما أحاط به فيه الاستدارة ظاهرة حتى في المولدات، وانظر في تشبيه النبيّ ﷺ في الكرسيّ أنه في جوف العرش كحلقة في فلاة من الأرض، فشبهه بشكل مستدير وهو الحلقة والأرض، وكذلك شبه السموات في الكرسي كحلقة، والأركان الكرية في جوف الفلك الأدنى كذلك، ثم ما تولد عنها لا يكون أبداً في صورته إلاّ مستديراً أو مائلاً إلى الاستدارة معدناً كان أو نباتاً أو حيواناً، وذلك لأنّ الحركة دورية، فلا تعطي إلاّ ما يشاكلها، فالعرش أعظم الأجسام من حيث الإحاطة فهو العرش العظيم جرماً وقدراً، وبحركته أعطى ما في قوّته لمن هو تحت إحاطته وقبضته فهو العرش الكريم لذلك، وبنزاهته أن يحيط به غيره من الأجسام كان له الشرف فهو العرش المجيد.

ثم إنه ما استوى عليه الاسم الرحمن إلاّ من أجل النفس الرحماني، وذلك أن المحاط به في ضيق من علمه بأنه محاط به من حيث صورته، فأعطاه النفس الرحماني روحاً من أمره، فكان مجموع كل موجود في العالم صورته وروحه المدبر له، وجعل روحه لا داخلاً في

الصورة ولا خارجاً عنها لأنه غير متحيز فانتفى المشروط والشرط، فإن النفس الذي صدرت عنه الأرواح لا داخل في العالم ولا خارج عنه، فإذا نظر الموجود في كونه محاطاً به ضاق صدره من حيث صورته، وإذا نظر في نفسه من حيث روحانيته نفس الله عنه ذلك الضيق بروحه لما علم أنه لا توصف ذاته بأنه محاط به إحاطة العرش بالصور فزال عنه، وأورثه ذلك الإبتهاج والسرور والفرح بذاته من حيث روحه، فلهذا كان الاستواء بالاسم الرحمن، وإحاطة هذا العرش من الإحاطة الإلهية بالعلم في قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] فهو من ورائهم محيط، وليس وراء الله مرمى لرام ووراء العالم الله فهو المنتهى وما له انتهاء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فالكلمة في العرش من النفس الرحماني واحدة وهو الأمر الإلهي لإيجاد الكائنات، فالنفس سار إلى منتهى الخلاء، فبه حيي كل شيء، فإن العرش على الماء فقبل الحياة بذاته فخلق الله تعالىٰ منه كل شيء حي أفلا يؤمنون بما يرونه من حياة الأرض بالمطر وحياة الأشجار بالسقي حتى الهواء إن لم يكن فيه مائية وإلاّ أحرق.

واعلم أن هذا العرش قد جعل الله له قوائم نورانية لا أدري كم هي لكني أشهدتها ونورها يشبه نور البرق، ومع هذا فرأيت له ظلاً فيه من الراحة ما لا يقدر قدرها، وذلك الظل ظل مقعر هذا العرش يحجب نور المستوى الذي هو الرحمن، ورأيت الكنز الذي تحت العرش الذي خرجت منه لفظة لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم فإذا الكنز آدم صلوات الله عليه، ورأيت تحته كنوزاً كثيرة أعرفها، ورأيت طيوراً حسنة تطير في زواياه، فرأيت فيها طائراً من أحسن الطيور فسلم عليّ فألقى لي فيه أن آخذه صحبتي إلى بلاد الشرق وكنت بمدينة مراكش حين كشف لي عن هذا كله فقلت: ومن هو؟ قيل لي: إن محمداً الحصار بمدينة فاس سأل الله الرحلة إلى بلاد الشرق فخذه معك فقلت: السمع والطاعة فقلت له وهو عين ذلك الطائر: تكون صحبتي إن شاء الله، فلما جئت إلى مدينة فاس سألت عنه فجاءني فقلت له: هل سألت الله في حاجة؟ فقال: نعم سألته أن يحملني إلى بلاد الشرق فقيل لي: إن فلاناً يحملك وأنا أنتظرك من ذلك الزمان، فأخذته صحبتي سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأوصلته إلى الديار المصرية ومات بها رحمه الله. فإن قلت: والملائكة الحافون من حول العرش ما بقي لهم خلاء يتصرّفون فيه والعرش قد عمر الخلاء. قلنا: لا فرق بين كونهم حافين من حول العرش وبين الاستواء على العرش فإنه من لا يقبل التحيّز لا يقبل الاتصال والانفصال. ثم إن الملائكة الحافين من حول العرش فما هو هذا الجسم الذي عمر الخلاء وإنما هو ذلك العرش الذي يأتي الله به للفصل والقضاء يوم القيامة، وهذا العرش الذي استوى عليه هو عرش الاسم الرحمن أما سمعته يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] عند الفراغ من القضاء فذلك يوم القيامة تحمله الثمانية الأملاك وذلك بأرض الحشر، ونسبة العرش إلى تلك الأرض نسبة الجنة إلى عرض الحائط في قبلة رسول الله ﷺ وهو في صلاة الكسوف،

وهذا من مسائل ذي النون المصريّ في إيراد الواسع على الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، ومن عرف المواطن هان عليه سماع مثل هذا.

الفصل الثامن عشر: في الاسم إلهي الشكور وتوجهه على إيجاد الكرسيّ والقدمين، ومن الحروف حرف الكاف، ومن المنازل النثرة.

قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] قال بعض أهل المعاني: يريد العلم ونقلوه لغة إلاَّ أنه في هذه الآية ليس إلاَّ جسم محسوس هو في العرش كحلقة ملقاة في فلاة إلاَّ أنه كالعرش لا حركة فيه، ومن هذا الكرسيّ تنقسم الكلمة الإلهية إلى حكم وخبر وهو للقدمين الواردين في الخبر كالعرش لاستواء الرحمن، وله ملائكة قائمون به لا يعرفون إلاَّ الرب تعالىٰ، فإن ظرفية العماء للرب والعرش للرحمن والكرسيّ لضمير الكناية عن الله تعالىٰ، وهذه الثلاثة الأسماء هي أمّهات اسماء، وإذا تتبعت القرآن العزيز وجدت هذه الأسماء الثلاثة: الله والرب والرحمن دائرة فيه، وله ما بين سماء وسماء كرسي سوى هذا الكرسي الأعظم، وسمّي منسوباً أي لا يعقل إلاَّ هكذا بخلاف غيره من الموجودات، ومن هنا كان للرب الذي لا يعقل إلاَّ مضافاً وغيره الذي هو الاسم الله والرحمن قد ورد غير مضاف إلاَّ الرب، فلا يرد حيث ورد إلاَّ مضافاً فإنه يطلب المربوب بذاته ﴿رَبَّنَآ﴾ [سورة الصافات: الآية ٣١] ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] فأثرت هذه الحقيقة في المرتبة المكانية الذي هو الكرسي فورد منسوباً والنسبة إضافة، وجاء في الدرجة الثالثة وهي أوّل الإفراد. ولما كان الرب الثابت فكذلك الكرسيّ حكم عليه الاسم الإلهيّ بالثبوت، فالثبوت أيضاً الموصوف به العرش يؤذن بأن الاسم الرحمن ثابت الحكم في كل ما يحوي عليه وهو قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] فمآل الكل إلى الرحمة وإن تخلل الأمر آلام وعذاب وعلل وأمراض مع حكم الاسم الرحمن فإنما هي أعراض عرضت في الأكوان دنيا وآخرة من أجل أن الرحمن له الأسماء الحسنى، ومن الأسماء: الضار والمذل والمميت فلهذا ظهر في العالم ما لا تقتضيه الرحمة ولكن لعوارض، وفي طيّ تلك العوارض رحمة ولو لم يكن إلاَّ تضاعف النعيم والراحة عقيب زوال حكمه ولهذا قيل: أحلى من الأمن عند الخائف الوجل، فما تعرف لذات النعم إلاَّ بأضدادها، فوضعت لاقتناء العلوم التي فيها شرف الإنسان، فكانت كالطريق الموصلة أو الدليل الموصل إلى مدلوله ذوقاً، وحصول العلم بالأذواق أتم منه بطريق الخبر، ألا ترى الحق وصف نفسه على ألسنة رسله بالغضب والرضا، ومن هاتين الحقيقتين ظهر في العالم اكتساب العلوم من الأذواق الظاهرة كالطعوم وأشباهها، والباطنة كالآلام من الهموم والغموم مع سلامة الأعضاء الظاهرة من كل سبب يؤدّي إلى ألم، فانظر ما أعجب هذا فثبت العرش لثبوت الرحمة السارية التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلها الإحاطة وهي عين النفس الرحماني، فبه ينفس الله كل كرب في خلقه، فإن الضيق الذي يطرأ أو يجده العالم كونه أصلهم في القبضة، وكل مقبوض عليه محصور، وكل محصور محجور عليه، والإنسان لما وجد على الصورة لم يحتمل التحجير،

فنفس الله عنه بهذا النفس الرحماني ما يجده من ذلك، كما كان تنفسه من حكم الحب الذي وصف به نفسه في قوله: « أحببت أن أعرف »، فأظهره في النفس الرحماني، فكان ذلك التنفس الإلهي عين وجود العالم فعرفه العالم كما أراد، فعين العالم عين الرحمة لا غيرها، فاشحذ فؤادك فما يكون العالم رحمة للحق ويكون الحق يسرمد عليه الألم الله أكرم وأجل من ذلك، فانظر ما أعجب ما أعطاه مقام الكرسي من انقسام الكلمة الإلهية فظهر الحق والخلق، ولم يكن يتميز لولا الكرسي الذي هو موضع القدمين الواردتين في الخبر، وعن هذا الاسم وجد في النفس الإنساني حرف الكاف، وفي فلك المنازل منزلة النثرة لما وجد فلكها.

الفصل التاسع عشر: في الاسم الغني وتوجهه على إيجاد الفلك الأطلس وهو فلك البروج واستعانته بالاسم الدهر وإيجاد حرف الجيم من الحروف والطرف من المنازل.

اعلم أن هذا الاسم جعل هذا الفلك أطلس لا كوكب فيه متماثل الأجزاء مستدير الشكل، لا تعرف لحركته بداية ولا نهاية، وما له طرف بوجوده حدثت الأيام السبعة والشهور والسنون، ولكن ما تعينت هذه الأزمنة فيه إلاَّ بعدما خلق الله في جوفه من العلامات التي ميزت هذه الأزمنة، وما عين منها هذا الفلك سوى يوم واحد وهي دورة واحدة عينها مكان القدم من الكرسي فتعينت من أعلى فذلك القدر يسمى يوماً، وما عرف هذا اليوم إلاَّ الله تعالىٰ لتماثل أجزاء هذا الفلك وأوّل ابتداء حركته، وكان ابتداء حركته وأوّل درجة من برج الجوزاء يقابل هذا القدم وهو من البروج الهوائية، فأوّل يوم في العالم ظهر كان بأوّل درجة من الجوزاء، ويسمّى ذلك اليوم الأحد، فلما انتهى ذلك الجزء المعين عند الله من هذا الفلك إلى مقارنة ذلك القدم من الكرسي انقضت دورة واحدة هي المجموع، قابلت أجزاء هذا الفلك كلها من الكرسي موضع القدم منه فعمّت تلك الحركة كل درجة ودقيقة وثانية وما فوق ذلك في هذا الفلك، فظهرت الأحياز وثبت وجود الجوهر الفرد المتحيز الذي لا يقبل القسمة من حركة هذا الفلك، ثم ابتدأ عند هذه النهاية بانتقال آخر في الوسط أيضاً إلى أن بلغ الغاية مثل الحركة الأولى بجميع ما فيه من الأجزاء الأفراد التي تألف منها لأنه ذو كميات، وتسمّى هذه الحركة الثانية يوم الاثنين إلى أن كمل سبع حركات دورية كل حركة عينتها صفة إلهية والصفات سبع لا تزيد على ذلك، فلم يتمكن أن يزيد الدهر على سبعة أيام يوماً فإنه ما ثم ما يوجبه، فعاد الحكم إلى الصفة الأولى فأدارته ومشى عليه اسم الأحد، وكان الأولى بالنظر إلى الدورات أن تكون ثامنة، لكن لما كان وجودها عن الصفة الأولى عينها لم يتغير عليها اسمها، وهكذا الدورة التي تليها إلى سبع دورات، ثم يبتدىء الحكم كما كان أول مرة عن تلك الصفة ويتبعها ذلك الاسم أبد الآبدين دنيا وآخرة بحكم العزيز العليم، فيوم الأحد عن صفة السمع فلهذا ما في العالم إلاَّ من يسمع الأمر الإلهي في حال عدمه بقوله: ﴿كُن﴾ ويوم الاثنين وجدت حركته عن صفة الحياة وبه كانت الحياة في العالم فما في العالم جزء إلاَّ وهو حيّ ويوم الثلاثاء وجدت حركته عن صفة البصر فما في العالم جزء إلاَّ وهو يشاهد خالقه من حيث عينه لا من حيث عين خالقه. ويوم الأربعاء وجدت حركته عن صفة الإرادة فما في

العالم جزء إلاّ وهو يقصد تعظيم موجده. ويوم الخميس وجدت حركته عن صفة القدرة فما في الوجود جزء إلاّ وهو متمكن من الثناء على موجده. ويوم الجمعة وجدت حركته عن صفة العلم فما في العالم جزء إلاّ وهو يعلم موجده من حيث ذاته لا من حيث ذات موجده، وقيل: إنما وجد عن صفة العلم يوم الأربعاء وهو صحيح فإنه أراد علم العين وهو علم المشاهدة، والذي أردناه نحن إنما هو العلم الإلهي مطلقاً لا العلم المستفاد، وهذا القول الذي حكيناه أنه قيل ما قاله لي أحد من البشر بل قاله لي روح من الأرواح فأجبته بهذا الجواب فتوقف فألقى عليه أن الأمر كما ذكرناه. ويوم السبت وجدت حركته عن صفة الكلام فما في الوجود جزء إلاّ وهو يسبح بحمد خالقه ولكن لا نفقة تسبيحه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١] فما في العالم جزء إلاّ وهو ناطق بتسبيح خالقه عالم بما يسبح به ممّا ينبغي لجلاله قادر على ذلك قاصد له على التعيين لا لسبب آخر، فمن وجد عن سبب مشاهدة عظمة موجده حي القلب سميع لأمره فتعينت الأيام أن تكون سبعة لهذه الصفات وأحكامها، فظهر العالم حياً سميعاً بصيراً عالماً مريداً قادراً متكلماً فعمله على شاكلته كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ والعالم عمله فظهر بصفات الحق. فإن قلت فيه أنه حق صدقت فإن الله قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وإن قلت فيه أنه خلق صدقت فإنه قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فعرى وكسى وأثبت ونفى فهو لا هو وهو المجهول المعلوم، ولله الأسماء الحسنى، وللعالم الظهور بها في التخلق فلا يزاد في الأيام السبعة ولا ينقص منها، وليس يعرف هذه الأيام كما بيناها إلاّ العالم الذي فوق الفلك الأطلس لأنهم شاهدوا التوجهات الإلهيات من هناك على إيجاد هذه الأدوار وميّزوا بين التوجهات فانحصرت لهم في سبعة ثم عاد الحكم فعلموا النهاية في ذلك. وأما من تحت هذا الفلك فما علموا ذلك إلاّ بالجواري السبعة، ولا علموا تعيين اليوم إلاّ بفلك الشمس حيث قسمته الشمس إلى ليل ونهار، فعين الليل والنهار اليوم.

ثم إن الله تعالىٰ جعل في هذا الفلك الأطلس حكم التقسيم الذي ظهر في الكرسي لما انقسمت الكلمة فيه بتدلي القدمين إليه وهما خبر وحكم، والحكم خمسة أقسام: وجوب وحظر وإباحة وندب وكراهة. والخبر قسم واحد وهو ما لم يدخل تحت حكم واحد من هذه الأحكام، فإذا ضربت اثنين في ستة كان المجموع اثني عشر، ستة إلهية وستة كونية لأنها على الصورة، فانقسم هذا الفلك الأطلس على اثني عشر قسماً عينها ما ذكرناه من انقسام الكلمة في الكرسي، وأعطى لكل قسم حكماً في العالم متناهياً إلى غاية ثم تدور كما دارت الأيام، سواء إلى غير نهاية فأعطى قسماً منها اثنتي عشر ألف سنة وهو قسم الحمل كل سنة ثلاثمائة وستون دورة مضروبة في اثني عشر ألفاً، فما اجتمع من ذلك فهو حكم هذا القسم في العالم بتقدير العزيز العليم الذي أوحى الله فيه من الأمر الإلهي الكائن في العالم، ثم تمشى على كل قسم بإسقاط ألف حتى تنتهي إلى آخر قسم وهو الحوت وهو الذي يلي الحمل، والعمل في كل قسم بالحساب كالعمل الذي ذكرناه في الحمل، فما اجتمع من ذلك فهو الغاية، ثم يعود الدور كما بدا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] فالمتحرك ثابت العين والمتجدّد إنما

هي الحركة، فالحركة لا تعود عينها أبداً لكن مثلها، والعين لا تنعدم أبداً فإن الله قد حكم بإبقائها فإنه أحب أن يعرف، فلا بدّ من إبقاء أعين العارفين وهم أجزاء العالم، وهذا الفلك هو سقف الجنة، وعن حركته يتكون في الجنة ما يتكون وهو لا ينخرم نظامه، فالجنة لا تفنى لذاتها أبداً ولا يتخلل نعيمها ألم ولا تنغيص وإن كانت طبائع أقسام هذا الفلك مختلفة، فما اختلفت إلاّ لكون الطبيعة فوقه، فحكمت عليه بما تعطيه من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، إلاّ أنه لما كان مركباً ولم يكن بسيطاً لم يظهر فيه حكم الطبيعة إلاّ بالتركيب، فتركب الناري من هذه الأقسام من حرارة ويبوسة، وتركب الترابي منها من برودة ويبوسة، وتركب الهوائي منها من حرارة ورطوبة، وتركب المائي منها من برودة ورطوبة، فظهرت على أربع مراتب لأن الطبيعة لا تقبل منها إلاّ أربعة تركيبات لكونها متضادة وغير متضادة على السواء، فلذلك لم تقبل إلاّ أربع تركيبات كما هي في عينها على أربع لا غير، وإن كانت الطبيعة في الحقيقة اثنين لأنها عن النفس، والنفس ذات قوتين: علمية وعملية، فالطبيعة ذات حقيقتين فاعلتين من غير علم، فهي تفعل بعلم النفس لا بعلمها إذ لا علم لها ولها العمل فهي فاعلة بالطبع غير موصوفة بالعلم، فهي من حيث الحرارة والبرودة فاعلة، ثم انفعلت اليبوسة عن الحرارة والرطوبة عن البرودة، فكما كانت الحرارة تضاد البرودة كان منفعل الحرارة يضاد منفعل البرودة، فلهذا ما تركب من المجموع سوى أربع فظهر حكمها في أقسام هذا الفلك بتقدير العزيز العليم، ثم جعلها على التثليث كل ثلث أربع، فإذا ضربت ثلاثة في أربعة كان المجموع إثني عشر، فلكل برج ثلاثة أوجه مضروبة في أربعة أبراج كان المجموع إثني عشر وجهاً، والأربعة الأبراج قد عمّت تركيب الطبائع لأنها منحصرة في ناري وترابي وهوائي ومائي، فإذا ضربت ثلاث مراتب في إثني عشر وجهاً كان المجموع ستة وثلاثين وجهاً وهو عشر الدرج أي جزء من عشرة، والعشرة آخر نهاية الأحقاب، والحقبة السنة، فأرجو أن يكون المآل إلى رحمة الله في أي دار شاء، فإن المراد أن تعمّ الرحمة الجميع حيث كانوا، فيحيى الجميع بعدما كان منه من لا يموت ولا يحيا وذلك حال البرزخ.

واعلم أن هذا الفلك يقطع بحركته في الكرسي كما يقطعه من دونه من الأفلاك، ولما كان الكرسي موضع القدمين لم يعط في الآخرة إلاّ دارين: ناراً وجنة فإنه أعطى بالقومين فلكين: فلك البروج وفلك المنازل الذي هو أرض الجنة وهما باقيان، وما دون فلك المنازل يخرب نظامه وتبدّل صورته ويزول ضوء كواكبه كما قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٨] وقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [سورة المرسلات: الآية ٨] فما ذكر من السموات إلاّ المعروفة بالسموات وهي السبع السموات خاصة، وأما مقعر فلك المنازل فهو سقف النار، ومن فعل هاتين القدمين في هذا الفلك ظهر في العالم من كل زوجين اثنين بتقدير العزيز لوجود حكم الفاعلين من الطبيعة، والقوتين من النفس، والوجهين من العقل، والحرفين من الكلمة الإلهية ﴿كُن﴾ من الصفتين الإلهية في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهي الصفة الواحدة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهي الصفة

الأخرى، فمن نزّه فمن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ومن شبه فمن ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فغيب وشهادة غيب تنزيه وشهادة تشبيه، فافهم إن كنت تفهم واعلم ما الحقيقة التي حكمت على الثنوية حتى أشركوا وهم المانية مع استيفائهم النظر وبذل الاستطاعة فيه، فلم يقدروا على الخروج من هذه الاثنينية إلى العين الواحدة وما ثم إلاّ الله ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] فلم يعذر لأنه نزل عن هذه الدرجة فقلد فنجا صاحب النظر وهلك المقلد، فإنه استند إلى أمر محقق في الصفة والكلمة فأضله الله على علم وختم على سمعه فلم يسمع ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣] وختم على قلبه فلم يعلم أنه إله واحد لأنه لم يشاهد تقليب قلبه، وجعل على بصره غشاوة فلم يدرك فردية الكلمة بالواو التي بين الكاف والنون فمنعته الغشاوة من إدراكها فلم يشاهد إلاّ اثنين: الكاف والنون لفظاً وخطاً، والكاف كافان: كاف ﴿كُن﴾ وهي كاف الإثبات وكاف﴿وَلَمْ يَكُن﴾ وهي كاف النفي، وفي هذه الكاف طلعت لنا الشمس سنة تسعين وخمسمائة فأثبتنا نفي التشبيه بطلوع الشمس في﴿وَلَمْ يَكُن﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤]، ومن لم تطلع له فيه شمس قال بالتعطيل والشمس طالعة، ولا بدّ في لم يكن نصف القرص منها ظاهر والنصف فيها مستتر، والغشاوة منعت هذا الرائي أن يدرك طلوعها فقال بالتعطيل وهو النفي المطلق، فما من ناظر إلاّ وله عذر والله أجل من أن يكلف نفساً ما ليس في وسعها: [الطويل]

فـكـلُّـهُـمُ فـي رحـمـة الله خـالـدٌ ... مـوحِّـدُه أو ذو الـشَّـريـكِ وجَـاحِـدُ

ومن هذا الاسم وجد حرف الجيم والطرف من المنازل، وسيأتي الكلام على كل واحد من هذه الحروف والمنازل في بابها.

الفصل العشرون في الاسم المقدر: وتوجهه على إيجاد فلك المنازل والجنات وتقدير صور الكواكب في مقعر هذا الفلك وكونه أرض الجنة وسقف جهنم، وله حرف الشين المعجمة من الحروف، ومنزلة جبهة الأسد.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] فالمنازل مقادير التقاسيم التي في فلك البروج عينها الحق تعالىٰ لنا إذ لم يميزه البصر بهذه المنازل، وجعلها ثماني وعشرين منزلة من أجل حروف النفس الرحمانيّ، وإنما قلنا ذلك لأن الناس يتحيلون أن الحروف الثمانية والعشرين من المنازل حكم هذا العدد لها وعندنا بالعكس، بل عن هذه الحروف كان حكم عدد المنازل، وجعلت ثماني وعشرين مقسمة على إثني عشر برجاً ليكون لكل برج في العدد الصحيح قدم، وفي العدد المكسور قدم، إذ لو كان لبرج من هذه البروج عدد صحيح دون كسر أو مكسور دون صحيح لم يعم حكم ذلك البرج في العالم بحكم الزيادة والنقص والكمال وعدم الكمال، ولا بدّ من الزيادة والنقص لأنّ الاعتدال لا سبيل إليه، لأن العالم مبناه على التكوين، والتكوين بالاعتدال لا يصحّ، فلا بدّ من عدد مكسور صحيح في كل برج، فكان لكل برج منزلتان وثلث، فثم برج يكون له منزلتان صحيحتان وثلث منزلة كسر، وثم برج يكون له منزلة صحيحة في الوسط،

ويكون في آخره كسر، وفي أوله كسر، فيلفق من الكسرين منزلة صحيحة مختلفة المزاج وثلث منزلة، وإنما قلنا مختلفة المزاج فإن كل منزلة على مزاج خاص فإذا جمع جزء منزلة إلى جزء أي منزلة أخرى ليكمل بذلك عين منزلة لأن المنزلة مثلثة كالبرج له ثلاثة وجوه، ومن وجوه منازله سبعة وجوه، فكل برج ذو سبعة أوجه وله من نفسه ثلاثة أوجه فكان المجموع عشرة أوجه، فالمنزلة الصحيحة ذات مزاج واحد، والمنزلة الكائنة من منزلتين بمنزلة المولد من اثنين يحدث له مزاج آخر ليس هو في كل واحد من الأبوين وفيه سرّ عجيب وهو أحدية المجموع، فإن لها من الأثر ما ليس لأحدية الواحد، ألا ترى أن العالم ما وجد إلاّ بأحدية المجموع؟ وأن الغنى لله ما ثبت إلاّ بأحدية الواحد، فهذا الحكم يخالف هذا الحكم بلا شك، فالثريا لها مزاج خاص وقد أخذ الحمل منها ثلثها، وجاء الثور يحتاج إلى منزلتين وثلث فأخذ منزلة الدابران صحيحة بمزاج واحد أحديّ وبقي له منزلة وثلث لم يجد منزلة صحيحة ما يأخذ فأخذ ثلثي الثريا وأضاف إلى ذلك ثلثي الهقعة فكملت له منزلة واحدة بأحدية المجموع فتعطيه هذه المنزلة عين حكم الثريا وعين حكم الهقعة ثم يأخذ الثلث الثاني من الهقعة فلا يعمل من الهقعة إلاّ بالثلث الوسط، وأما الثلث الأوّل المضاف إلى ثلثي الثريا لكمال المنزلة فإنه يحدث لهذا الثلث ويحدث لثلث الثريا بكمال وصورة منزلة ما هي عين واحدة منهما حكم ليس هو لثلثي أحدهما ولا لثلث الآخر، فهذا هو السبب الذي يكون لأجله للبرج ثلاثة أوجه، فمنه برج خالص وبرج ممتزج، وهل كل برج يكون من ثلثين وثلثين وهي بروج معلومة يعينها لك تقسيم المنازل عليها، وقد تكون المنزلة المركبة قامت من منزلة سعيدة ونحسة فتعطي بالمجموع سعداً، ولا يظهر لنحس الأخرى أثر، وقد تعطي نحساً ولا يظهر لسعد الأخرى أثر، بخلاف المنزلة الصحيحة فإنها تجري على ما خلقت له، فإن الله أعطاها خلقها كما أعطى للمركبة خلقها، فكل علامة ودليل على برج لا بدّ فيه من التركيب ويكون بالتثليث، فإن الدليل أبداً مثلث النشأة لا بدّ من ذلك مفردان وجامع بينهما وهو الوجه الثالث لا بدّ من ذلك في كل مقدمتين من أجل الإنتاج كل اب، وكل ب ج، فتكرّرت الباء فقام الدليل من ألف باء جيم، فالوجه الجامع الباء لأنه تكرّر في المقدمتين فأنتج كل ألف جيم وهو كان المطلوب الذي ادعاه صاحب الدعوى، فإنه ادّعى أن كل ألف جيم فنوزع فساق الدليل بما اعترف به المنازع فإنه علم أن كل اب وسلم أن كل ب ج، فثبت عنده صحة قول المدعي أن كل اج فمن هنا ظهرت البراهين في عالم الإنسان، وعن هذه التقاسيم التي أعطت المنازل في البروج.

وبعد أن علمت هذا فاعلم أن هذا الفلك الأطلس لما قام له الكرسيّ مقام العرش وفوق الأطلس الكرسيّ والعرش أعطت هذه الثلاثة وجود فلك المنازل كما أعطت المقدمات المركبة من ثلاث النتيجة، وكما حملت النتيجة قوىٰ الثلاث اللاتي في المقدمتين حمل فلك الكواكب قوّة الأطلس والكرسيّ والعرش، والكرسيّ هو الوجه الجامع بين المقدمتين لأنه الوسط بين العرش والأطلس فله وجه إلى كل واحد منهما، فمن قوّة العرش اتحدت أو

توحدت فيه الكلمة الإلهية فكان أهل الجنة وهم أهل هذا الفلك المكوكب يقولون للشيء كن فيكون، ومن قوّة الكرسيّ كان لكل إنسان فيه زوجتان لأنه موضع القدمين، ومن قوّة الفلك الأطلس غابت إنسانيته في ربه فتكوّنت عنه الأشياء ولا تتكوّن إلاّ عن الله وغابت الربوبية في إنسانيته، فالتذّ بالأشياء وتنعم وأكل وشرب ونكح فهو خلق حق فجهل كما أن الفلك الأطلس مجهول، فلهذا قلنا إن هذا الفلك قد حصّل قوّة ما فوقه لأنه مواد عنه، وهكذا كل ما تحته أبداً المولد يجمع حقائق ما فوقه حتى ينتهي إلى الإنسان وهو آخر مولد، فتجمع فيه قوى جميع العالم والأسماء الإلهية بكمالها فلا موجود أكمل من الإنسان الكامل، ومن لم يكمل في هذه الدنيا من الأناسيّ فهو حيوان ناطق جزء من الصورة لا غير لا يلحق بدرجة الإنسان، بل نسبته إلى الإنسان نسبة جسد الميت إلى الإنسان، فهو إنسان بالشكل لا بالحقيقة، لأنّ جسد الميت فاقد في نظر العين جميع القوى، وكذلك هذا الذي لم يكمل وكماله بالخلافة فلا يكون خليفة إلاّ من له الأسماء الإلهية بطريق الاستحقاق أي هو على تركيب خاص يقبلها، إذ ما كل تركيب يقبلها، وهذا من الأسرار الإلهية التي تجوزها العقول وهي محال كونها.

ولما خلق الله هذا الفلك كون في سطحه الجنة فسطحه مسك وهو أرض الجنة، وقسم الجنات على ثلاثة أقسام للثلاثة الوجوه التي لكل برج جنات الاختصاص وهي الأولى، وجنات الميراث وهي الثانية، وجنات الأعمال وهي الثالثة، ثم جعل في كل قسم أربعة أنهار مضروبة في ثلاثة يكون منها اثنا عشر نهراً، ومنها ظهر في حجر موسىٰ اثنتا عشرة عيناً لاثني عشر سبطاً﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠] ، النهر الواحد نهر الماء الذي هو غير آسن يقول غير متغير وهو علم الحياة، ونهر الخمر وهو علم الأحوال، ونهر العسل وهو علم الوحي على ضروبه، ولهذا تصعق الملائكة عندما تسمع الوحي كما يسكر شارب الخمر ونهر اللبن وهو علم الأسرار واللب الذي تنتجه الرياضات والتقوى، فهذه أربعة علوم، والإنسان مثلث النشأة: نشأة باطنة معنوية روحانية، ونشأة ظاهرة حسيّة طبيعية، ونشأة متوسطة جسدية برزخية مثالية، ولكل نشأة من هذه الأنهار نصيب كل نصيب نهر لها مستقل يختلف مطعمه باختلاف النشأة، فيدرك منه بالحسّ ما لا يدركه بالخيال، ويدرك منه بالخيال ما لا يدركه بالمعنى، وهكذا كل نشأة، فللإنسان إثنا عشر نهراً في جنة الاختصاص أربعة، وفي جنة الميراث مثلها، وفي جنة الأعمال مثلها لمن له جنة عمل، إما من نفسه وإما ممّن أهدى له من الأعمال شيئاً، فيحصل للإنسان من العلوم في كل جنة بحسب حقيقة تلك الجنة بحسب مأخذ النشآت منه، فإنها تختلف مآخذها، وتختلف العلوم، وتختلف الجنات لتختلف الأذواق، ونفس الرحمن فيها دائم لا ينقطع، تسوقه ريح تسمّى المثيرة، وفي الجنة شجرة ما يبقى بيت في الجنة إلاّ دخل فيه منها تسمى المؤنسة يجتمع إلى أصلها أهل الجنة في ظلّها يتحدثون بما ينبغي لجلال الله بحسب مقاماتهم في ذلك بطريق الإفادة، فيحصل بينهم لكل واحد علم لم يكن يعرفه فتعلو منزلته بعلو ذلك العلم، فإذا قاموا من تحت تلك الشجرة وجدوا لهم درجات ومنازل لم يكونوا يعرفونها في جناتهم فيجدون من اللذة بها ما لا يقدر

قدرة فيتعجبون ولا يعرفون من أين ذلك فتهب عليهم الريح المثيرة من نفس الرحمن تخبرهم أن هذه الدرجات التي حصلتموها هي منازلكم في منازل العلم الذي اكتسبتموه تحت الشجرة المؤنسة في ناديكم هذه منازله، فيحصل لكل واحد منزل يعلمه فلا يمر لهم نفس إلاّ ولهم فيه نعيم مقيم جديد، فهذا ما يحوي عليه سطح هذا الفلك وأمثال هذا، ووجدت هذه الجنان بطالع الأسد وهو برج ثابت فلها الدوام وله القهر، فلهذا يقول أهله للشيء كن فلا يأبى إلاّ أن يكون، لأنه ليس في البروج من له السطوة مثله، فله القهر على إبراز الأمور من العدم إلى الوجود.

وأما مقعر هذا الفلك فجعله الله محلاً للكواكب الثابتة القاطعة في فلك البروج، ولها من الصور فيه ألف صورة وإحدى وعشرون صورة، وصور السبعة الجواري في السموات السبع، فمبلغ الجميع ألف وثمان وعشرون صورة كلها تقطع في فلك البروج بين سريع وبطيء، ويوم كل كوكب منها بقدر قطعه فلك البروج فأسرعها قطعاً القمر، فإن يومه ثمانية وعشرون يوماً من أيام الدورة الكبرى التي تقدر بها هذه الأيام وهي الأيام المعهودة عند الناس كما أشار إلى ذلك تعالىٰ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] يعني هذه الأيام المعروفة، فأقصر أيام هذه الكواكب يوم القمر ومقداره ثمانية وعشرون يوماً ممّا تعدون، وأطول يوم لكوكب منه مقداره ست وثلاثون ألف سنة ممّا تعدون، ويوم ذي المعارج من الأسماء الإلهية خمسون ألف سنة، ويوم الاسم الرب كألف سنة ممّا تعدون، ولكل اسم إلهيّ يوم، فإذا أردت أن تعرف جميع أيام صور الكواكب أعني مقدارها من الأيام المعروفة فاضرب ألفاً وأحداً وعشرين في ستة وثلاثين ألف سنة فما خرج فذلك حصر أيام الكواكب من الأيام المعروفة، فإن يوم كل واحد منها ست وثلاثون ألف سنة، ثم تضيف إلى المجموع أيام الجواري السبعة فما اجتمع فهو ذلك، ثم تأخذ هذا المجموع وتضربه فيما اجتمع من سني البروج وسني ما اجتمع من ضرب ثلثمائة وستين في مثلها فما خرج لك من المجموع فهو عدد الكوائن في الدنيا من أوّل ما خلقها الله إلى انقضائها، فاعلم ذلك. والمجموع من ضرب ثلثمائة وستين في مثلها مع سنيّ البروج مائتا ألف وسبعة آلاف وستمائة، وفي هذا المجموع تضرب ما اجتمع من عدد أيام الكواكب كلها، فهذا تقدير الكواكب التي وقّتها وقدرها العزيز العليم، فيبقى في الآخرة في دار جهنم حكم أيام الكواكب التي في مقعر هذا الفلك والجواري السبعة مع انكدارها وطمسها وانتثارها، فتحدث عنها في جهنم حوادث غير حوادث إنارتها وثبوتها وسير أفلاكها بها وهي ألف وثمانية وعشرون فلكاً كلها تذهب، وتبقى السباحة للكواكب بذاتها مطموسة الأنوار، ويبقى في الآخرة في الجنة حكم البروج وحكم مقادير العقل عنها يحدث في الجنان ما يحدث ويثبت.

وأما كثيب المسك الأبيض الذي في جنة عدن الذي تجتمع فيه الناس للرؤية يوم الزور الأعظم وهو يوم الجمعة فأيامه من أيام أسماء الله ولا علم لي ولا لأحد بها، فإن الله أسماء استأثر بها في علم غيبه فلا تعلم أيامها، فعدن بين الجنات كالكعبة بيت الله بين بيوت الناس،

والزور الأعظم فيه كصلاة الجمعة، والزور الخاص كالصلوات الخمس في الأيام، والزور الأخلص الأخص كمساجد البيوت لصلاة النوافل، فتزور الحق على قدر صلاتك وتراه على قدر حضورك، فأدناه الحضور في النية عند التكبير وعند الخروج من الصلاة، وأعظمه استصحاب الحضور إلى الخروج من الصلاة وما بينهما في كل صلاة، فهنا مناجاة وهناك مشاهدة وهنا حركات وهناك سكون، ولهذا الاسم من الحروف الشين المعجمة، ومن المنازل الجبهة. انتهى الجزء الثالث والعشرون ومائة.

(الجزء الرابع والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الحادي والعشرون: في الاسم الرب وتوجهه على إيجاد السماء الأولى والبيت المعمور والسدرة والخليل ويوم السبت وحرف الياء بالنقطتين من أسفل والخرتان وكيوان.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فما طلب الزيادة من العلم إلاّ من الرب، ولهذا جاء مضافاً لاحتياج العالم إليه أكثر من غيره من الأسماء لأنه اسم لجميع المصالح وهو من الأسماء الثلاثة الأمّهات فجاء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٨] ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الدخان: الآية ٧] ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤٠] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٧] ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٨] ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ وهو المتخذ وكيلاً. وهذا الاسم أعطى السدرة نبقها وخضرتها ونورها منه ومن الاسم الله، وأعطى الاسم الرحمن من نفسه عرفها كما قال في الجنة عرفها لهم يعني بالنفس من العرف وهي الرائحة، ومن الاسم الله أصولها وزقومها لأهل جهنم، وقد جلّل الله هذه السدرة بنور الهوية فلا تصل عين إلى مشاهدتها فتحدها أو تصفها والنور الذي كساها نور أعمال العباد ونبقها على عدد نسم السعداء، لا بل على عدد أعمال السعداء، لا بل هي أعيان أعمال السعداء، وما في جنة الأعمال قصر ولا طاق إلاّ وغصن من أغصان هذه السدرة داخل فيه، وفي ذلك الغصن من النبق على قدر ما في العمل الذي هو الغصن صورته من الحركات، وما من ورقة في ذلك الغصن إلاّ وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع الله في ذلك العمل، وأوراق الغصن بعدد الأنفاس في ذلك العمل، وشوك هذه السدرة كله لأهل الشقاء وأصولها فيهم والشجرة واحدة ولكن تعطي أصولها النقيض ممّا تعطيه فروعها من كل نوع، فكل ما وصفنا به الفروع حد النقيض في الأصول هذا كثير الوقوع في علم النبات. كما حكي أن أبا العلا بن زهر وكان من أعلم الناس بالطب ولا سيما بعلم الحشائش. وأبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان دون ابن زهر في معرفة الحشائش إلاّ أنه كان أفضل منه في العلم الطبيعيّ وكان يتخيل في زعمه أنه أعلم من ابن زهر في علم الحشائش فركبا يوماً فمرّا بحشيشة فقال ابن زهر لغلامه: اقطع لنا من هذه الحشيشة وأشار إلى حشيشة معينة فأخذ شيئاً منها وفتلها في يده وقرّبها من أنفه كأنه يستنشقها ثم قال لأبي بكر: انظر ما

أطيب ريح هذه الحشيشة، فاستنشقها أبو بكر فرعف من حينه فما ترك شيئاً يمكن في علمه أن يقطع به الرعاف ممّا هو حاضر إلاّ وعمله وما نفع حتى كاد يهلك وأبو العلاء يتبسم ويقول: يا أبا بكر عجزت؟ قال: نعم، فقال أبو العلا لغلامه: استخرج لي أصول تلك الحشيشة فجاء بها فقال له: يا أبا بكر استنشقها فاستنشقها أبو بكر فانقطع الدم عنه فعلم فضله عليه في علم الحشائش.

وأسعد الناس بهذه السدرة أهل بيت المقدس، كما أن أسعد الناس بالمهدي أهل الكوفة، كما أنه أسعد الناس برسول الله ﷺ أهل الحرم المكي، كما أنه أسعد الناس بالحق أهل القرآن. وإذ أكل أهل السعادة من هذه الشجرة زال الغل من صدورهم ومكتوب على ورقها: سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وإلى هذه السدرة تنتهي أعمال بني آدم، ولهذا سميت سدرة المنتهى، وللحق فيها تجلّ خاص عظيم يقيد الناظر ويحير الخاطر وإلى جانبها منصة وتلك المنصة مقعد جبريل عليه السلام، وفيها من الآيات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال رسول الله ﷺ فيها: «**أَنَّها غَشِيَهَا مِنْ نُورِ اللَّهِ مَا غَشِيَ**» فلا يستطيع أحد أن ينعتها إنما ينظر الناظر إليها فيدركه البهت.

وأوجد الله في هذه السماء البيت المعمور المسمّى بالضراح وهو على سمت الكعبة كما ورد في الخبر: «**لَوْ سَقَطَتْ مِنْهُ حَصَاةٌ لَوَقَعَتْ عَلَى الكَعْبَةِ**» وهذا البيت في هذه السماء والسماء ساكنة لا حركة فيها ولهذا لا ينتقل البيت من سمت الكعبة لأنّ الله جعل هذه السموات ثابتة مستقرة هي لنا كالسقف للبيت ولهذا سمّاها السقف المرفوع، إلاّ أنه في كل سماء فلك وهو الذي تحدثه سباحة كوكب ذلك السماء، فالكواكب تسبح في أفلاكها لكل كوكب فلك فعدد الأفلاك بعدد الكواكب، يقول تعالىٰ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٣] وأجرام السموات أجرام شفافة وهي مسكن الملائكة والأفلاك لولا سباحة الكواكب ما ظهر لها عين في السموات فهي فيها كالطرق في الأرض تحدث كونها طريقاً بالماشي فيها فهي أرض من حيث عينها طريق من حيث المشي فيها، وهذا البيت له بابان يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون على الباب الذي يقابله ولا يعودون إليه أبداً يدخلون فيه من الباب الشرقي لأنه باب ظهور الأنوار ويخرجون من الباب الغربي لأنه باب ستر الأنوار المذهبة فيحصلون في الغيب فلا يدري أحد حيث يستقرّون، وهؤلاء الملائكة يخلقهم الله في كل يوم من نهر الحياة من القطرات التي تقطر من انتفاض جبريل لأنّ الله قد جعل له في كل يوم غمسة في نهر الحياة، وبعدد هؤلاء الملائكة في كل يوم تكون خواطر بني آدم، فما من شخص مؤمن ولا غيره إلاّ ويخطر له سبعون ألف خاطر في كل يوم لا يشعر بها إلاّ أهل الله وهؤلاء الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور يجتمعون عند خروجهم منه مع الملائكة الذين خلقهم الله من خواطر القلوب، فإذا اجتمعوا بهم كان ذكرهم الاستغفار إلى يوم القيامة، فمن كان قلبه معموراً بذكر الله مستصحباً كانت الملائكة المخلوقة من خواطره تمتاز عن الملائكة التي خلقت من خواطر قلب ليس له هذا المقام، وسواء كان الخاطر فيما ينبغي أو فيما لا

ينبغي فالقلوب كلها من هذا البيت خلقت فلا تزال معمورة دائماً، وكل ملك يتكونّ من الخاطر يكون على صورة ما خطر سواء.

وخلق الله في هذه السماء كوكباً وأوحى فيها أمرها وأسكنها إبراهيم الخليل وجعل لهذا الكوكب حركة في فلكه على قدر معلوم، من أعجب المسائل مسألة هذه الحركات فإنها من خفيّ العلم فإنه يعطي أنه لا يستحيل مؤثر فيه بين مؤثرين، لأنّ مثل هذه الحركة لهذا الكوكب يكون عن حكمين مختلفين: حكم قسري وحكم إراديّ أو طبيعيّ، وذلك له مثال ظاهر وهو أنه إذا كان حيوان على جسم قاصداً جهة بحركته من هذا الجسم وتحرّك الجسم إلى غير تلك الجهة فتحرك الحيوان إلى جهة حركة هذا الجسم مع حركته إلى النقيض فيجمع بين حركتين متقابلتين معاً في زمان واحد، فهو يقطع في ذلك الجسم الذي هو عليه والجسم يقطع به في جسم آخر فيقطع الحيوان فيه بحكم التبعية كنملة على ثوب مطروح في الأرض تمشي فيه مشرقة ويجذب جاذب ذلك الثوب إلى جهة الغرب فتكون متحرّكة إلى جهة الشرق في الآن الذي تتحرّك فيه بتحرّك الثوب إلى جهة الغرب فهي حركة قهرية لها غالبة عليها وهاتان حركتان متقابلتان في آن واحد، فانظر هل لاجتماع الضدين وجوه في هذه المسألة أم لا؟ فإن الكواكب تقطع في الفلك في رأي العين من الغرب إلى الشرق، والفلك الأكبر المحيط يقطع بها من الشرق إلى الغرب، فالكوكب متحرّك من الشرق إلى الغرب في الآن الذي هو فيه متحرّك من الغرب إلى الشرق، ففلكه الذي تحدثه حركته شرقاً عين فلكه الذي تحدثه حركته غرباً، فهذه مثل مسألة الجبر في عين الاختيار، فالعبد مجبور في اختياره، ومن هذه المسألة تعرف أفعال العباد لمن هي منسوبة بحكم الخلق هل ينفرد بها أحد القادرين أو هل هي لقادرين؟ لكل قادر فيها نسبة خاصة بها وقع التكليف، ومن أجلها كان العقاب والثواب، وقد ذكرنا ما لهذا الفلك من الأثر في قلوب العارفين وذكر غيرنا، وذكرنا ما له من الأثر في عالم الخلق من الكون والفساد وهو عالم الأركان والمولدات كل ذلك من هذا النفس الرحماني لأنه يعطي الحركات والحركة سبب الوجود، ألا ترى الأصل لولا توجه الإرادة وهي حركة معنوية والقول وهو حركة معنوية، وبها سميت اللفظة لفظة لهذه الحركة ما ظهر وجود.

ومن هذا الفلك أعطى الله وجود يوم السبت وهو يوم الأبد فليله في الآخرة لا انقضاء له، ونهاره أيضاً في المحل الثاني لا انقضاء له وفيه تحدث الأيام السبعة ومنها السبت، وهذا من أعجب الأمور أيضاً أن الأيام التي منها السبت تحدث في يوم السبت فهو من جملة الأيام وفيه يظهر الأيام. ولهذا مستند في الحقيقة الإلهية وذلك أن الترمذي خرج في غريب الحسان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: **«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ لَهُ الحَقُّ: قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ فَقَالَ: الحَمْدُ للَّهِ فَحَمِدَ اللَّه بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ لِهٰذا خَلَقْتُكَ»** هذه الزيادة ليست من الترمذي، ثم رجعنا إلى حديث الترمذي: **«يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلى أُولٰئكَ الملائِكَةِ إِلى مَلإٍ منهم جُلُوسٍ فَقُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجعَ إِلى رَبِّهِ فَقَالَ: إِنَّ هٰذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ**

أَيَّهما شِئْتَ قالَ: اخترْتُ يَمينَ رَبِّي وَكِلْتَا يدي رَبِّي يَمينٌ مُبَارَكَةٌ وَبَسَطَهَا وإِذَا فِيها آدَمُ وَذُرِيَّتُهُ» الحديث، فهذا آدم في تلك القبضة في حال كونه خارجاً عنها وهكذا عين هذه المسألة. وإذا نظرت وجدت العالم مع الحق بهذه المثابة موضع حيرة هو لا هو ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] فختم بما به بدأ، فياليت شعري من الوسط فإنه وسط بين نفي وهو قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ وبين إثبات وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وهو قوله: ما أنت إذ أنت لكن الله أنت، فهذا معنى قولنا في كلامنا في الظاهر والمظاهر وأنه عينه مع اختلاف صور المظاهر فنقول في زيد أنه واحد مع اختلاف أعضائه فرجله ما هي يده وهي زيد في قولنا زيد وكذلك أعضاؤه كلها وباطنه وظاهره وغيبه وشهادته مختلف الصور وهو عين زيد ما هو غير زيد، ثم تضاف كل صورة إليه ويؤكد بالعين والنفس والكل والجمع، وفي هذا الفلك عين الموت ومعدن الراحة وسرعة الحركة في ثبات وطرح الزينة والأذى وله حصل هذا الكوكب في برج الأسد وهو نقيضه في الطبع ونظيره في الثبوت، ومن هنا يعرف قول من قال: إن المثلين ضدان هل أخطأ أو أصاب؟ وإذا نزل الكوكب في البرج هل يمتزج الحكم فيكون للمجموع حكم ما هو لكل واحد منهما على انفراد أو يغلب حكم المنزلة والبرج على الكوكب النازل فيه، أو يغلب حكم الكوكب على البرج أو يتصف أحدهما بالأكثر في الحكم والآخر بالأقل مع وجود الحكمين؟ فعندنا لا يحكم واحد في آخر، وإن حكم جمعيتهما يظهر في المحكوم فيه ولكل واحد منهما قوّة في ذلك المحكوم فيه بذلك الحكم لأنه عنهما صدر ذلك الحكم من حالة تسمّى الاجتماع كما يكون ذلك في الاقترانات بين الكواكب، وهذا نوع من الاقتران وليس باقتران ولكنه نزول في منزل.

الفصل الثاني والعشرون: في الاسم العليم وتوجهه على إيجاد السماء الثانية وخانسها ويوم الخميس وموسىٰ عليه السلام، وحرف الضاد المعجمة والصرفة من المنازل.

قال الله تعالىٰ آمراً لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] الكلام في كون هذه السماء وباقي السموات والأفلاك كما تقدم، غير أني أشير إلى ما يختص به كل سماء خاصة من الحكم، فأمّا هذه السماء فأوحى الله فيها أمرها وتفصيل أمر كل سماء يطول، وقد ذكرنا من ذلك طرفاً جيداً في التنزلات الموصلية، فمن أمرها حياة قلوب العلماء بالعلم واللين والرفق وجميع مكارم الأخلاق ولذلك لم ينبه أحد من سكان السموات من أرواح الأنبياء عليهم السلام رسول الله ﷺ ليلة فرض الله على أمته ﷺ خمسين صلاة غير موسىٰ عليه السلام فإنه قال له: راجع ربك، فإنه كان أعلم منه بهذه الأمور لذوقه مثله في بني إسرائيل وما ابتلي به منهم فتكلم عن ذوق وخبرة، فكل شيخ لا يتكلم في العلوم عن ذوق ومجلى إلهيّ لا عن كتب ونقل فليس بعالم ولا أستاذ فلولاه لكان الفرض علينا في الصلاة خمسين صلاة مع كونه أرسله الله رحمة للعالمين، ومن كثر تكليفه قلّت رحمته فقيض الله له في مدرجة إسرائه موسىٰ عليه السلام فخفف الله عن هذه الأمة به ﷺ، فهذا ما كان إلاّ من حكم أمر هذه السماء الذي أوحى الله فيها أمرها ولها من الأيام يوم الخميس، فكل سر يكون للعارفين وعلم وتجلّ

فمن حقيقة موسىٰ من هذه السماء، وكل أثر يظهر في الأركان والمولدات يوم الخميس فمن كوكب هذه السماء وحركة فلكها مجملاً من غير تفصيل ولها الضاد المعجمة ومن المنازل الصرفة، فأما وجود الحروف المذكورة في كل سماء فلتلك السماء أثر في وجودها، وأما قولنا أن لها من المنازل الصرفة أو كذا لكل سماء فلسنا نريد أن لها أثراً في وجود المنزلة كما أردنا بالحرف، وإنما أريد بذلك أن هذا الكوكب الخاص بهذا الفلك أوّل ما أوجده الله وتحرّك أوجده في المنزلة التي نذكرها له بعينها فهي منزلة سعده حيث ظهر فيها وجوده، فهذا معنى قولي له من المنازل كذا ولكل سماء وفلك أثر في معدن من المعادن السبعة يختص به وينظر إلى ذلك المعدن بقوته.

الفصل الثالث والعشرون: في الاسم القاهر. توجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء الثالثة، فأظهر عينها وكوكبها وفلكه وجعلها مسكن هارون عليه السلام، وبهذا الاسم الإلهيّ أوحى فيها أمرها وكان وجود كوكبها حركة فلكه في منزلة العوا يوم الثلاثاء، فمن الأمر الموحى فيها إهراق الدماء والحميات، وعن حركة هذا الفلك ظهر حرف اللام من الحروف اللفظية، فكل علم وسرّ من الأسرار الإلهيّة يظهر على العارفين يوم الثلاثاء فهو من هذه السماء من روح هارون، وكل أثر في الأركان والمولدات فمن أمر هذا الفلك وحركة كوكبه فإن الله لما أوحى في كل سماء أمرها أوحى بالاسم الإلهيّ الخاص بذلك فذلك الاسم هو الممدّ لها.

الفصل الرابع والعشرون: في الاسم النور. وتوجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء الرابعة وهي قلب العالم وقلب السموات فأظهر عينها يوم الأحد وأسكن فيها قطب الأرواح الإنسانية وهو إدريس عليه السلام، وسمّي الله هذه السماء مكاناً علياً لكونها قلباً، فإن التي فوقها أعلى منها فأراد علوّ مكانة المكان، فلهذا المكان من المكانة رتبة العلو، وأوجدها في منزلة السماك وأظهر كوكبها وفلكه وكوّن حرف النون عنها وأظهر بحركة كوكبها الليل والنهار، فقسم اليوم فتقسم فيه الحكم الإلهيّ في العالم فجعل كل واحد منهما أنثى والآخر ذكراً لإنتاج ما يظهر في الأركان من المولدات، فكل ما ولد وظهر من الآثار عموماً في الأيام كنها بالنهار فأمه النهار وأبوه الليل، وما ظهر من ذلك بالليل فأمه الليل وأبوه النهار فيولج الليل في النهار إذا كان النهار أنثى ويولج النهار في الليل إذا كان الليل أنثى، وقد بيّنا ذلك في كتاب الشأن، فكل ما ظهر من العلم والآثار في المولدات يوم الأحد فمن هذه السماء وساكنها لا بل في كل يوم وفي كل العالم الذي تحت حيطته ولا يخنس كوكبها.

الفصل الخامس والعشرون: في الاسم المصور. توجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء الخامسة وفلكها وكوكبها، وكان ظهور ذلك في منزلة الغفر، وأوحى فيها إظهار صور الأرواح والأجسام والعلوم في العالم العنصري، واختصّت بالأثر الكامل بطريق التولية بيوم الجمعة، وأسكن فيها يوسف عليه السلام وعنها ظهر حرف الراء.

الفصل السادس والعشرون: في الاسم المحصي. قال تعالىٰ: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾

[سورة الجن: الآية ٢٨] يريد موجوداً وتوجه هذا الاسم الإلهيّ على إيجاد السماء السادسة وكوكبها وفلكها يوم الأربعاء في منزلة الزبانا، وأسكن فيها عيسىٰ عليه السلام، فكل ما ظهر في يوم الأربعاء في العالم العنصري من الآثار الحسيّة والمعنوية وما يحصل للعارفين في قلوبهم من ذلك فمن وحي هذه السماء ومنها ظهر حرف الطاء المهملة.

الفصل السابع والعشرون: في الاسم المبين. توجه هذا الاسم على إيجاد السماء الدنيا وكوكبها وفلكها يوم الاثنين في منزلة الإكليل، وعن حركة هذا الفلك حرف الدال المهملة، وله كل حكم يظهر في العالم يوم الاثنين روحاً وجسماً وهذا كله بنهار ذلك اليوم لا بليله، فإن ليلة كل يوم ما هي الليلة التي يكون ذلك اليوم في صبيحتها ولا الليلة التي تكون بغروب شمسه في ذلك اليوم، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الشأن، وإنما ليلته التي لذلك اليوم هي في أول ساعة من الليل الذي هو حاكم في أول ساعة من النهار، فذلك يوم تلك الليلة، وتلك الليلة ليلة ذلك اليوم فهذا أريد.

اعلم أن هذه السماء الدنيا أوحى الله فيها أمرها وأسكنها آدم وهو الإنسان الفرد أصل هذا النوع وهو قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١] إلاَّ أنه جعله الله أعني الإنسان سريع التغيير في باطنه كثير الخواطر، يتقلب في باطنه في كل لحظة تقلبات مختلفة لأنه على الصورة الإلهيّة وهو سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فمن المحال ثبوت العالم زمانين على حالة واحدة، بل يتغير عليه الأحوال والأعراض في كل زمان فرد وهو الشؤون التي هو الحق فيها لمن علم ما قال الله، ولا يظهر سلطان ذلك إلاَّ في باطن الإنسان فلا يزال يتقلب في كل نفس في صور تسمى الخواطر لو ظهرت إلى الأبصار لرأيت عجباً، وأسرع الحركات الفلكية حركة هذا الفلك بكوكبه الذي هو القمر، فهو أسرع سير في قطع فلك المنازل من غيره من السيارة وله في كل يوم منزلة فيقطع الفلك في ثمانية وعشرين يوماً، فكان ظهور الأثر في الكون سريعاً لسرعة الحركة فناسب آدم في سرعة خواطره فأسكنه هذه السماء، وجعل نسم بنيه عن يمينه ويساره أسودة يرى شخوصها أهل الكشف، وعن يمينه عليون، وعن يساره السفل، فلا يخفى عنه من أحوال بنيه شيء.

واعلم أن هذه الحقيقة التي جعلته يسمى إنساناً مفرداً هي في كل إنسان ولكن كانت في آدم أتم لأنه كان ولا مثل له، ثم بعد ذلك انتشأت منه الأمثال فخرجت على صورته، كما انتشأ هو من العالم ومن الأسماء الإلهيّة فخرج على صورة العالم وصورة الحق فوقع الاشتراك بين الأناسي في أشياء وانفرد كل شخص بأمر يمتاز به عن غيره كما هو العالم، فبما ينفرد به الإنسان يسمّى الإنسان المفرد، وبما يشترك به يسمّى الإنسان الكبير، ولما كان آدم أبا البشر كانت منه رقيقة إلى كل إنسان ونسبة، ولما كان هو من العالم ومن الحق بمنزلة بنيه منه كانت فيه رقيقة ممن كل صورة في العالم تمتد إليه لتحفظ عليه صورته ورقيقة من كل اسم إلهي تمتد إليه لتحفظ عليه مرتبته وخلافته، فهو يتنوع في حالاته تنوع الأسماء الإلهيّة، ويتقلب في أكوانه تقلب العالم كله، وهو صغير الحجم لطيف الجرم سريع الحركة، فإذا تحرك حرك

جميع العالم، واستدعى بتلك الحركة توجه الأسماء الإلهيّة عليه لترى ما أراد بتلك الحركة فتفضي في ذلك بحسب حقائقها، ولم يكن في الأفلاك أصغر من فلك سماء الدنيا فأسكنه الله فيها للمناسبة، ولصغر هذا الفلك كان أسرع دورة فناسب سرعة الخواطر التي في الإنسان فأسكنه فيه من حيث إنَّه إنسان مفرد خاصة لا من حيث اشتراكه، ثم إنه جعل الله له من بنيه في كل سماء شخصاً وهو عيسىٰ ويوسف وإدريس وهارون ويحيىٰ وموسىٰ وإبراهيم عليهم السلام، فهو ناظر إليهم في كل يوم بما هو أب لهم، وهم ناظرون إليه من حيث ما هم في منازل معينة لا من حيث هم أبناء له.

وهذا الإنسان المفرد يقابل بذاته الحضرة الإلهيّة، وقد خلقه الله من حيث شكله وأعضاؤه على جهات ستة ظهرت فيه، فهو في العالم كالنقطة من المحيط، وهو من الحق كالباطن، ومن العالم كالظاهر، ومن القصد كالأول، ومن النشء كالآخر، فهو أول بالقصد، آخر بالنشء، وظاهر بالصورة، وباطن بالروح، كما أنه خلقه الله من حيث طبيعته وصورة جسمه من أربع، فله التربيع من طبيعته إذ كان مجموع الأربعة الأركان، وأنشأ جسده ذا أبعاد ثلاثة من طول وعرض وعمق فأشبه الحضرة الإلهيّة ذاتاً وصفات وأفعالاً، فهذه ثلاث مراتب: مرتبة شكله وهو عين جهاته، ومرتبة طبيعته، ومرتبة جسمه، ثم إنّ الله جعل له مثلاً وضداً وما ثم سوى هذه الخمسة، واختصّ بالخمسة لأنه ليس في الأعداد من له الاسم الحفيظ إلاّ هي وهي تحفظ نفسها وغيرها بذاتها وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فثنى وهو قولنا: تحفظ نفسها وغيرها، فأما كونه ضداً فبما هو عاجز جاهل قاصر ميت أعمى أخرس ذو صمم فقير ذليل عدم، وبما هو مثل ظهوره بجميع الأسماء الإلهيّة والكونية فهو مثل للعالم ومثل للحضرة فجمع بين المثليتين وليس ذلك لغيره من المخلوقين، فهو حيّ عالم مريد قادر سميع بصير متكلم عزيز غني إلى جميع الأسماء الإلهيّة كلها والأسماء الكونية، فله التخلق بالأسماء، فله حالات خمس يقابل بها كل ما سواه بحسب ما ينظرون إليه إذ هو الكلمة الجامعة، وأعطاه الله من القوّة بحيث أنه ينظر في النظرة الواحدة إلى الحضرتين فيتلقى من الحق ويلقي إلى الخلق، فمنهم الناظر إليه من حيث شكله فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالشكل. ومنهم الناظر إليه من حيث طبيعته فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالطبع، كما يمده الحق في شكله من اسمه المحيط، وفي طبيعته من حياته وعلمه وإرادته وقدرته. ومنهم من ينظر إليه من حيث جسمه فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالجسم، كما يمده الحق من حضرته بما يظهر في ذاته وصفاته وأفعاله. ومنهم الناظر إليه كفاحاً لا منازعة فيمده من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بالمكافحة، كما يمده الحق من اسمه البعيد والمعزّ إن كان ذليلاً، والمذل إن كان عزيزاً. ومنهم الناظر إليه من حيث إنه مثّل له في المرتبة، فإنه بالمرتبة كان خليفة وقد شورك فيها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٩] وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] فهم نوّاب الحق في عباده، فيمدّهم من ذلك المقام بأمور خاصة تختص بتلك المثلية، كما

يمدّه الحق من صورته بجميع أسمائه وليس إلاَّ هذه، وقد قسم الله خلقه إلى شقي وسعيد، وجعل مقرّ عباده في دارين: دار جهنم وهي دار كل شقي، ودار جنان وهي دار كل سعيد، وسمّوا هؤلاء أشقياء لأنهم أقيموا فيما يشق عليهم وهو المخالفة، وسمّوا هؤلاء سعداء لأنهم أقيموا فيما يسهل عليهم وهو المساعدة والموافقة، فمن كان مع الله على مراد الله فيه وفي خلقه لم يشق عليه شيء ممّا يحدث في العالم.

حكي عن رابعة رضي الله عنها أنه ضرب رأسها ركن جدار فأدماها فما التفتت فقيل لها في ذلك فقالت: شغلي بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما ترون من شاهد الحال، فما شق عليها ما جرى فلو شق عليها لتعذبت في نفسها منها. فالأشقياء ليس لهم عذاب إلاَّ منهم لأنهم أقيموا في مقام الاعتراض والتعليل لأفعال الله في عباده، ولأيّ شيء كان كذا ولو كان كذا كان أحسن وأليق، ونازعوا الربوبية وشاقوا الله ورسوله فشقاؤهم شقاقهم فهي دار الأشقياء بدخولها في هذه الحال، فإذا طال عليهم الأمد تغيّر الحال لأن طول الأمد له حكم بقوله تعالىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٦] فإذا طال الأمد على الأشقياء وعلموا أن ذلك ليس بنافع قالوا: فالموافقة أولى فتبدّلت صورهم، فأثر ذلك التبديل هذا الحكم فزالت المشاققة فارتفع العذاب عن بواطنهم فاستراحوا في دارهم ووجدوا في ذلك من اللذة ما لا يعلمه إلاَّ الله لأنهم اختاروا ما اختار الله لهم، وعلموا عند ذلك أن عذابهم لم يكن إلاَّ منهم، فحمدوا الله على كل حال فأعقبهم ذلك أن يحمدوا الله المنعم المتفضل.

ثم إن لهذا الإنسان المفرد الذي هو آدم ولكل إنسان أقيم فيما هو منفرد به نظر آخر إلى منازل السعداء وهي التي عيّنها الفلك المكوكب وهي منازل الجنان ومنازل النار، فإن الجنة مائة درجة والنار مائة درك على عدد الأسماء الإلهيّة فهي بحكم الاشتراك تسعة وتسعون اسماً ينالها كل إنسان بما هو مشارك غيره، والاسم الموفي مائة وهو وتر الغيب كما كانت التسعة والتسعون وتر الشهادة لأن الله وتر يحب الوتر، فالاسم الموفي مائة مفرد منه يتجلى الحق للإنسان المفرد إذا كان مع الأمر الذي يسمّى به إنساناً مفرداً، وإذا كان مع هذا الاسم الفرد كانت منازله ثمانياً وعشرين منزلة لأن حروف نفسه ثمانية وعشرون حرفاً ظهر منها في مقام الجمع والوجود علامات تدل على الحق وهي خمس آلاف علامة وثمانمائة علامة وثمان وثلاثون علامة، وهذه كلها منازل في هذه المنازل، ولهذا يقال يوم القيامة لقارىء القرآن: اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ، ولهذا تمدّح أبو يزيد بأنه ما مات حتى استظهر القرآن.

وينبغي لقارىء القرآن إذا لم يكن من أهل الكشف ولا من أهل التعليم الإلهيّ أن يبحث ويسأل علماء الرسوم أي شيء يثبت عندهم أو رأوه أنه كان قرآناً ونسخ لفظه من هذا المصحف العثماني ولا يبالي إذا قالوا له كذا وكذا صحيحاً كان الطريق إلى ذلك أو غير صحيح فينبغي أن يحفظه فإنه يزيد بذلك درجات، وقد اختلفت المصاحف فهذا ينفعه ولا

يضره، فإن هذا الذي بأيدينا هو قرآن بلا شك ونعلم أنه قد سقط منه كثير، فلو كان رسول الله ﷺ هو الذي جمعه لوقفنا عنده وقلنا هذا وحده هو الذي تتلوه يوم القيامة إذا قيل لقارىء القرآن: اقرأ وارق، والاحتياط فيما قلناه، ولكن لا أريد بذلك أنه يصلي به وإنما يحفظه خاصة فإنه ليس بمتواتر مثل هذا، وما نازع أحد من الصحابة في مصحف عثمان أنه قرآن فإذا حصل الإنسان بما انفرد به في منزلة من هذه المنازل فإنها تعطيه حقيقة ما هي عليه ممّا وضعها الله له من الأمور الظاهرة في أفعال العباد في حركاتهم وسكونهم وتصرفاتهم، وما منعني من تعيينها إلاّ ما يسبق إلى القلوب الضعيفة من ذلك ووضع الحكمة في غير موضعها فإن الحافظين أسرار الله قليلون، وإذا وفى الإنسان المفرد علم هذه الأمور ودخل الجنات الثمانية ورأى الكثيب الأبيض وعاين درجات الناس في الرؤية وتميز مراتبهم ومنازلهم في ذلك ونظر إلى التكوينات الجنانية والرقائق الممتدة إليها من فلك البروج علم أن لله أسراراً في خلقه فأراد أن يعرفه آثار ذلك فارتقى بنفسه إلى هذا الفلك ودار معه دورة واحدة لكل برج حتى أكمل اثنتي عشرة دورة ونظر بحلوله في كل دورة ما يعطي من الأثر في جنات النعيم، وفي جهنم، وفي عالم الدنيا، وفي البرزخ، وفي يوم القيامة، وفي أحوال الكائنات العرضيات في العالم والخاصة بجسد الإنسان وروحه والمولدات، وربما نشير إلى شيء من هذه الأسرار متفرقاً في هذا الكتاب في المنازل منه إن شاء الله تعالىٰ.

وجميع الأسماء الإلهيّة المختصة بهذا الإنسان الموصوف بهذه الصفة التي ينزل بها هذه المنازل معلومة محصاة وهي: الرفيع الدرجات، الجامع، اللطيف، القوي، المذل، رزاق، عزيز، مميت، محيي، حي، قابض، مبين، محص، مصوّر، نور، قاهر، عليم، رب، مقدّر، غنيّ، شكور، محيط، حكيم، ظاهر، باطن، باعث، بديع. ولكل اسم من هذه الأسماء روحانية ملك تحفظه وتقوم به، وتحفظها لها صور في النفس الإنساني تسمّى حروفاً في المخارج عند النطق وفي الخط عند الرقم فتختلف صورها في الكتابة ولا تختلف في الرقم، وتسمّى هذه الملائكة الروحانيات في عالم الأرواح بأسماء هذه الحروف فلنذكرها على ترتيب المخارج حتى تعرف رتبتها: فأوّلهم ملك الهاء ثم الهمزة، وملك العين المهملة، وملك الحاء المهملة، وملك العين المعجمة، وملك الخاء المعجمة، وملك القاف وهو ملك عظيم رأيت من اجتمع به، وملك الكاف، وملك الجيم، وملك الشين المعجمة، وملك الياء، وملك الضاد المعجمة، وملك اللام، وملك النون، وملك الراء، وملك الطاء المهملة، وملك الدال المهملة، وملك التاء المعجمة باثنتين من فوقها، وملك الزاي، وملك السين المهملة، وملك الصاد المهملة، وملك الظاء المعجمة، وملك الثاء المعجمة بالثلاث، وملك الذال المعجمة، وملك الفاء، وملك الباء، وملك الميم، وملك الواو. وهذه الملائكة أرواح هذه الحروف، وهذه الحروف أجساد تلك الملائكة لفظاً وخطاً بأي قلم كانت، فبهذه الأرواح تعمل الحروف لا بذواتها أعني صورها المحسوسة للسمع والبصر المتصوّرة في الخيال، فلا يتخيل أن الحروف تعمل بصورها وإنما تعمل بأرواحها، ولكل حرف تسبيح

وتمجيد وتهليل وتكبير وتحميد يعظم بذلك كله خالقه ومظهره وروحانيته لا تفارقه، وبهذه الأسماء يسمون هؤلاء الملائكة في السموات، وما منهم ملك إلاً وقد أفادني.

وكذلك هذه الكواكب التي ترونها إنما هي صور لها أرواح ملكية تدبرها مثل ما لصورة الإنسان، فبروحه يفعل الإنسان وكذلك الكوكب والحرف لولا الروح ما ظهر منه فعل، فإن الله سبحانه ما يسوّي صورة محسوسة في الوجود على يد من كان من إنسان أو ريح إذا هبت فتحدث أشكالاً في كل ما تؤثر فيه حتى الحية والدودة تمشي في الرمل فيظهر طريق، فذلك الطريق صورة أحدثها الله بمشي هذه الدودة أو غيرها فينفخ الله فيها روحاً من أمره لا يزال يسبحه ذلك الشكل بصورته وروحه إلى أن يزول فتنتقل روحه إلى البرزخ وذلك قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٦] وكذلك الأشكال الهوائية والمائية لولا أرواحها ما ظهر منها في انفرادها ولا في تركيبها أثر، وكل من أحدث صورة وانعدمت وزالت وانتقل روحها إلى البرزخ فإن روحها الذي هو ذلك الملك يسبح الله ويحمده ويعود ذلك الفضل على من أوجد تلك الصورة الذي كان هذا الملك روحها، فما يعرف حقائق الأمور إلاً أهل الكشف والوجود من أهل الله، ولهذا نبّه الله قلوب الغافلين ليتنبهوا على الحروف المقطعة في أوائل السور فإنها صور ملائكة وأسماؤهم، فإذا نطق بها القارىء كان مثل النداء بهم فأجابوه فيقول القارىء: ألف لام ميم، فيقول هؤلاء الثلاثة من الملائكة مجيبين ما تقول؟ فيقول القارىء ما بعد هذه الحروف تالياً، فيقولون: صدقت إن كان خيراً، ويقولون: هذا مؤمن حقاً نطق حقاً وأخبر بحق فيستغفرون له وهم أربعة عشر ملكاً: ألف لام ميم صاد راء كاف هاء ياء عين طاء سين حاء قاف نون، ظهروا في منازل من القرآن مختلفة، فمنازل ظهر فيها واحد مثل: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ومنازل ظهر فيها اثنان مثل ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿يسٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ وهي سبعة أعني الحواميم ﴿طه﴾ ومنازل ظهر فيها ثلاثة وهم ﴿الٓمٓ﴾ البقرة ﴿الٓمٓ﴾ آل عمران ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء والقصص والعنكبوت ولقمان والروم والسجدة. ومنها منازل ظهر فيها أربعة هم ﴿الٓمٓصٓ﴾ الأعراف ﴿الٓمٓر﴾ الرعد. ومنازل ظهر فيها خمسة وهي: مريم والشورى، وجميعها ثمان وعشرون سورة على عدد منازل السماء سواء، فمنها ما يتكرّر في المنازل، ومنها ما لا يتكرر، فصورها مع التكرار تسعة وسبعون ملكاً بيد كل ملك شعبة من الإيمان، «وأن الإيمان بضع وسبعون شعبة أرفعها لا إله إلاّ الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والبضع من واحد إلى تسعة فقد استوفى غاية البضع، فمن نظر في هذه الحروف بهذا الباب الذي فتحت له يرى عجائب، وتكون هذه الأرواح الملكية التي هذه الحروف أجسامها تحت تسخيره، وبما بيدها من شعب الإيمان تمدّه وتحفظ عليه إيمانه، وهذا كله من النفس الرحمانيّ الذي نفس الله به عن خلقه.

واعلم أن هذه الحروف الأربعة عشر التي في أوائل السور كل حرف منها له ظاهر وهو صورته، وله باطن وهو روحه، ولكل حرف ليلة من الشهر أعني الشهر الذي يعرف بالقمر

فإذا مشى القمر وقطع في سيره أربع عشرة منزلة أعطى في كل حرف من هذه الحروف من حيث صورها قوّتين من حيث ذاته ومن حيث نوره، وأعطاه قوّتين أخريين من حيث المنزلة التي نزل بها ومن حيث البرج الذي لتلك المنزلة ولكن بقدر ما لتلك المنزلة من البرج فيصير في ذلك الحرف أربع قوى، فيكون عمله أقوى من عمل كل واحد من أصحاب هذه القوىٰ، ويكون عمله في ظهور أعيان المطلوب، فإذا أخذ القمر في النقص فقد أخذ في روحانية هذه الحروف إلى أن يكملها بكمال المنازل فتلك ثمان وعشرون، والقوىٰ مثل القوىٰ إلاّ أنه يكون العمل غير العمل، فالعمل الظاهر في المنافع والعمل الثاني في دفع المضار، وفي قوّة النور الذي للقمر لهذا الحرف مراتب بحسب المنزلة والبرج الذي تكون فيه الشمس واتصالات القمر بالمنزلة في تسديسها وتربيعها وتثليثها ومقابلتها ومقارنتها، فتختلف الأحكام باختلاف ذلك، هذا للحرف من قوّة النور القمري، فالعمل بالحروف يحتاج إلى علم دقيق، فهذه القوىٰ تحصل للحرف من سير القمر، وقد ذكرنا حرف كل منزلة، وأما لام ألف فمرتبته مرتبة الجوهر وهو من الحروف المركبة أنزلوه منزلة الحرف الواحد لكمال نشأة الحروف، ولهذا الحرف ليلة السرار الذي يكون للقمر، فإن كسف القمر الشمس فذلك أسعد الحالات وأقواها في العمل بلام ألف، وإن لم يكسفها ضعف عمله بقدر ما نزل عنها، وكذلك اتصالات القمر بالخمسة لها أثر في الحرف على ما وقع عليه اتصاله بذلك الكوكب من الأحكام الخمسة كما كان حاله مع الشمس، ويعتبر العامل أيضاً شرف القمر وهبوطه وكونه خالي السير وبعيد النور وكونه مع الرأس وكونه مع الذنب، لأن الله ما قدر هذا ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] واختصه بالذكر سدى، بل ذلك لحكمة إلهية يعلمها من أوتي الحكمة التي هي الخير الكثير الإلهيّ، فإن الستة الباقية قدرها أيضاً منازل في نفس الأمر وما خصّها بالذكر، فلما دخل القمر في الذكر كان له من القوّة الإلهيّة والشرف في الولاية والحكم الإلهيّ ما ليس لغيره فإنه ما ذكر إلاّ بالحروف وبها نزل إلينا الذكر، فكان نسبته إلى الحروف أتم من نسبة غيره، فصار إمداده للحروف إمدادين: إمداد جزاء وشكر لأن بها حصل له الذكر، وإمداداً طبيعياً كإمداد سائر الستة لهذه الحروف، وإنما ذكرنا ما يختص بالقمر دون سائر الستة لأنها في سماء الدنيا وهو موضع القمر وهو في ليلة السرار بارد رطب، وفي ليلة الإبدار حار رطب لما فيه من النور فهو مائيّ هوائيّ وفيما بينهما بحسب ما فيه من النور فإن النور له الشرف، ولما اجتمع النار مع النور في الإحراق وقوّة الفعل في بقية العناصر لهذا افتخر إبليس على آدم وتكبّر عليه، فإن النار لا يقبل التبريد بخلاف بقية الأركان فإن الهواء يسخن وكذلك الماء وكذلك التراب، فللنار في نفس الأركان أثر ليس لواحد منها في النار أثر، وكذلك الماء له أثر في الهواء والتراب فيبرد الهواء ويزيد في رطوبته ويرطب التراب ويزيد في برودتها، وليس للهواء والتراب في هذين العنصرين أثر فأقوى الأركان النار وبعده الماء، فالحرارة للنار والبرودة للماء، ولهذا جعلهما فاعلين، والإثنين الآخرين منفعلين رطوبة الهواء ويبوسة التراب، سبحان الخبير العليم الخلاق مرتب الأمور ومقدرها لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

وفي ليلة تقييدي لهذا الفصل وهي الليلة الرابعة من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وستمائة الموافقة ليلة الأربعاء الذي هو الموفى عشرين من شباط رأيت في الواقعة ظاهر الهوية الإلهيّة وباطنها شهوداً محققاً ما رأيتها قبل ذلك من مشهد من مشاهدنا، فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم واللذة والابتهاج ما لا يعرفه إلاّ مَن ذاقه، فما كان أحسنها من واقعة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٢ ـ ٣] وصورتها مثالاً في الهامش كما هو، فمن صوّره لا يبد له، والشكل نور أبيض في بساط أحمر له نور أيضاً في طبقات أربع صورة وأيضاً روحها في ذلك البساط في الطرف الآخر في طبقات أربع، فمجموع الهوية ثمانية في طرفين مختلفين من بساط واحد، فأطراف البساط ما هي البساط ولا غير البساط، فما رأيت ولا علمت ولا تخيلت ولا خطر على قلبي صورة ما رأيت في هذه الهوية، ثم إنها لها حركة خفية في ذاتها أراها وأعلمها من غير نقلة ولا تغير حال ولا صفة.

الفصل الثامن والعشرون: في الاسم الإلهيّ القابض. وتوجهه على إيجاد ما يظهر في الأثير من ذوات الأذناب والإحتراقات ووجود حرف التاء المعجمة باثنتين من فوقها من الحروف، وله من المنازل منزلة القلب الأثير ركن النار، وهذه الأركان وجودها قبل وجود هذه الأفلاك من حيث ما تقول سموات لا من حيث ما هي أفلاك، وهو متصل بالهواء والهواء حار رطب، فيما في الهواء من الرطوبة إذا اتصل بهذا الأثير أثر فيه لتحرّكه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة، فبدت الكواكب ذوات الأذناب وذلك لسرعة اندفاعها تظهر في رأي العين تلك الأذناب، وإذا أردت تحقيق هذا فانظر إلى شرر النار إذا ضرب الهواء النار بالمروحة وغيرها يتطاير منها شرر أمثال الخيوط في رأي العين ثم تنطفي، كذلك هذه الكواكب، وجعلها الله من زمان بعث رسول الله ﷺ رجوماً للشياطين، فإن الشياطين وهم كفار الجن لهم عروج إلى السماء الدنيا يسترقون السمع أي ما تقوله الملائكة في السماء وتتحدّث به ممّا أوحى الله به فيها، فإذا سالك الشيطان أرسل الله عليه شهاباً رصداً ثاقباً، ولهذا يعطي ذلك الضوء العظيم الذي تراه ويبقى ذلك الضوء في أثره طريقاً، ورأيت مرة طريقه قد بقي ضوؤه ساعة وأزيد من ساعة وأنا بالطواف رأيته أنا وجماعة الطائفين بالكعبة وتعجب الناس من ذلك وما رأينا قط ليلة أكثر منها ذوات أذناب الليل كله إلى أن أصبح حتى كانت تلك الكواكب لكثرتها وتداخل بعضها على بعض كما يتداخل شرر النار تحول بين أبصارنا وبين رؤية الكواكب فقلنا: ما هذا إلاّ لأمر عظيم، فبعد قليل وصل إلينا أن اليمن ظهر فيه حادث في ذلك الوقت الذي رأينا هذا وجاءتهم الريح بتراب شبيه التوتيا كثير إلى أن عمّ أرضهم وعلا على الأرض إلى حدّ الركب وخاف الناس وأظلم عليهم الجوّ بحيث أن كانوا يمشون في الطرق في النهار بالسرج وحال تراكم الغمام بينهم وبين نور الشمس، وكانوا يسمعون في البحر بزبيد دوياً عظيماً وذلك في سنة ستمائة أو تسع وتسعين وخمسمائة الشك مني فإني ما قيدته حين رأيت ذلك، وما قيدته في هذا المكان إلاّ في سنة سبع وعشرين وستمائة ولذلك أصابني الشك لبعد الوقت لكنه معروف عند الخاص والعام من أهل الحجاز

واليمن، ورأينا في تلك السنة عجائب كثيرة، وفي تلك السنة حلّ الوباء بالطائف حتى ما بقي فيها ساكن حلّ بهم من أوّل رجب إلى أوّل رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة عن تحقيق، وكان الطاعون الذي نزل بهم إذا كانت علامته في أبدانهم ما يتجاوزون خمسة أيام حتى يهلك فمن جاز خمسة أيام لم يهلك، وامتلأت مكة بأهل الطائف وبقيت ديارهم مفتحة أبوابها وأقمشتهم ودوابهم في مراعيها، فكان الغريب في تلك المدّة إذا مرّ بأرضهم فتناول شيئاً من طعامهم أو قماشهم أو دوابهم إذ لم يكن هناك حافظ يحفظه أصابه الطاعون من ساعته، وإذا مرّ ولم يتناول شيئاً سلم فحمى الله أموالهم في تلك المدّة لمن بقي منهم ولمن ورثهم وتابوا وورثوا البنات في تلك السنة وسكنت الفتن التي كانت بينهم، فلما نجاهم الله من ذلك ورفعه عنهم واستمرّ لهم الأمان عادوا إلى ما كانوا عليه من الإدبار، وهذه الكواكب ذوات الأذناب ما تحدث في الأثير وإنما يحدث منه في الهواء تشعله فهو على الحقيقة هواء محترق لا مشتعل، هذا هو الأثير فهو كالصواعق فإنها أهوية محترقة لا شعلة فيها فما تمرّ بشيء إلاّ أثرت فيه، ولا يحدث في هذا الركن شيء سوى ما ذكرناه إلاّ أنه في نفس الأمر ملك كريم له تسبيح خاص وسلطان قويّ والسماء الدنيا في غاية من البرودة لولا أن الله حال بيننا وبين برد هذه السماء بهذه النار التي بين الهواء وبين السماء ما كان حيوان ولا نبات ولا معدن في الأرض لشدة البرد، فسخن الله عالم الأرض والماء والهواء بما ترميه الكواكب من الشعاعات إلى الأرض بوساطة هذا الأثير فسخن العالم فتسري فيه الحياة وذلك بتقدير العزيز العليم لا إله إلاّ هو رب كل شيء ومليكه.

الفصل التاسع والعشرون: في الاسم الإلهيّ الحيّ وتوجهه على إيجاد ما يظهر في ركن الهواء، وله من الحروف حرف الزاي ومن المنازل منزلة الشولة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص: الآية ٣٦] فجعلها مأمورة يعلمنا أنها تعقل، ولا يسمّى الهواء ريحاً إلاّ إذا تحرّك وتموّج، فإن اشتدت حركته كان زعزعاً، وإن لم تشتد كان رخاء أي ريحاً لينة، والريح ذو روح يعقل كسائر أجسام العالم وهبوبه تسبيحه تسري به الجواري، ويطفىء السرج، ويشعل النيران، ويحرّك المياه والأشجار، ويموّج البحار، ويزلزل الأرض، ويلعب بالأغصان، ويزجي السحاب، وهو ركن أقوى من الماء، والماء أقوى من النار، والنار أقوى من الحديد، والحديد أقوى من الجبال، والجبال أقوى من الأرض، وما ثم شيء أقوى من الهواء إلاّ الإنسان حيث يقدر على قمع هواه بعقله الذي أوجده الله فيه فيظهر عقله في حكمه على هواه، فإنه لقوّة الصورة التي خلق عليها الرياسة له ذاتية، ولكونه ممكناً الفقر والذلة له ذاتية فإذا غلب فقره على رياسته فظهر بعبوديته ولم يظهر بربوبية الصورة فيه أثر لم يكن مخلوق أشد منه، وهكذا أخبر ﷺ على ما حدثناه محمد بن قسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي قال: حدثنا عمر بن عبد المجيد الميانشي، حدثنا عبد الملك ابن قاسم الهرويّ، حدثنا محمود بن القاسم الأزدي، حدثنا عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسىٰ

محمد بن عيسىٰ بن سورة الترمذي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوّام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لَمّا خَلَقَ اللَّهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الجِبَالَ فَقَالَ بِها عَلَيْها فَاسْتَقَرَّتْ فَعَجِبَتِ المَلائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الجِبَالِ فَقَالوا: يَا رَبِّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَم الحَدِيدُ، فَقَالوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَم النَّارُ، قَالُوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَم الماء، قَالوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الماءِ؟ قَالَ: نَعَم الرِّيحُ، قَالوا: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: ابنُ آدَمَ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ**» هذا حديث غريب. ففي هذا الحديث علم جوارح الإنسان بالأشياء، ولهذا وصفها الله تعالىٰ يوم القيامة بأنها تشهد فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٢٤].

فالهواء موجود عظيم وهو أقرب الأركان نسبة إلى نفس الرحمن فهو أحق بهذا الباب، والهواء هو نفس العالم الكبير وهو حياته وله القوّة والاقتدار، وهو السبب الموجب لوجود النغمات بتحريك الآلات من حركات الأفلاك وأغصان الأشجار وتقاطع الأصوات، فيؤثر السماع الطبيعي في الأرواح فيحدث فيها هيمان وسكر وطرب، فالهواء إذا تحرك أقوى المؤثرات الطبيعية في الأجسام والأرواح، وقد جعل الله هذا الركن أصل حياة العالم الطبيعي، كما جعل الماء أصل الصور الطبيعية، فصورة الهواء من الماء، وروح الماء من الهواء، ولو سكن الهواء لهلك كل متنفس وكل شيء في العالم متنفس، فإن الأصل نفس الرحمن، وجعله الله لطيفاً ليقبل سرعة الحركة فإن العالم المتنفس يحتاج في وقت إلى نفس كثير وفي وقت إلى نفس قليل، ألا ترى الإنسان في زمان الصيف إذا حمى بدنه حرك الهواء بالمروحة ليبرد عنه ما يجده من الحرارة لما في الهواء من برودة الماء من حيث صورته وإن كانت له حركة خفية ولكن لا تكفي المحرور، كما أنه إذا كثر بحيث أن يتأذى منه الإنسان طلب التستر عنه لأنه ليس في قوّة الحيوان تقليله الهواء إلاَّ إذا كان الإنسان هو الذي يثير حركة الهواء فإنه يقدر على تقليله بضعف حركة السبب الذي به أثاره، وأما إذا كان السبب خارجاً عن حكم الإنسان فإنه لا يقدر على تقليله، والهواء هو الذي يسوق الأرواح إلى المشامّ من طيب وخبيث وفيه تظهر صور الحروف والكلمات، فلولا الهواء ما نطق ناطق ولا صوت مصوّت. ولما كان الباريء متكلماً ووصف نفسه بالكلام وصف نفسه بأن له نفساً وإن كان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ولكن نبّه عباده العارفين أن علمه بالعالم علمه بنفسه، ووصف نفسه سبحانه بأنه ينفخ الأرواح فيعطي الحياة في الصور المسوّاة فجاء بالنفخ الذي يدل على النفس، فحياة العالم بالنفخ الإلهيّ من حيث أن له نفساً فلم يكن في صور العالم أحق بهذه الحياة من الهواء، فهو الذي خرج على صورة النفس الرحماني الذي ينفس الله به عن عباده ما يجدونه من الكرب والغم الذي تعطيه الطبيعة.

وبعد أن عرفتك بمنزلة الهواء من العالم فلنذكر ما يحدث فيه، فما يحدث فيه صور

الجنين في النكاح والثمر في اللقاح قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٢] وهذا معروف بالمشاهدة في تلقيح الثمار، فالهواء ينكح بما يحمله من روائح الذكورية والعقيم منه ما عدا اللواقح، واللواقح من الرياح ليست مخصوصة بالثمر وإنما هي كل ريح تعطي الصور، والعقيم كل ريح تذهب بالصور، فالهواء الذي يشعل النار من الرياح اللواقح والذي يطفىء السرج من الريح العقيم وإن كانت واحدة في العين فما هي واحدة عند من يرى تجديد العالم في كل نفس ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] وأصل هذا في العلم الإلهيّ أن اللواقح ما تعطيه الربوبية من وجود أعيان المربوبين والعقيم سبحات الوجه المذهبة أعيان الكائنات من خلقه، وممّا وجد من العالم في الهواء البرد والثلج والجليد إذا غلب عليه برد الماء فتشكل البرد من استدارته وجليده من اليبوسة التي تعطيه برد التراب والثلج دون الجليد في اليبوسة والمطر من رطوبته وما يزيده الماء من رطوبته فإنه يزيد في كميتها، ويتكوّن في هذا الهواء في الجبال التي ذكر الله أمرها في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٣] وقد بيّناها فيما قبل من هذا الكتاب تغلب الرطوبة في الهواء بما يزيده في رطوبته الماء وتعطيه النار من الحرارة ما يزيد في كمية حرارة الهواء، فيحدث في الجوّ في هذه الجبال تعفين، لأن هذه الأركان مركبة من الأربع الحقائق الطبيعية كل ركن منها، وهذا سبب قبولها صور الكائنات فيها، ولو لم يكن كذلك ما قبلت المولدات، فإذا تعفن ما تعفن من ذلك كوّن الله في ذلك التعفين حيوانات هوائية جوية على صور حيات بيض وحيوانات للاستدارة، أمّا هذه المستديرة فرأيناها، وأما الحيات البيض فرأينا من رآها، وقد وقفنا على ذكرها في بعض كتب الأنواء، وأن البزاة البلنسية إذا علت في الجوّ في أوقات ووقعت بشيء منها نزلت بها على مرأى من أصحابها، وممّن رآها والدي وقد نزل بها البازي من الجوّ في أيام السلطان محمد بن سعد صاحب شرق الأندلس، وهذا الصنف المستدير الذي عايناه من ذلك التكوين يسمّى بالأندلس بالشلمندار وأكثر ما ينزل في الكوانين مع المطر وفيه خواص إذا لعق باللسان، لكن خرجت عني معرفة تلك الخواص في هذا الوقت وهو مجرّب عندنا، وممّا يحدث في هذا الركن ممّا يلي ركن النار منه الصواعق وهي هواء محترق والبروق وهو هواء مشتعل تحدثه الحركة الشديدة والرعود وهو هبوب الهواء تصدع أسفل السحاب إذا تراكم وهو تسبيح، إذ كل صوت في العالم تسبيح لله تعالىٰ حتى الصوت بالكلمة القبيحة هي قبيحة وهي تسبيحة بوجه يعلمه أهل الله في أذواقهم لمن عقل عن الله، وهذا الملك المسمّى بالرعد هو مخلوق من الهواء كما خلقنا نحن من الماء وذلك الصوت المسمّى عندنا بالرعد تسبيح ذلك الملك وفي ذلك الوقت يوجده الله فعينه نفس صوته ويذهب كما يذهب البرق وذوات الأذناب، فهذه حوادث هذا الركن في العالم العنصريّ، وله حرف الزاي وهو من حروف الصفير فهو مناسب له لأن الصفير هواء بشدة وضيق وله الشولة وهي حارة فافهم.

الفصل الثلاثون: في الاسم الإلهيّ المحيي وتوجهه على إيجاد ما يظهر في ركن الماء،

وله حرف السين المهملة من الحروف، وله من المنازل المقدرة منزلة النعائم قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] فأعاد الضمير من به الأقدام على المطر، والرجز بالسين القذر عند القرّاء وهو هنا القذر المعنوي لأنه مضاف إلى الشيطان، فلا يدل إلاّ على ما يلقيه من الشبه والجهالات والأمور التشكيكية ليقذر بها محل هذا القلب، فيذهب الله ذلك بما في الماء المنزّل من الحياة العلمية بالبراهين والكشف، فإذا زال ذلك القذر الشبهي بهذا الماء المنزّل من عند الله زال الوسخ الجهلي وارتفع الغطاء عن القلب، فنظر بعينه في ملكوت السموات والأرض فربط ذاته بما أعطاه العلم، فعلم ما أريد به في كل نفس ووقت، فعامله بما أعطاه العلم المنزّل الذي طهره به في ذلك الماء الذي جعل نزوله في الظاهر علامة على فعله في الباطن، فكان من مواطنه مقابلة الأعداء، فأدّاه ما عاينه وربط قلبه به إن ثبتت قدمه يوم الزحف عند لقاء الأعداء فما ولّوا مدبرين، وأنزل الله نصره وهو تثبيت الأقدام، فهذا ما أعطاه الله في الماء من القوّة الإلهية حيث أنزله منزلة الملائكة بل أتم من الملائكة، وإنما قلنا بل أتم فإن الله جعل الماء سبب تثبيت أقدام المجاهدين المؤمنين فقال: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] فأنزله منزلة المعين على ما يريد، وقال في الملائكة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٢] لما علم من ضعفهم أعلمهم أن الله معهم من حيث أنيته ليتقوى جأشهم فيما يلقونه في قلوب المؤمنين المجاهدين أن يثبتوا ويصابروا العدوّ ولا ينهزموا وهذه من لمات الملائكة فقال لهم: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٢] أي اجعلوا في قلوبهم أن يثبتوا ثم أعانهم فقال: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٢] أخبرهم بذلك ليلقوا في نفوس المجاهدين هذا الكلام فإنه من الوحي، فيجد المجاهد في نفسه ذلك الإلقاء وهو وحي الملك في لمته فأنظركم بين مرتبة الماء ومرتبة هؤلاء الملائكة والماء، وإن كان من الملائكة فهو ملك عنصريّ، وأصله في العنصر من نهر الحياة الطبيعية الذي فوق الأركان، وهو الذي ينغمس فيه جبريل كل يوم غمسة، وينغمس فيه أهل النار إذا خرجوا منها بالشفاعة، فهذا الماء العنصريّ من ذلك الماء الذي هو نهر الحياة، وهذه الملائكة التي تقوّي قلوب المجاهدين وتثبتهم وتوحي إليهم قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥١] هم الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور الذي في السماء السابعة المخلوقين من قطرات ماء نهر الحياة في انتفاض الروح الأمين من انغماسه، ولهذا قرن الملائكة بالمجاهدين في التثبيت مع الماء المنزّل لنثبت به الأقدام، فقد أبان الله في هذه عن مرتبة الماء من مراتب الملائكة ليعقلها العالمون من عباد الله ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣] فجعل الله من الماء كل شيء حيّ.

وهذا الركن هو الذي يعطي الصور في العالم كله وحياته في حركاته، ثم إن هذا الركن جعله الله مالحاً لما فيه من مصالح العالم، فإنه بما فيه من الملوحة يصفي الجوّ من الوخم

والعفونات التي تطرأ فيه من أبخرة الأرض وأنفاس العالم، وذلك أن الأرض بطبعها ما تعطي التعفين لأنها باردة يابسة، فيحصل فيها من الماء رطوبات عرضية تكثر، فإذا كثرت وسخنتها أشعة الكواكب مثل الشمس وغيرها بمرور هذه الأشعة على الأثير، ثم بما في جوّ الأرض من حركات الهواء المنضغط، فإن الحركة سبب موجب لظهور الحرارة، ويظهر ذلك في الحمامات في الأرض الكبريتية، فإذا تضاعفت كمية الحرارة على هذه الرطوبات صعدت بها علواً بخاراً، فمن هنالك يطرأ التعفين في الجوّ فيذهب ذلك التعفين ما في البحر من الملوحة فيصفو الجوّ وذلك من رحمة الله بخلقه فلا يشعر بذلك إلاّ العلماء من عباد الله.

ثم إن الله جعل للبقاع في الماء حكماً وأصل ذلك الحكم من الماء هذا هو العجب، فجعل من الأرض سباخاً تعطي ماء مالحاً إذا عظم ذلك منها، وتعطي فعاماً ومراً وزعاقاً، كما تعطي أيضاً عذباً فراتاً، كل ذلك بجعل الله تعالى، وأصل هذا كله ممّا أعطى الماء الأرض من الرطوبات، وأعطاها الهواء والحركات من الحرارة، وتختلف أمزجة الأرض، فمن الماء عذب فرات لمصالح العباد فيما يستعملونه من الشرب وغير ذلك، ومنه ملح أجّاج لمصالح العباد فيما يذهب به من عفونات الهواء، فما من ركن إلاّ وقد جعله الله مؤثراً ومؤثراً فيه أصل ذلك في العلم الإلهيّ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وكل مؤثر فيه من العالم فمن الإجابة الإلهية. وأما اسم الفاعل من ذلك فهو معلوم عند كل أحد، فما نبهنا إلاّ على ما يمكن أن يغفل عنه أكثر الناس كما قال في أشياء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧].

ثم إن الله عزّ وجلّ ما جعل التكوينات التي هي دواب البحر في البحر الملح إلاّ في العذب منه خاصة، فلولا وجود الهواء فيه والماء العذب ما تكون فيه حيوان، ألا ترى البخار الصاعد من الأنهار والبحار ولا سيما في زمان البرد، ذلك هو النفس يصعد من الأرض ومن البحر كما يخرج النفس من المتنفس يطلب ركنه الأعظم فيستحيل ماء ويلحق بعنصره منه على قدر ما سبق في علم الله من ذلك، فهو دولاب دائر منه يخرج وإليه يرجع بعضه أصله في العلم الإلهيّ أن الله كان ولا شيء وأوجد الأشياء وأظهر فيها الدعاوى بما جعل فيها من استحالات بعضها إلى بعض، وبما أعطاها من القوى التي تفعل بها، وقال بعد هذا كله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فجعل صعود البخار من الماء وهو ماء استحال هواء يسمّى بخاراً ليقع الفرق بين الهواء الأصلي وبين الهواء المستحيل، ثم يصير غماماً متراكماً، ثم ينزل ماء كما كان أوّل مرة، فعاد إلى أصله الذي خرج منه ثم يعود الدور، فلهذا شبهناه بالدولاب وقلنا إنه يرجع، وذلك بتقدير العزيز العليم. انتهى الجزء الرابع والعشرون ومائة.

(الجزء الخامس والعشرون ومائة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الحادي والثلاثون: في الاسم إلهيّ المميت وتوجهه على إيجاد ما يظهر في

الأرض، وله حرف الصاد المهملة ومن المنازل البلدة، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٩] وقال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] وهي أوّل مخلوق من الأركان، ثم الماء، ثم الهواء، ثم النار، ثم السموات، وأخبر تعالىٰ عنها بأمور تقضي أنها تعقل فوصفها بالقول والإباية وقال لها وقالت له، ونعتها بالطاعة والأخذ بالأحوط ليدل بذلك على علمها وعقلها، وجعلها محلاً لتكوين المعادن والنبات والحيوان والإنسان وجعلها حضرة الخلافة والتدبير فهي موضع نظر الحق، وسخّر في حقها جميع الأركان والأفلاك والأملاك، وأنبت فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] من كل ذكر وأنثى، وما جمع لمخلوق بين يديه سبحانه إلاَّ لما خلق منها وهي طينة آدم عليه السلام خمرها بيديه وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وأقامها مقام العبودية فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [سورة الملك: الآية ١٥] وجعل لها مرتبة النفس الكلية التي ظهر عنها العالم، كذلك ظهر عن هذه الأرض من العالم المولدات إلى مقعر فلك المنازل، وهذا الركن لا يستحيل إلى شيء ولا يستحيل إليه شيء وإن كان بهذه المثابة بقية الأركان، ولكنه في هذا الركن أظهر حكماً منه في غيره.

واعلم أن كل معلوم يدخله التقسيم فإنه يدخل في الوجود الذهني لا بدّ من ذلك، وقد يكون هذا الداخل في الوجود الذهني ممّن يقبل الوجود العينيّ، وقد يكون ممّن لا يقبل الوجود العينيّ كالمحال، والذي يقبل الوجود العينيّ لا يخلو إما أن يكون قائماً بنفسه وهو المقول عليه لا في موضوع، وإما أن لا يكون، فأما قسم ما يكون قائماً بنفسه فلا يخلو إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز. وأما قسم لا في موضوع غير متحيز فلا يخلو إما أن يكون واجب الوجود لذاته وهو الله تعالىٰ، وإما أن يكون واجباً بغيره وهو الممكن، وهذا الممكن إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز، والقسمة فيما هو قائم بنفسه من الممكنات، فغير المتحيز كالنفوس الناطقة المدبرة لجوهر العالم النورانيّ والطبيعي والعنصري، والمتحيز إما أن يكون مركباً ذا أجزاء، وإما أن لا يكون ذا أجزاء، فإن لم يكن ذا أجزاء فهو الجوهر الفرد، وإن كان ذا أجزاء فهو الجسم. وأمّا القسم الذي هو في موضوع وهو الذي لا يقوم بنفسه ولا يتحيز إلاَّ بحكم التبعية فلا يخلو إما أن يكون لازماً للموضوع أو غير لازم في رأي العين، وأما في نفس الأمر فلا شيء ممّا لا يقوم بنفسه يكون باقياً في نفس الأمر زائداً على زمان وجوده، لكن منه ما تعقبه الأمثال ومنه ما يعقبه ما ليس بمثل، فأما الذي يعقبه الأمثال فهو الذي يتخيل أنه لازم كصفرة الذهب وسواد الزنجيّ، وأما الذي لا تعقبه الأمثال فهو المسمّى بالعرض واللازم يسمّى صفة، وليست المعلومات التي لها وجود عيني سوى ما ذكرناه.

واعلم أن العالم واحد بالجوهر كثير بالصورة، وإذا كان واحداً بالجوهر فإنه لا يستحيل، وكذلك الصورة أيضاً لا تستحيل لما يؤدّي إليه من قلب الحقائق، فالحرارة لا تكون برودة، واليبوسة لا تكون رطوبة، والبياض لا يستحيل سواداً، والتثليث لا يصير تربيعاً، لكن الحار قد يوجد بارداً إلاَّ في زمان كونه حاراً، وكذلك البارد قد يوجد حاراً لا في زمان كونه

بارداً، وكذلك الأبيض قد يكون أسود بمثل ما ذكرنا، والمثلث قد يكون مربعاً فبطلت الاستحالة، فالأرض والماء والهواء والأفلاك والمولدات صور في الجوهر فصور تخلع عليه فيسمّى بها من حيث هيئة وهو الكون، وصور تخلع عنه فيزول عنه بزوالها ذلك الاسم وهو الفساد، فما في الكون استحالة يكون المفهوم منها أن عين الشيء استحال عيناً آخر إنما هو كما ذكرنا، والعالم في كل زمان فرد يتكوّن ويفسد، ولا بقاء لعين جوهر العالم لولا قبول التكوين فيه، فالعالم يفتقر على الدوام، أما افتقار الصور فلبروزها من العدم إلى الوجود، وأما افتقار الجوهر فلحفظ الوجود عليه، إذ من شرط وجوده وجود تكوين ما هو موضوع له لا بدّ من ذلك، وكذلك حكم الممكن القائم بنفسه الذي لا يتحيز هو موضوع لما يحمله من الصفات الروحانية والإدراكات التي لا بقاء لعينه إلاً بها، وهي تتجدّد عليه تجدّد الأعراض في الأجسام، وصورة الجسم عرض في الجوهر، وأما الحدود إنما محلها الصور فهي المحدودة، ولا بدّ أن يوجد في حدّها الجوهر الذي تظهر فيه، وبهذا القدر يسمون الصور جوهراً لكونهم يأخذون الجوهر في حدّ الصورة.

وبالجملة فالنظر في هذه الأمور عن غير طريق الكشف الإلهيّ لا يوصل إلى حقيقة الأمر على ما هي عليه لا جرم أنهم لا يزالون مختلفين، ولهذا عدلت الطائفة السعيدة المؤيدة بروح القدس إلى التجرّد عن أفكارها والتخلص عن قيد قواها واتصلت بالنور الأعظم فعاينت الأمر على ما هو عليه في نفسه إذ كان الحق عزّ وجلّ بصرها فلم تشاهد إلاً حقاً كما قال الصديق: «**مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلاَّ رَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ**» فيرى الحق ثم يرى أثره في الكون وهو الوقوف على كيفية الصدور، فكأنه عاين الممكنات في حال ثبوتها عندما رشّ على ما رشّ منها من نوره الأعظم، فاتصفت بالوجود بعدما كانت تنعت بالعدم، فمن هذا مقامه، فقد ارتفع عنه غطاء العمى والحيرة ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] فما جعل العلم إلاً في الشهود، فالحاكم يحكم بغلبة ظنّه، والشاهد يشهد بعلم لا بظنّ.

ثم اعلم أن أجسام العالم تنقسم إلى لطيف وكثيف وشفاف وكدر ومظلم ومنور، وإلى كبير وصغير، وإلى مرئي وغير مرئي، فالوجود كله عطاء: [مجزوء المديد]

ليس عند الله مَنْعٌ ... كلُّ ما منه عَطَاءْ

فأنا ما بين شيءٍ ... بين غَطَاءٌ ووِطَاءْ

فإذا ما قيل مَنْعٌ ... لم يكن إلاً عَطَاءْ

وأنا لكل ما في الكو ... ن من خَيْرٍ وِعَاءْ

فالرجل الذي رأى الحق حقاً فاتبعه وحكم الهوى وقمعه، فإذا جاع جوع اضطرار وحضر بين يديه أشهى ما يكون من الأطعمة تناول منه بعقله لا بشهوته، ودفع به سلطان ضرورته، ثم أمسك عن الفضل غنى نفس وشرف همة، فذلك سيد الوقت فاقتد به، وذلك صورة الحق أنشأها الله صورة جسدية بعيدة المدى لا يبلغ مداها ولا يخفى طريق هداها،

وهذا هو طبع الأرض، فهي الذلول التي لا تقبل الاستحالة، فيظهر فيها أحكام الأركان ولا يظهر لها حكم في شيء تعطي جميع المنافع من ذاتها هي محل كل خير فهي أعزّ الأجسام، لا تزاحم المتحرّكات بحركتها لأنها لا تفارق حيّزها يظهر فيها كل ركن سلطانه، وهي الصبور القابلة الثابتة الراسية، سكن ميدها جبالها التي جعلها الله أوتادها لما تحرّكت من خشية الله، آمنها الله بهذه الأوتاد فسكنت سكون الموقنين، ومنها تعلم أهل اليقين يقينهم، فإنها الأم التي منها أخرجنا وإليها نعود ومنها نخرج تارة أخرى، لها التسليم والتفويض، هي ألطف الأركان معنى، وما قبلت الكثافة والظلمة والصلابة إلاّ لستر ما أودع الله فيها من الكنوز لما جعل الله فيها من الغيرة فحار السعاة فيها فلم يخرقوها ولا بلغوا جبالها طولاً، أعطاها صفة التقديس فجعلها طهوراً في أشرف الحالات، وذلك عند الاضطرار لما أقامها مقامه مثل الظمآن يرى السراب فيحسبه ماء فإذا جاءه لم يجده شيئاً، يعني ماء، ووجد الله عنده فما وجد الله إلاّ عند الضرورة، كذلك طهارة الأرض لا تكون إلاّ لفاقد الماء على ما كان من الأحوال، فانظر ما أشرف منزلها، ثم أنزلتها منزلة النقطة من المحيط فهي تقابل بذاتها كل جزء من المحيط، وينظر إليها كل جزء من المحيط، فكل خط منها يخرج إلى المحيط على السواء والاعتدال لأنها ما تعطي إلاّ بحسب صورتها، وكل خط من المحيط إليها يقصد، فلو زالت زال المحيط، ولو زال المحيط لم يلزم زوالها، فهي الدائمة الباقية في الدنيا والآخرة، أشبهت نفس الرحمن في التكوين.

واعلم أن الله تعالىٰ قد جعل هذه الأرض بعدما كانت رتقاً كالجسم الواحد كما كانت السماء ففتق رتقها وجعلها سبعة أطباق كما فعل بالسموات، وجعل لكل أرض استعداد انفعال لأثر حركة فلك من أفلاك السموات وشعاع كوكبها، فالأرض الأولى وهي التي نحن عليها للفلك الأوّل من هناك ثم تنزل إلى أن تنتهي إلى الأرض السابعة والسماء الدنيا، ولذلك قال عليه السلام فيمن غصب شبراً من الأرض« طوّقه الله به من سبع أرضين »لأنه إذا غصب شيئاً من الأرض كان ما تحت ذلك المغصوب مغصوباً إلى منتهى الأرض، ولو لم تكن طباقاً بعضها فوق بعض لبطل معقول هذا الخبر، وكذلك الخبر الوارد في سجود العبد على الأرض طهر الله بسجدته إلى سبع أرضين وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كل واحدة منهما مرتوقة ثم قال: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] يعني فصل بعضها من بعض حتى تميزت كل واحدة عن صاحبتها كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة الملك: الآية ٣] ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] الظاهر يريد طباقاً ثم قال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] أي بين السموات والأرض، ولو كانت أرضاً واحدة لقال بينهما هذا هو الظاهر وهو الذي يعطيه الكشف، والأمر النازل بينهنّ هذا الأمر الإلهيّ الذي يكون بين السماء الدنيا والأرض التي نحن عليها ينزل من السماء ثم يطلب أرضه وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فذلك الأمر هو الذي ينزل إلى أرضه بما أوحى الله فيه على عامر تلك الأرض من الصور والأرواح.

وجعل هذه الأرض سبعة أقاليم، واصطفى من عباده المؤمنين سبعة سمّاهم الأبدال لكل بدل إقليم يمسك الله وجود ذلك الإقليم به، فالإقليم الأوّل: ينزّل الأمر إليه من السماء الأولى من هناك وتنظر إليه روحانية كوكبه، والبدل الذي يحفظه على قلب الخليل عليه السلام. والإقليم الثاني: ينزّل الأمر إليه من السماء الثانية وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب موسىٰ عليه السلام. والإقليم الثالث: ينزّل إليه الأمر الإلهيّ من السماء الثالثة وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب هارون ويحيىٰ عليهما السلام بتأييد محمد عليه الصلاة والسلام والإقليم الرابع: ينزّل الأمر إليه من قلب الأفلاك كلها وتنظر إليه روحانية كوكبها الأعظم والبدل الذي يحفظه على قدم إدريس عليه السلام وهو القطب الذي لم يمت إلى الآن والأقطاب فينا نوّابه. والإقليم الخامس: ينزّل إليه الأمر من السماء الخامسة وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظ الله به ذلك الإقليم على قلب يوسف عليه السلام ويؤيّده محمد ﷺ. والإقليم السادس: ينزّل الأمر إليه من السماء السادسة وتنظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب عيسىٰ روح الله ويحيىٰ عليهما السلام. والإقليم السابع: ينزّل الأمر إليه من السماء الدنيا وينظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب آدم عليه السلام. واجتمعت بهؤلاء الأبدال السبعة بحرم مكة خلف حطيم الحنابلة وجدتهم يركعون هناك فسلمت عليهم وسلموا علينا وتحدثت معهم، فما رأيت فيما رأيت أحسن سمتاً منهم ولا أكثر شغلاً منهم بالله، ما رأيت مثلهم إلاَّ سقيط الرفرف ابن ساقط العرش بقونية وكان فارسياً.

وصل: واعلم أن الفرق الذي بين مزاج العنصر الواحد وامتزاجه بعضه ببعضه أو امتزاجه بعنصر آخر كامتزاج الماء بالتراب فيحدث اسم الطين فما هو تراب وما هو ماء، والامتزاج في العنصر الواحد كالنيل والاسفيداج إذا مزجا بالسحق واختلطت أجزاؤهما وامتزجت امتزاجاً لا يمكن الفصل بينهما، يحدث بينهما لون آخر ما هو لواحد منهما، ويحدث لهذا الامتزاج حكم في آخر الأفعال الطبيعية، وكالماء العذب والماء الملح إذا امتزجا حدث بينهما طعم آخر ما هو ملح ولا عذب، فهذا ما أعطاه الامتزاج في العنصر الواحد، وكذلك الماء بما هو بارد إذا أعطت النار فيه التسخين بحيث أن لا تبقيه بارداً ولا تبلغ به درجتها في السخانة فيكون فاتراً لا حاراً ولا بارداً، فهذا امتزاج لا يشبه امتزاج العنصر بعضه في بعضه ولا امتزاج العنصرين. وأما المزاج فهو ما كان به وجود عين العنصر وهو المسمّى بالطبع فيقال: طبع الماء أو مزاج الماء أن يكون بارداً رطباً والنار حارة يابسة والهواء حاراً رطباً والتراب بارداً يابساً، فما ظهرت أعيان هذه الأركان إلاَّ بهذا المزاج الطبيعيّ، فكل مزاج طبيعيّ، وليس الإمتزاج كذلك فبالامتزاج الذي ذكرناه في عنصر الماء نعلم قطعاً أن أجزاء الماء الملح مجاورة أجزاء الماء العذب، وأجزاء النيل مجاورة أجزاء الإسفيداج مجاورة بالعقل لا يدركها الحسّ ولا يفصلها، ولكن في الإمتزاج يحدث للطبيعة حكم في هذه الصور الظاهرة من الإمتزاج كتركيب الأدوية فكل عقار فيه له نفع على حدّة،

ثم إذا مزج الكل كان بهذه المثابة وكان للطبيعة في المجموع حكم ولا بدّ، فإذا جعل الكل في إناء واحد وصبّ على الجميع ماء واحد أعطى كل عقار في كل جوهر من ذلك الماء قوّة فيكون في الجوهر الواحد من الماء قوّة كل واحد من العقاقير ما لم تتضاد القوىٰ، فهذا وإن كان إمتزاجاً فما هو مثل ذلك الإمتزاج ولا بلغ حكمه حكم المزاج، فهذه حالة معقولة بين المزاج وبين الامتزاج لا يقال فيه مزاج ولا امتزاج، وكذلك الأرض وإن كانت سبعة طباق فقد يعسر في الحسّ الفصل بينهنّ مع علمنا بأن كل واحدة منهن لا تكون بحيث الأخرى، كما لا يكون الجوهر بحيث جوهر آخر وعرضه يكون بحيث موضوعه وحامله، فهكذا يكون كون الأشياء وفسادها وما يلحقها من التغيير. انتهى الجزء الخامس والعشرون ومائة.

(الجزء السادس والعشرون ومائة)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل: وأما ما يلحق الأجسام العنصرية من لواحق الطبيعة في الأجسام فكثير، فمن ذلك حركة العنصر وسكونه هل هو مخالف لحركة الفلك وسكونه لو فرض سكونه؟ أو هل سكونه كسكون السماء الذي لا يقول به إلاَّ أهل هذا الشأن منا؟ فأما حركة الفلك وهو من الأجسام الطبيعية فإنه يتحرك بمحرك ليس هو، وهكذا كل متحرك في العالم وساكن ما هو متحرك لذاته ولا ساكن لذاته بل بمحرك ومسكن، وذلك المحرك له لا بدّ أن يكون محركاً له بذاته أو محركاً له بما هو يريد تحريكه، فأما من يرى أن محركه يحركه لذاته فهو القائل بخلق الحركة في الجسم والحركة تعطي لذاتها فيمن قامت به التحرّك فهي محركة المتحرك لذاتها، والسكون مثل ذلك وإن كان المحرك بما هو يريد تحريكه فقد يحركه بواسطة وبغير واسطة أي بواسطة لا تتصف بأنها مريدة لتحريكه، ولو كانت ذا إرادة كالمجبور فيمن كان ذا إرادة أو تحريك الغصن بتحريك الريح التي تحدثه حركة المروحة من حركة يد الذي يروّحه بها وبغير واسطة، كإنسان هزّ عصا في يده فاضطربت، أو يكون المتحرك هو المتحرك بالإرادة في ذاته كتحرك الإنسان في الجهات التحرّك الإرادي، فالفلك عندنا متحرك تحرك الإنسان في الجهات لأنه يعقل ويكلف ويؤمر كما قال عليه السلام في ناقته أنها مأمورة وقال عليه السلام في الشمس أنها تستأذن في الطلوع وحينئذ تطلع فيؤذن لها فإذا جاء وقت طلوعها من مغربها يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مغربها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، فالفلك متحرك بالإرادة ليعطي ما في سمائه من الأمر الإلهيّ الذي يحدث أشياء في الأركان والمولدات، وبتلك الحركات الفلكية يظهر الزمان، فالزمان لا يحكم في مظهره وإنما يحكم فيما دونه، فلا حكم للزمان في حركات الفلك لأنه المظهر عينه، وللحوادث الظاهرة والطارئة في الأفلاك والسموات والعالم العلوي أسباب غير الزمان، وحركات الفلك مرتبة متتالية الأجزاء على طريقة واحدة كتحرّك الرحى، فكل جزء لا يفارق مجاوره، وحركة الأركان

ليست كذلك، فإن حركة العنصر متداخلة بعضها في بعض يزول كل جزء عن الجزء الذي كان يجاوره ويعمر أحيازاً غير أحيازه التي كان فيها، فأسباب حركة العنصر تخالف أسباب حركة الفلك لأن حركة الفلك ما تعرف سوى ما تعطيه في الأركان من التحريك وشعاعات كواكبها بما أودع الله فيها من العقل والروح والعلم تعطي في أشخاص كل نوع من المولدات على التعيين من معدن ونبات وحيوان وجنّ وملك مخلوق من عمل أو نفس بقول من تسبيح وذكر أو تلاوة، وذلك لعلمها بما أودع الله لديها وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فمن لا كشف له يرى أن ذلك كله الكائن عن سريانها أنها مسخرات في حركاتها لإيجاد هذه الأمور، كتحريك الصانع للآلات لإيجاد صورة ما يريد إيجادها، كالصورة في الخشب وغيره، ولا تعرف الآلات شيئاً من ذلك ولا ما صدر عنها، وإن كانت تلك الصور لا تظهر إلاّ بهذه الآلات، هكذا يزعم من يذهب إلى غير ما ذهبنا إليه وذهب إليه أهل الله من أهل الكشف والوجود، ونحن نقول: إن آلة النجار ربما تعلم أكثر ممّا يعلم الصانع بها فإنها حية ناطقة عالمة بخالقها مسبحة بحمد ربها عالمة بما خلقت له عند أهل الكشف، فإن المكاشف إذا كشف الله عن بصره وسمعه تناديه أشجار الأرض ونجمها بمنافعها ومضارها كما قالت الأحجار لداود عليه السلام يقول كل حجر: يا داود خذني فأنا أقتل جالوت، وقال له الحجر الآخر: خذني فإني أجعل الكسرة في ميمنة عسكره، فقد علم كل حجر ما خلق له فأخذ داود تلك الأحجار فوقع الأمر كما ذكرت.

ولما لم يبلغ بعض الناس هذه الدرجة ولا طولع بها أنكرها ولم يكن ينبغي له ذلك، فما من متحرك في العالم إلاّ وهو عالم بما إليه يتحرك إلاّ الثقلين فقد يجهلون ما يتحركون إليه، بل يجهلون إلاّ من شاء الله من أهل الكشف من مريد وغيره، قال الله للسماء والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وإتيان الأرض حركة وانتقال لما دعيت إليه فجاءت طائعة، فكل جزء في الكون عالم بما يراد منه فهو على بصيرة حتى أجزاء بدن الإنسان، فما يجهل منه إلاّ لطيفته المكلفة الموكلة إلى استعمال فكرها أو تنظر بنور الإيمان حتى يظهر ذلك النور على بصرها فيكشف ما كان خبراً عندها، فإذا كانت حركة العنصر تخالف حركة الفلك بالتداخل وبما يطرأ عليها من السكون في بعض أجزاء العنصر لا في كله فنعلم قطعاً أن حكم الحركة في العنصر يخالف حكم حركة الفلك، فحكم حركة العنصر أي عنصر كان فإن كان بين عنصرين كالهواء والماء أو لا يكون بين عنصرين كالنار والأرض فحركة الهواء العنصري يظهر فيه من الأثر بحسب ما يباشر منه ما فوقه وما تحته وكذلك عنصر الماء. وأما حركة النار فلا تؤثر فيه إلاّ الهواء، وحركة الأرض لا تؤثر فيه إلاّ الماء والهواء، وبهذا يفارق هذا العنصر عنصر النار، فإذا أثر النار التسخين فيما عداه من الأركان فيأخذ أمرين: إما بوساطة شعاع الكوكب الأعظم وهو الشمس فإن شعاعها يمر على الأثير فيكتسب زيادة كميات في حرارته أو بوساطة النار المحمولة في الفحم أو الحطب، وهذه الآثار التي تظهر في العنصر من غيره إن لم يكن له إمداد من العنصر الذي ظهر عنه ذلك

الأثر، والأغلب عليه حكم العنصر الذي ظهر فيه الأثر فأفسده، فهذا من أنواع الكون والفساد الظاهر في أجسام العناصر.

ثم لتعلم أن التحقيق في الحركة والسكون أنهما نسبتان للذوات الطبيعية المتحيزة المكانية أو القابلة للمكان إن كانت في الإمكان وذلك أن المتحيز لا بدّ له من حيّز يشغله بذاته في زمان وجوده فيه، فلا يخلو إمّا أن يمر عليه زمان ثان أو أزمنة وهو في ذلك الحيز عينه فذلك المعبر عنه بالسكون، أو يكون في الزمان الثاني في الحيز الذي يليه، وفي الزمن الثالث في الحيز الذي يلي الحيز الثاني، فظهوره وإشغاله لهذه الأحياز حيزاً بعد حيز لا يكون إلاً بالانتقال من حيز إلى حيز، ولا يكون ذلك إلاً بمنقل، فإن سمّى ذلك الانتقال حركة مع عقلنا أنه ما ثم إلاً عين المتحيز والحيز وكونه شغل الحيز الآخر المجاور لحيزه الذي شغله أوّلاً فلا يمنع، ومن ادّعى أن ثم عيناً موجودة تسمّى حركة قامت بالمتحيز أوجبت له الانتقال من حيز إلى حيز فعليه بالدليل فما انتقل إلاً بمنقل، أما إن كان ذا إرادة فبإرادته أو بمنقل غيره نقله من حيز إلى حيز، وكذلك الاجتماع والافتراق نسبتان للمتحيزات، فالاجتماع كون متحيزين متجاورين في حيزين لا يعقل بينهما ثالث، والافتراق أن يعقل بينهما ثالث أو أكثر فاعلم ذلك.

ثم إن الزمان والمكان من لواحق الأجسام الطبيعية أيضاً، غير أن الزمان أمر متوهم لا وجود له تظهره حركات الأفلاك أو حركات المتحيزات إذا اقترن بها السؤال بمتى، فالحيز والزمان لا وجود له في العين أيضاً، وإنما الوجود لذوات المتحركات والساكنات. وأما المكان فهو ما تستقر عليه المتمكنات لا فيه، فإن كانت فيه فتلك الأحياز لا المكان، فالمكان أيضاً أمر نسبي في عين موجودة يستقر عليها المتمكن أو يقطعه بالانتقالات عليه لا فيه، فإن اتصلت المتحيزات بطريق المجاورة على نسق خاص لا يكون فيه تداخل فذلك الاتصال، فإن توالت الانتقالات حالاً بعد حال فذلك التتابع والتتالي من غير أن يتخللها فترة، فإن دخل بعضها على بعض ولم يفصل الداخل بين المتصلين فذلك الالتحام، فما دخل في الوجود منه وصف بالتناهي، وما لم يدخل قيل فيه أنه لا يتناهى إن فرض متتالياً أبداً، وإن أعطت هذه الانتقالات استحالة كان الكون والفساد، فانتقال الشيء من العدم إلى الوجود يكون كوناً، وإزالة ما ظهر عنه من صورة الكون يسمّى فساداً، فإذا انتقل من وجود إلى وجود يسمّى متحركاً، وأما ما يلحق هذه الأجسام من الألوان والأشكال والخفة والثقل واللطف والكثافة والكدورة والصفا واللين والصلابة وما أشبه ذلك من لواحقه فإنه يرجع إلى أسباب مختلفة.

فأما الألوان فعلى قسمين: منها ألوان تقوم بنفس المتلون، ومنها ألوان تظهر لناظر الرائي وما هي في عين المتلوّن لاختلاف الأشكال، وما يعطيه النور في ذلك الجسم فإنه بالنور يقع الإدراك، وكذلك الأشكال مثل الألوان ترجع إلى أمرين: إلى حامل الشكل وإلى حسّ المدرك له، وأما ما عداه ممّا ذكرناه من لواحق الأجسام فهي راجعة إلى المدرك لذلك لا إلى أنفسها ولا إلى الذات الموصوفة التي هي الأجسام الطبيعية هذا عندنا، فإن اللطيفة كالهواء لا تضبط صورة النور والجسم الكثيف يظهره ورأينا من لا يحجبه الكثائف وصورتها

عنده صورة اللطائف في نفوذ الإدراك، فإذا ما هي كثائف إلاَّ عند من ليس له هذا النفوذ، فمنا من لا يحجبه الجدران ولا يثقله شيء فصار مآل هذه الأوصاف إلى المدرك، ولو كانت لذوات الأجسام لوقع التساوي في ذلك كما وقع التساوي في كونها أجساماً، فإذاً ليس حكم اللواحق يرجع إلى ذوات الأجسام عندنا، وأما عند الطبيعيين فإنهم وإن اختلفوا فما هم على طريقنا في العلم بهذا.

واعلم أن الشيء الواحد العين إذا ظهرت عنه الآثار المختلفة فإن ذلك من حيث القوابل لا من حيث عينه، ومن هنا إذا حققت هذه المسألة يبطل قول الحكيم: لا يصدر عن الواحد إلا واحد، وصورة ذلك في العنصر الذي نحن بصدده أن النار بما هي نار لا يتغير حكمها من حيث ذاتها وتجد آثارها مختلفة الحكم فتنير أجساماً ولا تنير أجساماً مع أن إنارتها بالاشتعال، فالهواء لها مساعد وتعقد أشياء وتسيل أشياء وتسود وتبيض وتسخن وتحرق وتنضج وتذيب الجوامد وهي على حقيقة واحدة، واستعداد القوابل مظهر اختلاف الآثار منها في الحكم. فالعين واحدة والحكم مختلف. ويدرك العلم ما لا يدرك البصر.

واعلم أن الأشياء بآحادها لها حكم وبامتزاجاتها تحدث لها أحكام لم تكن ولا لواحد منها، ولا يدري على الحقيقة من هو المؤثر من أحد الممتزجين هل هو لواحد أو هل لكل واحد فيه قوّة؟ والذي حدث لا يقدر على إنكاره، فإنا نعرف سواد المداد حدث بعد أن لم يكن من امتزاج الزاج والعفص فهل الزاج صبغ العفص وهو المؤثر؟ والعفص هو المؤثر فيه اسم مفعول، ولو كان ذلك لبقي الزاج على حاله إذا كان غير ممتزج وينصبغ ماء العفص والمشهود خلاف ذلك، وكذلك القول في العفص، فلم يبق إلاَّ حقيقة المزج وهي التي أحدثت السواد ما هو لواحد بعينه حقيقة ما قلناه في الإلهيات ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] ويأتي الله يوم القيامة للفصل والقضاء وبيده الميزان يخفض ويرفع الله ولا عالم هل يتصف بوقوع هذا الفعل فظهر بالعالم ما لم يظهر ولا عالم فليس الحكم على السواء، فقال النبي ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ» ولم يقل وهو الآن على ما عليه كان كيف يقول ذلك ﷺ وهو أعلم الخلق بالله وهو الذي جاء من عند الله بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وفرغ ربك من كذا وكذا، وينزل ربنا إلى السماء، وقد كان ولا سماء ولا عالم هل كان يوصف بالنزول إلى من أو من أين ولا أين، ثم أحدث الأشياء فحدثت النسب فاستوى ونزل وأخذ الميزان فخفض ورفع، بذا وردت الأخبار التي لا تردها العقول السليمة من الأهواء والإيمان بها واجب والكيف غير معقول فهو الواحد الواجد الأحد الماجد الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

لولا وجود النفس واستعدادات المخارج في المتنفس ما ظهر للحروف عين، ولولا التأليف ما ظهر للكلمات عين، فالوجود مرتبط بعضه ببعض، فلولا الحرج والضيق ما كان للنفس الرحماني حكم، فإن التنفيس هو إزالة عين الحرج والضيق فالعدم نفس الحرج والضيق، فإنه يمكن أن يوجد هذا المعدوم، فإذا علم الممكن إمكانه وهو في حال العدم كان

في كرب الشوق إلى الوجود الذي تعطيه حقيقته ليأخذ بنصيبه من الخير، فنفس الرحمن بنفسه هذا الحرج فأوجده فكان تنفيسه عنه إزالة حكم العدم فيه، وكل موجود سوى الله فهو ممكن فله هذه الصفة، فنفس الرحمن هو المعطي صور الممكنات الوجود كما أعطى النفس وجود الحروف، فالعالم كلمات الله من حيث هذا النفس كما قال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وهو عين عيسىٰ عليه السلام، وأخبر أن كلمات الله لا تنفد فمخلوقاته لا تزال توجد ولا يزال خالقاً.

وكذلك لما رأينا في هذه الأجسام العنصرية أموراً مختلفة الصور مختلفة الأشكال مختلفة المزاج، ومع هذا ما يخرجها ذلك الاختلاف عن حقيقة كونها يجمعها حد واحد وحقيقة واحدة، كأشخاص الحيوان على اختلاف أنواعه وأشكاله، كالطير لا يخرجه ما ظهر فيه من اختلاف المقادير والأشكال والألوان عن كونه طيراً، فعلمنا أن هذا الاختلاف ما هو لكونه إنساناً ولا لكونه طيراً، فإن الإنسانية في كل واحد واحد من أشخاصها مع ظهور الاختلاف، فلا بدّ لذلك من حقائق أخر معقولة أوجبت لها ذلك الاختلاف، فبحثنا عن ذلك في العلم الإلهيّ الذي هو مطلوبنا إذ كان الوجود مرتبطاً به فوجدناه تعالىٰ لا يكرر تجلياً ويظهر في صورة ينكر فيها وفي صورة يعرف فيها وهو الله تعالىٰ في الصورتين الأولى والآخرة وفي كل صور التجلي، فقامت صور التجلي في الألوهة مقام اختلاف أحوال صور أشخاص النوع في النوع، فعلمنا أن تغيّر أشخاص النوع من هذه الحقيقة الإلهية، فعلمنا أنا ما علمنا من الحق إلا ما أشهدنا، وأن الله تجلّى للنوع من حيث ما هو نوع فلم يتغير عن نوعيته كما لم يزل إلهاً في ألوهته، ثم يظهر لذلك النوع في صور مختلفة اقتضتها ذاته تعالىٰ، فظهر في أشخاص النوع اختلاف صور على وزنها ومقدارها، فلولا أنه في استعداد هذا النوع المتغير بالشخص في الأشكال والألوان والمقادير التي لا تخرجه عن نوعيته لما قبل هذا التغيير ولكان على صورة واحدة، وإذا كان الكثيف مع كثافته مستعداً لقبول الصور المختلفة بصنعة الصانع فيه كالخشب وما تصور منه بحسب ما يقوم في نفس الصانع من الصور المختلفة فاللطيف أقبل للاختلاف كالماء والهواء، فما كان ألطف كان أسرع بالذات لقبول الاختلاف، فتبين لك أن اختلاف صور العالم من أعلاه لطفاً إلى أسفله كثافة لا يخرج كل صورة ظهر فيها عن كونه نفس الرحمن، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [سورة نوح: الآية ١٧] فالأرض واحدة، وأين صورة النجم من صورة الشجر على اختلاف أنواعها؟ من صورة الإنسان؟ من صور الحيوان؟ وكل ذلك من حقيقة عنصرية ما زالت عنصريتها باختلاف ما ظهر فيها، فاختلاف العالم بأسره لا يخرجه عن كونه واحد العين في الوجود، فزيد ما هو عمرو وهما إنسان فهما عين الإنسان لا غيره، فمن هنا تعرف العالم من هو وصورة الأمر فيه إن كنت ذا نظر صحيح ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] ما ثم إلا النفس الناطقة وهي العاقلة والمفكرة والمتخيلة والحافظة والمصورة والمغذية والمنمية والجاذبة والدافعة والهاضمة والماسكة والسامعة والباصرة والطاعمة والمستنشقة واللامسة والمدركة لهذه الأمور، واختلاف هذه

القوىٰ، واختلاف الأسماء عليها، وليست بشيء زائد عليها بل هي عين كل صورة، وهكذا تجده في صور المعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأملاك، فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها: [الطويل]

فـمـا نـظَرَتْ عـيـنـي إلـى غـيـرِ وَجْـهِـهِ ... ومـا سـمـعَـتْ أُذنـي خـلافَ كـلامـهِ
فـكـلُّ وجـودٍ كـان فـيـه وجـوده ... وكـل شـخَـيْـصٍ لـم يـزَلْ فـي مَـنَـامـهِ
فـتَـعْـبـيـرُ رؤيـا نـالـهـا فـي مَـنَـامِـنَـا ... فـمـن لامَ فـلـيَـلْـحَـقْ بـه فـي مـلامِـهِ

وممّا يتعلق بهذا الباب وبباب ركن الماء ما يظهر فيهما من السخانة عن الشعاعات النورية المنفهقة من ذات الشمس أين أصلها في العلم الإلهي، فإن الأجسام الأرضية والمائية إذا اتصلت بها أشعة الأنوار الشمسية والكوكبية يرى بعض الأجسام يسخن عند انبساط الشعاع عليه، وبعض الأجسام على برده لا يقبل التسخين مع اختراق الشعاعات ذلك الجسم كدائرة الزمهرير، وما علا من الجوّ لا أثر لحر الشعاعات فيه، فاعلم أن للوجه الإلهي سبحات محرقات لولا الحجب لأحرقت العالم، فلا تخلو هذه الحجب إما أن تكون من العالم ولا شكّ أن السبحات لو لم تنبسط على الحجب لما كانت حجباً عنها، ولو اقتضت السبحات الإحراق احترقت الحجب، ثم لا تخلو الحجب أن تكون كثيفة أو لطيفة، فإن كانت لطيفة لم تحجب كما لم يحجب الهواء اتصال شعاع الشمس بالأجسام الأرضية، وإن كانت كثيفة كالجدران وأشباهها فلا خفاء أن الجدار يسخن بشعاع الشمس إذا كان متراص الأجزاء غير مخلخل، ثم إن النور لا تحجبه الظلمة لأنه ينفرها فلا تجتمع به لكن تجاوره من خلف الحجاب الموجد للظلمة التي تباشر النور، فالظلمة تجاور الشعاع والموجد للظلمة يقبل انبساط الشعاع عليه، فلا تكون الظلمة حجاباً بهذا الاعتبار وقد ثبت كونها حجاباً، وكون النور حجاباً على نور الوجه، والنور يتقوّى بالنور لا يحجبه، فافهم حقيقة سبحات الوجه وأنها دلائل ذاتية إذا ظهرت أحرقت نسباً لا أعياناً، فتبين أنها عين تلك الأعيان أعني الوجه فزال الجهل الذي كانت ثمرته أن العالم ما هو عين الوجه، فبقي العالم على صورته لم تذهبه السبحات بل أثبتته وأبانت عن وجه الحق ما هو فكان الحجاب معنوياً فاحترقت النسبة.

الفصل الثاني والثلاثون: في الاسم الإلهيّ العزيز وتوجهه على إيجاد المعادن، وله حرف الظاء المعجمة، ومن المنازل سعد الذابح.

اعلم أن الذات لما اختصت بسبع نسب تسمّى صفات إليها يرجع جميع الأسماء والصفات، وقد ذكرنا رجوعها إليها في كتاب إنشاء الجداول كما ذكرها من تقدّم قبلنا، غير أني زدت على من تقدم بإلحاق الاسم المجيب مع الاسم الشكور لصفة الكلام، فإن المتقدمين قبلنا ما ألحقوا بالاسم الشكور الاسم المجيب، وكانت السموات سبعاً والسيارة سبعة والأرضون سبعة والأيام سبعة، جعل الله تكوين المعادن في هذه الأرض عن سباحة هذه السبعة الدراري بسبعة أفلاكها في الفلك المحيط فأوجد فيها سبعة معادن. ولما كان الاسم العزيز المتوجه على إيجادها ولم يكن لها مشهود سواه عند وجودها أثر فيها عزّة ومنعاً فلم

يقو سلطان الاستحالة التي تحكم في المولدات والأمهات من العناصر يحكم فيها بسرعة الإحالة من صورة إلى صورة مثل ما يحكم في باقي المولدات، فإن الاستحالة تسرع إليهم ويظهر سلطانها فيهم بزيادة ونقص وخلع صورة منهم وعليهم، وهذا يبعد حكمه في المعادن، فلا تتغير الأحجار مع مرور الأزمان والدهور إلاّ عن بعد عظيم، وذلك لعزّتها التي اكتسبتها من الاسم الإلهيّ العزيز الذي توجه على إيجادها من الحضرة الإلهية. ثم إن هذا الاسم طلب بإيجادها رتبة الكمال لها حتى تتحقق بالعزّة فلا يؤثر فيها دونه اسم إلهيّ نفاسة منه لأجل انتسابها إليه. وعلم العلماء بأن وجودها مضاف إليه فلم يكن القصد بها إلاّ صورة واحدة فيها عين الكمال وهو الذهبية، فطرأت عوارض لها في الطريق من الاسم الضارّ وإخوانه، فأمرض أعيانهم وعدل بهم عن طريقهم حكمت عليهم بذلك المرتبة التي مروا عليها، ولا يتمكن لاسم أن يكون له حكم في مرتبة غيره، فإن صاحب المنزل أحق بالمنزل، وهم أرباب الأدب الإلهي ومعلمو الأدب، فبقي الاسم العزيز في هذه المرتبة يحفظ عين جوهر المعدن، وصاحب المرتبة من الأسماء يتحكم في صورته لا في عين جوهره.

وللأسماء الإلهية في المولدات والعناصر سدنة من الطبائع ومن العناصر يتصرّفون في هذه الأمور بحكم صاحب المرتبة الذي هو الاسم الإلهيّ وهم المعدن وحرارته وبرد الشتاء وحرارة الصيف والحرارة المطلقة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ولكل واحد ممّا ذكرناه حكم يخصّه يظهر في جوهر المولدات والعناصر فيسخف ويكثف ويبرد ويسخن ويرطب وييبس، ورتبة الكمال من تعتدل فيه هذه الأحكام وتتمانع ولا يقوى واحد منهم على إزالة حكم صاحبه، فإذا تنزّه الجوهر عن التأثير فخلع صورته عنه ومنع نفسه من ذلك فذلك حكم رتبة الكمال وليس إلاّ الذهب في المعدن، وأما سائر الصور فقامت بها أمراض وعلل أخرجتهم عن طريق الكمال، فظهر الزئبق والأسرب والقزدير والحديد والنحاس والفضة، كما ظهر الياقوت الأصفر والأكهب في جوهر الياقوت، ولما فارقت المعدن الذي هو موطنها في ركن الأرض بقيت على مرضها ظاهرة بصورة الاعتلال دائماً، فالحاذق النحرير من علماء الصنعة إذا عرف هذا وأراد أن يلحق ذلك المعدن برتبة الكمال ولا يكون ذلك إلاّ بإزالة المرض وليس المرض إلاّ زيادة أو نقصاً في الجوهر، وليس الطب إلاّ زيادة تزيل حكم النقص أو نقصاً يزيل حكم الزيادة، وليس الطبيب إلاّ أن يزيد في الناقص أو ينقص من الزائد فينظر الحاذق من أهل النظر في طب المعادن ما الذي صيّره حديداً أو نحاساً أو ما كان، وحال بينه وبين الذهبية أن يصل إلى منزلتها ويظهر صورتها فيه، فيفوز بدرجة الكمال، ويحوز صفة العزّة والمنع عن التأثير فيه.

وتساعد هذا الطبيب سباحة الأنوار السبعة في أفلاكها أعني الدراري وهي: القمر والكاتب والزهرة والشمس والأحمر والمشتري وكيوان بما في قوّتها لما يعطيه بعضها من اختلاف الزمان، وحكم كل زمان يخالف حكم الذي يليه من وجه ويوافقه من وجه ويخالفه من جميع الوجوه، ولا يمكن أن يوافقه من جميع الوجوه إذ لو وافقه لكان عينه ولم يكن اثنان

وهما اثنان بلا شك، فالموافقة من جميع الوجوه لا تكون، ولكرور هذه الأزمان وتوالي الجديدين أثر في الأركان وأثر في عين الولد في تسوية جوهره وتعديله، فإذا سوّاه وعدّله وهو أن يصيّره جوهراً قابلاً لأي صورة يريد الحق أن يركبه فيها والصور مختلفة، فاختلفت المعادن كما اختلف النبات بالصورة، كما اختلف الحيوان بالصورة وهو من حيث الجوهر الطبيعي واحد العين، ولهذا يعمه من حيث جوهره حد واحد، وما تختلف الحدود فيه إلاّ من أجل الصورة، وكذلك في الآباء والأمّهات، بل جوهر العالم كله واحد بالجوهرية، والعين تختلف بالصور وما يعرض له من الأعراض فهو المجتمع المفترق والواحد الكثير صورة الحضرة الإلهية في الذات والأسماء، فيرد الحاذق الجوهر المعلول الذي عدلت به علته عن طريق الكمال إلى طريقه ليتمكن من تدبيره وحفظ بقاء صحته عليه، ويحفظه ممّا بقي له في طريقه من منازل التغييرات الحائلة بينه وبين رتبة الكمال، وإنما فعل الله هذا بهذ الجوهر في الطريق وسلّط عليه من يعله ويمرضه حتى يحول بينه وبين بلوغه إلى رتبة الكمال المعدني لمصالح هذا النوع الإنساني لعلمه بأنه يحتاج إلى آلات وأمور لا بدّ له منها، ولا يكون له هذه الآلات إلاّ بقيام هذه الأمراض بهذا الجوهر وعدوله عن الطريق، وحال الله سبحانه بين الأطباء وبين العلم بإزالة هذه الأمراض من هذا الجوهر إلاّ الأمناء منهم الذين علم الله منهم أنهم يبقون الحكمة على ما وضعها الله في العالم، فيبقي الحديد حديداً لما فيه من المنافع التي لا تكون في الذهب ولا في غيره من المعادن كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥] يريد أنه أنزله عن رتبة الكمال لأجل ما فيه من منافع الناس، فلو صحّ من مرضه لطغى وارتفع ولم توجد تلك المنافع وبقي الإنسان الذي هو العين المقصودة معطل المنافع المتعلقة بالحديد التي لا تكون إلاّ فيه، ففيه كما قال الله: ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥] وهكذا سائر المعادن فيها منافع للناس وقد ظهرت واستعملها الإنسان، فانظر ما أشدّ عناية الله بهذا النوع الإنساني وهو غافل عن الله كافر لنعمه متعرض لنقمه. ولما علم الله أن في العالم الإنسانيّ من حرمه الله الأمانة ورزقه إذاعة الأسرار الإلهية وسبق في علمه أن يكون لهذا الذي هو غير أمين رزقه في علم التدبير رزقه الشحّ به على أبناء جنسه بخلاً وحسداً ونفاسة أن يكون مثله غيره فترك العمل به غير مأجور فيه ولا موافق لله.

ثم إن الله كثر المعادن ولم يجعل لهذا الإنسان أثر، إلاّ فيما حصل بيده منها وما عسى أن يملك من ذلك فيظهر في ذلك القدر تدبيره وصنعته ليعلم العقلاء الحكماء أنه غير أمين فيما أعطاه الله فإنه ما أذن له في ذلك من الله. ثم إن الله جعل للملوك رغبة في ذلك العلم، فإذا ظهر به من ليس بأمين عندهم سألوه العلم فإن منعهم إياه قتلوه حسداً وغيظاً، وإن أعطاهم علم ذلك قتلوه خوفاً وغيرة. ولما علم العالم أن ما له مع الملوك إلا مثل هذا لم يظهر به عندهم ولا عند العامة لئلا يصل إليهم خبره لا أمانة وإنما ذلك خوفاً على نفسه، فلا يظهر في هذه الصنعة عالم بها جملة واحدة والمتصوّر فيها بصورة العلم يعلم في نفسه أنه ما عنده شيء وأنه لا بدّ أن يظهر للملك دعواه الكاذبة فيأمن غائلته في الغالب من القتل ويقنع بما

يصل إليه من جهته من الجاه والمال للطمع الذي قام بذلك الملك، فما ظهر عالم بهذه الصنعة قط ولا يظهر غيرة إلهية مع كونه قد رزقه الله الأمانة في نفسه.

ومن هذا الاسم الإلهيّ وجود الأحجار النفيسة كاليواقيت واللآلىء من زبرجد وزمرد ومرجان ولؤلؤ وبلخش، وجعل في قوّة الإنسان إيجاد هذا كله أي هو قابل أن يتكوّن عنه مثل هذا ويسمّى ذلك في الأولياء خرق عادة، والحكايات في ذلك كثيرة ولكن الوصول إلى ذلك من طريق التربية والتدبير أعظم في المرتبة في الإلهيات ممّن يتكوّن عنه في الحين بهمته وصدقه، فإن الشرف العالي في العلم بالتكوين لا في التكوين لأن التكوين إنما يقوم مقام الدلالة على أن الذي تكوّن عنه هذا بالتدبير عالم وصاحب خرق العادة لا علم له بصورة ما تكوّن عنه بكيفية تكوينها في الزمن القريب والعالم يعلم ذلك.

الفصل الثالث والثلاثون: في الاسم الإلهيّ الرزاق وتوجهه على إيجاد النبات من المولدات، وله من الحروف الثاء المعجمة بالثلاث، وله من المنازل سعد بلع.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة: الآيات ٧١ ـ ٧٣] فجعلها للعلماء تذكرة فجاء بالاسم الرزاق بهذه البنية للمبالغة لاختلاف الأرزاق وهي مع كثرتها واختلافها منه لا من غيره، وأن المرزوقين مختلف قبولهم للأرزاق، فما يتغذى به حيوان ما قد لا يصلح أن يكون لحيوان آخر لأن المراد بتناول الرزق بقاء المرزوق، فإذا أكل ما فيه حتفه فما تغذى به وما هو رزق له وإن كان به قوام غيره فلذلك تسمّى ببنية المبالغة في ذلك، ونعت هذا الرزاق بذي القوّة المتين ولو نعت به الله لقال: ذا القوّة المتين فنصب، ولا يتمكن نعت الاسم الله من حيث دلالته فإنه جامع للنقيضين، فهو وإن ظهر في اللفظ فليس المقصود إلاّ اسماً خاصاً منه تطلبه قرينة الحال بحسب حقيقة المذكور بعده الذي لأجله جاء الاسم الإلهيّ، فإذا قال طالب الرزق المحتاج إليه: يا الله ارزقني، والله هو المانع أيضاً فما يطلب بحاله إلاّ الاسم الرزاق فما قال بالمعنى إلاّ يا رزاق ارزقني، ومن أراد الإجابة في الأمور من الله فلا يسأله إلاّ بالاسم الخاص بذلك الأمر، ولا يسأل باسم يتضمن ما يريده وغيره ولا يسأل بالاسم من حيث دلالته على ذات المسمّى، ولكن يسأل من حيث المعنى الذي هو عليه الذي لأجله جاء وتميز به عن غيره من الأسماء تميز معنى لا تميز لفظ.

واعلم أن الأرزاق منها معنويّ ومنها حسيّ، والمرزوقين منهم معقول ومنهم محسوس، ورزق كل مرزوق ما كان به بقاؤه ونعيمه إن كان ممّن يتنعم وحياته إن كان ممّن يوصف بأنه حيّ، وليست الأرزاق لمن جمعها وإنما الأرزاق لمن تغذى بها، يحكى أنه اجتمع متحرّك وساكن فقال المتحرّك: الرزق لا يحصل إلاّ بالحركة، وقال الساكن: الرزق يحصل بالحركة والسكون وبما شاء الله وقد فرغ الله منه، فقال المتحرّك: فأنا أتحرّك وأنت اسكن حتى أرى من يرزق، فتحرّك المتحرّك فعندما فتح الباب وجد حبة عنب فقال: الحمد

لله غلبت صاحبي فدخل عليه وهو مسرور فقال له: يا ساكن تحرّكت فرزقت ورمى بحبة العنب إلى الساكن فأخذها الساكن فأكلها وحمد الله وقال: يا متحرّك سكنت فأكلت والرزق لمن تغذّى به لا لمن جاء به، فتعجب المتحرّك من ذلك ورجع إلى قول الساكن، والمقصود من هذه الحكاية أن الرزق لمن تغذى به، فأوّل رزق ظهر عن الرزاق ما تغذّت به الأسماء من ظهور آثارها في العالم وكان فيه بقاؤها ونعيمها وفرحها وسرورها، وأول مرزوق في الوجود الأسماء فتأثير الأسماء في الأكوان رزقها الذي به غذاؤها وبقاء الأسماء عليها، وهذا معنى قولهم: إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت الربوبية، فإن الإضافة بقاء عينها في المتضايفين، وبقاء المضافين من كونهما مضافين إنما هو بوجود الإضافة، فالإضافة رزق المتضايفين وبه غذاؤهما وبقاؤهما متضايفين، فهذا من الرزق المعنويّ الذي يهبه الاسم الرزاق وهو من جملة المرزوقين، فهو أوّل من تغذّى بما رزق، فأوّل ما رزق نفسه ثم رزق الأسماء المتعلقة بالرزق الذي يصلح لكل اسم منها وهو أثره في العالم المعقول والمحسوس، ثم نزل في النفس الإلهيّ بعد الأسماء فوجد الأرواح الملكية فرزقها التسبيح، ثم نزل إلى العقل الأوّل فغذاه بالعلم الإلهيّ والعلم المتعلق بالعالم الذي دونه، وهكذا لم يزل ينزل من عين ما يطلب ما به بقاؤه وحياته إلى عين حتى عمّ العالم كله بالرزق فكان رزاقاً، فلما وصل إلى النبات ورأى ما يحتاج إليه من الرزق المعين فأعطاه ما به غذاؤه فرأى جلّ غذائه في الماء فأعطاه الماء له ولكل حيّ في العالم وجعله رزقاً له، ثم جعله رزقاً لغيره من الحيوان فهو والحيوان رزق ومرزوق، فيرزق فيكون مرزوقاً ويرزق به فيكون رزقاً وهكذا جميع الحيوان يتغذى ويتغذى به فالكل رزق ومرزوق.

وإنما أعطى الماء رزقاً لكل حيّ لأنه بارد رطب والعالم في عينه غلبت عليه الحرارة واليبوسة، وسبب ذلك أن العالم مقبوض عليه قبضاً لا يتمكن له الانفكاك عنه لأنه قبض إلهيّ واجب على كل ممكن فلا يكون إلاّ هكذا، والانقباض في المقبوض يبس بلا شك فغلب عليه اليبس فهو يطلب بذاته لغلبة اليبس ما يلين به ويرطب فتراه محتاجاً من حيث يبسه إلى الرطوبة، وأما احتياجه إلى البرودة فإن العالم مخلوق على الصورة، ورأى أن من خلق على صورته مطلق الوجود يفعل ما يريد، فأراد أن يكون بهذه المثابة ويخرج عن القبض عليه فيكون مسرح العين غير مقبوض عليه في الكون والإمكان يأبى ذلك، والصورة تعطيه القوّة لهذا الطلب ولا ينال مطلوبه فيدركه الغبن فيحمي فتغلب الحرارة عليه فيتأذى فيخاف الإنعدام فيجنح إلى طلب البرودة ليسكن بها ما يجده من ألم الحرارة ويحيي بها نفسه، ويبس القبض الذي هو عليه يطلب الرطوبة، فنظراً لاسم الرزاق في غذاء يحيا به يكون بارداً ليقابل به الحرارة وسلطانها ويكون رطباً فيقابل به سلطان اليبس فوجد الماء بارداً رطباً فجعل منه ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ في كل صنف صنف بما يليق به قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] أي يصدّقون بذلك، وإنما قرن به الإيمان لجواز خلافه عقلاً الذي هو ضدّ الواقع من أنه لو غلب عليه خلاف ما غلب عليه أهلكه، فلا بدّ أن تكون حياته

في نقيض ما غلب عليه، ألا ترى لو غلب عليه البرد والرطوبة هلك ولم يكن له حياة إلاَّ الحرارة واليبس فكان يقال في تلك الحال: وجعلنا من النار كل شيء حيّ ولو غلب عليه البرد واليبس لكانت حياته بالهواء فيقال في تلك الحال: وجعلنا من الهواء كل شيء حيّ، ولو أفرطت فيه الحرارة والرطوبة لكانت حياته بالتراب وكان يقال لتلك الحالة: وجعلنا من التراب كل شيء. ثم هذا ما يحتمله التقسيم في هذا لو كان، فلما كان الواقع في العالم غلبة الحرارة واليبوسة عليه لما ذكرناه من سبب الصورة والقبض ثار عليه سلطان الحرارة واليبس فلم تكن له حياة إلاَّ ببارد رطب فكان الماء فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ وينظرون في قولنا من الماء فيعلمون طبع الماء وأثره وفيمن يؤثر وماذا يدفع به فيعلم أن العالم موصوف بنقيض ما يقتضيه الماء فيحكم عليه به، فيعلم الناظر من طبع الدواء ما يقابل به طبع المرض الذي نزل بهذا المريض، فنفس الرحمن عنه ما كان يجده هذا المريض فهذا من النفس الرحمانيّ، فالأرزاق كلها عند المحقق أدوية، لأن العالم كله يخاف التلف على نفسه لأن عينه ظهر عن عدم وقد تعشق بالوجود، فإذا قام به من يمكن عنده إذا غلب عليه أن يلحقه بالعدم سارع إلى طلب ما يكون به بقاؤه وإزالة حكم مرضه أو توقّع مرضه فذلك رزقه الذي يحيا به، ودواؤه الذي فيه شفاؤه أيّ نوع كان في الشخصيات، وكل ما يقبل النمو فهو نبات والذي ينمو به هو رزقه.

ثم إن الرزق على نوعين في الميزان الموضوع في العالم لإقامة العدل وهو الشرع. النوع الواحد: يسمّى حراماً. والنوع الآخر: يسمّى حلالاً وهو بقية الله التي جاء نصها في القرآن قال تعالىٰ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٨٦] فهذه هي التي بقيت للمؤمنين من قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] والإيمان لا يقع إلاَّ بالشرع، وجاء هذا القول في قصة شعيب صاحب الميزان والمكيال، فهذا علم مستفاد من الإعلام الإلهيّ والرزاق هو الذي بيده هذا المفتاح، فرزق الله عند بعض العلماء جميع ما يقع به التغذي من حلال وحرام فإن الله يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [سورة هود: الآية ٦] وهو ظاهر لا نص، وقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [سورة هود: الآية ٦٤] ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٢] وقد نهانا عن التغذي بالحرام، فلو كان رزق الله في الحرام ما نهانا عنه، فإذن ما هو الحرام رزق الله وإنما هو رزق ورزق الله هو الحلال وهو بقية الله التي أبقاها لنا بعد وقوع التحجير وتحريم بعض الأرزاق علينا، ولتعلم من جهة الحقيقة أن الخطاب ليس متعلقه إلاَّ فعل المكلف لا عين الشيء الممنوع التصرّف فيه، فالكل رزق الله والمتناول هو المحجور عليه لا المتناول بفتح الواو، فإن الرزاق لا يعطيك إلاَّ رزقك وما يعطي الرزاق لا يطعن فيه، فلهذا علّق الذم بفعل المكلف لا بالعين التي حجر عليه تناولها، فإن المالك لها لم يحجر عليه تناولها والحرام لا يملك، وهذه مسألة طال الخبط فيها بين علماء الرسوم.

وأما قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [سورة النحل: الآية ١١٤] من العامل في

الحال فظاهر الشرع يعطي أن العامل رزقكم فإن «من» هنا في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ للتبيين لا للتبعيض فإنه لا فائدة للتبعيض فإن التبعيض محقق مدرك ببديهة العقل لأنه ليس في الوسع العاديّ أكل الرزق كله، وإذا كانت للتبيين وهي متعلقة بكلوا فبين أن رزق الله هو الحلال الطيب، فإن أكل ما حرم عليه فما أكل رزق الله فتدبر وانظر ما به حياتك فذلك رزقك ولا بدّ ولا يصحّ فيه تحجير وسواء كان في ملك الغير أو لم يكن، وهذه إشارة في تلخيص المسألة وهي التي يطلبها الاسم الرزاق، فإن المضطرّ لا حجر عليه وما عدا المضطرّ فما تناول الرزق لبقاء الحياة عليه وإنما تناوله للنعيم به وليس الرزق إلاّ ما تبقى به حياته عليه، فقد نبهت خاطرك إلى فيصل لا يمكن ردّه من أحد من علماء الشريعة، فإن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٣] بعد التحجير، وقال: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩] وذلك هو الرزق الذي نحن بصدده وهو الذي يعطيه الرزاق جعلنا الله من المرزوقين الذين لا يكونون أرزاقاً، فإن الله أنبتنا من الأرض نباتاً.

وصل: ثم اعلم أن الحركات في النبات على ثلاثة أقسام، وأن الرأس من النبات هو الذي يطلب الحركات فحيثما توجه من الجهات نسب إليها، فإذا قابل غيرها كان نكساً في حقّه، ثم اعتبر العلماء الجهات بوجود الإنسان وجعلوا الاستقامة في نشأته وحركته إلى جهة رأسه فسمّوا حركته مستقيمة، وكل نبات إنّما يتحرك إلى جهة رأسه، فكل حركة تقابل حركة الإنسان على سمتها تسمّى منكوسة وذلك حركة الأشجار، وإذا كانت الحركة بينهما يقابل المتحرّك برأسه الأفق كانت حركته أفقية، فالنبات الذي لا حسّ له وله النمو حركته كلها منكوسة بخلاف شجر الجنة فإن حركة نبات الجنة مستقيمة لظهور حياتها فإنها الدار الحيوان والنبات الذي له حس على قسمين: منه ماله الحركة المستقيمة كالإنسان، ومنه من له الحركة الأفقية كالحيوان وبينهما وسائط، فيكون أوّل الإنسان وآخر الحيوان، فلا يقوى قوّة الإنسان ولا يبقى عليه حكم الحيوان كالقرد والنسناس، كما بين الحيوان والنبات وسط مثل النخلة، كما بين المعدن والنبات وسط مثل الكماة، فحركة النبات منكوسة ومنها مخلقة وغير مخلقة، فالمخلقة تسمّى شجراً وهو كل نبات قام على ساق، وغير المخلقة يسمّى نجماً وهو كل نبات لم يقم على ساق بل له الطلوع والظهور على وجه الأرض خاصة وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٦] أي ما قام على ساق من النبات وما لم يقم على ساق فتمام الخلق في النبات القيام على ساق، فلذلك كان النجم غير مخلق كما جاء في خلق الإنسان، ومن خلق من نطفة في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٥] ويدخل الكل في حكم ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فأعطى غير المخلقة خلقها كما أعطى المخلقة خلقها، كما أنه من كمال الوجود وجود النقص فيه.

ولما حكم العلماء على حركة النبات على ما قرّرناه من الانتكاس ما وفوا النظر حقّه بل حركته عندنا مستقيمة فإنه ما تحرّك إلاّ للنمو، وما تحرّك حيوان ولا إنسان هذه الحركة التي لنموه إلاّ من كونه نباتاً، ولا يقال في النبات إنه مختلف الحركات من حيث هو نبات، وإنما

تختلف الحركات إذا كانت لغير النموّ مثل الحركات في الجهات، فإن الحركات في الجهات من المتحرك إنما ذلك نسبة إرادة التحرّك لذلك الجسم من المحرك، وقد يكون المحرك عين المتحرك مثل حركة الاختيار، وقد تكون الحركة في المتحرك عن متحرك آخر ولذلك الآخر آخر حتى ينتهي إلى المحرك أو المتحرك بالقصد لما ظهر من هذه الحركات. وأما الحركة للزيادة في الأجسام فمن كون الجسم نباتاً في حيوان كان أو في غيره فهي حركة واحدة وهي حركة عن أصل البزرة التي عنها ظهر الجسم بحركة النماء فيتسع في الجهات كلها بحسب ما يعطيه الإمداد في تلك الجهة، فقد تكون حركته إلى جهة اليمين تعطي نموّاً أقل من حركته إلى الفوق وكذلك ما بقي، وقد أخبر النبيّ ﷺ: **«أَنَّ النَّشْأَةَ تَقُومُ عَلَى عُجْبِ الذَّنَبِ»** فإذا أظهرت الرجل والساق والفخذ والمقعدة فعن حركة منكوسة، وما ظهر من عجب الذنب إلى وجود الرأس فعن حركة مستقيمة، وما ظهر في الاتساع عن جهة اليمين والشمال والخلف والأمام فعن حركة أفقية وكل ذلك عندنا حركة مستقيمة، وإنما الحركة المنكوسة عندنا كل حركة في متحرك يكون بخلاف ما يقتضيه طبعه، وذلك لا يكون إلاّ في الحركة القهرية لا في الحركة الطبيعية، فإذا تحرك كل جسم نحو أعظمه فتلك حركته الطبيعية المستقيمة كحركة اللهب نحو الأثير وجسم الحجر نحو الأرض، فإذا تحرك الجسم الناري نحو الأرض والسفل وتحرّك الحجر نحو العلو كانت الحركة منكوسة وهي الحركة القسرية، فإذا انتهى النموّ في الجسم بحيث أن لا يقبله الجسم من الوجه الذي لا يقبله ثم تحرك ذلك الجسم في ذلك الوجه فما حركته حركة إنبات ونموّ كالجسم الذي قد تناهى في الطول إلى غايته فيه على التعيين فما له حركة نموّ في تلك الجهة، فإذا تحرك إلى جهة الطول تحرك بكله لا للطول بل للانتقال من مكانه إلى مكان الطول سفلاً أو علواً، وانظر فيما حررناه في حركة النبات في أنها ليست بحركة منكوسة فإذا البذرة تمدّ فروعاً إلى جهة الفوق وتمدّ فروعاً إلى جهة التحت، وغذاؤها ليس أخذ النبات له من الفروع التي في التحت المسمّاة أصولاً، وإنما أخذ النبات الغذاء من البذرة التي ظهرت عنها هذه الفروع ولهذا يحصل اليبس في بعض فروع التحت كما يحصل في الفروع الظاهرة الحاملة الورق والثمر مع وجود النموّ والحياة في باقي العروق والفروع كما ينقسم الدم من الكبد في العروق إلى سائر الأعضاء علواً وسفلاً، فالذي ينبغي أن يقال في الحركات المعنوية والحسية أنها ثلاث حركات: حركة من الوسط وهي التي تعطي ما ظهر عن الأصل الذي منه تنشأ الأجسام الطبيعية، وحركة إلى الوسط وهي الإمداد الإلهي، وحركة في الوسط وهي ما به بقاء عين الأصل، وما من نبات إلاّ وهو دواء وداء، أي فيه منفعة ومضرة بحسب قبول الأمزجة البدنية وما هي عليه من الاستعداد، فيكون المضر لبعض الأمزجة عين ما هو نافع لمزاج غيرها، فلو كان لعينه لم يختلف حكمه وإنما كان للقابل والقابل نبات كما هو نبات، فما أثر بضرره ولا نفعه إلاّ في نفسه من كونه نباتاً وإن كثرت أشخاصه وتميزت بالشخصية، وإنما نبهنا بهذا على أعيان أشخاص العالم وما أثر بعضه في بعضه والعين واحدة بالحدّ الذاتي كثير بالصور العرضية، وقد أعلمتك في غير موضع من هو عين العالم الظاهر

وأنه غير متغير الجوهر، ولمن هو الحكم الذي ظهر به التغيير في هذه العين، وأنه مثل ظهور التغيير في صور المرآة لتغيير هيئات الرائي، وقد يكون لتغيير المتجليات في أنفسها، والمرآة محل ظهور ذلك لعين الرائي، فالعماء الذي هو النفس الإلهيّ هو القابل لهذه الصور كلها فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الرابع والثلاثون: في الاسم الإلهي المذلّ وتوجهه على إيجاد الحيوان، وله من الحروف الذال المعجمة، ومن المنازل سعد السعود.

قال تعالىٰ: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٧٢] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] فدخل الحيوان في ذلك، وهذا حكم الاسم المذلّ في العالم بالتسخير، حتى في المسخّر له جعل الله بعضه مسخراً لبعض من الاسم المذلّ، فإن أصل الكل مخلوق من الأرض وهي الذلول بالجعل الإلهيّ كما هي العزيزة بالأصالة، وجعل علة تسخير بعضها لبعض مع كون العالم مسخراً لنا رفعة لبعضنا على بعض بالدرجة التي يحتاج إليها المسخّر المفعول، قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢]. فاعلم أيّدك الله بروح منه أني ما أتكلم في هذه الموجودات في هذا النفس الإلهي إلاّ من حيث حكم الاسم الإلهيّ الذي أذكره مع ذلك الموجود من العالم خاصة وبعض ما له فيه من الأثر.

فاعلم أن التسخير قد يكون إذلالاً وقد يكون للقيام بما يحتاج إليه ذلك المسخّر له بالحال، وهذا الفرقان بين التسخيرين بما تعطيه حقيقة المسخر والمسخّر له، فالعبد الذي هو الإنسان مسخّر لفرسه ودابته فينظر منها في سقيها وعلفها وتفقد أحوالها ممّا فيه صلاحها وصحتها وحياتها، وهي مسخّرة له بطريق الإذلال لحمل أثقاله وركوبه واستخدامه إياها في مصالحه، وهكذا في النوع الإنساني برفع الدرجات بينهم، فبالدرجة يسخر بعضهم بعضاً، فتقتضي درجة الملك أن يسخر رعيته فيما يريده بطريق الإذلال للقيام بمصالحه لافتقاره إلى ذلك، وتقتضي درجة الرعايا والسوقة أن تسخر الملك في حفظها والذب عنها وقتال عدوّها والحكم فيما يقع بينها من المخاصمات وطلب الحقوق، فهذه سخرية قيام لا سخرية إذلال اقتضتها درجة السوقة ودرجة الملك والمذل من الأسماء هو الحاكم في الطرفين.

ثم يأتي الكشف في هذه المسألة بأمر عجيب ينطق به القرآن ويشهده العيان فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] وقال لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٦] فإنه في الأرض وهو في السماء، وهو في الصخرة، ومعنا أينما كنا، فإن الخالق لا يفارق المخلوق، والمذلّ لا يفارق الإذلال إذ لو فارقه لفارقه هذا الوصف وزال ذلك الاسم، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] أي يتذلّلوا إلي ولا يتذللون إليّ إلاّ حتى يعرفوا مكانتي وعزّتي، فخلقهم باسم المذلّ لأنه خلقهم لعبادته، ووصف نفسه بأنه القيوم

القائم على كل نفس بما كسبت وقال: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فوصف نفسه بأنه يحفظ ما في السموات وما في الأرض، فبالدرجة يكون حافظاً لما يطلبه العالم من حفظ الوجود عليه، وبالدرجة يكون العالم محفوظاً له، فإذا علمت أن السيد يسخّر عبده بالدرجة والعبد يسخر سيده بالحال وما يفعل ذلك السيد للعبد بطريق الجبر من العبد والإذلال وإنما يفعله لثبوت سيادته عليه فما سخّره للعبد إلاَّ حظ نفسه، ألا ترى أنه يزول عن السيد اسم السيد إذا باع عبده أو هلك؟ فانظر في حكم هذا الاسم ما أعجبه، وإنما اختصّ بالحيوان لظهور حكم القصد فيه ولأنه مستعد للإبانة لما هو عليه من الإرادة، فلما توجه عليه الاسم المذلّ صار حكمه تحت حكم من لا إرادة له ولا قدرة لما تعطي هاتان الصفتان من العزّة لمن قامتا به، فأصحب الله من شاء صفة الافتقار والفاقة والحاجة، فذلّ لكل ذلول يرى أن له عنده حاجة يفتقر إليه فيها وينحط عن رتبة عزّه بسببها، فربط الله الوجود على هذا وكان به صلاح العالم، فليس في الأسماء من أعطى الصلاح العام في العالم ولا من له حكم في الحضرة الإلهية مثل هذا الاسم المذلّ، فهو ساري الحكم دائماً في الدنيا والآخرة، فمن أقامه الحق من العارفين في مشاهدته وتجلّى له فيه ومنه فلا يكون في عباد الله أسعد منه بالله ولا أعلم منه بأسرار الله على الكشف، وهذا القدر من الإيماء في هذا الفصل كاف في علم التسخير الإلهيّ والكونيّ، فإنه ألحق السيد بالعبيد وألحق العبيد بالسيد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الخامس والثلاثون: في الاسم الإلهيّ القويّ وتوجهه على إيجاد الملائكة، وله من الحروف حرف الفاء، ومن المنازل المقدّرة سعد الأخبية.

قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] وقال في الملائكة: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وإلاَّ ما آتاها والأمر تكليف، فظهرت القوّة في الملائكة بإمداد الاسم القويّ فإنه بقوّته أمدّهم، وليس في العالم المخلوق أعظم قوّة من المرأة لسرّ لا يعرفه إلاَّ من عرف فيم وجد العالم، وبأي حركة أوجده الحق تعالىٰ وأنه عن مقدّمتين، فإنه نتيجة والناكح طالب والطالب مفتقر والمنكوح مطلوب والمطلوب له عزّة الإفتقار إليه والشهوة غالبة، فقد بان لك محل المرأة من الموجودات، وما الذي ينظر إليها من الحضرة الإلهية، وبماذا كانت ظاهرة القوّة، وقد نبّه الله على ما خصّها به من القوّة في قوله في حق عائشة وحفصة: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي تتعاونا عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي ناصره ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [سورة التحريم: الآية ٤] هذا كله في مقاواة امرأتين، وما ذكر إلاَّ الأقوياء الذين لهم الشدّة والقوّة، فإن صالح المؤمنين يفعل بالهمة وهو أقوى الفعل، فإن فهمت فقد رميت بك على الطريق، فأنزل الملائكة بعد ذكره نفسه وجبريل وصالح المؤمنين منزلة المعينين ولا قوّة إلاَّ بالله. فدلّ أن نظر الاسم القويّ إلى الملائكة أقوى في وجود القوّة فيهم من غيرهم فإنه منه أوجدهم، فمن يستعان عليه فهو فيما يستعان فيه أقوى ممّا يستعان به، فكل ملك خلقه الله من أنفاس النساء هو أقوى الملائكة فإنه من نفس الأقوى، فتوجه الاسم الإلهيّ القوي في وجود

القوّة على إيجاد ملائكة أنفاس النساء أعطى للقوّة فيهم من سائر الملائكة، وإنما اختصّت الملائكة بالقوّة لأنها أنوار وأقوى من النور فلا يكون لأن له الظهور وبه الظهور، وكل شيء مفتقر إلى الظهور، ولا ظهور له إلاَّ بالنور في العالم الأعلى والأسفل، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وقيل: «**إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ ﷺ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» وقال: «**لأَحرَقَتْ سبحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» والسبحات الأنوار فهي المظهرة للأشياء والمغنية لها، ولما كان الظل لا يثبت للنور والعالم ظل والحق نور فلهذا يفنى العالم عن نفسه عند التجلي، فإن التجلي نور وشهود النفس ظل، فيفنى الناظر المتجلي له عن شهود نفسه عند رؤية الله، فإذا أرسل الحجاب ظهر الظل ووقع التلذّذ بالشاهد، وهذا الفصل علم فيه عظيم لا يمكن أن ينقال ولا سرّه أن يذاع، من علمه علم صدور العالم علم كيفية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السادس والثلاثون: في الاسم الإلهيّ اللطيف وتوجهه على إيجاد الجنّ، وله من الحروف حرف الباء المعجمة بواحدة، ومن المنازل المقدم من الدالي.

قال الله تعالىٰ في الجان ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٧] فوصفهم باللطافة، وخلقهم الله من مارج من نار والمرج الاختلاط فهم من نار مركبة فيها رطوبة المواد ولهذا يظهر لها لهب وهو اشتعال الهواء فهو حار رطب، والشياطين من الجنّ هم الأشقياء المبعدون من رحمة الله منهم خاصة، والسعداء بقي عليهم اسم الجن وهم خلق بين الملائكة والبشر الذي هو الإنسان وهو عنصري ولهذا تكبر، فلو كان طبيعياً خالصاً من غير حكم العنصر ما تكبر وكان مثل الملائكة وهو برزخي النشأة له وجه إلى الأرواح النورية بلطافة النار منه، فله الحجاب والتشكّل، وله وجه إلينا به كان عنصرياً ومارجاً، فأعطاه الاسم اللطيف أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم ولا يشعر به، ولولا تنبيه الشارع على لمة الشيطان ووسوسته في صدور الناس ما علم غير أهل الكشف أن ثم شيطاناً، ومن حكم هذا الاسم اللطيف في الشياطين من الجن قوله تعالىٰ لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٤] قال إبليس ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٢، ٨٣] يعني الذين اصطنعهم الحق لنفسه، فجعل من لطفه لإبليس متعلقاً يتعلق به في موطن خاص يعرفه العارفون بالله.

ثم أخبر الله أن الشيطان يعدهم الفقر لقوله تعالىٰ: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ فأدرج الرحمة من حيث لا يشعر بها، ولو شعر إبليس بهذا الاستدراج الرحماني ما طلب الرحمة من عين المنة ولكن حجبته قرائن الأحوال عن اعتبار الحق صفة الأمر الإلهي فالاسم اللطيف أورث الجانّ الاستتار عن أعين الناس فلا تدركهم الأبصار إلاَّ إذا تجسدوا، وجعل سماعهم القرآن إذا تلى عليهم أحسن من سماع الإنس، فإن الإنسان وجد عن الاسم الجامع فما انفرد بخلق الاسم اللطيف الإلهيّ دون مقابله من الأسماء، فلما تلا عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما قال

في آية منها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٣] إلاَّ قالت الجنّ: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، ثم تلاها بعد ذلك ﷺ على الإنس من أصحابه فلم يظهر منهم من القول عند التلاوة ما ظهر من الجن، فقال ﷺ لأصحابه: «**إنّي تَلَوْتُ هٰذِه السُّورَةَ عَلَى الجِنّ فَكَانُوا أَحْسَنَ اسْتِمَاعاً لَهَا مِنْكُمْ**» وذكر الحديث. ويقول الله عزّ وجلّ آمراً ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] وأخبر عن الجن فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأحقاف: الآيات ٢٩ ـ ٣١] وما قال الله ولا روى عن أحد من الإنس أنه قال مثل هذا القول، فأثر فيهم الاسم اللطيف هذه الآثار في المؤمنين منهم والشياطين.

وهل حكي عن أحد من كفار الإنس قول مثل قول إبليس وهو قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٣٩، ٤٠] لما قال الله له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] فقطع يأسه منهم أن يكون له عليهم سلطان وحكم فيهم، فهم المعصومون والمحفوظون في الباطن وفي الظاهر من الوقوع عن قصد انتهاك حرمة الله، فخواطر المعصومين والمحفوظين كلها ما بين ربانية أو ملكية أو نفسية، وعلامة ذلك عند المعصوم أنه لا يجد تردداً في أداء الواجب بين فعله وتركه، ويجد التردّد بين المندوب والمكروه ولا في ترك واجب تركه لا يجد فيه التردد لأن التردد في مثل هذين هو من خاطر الشيطان، فمن وجد من نفسه هذه العلامة علم أنه معصوم فقوله: ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ عن تخلّق من قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ والتزيين الذي جاء به من قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ فإنه يتضمنه فما خرج في أفعاله في العباد عن الأمر اللطيف الذي تجعله قرائن الأحوال وعيداً وتهديداً وللظاهر تعلق بالحكم لاستواء الرحمن على العرش واتساع الرحمة وعمومها حيث لم تبق شيئاً إلاَّ حكمت عليه ومن حكمها كان قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ الآيات، فتدبر يا وليّ حكم هذا الاسم في الجان مؤمنهم وكافرهم إن لم تكن من أهل الكشف والوجود فتتبع ما ذكر الله في القرآن من أخبارهم وحكايات أفعالهم وأقوالهم مؤمنهم وكافرهم، ومن أثر الاسم اللطيف لطف إبليس في آدم في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٢٠] فصدقه وهو الكذوب ولم يكن كذبه إلاَّ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ثم علّل فقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [سورة ص: الآية ٧٦] فجمع بين الجهل والكذب فإنه ما هو خير منه لا عند الله ولا في النشأة وفضل بين الأركان ولا فضل بينها في الحقائق فتلطف في الإغواء تلطف المستدرج في الاستدراج، والماكر في المكر، والخادع في الخداع: [البسيط]

إن الـلَّـطـيـفَ مـن الأسـمـاء مـعـلـومُ ... ولُـطْـفُـه ظـاهـرٌ فـي الـخَـلْـق مَـوْسُـومُ
هـو الـلَّـطـيـفُ فـمـا يـبـدو لـنَـاظِـرنـا ... وكـيـف يُـدرك لـطـفَ الـذات مَـعْـدومُ
لُـطْـفُ الـلَّـطـيـف بـنـا نَـعْـتٌ لـه ولـنـا ... فـالـلُّـطْـفُ فـي عـيـنـه عـلـيـه مَـحْـكُـومُ

ثم اعلم أن نسبة الأرواح النارية في الصورة الجرمية أقرب مناسبة للتجلي الإلهيّ في الصور المشهودة للعين من الجسم الإنساني، وما قرب من النسب إلى ذلك الجناب كان أقوى في اللطافة من الأبعد، فلا تزال صورة الروح الناري مجهولة عند البشر لا تعلم إلاّ بإعلام إلهيّ فإنه إعلام لا يدخله ما يخرجه عن الصدق، وكذلك إعلام الأرواح الملكية، وأما لو وقع الإعلام من الجن لم نثق به لأنه عنصري الأصل، وكل موجود عنصري يقبل الاستحالة مثل أصله والموجود عن الطبيعة من غير وساطة لا يقبل الاستحالة فلهذا لا يدخل إخباره الكذب فلطافته أخفته حتى جهلت صورته. فإن قلت: فالأرواح الملكية جعلت لها الاسم الإلهيّ القوي مع وجود هذا اللطف فيها من الاسم الإلهيّ اللطيف. قلنا: صدقت لتعلم أني ما قصدت الاسم الإلهيّ المعين في إيجاد صنف من أصناف الممكنات إلاّ لكون ذلك الاسم هو الأغلب عليه وحكمه أمضى فيه، مع أنه ما من ممكن يوجد إلاّ وللأسماء الإلهية المتعلقة بالأكوان فيه أثر، لكن بعضها أقوى من بعض في ذلك الممكن المعين وأكثر حكماً فيه، فلهذا ننسبه إليه كما نسبت يوم السبت لصاحب السماء السابعة، والأحد لصاحب السماء الرابعة، وهكذا كل يوم لصاحب سماء، ومع هذا فلكل صاحب سماء في كل يوم حكم وأثر لكن صاحب اليوم الذي ننسبه إليه أكثر حكماً وأقواه فيه من غيره فاعلم هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السابع والثلاثون: في الاسم الإلهيّ الجامع وتوجهه على إيجاد الإنسان، وله من الحروف حرف الميم، وله من المنازل المقدرة الفرع المؤخر الاسم الجامع هو الله، ولهذا جمع الله لنشأة جسد آدم بين يديه فقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] وأما خلق الله السماء بأيد فتلك القوّة فإن الأيد القوّة، قال تعالىٰ: ﴿دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [سورة ص: الآية ١٧] أي صاحب القوّة ما هو جمع يد، وقد جاء في حديث آدم قوله: «اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة». فلما أراد الله كمال هذه النشأة الإنسانية جمع لها بين يديه وأعطاها جميع حقائق العالم وتجلّى لها في الأسماء كلها، فحازت الصورة الإلهية والصورة الكونية وجعلها روحاً للعالم، وجعل أصناف العالم له كالأعضاء من الجسم للروح المدبّر له، فلو فارق العالم هذا الإنسان مات العالم، كما أنه إذا فارق منه ما فارق كان فراقه لذلك الصنف من العالم كالخدر لبعض الجوارح من الجسم فتتعطل تلك الجارحة لكون الروح الحساس النامي فارقها، كما تتعطل الدنيا بمفارقة الإنسان، فالدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه، فلما كان له هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته فصحّت له الخلافة وتدبير العالم وتفصيله، فإذا لم يحز إنسان رتبة الكمال فهو حيوان تشبه صورته الظاهرة صورة الإنسان، وكلامنا في الإنسان الكامل فإن الله ما خلق أوّلاً من هذا النوع إلاّ الكامل وهو آدم عليه السلام، ثم أبان الحق عن مرتبة الكمال لهذا النوع فمن حازها منه فهو الإنسان الذي أريده، ومن نزل عن تلك الرتبة فعنده من الإنسانية بحسب ما تبقى له، وليس في الموجودات من وسع الحق سواه وما وسعه إلاّ بقبول الصورة، فهو مجلّى الحق والحق مجلّى حقائق

العالم بروحه الذي هو الإنسان، وأعطى المؤخر لأنه آخر نوع ظهر، فأوليته حق وآخريته خلق، فهو الأوّل من حيث الصورة الإلهية، والآخر من حيث الصورة الكونية، والظاهر بالصورتين والباطن عن الصورة الكونية بما عنده من الصورة الإلهية، وقد ظهر حكم هذا في عدم علم الملائكة بمنزلته مع كون الله قد قال لهم إنه خليفه فكيف بهم لو لم يقل لهم ذلك؟ فلم يكن ذلك إلاّ لبطونه عن الملائكة وهم من العالم الأعلى العالم بما في الآخرة وبعض الأولى، فإنهم لو علموا ما يكون في الأولى ما جهلوا رتبة آدم عليه السلام مع التعريف وما عرفه من العالم إلاّ اللوح والقلم وهم العالون ولا يتمكن لهم إنكاره، والقلم قد سطره واللوح قد حواه، فإن القلم لما سطره سطر رتبته وما يكون منه، واللوح قد علم علم ذوق ما خطه القلم فيه، قال الله تعالىٰ لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] على طريق استفهام التقرير بما هو به عالم ليقيم شهادته على نفسه بما ينطق به فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [سورة ص: الآية ٧٦] فاستكبر عليه لا على أمر الله وما كان من العالين فأخذه الله بقوله وكان من الكافرين نعمة الله عليه حين أمره بالسجود لآدم وألحقه بالملأ الأعلى في الخطاب بذلك فحرمه الله لشؤم النشأة العنصرية، ولولا أن الله تعالىٰ جمع لآدم في خلقه بين يديه فحاز الصورتين وإلاّ كان من جملة الحيوان الذي يمشي على رجليه ولهذا قال ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرونَ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ آسيةُ امرأةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ**» فالكمل هم الخلائف، واستخدم الله له العالم كله، فما من حقيقة صورية في العالم الأعلى والأسفل إلاّ وهي ناظرة إليه نظر كمال أمينة على سر أودعها الله إياه لتوصله إليه، وقولي صورية أي لها صورة معينة في العالم تحوز مكانها ومكانتها، وهذا القدر من الإشارة إلى حكم هذا الاسم الإلهي الجامع في هذا النوع كاف في حصول الغرض من نفس الرحمن فإنه حاز العماء كله، ولهذا كان له حرف الميم من حيث صورته وهو آخر الحروف، وليس بعده إلاّ الواو الذي هو للمراتب فيدخل فيه الحق والخلق لعموم الرتبة فلنذكرها في الفصل الذي يلي هذا الفصل وأي اسم لها فنقول.

الفصل الثامن والثلاثون: في الاسم الإلهي رفيع الدرجات ذي العرش وتوجهه على تعيين المراتب لا على إيجادها لأنها نسب لا تتصف بالوجود إذ لا عين لها، ولها من الحروف حرف الواو، ومن المنازل المقدرة الرشا، وهو الحبل الذي للفرع.

اعلم أن المراتب كلها إلهيّة بالأصالة وظهرت أحكامها في الكون، وأعلى رتبة إلهية ظهرت في الإنسان الكامل، فأعلى الرتب رتبة الغنى عن كل شيء، وتلك الرتبة لا تنبغي إلاّ لله من حيث ذاته، وأعلى الرتب في العالم الغنى بكل شيء، وإن شئت قلت: الفقر إلى كل شيء وتلك رتبة الإنسان الكامل، فإن كل شيء خلق له ومن أجله وسخّر له لما علم الله من حاجته إليه فليس له غنى عنه، والحاجة لا تكون إلاّ لمن بيده قضاؤها، وليس إلاّ الله الذي بيده ملكوت كل شيء، فلا بدّ أن يتجلى لهذا الإنسان الكامل في صورة كل شيء ليؤدي إليه من صورة ذلك الشيء ما هو محتاج إليه وما يكون به قوامه. ولما اتصف الله لعباده بالغيرة

أظهر حكمها فأبان لهم أنه المتجلي في صورة كل شيء حتى لا يفتقر إلاّ إليه خاصة فقال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فافهم وتحقق ركون الناس إلى صور الأسباب وافتقارهم إليها، وأثبت الله افتقار الناس إليه لا إلى غيره ليبين لهم أنه المتجلي في صور الأسباب، وأن الأسباب التي هي الصور حجاب عنه ليعلم ذلك العلماء لعلمهم بالمراتب.

واعلم أن لكل اسم من الأسماء مرتبة ليست للآخر، ولكل صورة في العالم رتبة ليست للصورة الأخرى، فالمراتب لا تتناهى وهي الدرجات وفيها رفيع وأرفع، سواء كانت إلهية أو كونية فإن الرتب الكونية إلهية فما ثم رتبة إلاّ رفيعة وتقع المفاضلة في الرفعة، ومن هنا تعرف مآل الثقلين عرفان ذوق، فإن مآلهم لا بدّ أن يكون إلى مرتبة إلهية، وما عدا الثقلين فمآلهم معروف عند العلماء الإلهيين، ومآل الثقلين لا يعلم مرتبته إلاّ الخصوص من العلماء بالله، وإنما كان لها الواو لأن الواو لها الستة من مراتب العدد وهي أول عدد كامل، والكمال في العالم إنما كان بالمرتبة فأعطيناه الواو، ومن المنازل الرشا وهو الحبل والحبل الوصل وبه يكون الاعتصام كما هو بالله فأنزل الحبل منزلته، فلولا أن رتبة الحبل أعطت ذلك ما ثبت قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣] كما قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فافهم أين جعل رتبة الحبل وبأي اسم قرنه وإلى أي اسم أضافه. واعلم أنه لولا الصور ما تميزت الأعيان، ولولا المراتب ما علمت مقادير الأشياء ولا كانت تنزل كل صورة منزلتها كما قالت عائشة: أنزلوا الناس منازلهم، وبالرتبة علم الفاضل والمفضول، وبها ميّز بين الله والعالم، وبها ظهرت حقائق ما هي عليه الأسماء الإلهية من عموم التعلّق وخصوصه، فلنذكر في هذا الفصل مناسبة الأسماء الإلهيّة التي ذكرناها للحروف التي عيناها والمنازل التي أوردناها ليرتبط الكل بعضه ببعضه، فكما جمع العماء صور الموجودات الذي هو النفس الإلهيّ كذلك جمع الحروف النفس الإنساني كما جمع الفلك المنازل المقدرة لنزول الدراري فيها المبينة مقادير البروج في الفلك الأطلس فنقول:

إني ما قصدت بهذا المساق ترتيب إيجاد العالم وأنه وجد هذا بعد هذا، فإن ترتيب إيجاد العالم قد ذكرناه في هذا الكتاب وأنه على خلاف ما يقوله حكماء الفلاسفة، وإنما قصدنا معرفة ما أثرت الأسماء الإلهية في الممكنات في ممكن ممكن منها سواء تقدم على المذكور قبله أو تأخر، ورتبة الموجودات على ما هي الآن عليه في وصفها وتقييدها، وذكرنا المنازل على ما هي الآن عليه في وضعها وترتيب الحروف على مخارجها، ولا يلزم من هذا ترتيبها في الكلمات المؤلفة منها فقد تكون الكلمة الأولى من حروف الوسط مثل كلمة ﴿كن﴾ وقبلها حروف مخارجها متقدمة عليها، فتنظر الاسم الإلهي الذي يقتضي أن يكون له الأثر في العالم ابتداء فتجده البديع لأنه لم يتقدم العالم عالم يكون هذا على مثاله، فالبديع له الحكم في ابتداء العالم على غير مثال وليس المبدىء كذلك، والمعيد يطلب المبدىء ما يطلب البديع، والبديع له الحكم في النشأة الآخرة فينا، كما كان له الحكم في النشأة الدنيا فإنها على

غير مثال هذه النشأة وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] يعني أنها كانت على غير مثال سبق وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] أي على غير مثال، فالبديع حيث كان حكمه ظاهر نفي المثال وما انتفى عنه المثال فهو أول، فأعطيناه أوّل الزمان اليومي وهو الذي ظهر بوجود الشمس في الحمل وأوله الشرطين، وأعطيناه من الحروف الهاء فإنها أول حرف ظهر في المخرج الأوّل، والاسم أعطى العين الموجودة، والعين الموجودة ظهر بها الزمان الذي هو مقارنة حادث لحادث يسأل عنه بمتى، فإن كان الموجود ذا نفس في مادة أعطى الحرف وترتيب المنازل بحلول الشمس لإظهار أعيان الفصول التي بها قوام المولدات، فالحروف تحكم على الكلمات، والكواكب تحكم على فصول الزمان، والأسماء تحكم في الموجودات، والأعيان مقسمة بين فاعل ومنفعل، فإذا فهمت هذا نسبت كل اسم إلهيّ إلى متعلقه غالباً وإن كان لغيره فيه حكم، وقد تقدم الكلام في مثل هذا ومتعلقه موجود ما أو حكم في موجود ثم ربط الوجود بعضه ببعضه بين فاعل ومنفعل وجوهر وعرض ومكان وزمان وإضافة وغير ذلك من تقاسيم الأشياء فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل التاسع والثلاثون: في النقل في الأنفاس. اعلم أن المراد بالنقل أن ينقل حكم الآخر إلى الأوّل ويجعل محله من الأول آخراً وقد كان في الآخر أولاً، ويزيل من الآخر عين ما ظهر فيه هذا الحكم والعين واحدة فإنه قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] والهوية واحدة العين، وانتقل الحكم من آخر إلى أول في عين واحدة، ولا يكون هذا النقل الخاص في هذا الباب إلاَّ نقل الموجود من حال شدة إلى حال رخاء ومن عسر إلى يسر، فالنقل تسهيل طريق إلى وجود الرحمة، وهذا النقل يظهر في ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: أن يظهر في الصور الممثلة على صورة المحسوس فيكون لها حكم المحسوسات وليست بمحسوسات وهي من وجه محسوسات فينتقل إليها ذلك الحكم ليعلم أن للظهور في صورة ما من الموجود المنزّه عن التأثير حكم الصورة التي ظهر فيها، فانتقل الحكم إلى الذي كان لا يقبله قبل هذا لظهوره بالصورة التي هذا الحكم لها، كما انتقل حكم البشر إلى الروح لما ظهر بصورة البشر فأعطى الولد الذي هو عيسىٰ وليس ذلك من شأن الأرواح ولكن انتقل حكم الصورة إليها بقبوله للصورة، فمن ظهر في صورة كان له حكمها، ومن هنا تعرف مرتبة الإنسان الكامل الذي خلقه الله على صورته، ولتلك الصورة حكم فتبع الحكم الصورة فلم يدع الألوهية لنفسه أحد من خلق الله إلاَّ الإنسان الذي ظهر بأحكام الأسماء والنيابة فكان ملكاً مطاعاً كفرعون وغيره، وقد يظهر حكم النقل في مرتبة المعرفة وهي المرتبة الثانية، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وذلك بنقل الحكم الذي كان لنفسه إلى ربه لما علم أنه ما في الوجود إلاَّ الله. والمرتبة الثالثة: الانتقال في جميع المراتب، فينتقل حكم المنزلة للنازل فيها كانت المنزلة ما كانت ممّا تحمد أو تذم، وإذا انتقل الحكم انتقل الحكم فيها بحسب ما تقرر في العرف والوضع العادي والشرعي، ألا ترى الروح الجني إذا لبس

صورة الحية والحكم فيها منا القتل قتلناه لصورته، ولو علمنا أنه جان ما قتلناه، كما انتقل حكم الصورة في الجان فحكمت عليه أنه حية عاملناه فحكمنا في تلك الصورة، روينا حديثاً عن شخص من جن وفد نصيبين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ أنه قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِهٰؤُلاءِ الوَفْدِ مِنَ الجِنِّ لَمَّا كَانَ لَهُم الظُّهُورُ فِي أَيِّ صورَةٍ شَاؤوا فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَنْ تَصَوَّرَ فِي غَيْرِ صُورَتِهِ فَقُتِلَ فَلاَ عَقْلَ فِيهِ وَلاَ قَوَدَ**» فإنه من قتل حية أو عقرباً لا يقتل به ولا تؤخذ فيه دية، فمن ظهر في صورة من هذا حكمه انسحب عليه هذا الحكم.

الفصل الأربعون: في الجلي والخفي من الأنفاس. فالجلي ما ظهر والخفي ما استتر، ولا يكون الاستتار والخفاء إلاَّ في الأمثال، وأما في غير الأمثال فلا، لأن غير المثل لا يقبل صورة من ليس مثله، ألا ترى قوله عليه السلام حين قال: إن الله قال على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده» لأنه قال فيه أنه خلقه على صورته فجعله مثلاً، ثم نفى أن يماثل ذلك المثل فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] أي ليس مثل مثله شيء، فنفى أن يماثل المثل فاستتر الحق بصورة العبد في قوله: سمع الله لمن حمده، فإن المترجم عنه اسم مفعول يستتر بظهور المترجم اسم فاعل في باب المماثلة له فيما يطلبه من الأمور التي لا صورة لها في المترجم لهم من حيث ما يعرفها المترجم عنه في لسانه، فيظهر المترجم عنه بصورة المترجم عنه المعنوية وبصورة المترجم لهم المحسوسة فيظهر بالصورتين فإنه سمّاه عبداً وهو عبد قائل عن حق، فكان لسانه لسان حق في قوله: سمع الله لمن حمده، وما زال عن كونه عبداً في ذلك فالله تعالىٰ يظهرنا وقتاً ويستر نفسه فيما هو له ووقتاً يظهر نفسه ويسترنا بحسب المواطن حكمة منه، فالكامل من أهل الله ينظر مراد الله في الوقائع، فأي عين أراد الله ظهورها أظهر وأي عين أراد الله سترها سترها، والأدب يقضي بأمر كلي أن ما حسن عرفاً وشرعاً نسبه للحق فأظهر الحق فيه وجلاه للبصائر والأبصار، وما قبح عرفاً وشرعاً نسبه إلى نفسه إن شاء وأظهر نفسه فيه، وجلاه أو نسبه إلى الشيطان إن شاء وأظهر عين الشيطان فيه وجلاه، فيكون باطنه حقاً لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وكل من عند الله، ولكن مع هذا كله لا بدّ أن لم يكن مثلاً يصيره مثلاً وحينئذ يستره وإلاَّ فما يستتر فإنه ما ثم مثل إلاَّ الإنسان فهو يقبل الاستتار وما عدا الإنسان فلا يقبله فإنه ليس بمثل، فإذا أردت أن تستره في الحق صيرته مثلاً وحينئذ يقبل الستر بالصيرورة، فالأسباب كلها خلاف إلاَّ الإنسان قال الله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] فجلاه باسمه وكان ظاهراً فستره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] فأظهره بكاف الخطاب ثم ستره ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] كما إنه ميّز وعينّ وفرّق فقال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] حكماً وإلى الرسول عيناً، فمن أهل الله من يقيم مثل هذا إذا ورد نشأة ذات روح وجسد فيستتر بالحركة المحسوسة فعل الروح بصراً ويستر بالمحرك فعل الجسد بصيرة، وفيها يكون الإنسان خالقاً ويكون الحق أحسن الخالقين، ومن أهل الله من لا يرى إلاَّ الله فلا ستر عنده، ومن أهل الله من

لا يرى إلاّ الخلق فلا ظهور عنده وكل مصيب، وأهل الأدب هم الكمل فيحكمون في هذا الأمر بما حكم الله من ستر وتجلّ وإخفاء وإظهار كما قدمنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الحادي والأربعون: في الاعتدال والانحراف من النفس. اعلم أن أهل الله في هذا الباب على ثلاثة أقسام: قسم يرى أن الحق لا يميل ولا يمال إليه، وهم الذين يحدّون الحب بالليل الدائم من المحب للمحبوب. وقسم يرى أن خلق الإنسان على الصورة يعطي الاعتدال وإن لم يكن الاعتدال فما هو على الصورة فيميل حيث مال الحق مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] في شرع خاص ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] فجعل هذا التعريف وصية ليعمل بها، وهذا عين الميل عن قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وعن وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فأهل الاعتدال هم القائمون بين الانحرافين، وأهل الانحراف عن هذا الاعتدال هم الذين يثبتون في الأفعال الكونية علواً وسفلاً حقاً بلا خلق وهم طائفة، وطائفة أخرى يثبتونها خلقاً بلا حق حقيقة من الطائفتين لا على طريق المجاز، وهم الذين يقولون إنه ما صدر عن الحق إلاّ واحد، وعن الترجيح في رفع التجريح، والنظر في الخطاب الإلهيّ، ففي أي موضع جعل الحكم لأحد الانحرافين جعلناه، وفي أي موضع عدل إلى الاعتدال عدلنا، وهذا نعت الأدباء مع الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثاني والأربعون: في الاعتماد على الناقص والميل إليه.

هذا باب الاعتماد على الأسباب كلها إلاّ السبب الإنساني الكامل، فإنه من اعتمد عليه فما اعتمد على ناقص لظهوره بالصورة، وما عداه من الأسباب فهو ناقص عن هذه المرتبة نقص المرأة عن الرجل بالدرجة التي بينهما، وإن كملت المرأة فما كمالها كمال الرجل لأجل تلك الدرجة، فمن جعل الدرجة كون حوّاء وجدت من آدم فلم يكن لها ظهور إلاّ به فله عليها درجة السببية فلا تلحقه فيها أبداً، وهذه قضية في عين، ونقابلها بمريم في وجود عيسىٰ فإذا الدرجة ما هي سبب ظهورها عنه، وإنما المرأة محل الانفعال والرجل ليس كذلك، ومحل الانفعال لا يكون له رتبة أن يفعل فلها النقص، ومع النقص يعتمد عليها ويمال إليها لقبولها الانفعال فيها، وعندها فما وضع الله الأسباب سدى إلاّ لنقول بها ونعتمد عليها اعتماداً إلهياً أعطت الحكمة الإلهية ذلك مع نظرنا إلى الوجه في كل منفعل بها سواء شعر السبب بذلك الوجه أو لم يشعر، فالحكيم الإلهي الأديب من ينزل الأسباب حيث أنزلها الله، فمن يشاهد الوجه الخاص في كل منفعل يقول: إن الله يفعل عندها لا بها، ومن لا يشاهد الوجه الخاص يقول: إن الله يفعل الأشياء بها، فيجعل الأسباب كالآلة يثبتها ولا يضيف إليها، كالنجار الذي لا يصل إلى عمل صورة تابوت أو كرسي إلاّ بآلة القدّوم والمنشار وغيرهما من الآلات ممّا لا يتم فعله إلاّ بها لا عندها فتثبتها ولا تضيف صنعة التابوت إليها، وإنما يثبت ذلك للنجار وصاحب التدبير والعلم بما ظهر عنه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثالث والأربعون: في الإعادة الإعادة.

تكرار الأمثال أو العين في الوجود وذلك جائز وليس بواقع أعني تكرار العين للاتساع الإلهيّ، ولكن الإنسان ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فهي أمثال يعسر الفصل فيها لقوّة الشبه، فالإعادة إنما هي في الحكم مثل السلطان يولي والياً ثم يعزله ثم يوليه بعد عزله، فالإعادة في الولاية والولاية نسبة لا عين وجودي، ألا ترى الإعادة يوم القيامة إنما هي في التدبير، فإن النبيّ ﷺ قد ميّز بين نشأة الدنيا ونشأة الآخرة والروح المدبر لنشأة الدنيا عاد إلى تدبير النشأة الآخرة فهي إعادة حكم ونسبة لا إعادة عين فقدت ثم وجدت، وأين مزاج من يبول ويغوط ويتمخط من مزاج من لا يبول ولا يغوط ولا يتمخط، والأعيان التي هي الجواهر ما فقدت من الوجود حتى تعاد إليه بل لم تزل موجودة العين ولا إعادة في الوجود لموجود فإنه موجود، وإنما هي هيئات وإمتزاجات نسبية. وأما قولنا بالجواز في الإعادة في الهيئة والمزاج الذي ذهب فلقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [سورة عبس: الآية ٢٢] وما شاء فإن المخبر عن الله فرّق بين نشأة الدنيا ونشأة الأخرى، وفرّق بين نشأة أهل السعادة ونشأة أهل الشقاء، فنشأة أهل السعادة لها اللطف والرقة ولا سيما للمتشرعين المنكسرة قلوبهم الناظرين إلى الرسول دائماً بعين حق مع شهود بشريته وأنه من الجنس، ومن عادة الجنس الحسد إذا ظهر التفوق وقد ارتفع عن هؤلاء، ولهم فتح البركات من السماء والأرض، كما لأهل الشقاء فتح العذاب والزيادة لما زادوا هنا من المرض في قلوبهم عند ورود الآيات الإلهيّة لإثبات الشرائع فكلاهما أهل فتح ولكن بماذا؟ فاعلم ذلك فإنه في علم الأنفاس دقيق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الرابع والأربعون: في اللطيف من النفس يرجع كثيفاً وما سببه والكثيف يرجع لطيفاً وما سببه كالملحن في الرفع والخفض في صوته.

اعلم أن اللطف من المحال أن يرجع كثافة فإن الحقائق لا تنقلب ولكن اللطيف يرجع كثيفاً كالحار يرجع بارداً والبارد حاراً، فاعلم أن الأرواح لها اللطافة، فإذا تجسدت وظهرت بصورة الأجسام كثفت في عين الناظر إليها، والأجسام لها الكثافة شفافها وغير شفافها، فإذا تحوّلت في الصور في عين الرائي أو احتجبت مع الحضور فقد تروحنت أي صار لها حكم الأرواح في الاستتار، وتتنوّع الصور عليها كما تتنوع عليها الأعراض بحمرة الخجل وصفرة الوجل، وهو أنموذج منبيء أن لها قوّة التحوّل في الصور إذا قامت بها أسباب ذلك، فأما سبب كثافة الأرواح وهي من عالم اللطف فلكونهم خلقوا من الطبيعة، وإن كانت أجسامهم نورية فمن نور الطبيعة كنور السراج، فلهذا قبلوا الكثافة فظهروا بصور الأجسام الكثيفة، كما أثر فيهم الخصام حكم الطبيعة لما فيها من التقابل والتضاد والضدّ، والمقابل منازع لمقابله كقول رسول الله ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة ص: الآية ٦٩] فوصفهم بالخصومة. فمن هذه الحقيقة التي أورثتهم الخصومة تجسدوا في صور الأجسام الكثيفة.

وأما الكثيف يرجع لطيفاً فسببه التحليل، فإن الكثائف من عالم الاستحالة، وكل ما يقبل الاستحالة يقبل الصور المختلفة والمتضادّة، وأظهر ما يكون ذلك في أهل التلحين، فالصوت بما هو صوت لا تتبدّل صورته فيغلظه الملحن في موضع ويرققه في موضع بحسب الرتبة التي يقصدها ليؤثر بذلك في طبيعة السامعين ما شاء من فرح وسرور وانبساط، أو حزن وهم وانقباض، ولهذا جعلوا ذلك في الموسيقي في أربعة: في البم والزير والمثنى والمثلث، فإن المحل الذي يريدون أن تؤثر فيه هذه الأصوات مركب من مشاكلتها من مرتين ودم وبلغم فيهيج سماع هذا الصوت ما يشاكله من الأخلاط التي هو عليها السامع، فيكون الحكم بسبب معين يقصده الملحن حتى يكون له ذلك سبباً إلى معرفة الأصل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فهو قصد الملحن ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأتى بالكلام الذي هو الصوت الممتد والمنقطع في المخارج لإظهار أعيان الحروف التي تقع بها الفائدة عند السامع، ألا ترى إلى صوت السنانير وإن لم يكن لهم حروف تتقطع في نفسها يغيرون أصواتهم لتغير أحوالهم ليعرفوا السامع ما يقصدونه بذلك الصوت، فعند الجوع يرق صوت السنور ويخفي ويلطف، وعند الهياج يغلظ ويجهر ويتتابع، فيعلم من صوته أنه هائج أو أنه جائع فيؤثر ذلك في نفس السامع بحسب قبوله إما رقة وحناناً فيطعمه وإما غير ذلك.

ثم إن في هذا الباب يظهر تجلي الحق في الصور التي ينكر فيها أو يرى فيها في النوم، فيرى الحق في صورة الخلق بسبب حضرة الخيال، فإن الحضرات تحكم على النازل فيها وتكسوه من خلعها ما تشاء أين هذا التجلي من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ومن: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] فالحكم للحضرة والموطن لأنّ الحكم للحقائق والمعاني توجب أحكامها لمن قامت به، وإذا كان هذا الحكم في العلم الإلهيّ فظهوره في أعيان المحدثات أقرب مأخذاً لوجود المناسبة الإمكانية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الخامس والأربعون: في الاعتماد على أصل المحدثات.

أصل المحدثات هو ما ترجع إليه بعد فراغها من النظر في ذاتها وهو في قول الشارع: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وقد تكون المعرفة بالله الحاصلة بعد المعرفة بالنفس علماً بالعجز عن البلوغ إلى ذلك، فيحصل لهم العلم بأنه ثم من لا يعلم فترك العلامة علامة فقد تميز عن خلقه بسلب لا بإثبات، وقد تكون المعرفة به من كونه إلهاً فيعلم ما تستحقه المرتبة فيجعلون ذلك صفة لمن قامت به تلك المرتبة وظهر فيها، فيكون علمهم بما تقتضيه الرتبة علمهم بصاحبها إذ هو المنعوت بها فهو المنعوت بكل ما ينبغي لها أن توصف به، وعلى الحقيقة يعلم أن هذا علم بالمرتبة لا به، لكن يعلم أنه ما في وسع الممكن أكثر من هذا في باب النظر وإقامة الأدلة، فإن كشف الله عن بصر الممكن بتجلّ يظهر له به الحق يعلم عند ذلك ما هو الأمر عليه فيكون بحسب ما يعلمه، ومن أهل النظر من يروم هذا الحكم الذي ذهب إليه صاحب التجلي ولكن لا يقوى فيه لأنه خائف من الغلط في ذلك لعدم الذوق فهو يرومه ولا يظهر به، والمعتمدون على هذا الأصل على طبقات لاختلافهم في أحوالهم، فمنهم من

يعتمد عليه في كل شيء عند ظهور ذلك الشيء، ومنهم من يعتمد عليه في الأشياء قبل ظهور الأشياء، ومنهم من تردّه الأشياء إليه فيعتمد عليه بعد أن كان يعتمد على الأشياء، وذلك كله راجع إلى استعداداتهم.

واعلم أن هذا الباب يتضمن علم السكون والحركة أي علم الثبوت والإقامة وعلم التغيير والانتقال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] أي ما ثبت فإن نعت القديم ثابت ونعت المحدثات يثبت لثبوتها ويزول لزوالها ويتغير عليها النعت لقبولها التغيير لأنها كانت معدومة فوجدت فقبلت الوجود فلم تثبت على حالة العدم، فلما كان أصلها قبول التنقل من حال إلى حال تغيرت عليها النعوت فلم تثبت إلاَّ على التغيير لا على نعت معين، والسكون أيضاً لما كان عديم الحركة لا يصحّ فيه دعوى أضافه الحق إليه، والحركة لما كانت الدعوى تصحبها أي تصحب لمن ظهر بها لم يقل تعالىٰ أنه له ما تحرّك فإن الدعوى تدخلها من المحرّكين والوجه الثبوت لا العدم فله الثبوت وللعالم الزوال وإن ثبت فإن ذلك ليس من نفسه وإنما ذلك من مثبته، قال النبي ﷺ لما بلغه قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. قال: «**هٰذا أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ**» وإن كانت الأشياء موجودة فهي في حكم العدم لجواز ذلك عليها وإن لم يقع، والاعتماد لا نشك أنه سكون إلى من يعتمد عليه لا بدّ من ذلك ولا يعتمد إلاَّ على من له ثبوت الوجود ولا يقبل التغيير ولا الانتقال من حال الثبوت، ومن علم أنه يقبل الانتقال من الثبوت لا يعتمد عليه لأنه يخون المعتمد عليه ذلك الاعتماد لارتباطه بمن لا ثبوت له، فلا يعتمد على محدث إلاَّ عن كشف وإعلام إلهيّ، فيكون اعتمادنا على من له نعت الثبوت كاعتمادنا على الشرائع فيما يجب الإيمان به، فلولا التعريف الإلهيّ بما أظهره من الآيات على صدقه لم نثبت على ذلك، كما لا نثبت على الحكم ثبوت من لا ينتقل لجواز النسخ وكل ذلك شرع يجب الإيمان به، فإن النسخ لما كان عبارة عن انتهاء مدّة ذلك الحكم أعقبه حكم آخر لا أن الأوّل استحال بل انقضى لانقضاء مدته لارتباطه في الأصل بمدة يعلمها الله معينة، وإن لم نعلم نحن ذلك فلا نعتمد على سبب محدث عادي إلاَّ بإعلام من الله أنه يثبت حكمه، كالإيمان الذي تثبت معه السعادة فيعتمد عليه فنقول: إن السعادة مرتبطة بالإيمان بالله وبما جاء من عنده لإعلام الحق بذلك، ولا يعتمد عليه في بقائه بالشخص الذي نراه مؤمناً فإنه قد يقوم به أمر عارض يحول بينه وبين الإيمان الذي يعطي السعادة فتنتفي السعادة عنه لانتفاء الإيمان بخلاف العلم، فإن العلم له الثبوت ولا تؤثر فيه الغفلات فإنه لا يلزم العالم الحضور مع علمه في كل نفس لأنه والٍ مشغول بتدبير ما ولاّه الله عليه فيغفل عن كونه عالماً بالله، ولا يخرجه ذلك عن حكم نعته بأنه عالم بالله مع وجود الضد في المحل من غفلة أو نوم ولا جهل بعد علم أبداً إلاَّ إن كان العلم قد حصل عن نظر في دليل عقلي، فإن مثل ذلك ليس عندنا بعلم لتطرق الشبه على صاحبه وإن وافق العلم، وإنما العلم من لا يقبل صاحبه شبهة وذلك ليس إلاَّ علم الأذواق فذلك الذي نقول فيه أنه علم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السادس والأربعون: في الاعتماد على العالم من كونه هو الكتاب المسطور في رق الوجود المنشور في عالم الأجرام الكائن من الاسم الله الظاهر.

اعلم أن هذا الاعتماد لا يصحّ إلاً أن يكون صاحبه صاحب علم بتعريف إلهيّ، وذلك أن العالم إنما جئنا به بهذه اللفظة لنعلم أنا نريد به جعله علامة، ولما ثبت أن الوجود عين الحق وأن ظهور تنوّع الصور فيه علامة على أحكام أعيان الممكنات الثابتة فسميت تلك الصور الظاهرة بالحكم في عين الحق ظهور الكتاب في الرق عالماً وأظهرها الاسم الإلهيّ الظاهر بل ظهر بها، فهذا باب يتميز فيه الحق من الخلق، وإن تنوّع الصور لم يؤثر في العين الظاهرة فيها هذه الصور، كما لا يتغير الجوهر عن جوهريته بما يظهر عليه من الأحوال والأعراض، فإن ذلك الظاهر حكم المعنى المبطون الذي لا وجود له إلاً بالحكم في عين الناظر، فأحكامه لا موجودة ولا معدومة وإن كانت ثابتة فيعتمد على العالم بأنه علامة لا على الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وإنما هو علامة على ثبوت المعاني التي لها هذه الأحكام الظاهرة في عين حق، فالعالم علامة على نفسه، وهكذا كل شيء، فلا شيء أدل من الشيء على نفسه فإنها دلالة لا تزول والدلالات الغريبة تزول ولا تثبت، فمن اعتمد على العالم من هذا الوجه فقد اعتمد على أمر صحيح لا يتبدّل ولا يكون الاعتماد على الحقيقة إلاً عليه على هذا الوجه، فإن الحق إذا كان كل يوم في شأن فلا يدرى ما يكون ذلك الشأن، فلا يقدر على الاعتماد على من لا يعلم ما في نفسه، فالكامل من أهل الله من يتنوّع لتنوّع الشؤون فإن الحق ما يظهر في الوجود إلاً بصور الشؤون، فيكون اعتماد هذا الشخص اعتماداً إلهياً أي هو متصف في ذلك بنعت الحق في قبوله الشؤون التي تظهر للعالم بها، وهذا من العلم المضنون به على غير أهله فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل السابع والأربعون: في الاعتماد على الوعد قبل كونه وهو الاعتماد على المعدوم لصدق الوعد.

اعلـم أن هذا البـاب ممّا نفس الله به عن عباده وهو نفس الرحمن، فإن الخبر الصدق إذا لم يكن حكماً لا يدخله نسخ، وقد ورد بطريق الخبر الوعد والوعيد فجاء نفس الرحمن بثبوت الوعد ونفوذه والتوقف في نفوذ الوعيد في حق شخص شخص، وذلك لكون الشريعة نزلت بلسان قوم الرسول ﷺ فخاطبهم بحسب ما تواطؤوا عليه، فمما تواطؤوا عليه في حق المنعوت بالكرم والكمال إنفاذ الوعد وإزالة حكم الوعيد فقال أهل اللسان في ذلك على طريق المدح: [الطويل]

وإنـي إذا أوعَـدْتُـه أو وَعَـدْتُـهُ ... لَـمُـخْـلـفُ إيـعـادي ومُـنْـجـزُ مَـوْعـدي

وقد ورد في الصحيح: «**لَيسَ شَيءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُمْدَحَ**» والمدح بالتجاوز عن المسيء غاية المدح فالله أولى به تعالى، والصدق في الوعد ممّا يتمدح به قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ فذكر الوعد وأخبر عن الإيعاد في تمام الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٧] وقال في الوعيد بالمشيئة وفي الوعد بنفوذه ولا بدّ، ولم يعلقه بالمشيئة في حق المحسن لكن في حق المسيء علّق المشيئة بالمغفرة والعذاب فيعتمد على وعد الله، فلا ظهور له إلاَّ بوجود ما وعد به وهو بعد ما وجد، والاعتماد عليه لا بدّ منه لما يعطيه التواطؤ في اللسان وصدق الخبر الإلهيّ بالدليل والله عند ظنّ عبده به فليظن به خيراً، والظن هنا ينبغي أن يخرج مخرج العلم كما ظهر ذلك في قوله عن الثلاثة الذين خلفوا وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه أي علموا وتيقنوا، وقال أهل اللسان في ذلك: فقلت لهم ظنوا بالغي مدجج. أي تيقنوا واعلموا فإن الظن لما كانت مرتبته برزخية لها وجه إلى العلم وإلى نقيضه ثم دلّت قرائن الأحوال على وجه العلم فيه حكمنا عليه بحكم العلم وأنزلناه منزلة اليقين مع بقاء اسم الظن عليه لا حكمه، فإن الظن لا يكون إلاَّ بنوع من ترجيح يتميز به عن الشك، فإن الشك لا ترجيح فيه والظن فيه نوع من الترجيح إلى جانب العلم، وكذا قال: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِيَ خَيْراً**» فأبانَ أن في الظن ترجيحاً ولا بدّ إما إلى جانب الخير وإما إلى جانب الشر، والله عند ظن عبده به، ولكن ما وقف هنا لأن رحمته سبقت غضبه فقال معلماً: «فليظن بي خيراً» على جهة الأمر، فمن لم يظن به خيراً فقد عصى أمر الله وجهل ما يقتضيه الكرم الإلهيّ، فإنه لو وقع التساوي من غير ترجيح كالشك لكان من أهل من يقول أن عدله لا يؤثر في فضله ولا فضله في عدله، فلما كان الظن يدخله الترجيح أمرنا الحق أن نرجح به جانب الخير في حقنا ليكون عند ظننا به فإنه رحيم، فمن أساء الظن بأمر فإن العائد عليه سوء ظنه لا غير ذلك، والله يجعلنا من أهل العلم، وإن قضى علينا بالظن فنظن الخير بالله وقد فعل بحمد الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثامن والأربعون: في الاعتماد على الكنايات وما يظهر منها من الفتوح وهي المعبر عنها بالأنية في الطريق وكيف يعتل الصحيح ويصحّ المعتل.

اعلم أيّدك الله أن كل ما سوى الله فإنه معتل بالذات صحيح بالعرض، فإن الصحة تعرض للمحدث إذا أحبه الله حب سبب كحبه لأصحاب التقرّب بالنوافل فيكون الحق سمعهم وبصرهم، فيزول عنه المرض والاعتلال ويصحّ فينفذ بصره في كل مبصر وسمعه في كل مسموع، وأما الصحيح بالذات المعتل بالعرض فهو الذي يرى أن الوجود ليس سوى عين الحق فهو من حيث عينه لا تقوم به العلل، غير أنه لما ظهر في أعين الناظرين إليه في صور مختلفة حكمت عليه بذلك أحكام أعيان الممكنات ظهر معتلاً بحكم العرض الذي عرض لا عين الناظرين إليه وهو في نفسه على ما هو عليه، كما يعرض للنور في عين الناظر صور الألوان وهو في نفسه غير متلون، فهذا قد عاد الصحيح معتلاً. وأما الاعتماد على الكنايات لأنها أعرف المعارف، والاعتماد لا يكون إلاَّ على معروف لأجل التعيين، فلو كان منكراً لم يتميز ولم يتعين فيكون الاعتماد على غير معتمد، والأسماء لا تقوى قوّة الكنايات فلا يخيب المعتمد على الكنايات وقد يخيب المعتمد على الأسماء لأنها لا تقوى قوّة الكنايات في

المعرفة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة لأنه لا يتغير، والأسماء قد تنتقل وتستعار، فمن اعتمد على الاسم في حال كونه معاراً أو منتقلاً يخيب المعتمد عليه، فالمستعار كالاشتعال الذي هو اسم مخصوص نعت من نعوت أحوال النار المركبة فاستعير للشيب في قوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [سورة مريم: الآية ٤] وأما الانتقال فمثل قوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٧] فنقل اسم المريد لمن ليس من شأنه أن يريد، فإن اعتمد على هذا الاسم في حال نقله خاب المعتمد عليه، والكنايات ليست كذلك ولها فتوح المكاشفة بالحق وفتوح الحلاوة في الباطن كما للأسماء فتوح العبارة.

الفصل التاسع والأربعون: فيما يعدم ويوجد ممّا يزيد على الأصول كالنوافل مع الفرائض.

اعلم أنه لا يسمّى بالزائد من تطلبه الذات لكمال حقيقتها، فما زاد على ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فهو زائد وهو إذا عدم لم يتأثر المعدوم عنه بعدمه، وإن وجد لم يزد الموجود فيه في ذاته شيئاً لم يكن عليه مثل الأحوال عند أصحاب المقامات إن وجدت فيهم لم يزد ذلك في مكانتهم، وإن عدمت لم ينقص عدمها من مكانتهم ولذلك هي مواهب.

الفصل الخمسون: في الأمر الجامع لما يظهر في النفس من الأحكام في كل متنفس حقاً مشبهاً وخلقاً وحياة ونطقاً وما نفس به من الأقسام الإلهية.

اعلم أن الإمداد الإلهيّ للموجودات لا ينقطع فإذا قصر فمن القابل لا من جانب الممد، فإن أضيف عدم الإمداد في أمر معين إلى جانب الحق فذلك القصر إمداد المصلحة في حق ذلك الممنوع فإنه العالم بمصالح المخلوقات، ولهذا ينبغي للعلماء بالله أن لا يعينوا عند سؤالهم حاجة بعينها وليسألوا ما لهم فيه الخير من غير تعيين، فكم من سائل عين فلما قضيت حاجته لحكمة يعلمها الله أدركه الندم بعد ذلك على ما عين وتمنّى أنه لم يعين، فالإمداد تنفس رحماني والإمداد الإلهيّ في الموجودات طبيعيّ ومزاد، فالطبيعيّ ما تمسّ الحاجة إليه لقوام ذاته ودفع ألم يقوم به، والمزاد ما يزيد على هذا ممّا لا يحتاج في نفسه إليه، هذا إذا كان من أهل الله القائلين بالريّ عند الشرب، ومن لا يقول بالري فما ثم إمداد مزاد بل كله طبيعيّ، والمزاد على قسمين: وهو ما يمده به الحق ممّا يحتاج إليه الغير وفيه يقول الله آمراً نبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وهذا المزاد إن كان عن طلب من الغير وهو الموجب للزيادة مثل ما هو في نفس القارىء في آمن وآدم أو يكون، وإن كان إمداد من الله لهذا العبد ليمدّ به من يعلم الله أنه محتاج إليه ليشرف الواسطة بذلك فيجد هذا العبد في نفسه علماً لا يقتضيه حاله فيعلم أن المراد به التعليم والإمداد للغير، ومثاله في نفس القارىء: جاء وشاء ودابة وطامة، وهو الموجب للزيادة في الإمداد، فدابة وطامة صورتان تدبرهما روح واحدة وهو التضعيف، والهمزة نصف حرف عند بعضهم وهو الاسم

الظاهر، والألف نصف حرف وهو الاسم الباطن، فالمجموع حرف واحد وهو السبب الموجب لزيادة الإمداد لما يعلم الممد من حاجته إلى ذلك أو لطلبه، وعلى كل حال فنفس الرحمن فيه موجود والزيادة في الإمداد على قدر الحاجة أو الطلب فيفضل بعضه على بعض، فالمفضول قصر وجزر عن المد الأطول الأفضل فاعلم ذلك، فالمد إمداد محسوس ظاهر، والجزر إمداد معنوي يطلق عليه اسم النقيض فاعلم ذلك.

وصل: إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله ما حكمهما؟

وهذه مسألة سألني عنها شيخنا يوسف بن يخلف الكومي سنة ست وثمانين وخمسمائة فقلت له: يا سيدي هذه مسألة تفرض ولا تقع إلاً إذا كان التجلي في حضرة المثل كرؤيا النائم وكحال الواقعة، وأما في الحقيقة فلا، لأن الحضرة لا تسع اثنين بحيث أن يشهد معها غيرها بل لا يشهد عينها في تلك الحضرة فأحرى أن يشهد عيناً زائدة، ولكن يتصوّر هذا في تجلي المثال، فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أعلى أو أدنى أو متوسط أو لا يجمعهما، فإن جمعهما مقام واحد فلا يخلو إما أن يكون ذلك المقام ممّا يقتضي التنزيه أو التشبيه أو المجموع، وعلى كل حال فحكم التجلي من حيث الظهور واحد، ومن حيث ما يجده المتجلي له مختلف الذوق لاختلافهما في أعيانهما، لأن هذا ما هو هذا، لا في الصورة الطبيعية، ولا الروحانية، ولا في المكانية، وإن كان هذا مثل لهذا ولكن هذا ما هو هذا، فغايتهما إما أن يتحقق كل واحد منهما بمعرفته بنفسه، ونفس هذا غير هذا، فيحصل من العلم لهذا ما لم يحصل لهذا، فنعلم أنهما وإن اجتمعا في عين الفرق أو يتحقق الواحد بمعرفته بنفسه ويفنى الآخر عن مشاهدة ذاته فيختلفان في عين الجمع، أو يعطي الواحد ما يعطي المراد، ويعطي الآخر ما يعطي المريد، فعلى كل وجه هما مختلفان في الوجود متفقان في الحال والشهود، فإن اقتضى المقام التنزيه لكل واحد منهما فغاية تنزيه كل واحد منهما أن ينزهه عن صورة ما هو عليها في نفسه فهما مختلفان بلا شك وإن كانا مثلين، وإن اقتضى ذلك المقام التشبيه فالحال مثل الحال، وكذلك إن اقتضى المجموع فإن المجموع إنما هو جمع طرفين في حضرة وسطى فالحال الحال، فلا يجتمعان أبداً في الوجود وإن اجتمعا في الشهود، وإن لم يجمعهما مقام واحد وكان كل واحد في مقام ليس للآخر وظاهر بصورة ما هي لصاحبه وإن اجتمعا في الصورة، إلاً أنهما أعطيا من القوّة بحيث أن يشهد كل واحد منهما حضور صاحبه في بساط ذلك المشهود لكون المشهود تجلى في صورة مثالية، وهذا التجلي والشهود هو الذي يجمع فيه صاحبه بين الخطاب والشهود إن شاء المشهود. وأما في غير هذه الحضرة فلا يجتمع شهود وخطاب ولا رؤية غير، وحكمهما إذا كانا بهذه المثابة حكم من جمعهما مقام واحد في معرفته بنفسه أو فناء أحدهما أو يقام أحدهما مراداً والآخر مريداً، فيخبر المريد عن قهر وشدة، ويخبر المراد عن لين وعطف وما ثم إلاً هذا، ولا يخبر واحد منهما عمّا حصل لصاحبه، فإن الإلقاء لكل واحد منهما إنما يكون بالمناسب الذي يقتضيه

المزاج الخاص به الذي كان سبب اختلاف صور أرواحهما في أصل النشأة، فإذا رجع إلى أصحابه من هذه حاله يقول وإن كان أحدهما في المغرب والآخر في المشرق لأصحابه في هذه الساعة أشهد فلان وعاينته وعرفت صورته ومن حليته كذا وكذا فيصفه بما هو عليه من الصفات، فمن لا علم له بالحقائق منهما فإنه يقول: وأعطاه الحق مثل ما أعطاني، والأمر ليس كذلك فإن كل واحد منهما لم يحصل له إسماع ما للآخر وذلك لافتراقهما في المناسب كما قدمنا وإن كان من أهل الحقائق والمعرفة التامّة ويقال له: فما حصل له؟ فيقول: لا أدري فإني لا أعرف إلاّ ما تقتضيه صورتي وما أنا هو فإن الحق لا يكرر صورة.

وصل: ولما كان هذا الباب يضم كل ذي نفس حقاً وخلقاً احتجنا أن نبين فيه ما نفس الرحمن به عن نفسه لما وصف نفسه بأنه أحب أن يعرف، ومعلوم أن كل شيء لا يعلم شيئاً إلاّ من نفسه وهو يحب أن يعرفه غيره ولا يعرفه ذلك الغير إلاّ من نفسه، فإن لم يكن العارف على صورة المعروف فإنه لا يعرفه، فلا يحصل المقصود الذي له قصد الوجود، فلا بدّ من خلقه على الصورة لا بدّ من ذلك، وهو تعالىٰ الجامع للضدّين بل هو عين الضدين ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فخلق الإنسان الكامل على هذه المنزلة، فالإنسان عين الضدين أيضاً لأنه عين نفسه في نسبته إلى النقيضين، فهو الأول بجسده، والآخر بروحه، والظاهر بصورته، والباطن بموجب أحكامه، والعين واحدة فإنه عين زيد وهو عين الضدين فزيد هو عين الأخلاط الأربعة المتضادة والمختلفة ليس غيره وذو الروح النفسي والمركب الطبيعيّ، وهنا قال الخراز: عرفت الله بجمعه بين الضدين. فقال صاحبنا تاج الدين الأخلاطي حين سمع هذا منا: لا بل هو عين الضدين وقال الصحيح، فإن قول الخراز يوهم أن ثم عيناً ليست هي عين الضدين لكنها تقبل الضدين معاً، والأمر في نفسه ليس كذلك بل هو عين الضدين إذ لا عين زائدة، فالظاهر عين الباطن والأوّل والآخر والأول عين الآخر والظاهر والباطن فما ثم إلاّ هذا، فقد عرفتك بالنشأة الإنسانية أنها على الصورة الإلهية، وسيرد الكلام في خلق الإنسان من حيث مجموعه الذي به كان إنساناً في الباب الحادي والستين وثلثمائة في فصل المنازل في منزل الاشتراك مع الحق في التقدير.

وصل: الأقسام الإلهية من نفس الرحمن الواردة في القرآن والسنّة، فإن بها نفس الله عن المقسوم له ما كان يجده من الحرج والضيق الذي يعطيه في الموجودات قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] وإرادته مجهولة التعلّق لا يعرف مرادها إلاّ بتعريف إلهيّ، فإذا أكّده بالقسم عليه والإيلاء كان أرفع للحرج من نفس المقسوم له، كما نفس الله عن المؤمنين غير الموقنين بقسمه على الرزق وما وعد به من الخير المطلق والمقيد بالشروط لمن وقعت منه ووجدت فيه أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، فنفس الله عنهم بذلك وحصل لهم اليقين وما بقي لهم بعد إلاّ الاضطراب الطبيعيّ، فإنّ الآلام الطبيعية المحسوسة ما في وسع الإنسان رفعها إذا حصلت بخلاف الآلام النفسية فإنه في وسعه رفعها، فوقع التنفيس

بالقسم أن الرزق من الله لا بدّ منه، وبقي في قلب بعض الموقنين بذلك من الحرج تعيين وقت حصوله ما وقع به التعريف ولو وقع لم يرفع الاضطراب الطبيعيّ، فلما علم الحق أنه لا ينفس في تعيين الأوقات لذلك لم يوقع بها التعريف، فإن الطبع أملك والحسّ أقوى في الذوق من النفس، وسبب ذلك أن المحسوس على صورة واحدة لا تتبدل، والنفس تقبل التحوّل في الصور، فلذلك لا يرتفع حكم الطبع في وجود الآلام الحسيّة لثبوته، وترتفع الآلام النفسية لسرعة تبدّلها في الصور، ولا يفنى أحد عن الآلام الطبيعية إلاّ بوارد إلهيّ أو روحاني قوي يرفع عنه ألم الطبع إن قام به، ويكون موجب ذلك الوارد إما أمر محسوس أو معقول لا يتقيد، كورود غائب عليه يحبه فيفنيه شغله بما حصل له من الفرح بوروده عن ألم الجوع والعطش الذي كان يجده قبل رؤية هذا الغائب أو السماع بقدومه فهذا موجب محسوس، والموجب المعقول معلوم عند العلماء، فظهر في الأقسام الإلهيّة نفس الرحمن غاية الظهور، وأعطى هذا القسم عند العلماء تعظيم المقسوم به، إذ لا يكون القسم إلاّ بمن له مرتبة في العظمة، فعظم الله بالقسم جميع العالم الموجود منه والمعدوم إذ كانت أشخاصه لا تتناهى فإنه أقسم به كله في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الحاقة: الآيتان ٣٨و٣٩] وهو الموجود الغائب عن البصر والمعدوم، ودخل في هذا القسم المحدث والقديم، غير أنه لما علم الله عظمته في قلوب عباده موحدهم ومشركهم ومؤمنهم وكافرهم وقد أقسم لهم بالمحدثات وبغير نفسه وعلم أنه قد تقرر عندهم أنه لا يكون القسم إلاّ بعظيم عند المقسم فبالضرورة يعتقد العالم تعظيم المحدثات ولا سيما وقد أيّد ذلك في بعض المحدثات بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ وهي محدثات ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] ومن صفات الحق الغيرة، فحجر من كونه غيوراً علينا أن نقسم بغيره مع اعتقادنا عظمة الغير بتعظيم الله، فهذا التحجير دواء نافع لما أورثه القسم بالمحدثات في القلوب الضعيفة البصائر عن إدراك الحقائق من العلل والأمراض والأقسام كثيرة ولا فائدة في ذكرها مع ما ذكرناه من الأمر الجامع لها فهو يغني عن تفصيلها، فإن الكتاب يطول بذكرها وكل إنسان إذا وقف على قسم منها عرف فيما وقع وما نفس الله به وعمّن نفس الله به من أوّل وهلة، وإنما ينبغي لنا أن نذكر ما يغمض على بعض الأفهام أو أكثرها لحصول الفوائد العزيزة المنال عند أكثر الناس.

وصل: ومن نفس الرحمن تشريع الاجتهاد في الحكم في الأصول والفروع ومراعاة الاختلاف وثبوت الحكم من جانب الحق بإثباته إياه أنه حكم شرعيّ في حق المجتهد تحرم عليه مخالفته مع التقابل في الأحكام، فقرّر الحكمين المتقابلين وجعل المجتهدين في ذلك مأجورين فشرع المجتهد من الشرع الذي أذن الله فيه لهذه الأمة المحمدية أن يشرعه، ولا أدري هل خصّت به أو لم يزل ذلك فيمن قبلها من الأمم، والظاهر أنه لم يزل في الأمم، فإن نفس الرحمن يقتضي العموم ولا سيما وقد جاء في القرآن ما يدل على أن ذلك لم يزل في الأمم في قوله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] وما ابتدعوها إلاّ باجتهاد منهم

وطلب مصلحة عامة أو خاصة، وأثنى على من رعاها حق رعايتها وذكر هذا في بني إسرائيل، وكذلك في قوله في الأصول: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] يعني في زعمه فإنه في نفس الأمر ليس إلاَّ إله واحد، ولهذا قرّر ﷺ حكم المجتهد سواء أصاب أو أخطأ بعد توفيته حق الاجتهاد جهد طاقته وما رزقه الله من قوّة النظر في ذلك وقرّر له الأجر مرة واحدة إن أخطأ ومرتين إن أصاب، فاعلم أن المجتهد قد يخطىء ما هو الأمر عليه في نفسه ومع هذا قد تعبده به وأعطاه على ذلك أجر الاجتهاد لما فيه من المشقة لأنه من الجهد والجهد بذل الوسع خاصة، فإن الله ما كلف عباده إلاَّ وسعهم في نفس الأمر، ولم يخص ﷺ في الاجتهاد فرعاً من أصل بل عم، فمن خصّص ذلك بالفروع دون الأصول فهو من الاجتهاد أيضاً تخصيص ذلك وتعميمه وكلاهما مأجور في اجتهاده.

وصل: ومن نفس الرحمن أيضاً قوله تعالىٰ حكاية عن معصوم في قوله عن الخطأ وهو رسول الله ﷺ: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فاخرج وضيق المتسع فنفس الله بتمام الآية والتعريف بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] بالألف واللام اللذين للعهد وهو هذا الصراط الذي عليه الرب أن يكون مشهوداً لنا في وقت مشى الحق فيه بنا فإنه صراط من أنعم عليه ومن غضب الله عليه، وأصله في السبيل التي فرقته عن سبيله وهو الصراط الذي هو عليه حجبته عن شهوده فلا يشهده إلاَّ سعيد وإن لم يشهده وآمن به وجعله كأنه يشهده فهو سعيد، ومعلوم أن تصرف كل دابة قد يتعلق به لسان حمد أو ذم لأمور عرضية في الطريق عينتها الأحوال وأحكام الأسماء، والأصل محفوظ في نفس الأمر تشهده الرسل سلام الله عليهم والخاصة من عباد الله.

وصل: ومن نفس الرحمن الذي نفس الله به عن عباده المؤمنين بالرسل قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فنفس الله بذلك عن قلوب كان قد قام بها أن الله تعالىٰ لا يعلم الجزئيات، وإن كان القائل بذلك قد قصد التنزيه لكنه ممّن اجتهد فأخطأ، إن قال ذلك عن اجتهاد فله الأجر فإن الأمر لا يتغير عمّا هو عليه في نفسه، ولا يؤثر فيه حكم المجتهد لا بالإصابة ولا بالخطأ، وإذا لم يتغير الأمر في نفسه بتغير الاجتهاد فالحكم له فلا يكون منه في العقبى إلاَّ الخير، فإنه الخير المحض الذي لا شرّ فيه، فما عند المجتهدين من التغيير من جهته إلاَّ ما تغيّروا به من نفوسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ١١] وما غيّروا به أنفسهم فذلك تغيير الله بهم لأنهم ما خرجوا عمّا أعطاهم الله فإن الله ما كلف نفساً إلاَّ ما آتاها، فما آتاها في هذا الوقت إلاَّ ما سمّاه تغييراً، فهو معهم في حال تغيّرهم إلى أن ينقضي مدته فيبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وهو مشاهدة ما هو الأمر عليه في نفسه، فنفس الله عنهم بما بدا لهم منه وما يبدو من الخير إلاَّ الخير، كما قال المعتزلي الذي كان يقول بإنفاذ الوعيد فيمن مات عن غير توبة فلما مات وهو على هذا الاعتقاد وحصل له بعد الموت شهود الأمر على ما هو به رؤي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وجدنا الأمر أهون ممّا

كنا نعتقده، وأخبر أنه رحم ولم ينفذ فيه الوعيد الذي كان يعتقد نفوذه في أمثاله، وليس أنباء الحق عباده يوم القيامة بما عملوه من الجرائم واجترحوه من الآثام على جهة التوبيخ والتقرير، وإنما ذلك على طريق الإعلام باتساع رحمة الله حيث نالها لاتساعها من لا يستحقها، وذلك بشفاعة أعيان تلك الأفعال المسمّاة جرائم، فإن فاعلها لما كان سبباً في إيجاد أعيانها من كونها أفعالاً وأقام نشأتها وهي معصية في حقه لكنها نشأة مطيعة مسبحة ربها عزّ وجلّ تستغفر للسبب الموجب لوجودها فيجيب الله دعاءها واستغفارها لصاحبها فإنه لا علم لها بأنها معصية أو طاعة فإنها غير مكلفة بذلك ولا خلقت له فيقبل الله شفاعتها فيه، فيكون مآله إلى الرحمة التي وسعت كل شيء، وما في العالم إلاَّ من هو منشيء صور أعمال منعوتة في الشرع بطاعة ومعصية ولا طاعة ولا معصية، فإذا انتشأت فلا غذاء لها إلاَّ التسبيح بحمد الله، وهنا أعني في هذه الحضرة تتساوى أعمال الطاعة والمعصية فإن كونها طاعة ومعصية ما هو عينها، وإنما ذلك حكم الله فيها وهي مقبولة السؤال عند الله فإنها من أصناف المعتنى بهم المفطورين على تعظيم الله تعالىٰ والثناء عليه بما هو أهله، ولولا أنه ما كان معنا أينما كنا ما ظهرت أعيان هذه الأعمال إذ هو منشئها فينا بنا أو عندنا على حسب ما يعطيه نظر كل ناظر، فقل كيف شئت، وهذا القدر كاف في باب النفس الرحماني، وما رأيت أحداً ممّن غير من أهل هذا الشأن تكلم عليه مثلنا ولا فصله تفصيلنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون ومائة

في السر

[نظم: الكامل]

السرُّ تَثْبيتُ المراتب فافتَكِرْ ... فهو الدليلُ على ثُبُوت الواحدِ
بالفرد صحَّ وجودُنا في عيننا ... في غائبٍ إن كان أو في شاهدِ
إن الإشارةَ بالحقيقة تُيِّمَتْ ... وهي الدليلُ على انتفاء الواجِدِ
والحالُ يطلبه المرادُ بكونه ... فيه بحكم لا يكونُ بزائدِ
والعالِمُ النِّحْريرُ إن قامت به ... صِفَةُ العلوم فَحُكْمُه كالفَاقِدِ

اعلم أن السرّ عند الطائفة على ثلاث مراتب: سرّ العلم، وسرّ الحال، وسرّ الحقيقة. فأما سرّ العلم فهو حقيقة العلماء بالله لا بغيره من الأسماء، فإن سرّ العلم بالله هو جمع الأضداد بالحكم في العين الواحدة من حيث ما هو منسوب إليه، كذا ممّا له ضد من ذلك بعينه ينسب إليه ضده، وهذا سرّ لا يعلمه إلاَّ من وجده في نفسه فاتصف به فحكم على عينه بحكم حكم عليه أيضاً بضده من حيث حكم ضده لا من نسبة أخرى ولا من إضافة، ولهذا جعله الله سرّ العلم لأن العلم كل علم حصل عن دلالة لأنه مشتق من العلامة، ولذلك أضيف العلم إلى الله بالأشياء لأنه علم نفسه فعلم العالم فهو دليل وعلامة على العالم، كما كان العالم علامة عليه في علمنا به وهو قوله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فجعلك لك دليلاً

عليه فعلمته كما كانت ذاته دليلاً عليك له فعلمك فأوجدك، فهذا من خفي سرّ العلم الذي لا يعلمه إلاً العلماء بالله، فإذا كان الحق سمع العبد وبصره وعلمه علمته به وجعلته دليلاً وعلامة على نفسه وهذا هو سرّ الحال، ومنه نفخ عيسىٰ في الصورة التي أنشأها من الطين فكانت طيراً، وبسر العلم دعاء إبراهيم عليه السلام الأطيار فأتته سعياً، فإن كان قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] العامل فيه تنفخ فهو سرّ الحال، وإن كان العامل فيه ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو سرّ العلم وهذا لا يعلمه إلاً صاحبه وهو عيسىٰ عليه السلام، وسرّ العلم أتم من سرّ الحال لأن سرّ العلم هو لله وهو الذي ظهر به إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه ما زاد على أن دعاهن ولم يذكر نفخاً فكان كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وسرّ الحال لا يكون إلاً من نعوت الخلق ليس من نعوت الحق، فسرّ العلم أتم وحكمه أعمّ. فالحال من جملة معلومات العلم وممّن هو تحت إحاطته، ولو كان الحال أتم من العلم لكان الحق قد أمر نبيه بطلب الأنقص ويكون الحق قد ترك وصفه بالأتم وهذا محال، فليس الشرف إلاً لسر العلم.

وأما سرّ الحقيقة فهو أن تعلم أن العلم ليس بأمر زائد على ذات العالم، وأنه يعلم الأشياء بذاته لا بما هو مغاير لذاته أو زائد على ذاته، فسرّ الحقيقة يعطي أن العين والحكم مختلف، وسرّ الحال يلبس فيقول القائل بسرّ الحال أنا الله وسبحاني وأنا من أهوى ومن أهوى أنا، وسرّ العلم يفرق بين العلم والعالم، فبسرّ العالم تعلم أن الحق سمعك وبصرك ويدك ورجلك مع نفوذ كل واحد من ذلك وقصوره وأنك لست هو عينه، وبسرّ الحال ينفذ سمعك في كل مسموع في الكون إذا كان الحق سمعك حالاً وكذلك سائر قواك، وبسرّ الحقيقة تعلم أن الكائنات لا تكون إلاً لله وأن الحال لا أثر له فإن الحقيقة تأباه، فإن السبب وإن كان ثابت العين وهو الحال. فما هو ثابت الأثر، فللحقيقة عين تشهد بها ما لا يشهد بعين الحال وتشهده عين الحال وعين العلم، وللعلم عين يشهد بها ما لا يشهده بعين الحال وتشهد ما يشهده عين الحال، فعين الحال أبداً تنقص عن درجة عين العلم وعين الحقيقة، ولهذا لا تتصف الأحوال بالثبوت فإن العلم يزيلها والحقيقة تأباها، ولذلك الأحوال لا تتصف بالوجود ولا بالعدم فهي صفات لموجود لا تتصف بالعدم ولا بالوجود، فبالحال يقع التلبيس في العالم، وبالعلم يرتفع التلبيس وكذلك بالحقيقة، فهذا سرّ العلم وسرّ الحال وسرّ الحقيقة قد علمت الفرقان بينهم في الحكم.

هذا معنى السرّ عند الطائفة، فإذا ثبت أمر في العالم كان ما كان وظهر حكمه فسرّه معناه إذا ظهر لمن ظهر له بطل عنده ذلك الثبوت الذي كان يحكم به قبل هذا على ذلك الأمر في كل أمر يكون له ثبوت في العالم، وبهذه المثابة ثبوت الأسباب كلها في العالم، فسرّ الربوبية إما المربوب وإمّا النسب أو الصفات التي من شأن من نسبت إليه أو قامت به عند من يرى أنها صفات أن يكون رباً فليس هو رب بالذات على هذا النحو، وهذا معنى قول سهل بن عبد الله: للربوبية سرّ لو ظهر لبطلت الربوبية، وكذلك قوله أيضاً: إن للربوبية سرّاً

لو ظهر لبطل العلم، وأن للعلم سرّاً لو ظهر لبطلت النبوّة، وإن للنبوّة سرّاً لو ظهر لبطلت الأحكام، فسرّ الحق لو ظهر لبطل الاختصاص والنبوّة اختصاص فتبطل النبوّة ببطلان الاختصاص ويبطل حكم العلم من حيث أنه صفة للذات حتى أعطاه حكم العالم وهو الحال فيبطل العلم لا يبطل العالم، وسرّ النبوة إزالة رفيع الدرجات لأنه ما ثم على من والمعارج للأنبياء إنما هي في هذه الدرجات، فسرّ النبوة الإخبار بما هو الأمر عليه وما هو الأمر عليه لا يقبل التبديل وإذا لم يقبل التبديل بطل الحكم، فإن الحكم يثبت التخيير والتخيير يناقض التبديل، فإذا بطل التخيير بطل الحكم فبطل معنى النبوة فهذا سرّها، فمن ظهر له أسرار هذه الأمور وعلمها علم الحق فيها ولم يبطل عنده شيء فهو أقوى الأقوياء في التمكن الإلهيّ، فهو عبد في مقام سيد وسيد في صورة عبد.

الباب الموفي مائتين

في حال الوصل

[نظم: البسيط]

لو فاتَنا ما فاتَ لم تَكُ صورةٌ	والوَصْلُ فينا دَرْكُ ذاك الفائتِ
ما فات إلاّ كَوْنُنا لم نَبْغِهِ	فإذا ابْتَغَيْنَا كان ثَبْتَ الثّابتِ
وبه تَفَاضلتِ الرجالُ فمنهُمُ	حَيٌّ وذاك الحيُّ عَيْنُ المائتِ
والمَيْتُ منا ليس يعرف مَوْتَه	والناطقُ المعصومُ عَيْنُ الصّامتِ

اعلم أن الوصل في اصطلاح القوم إدراك الفائت وهو إدراك السالف من أنفاسك وهو قوله تعالىٰ: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] والعلة في ذلك أن كل حال له نفس يتضمن ذلك النفس جميع ما سلف من أنفاس ذلك المتنفس من حيث ما كانت عليه تلك الأنفاس من الأحكام، فله فائدة المجموع وما يتميز به من غيره وهو قول الطائفة: لو أن شخصاً أقبل على الله دائماً ثم أعرض عنه طرفة عين كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر ممّا ناله، وهذه المسألة حيرت العارفين بالوصل إذا صحّ لم يعقبه الفصل هذا هو الحق، فإن الحق سبحانه لا يقبل وصله الانفصال ولا تجلّى لشيء ثم انحجب عنه لأن العالم بما هو به عالم لا يكون بخلاف حكم علمه، فالحق مع الكون في حال الوصل دائماً وبهذا كان إلهاً وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] أي على أي حال كنتم من عدم ووجود وكيفيات، فهكذا هو في نفس الأمر، والذي يحصل لأهل العناية من أهل الله أن يطلعهم الله ويكشف عن بصائرهم حتى يشهدوا هذه المعية وذلك هو المعبر عنه بالوصل أعني شهود هذا العارف، فقد اتصل العارف بشهود ما هو الأمر عليه فلا يتمكن أن ينقلب هذا الوصل فصلاً كما لا ينقلب العلم جهلاً، فإنه يعطيك هذا المشهد الكيفية فيه على ما هي عليه، فهذا يا أخي معنى الوصل عند الطائفة في اصطلاحهم، جعلنا الله وإياكم من أهل الوصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي ومائتان

في حال الفصل

[نظم: البسيط]

الفَصْلُ فَوْتُ الرَّجَا إن كنتَ تَعْقِلُهُ ودَعْ يفوتك فالمَرْجُوُّ قد حَصَلاَ

من غَيْرِ ما هو مَرْجُوٌّ لطالبهِ وهو الدليلُ لعبد الله إذ كَمُلاَ

لا بدّ منا ومنه والدليلُ لنا الفرقُ ما بين مَنْ يَدْري ومَنْ جَهِلاَ

اعلم أن الفصل عند الطائفة فوت ما ترجوه من محبوبك، وعندنا الفصل هو تمييزك عنه بعد كونه سمعك وبصرك، فإن وقع لك التمييز قبل هذا فليس هو الفصل المذكور في هذا الباب، فإن المراد به هنا الفصل الذي يكون عن الوصل وهذا هو الذوق، وقبل الذوق قد يخطر للعبد من الرجاء أن يكون الحق فيتفق أن يطلع على إحالة هذه الكينونة، فيكون أيضاً هذا من الفصل المبوّب عليه في هذا الباب وما ثم أعلى من هذا الرجاء، ثم ينزل من هذا إلى ما يرجوه من التحقق بالأسماء والصفات والنعوت في الأكوان علوّها وسفلها، فكل ما فاتك من هذه الأمور فهو فصل أيضاً من هذا الباب، ولكن من شرط هذا الفصل والوصل أن يكون من مقام المحبة وإن كانت من طريق الإرادة، فإن المحبة وإن كانت عين الإرادة فهي تعلق خاص كالشهوة لها تعلق خاص وهي إرادة، وكذلك العزم حال خاص في الإرادة والهمّ والنية، والقصد كل ذلك أحوال للإرادة. واعلم أن الرجاء من صفات المؤمنين من حيث ما هو مؤمن والفعل تابع له فهو من أحوال المؤمنين ما هو من أحوال العارفين فإنهم على بصيرة من أمرهم فلا رجاء عندهم، وهكذا نعت كل من هو من أمره على بصيرة كما قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣] وكما يئس الكفار من أصحاب القبور، فالفصل الذي يكون للعارفين ما هو فوت ما يرجى، وإنما هو تحقيق ما يقع به التمييز بين الحقائق، ولا يكون ذلك إلاّ للعلماء بترتيب الحكمة في الأمور، فيعطي كل ذي حق حقه كما فصل كل شيء بما يتميز به عن أن يشترك مع غيره، فأما في الأسماء الإلهية فبما تدل عليه من حيث ما هي عدد فلما قبلت الكثرة احتيج إلى الفصل إما في ذات المسمّى من نسبة معانيها إليه، وإما من حيث ما تظهر فيه آثارها فيحدث لها الكثرة من المؤثر فيه لا من اسم الفاعل الذي هو المؤثر، فتكون الآثار تكثر النسب إلى العين الواحدة، فذلك الفصل في الآثار لا في الأسماء ولا في المسمّى ولا في المؤثر فيه، فهذا تحقيق الفصل في المعرفة عند العارفين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني ومائتان

في حال الأدب

[نظم: الكامل]

أَدَبُ الشريعة ان تَقُومَ بِرَسْمِها ... فتكونَ مَكْتُوباً من الأُدَباءِ
فإذا فَنِيتَ من القيام وأنتَ في ... جَهْدٍ فأنتَ به من الخُدَمَاءِ
وإذا دفَعْتَ لكل طالبِ حَقِّهِ ... ما يستحقُّ لحِقْتَ بالأُمناءِ
وأتيتَ بالشَّرْع المطهَّرِ حُكْمُهِ ... وبذاك قالوا جُمْلَةُ القُدَماءِ

اعلم أن الأدب على أقسام. أما أدب الشريعة فهو أن لا يتعدّى بالحكم موضعه في جوهر كان أو في عرض، أو في زمان أو في مكان، أو في وضع أو في إضافة، أو في حال أو في مقدار، أو في مؤثر أو في مؤثر فيه، وانحصرت أقسام محل ظهور أدب الشريعة، فأمّا أدبها في الذوات القائمة بأنفسها فبحسب ما هي عليه من معدن ونبات وحيوان وإنسان وعروض، وما يقبل التغيير منه وما لا يقبل التغيير، وما يقبل الفساد وما لا يقبل الفساد، فيعلم حكم الشرع في ذلك كله فيجريه فيه بحسبه. وأما آدابها في الأعراض فهو ما يتعلق بأفعال المكلفين من وجوب وحظر وندب وكراهة وإباحة. وأما الآداب الزمانية فما يتعلق بأوقات العبادات المرتبطة بالأوقات، فكل وقت له حكم في المكلف ومنه ما يضيق وقته ومنه ما يتسع. وأما الآداب المكانية كمواضع العبادات مثل بيوت الله الذي ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [سورة النور: الآية ٣٦].

وأما الآداب الوضعية فهي أن لا يسمّى الشيء بغير اسمه ليتغير عليه حكم الشرع بتغير الاسم، فيحلل ما كان محرّماً أو يحرّم ما كان محللاً كما قال عليه السلام: «**سَيأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَظْهَرُ فِيهِ أَقْوَامٌ يُسَمُّونَ الخَمْرَ بِغَيْرِ اسْمِهَا**» وذلك ليستحلوها بالاسم. كما سُئِل مالك عن خنزير البحر فقال: هو حرام، فقيل له: إنه من جملة سمك البحر، فقال: أنتم سميتموه خنزيراً فانسحب عليه لأجل الاسم حكم التحريم، كما سمّوا الخمر نبيذاً أو ربا أو تزيزاً فاستحلوها بالاسم. وأما أدب الإضافة فمثل قول خضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] للاشتراك بين ما يحمد ويذم، وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] لتخليص المحمدة فيه فيكتسب الشيء الواحد بالنسبة ذماً، وبالإضافة إلى جهة أخرى حمداً وهو عينه وتغيّر الحكم بالنسبة.

وأما آداب الأحوال كحال السفر في الطاعة وحاله في المعصية فيختلف الحكم بالحال، وحال السفر أيضاً من حال الإقامة في صوم رمضان وفطره والمسح على الخفين في التوقيت وعدم التوقيت. وأما الآداب في الأعداد فهو ما يتعلق بعدد أفعال الطهارة ومقاديرها والزكاة وعدد الصلوات وما لا يزاد فيه ولا ينقص بحسب حكم الشرع في ذلك، وكذلك توقيت ما يغتسل به ويتوضأ به كالمدّ والصاع هذا أدبه في العدد. وأما الأدب في المؤثر كحكمه في القاتل والغاصب وكل ما أضيف إليه فعل ما من الأفعال. وأما أدبه في المؤثر فيه كالمقتول قوداً هل بصفة ما قتل به أو بأمر آخر؟ وكالمغصوب إذا وجد بغير يد الذي باشر الغصب هذا قسم أدب الشريعة.

وأما قسم أدب الخدمة فإما أن يكون أعلى إلى أدنى أو من أدنى إلى أعلى، فأما خدمة

الأعلى إلى من هو دونه فالقيام بمصالحه ومراعاتها والتنبيه في ذلك على ما وقعت فيه المغفلة والتعريف بما جهل منها وتعيينه أوقاتها وأمكنتها وحالاتها وإيضاح مبهماتها والإفصاح عن مشكلاتها بإقامة أعلامها، كالأستاذ مع التلميذ والعالم مع الجاهل والسلطان مع الرعية. وأما خدمة الأدون من هو أعلى منه فبامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند مراسمه وحدوده والمبادرة إلى محابه والمسارعة إلى مراضيه ومراقبة إشاراته وموافقة أغراضه هذا قسم أدب الخدمة. وأما قسم أدب الحق فهو إعطاؤه ما يستحقه ممّا ينبغي له وإعطاؤه ما يستحقه مني، كما أنه أعطاني خلقي حين ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فإذا أعطيته ما يستحقه بما هو هو وأعطيته ما يستحقه منك بما أنت له فقد قمت بآداب الحق في إعطائه كل شيء خلقه هذا قسم آداب الحق. وأما قسم آداب الحقيقة فحاله أن يراه في الأشياء عينها لا هي، ثم يحكم على ما يراه من الزيادة والنقص بما أعطته استعدادات الأشياء فينسب ذلك إليها لا إليه كمالاً كان أو نقصاً أو موافقاً أو مخالفاً لا يحاشى شيئاً فإن حال الحقيقة يعطي ما قلناه، فإذا كان حالك في كل مقام ما ذكرناه فقد قمت بالأدب وأخذت الخير أجمعه بكلتا يديك وملأتهما خيراً وهذا غاية وسع المخلوق ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٣] والكلام على الأحوال لا يحتمل البسط وتكفي فيه الإشارة إلى المقصود ومهما بسطت القول فيه أفسدته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث ومائتان

في حال الرياضة

[نظم: الطويل]

إذا هذّب الإنسانُ أخلاق نفسه ... وأَخْرَجَها عن طَبْعها ومُرَادِهَا

وذاكَ مُحَالٌ عندنا كَوْنُه فما ... يُرَى راضَها مَنْ راضَها بعنادِهَا

فإن كنتَ ذا علم فإن مَصَارفاً ... لها عيَّنَتْ بالشرع عند فَسَادِهَا

اعلم أن الرياضة عند القوم من الأحوال وهي قسمان: رياضة الأدب ورياضة الطلب، فرياضة الأدب عندهم الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب هي صحة المراد به أعني بالطلب، وعندنا الرياضة تهذيب الأخلاق، فإن الخروج عن طبع النفس لا يصحّ، ولما كان لا يصحّ بين الله لذلك الطبع مصارف فإذا وقفت النفوس عندها حمدت وشكرت ولم تخرج بذلك عن طبعها، فرياضتها اقتصارها على المصارف التي عينها لها خالقها، فإن عين الشيء المزاجي ليس غير مزاجه، فلو خرج الشيء عن طبعه لم يكن هو، ولهذا يكون قول من قال: رياضة الطلب صحة المراد به فإنه إذا كان الشيء مراداً به أمر ما والمريد لذلك الأمر هو موجد ذلك الشيء وقد عينه له وعرفه به وأن ذلك القدر يريد منه فتصرف فيه بطبعه على ذلك الحدّ كان صاحب رياضة لأنه لو تصرف في نقيض ما أريد منه لكان تصرفه فيه بطبعه أيضاً، فما كان التهذيب فيه إلاّ صرفه عن الإطلاق في التصرف إلى التقييد، فإن أراد صاحب القول في رياضة

الأدب أنه الخروج عن طبع النفس بمعنى ما كان لها فيه التصرف مطلقاً صار مقيداً، فحمل هذا الشخص نفسه على ما قيدها به خالقها من التصرف فيه، ودخلت تحت التحجير بعدما كانت مسرحة فهو الذي ذكرناه، وإن أراد غير ذلك فليس إلاَّ ما قلناه، وذلك أن الرياضة تذليل النفس وإلحاقها بالعبودية ولذا سميت الأرض أرضاً وذلولاً. فالرياضة عندنا من صير نفسه أرضاً أي مثل الأرض يطؤها البرّ والفاجر ولا يؤثر عندها تمييزاً بل تحمل البارّ حباً لما هو عليه من مراضي سيده، وتحمل الفاجر حمل الله إياه بكونه يرزقه على كفره بنعمه وجحده إياها ونسيان رب النعمة فيها.

وإلى الرياضة يرجع مسمّى الرضى على الحقيقة إن تفطنت، لأن النفس تطلب بذاتها الكثير من الخير لأن الأصل على ذلك، فإن الله تعالىٰ ما طلب إلاَّ الممكنات وهي غير متناهية ولا أكثر ممّا لا يتناهى، وما لا يتناهى لا يدخل في الوجود دفعة ولكن يدخل قليلاً قليلاً لا إلى نهاية، فإذا نسبت إليه ما توجه إليه طلبه من الكثرة ثم رضي من ذلك باليسير والتدريج لعلمه أن ما لا يتناهى لا يمكن حصوله في الوجود رضي بذلك القدر الذي يدخل منه فمتعلق الرضى لا يكون إلاَّ بالقليل، ولا يكون مخلوق بأعظم قدراً من خالقه. وإذا كانت هذه صفة الحق فهي بالعبد أولى، فما عند الله لا يتناهى، ومطلب هذا العبد من الله ما عنده ولا يتمكن دخوله في الوجود إلاَّ قليلاً قليلاً لا إلى نهاية، فرضي بذلك القدر العبد وهو قليل بالنسبة إلى متعلق علمه بما عند الله، فرضي عن الحق ورضي الحق عنه، فوقع الاقتصار من العالم بما لا يتناهى على ما أعطى من ذلك ممّا يتناهى رياضة منه عن مطلق تعلق علمه من ذلك، إذ قد علم أيضاً أن ما لا يتناهى لا يدخل في الوجود، فحقيقة الرياضة ترجع إلى هذا لأن الآدميّ لما خلق على الصورة زهت نفسه وتخيلت أن التحجير لا يصحّ على من له العزّة، وما علمت أن العزّة تحجير فإن العزّة حمى والحمى تحجير فعين ما ادّعت به الإطلاق ذلك بعينه قيدها، فلما أشهدها الحق حضرة عزّه ونفوذ اقتداره ومع نفوذ اقتداره لم يعطه الإمكان من نفسه إلاَّ قدر ما يحصل منه في الوجود انكسرت النفس وصار ما كانت تصول به أورثها ما أشهدها ذلة وانكساراً فإنها تقبل الذلّة لجهلها فارتاضت والحق لعلمه على عزّه، فرياضة العلم أنفع الرياضات، فما أزالها العلم عن الصورة ولكن أولاً جهلت ما هي الصورة عليه وما هي الحقائق عليه، فما أشرف العلم لو لم يكن من شرف العلم إلاَّ تجّلي الحق في صورة تنكر، ثم تحوّله في صورة تعرف وهو هو في الأولى والثانية، وأن موطن تلك المشاهدة لا يتمكن في نفس الأمر إلاَّ أن تكون مقيدة لأن الذي يشهد وهو عين العبد مقيد بإمكانه فلا يتمكن له شهود الإطلاق ولا بدّ من الشهود، فظهر له المشهود مقيداً بالصورة ومقيداً بالتحوّل في الصور ولأنه مقيد بالوجوب الذاتي، فالكل في عين التقييد إن عقلت عنا، وإنما تقيد بالتحوّل ليفتح له في نفسه العلم بأن الأمر لا يتناهى وما لا يتناهى لا يدخل تحت التقييد، فإنه من قبل التحوّل إلى صورة من صورة قبل التحوّل إلى صور لا نهاية لها، أو إلى صور لا يمكن لذلك المتحوّل أن يتجاوزها إلى غيرها، فخرج عن حدّ التقييد بالتقييد ليعلم أن مشهوده مطلق

الوجود فيكون شهوده أيضاً مطلقاً إطلاق مشهوده، فأفاده التحوّل من صورة إلى صورة علماً لم يكن عنده فعلم عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: الآية ٢٥] فأعلى رياضة العبد العالم أن لا ينكره في صورة ولا يقيده بتنزيه بل له التنزيه على الإطلاق عن تنزيه التقييد.

الباب الرابع ومائتان

في التحلي ـ بالحاء المهملة ـ

[نظم: البسيط]

لولا التَّحَلِّي لما كُنَّا بحَضْرَتِه مُسْتَخْلَفين على نورٍ بأنبائِهِ
إن التَّخَلُّقَ بالأسماء حِلْيَةُ من صافى المُسَمَّى فصافاه بأسمائِهِ
كَمِثْل طَيْفُورَ إذ صحَّتْ خلافَتُه والأمرُ جاء بها في عين أَنْبَائِهِ
نَفَاه مملوكُه سبعاً لمَصْلَحةٍ عادتْ عليه وهذا مِنَ اشيائِهِ
فإنه سألَ الرحمنَ ما وقَعَتْ به الأمورُ على تَرْتيبِ نَعْمائِهِ
فالله يَرْزقني صِدْقاً ويَفْتَحُ لي باباً ويمنَحُني شُكْراً لآلائِهِ

اعلم أن التحلي بالحاء المهملة في اصطلاح الطائفة التشبّه بأحوال الصادقين في أقوالهم وأفعالهم، وهذا في الطريق عندنا مدخول ومن أسماء الله الصادق، وأن الصادقين من أحوالهم التحلي بالحاء المهملة فلا بدّ من معرفة ما يتحلى به، فهل تحلّوا بما هو لغيرهم فتزينوا بما ليس لهم فهم لابسو أثواب زور؟ أو تحلّوا بما هو لهم فهم صادقون؟ والتحلي عندنا هو التزيّن بالأسماء الإلهية على الحدّ المشروع بحيث أن يعسر التمييز، وهم الذين إذا رؤوا ذكر الله كعرش بلقيس لما قامت لها شبهة بعد المسافة فقالت: كأنه هو، ولو شاهدت الاقتدار الإلهيّ لعلمت أنه هو كما كان هو من غير زيادة، وإذا حصل الإنسان في هذا المقام بهذا التحلّي ولم يحجبه هذا التحلّيْ في حال تزينه به وأنه له حقيقة ما استعاره بل ذلك ملكه وماله ولا منعه عن شهود عبوديته لربه وأن نسبة ما ظهر به ممّا هو نعت لخالقه ما كان تشبهاً وإنما كان تزيناً فذلك التحلي، ويقول الحكماء في هذه الحالة أنه التشبّه بالإله جهد الطاقة، وهذا القول إذا حققته جهل من قائله لأن التشبّه في نفس الأمر لا يصحّ، فمن قامت به صفة فهي له وهو مستعد لقيامها به فباستعداد ذاته اقتضاها فما تشبه أحد بأحد بل الصفة في كل واحد كما هي في الآخر، وإنما حجب الناس التقدم والتأخر وكون الصورة واحدة، فلما رأوها في المتقدم ثم رأوها في المتأخر قالوا: إن المتأخر تشبه بالمتقدم في هذه الصورة وما علموا أن حقيقتها في المتأخر حقيقتها في المتقدم، ولو كان الأمر كما قالوه لزاحمت العبودية الربوبية ولبطلت الحقائق، فما تحلّى العبد إلاّ بما هو له ولا ظهر الحق إلاّ بما هو له لا من صفات التنزيه ولا من صفات التشبيه كل ذلك له، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان ما وصف نفسه به من ذلك كذباً وتعالىٰ الله بل هو كما وصف نفسه من العزّة والكبرياء والجبروت والعظمة ونفى المماثلة كما وصف نفسه بالنسيان والمكر والخداع والكيد والفرح والمعية وغير ذلك، فالكل

صفة كمال لله تعالىٰ فهو موصوف بها كما تقتضيه ذاته، وأنت موصوف بها كما تقتضيها ذاتك: [البسيط]

والعينُ واحدةٌ والحُكْمُ مختلفٌ ... والعَبْدُ يَعْبُدُ والرحمنُ مَعْبُودُ

فليس التحلي في الحقيقة تشبه فإنه محال في نفس الأمر وما قال به إلاً من لا معرفة له بالحقائق وكذلك كنا ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [سورة القصص: الآية ٨٢] فتعين علينا أن نبين للخلق ما بينه الحق لنا، هكذا أخذ العهد علينا فيما يجوز لنا الإبانة عنه والإفصاح به. وأما ما أخذ الله علينا العهد على كتمانه فنشاهده من الخلق ولا نخبرهم بما هو، فهم بحكم ما يتخيلون ونحن بحكم ما نعلم، ولو عرّفناهم بذلك ما قبلوا لأن استعدادهم لا يعطي القبول كما قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٣] فما حجبناه عنهم إلاً رحمة بهم فإن الله سبحانه لم يترك منفعة لعباده إلاً وقد أبانها لهم واختلف استعدادهم في القبول، وما أبان الله عن نفسه بما أبان ممّا وصف به نفسه ممّا تنزهه عنه العقول بأدلتها إلاً ليعلم أنه ما ثم شيء من الموجودات ولا عين خارج عنه بل كل صفة تظهر في العالم لها عين في جناب الحق والكل مرتبط به، وكيف لا يرتبط به وهو ربه وموجده. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس ومائتان

في التخلي ـ بالخاء المعجمة ـ

[نظم: البسيط]

لولا المراتبُ في المشروع ما ظَهَرَتْ ... حقائقُ الحقِّ والأعيانُ تَشْهَدُهُ

كيف التَّخَلِّي وما في الكون من أحدٍ ... سواهُ وهو الذي في الكون نَعْبُدُهُ

وذاك يمْنَعُنا من أن نُقَيِّدَهُ ... فنحنُ نُعْدِمُه وقتاً ونُوجِدُهُ

فكلُّ ما في وجودِ الكونِ من عَرَضٍ ... على اعتقاداتنا فالله مُوجِدُهُ

فاشْهَدْهُ إن كنتَ ذا عينٍ ومعرفةٍ ... في كل شيءٍ وإن الشيءَ يُفْقِدُهُ

اعلم أن التخلي ـ بالخاء المعجمة ـ عند القوم اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، وعندنا التخلي عن الوجود المستفاد لأنه في الاعتقاد هكذا وقع، وفي نفس الأمر ليس إلاً وجود الحق والموصوف باستفادة الوجود هو على أصله ما انتقل من إمكانه فحكمه باق وعينه ثابتة والحق شاهد ومشهود، فإنه تعالىٰ لا يصحّ أن يقسم بما ليس هو لأنّ المقسوم به هو الذي ينبغي له العظمة فما أقسم بشيء ليس هو، وقد ذكرنا ذلك في باب النفس بفتح الفاء، فمما أقسم به وشاهد ومشهود فهو الشاهد والمشهود وهو ما استفاد الوجود بل هو الموجود. فإن قلت: فمن هذا الذي جهل هذا الأمر حتى تعلمه ولا يقبل الإعلام إلاً موجود؟ قلنا: الجواب عليك من نفس اعتقادك فإنك المؤمن بأنه تعالىٰ قال للشيء: ﴿كُن﴾ فما خاطب ولا أمر إلاً من يسمع ولا وجود له عندك في حال الخطاب فقد أسمع من لا وجود له، فهو الذي يعلمه ما ليس عنده فيعلمه وهو في حال عدمه يقبل التعليم كما سمع الخطاب

عندك فقبل التكوين وما هو عندنا قبوله للتكوين كما هو عندك، وإنما قبوله للتكوين أن يكون مظهراً للحق، فهذا معنى قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ لا أنه استفاد وجوداً إنما استفاد حكم المظهرية فيقبل التعليم كما قبل السماع لا فرق، ولقد نبهتك على أمر عظيم إن تنبهت له وعقلته فهو عين كل شيء في الظهور ما هو عين الأشياء في ذواتها سبحانه وتعالىٰ بل هو هو والأشياء أشياء، فبعض المظاهر لما رأت حكمها في الظاهر تخيلت أن أعيانها اتصفت بالوجود المستفاد فلما علمنا أن ثم في الأعيان الممكنات من هو بهذه المثابة من الجهل بالأمر تعين علينا مع كوننا على حالنا في العدم مع ثبوتنا أن نعلم من لا يعلم من أمثالنا ما هو الأمر عليه، ولا سيما وقد اتصفنا بأنا مظهر فتمكنا بهذه النسبة من الإعلام لمن لا يعلم فأفدناه ما لم يكن عنده فقبله، فممّا أعلمناه أنه ما استفاد وجوداً بكونه مظهراً فتخلّى عن هذا الاعتقاد لا عن الوجود المستفاد لأنه ليس ثم، فلهذا عدلنا في التخلي أنه التخلي عن الوجود المستفاد.

وأمّا أهل السلوك الذين لا علم لهم بذلك ولا بمن هو الظاهر المشهود ولا بمن هو العالم فآثروا الخلوة لينفردوا بالحق لما حجبتهم الكثرة المشهودة في الوجود عن الله جنحوا إلى التخلي، وهذا ممّا يدلك على أنهم ما تركوا الأشياء من حيث صورها فإنه لا يتمكن لهم ذلك، فإنهم في خلوتهم لا بدّ أن يشاهدوا صور ما تخلوا فيه من جدار وباب وسقف وآلات قام بيت الخلوة منها ووطاء وغطاء ومأكول ومشروب، فالصور لا يتمكن له التخلي عنها فلم يبق الهرب إلاّ ممّا يطرأ من هذه الصور من الكلام المفهوم لا من الأفعال، لأن صاحب الخلوة لو كانت معه الحيوانات لم يزل في خلوة ولا يشغله عن مطلوبه إلاّ أن يخاف من ضررها، كذلك أيضاً لو كان في الجدار ميل لخاف من تهدمه وسقوطه عليه، فإذا ما اختار التخلي إلاّ لأجل الكلام الذي تتكلم الناس به، فلو فهم ما يتكلم الناس به على الوجه الذي وضعه الحق فيهم لزاد علماً بما لم يكن عنده، ولو صلّى صلاة واحدة أعني ركعة واحدة لما طلب التخلي فإنه إذا سمع قول العبد: سمع الله لمن حمده، وأن ذلك القول لله لسرت الحقيقة في جميع ما يسمع، فكلام الناس كله يفيد العارفين علماً بالله، ولهذا من كرامات الصالحين أن يسمعهم الله نطق الأشياء فلو لم يفدهم ذلك علماً لم يكن ذلك إكراماً من الله بهم، فمن رزق الفهم عن الله استوت عنده الخلوة والجلوة بل ربما تكون الجلوة أتم في حقه وأعظم فائدة، فإنه في كل لحظة يزيد علوماً بالله لم تكن عنده.

الباب السادس ومائتان

في حال التجلي ـ بالجيم ـ

[نظم: مخلع البسيط]

لِـلـغَـيْـبِ نـورٌ عـلـى الـبَـصَـائـرْ ... يُـظْـهِـرُ مـا كـان فـي الـسَّـرَائـرْ
لِـكـل قـلـبٍ مـن كـل شـخـصٍ ... أحْـضـرَه الـحـقُّ فـي الـمَـحَـاضِـرْ
فـشـاهَـدَ الأمـرَ كـيـف يـجـري ... وعـايَـنَ الـحُـكْـمَ فـي الـمَـقَـادِرْ

فــعــنــده أولٌ وظــاهِــرْ وعــنــدنــا بــاطــنٌ وآخِــرْ
قــسْــمــه كــالــصــلاة فــيــنــا عــيــنــاً لــعــيــنِ فــاشْــكُــرْ وبــادِرْ
مــا بــيــن عَــبْــدٍ حــبــيــسِ عَــجْــزٍ وبــيــن ربٌ عــلــيــه قــادِرْ
بــفــضــلــه قــد سَــرَى إلــيــنــا مــا يَــحْــمَــدُ الله فــي الــضــمــائِــرْ

اعلم أن التجلي عند القوم ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب وهو على مقامات مختلفة: فمنها ما يتعلق بأنوار المعاني المجرّدة عن المواد من المعارف والأسرار. ومنها ما يتعلق بأنوار الأنوار. ومنها ما يتعلق بأنوار الأرواح وهم الملائكة. ومنها ما يتعلق بأنوار الرياح. ومنها ما يتعلق بأنوار الطبيعة. ومنها ما يتعلق بأنوار الأسماء. ومنها ما يتعلق بأنوار المولدات والأمهات والعلل والأسباب على مراتبها، فكل نور من هذه الأنوار إذا طلع من أفق ووافق عين البصيرة سالماً من العمى والغشي والصداع والرمد وآفات الأعين كشف بكل نور ما انبسط عليه، فعاين ذوات المعاني على ما هي عليه في أنفسها، وعاين ارتباطها بصور الألفاظ والكلمات الدالة عليها وأعطته بمشاهدته إياها ما هي عليه من الحقائق في نفس الأمر من غير تخيّل ولا تلبيس، فمنها أنوار نسعى بها، ومنها أنوار نسعى إليها، ومنها أنوار نسعى منها، ومنها أنوار تسعى بين أيدينا، ومنها أنوار تكون خلفنا يسعى بها من يقتدي بنا، ومنها أنوار تكون عن أيماننا تؤيدنا، ومنها أنوار تكون عن شمائلنا تقينا، ومنها أنوار تكون فوقنا تنزل علينا لتفيدنا، ومنها أنوار تكون تحتنا نملكها بالتصرف فيها، ومنها أنوار نكونها هي أبشارنا وفي أبشارنا وأشعارنا وفي أشعارنا وهي غاية الأمر.

فأما أنوار المعاني المجرّدة عن الموادّ فكل علم لا يتعلق بجسم ولا جسمانيّ ولا متخيل ولا بصورة ولا نعلمه من حيث تصوّره بل نعقله على ما هو عليه ولكن بما نحن عليه، ولا يكون ذلك إلاَّ حتى أكون نوراً فما لم أكن بهذه المثابة فلا أدرك من هذا العلم شيئاً وهو قوله في دعائه ﷺ: «**واجعَلْنِي نُوراً**» والله يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فما أنارت إلاَّ به كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٩] يعني أرض المحشر يقول: ما ثم شمس، وعدم النور ظلمة ولا بدّ من الشهود فلا بدّ من النور وهو يوم يأتي فيه الله للفصل والقضاء فلا يأتي إلاَّ في اسمه النور فتشرق الأرض بنور ربها وتعلم كل نفس بذلك النور ما قدمت وأخرت لأنها تجده محضراً يكشفه لها ذلك النور، ولولا ما هي النفوس عليه من الأنوار ما صحّت المشاهدة، إذ لا يكون الشهود إلاَّ باجتماع النورين، ومن كان له حظ في النور كيف يشقى شقاء الأبد والنور ليس من عالم الشقاء، وما من نفس إلاَّ ولها نور تكشف به ما عملت، فما كان من خير سرّت به وما كان من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] حيث جعل لهم أنواراً يدركون بها، وقد علموا أن النور لا حظ له في الشقاء فلا بدّ أن يكون المآل إلى الملايم وحصول الغرض وذلك هو المعبر عنه بالسعادة لأنه قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٥] فعمّ وما خصّ نفساً من نفس وذكر الخير والشر، فالوجود نور والعدم ظلمة فالشر عدم ونحن في الوجود فنحن

في الخير وإن مرضنا فإنا نصحّ فإن الأصل جابر وهو النور، وهكذا صفة كل نور إنما جاء ليظهر ما طلع عليه فلا تدرك الأشياء إلاّ بك وبه فلهذا لا يصحّ نتيجة أي لا تكون إلاّ بين اثنين أصلها الاقتدار الإلهيّ وقبول الممكن للانفعال، لو نقص واحد من هاتين الحقيقتين لما ظهر للعالم عين فقد أعطيناك أمراً كلياً في هذه الأنوار فلا تتكلف بسطها مخافة التطويل، والأحوال لا تحتمل الإسهاب فلنذكر مبهمات الأنوار، فأما النور الذي نسعى به فهو ما تقدّم ذكره من أنوار المعلومات التي اكتفينا بذكر واحد منها ليكون تنبيهاً وأنموذجاً لما سكتنا عنه.

وأما النور الذي بين أيدينا فهو نور الوقت والوقت ما أنت به فنوره ما أنت به فانظر فيه كيفما كان فهو مشهودك الحاكم عليك والقائم بك، وهو عين الاسم الإلهيّ الذي أنت به قائم في الحال لا حكم له في ماض ولا مستأنف.

وأما النور الذي عن يمينك فهو المؤيد لك والمعين على ما يطلبه منك النور الذي بين يديك وهو الذي طلبت من الله في حال صلاتك في قولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] والصلاة نور وهي النور الذي بين يديك فهو وقتك الذي أنت به فلما قلت: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أيّدك بالنور من عن يمينك فإن اليمين القوّة، يقول الشاعر: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرَابةُ باليمينِ

وأما النور الذي عن يسارك فهو نور الوقاية والجنة من الشبه المضلة المؤثرة في النفوس الجهالات والالتباس والتشكيك الذي يخطر للناظر الباحث في الاعتقاد في الله وفيما أخبر به عن نفسه وهو على نوعين: نور إيمان ونور دليل، ونور الدليل على نوعين: نور نظر فكريّ ونور نظر كشفيّ، فيعلم الأمر على ما هو عليه في نفسه، فهذا فائدة النور الذي يأتي عن الشمال، وأما النور الذي خلفنا فهو النور الذي يسعى بين يدي من يقتدي بنا ويتبعنا على مدرجتنا، فهو لهم من بين أيديهم وهو لنا من خلفنا فيتبعنا على بصيرة من أجل ذلك النور الذي يخرجهم عن التقليد قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فهو بالنور الذي بين يديه يدعو على بصيرة، والداعي المتبع له يدعو بالنور الذي خلفه ليكون هذا المتبع أيضاً على بصيرة فيما يدعو إليه مثل من اتبعه، وبذلك النور يرى من خلفه مثل ما يرى من بين يديه، وهذا مقام نلته سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس في صلاة العصر وأنا أصلي بجماعة بالمسجد الأزهر بجانب عين الجبل فرأيته نوراً يكاد يكون أكشف من الذي بين يدي غير أني لما رأيته زال عني حكم الخلف وما رأيت لي ظهراً ولا قفا ولم أفرق في تلك الرؤية بين جهاتي بل كنت مثل الأكرة لا أعقل لنفسي جهة إلاّ بالفرض لا بالوجود وكان الأمر كما شاهدته، مع أنه كان قد تقدم لي قبل ذلك كشف الأشياء في عرض حائط قبلتي وهذا كشف لا يشبه هذا الكشف.

وأما النور الذي من فوقي فهو تنزّل نور إلهيّ قدسي بعلم غريب لم يتقدمه خبر ولا يعطيه نظر، وهذا النور هو الذي يعطي من العلم بالله ما تردّه الأدلة العقلية إذا لم يكن لها إيمان، فإن كان لها إيمان نورانيّ قبلته بتأويل لتجمع بين الأمرين.

وأما النور الذي من تحتنا فهو النور الذي يكون تحت حكمنا وتصريفنا لا يقترن معه فينا أمر إلهيّ نقف عنده فلا نصرفه إلاّ فيه.

وأما الأنوار التي نسعى بها فهي أنوار المعية من جانب الحق في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] لذلك قلنا من جانب الحق فإنه لا يختص بهذه المعية شيء من خلق الله دون غيره، ولها الاسم الحفيظ والمحيط، فإن لله مع بعض عباده معية اختصاص مثل معيته مع موسىٰ وهارون في قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٦] فهذه بشرى لهما حتى لا يخافا فإنهما قالا: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ أي يتقدم ويرتفع بالحجة إذ له الملك والسلطان فآمنهما الله ممّا خافا منه، ومن هنا تعرف مرتبة محمد ﷺ وعلوّها على رتبة غيره من الرسل، فإن الله أخبر عن محمد ﷺ في حال خوف الصديق عليه وعلى نفسه فقال لصاحبه يؤمنه ويفرّحه إذ هما في الغار وهو كنف الحق عليهما: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] فقام النبيّ ﷺ في هذا الإخبار مقام الحق في معيته لموسىٰ وهارون وناب منابه هكذا تكون العناية الإلهية، فهذا هو النور الذي يسعى به وهو لا يزال ساعياً، فلا يزال الحق معه حافظاً وناصراً لا خاذلاً، ولهذا وقع الإخبار لنا من الله على لسان رسوله ﷺ أنا إذا أتينا بنوافل الخيرات لا بفرائضها أحبنا الحق فكان سمعنا الذي نسمع به ورجلنا التي نسعى بها إلى جميع قوانا وأعضائنا، فهذا ما أعطت النوافل فينا من الحق، فأين أنت ممّا تعطيه الفرائض؟ فكم بين عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار تقع المشاركة مع الحق في عبودة الاختيار في أحاديث نزوله في الخطاب إلى عبده مثل الشوق والجوع والعطش والمرض وأشباه ذلك، وعبودة الاضطرار لا تقع فيها مشاركة فهي مخلصة للعبد، فمن أقيم فيها فلا مقام فوقها، يقول الله لأبي يزيد: تقرّب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار، فعين القربة هنا هو عين البعد من المقام فافهم.

وأمّا النور الذي نسعى منه فهو نور الحقيقة سواء علمها أو لم يعلمها فيكشفها بهذا النور ويكشف أنه سعي منه ثم ينكشف له النور الذي يسعى إليه وهو الشريعة، فصاحب هذا المقام هو المعصوم المحفوظ المعتني به العالم الذي لا يجهل لاتصافه بالعلم الذي لا جهل فيه، فإن ثم عبيداً يسعون من نور الشريعة إلى نور الحقيقة ويخاف عليهم، وهؤلاء الذين يسعون على كشف من نور الحقيقة إلى نور الشريعة آمنون من هذا المكر الإلهيّ فهم على بصيرة من أمرهم وهؤلائك تحت خطر عظيم يمكن أن يعصموا فيه ويمكن أن يخذلوا فاعلم ذلك.

وأمّا أنوار المولدات فهي أنوار تعطيه بذاتها علماً صحيحاً من العلم بالله يكشف بها نسبة الحق، وصورته في صور أعيان المعادن والنبات والحيوان وهم لا يعلمون، وما زاد الإنسان على هؤلاء إلاّ بكشفه ذلك، فالمولدات في هذا المقام بمنزلة قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] والإنسان فيه بمنزلة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠]﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦]، فإنه صورة كل شيء في نفس الأمر، فمن علمه وكشفه بهذا النور كان من أهل الاختصاص، فهو يرى الأشياء أعياناً بصورة حقية،

وأخبرني من أثق بنقله في هذه المسألة أن شخصاً كان بدمشق له هذا المقام لا يزال رأسه بين ركبتيه فإذا نظر إلى الأشياء في رفع رأسه لا يزال يقول: أمسكوه أمسكوه والناس لا يعلمون ما يقول فيرمونه بالتوله، وأما أنا فذقته لله الحمد على ذلك.

وأما أنوار الأسماء فهي التي تظهر مسمياتها حقاً وخلقاً ممّا يتعلق بالذات والصفات والأفعال في الإلهيات منها ما يتعلق بأجناس الممكنات وأشخاصها منها من الأسماء التي وضعها الحق لها وبلغتها الرسل لا ما وقع عليه الاصطلاح، وهذه الأنوار التي كانت لآدم عليه السلام حين علم جميع الأسماء بالوضع الإلهيّ لا بالاصطلاح، وفي ذلك تكون الفضيلة والاختصاص، فإن لله أسماء أوجد بها الملائكة وجميع العالم، ولله أسماء أوجد بها جامع حقائق الحضرة الإلهية وهو الإنسان الكامل ظهر ذلك بالنص في آدم وخفي في غيره فقال للملائكة في فضل آدم وفي فضل هذا المقام وقد أحضر للملائكة المسميات أعني أعيانهم ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] أي بالأسماء الإلهية التي صدروا عنها فلم يعلموا ذلك ذوقاً، فإن علوم الأكابر ذوقاً فإنه عن تجلٍ إلهيّ فقال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣] فأنبأهم آدم بأسماءهم الإلهية التي أوجدتهم وأسندوا إليها في إيجاد أعيانهم لا أسماء الاصطلاح الوضعي الكوني فإنه لا فائدة فيه إلاً بوجه بعيد أضربنا عن ذكره حين علمنا أنه لم يكن المقصود، فإنا ما نتكلم ولا نترجم إلاّ عمّا وقع من الأمر لا عمّا يمكن فيه عقلاً، وهذا الفرق بين أهل الكشف فيما يخبرون به وهم أهل البصائر وبين أهل النظر العقليّ، والفائدة إنما هي فيما وقع لا فيما يمكن فإن ذلك علم لا علم وما وقع فهو علم محقق.

وأما أنوار الطبيعة فهي أنوار يكشف بها صاحبها ما تعطيه الطبيعة من الصور في الهباء وما تعطيه من الصور في الصورة العامة التي هي صورة الجسم الكل، وهذه الأنوار إذا حصلت على الكمال تعلق علم صاحبها بما لا يتناهى وهو عزيز الوقوع عندنا، وأما عند غيرنا فهو ممنوع الوقوع عقلاً، حتى أن ذلك في الإله مختلف فيه عندهم، وما رأينا أحداً حصل له على الكمال ولا سمعنا عنه ولا حصل لنا، وإن ادّعاها إنسان فهي دعوى لا يقوم عليها دليل أصلاً مع إمكان حصول ذلك، وأنوار الطبيعة مندرجة في كل ما سوى الحق وهي نفس الرحمن الذي نفس الله به عن الأسماء الإلهية وأدرجها الله في الأفلاك والأركان وما يتولد من الأشخاص إلى ما لا يتناهى.

وأمّا أنوار الرياح فهي أنوار عنصرية أخفاها شدّة ظهورها فغشيت الأبصار عن إدراكها وما شاهدتها إلاّ في الحضرة البرزخية وإن كان الله قد أتحفنا برؤيتها حساً بمدينة قرطبة يوماً واحداً اختصاصاً إلهياً وورثاً نبوياً محمدياً، وهذه الأنوار الرياحية لها سلطان وقوّة على جميع بني آدم إلاّ أهل الله، فإن هذه الأنوار تندرج في أنوارهم اندراج أنوار الكواكب في نور الشمس وذلك لضعف نور البصر، وإذا غشيت هذه الأنوار من شاء الله من العامّة لا تغشاه إلاّ كالسحاب المظلم، وإذا غشيت أهل الله لا تغشاهم إلاّ وهي أنوار على هيئتها.

وأما أنوار الأرواح فمنا من يجعلها أنوار العقول ومنا من يجعلها أنوار الرسل، ولها

القوّة والسلطان والنفوذ في الكون لا يقف لها شيء غير أن لها حدوداً تقف عندها لا تتعداها، إذا شاهدها العبد يكشف بها ما غاب من العلوم المضنون بها على غير أهلها وهي أنوار سبوحية قدوسية تنزل من الحق المخلوق به إلى سدرة المنتهى، وتطرح شعاعاتها على قلوب العارفين أهل الشهود التام، فقلوبهم مطارح شعاعات هذه الأنوار، وليس في هذا الصنف الإنسانيّ أكمل منهم في العلم، فإن هذه الأنوار لا يقف لها حجاب إلاَّ المشيئة الإلهية خاصة، وقليل من عباد الله من تطرح على قلبه هذه الأنوار شعاعاتها على الكشف وهي مجالي الصادقين من عباد الله تعالىٰ.

وأمّا أنوار الأنوار فهي السبحات التي لو كشف الحق الحجاب الذي يسترها عنا لاحترقنا. هي أشعة ذاتية إذا انبسطت ظهرت أعيان الممكنات، فالممكنات هي الحجاب بيننا وبينها، وهذا هو النور العظيم لا الأعظم إليه الإشارة بقوله تعالىٰ في حق أهل الكتب الإلهية المنزّلة بالأعمال المشروعة بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وهم الموسويون ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وهم العيسويون ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهم أصحاب الصحف وما بقي من الكتب ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهي علوم خارجة عن الكسب ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وهي علوم دخلت تحت الكسب فهي من علوم التحت والفوق، وأنه إذا كان النور بهذه الصفة لم يكن من تحتنا بل يكون هو الذي يصرفنا. وأما النور الذي يكون من تحتنا فهو الذي نحكم عليه وهو المعبر عنه بالأكل من تحت الأرجل. وأما النور الذي هو عين ذاتنا فهو كما دعا فيه ﷺ: «**واجعَلْنِي نُوراً**» فهو عين ذاته، ورواية: «**وَاجْعَلْ لِي نُوراً**» هو جميع ما ذكرنا من الأنوار. وأما قوله: «**اجْعَلْنِي نُوراً**» فهو مشاهدة نور ذاته إذ لا يشهد إلاَّ به فإن ذاته ما قبلت هذه الأنوار من هذه الجهات الست إلاَّ لعدم إدراكها نور نفسها الذي قال في ذلك رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**»و ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] ومثله بما مثله وهو أنت عين ذلك الممثل والمثل فتشاهد الأنوار منفهقة منك يتنوّر بذاتك عالم سمواتك وأرضك فما تحتاج إلى نور غريب تستضيء به فأنت المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة، وإذا عرفت هذا عرفت الزيت وهو الإمداد الإلهيّ وعرفت الشجرة، وإذا كانت الزجاجة كالكوكب الدريّ وهو الشمس هنا فما ظنك بالمصباح الذي هو عين ذاتك. فلا يكن يا أخي دعاؤك أبداً إلاَّ أن يجعلك الله نوراً، وهنا سرّ عجيب أنبهك عليه من غير شرح لأنه لا يحتمل الشرح وهو أن الله يضرب الأمثال لنفسه ولا تضرب له الأمثال، فيشبه الأشياء ولا تشبهه الأشياء فيقال: مثل الله في خلقه مثل الملك في ملكه، ولا يقال: مثل الملك في ملكه مثل الله في خلقه فإنه عين ما ظهر وليس ما ظهر هو عينه فإنه الباطن كما هو الظاهر في حال ظهوره، فلهذا قلنا هو مثل الأشياء وليست الأشياء مثله إذ كان عينها وليست عينه، وهذا من العلم الغريب الذي تغرب عن وطنه وحيل بينه وبين سكنه فأنكرته العقول لأنها معقولة غير مسرحة، وهذا أنموذج من تجلي أنوار الأنوار.

وأما أنوار المعاني المجرّدة عن المواد فلا تنقال فإنه لو انقالت لدخلت في الموادّ لأن

العبارات من المواد، وقد قلنا إنها مجرّدة لذاتها عن المواد لا أنها تجردت لأنها لو تجردت لكسوناها المواد إذا شئنا ولم تمتنع لأنها قد كانت فيها فهي تعلم خاصة ولا تقال ولا تحكى ولا تقبل التشبيه ولا التمثيل.

وأما أنوار الأرواح فهي أنوار روح القدس الجامع، فمن أرسل من هذه الأرواح كان ملكاً، ومن لم يرسل بقي عليه اسم الروح مع الاسم الخاص به العلم في الطائفتين المرسلين وغير المرسلين، فهو روح خالص لم يشبه ما يخرجه عن نفسه، وهو روح ذو روح في روحيته، وليس إلاّ الأرواح المهيمة، وأرواح الأفراد منا تشبهها بعض شبه، فلا يقع التجلي في أنوار أرواح إلاّ للأفراد، ولهذا قال الخضر لموسىٰ: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] لأنه من الأفراد، وأن الأنبياء يقع لهم التجلي في أنوار الأرواح الملائكة وليس للأفراد هذا التجلي بل هو مخصوص بالأنبياء والرسل وهو قول خضر: أنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا لأنه ليس له هذا التجلي الملكي. ثم نبّهه على أنه ما فعل الذي فعل عن أمره فإنه ليس له أمر وما هو من أهل الأمر وهو مقام غريب في المقامات، لو أن الله تعالىٰ يبيح لنا كشفه للخلق لظهر علم لا يقوم له كون، هذا قد ظهر من أثره ثلاث مسائل من شخص قد شهد الله عند نبيه بعدالته وزكاه وصار تبعاً له وبيّن له ما قد سمعت وأدخل نفسه في أتباعه تحت شرطه، وهو مثل موسىٰ كليم الله ونجيه، وأين كلامه مع ربه من كلامه مع الخضر؟ فاختلف التجلي في الكلام، ومع هذا لم يصبر لأنه قدم الاستثناء ولم يقدمه لما أنكر عليه فإنه من شأن النبيّ أن يكون متبعاً كما هو متبع سواء، وكذلك قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٩] ما قال أن أفعل أو أقول إلاّ ما أشهد، ما قال هكذا فكل مقام له مقال ولسان.

وأما أنوار الرياح فهي تجليات الاسم البعيد، وهي تجليات لا ينبغي أن يذكر اسمها ولا تكون إلاّ لأهل الإلهام، وللتجلي في أنوار الملائكة في هذا مدخل ولكن في الباطن لا في الظاهر خاصة وهم ملائكة اللمات والإلهام خاصة والإلقاء في هذا التجلي على النفوس، ومن هذا التجلي تكون الخواطر وهي رياحية كلها لأن الرياح تمر ولا تثبت، فإن قال أحد بثبوتها فليست ريحاً ولذلك توصف بالمرور وتسمّى بالخواطر وهي من راح يروح والرائح ما هو مقيم. وأما التجلي في الأنوار الطبيعية فهو التجلي الصوري المركب، فيعطي من المعارف بحسب ما ظهر فيه من الصور وهو يعمّ من الفلك إلى أدنى الحشرات وهو السماء والعالم فهو تجلٍ في السماء والعالم، ومن هذا التجلي تعرف المعاني واللغات وصلاة كل صورة وتسبيحها، وهو كشف جليل نافع مؤيد فيه يرى المكاشف موافقة العالم وأنه ما ثم مخالفة، ومن هنا يرى كل شيء يسبح بحمده، وصاحب هذا المقام يرى على الشهود صور أعماله تكون حية مسبحة لله ذات روح ينفخ فيها صاحب هذا المقام، وإن كانت في ظاهر الكون مخالفة ومعصية فإنها مخالفة صحيحة إلاّ أنها حية ناطقة تستغفر لصاحبها لأنه سوّى نشأتها مخلقة، وقد تمدح الله بأنه ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ٢] ومن

تسوية نشأتها مخلقة أنه لم يخرجها عن كونها معصية، فلو أخرجها عن كونها معصية كانت غير مخلقة وشقي صاحبها وكان تسبيحها لعنة صاحبها فإنه أباح ما حرّم الله فخرج عن الإيمان بذلك، فلاحظ له في الإسلام إلاَّ أن يجدد إسلامه ويتوب، وهذا تنبيه لم يزل أصحابه يكتمونه غيرة منهم وضعفاً، والتنبيه عليه أولى لأنها نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فلا توجد أبداً معصية مخلقة إلاَّ من مؤمن، ومن أعطى الشيء خلقه فقد جرى على السنن الإلهيّ، فإن الله أعطى كل شيء خلقه، فأعطى المعصية خلقها والطاعة خلقها فهكذا تكون صفة المؤمن.

وأما أنوار الأسماء فإنها تعين أسماء المعلومات، فهو نور ينبسط على المعدومات والموجودات فلا يتناهى امتداد انبساطها وتمشي العين مع انبساطها فينبسط نور عين صاحب هذا المقام فيعلم ما لا يتناهى كما لا يجهل ما لا يتناهى بتضاعف الأعداد، وهذا علامة من يكون الحق بصره، فالأسماء كلها موجودة، والمسميات منها ما هي معدومة العين لذاتها ومنها ما هي متقدمة العدم لذاتها وهي التي تقبل الوجود، والأحوال لا تقبل الوجود مع إطلاق الاسم على كل ذلك، فللأسماء الإحاطة والإحاطة لله لا لغيره، فمرتبة الأسماء الإلهية وما فضل آدم الملائكة إلاَّ بإحاطته بعلم الأسماء فإنه لولا الأسماء ما ذكر الله شيئاً ولا ذكر الله شيء فلا يذكر إلاَّ بها، ولا يذكر ويحمد إلاَّ بها، فما زاحم صفة العلم في الإحاطة إلاَّ القول والقول كله أسماء ليس القول غير الأسماء، والأسماء علامات ودلائل على ما تحتها من المعاني، فمن ظهر له نور الأسماء فقد ظهر له ما لا يمكن ذكره، لا أقول غير ذلك، ولولا أن الحق أطلق لفظة الكل على الأسماء في صفة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] لقلنا من المحال أن يظهر انبساط نور الأسماء على المسميات لعين، ولكن من فهم قول الله تعالىٰ ثم عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] وأشار علم ما التزمناه من الأدب، وما أراد الله بلفظة كل في هذا التشريف.

وأما أنوار المولدات والأمهات والعلل والأسباب فهو تجلّ إلهيّ من كونه مؤثراً ومن كونه مجيباً إذا سُئِل، وغافراً إذا استغفر، ومعطياً إذا سُئِل، وبهذا التجلّي وهذه الأنوار تعلم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة الفتح: الآية ١٠] وقوله أيضاً عزّ وجلّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقوله تبارك وتعالىٰ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ الرَّحْمٰنِ**» وقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٨] وقوله عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ**» فافهم.

الباب السابع ومائتان

في حال العلة

[نظم: الكامل]

إن العليلَ إلى الطبيب رُكُونُهُ ... مَهْمَا أحسَّ بعلَّةٍ في نَفْسِهِ

فَـتـراه يَـعْـبُـده ومـا هـو ربُّـهُ حَـذَراً عـلـيـه أن يـحـلَّ بـرَمْـسِـهِ
فسألتُ ما سبَبُ الرُّكونِ فقيل لي مـا كـان إلاَّ كَـوْنَـه مـن جِـنْـسِـهِ

اعلم أن العلة عند القوم تنبيه من الحق، ومن تنبيهات الحق قوله على لسان نبيه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وفي رواية يصححها الكشف، وإن لم تثبت عند أصحاب النقل على صورة الرحمن فارتفع الإشكال وهو الشافي من هذه العلة يقول تعالىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٤] فعلمنا أن كل رواية ترفع الإشكال هي الصحيحة وإن ضعفت عند أهل النقل، وإذا كان الله هو الشافي والمعافي فهو الطبيب كما قال الصديق: الطبيب أمرضني، فسبب حنين صاحب العلة إلى الطبيب ما ذكرناه في الشعر وهو خلقه على الصورة، ثم أيّد هذا الخبر وهذا النظر الكشفيّ قول الله تعالىٰ: «**مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**» ولما فسّر قال: مرض فلان فأنزل نفسه فيما أصاب فلاناً عناية منه بفلان، وهذه كلها علل لمن عقل عن الله، فالعلة إثبات السبب والحق عين السبب إذ لولاه ما كان العالم فهو الخالق البارىء المصوّر الشافي، فإذا كان هو عين العلة في قوله: منك، من قوله: أعوذ بك منك، فما شفاه إلاَّ منه إذ لا شافي إلاَّ الله فهو الشافي من كل علة، فإن الله وضع الأسباب فلا يقدر على رفعها، ووضع الله لها أحكاماً فلا يمكن ردّها وهو مسبب الأسباب، فخلق الداء والدواء، وما جعل الشفاء إلاَّ له خاصة، فالشفاء علة لإزالة المرض وما كل علة شفاء، فكل مسبب سبب وما كل سبب مسبب، لكن قد يكون مسبب الحكم لا مسبب العين كقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فالعلة إذا كانت بمعنى السبب لها حكم، وإذا كانت بمعنى المرض لها حكم، فهي بمعنى المرض داء، وهي بمعنى السبب حكمة، فالعلة تنبيه من الحق لعبده على كل حال، فوقتاً ينبهه من رقدة غفلته بأمر ينزل به وذلك هو الداء والمرض، فإذا فقد العافية أحسّ بالألم فعلم أن مصيبة نزلت به فشرع الله له أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا يرجع إلاَّ من خرج، ووقتاً ينبهه من رقدة غفلته بحكمة تظهر له في نفسه من غير أن يكون ذا مرض نفساني، فإذا كان الحق عين علته فلا يكون إلاَّ من تجلّ إلهيّ فجأة، فإن لله فجآت على قلوب عباده ترد عليهم من غير استدعاء ولا تقدّم سبب معين عنده وإن كان عن سبب في نفس الأمر ولكن لا علم له بذلك، غير أن القوم ما عدلوا إلى هذا الاسم الذي هو العلة إلاَّ لما رأوا العلة مرتبطة بمعلولها والمعلول مربوطاً بعلته، وعلموا أن العالم ملك لله، والملك مربوط حقيقة وجوده ملكاً بالملك، والملك الله، والملك لا يكون ملكاً على نفسه فهو مربوط بالملك، فلما ظهر التضايف في كون العالم مربوباً ومملوكاً عدلوا إلى اسم العلة ولم يعدلوا إلى اسم السبب ولا إلى اسم الشرط. ولما كان بعض التنبيهات الإلهية آلاماً ونوازل تكرهها النفوس بالطبع عدلوا إلى اسم يجمع التنبيهات كلها فعدلوا إلى العلة، فإن المرض يسمّى علة وهو من أقوى المنبهات في الرجوع إلى الله لما يتضمنه من الضعف، ثم إن الله جعل الأسباب حجباً عن الله وركنت النفوس إليها ونسي الله فيها وانتقل الاعتماد عليها من الخلق والعلة وإن كانت عين السبب، ولكن لاختلاف الاسم حكم فالعلة على النقيض من

السبب فإنها منبهة بذاتها على الله، فكان اسم العلة بالمنبه أولى، فكل سبب لا يردّك إلى الله ولا ينبهك عليه ولا يحضره عندك فليس بعلة: [الطويل]

فدائي هو الداءُ العُضَالُ لأنه ... ينبّهني في كل حالٍ على نَفْسي
فما علّتي غيري وما عِلّتي أنا ... ولستُ بذي فَضْلٍ ولست بذي جِنْسِ
ولستُ على علم فأعرفُ من أنا ... ولستُ على جَهْلٍ بذاتي ولا لَبْسِ
فما أنا من تَعْنَّي ولا أنا غَيْرَهُ ... ولكنني في الطرح في الضرب كالأُسّ

ولما كانت العلة التنبّه الإلهيّ فتنبيهات الحق لا تنحصر إلاَّ من طريق ما، وهو أن التنبيه الإلهيّ لا يخلو إما أن يكون من خارج أو من داخل، فإن كان من خارج فقد يثبت وقد لا يثبت، وإن كان من داخل فإنه يثبت ولا بدّ كإبراهيم بن أدهم فإنه نودي من قربوس سرجه فالتفت نحوه فإذا النداء من قلبه فتخيل أنه من قربوس سرجه. وكصاحب القنبرة العمياء حين انشقت لها الأرض عن سكرجتين ذهب وفضة في الواحدة ماء وفي الأخرى سمسم فأكلت من السمسم وشربت من الماء فكانت القنبرة العمياء نفسه مثلت له في هذه الصورة لأنها كانت في حال عمى من المخالفة مع ما هو عليه من نعمة الله فعلم ذلك فرجع إلى الله، فهذه أمثلة ضربت لهم، فالصورة تظهر من خارج والأمر عنده في حاله ولذلك ثبتوا، وقد يكون التنبيه الإلهيّ من واقعة، ومن الواقعة كان رجوعنا إلى الله وهو أتم العلل، لأن الوقائع هي المبشرات وهي أوائل الوحي الإلهيّ وهي من داخل فإنها من ذات الإنسان، فمن الناس من يراها في حال نوم ومنهم من يراها في حال فناء، ومنهم من يراها في حال يقظة، ولا تحجبه عن مدركات حواسه في ذلك الوقت، وإنما سميت علة لأنها تورث ألماً في النفس على ما فاته من الحق الذي خلق له، ويتوهم أنه لو مات في حال المخالفة كيف يكون وجهه عند الله ولو غفر له، أما كان يستحي منه حيث عصاه بنعمته، ومن نعمته عليه أنه أمهله ولم يؤاخذه بما كان منه كما قلنا في نظم لنا: [مخلع البسيط]

يا مَنْ يراني ولا أراهُ ... كَمْ ذا أراه ولا يَراني

فقال لي بعض إخواني: كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له في الحال مرتجلاً: [مجزوء الرجز]

يا من يراني مُجْرماً ... ولا أراه آخِذَا
كم ذا أراه مُنْعِماً ... ولا يَراني لائذَا

فلو لم يكن في المخالفة إلاَّ الاستحياء لكان عظيماً بل هو أعظم من العقوبة، فالمغفرة أشدّ على العارفين من العقوبة، فإن العقوبة جزاء فتكون الراحة عقيب الاستيفاء فهو بمنزلة من استوفى حقّه، والغفران ليس كذلك فإنك تعرف أن الحق عليك متوجه وأنه أنعم عليك بترك المطالبة فلا تزال خجلاً ذا حياء أبداً، ولهذا إذا غفر الله للعبد ذنبه حال بينه وبين تذكره وأنساه إياه فإنه لو تذكره لاستحيا، ولا عذاب على النفوس أعظم من الحياء حتى يود صاحب الحياء أنه لم يكن شيئاً كما قالت الكاملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [سورة مريم:

الآية ٢٣] هذا حياء من المخلوق كيف نسبوا إليها ما لا يليق ببيتها ولا بأصلها ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٢٨] فبرأها الله ممّا نسبوا إليها لما نالها من عذاب الحياء من قومها، فكيف الحياء من الله فيما يتحققه العبد من مخالفة أمر سيده؟ فإن قلت: وهل يمكن أن يعصى على الكشف؟ قلنا: لا، قيل: فقول أبي يزيد لما قيل له: أيعصى العارف والعارف من أهل الكشف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٨] فجوّز. قلنا: هكذا يكون أدب العارفين مع الحق في أجوبتهم حيث قال: إن كان الله قدّر عليهم في سابق علمه ذلك فلا بدّ منه وهي معصية فلا بدّ من الحجاب كما قال ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُم حَتَّى إِذَا أَمْضَى فِيهِمْ قَدَرَهُ رَدَّها عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبِروا**» وكذلك حال العارف إذا أراد الله وقوع المخالفة منه ومعرفته تمنعه من ذلك فيزين الله له ذلك العمل بتأويل يقع له فيه وجه إلى الحق لا يقصد العارف به انتهاك الحرمة كما فعل آدم، كالمجتهد يخطىء فإذا وقع منه المقدور أظهر الله له فساد ذلك التأويل الذي أدّاه إلى ذلك الفعل كما فعل بآدم فإنه عصى بالتأويل، فإذا تحقق بعد الوقوع أنه أخطأ علم أنه عصى، فعند ذلك يحكم عليه لسان الظاهر بأنه عاص وهو عاص عند نفسه. وأما في حال وقوع الفعل منه فلا لأجل شبهة التأويل كالمجتهد في زمان فتياه بأمر مّا اعتقاداً منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة وفي ثاني حال يظهر له بالدليل أنه أخطأ فيكون لسان الظاهر عليه أنه مخطىء في زمان ظهور الدليل لا قبل ذلك، فإن كان العارف ممّن قيل له على لسان الشارع افعل ما شئت فقد غفرت لك فما عصى لا ظاهراً ولا باطناً عند الله وإن كان لسان الظاهر عليه بالمعصية لأنه لم يدرك نسخ ذلك بالإباحة من الشارع، فلسان الظاهر كمجتهد مخطىء يرى إصابة غيره من المجتهدين خطأ اعتماداً منه على دليله، فمن كان هذا مقامه فما فعل فعلاً يوجب له الحياء مع لسان الظاهر عليه بالمعصية، فمن تنبيهات الحق التوفيق لإصابة الأدلة كما هي في نفس الأمر ليكون على بصيرة وهو المعتني به في أوّل قدم، فإذا أورثته العلة علة طهرته، فإذا وقع التطهير أنسي ما كان عليه من المخالفة وشغل بما توجه إليه مبسوطاً لا مقبوضاً، ولذلك قال بعضهم في حدّ التوبة، أن تنسى ذنبك، ومعنى ذلك عند هذا القائل: إن الله تعالىٰ إذا قبل توبتك أنساك ذنبك فلم يذكرك إياه فإنك إن ذكرته أحضرته بينك وبين الحق وهو قبيح الصورة فجعلت بينك وبين الحق صورة قبيحة، تؤذن بالبعد، فهذا فائدة النسيان لما قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] لم يزل جبريل ينزل عليه في صورة دحية وكان أجمل أهل زمانه يقول له بصورة الحال: يا محمد ما بيني وبينك إلاّ صورة الحسن والجمال، فإن جبريل كان بينه وبين الله، وكان من جمال دحية أنه لما ورد إلى المدينة وخرج الناس إليه نساء ورجالاً فما رأته حامل إلاّ ألقت ما في بطنها لما أدركها في نفسها ممّا رأته من حسن صورته، فالله ينسي التائبين من العارفين ذنوبهم السالفة ولهذا غفرت أي سترت عنهم، والستر على نوعين: إما أن تستر عنهم جملة واحدة، وإما أن تبدّل بحسنة فتحسن صورة تلك السيئة بالتوبة فتظهر له حسنة كما قال:

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] أي يردّ قبحها حسناً. فمن تنبيهات الحق قوله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ فإذا علموا ذلك أسرعوا في الرجعة إلى الله وسارعوا إليها، فهذا قد أبنت لك معنى حال العلة عند الطائفة وما تؤثر في الرجال.

الباب الثامن ومائتان

في حال الانزعاج

[نظم: الطويل]

إذا انتبه القلبُ السليمُ من النَّوْم — تحرَّكَ تَحْريكَ انزعاج من الوَجْدِ
إلى طَلَبِ الأُنْسِ الذي قد أَقَامَهُ — فأوّلُ ما يَلْقَى التَّحَقُّقُ بالزُهْدِ
فيُدْعَى بعبدٍ وهو سيِّدُ وَقْتِهِ — وشتَّانَ ما بين السيادة والعَبْدِ
فيَفْنَى به عنه ليبقى بربِّه — نزيهاً عن الفَضْلِ المُقَوِّم والحَدِّ
مع الحدِّ للعهد الذي كان بينَهُمْ — وذلك بُرْهانٌ على كَرَم الودِّ

اعلم أن الانزعاج عند الطائفة حال انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرّك للأنس والوجد، فالانزعاج حكم العلة على هذا أي العلة أورثته هذا الانزعاج، وهو اندفاع النفس من حال صحّ لها إلى أصلها الذي خرجت عنه لأنه من ذلك الأصل دعاها والأصل طاهر، فهو اندفاع بشهوة شديدة وقوّة.

ولهذا الانزعاج أسباب مختلفة: فمنهم من تزعجه الرغبة. ومنهم من تزعجه الرهبة. ومنهم من يزعجه التعظيم. فأما انزعاجه للأنس والوجد فقد يكون فهماً، وقد يكون لقاء، وقد يكون إلقاء، وقد يكون تلقياً، فمن ذلك ما يكون عن خاطر إلهيّ، وعن خاطر ملكيّ، وعن خاطر شيطانيّ، وعن خاطر نفسيّ، ولكن لا يكون لهذا الوليّ عن النفس والشيطان إلاّ بفهم يرزقه الله فيه عناية من الله لا أن الشيطان له عليه سلطان بل الشيطان في خدمته وهو لا يشعر، وساع بما يلقي إليه في سرّه في ارتقاء درجة هذا الوليّ من حيث لا يعلم الشيطان، وهذا من مكر الله الخفي بإبليس لأنه يسعى في ترقّي درجات العارفين من حيث يتخيل أنه ينزلهم عنها.

وإذا كان الأمر على هذا فلنقل أن حال العلة إذا تحقق في العبد أظهر في النفس انزعاجاً ولا بدّ، وانزعاجه أوّلاً إنما هو ليفارق الحال التي كان عليها لما كشف الله عن بصيرته بالعلة فرأى نفسه في محل البعد فانزعج لذلك رغبة في مفارقة ذلك الموطن من غير تعيين حضرة من حضرات القرب، فإذا فارق ذلك الموطن بقدم واحدة وزال عن شهوده أخذ نفسه ساعة واستراح وهو ما يجده المريد من اللذة وحلاوة التوبة التي تهوّن عليه ركوب الشدائد وتسهل عليه صعوبة طريقه، يجد كل أحد هذا من نفسه في هذا الحال لا يقدر على إنكاره، فإذا فارق موطن المخالفة بإنزعاجه واستراح حينئذ يتهدى على نفسه ويفتح عينيه ويعلم أنه قد تخلص ممّا كان فيه فحينئذ يقوم له ما يؤثر عنده الإنزعاج إليه، فأوّل الإنزعاج أبداً في هذا الطريق إنما

هو منه، وفي ثاني حال يظهر حكم الانزعاج إليه، فإن أقيم له في أوّل نظرة ما يستحقه جلال الله من التعظيم أو كان هذا الرجل ممّن تقدّم له العلم بالله من حيث الأدلة النظرية فيكون إنزعاجه تعظيماً لله لا رغبة فيما عنده بل ينزعج لأداء حق ما تعين عليه لله تعالىٰ وما تعطيه مرتبة العبد من سيده فما هو مشغول بما ينعم عليه ويرغبه فيه من لذات نفسه، بل يرى ما لله عليه من الحقوق فيجهد نفسه في أداء ذلك وهو قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] فيعلم أن أحداً لا يطيق ذلك، وأن قدر الله أجل وأعلى وأنزه أن يقدره أحد فيؤدّيه ذلك إلى النظر في نفسه، وما آتاه الله من القوّة في ذلك لما علم أن قدر الله ليس في وسع المخلوق القيام به وسمع الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] وقال: ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] وقال: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] فانزعج إلى القيام بحق الله على قدر الاستطاعة وما في وسعه.

ويتفاضل عباد الله في ذلك على نوعين: على قدر ما يكشف لهم من جلال الله، وعلى قدر أمزجتهم. فإن الله قد جعل نفس الإنسان وعقله بحكم مزاج جسده، فإن نفس الإنسان لا تدرك شيئاً إلاّ بوساطة هذه القوىٰ التي ركب الله في هذه النشأة فهي للنفس كالآلة، فإن كانت الآلة مستقيمة على الوزن الصحيح ظهر حسن الصنعة بها إذا كانت النفس عالمة بالصنعة وعلمهم على قدر ما يكشف لهم الحق من ذلك في سرائرهم، فمنهم من يكشف له فيما تطلبه الذات، ومنهم من يكشف له فيما تطلبه الأسماء من حيث الدلالات النظرية، ومنهم من يكشف له فيما تطلبه الأسماء من حيث ما جاءت به الشرائع من المقابل والمقارن، فمنهم من يقام على رأس الستين ألفاً من المنازل الإلهية، ومنهم من يقام على رأس مائة ألف وعشرين ألفاً من المنازل، ومنهم من يقام على رأس تسعين ألفاً منحصرة في ستة مقامات لا سابع لها ولا يشارك عبد في شيء من هذه المنازل بل يكون فيها كل إنسان منفرداً وهو قول الطائفة: إن الله لا يتجلى في صورة واحدة لشخصين قد علم كل أناس مشربهم، فهم وإن اجتمعوا في العدد فما لهم اجتماع في الذوق لأنهم لم يجتمعوا في المزاج، ولو اجتمعوا في المزاج وهو محال ما تميزوا ولكان العين واحدة، وثم موطن يعطي الظهور في صاحب المنزل الذي كان على رأس الستين ألفاً خلاف هذا وهو في تلك الدرجة عينها فيكون له بدل الستين ألفاً عدد آخر يكون مبلغه ثلاثة آلاف ألف، ويكون لصاحب التسعين ألفاً أربعة ألف ألف وخمسمائة ألف، ويكون لصاحب المائة ألف وعشرين ألفاً ستة آلاف ألف وهذا لا يكون إلاّ لأهل الصعود الذين قال الله فيهم: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠] وكل من أسري به سواء كان إسراء روحانياً أو بالجسم فإن له من المنازل هذا العدد الكثير وأما العدد الذي هو أقل منه فذلك للمريدين الذين هم في مقام التربية لا غير. وأما حصرهم في ستة لا غير فمن طريقين: الطريقة الواحدة نشأتهم القائمة على ست جهات يأتي الشيطان من الأربعة منها وتبقى الاثنان لا سبيل للشيطان عليهما، ومن هناك يكون مآل الناس إلى عموم الرحمة وشمولها لهاتين الجهتين.

وأما الستة المعنوية فالصفات الستة التي هي النسب الإلهية التي يتعلق الممكن بها والنسبة السابعة ما هي متوجهة على الممكن وإنما ظهرت لصحة هذه الستة خاصة لا لأمر آخر وهي نسبة كونه حياً، إذ بهذه النسبة ثبتت الستة. ولما كانت الحدود تحفظ الأشياء ولا سيما الحدود الذاتية جعلت خمسة لما كانت الخمسة لها الحفظ فاتسعت الحدود فأعطيت الحدود مقام الخمسة، ولتكون الأعيان تامّة كاملة النشأة ما فيها نقص، وهذا كله إذا لاح للعبد على بعد انزعج إلى طلبه ليحصله إذ كان فيه تعظيم جناب الحق الذي هو مقصود هذا العبد، فهذا حكم من أزعجه التعظيم.

وأما حكم من أزعجته الرغبة فيما عند الله فإن مشهده: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٠] ومشهد صاحب التعظيم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة طٰه: الآية ٧٣] فاعلم أن انزعاج الرغبة بحسب ما تعشق به ورغب فيه وهو على نوعين: متخيل وغير متخيل، والمتخيل على نوعين: النوع الواحد ما أدركه ببعض حواسه أو بجملتها أو أدركه من طريق الخبر فحمله على المعهود من صفة الجنة وما فيها. وغير المتخيل هو ما رغبه فيه من حيث الإجمال وهو ما تحوي عليه الجنة أو تتضمنه ممّا لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر، فقد سمع أن فيها هذا، فمثل هذا لا يمكن تخيله، فكلما تخيله فقد خطر على قلب بشر فليس ذلك ومن طبع النفس أنها تحب أن تعلم ما لم تكن تعلم، فهي تحب المزيد بالطبع إلاّ أنه يختلف تعلقها بما تستزيد منه، فالذي تتعشق به منه تطلب المزيد لا من غيره، فإن كان الراغب صاحب محبة لله فلا يخلو إما أن يكون عالماً بالله أو غير عالم بالله، من المحال أن يكون غير عالم بالله لأنه محب والمحب يطلب بذاته محبوباً يتعلق به من قام به حتى يسمّى محباً، فلا بدّ أن يكون عالماً به، غير أن العلماء به على مراتب: منهم مؤمنون خاصة فعلموه من جهة الخبر والأخبار متقابلة فحار المحب فلم ينضبط له صورة في محبوبه. ومنهم من رجح في الخبر ما أعطاه الخيال فأحب محدوداً متصوراً تعلق به فمثل هذا يزعجه طلب الوجد والأنس والوصال والرؤية والحديث على الطريقة المعهودة في الأشكال والأجناس وهو يتجلى فيها. ومنهم العلماء به من حيث التجلي بالعلامة فهم فيه بحسب علامتهم. ومنهم العلماء به عن نظر فكريّ فلا يقيدوه ويؤمنوا بكل تجلّ يعطي التقييد والتحديد فيفوتهم من الله خير كثير فمحبوبهم أقرب إليهم من حبل الوريد ولكن لا يعلمون أنه هو، فمحبوبهم لا يزال ظاهراً لهم وهم لا يعرفونه.

وهذه الطائفة على نوعين: طائفة تقول: إنا نطمع أن نرى محبوبنا، وطائفة تقول: محال رؤية محبوبنا لكن ليس بمحال علمنا به، إذ ليست الرؤية مطلوبة لذاتها وإنما هي طريق إلى حصول علم عند الرائي بالمرئي فبأيّ وجه حصل فهو ذاك وقد علمناه، ومن علمنا به أن رؤيته من حيث إدراك البصر محال فيئسوا من ذلك فهم في نعيم اليأس، والآخرون في نعيم الطمع، فالطائفتان يجتمعان في الانزعاج للفهم عنه تعالىٰ ممّا خاطبهم به في المسمّى قرآناً أو

حديثاً نبوياً أو ممّا ظهر في العالم من آثار القدرة المؤدّية إلى عظمته وكبريائه ولطفه وحنانه، كل آية وسورة وصورة بما تعطي، فيتفاضلون في الفهم فيطلبون المزيد من العلم وهم الأكابر، ومنهم من يقول: قد رويت، فلا يطلب المزيد، ورأيت منهم جماعة وهم أجهل الطوائف، ورأيت أئمة من الأشاعرة على هذه القدم يرون أنهم يعرفون الله كما يعلم نفسه سبحانه من غير مزيد، فهؤلاء مستريحون بجهلهم قد يئسنا من فلاحهم، ويجتمعان أيضاً في الانزعاج إلى اللقاء، فمنهم من ينزعج إلى لقائه، ومنهم من ينزعج إلى لقاء ما يريد منه، ويجتمعان أيضاً في الانزعاج إلى الإلقاء وإلى التلقي، وينقسمون في ذلك على أقسام: فمنهم المتلقي عموماً وهو الكبير من الرجال، ومنهم المتلقي من الملك ومن الله المعرض عمّا يجيء به غير الخاطر الإلهيّ وغير الملك، ومنهم من يتلقى الخاطر النفسيّ مضافاً إلى هذين الخاطرين، ومنهم من يرجح تلقي الخاطر الشيطانيّ على الملكيّ والنفسيّ لكونه مقابلاً لأنه إلقاء عدو محض فيلقى خلاف الحق فيريد هذا المتلقي أن يقف على خلاف الحق من حيث ما هو خلاف عند الشيطان ولهذا ألقاه، وهذا المتلقي حق كله لأنه نور كله بل هو عين النور فيعرف أن إبليس جهل ما عنده من الحق حيث تخيل أنه ليس بحق، فأخذه هذا المتلقي حقاً من صورة شيطانية، فلم يحصل ما أعطاه الشيطان في صورة ملك ولا في صورة نفس إنسانية، وزال حكم الشيطان منه حين قبله هذا المتلقي، فإن الشيطان يظن أنه لو همّه أن الذي ألقي إليه أمري وجود وهو عدم عند الشيطان وما علم مرتبة هذا المتلقي وأنه ما تلقّى منه إلاّ أمراً وجودياً، فإذا رآه قد تعشق به عند أخذه ولم ير له انحطاط مرتبة ولا أثر جهل تعجب ونظر من أين أتى عليه في أمره وما الذي صيّر ذلك المعدوم موجوداً؟ فعلم أن الجهل إنما قام به لا بالمتلقي، وأنه هو الذي ألقى إليه الأمر الوجوديّ على أنه موهوم الوجود لا محقق، فرأى أنه قد سعى في مزيد علوّ رتبته بما أفاده من العلم وهو لا يريد ذلك بل قصد ما يليق به، فما علم أنه لعنه الله محل للوجود وإنما تخيل أنه محل لإيهام الوجود لا لتحققه، فيكون هذا المتلقي في هذا التلقي خلاقاً وهذا أكمل مراتب الأخذ في التلقي.

وأما انزعاج الرهبة فمثل الرغبة إما رهبة منه وهو قوله: وأعوذ بك منك، وإما رهبة ممّا يكون منه من عذاب حسيّ أو عذاب حجاب وهو عذاب الجهل أو التزيّن، وليس في الحجب أكثف ولا أقوى من حجاب التزيّن لأن من زيّن له جهله فمن المحال طلب الحاصل في زعمه لأنه حاصل عنده وليس بحاصل في نفس الأمر، فمن أراد أن يعتصم من التزيّن فليقف عند ظاهر الكتاب والسنّة لا يزيد على الظاهر شيئاً فإن التأويل قد يكون من التزيّن، فما أعطاه الظاهر جرى عليه وما تشابه منه وكل علمه إلى الله وآمن به فهذا متبع ليس للتزيّن عليه سبيل ولا يقوم عليه حجة عند الله، فإن كان من أهل البصائر فهو يدعو إلى الله على بصيرة ويتكلم على بصيرة فقد بريء من التزين فهو صاحب علم صحيح، وكان من أهل الزينة لا من أهل التزيّن، فالانزعاج إلى الله قد يكون رهبة من هذا أيضاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع ومائتان

في المشاهدة

[نظم: الوافر]

إذا أُشْـهِـدْتَ فـاثْـبُـتْ يـا غـلامُ ... يـصـحُ لـك الـمـكـانـةُ والـمَـقَـامُ
فـتَـشْـهَـدُه بـعـقـلـك فـي حـجـابٍ ... ومَـشْـهَـدُه قـويٌّ لا يُـرَامُ
وتَـشْـهَـدُه بـه فـي كـل شـيءٍ ... ولـيـس لـه الـوَرَاءُ ولا الأمَـامُ
تَـؤمُّ بـه وتَـقْـصُـده ومـا هُـوْ ... بـمَـقْـصُـودٍ لـنـا وهـو الإمـامُ
وتـسْـكُـنُ عـنـد رؤيـتـه سُـكـونـاً ... يـكـون بـه الـتـحـقُّـقُ والـسَّـلامُ

المشاهدة عند الطائفة رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ورؤيته في الأشياء وحقيقتها اليقين من غير شك، قالت بلقيس: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢] وهو كان لم يكن غيره، فطلبنا عين السبب الموجب لجهلها به حتى قالت: كأنه هو، فعلمنا أن ذلك حصل لها من وقوفها مع الحركة المعهودة في قطع المسافة البعيدة، وهذا القول الذي صدر منها يدل عندي أنها لم تكن كما قيل متولدة بين الإنس والجان، إذ لو كانت كذلك لما بعد عليها مثل هذا من حيث علمها بأبيها، وما تجده في نفسها من القوّة على ذلك حيث كان أبوها من الجان على ما قيل، فهذا شهود حاصل وعين مشهودة وعلم ما حصل، لأن متعلق العلم المطلوب هنا إنما هو نسبة هذا العرش المشهود إليها كما هو في نفس الأمر ولم تعلم ذلك، كما أن أصحاب النبي ﷺ لما رأت جبريل في صورة دحية ما قالت كأنه هو وإنما قالت هو دحية ولم يكن في نفس الأمر دحية، وهذا على النقيض من قصة بلقيس، واشتركا في الشهود وعدم العلم بالمشهود من حيث نسبته لا من حيث ما شوهد، والسبب في هذا الجهل أنهم ما علموا من دحية إلاَّ الصورة الجسدية لا غير، فما علموا دحية على الحقيقة وإنما علموا صورة الجسم التي انطلق عليها اسم دحية، وعلى الحقيقة ما انطلق الاسم إلاَّ على الجملة، فتخيلوا لما شاهدوا الصورة أن الكل تابع لهذه الصورة وليس الأمر كذلك، فإن البصر يقصر عن إدراك الفارق بين القوّتين في الشبه إذا حضر أحدهما دون الآخر، فلو حضرا معاً عنده لفرق بينهما بالمكان، والمسألة في نفسها شديدة الغموض ولا سيما في العلم الإلهيّ، لأن النفس الناطقة التي هي روح الإنسان المسماة زيداً لا يستحيل عليها أن تدبر صورتين جسميتين فصاعداً إلى آلاف من الصور الجسمية، وكل صورة هي زيد عينها ليست غير زيد، ولو اختلفت الصور أو تشابهت لكان المرئي المشهود عين زيد كما تقول في جسم زيد الواحد مع اختلاف أعضائه في الصورة من رأس وجبين وحاجب وعين ووجنة وخدّ وأنف وفم وعنق ويد ورجل وغير ذلك من جميع أعضائه أي شيء شاهدت منه تقول فيه: رأيت زيداً وتصدق. كذلك تلك الصور إذا وقعت ويدبرها روح واحد إلاَّ أن الخلل وقع هنا عند الرؤية لعدم اتصال الصور كاتصال الأعضاء في الجسم الواحد، فلو شاهد الاتصال الذي بين الصور لقال في كل صورة

شهدها هذا زيد كما يفعل المكاشف إذا شاهد نفسه في كل طبقة من طباق الأفلاك لأن له في كل فلك صورة تدبر تلك الصور روح واحدة وهي روح زيد مثلاً، وهذا شهود حق في خلق.

قالت الطائفة في المشاهدة: أنها تطلق بإزاء ثلاثة معان: منها مشاهدة الخلق في الحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد كما قدمناه. ومنها مشاهدة الحق في الخلق وهي رؤية الحق في الأشياء. ومنها مشاهدة الحق بلا الخلق وهي حقيقة اليقين بلا شك.

فأما قولهم رؤية الأشياء بدلائل التوحيد فإنهم يريدون أحدية كل موجود ذلك عين الدليل على أحدية الحق، فهذا دليل على أحديته لا على عينه. وأما إشارتهم إلى رؤية الحق في الأشياء فهو الوجه الذي له سبحانه في كل شيء وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فذلك التوجه هو الوجه الذي له في الأشياء، فنفى الأثر فيه عن السبب إن كان أوجده عند سبب مخلوق. وأما قولهم حقيقة اليقين بلا شك ولا ارتياب إذا لم تكن المشاهدة في حضرة التمثّل كالتجلي الإلهيّ في الدار الآخرة الذي ينكرونه فإذا تحوّل لهم في علامة يعرفونه بها أقرّوا به وعرفوه وهو عين الأول المنكور وهو هذا الآخر المعروف فما أقرّوا إلاّ بالعلامة لا به، فما عرفوا إلاّ محصوراً فما عرفوا الحق، ولهذا فرقنا بين الرؤية والمشاهدة، وقلنا في المشاهدة أنها شهود الشاهد الذي في القلب من الحق وهو الذي قيّد بالعلامة، والرؤية ليست كذلك ولهذا قال موسىٰ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ وما قال اشهدني فإنه مشهود له ما غاب عنه، وكيف يغيب عن الأنبياء وليس يغيب عن الأولياء العارفين به فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] ولم يكن الجبل بأكرم على الله تعالىٰ من موسىٰ، وإنما أحاله على الجبل لما قد ذكر سبحانه في قوله: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] والجبل من الأرض وموسىٰ من الناس، فخلق الجبل أكبر من خلق موسىٰ من طريق المعنى أي نسبة الأرض والسماء إلى جانب الحق أكبر من خلق الناس من حيث ما فيهم من سماء وأرض، فإنها في السماء والأرض معنى وصورة وهما في الناس معنى لا صورة، والجامع بين المعنى والصورة أكبر في الدلالة ممّن انفرد بأحدهما ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] فالحمد لله الذي جعلنا من القليل الذي يعلم ذلك، فجمع الجبل بين الصورة والمعنى فهو أكبر من جبل موسىٰ المعنوي إذ هو نسخة من العالم كما هو كل إنسان، فإذا كان الجامع بين الأمرين وهو الأقوى والأحق باسم الجبل صار دكاً عند التجلي، فكيف يكون موسىٰ حيث جبليته التي هي فيه معنى لا صورة. ولما كانت الرؤية لا تصحّ إلاّ لمن يثبت لها إذا وقعت والجبل موصوف بالثبوت في نفسه وبالإثبات لغيره إذ كان الجبل هو الذي يسكن ميد الأرض، ويقال: فلان جبل من الجبال إذا كان يثبت عند الشدائد والأمور العظام فلهذا أحاله على الجبل الذي من صفاته الثبوت، فإن ثبت الجبل إذا تجليت إليه فإنك ستراني من حيث ما فيك من ثبوت الجبل: [مخلع البسيط]

فرؤيةُ الله لا تُطَاقُ فإنها كلُّها مَحَاقُ

فلو أطاقَ الشُّهودَ خَلْقٌ أطاقَهُ الأرضُ والطِّباقُ
فلم تكُنْ رؤيتي شُهُوداً وإنما ذلك انفِهَاقُ

قيل لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» وذلك أن الكون ظلمة والنور هو الحق المبين، والنور والظلمة لا يجتمعان كما لا يجتمع الليل والنهار، بل كل واحد منهما يغطي صاحبه ويظهر نفسه، فمن رأى النهار لم ير الليل، ومن رأى الليل لم ير النهار، فالأمر ظاهر وباطن، وهو الظاهر والباطن، فحق وخلق، فإن شهدت خلقاً لم تر حقاً، وإن شهدت حقاً لم تر خلقاً، فلا تشهد خلقاً وحقاً أبداً، لكن يشهد هذا في هذا وهذا في هذا شهود علم لأنه غشاء ومغشى.

الباب العاشر ومائتان

في المكاشفة

[نظم: المتقارب]

إذا الحقُّ أعطاك أسماءَهُ فخُذْهَا أمانَةَ مَنْ قد فَهِمْ
بأن الأمانَةَ محمولَةٌ وحامِلُها جاهلٌ قد ظُلِمْ
فإن أنتَ أُفْهِمْتَ مقْصُودَهُ فأنت المكاشَفُ فلتَلْتَزِمْ
بأحكامِها فمتى ما دَعَى بها فأجِبْ أمرَه واحْتَشِمْ
مِنَ أجْلِ التَّصَرُّف فيها ولم يكن ينبغي لك أن تَحْتَكِمْ
فإنك عَبْدٌ وأسماؤه ربوبيَّةٌ عَرَضَتْ فاحْتَرِمْ
مقامَ الأمانةِ أو رُدَّها إلى ربِّها أوّلاً واعتَصِمْ
بما زادك الحالُ في أمرِها وحقِّقْ إشارَتَها واغْتَنِمْ
فهذي مُكَاشَفَةٌ تُرْتَضَى وصاحِبُها سيدٌ قد عُصِمْ

اعلم أن المكاشفة عند القوم تطلق بإزاء الأمانة بالفهم، وتطلق بإزار تحقيق زيادة الحال، وتطلق بإزاء تحقيق الإشارة. اعلم أن المكاشفة متعلقها المعاني، والمشاهدة متعلقها الذوات، فالمشاهدة للمسمّى والمكاشفة لحكم الأسماء، والمكاشفة عندنا أتم من المشاهدة، إلاّ لو صحّت مشاهدة ذات الحق لكانت المشاهدة أتم وهي لا تصح، فلذلك قلنا: المكاشفة أتم لأنها ألطف، فالمكاشفة تلطف الكثيف، والمشاهدة تكثف اللطيف، وبقولنا هذا تقول طائفة كبيرة من أهل الله مثل أبي حامد وابن فورك والمنذري، وقالت طائفة بالنقيض، وإنما قلنا إنها أتم لأنه ما من أمر تشهده إلاّ وله حكم زائد على ما وقع عليه الشهود لا يدرك إلاّ بالكشف، فإن أقيم لك ذلك الأمر في الشهود من حيث ذاته صحب ذلك المشهود حكم ولا بدّ لا يدرك إلاّ بالكشف هكذا أبداً، فالمكاشفة إدراك معنوي فهي مختصة بالمعاني، ومثال ذلك إذا شاهدت متحركاً يطلب بالكشف محركه لأنه يعلم أن له محركاً كشفاً ولهذا يتعلق العلم بمعلومين، ويتعلق البصر الذي هو للمشاهدة بمعلوم واحد، فيدرك بالكشف ما لا يدرك

بالشهود، ويفصل الكشف ما هو مجمل في الشهود، فالمكاشفة كما قلنا على ثلاثة معان: مكاشفة بالعلم ومكاشفة بالحال ومكاشفة بالوجد.

فأما مكاشفة العلم فهي تحقيق الأمانة بالفهم وهو أن تعرف من المشهود لما تجلى لك ما أراد بذلك التجلي لك لأنه ما تجلى لك إلاّ ليفهمك ما ليس عندك. فالمشاهدة طريق إلى العلم، والكشف غاية ذلك الطريق وهو حصول العلم في النفس، وكذلك إذا خاطبك فقد أسمعك خطابه وهو شهود سمعي فإن المشاهدة أبداً للقوى الحسيّة لا غير والكشف للقوى المعنوية فما أسمعك إلاّ لتفهم عنه، وإذا أفهمك بأي نوع تجلّى لك من إدراك صور الحواس فإنما ذلك الفهم أمانة منه عندك لتلك الأمانة أهل لا ينبغي لك أن تودعها إلاّ لأهلها وإن لم تفعل فأنت خائن. وقال عليه السلام: **«المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ»** أي لا تحدث بما وقع في المجالس إلاّ لمن أعطاك الله الفهم منها من ينبغي أن تتحدث معه بما وقع فيها فذلك أهلها، وإذا حدثك إنسان ورأيته يلتفت فاعلم أن ذلك الحديث أمانة أودعها إياك، فحظ المشاهدة ما أبصرت وما سمعت، وما طعمت وما شممت وما لمست، وحظ الكشف ما فهمت من ذلك كله وما فهمت فهو أمانة، وإذا كان أمانة حكم عليك الأمر الإلهيّ بأدائها إلى أهلها أوردها وردها إن تتناساها إذ ما قد علمت لا تقدر على جهله فتجعل نفسك كأنك ما أبصرت وما سمعت، وهذا باب صعب جداً على العارفين يحتاج إلى أدب وحفظ ومراعاة حدّ فإنه ليس بينه وبين الكذب إلاّ حجاب واحد، وكذلك الخيانة ليس بينه وبينها إلاّ حجاب واحد، ومراعاة الحدّ تحول بينك وبين الخيانة والكذب، فأما علم هذا فهو إذا سألك من يكرم عليك عما تحملته أمانة من شهود بصرك أو سمعك أو ما كان من قوى حواسك والسائل ليس من أهله، ومعنى ليس من أهله أن الذي أعطاك هذه الأمانة علمت منه لمن أراد أن توصلها إليه، فإن أجبت السائل لكرامته عليك فقد خنت وإن لم تجب وعدلت في الجواب إلى أمر آخر يقنع به السائل ولو عرف ما سترت عنه عزّ عليه ذلك فقد كذبت كمسألة الخليل في الكذبات الثلاث أثرت عنده في القيامة، فاستحيى من الله أن يكلمه في فتح باب الشفاعة مع القصد الجميل في ذلك والصدق في دلالة اللفظ ولكن لم يكن ذلك مقصود المخاطب فسمّى كذباً فانظر ما أخطر هذا الموضع، وإن قلت ما عندي خبر كذبت أشد من التعريض والحق أحق أن يتبع، وجواب الصادقين عن ذلك الذين آثروا الحق على غيره أن يقولوا للسائل: إن الذي سألت عنه لنا وجوه في الجواب عنه فلا أدري عن أي وجه سألت لتعلمه، فإن قال لك: فصل الوجوه قل له أنت أبِنْ لي عن مقصودك، فإذا قال لك مقصوده من الجواب فإن كان ممّا يدخل في الأمانة فقل له أنه أمانة أخذ علينا العهد في حفظها وحق الله أحق أن يراعى ولا تستحي في ذلك منه وإن كرم عليك أو كان ذا سلطان ولا يكون السموأل اليهودي المحجوب أوفى منك وأنت العارف المشاهد حتى ضرب به المثل في الوفاء، وإن ذكر هذا السائل وجه مطلوبه من حيث لا تعلق له بالأمانة فأجبه ولا بدّ لينتفع ولا تعطه ما ليس في وسعه حمله فيعود وباله عليك، فهذا معنى قولهم تحقيق الأمانة بالفهم.

وأما المكاشفة بالحال وهي تحقيق زيادة الحال فاعلم أن كل متصف بصفة في كل وقت فإن تلك الصفة هي حاله في ذلك الوقت أي صفة كانت، ولهذا لا يأتي الحال إلاّ بعد تمام الكلام أي لو لم تذكر لأفاد الكلام دونها، فإن كانت هي المقصودة بالإخبار عنها فما أفاد الكلام بالنظر إلى قصد المخبر تقول: رأيت زيداً، فاستقل الكلام وتمّ، ثم بعد ذلك زدت راكباً فتقول: رأيت زيداً راكباً، أي في حال ركوبه فإن كان مقصودك التعريف برؤيتك إياه راكباً فما تمّ الكلام بهذا الاعتبار أي ما حصلت الفائدة التي اعتبرتها وقصدتها، ولكن حصلت فائدة بالجملة وهي رؤية زيد أنك رأيته ولم تذكر على أي حالة، فهذا معنى تحقيق زيادة الحال أن يتحقق أن الحال زائدة على ما تقع به الفائدة مطلقاً من غير نظر إلى قصد، وهذا راجع إلى الأوّل الذي هو تحقيق الأمانة بالفهم، فلو لقيك أحد سألك: هل رأيت زيداً؟ فقلت له: رأيته، ثم زدت حالاً لم يسألك عنها فقلت له مسافراً وكان في نفسه عند سؤاله هل رأيت زيداً حتى يعلم أنه في البلد فيجتمع به، فلما قلت له مسافراً أعلمته بهذه الزيادة التي هي زيادة الحال بسفره فأرحته من طلب الاجتماع به إذ لا يتمكن له ذلك مع كونه ليس في البلد فهذا وأمثاله من زيادة الحال، وأما في طريق أهل الله فزيادة الحال هي أن تشهد ذاتاً مّا على حال مّا فتطلع من ذلك الحال إلى ما يؤول إليه أمره لأجل ذلك الحال فسمّي مثل هذا زيادة الحال ومكاشفة بالحال مثال ذلك أن تشاهد ذاتاً مّا على حال خاص من حركة أو سكون أو صفة ملايمة طبع الناظر أو غير ملايمة فتعرف من ذلك الحال أمراً زائداً وهو أن ذلك الحال يؤدّي في حق المدرك له ودّاً أو بغضاً أو كراهة أو ما كان، فهذه زيادة الحال التي أعطاك، وبهذا يقع العلم بالمنزلة عند الله قال بعضهم: إني لأعرف متى يحبني ربي فقيل له: ومن أين لك معرفة ذلك؟ فقال: هو عرفني به، فقيل له: أوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وأنا في هذه الساعة في حال اتباع لما شرع وهو صادق القول فأعطاني الحال إن الله محب لي في هذه الساعة لكوني مجلى لما أحب وهو تعالىٰ ناظر إلى محبوبه ومحبوبه ما أنا عليه، فأضاف تعلّق المحبة التي تصيرني محبوباً بالاتباع.

وأما المكاشفة بالوجد وهي تحقيق الإشارة أعني إشارة المجلس لا الإشارة التي هي نداء على رأس البعد لأنه لا يبلغ مداها الصوت وذلك أن مجالس الحق على نوعين: النوع الواحد لا يتمكن فيه إلاّ الخلوة به تعالىٰ فهذا لا تقع فيه الإشارة وذلك إذا جالسته من حيث هو له على علمه به. والنوع الثاني ما تمكن فيه المشاركة في المجلس وهو إذا تجلّى للعبد في صورة أمكن أن تحضر في تلك المجالسة جماعة قلّوا أو كثروا ولو كان واحداً زائداً على هذا الجليس ففي مثل هذا المجلس تكون الإشارة فإن الجليس الآخر فما زاد لا يمكن أن يجتمعا على قدم واحدة حتى لو اطلع كل واحد من الجلساء على حال الآخر مع الله ما احتمله وكفر به وأنكره وقال هذا إبليس، فلا بدّ إذا وقع الإفهام من الله لكل جليس له في هذه الحضرة والمجلس الصوري أن يكون بالإشارة لا بالتصريح، فيفهم كل إنسان من تلك الإشارة ما في وسعه، فالكلمة عنده تعالىٰ واحدة وبالنظر إلى الجلساء كلمات كثيرة فينصرف كل جليس

راضياً يزعم أنه أخصّ من الباقين، ولله رجال أعطاهم من الفهم والاتساع وحفظ الأمانة أن يفهموا عن الله في مثل هذه المجالس جميع إشارات كل مشار إليه وهم الذين يعرفونه في تجلي الإنكار والشاهدون إياه في كل اعتقاد، والحمد لله الذي جعلنا منهم أنه وليّ ذلك، وهذا القدر كافٍ، انتهى السفر السابع عشر بانتهاء الباب العاشر ومائتين.

[السفر الثامن عشر]

الباب الحادي عشر ومائتان

في اللوائح

[نظم: البسيط]

لَوائحُ الحقِّ ما تبدو لأَسْرارِ ... من السُّمُوِّ ومن حالٍ إلى حالِ
وقد تكون بما يبدو لنَاظِرِهِ ... من غيرِ جارحةٍ بالعِلْم والحَالِ
من النُّعُوت التي يُعْطيكَ شاهِدُها ... دليلَها أنها في الآل كالآلِ

اعلم أن اللوائح عند القوم ما يلوح إلى الأسرار الظاهرة من السموّ من حال إلى حال، وعندنا ما يلوح للبصر إذا لم يتقيد بالجارحة من الأنوار الذاتية والسبحات الوجهية من جهة الإثبات لا من جهة السلب، وما يلوح من أنوار الأسماء الإلهية عند مشاهدة آثارها فيعلم بأنوارها، أما السموّ من حال إلى حال هو أن لا يرجع إلى الحال الذي انتقل عنه في الحال الذي هو فيه إذا انتقل عنه إلى ما هو فوقه، والمراد بذلك ما يأتي به الحال من الواردات الإلهية والمعرفة بالله وهي المنازل ما هي الكرامات، فإن الأحوال قد تعود مراراً ولكن لا يحمد صاحبها فيها إلاَّ إذا زادته علماً بالله لم يكن عنده لا بدّ من ذلك وتلك الزيادة هي اللائحة، فإن لم ترقه تلك الزيادة في الحال فليست بلائحة مع صحة الحال، والحال كونك باقياً أو فانياً أو صاحياً أو سكران أو في جمع أو تفرقة أو في غيبة أو في حضور والأحوال معروفة وهي الأبواب التي ذكرناها في هذا الفصل، وفيها أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] يرقى به عنده منزلة لم تكن له، وهذه الأحوال لا يختص بها البشر ولا موطن الدنيا بل هي دائمة أبداً في الدنيا والآخرة وهي لكل مخلوق، فاللوائح كأنها مبادي الكشوف ولهذا قد تثبت وقد يسرع زوالها إلاَّ أنه لا بدّ لها فيمن تلوح له من زيادة علم يرقى به درجة عند الله تعالىٰ هذا يشترط في اللوائح، وقلنا من شرط اللائحة أن يكون الإدراك بالبصر لا بالبصيرة في الحال الذي لا يتقيد البصر بالجارحة المقيدة بالجهة المخصوصة بل بحقيقة البصر المنسوب إلى النفس الناطقة، ثم يزاد إلى ذلك أمر آخر وهو أن يكون الحق بصره فهو الشاهد له والبينة من ربه على أن بصره لم يتقيد بالجارحة.

وقد صحّ هذا المقام عن رسول الله ﷺ كما صحّ عنه لما سئل عن رؤية ربه بعينه المقيدة ذات الطبقات فقيل له: هل رأيت ربك؟ أراد السائل رؤية البصر المقيدة بالجارحة فقال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» أي نور هذا الإدراك يضعف عن ذلك النور الإلهيّ، وإن كان للبصر

المقيد إدراك في النور الإلهيّ على حدّ مخصوص، فإن النور الإلهيّ كما قبل التشبيه بالمصباح الوارد في القرآن على الصفات المخصوصة المذكورة كذلك يقبل إدراك البصر إياه إذا حصل تلك الشرائط كلها فتدبرها في نفسك ويخرج قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] على وجهين: الوجه الواحد أنه نفى أن تدركه الأبصار على طريق التنبيه على الحقائق وإنما يدركه المبصرون بالأبصار لا الأبصار. والوجه الثاني لا تدركه الأبصار المقيدة بالجارحة كما قرّرنا فإذا لم تتقيد أدركته وهو عين النور الذي وقع فيه التشبيه بالمصباح وهو النور الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فلا يقبل التشبيه لأنه لا صفة له، وكل من له صفة فإنه يقبل التشبيه لأن الصفات تتنوّع في القابلين لها بحسب ما تعطيه حقيقة الموصوف كالعلم يتصف به الحق والسمع والبصر والقدرة والإرادة والقول وغير ذلك من الصفات ويتصف بها المخلوق، ومعلوم أن نسبتها إلى المخلوق لا تكون على حد نسبتها إلى الخالق بل نسبتها إلى البشر تخالف نسبتها إلى الملك وكلاهما مخلوقان فاعلم ذلك.

فهذه اللوائح التي تلوح للبصر مشاهد ذاتية ثبوتية ما هي سلبية، فإن الوصف السلبيّ ليس من إدراك البصر بل ذلك من إدراك العقول وما يدرك بالعقل لا يدخل في اللوائح، وأما ما يلوح من أنوار الأسماء الإلهية عند مشاهدة آثارها فتعلم بأنوارها أي تظهرها أنوارها فالاسم الإلهيّ روح لأثره وأثره صورته والبصر لا يقع من الاسم إلاّ على أثره الذي هو صورته كما تقع على صورة زيد الجسمية، ويصحّ أن يقال: رأى زيداً من غير تأويل ويصدق مع كون زيد له روح مدبرة غيب فيه لها صورة وهي جسديتها فأثر الأسماء الإلهية صور الأسماء، فمن شاهد الآثار فقد صدق في أنه شاهد الأسماء فلوائحها أن تجمع بين نسبة ذلك الأثر المشهود وبين الاسم الذي هو روح صورة ذلك الأثر كما ترى شخصاً ولكن لا تعرف أنه زيد المطلوب عندك، ويراه آخر ممّن يعرفه فيعرف أنه رأى زيداً فهذا العارف هو صاحب اللوائح والآخر ليس هو من أصحاب اللوائح لأنه ما لاح له ارتباط الاسم بهذه الصورة، والفرق بين الشخصين المدركين معلوم، فما كل مَن رأى علم ما رأى، فهذه اللوائح الحالية لمن أراد معرفتها على الاختصار والاقتصاد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر ومائتان

في التلوين

[نظم: البسيط]

إن التَّلوُّنَ من حالٍ إلى حالِ ... دليلُ صِدْقٍ على العالي من الحالي

(ضد العاطل)

فمَنْ تحقَّقَ بالأنفاس يعرفُه ... بالحالِ فيه كمثْلِ الحالِ في الحالِ

(الوقت)

فـالـفـعْـلُ مـاضٍ وآتٍ ثـمَّ بـيـنـهـمـا فـعـلٌ يـسـمَّـى بـفـعـل الآن والـحـالِ
(حال أهل النحو)

فـالـحـالُ زائـلـةٌ والـحـالُ دائـمـة وهو الصحيحُ الذي قد قيل في الحالِ
(حال أهل النظر)

اعلم أن التلوين عند أكثر الجماعة مقام ناقص وهو تلون العبد في أحواله وأنشدوا في ذلك: [مجزوء الرمل]

كـلَّ يـوم تـتـلـوَّنْ غـيـرُ هـذا بـك أجـمَـلْ

إلى أن قال بعضهم: علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة فلو لم يزد بظهور الاستقامة لكان قد نبّه على علم غامض محقق، فلما زاد هذه اللفظة أفسد الأمر والتحق في حدّه بالقائلين بنقصه، وقالت طائفة: بل التلوين هو علامة على صاحبه بأنه متحقق محقق كامل إلهيّ وهو الذي ارتضيه وهو مذهبي وبه أقول وعلى قدر تمكنه في التلوين يكون كماله وبهذا نجد التمكين فنقول: التمكين في التلوين هو التمكين، فمن لم يتمكن لم يتلون الأمر عنده وآيته من كتاب الله كل يوم هو في شأن فنكر وقالت: هذه الطائفة في التلوين بزيادة لو سكتت عنها لكان أولى إذ ليس للتقييد بها تلك الفائدة وهو قولها، لأن في التلوين إظهار قدرة القادر فيكشف منه العبد الغيرية وهذه الزيادة إجمالية تدل على ما ذهبنا إليه والتلوين نعت إلهي، وكل نعت إلهي كمال إذ لا يتصوّر في ذلك الجناب نقص أصلاً بوجه ولا نسبة وما تكمل المقامات والأمر إلاّ أن تكون من النعوت الإلهية فإن الكمال لله على الإطلاق وهو قوله في استشهادنا: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وليس التلوين غير هذا فيدخل في مذهبنا مذهب الجماعة فإنه أعم وأكبر إحاطة ولا يدخل مذهبنا في مذهبهم.

اعلم أنه من علم أن الاتساع الإلهي لا يقتضي أن يكون شيء في الوجود مكرراً علم أن التلوين هو الصحيح في الكون فإنه دليل على السعة الإلهيّة، فمن لم يقف من نفسه ولا من غيره على اختلاف آثار الحق فيه في كل نفس فلا معرفة له بالله وما هو من أهل هذا المقام وهو من أهل الجهل بالله وبنفسه وبالعلم فليبك على نفسه فقد خسر حياته، وما أورثهم هذا الجهل إلاّ التشابه، فإن الفارق قد يخفى بحيث لا يشعر به، فلا أقل أن يعلم أن ثم ما لا يشعر به فيكون عالماً بأنه متلون في نفسه ولا يعرف فيما تلون ولا ما ورد عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥] أي يشبه بعضه بعضاً، فيتخيل أن الثاني عين الأوّل وليس كذلك بل هو مثله، والفارق بين المثلين في أشياء يعسر إدراكه بالمشاهدة إلاّ من شاهد الحق أو تحقق بمشاهدة الحرباء فلا دليل من الحيوانات على نعت الحق بكل يوم هو في شأن أدل من الحرباء، فما في العالم صفة ولا حال تبقى زمانين ولا صورة تظهر مرتين والعلم يصحب الأوّل والآخر، فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فلون ووحد الهوية في الكثرة، فمن لم

يقدر على تقرير الوحدة في الكثرة جعل هذه الصفات نسباً وإضافات لوجوه مختلفة وهذا مذهب النظار. وأما الطائفة فأقرّت الهوية والوحدة وجعلت الوجه الذي هو منه أوّل هو عينه منه آخر وظاهر وباطن، صرّح بذلك أبو سعيد الخرّاز، فرجال الله ما أثبتوا للحق إلاَّ ما هم عليه ولا يثبت في الكون، وفي جميع المخلوقات إلاَّ ما هو الحق عليه، فارتبط الكل بالكل وضرب الواحد في الواحد فلم يتضاعف بل هو عين ما ضرب، وكذلك ما يضرب في الواحد أو يضرب الواحد فيه من واحد أو كثرة لا يتضاعف بل هو عين ما ضرب فهكذا الأمر، فالتلوين ضرب الواحد في الكثرة فلا يظهر سوى عين تلك الكثرة المضروب فيها الواحد أو المضروبة في الواحد والحق واحد بلا شك وضرب الشيء في الشيء نسبته إليه، ونحن كثيرون عن عين واحدة جلّت وتعالت انتسبت إلينا إيجاداً وانتسبنا إليها وجوداً، فمن عرف نفسه خلقاً وموجوداً عرف الحق خالقاً موجداً، فإذا نظرت إلى أحدية العالم ضربت الواحد في الواحد، وإذا نظرت إلى العالم ضربت الواحد في الكثير والعالم أثر أسمائه والأثر كما قدمنا صورة الاسم في اللوائح، فما ضربت أحدية الحق إلاَّ في صور أسمائه فما زلّت عنه فلم يخرج بعد الضرب إلاَّ هو والأسماء كثيرة، كذا ورد الخبر الإلهي فيها من التسعة والتسعين فما فوقها ممّا يعلم وممّا لا يعلم والعين واحدة والألوان مراتب والتلوين نسبة إليها، فإن قلت: واحد، صدقت. وإن قلت: كثيرون، صدقت، فإن أسماء الله كثيرة لمعان مختلفة والله الهادي.

الباب الثالث عشر ومائتان

في حال الغيرة

شعر في المعنى: [البسيط]

إن التغيُّر حالٌ كَوْنُهُ خَطِرٌ ... ما بين علم وحكم يَذْهَبُ الناسُ

إن قالَ ماذا بحُكْم ردَّهُ عِلْمٌ ... من الحقيقةِ ردّاً فيه إفلاسُ

كذاك ذو الكمِّ ممَّنْ فهو أجهلُ مَنْ ... لم يَهْده في ظلام الليل نِبْرَاسُ

وضِنَّةُ الحقِّ أَوْلى أن تنزِّهَهُ ... عنها فليس لذاك الحُكْم إيناسُ

اعلم أنه لما كانت الغيرة عند الطائفة على ثلاثة مقامات: غيرة في الحق وغيرة على الحق وغيرة من الحق، كان لها ثلاثة أحوال بحسب ما تنسب إليه من أجل التجانس. فأما الغيرة فأصلها مشاهدة الغير إذا ثبت أن ثم غيراً، فإذا ثبت صحّ ما قلناه عنهم من التفاصيل وأعني بثبوته عين وجود الغير لا عين معقوليته فإنه معقول بلا شك، ولكن هل هو موجود العين هذا الغير المعقول أم لا؟ فمن قال بالظاهر في المظاهر لم يقل بوجود الغير مع ثبوت حكمه وحاله المعبر عن ذلك بالغيرة وهو أثر استعداد المظاهر في الظاهر والغير موجب الكثرة عيناً أو حالاً لا بدّ من ذلك والكثرة معقولة بلا شك ولكن هل لها وجود عيني أم لا؟ فيه نظر، فمن قال: إن هذه الكثرة الظاهرة في العين أحوال مختلفة قائمة بعين واحدة لا وجود لها إلاَّ في تلك العين فهي نسب فلا حقيقة لها عينية في الوجود العينيّ، ومن قال: إن لها أعياناً لم

يقل بالعين الواحدة ولا بالظاهر في المظاهر لأن الكثير مشهود لا الكثرة، فالكثرة معقولة والكثير موجود مشهود، فمن هنا ظهر حكم حال الغيرة في الأشياء واتصف بالغيرة الإله، والشيء لا يكون غير نفسه إلاً إذا كان الشيء أشياء فيكون كل شيء غيراً للشيء الآخر والحق ليس بأشياء فلا يقبل الغير، وقد اتصف بأنه غيور ومن غيرته حرم الفواحش فتدبر ما ذكرناه حتى تعرف ما الفاحشة، وما الفعل المسمّى فاحشة وغير فاحشة، فالغير على الحقيقة ثابت لا ثابت هو لا هو.

فأما حال الغيرة في الحق وهي الغيرة التي تكون عند رؤية المنكر والفواحش وهي التي اتصف الحق بها والملأ الأعلى والرسل وصالحوا المؤمنين على أن الغيرة مركوزة في الطبع فلا بدّ منها إلاً أنها تنقسم إلى محمود ومذموم وكلامنا في المحمود منها وهي الغيرة في الحق وهي من أشكل المسائل فإنه تعالىٰ من غيرته حرم الفواحش، ثم إذا وقعت الفواحش في الكون لم نره يسرع بالأخذ عليها لا دنيا ولا آخرة، فعلمنا أن ثم مانعاً أقوى يمنع من ذلك يكون ذلك المانع أعظم إحاطة، وتكون نسبته إلى الغيرة نسبة العلم الإلهي إلى القدرة الإلهية، فإن القدرة وإن تعلقت بما لا يتناهى من الممكنات فلا تشك أن العلم أكثر إحاطة منها لأنه يتعلق بها، وبالممكنات والواجبات والمستحيلات والكائنات وغير الكائنات مع ما يعطي الدليل أن ما لا يتناهى لا يفضل ما لا يتناهى، كذلك السبب الموجب لترك المؤاخذة على ما يقع عمّن يأتي ما وقعت عليه الغيرة، ولا بدّ أن يكون أقوى من حال الغيرة هذا كله في حق الحق. وأما في حق المخلوق فلا بدّ من تغيير النفس وهو مكلف بها في الحق لا بدّ من ذلك، ومذموم من لم يجد ذلك من المكلفين فإنه مخاطب بتغييره من يده بالفعل إلى لسانه بالقول إلى وجود ذلك في النفس وهو أضعف الإيمان في الزمان لا في نفس الغيور، فحال الغيرة هو ما يجده الغيور من اختلاف الأمر عليه في نفسه عند وقوع ما لا يرضي الله، سواء وقع ذلك منه أو من غيره بل من هذه صفته هو معصوم، فإن من وقع منه ما يوجب الغيرة ولا يغار وإذا رأى ذلك من الغير أدركته الغيرة فليست بغيرة حقية إلهية، وإنما هي غيرة نفسية لا قربة فيها إلى الله تعالىٰ، تلك هي الغيرة الإلهية الصحيحة ولكن لا يشعر بها كثير من أهل الله إلاً من عرف الحق حق معرفته، فإن الله هو الغيور الأعظم في الغيرة من المخلوق، وهو الفاعل للأمر الذي يوجب الغيرة ولا يؤاخذ على ذلك أخذ عموم، فكذلك من توجد منه الغيرة في حق زيد لفعل خاص، وإذا وقع منه ذلك الفعل لا يجد غيرة فلهذا قلنا: صاحب هذا الحال أحق وأقرب للاتّصاف بالنعت الإلهيّ بالغيرة من الذي يغار مطلقاً في حق نفسه وغيره، ومن أجل ذلك سمّي معصوماً أو محفوظاً، فلم يقع منه ما يوجب الغيرة وهو السعيد في العموم المثنى عليه في الشرع، والآخر يذم كما يذم الجبار من المخلوقين وإن كان الجبروت وصفاً إلهياً، كذلك خصوص الغيرة لا ينبغي للمؤمن أن يتصف بذلك بل تعمّ غيرته في الحق وحينئذ يحمده الله تعالىٰ ويثني عليه، فقد نبهتك على سرّ من أسرار الغيرة لتستريح إليه إن تفطنت له ولا تستعمله فتشقى بل كن لله غيوراً في الحق مطلقاً من غير تقييد.

وأما حال الغيرة على الحق وهي كتمان السرائر والأسرار وتلك حالة الأخفياء الأبرياء من الملامية المجهولين المجهولة مقاماتهم فلا يظهر عليهم أمر إلهيّ يعرف به أن لله عناية بهم، فأحوالهم تستر مقامهم لحكمة الموطن فإنهم لا يظهرون في محل النزاع إذ كان سيدهم وهو الله تعالىٰ قد نوزع في ألوهيته في هذه الدار، وهذه الطائفة متحققة بسيدها، فمنعهم ذلك التحقق أن يظهروا في الموطن الذي استتر سيدهم فيه فجروا مع العامة على ما هي العامة عليه من ظاهر الطاعات التي لم تجر العادة في العرف أن يسمّوا بها أنهم من أهل الله لأنهم ما ظهر منهم ما يتميزون به عن العامة من الأفعال، كما ظهر من بعض الأولياء من خرق العوائد في الأحوال، أو من تتبع تغيير المنكرات إذا بدت تغييراً يتميز به عن التغيير العام بحيث أن يشار إليه فيه فهذه حال الغيرة على الحق.

وأما حال الغيرة من الحق وهي ضنته بأوليائه حيث سترهم عن سائر عباده فحبب إليهم الستر ووفقهم للمعرفة بحكم الموطن فاتصفوا بصفة سيدهم فكانوا عنده خلف حجب العوائد فهم ضنائن الله وعرائسه فهم عنده كهو عندهم، فما يشاهدون سواه ولا ينظر هو إلاّ إليهم، فمن أراد أن يعرفهم فليسلك مسلك الغيرة على الحق فينتظم في سلكهم، وأما قول بعضهم في الغيرة على الحق أن يذكر بألسنة الغافلين فكل لسان ذكره فليس بغافل بل له ثمرة صحيحة ينالها الذاكر وهو اللسان، وإن لم تقرن به نية من نفس صاحب ذلك اللسان فما ذكره ذاكر بغفلة قط بل ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] مثل هؤلاء، فصاحب هذا القول لا حظّ له في الرجولة، وكذلك قول الآخر أغار على ذلك الجمال الأنزه عن نظر مثلي يا ليت شعري، وأي نظر لك وأين الموجود الذي له نظر من ذاته وهل ينظره إلاّ هو يا أيها المشرك أما تستحي أن تقول مثل هذا القول فحال الغيرة من الحق أن تكون حقاً وتقوم فيها بنسبتها إلى الحق فتنظر ما الغيرة منه فتكون على ذلك ومع هذا على كل وجه فإنه يطلب ثبوت الغير والتفرقة بين الأشياء والتميز فتحفظ في ذلك من إثبات وجود عين زائدة أو من نفي عيون كثيرة في غير وجود عينيي، فأثبت الكثرة في الثبوت وأنفها من الوجود، وأثبت الوحدة في الوجود وأنفها من الثبوت، فاعلم ذلك.

الباب الرابع عشر ومائتان

في حال الحرية

[نظم: المتقارب]

إذا كـان حـالُ الـفـتـى عَـيْـنَـهُ ... فـذلـك حُـرٌّ وإن لَـمْ يـكُـنْ
وإن كـان مـا لـم يَـكُـنْ لـم يَـكُـنْ ... بـأكـوانِـهِ كـائـنٌ يـسْـتَـكِـنْ
فـحُـرِّيـةُ الـعـبْـدِ مَـغْـلُـولَـةٌ ... ولا رقَّ إلاّ لِـمَـنْ قـال كُـنْ
فـيـا أيـهـا الـحـرُّ لا تـفـتَـقِـرْ ... فـجَـنْـبُـكَ مـن فـقـره قـد وَهَـنْ
ولا بـدَّ مـنـه فـمـاذا تَـرَى ... ولا بـدَّ مـنـك فـقـد آن أنْ

أَضُمَّ غناه إلى فَقْرِنا وذلك عندي مِنَ اقوَى الجُنَنْ

اعلم أن الحرية عند الطائفة الاسترقاق بالكلية من جميع الوجوه، فتكون حراً عن كل ما سوى الله وهي عندنا إزالة صفة العبد بصفة الحق، وذلك إذا كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه وما هو عبد إلاً بهذه الصفات التي أذهبها الحق بوجوده مع ثبوت عين هذا الشخص والحق لا يكون مملوكاً، فكان هذا المحل حراً إذ لا معنى له من عينه ما لم يكن موصوفاً بهذه الصفات وهي الحق عينها لا صفات الحق عينها، فثبت عين الشخص بوجود الضمير في قوله: كنت سمعه فهذه الهاء عينه والصفة عين الحق لا عينه فثبتت الحرية لهذا الشخص، فهو محل لأحكام هذه الصفات التي هي عين الحق لا غيره كما يليق بجلاله، فنعته سبحانه بنفسه لا بصفته، فهذا الشخص من حيث عينه هو ومن حيث صفته لا هو: [الطويل]

فوصْفُكَ معدومٌ وعينُك ظاهرُ وأنتَ له آلٌ كما هو آخِرُ
وأنتَ له مَلْكٌ ولستَ بعبدِهِ فما أنتَ مزجورٌ وما أنت زاجِرُ

وعلى الحقيقة لا يقال في الحق إنه حر لكن يقال: إنه ليس بعبد إذ كان لا يعرف إلاً بالنعت السلبي لا بالنعت الثبوتي النفسي، لكن للمظاهر حكم فيه من حيث ما هو ظاهر فيها فينسب إليه جميع ما ينسب إلى المظهر من نعوت نقص عرفي ونعوت كمال وتمام: [السريع]

وليس إلاً الحقّ لا غيره فعَيْنُه الظاهرُ نَعْتُ العبيدْ
ولا تقُلْ بأنه عَيْنُهم بل قلْ كما قلته لا تزيدْ

وألسنة الشرائع الإلهية بهذا نطقت حقيقة لا مجازاً، والأدلة العقلية النظرية تنفي مثل هذا عن الجناب الإلهيّ، وإذا وردت به الشرائع فإن فحول علمائهم يتأولون مثل هذا لعدم الكشف إذ لم يكن الحق بصرهم:

تقلَّدوا الفكرَ على قُصُورِهِ وما استضاؤوا ساعةً بنورِهِ

[الرجز]

فسبحانَ من أخْفَى عن العين ذاتَهُ وأظْهَرَها في خَلْقه بصفاتِهِ

[الطويل]

فلا حرٌّ ولا عبْدُ فأينَ العَهْدُ والوعْدُ
فللَّهِ وجودُ الأمْدِ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ

[الهزج]

واعلم أن الحر مَن ملك الأمور بأزمتها ولم تملكه وصرفها ولم تصرفه وهذا غير موجود في الجنابين، فإن الله يقول: ادعوني أستجب لكم، وطلب منا الإجابة لما دعانا فحصل التصريف من جانب الحق ومن جانب العبد، فلولا دعاء العبد وسؤاله ما كان الحق مجيباً والإجابة نعته، فقد ظهر من العبد صورة تصرف في الحق، وقد ظهر من الحق تصرف في العبد لا صورة تصرف، فهذا القدر بين الحق والعبد، ولا يكون حراً مطلق الحرية من هذا

نعته، ففي الحقيقة ليس للحرية وجود عين، فإن الإضافات تمنع من ذلك، لكن حقيقة الحرية في غنى الذات عن العالمين مع ظهور العالم عنه لذاته لا لأمر آخر فهو غني عن العالمين فهو حر والعالم مفتقر إليه، فالعالم عبيد فلا حرية لهم أبداً، فإذا طلبتهم الألوهة بما كلفتهم به من الأحكام التي لا ظهور للألوهية إلاّ بها ظهرت الإضافات، فصار الأمر موقوفاً من الطرفين كل طرف على صاحبه، فامتنعت الحرية أن تقوم بواحد من المضافين، فمن قد قال: إن الحق معروف فلا يدري كما من قال: إن الحق مجهول فلا يدري، فهذا حال الحرية قد استوفيناه مختصراً قريب المأخذ والمتناول.

الباب الخامس عشر ومائتان

في معرفة اللطيفة وأسرارها

[نظم: الوافر]

إذا عـزَّتْ عـن الشَّـرْحِ الـمـعـانـي فـتـلـك لـطـائـفُ الـرَّحْـمٰـنِ فـيـنَـا
يُـشَـارُ بـهـا إلـيـنـا مـن بـعـيـدٍ فـنَـحْـيَـى مـن إشـارتـهـا سِـنـيـنَـا
وأن الله يـمْـنَـحُـهَـا قـلـوبـاً يُـهَـيِّـمُـهـا الـهـوى حـيـنـاً فـحـيـنَـا
ومـا ذاك الـهَـوَى الـمـذمـومَ لـكـنْ هـو الـحـبُّ الـذي مـنـه ابْـتُـلـيـنَـا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن أهل الله يطلقون لفظ اللطيفة على معنيين: يطلقونه ويريدون به حقيقة الإنسان، وهو المعنى الذي البدن مركبه ومحل تدبيره وآلات تحصيل معلوماته المعنوية والحسية، ويطلقونه أيضاً ويريدون به كل إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة وهي من علوم الأذواق والأحوال، فهي تعلم ولا تنقال لا تأخذها الحدود وإن كانت محدودة في نفس الأمر، ولكن ما يلزم من له حدّ وحقيقة في نفس الأمر أن يعبر عنه، وهذا معنى قول أهل الفهم: إن الأمور منها ما يحدّ ومنها ما لا يحدّ، أي تتعذر العبارة عن إيضاح حقيقته وحده للسامع حتى يفهمه وعلوم الأذواق من هذا القبيل، ثم يتوسعون في اللطائف فيسمون كل معنى دقيق عزيز المثال، وإن قيل ينفرد به أفراد الرجال لطيفة. ومن الأسماء الإلهية الاسم اللطيف، ومن حكم هذا الاسم الإلهيّ إيصال أرزاق العباد المحسوسة والمعنوية المقطوعة الأسباب من حيث لا يشعر بها المرزوق وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣] ومن الاسم اللطيف قوله عليه السلام في نعيم الجنة: «**فِيها مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» فاعلم وفقك الله أن اللطيفة التي تحصل للعبد من الله من حيث لا يشعر إذا أوصلها العبد بهمته لتلميذه، أو لمن شاء من عباد الله من حيث لا يشعر ذلك الشخص عن قصد من الشيخ حينئذ يقال فيه إنه صاحب لطيفة، ولا يصحّ هذا إلاّ للمتخلق بالاسم الإلهيّ اللطيف، فإن وقع الشعور بها فليس بصاحب لطيفة، وإن وقع للتلميذ أو للموصل إليه ذلك المعنى أنه وصل إليه من هذا الشيخ عن علم محقق لا عن

حسبان ولا حسن ظنّ ولا تخمين، فذلك الشيخ ليس بصاحب لطيفة في تلك المسألة، فإنه من شأن صاحب هذا المقام العزّة والمنع أن يشعر به أن ذلك من عنده على تفصيل ما وقع منه الإيصال لا على الإجمال، كما تعلم أن الرزاق هو الله على الإجمال، ولكن ما تعرف كيف إيصال الرزق للمرزوق على التفصيل والتعيين الذي يعلمه الحق من اسمه اللطيف، فإن علم فمن حكم اسم آخر إلهيّ لا من الاسم اللطيف وليس ذلك بلطيفة فلا بدّ من الجهل بالإيصال، ولهذا المعنى سميت حقيقة الإنسان لطيفة لأنها ظهرت بالنفخ عند تسوية البدن للتدبير من الروح المضاف إلى الله في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو النفس الإلهيّ وقد مضى بابه فهو سرّ إلهيّ لطيف ينسب إلى الله على الإجمال من غير تكييف، فلما ظهر عينه بالنفخ عند التسوية وكان ظهوره عن وجود لا عن عدم فما حدث إلاً إضافة التولية إليه بتدبير هذا البدن مثل ظهور الحرف عن نفس المتكلم، وأعطى في هذا المركب الآلات الروحانية والحسية لإدراك علوم لا يعرفها إلاً بوساطة هذه الآلات، وهذا من كونه لطيفاً أيضاً فإنه في الإمكان العقليّ فيما يظهر لبعض العقلاء من المتكلمين أن يعرف ذلك الأمر من غير وساطة هذه الآلات وهذا ضعيف في النظر، فإنا ما نعني بالآلات إلاً المعاني القائمة بالمحل، فنحن نريد السمع والبصر والشم لا الأذن والعين والأنف وهو لا يدرك المسموع إلاً من كونه صاحب سمع لا صاحب أذن، وكذلك لا يدرك المبصر إلاً من كونه صاحب بصر لا صاحب حدقة وأجفان فإذا إضافات هذه الآلات لا يصحّ ارتفاعها، وما بقي لماذا ترجع حقائقها؟ هل ترجع لأمور زائدة على عين اللطيفة أو ليست ترجع إلاً إلى عين اللطيفة؟ وتختلف الأحكام فيها باختلاف المدركات والعين واحدة وهو مذهب المحققين من أهل الكشف والنظر الصحيح العقلي، فلما ظهر عين هذه اللطيفة التي هي حقيقة الإنسان كان هذا أيضاً عين تدبيرها لهذا البدن من باب اللطائف لأنه لا يعرف كيف ارتباط الحياة لهذا البدن بوجود هذا الروح اللطيف لمشاركة ما تقتضيه الطبيعة فيه من وجود الحياة التي هي الروح الحيواني فظهر نوع اشتراك، فلا يدري على الحقيقة هذه الحياة البدنية الحيوانية هل هي لهذه اللطيفة الظاهرة عن النفخ الإلهيّ المخاطبة المكلفة أو للطبيعة أو للمجموع إلاً أهل الكشف والوجود فإنهم عارفون بذلك ذوقاً، إذ قد علموا أنه ما في العالم إلاً حيّ ناطق بتسبيح ربه تعالىٰ بلسان فصيح ينسب إليه بحسب ما تقتضيه حقيقته عند أهل الكشف، وأما ما عدا أهل الكشف فلا يعلمون ذلك أصلاً فهم أهل الجماد والنبات والحيوان، ولا يعلمون أن الكل حيّ ولكن لا يشعرون، كما لا يشعرون بحياة الشهداء المقتولين في سبيل الله قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٤].

ثم إن تدبير هذه اللطيفة هذا البدن لبقاء الصحبة لما اقتنته من المعارف والعلوم بصحبة

هذا الهيكل ولا سيما أهل الهياكل المنوّرة وهنا ينقسم أهل الله إلى قسمين: قسم يقول بالتجريد عند مفارقة هذا البدن فإنها تكتسب من خلقها وعلومها ومعارفها أحوالاً وهيئات يعلمون بها في عالم التجريد من أخواتها فتطلب درجة الكمال، وهذا الصنف وإن كان من أهل الله فليس من أهل الكشف بل الفكر عليه غالب والنظر العقليّ عليه حاكم. والقسم الآخر من أهل الله وهم أهل الحق لا يبالون بالمفارقة متى كانت لأنهم في مزيد علم أبداً دائماً، وأنهم ملوك أهل تدبير لموادّ طبيعية أو عنصرية دنيا وبرزخاً وآخرة، وهم المؤمنون القائلون بحشر الأجساد وهؤلاء لهم الكشف الصحيح، فإن اللطيفة الإلهية لم تظهر إلاّ عن تدبير وتفصيل وهيكل مدبر هو أصل وجودها مدبرة فلا تنفك عن هذه الحقيقة، ومن تحقق ما يرى نفسه عليه في حال النوم في الرؤيا يعرف ما قلناه، فإن الله ضرب ما يراه النائم في نومه مثلاً وضرب اليقظة من ذلك النوم مثلاً آخر للحشر، والأوّل ما يؤول إليه الميت بعد مفارقة عالم الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٦] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧]. فنحن في ارتقاء دائم ومزيد علم دنيا وبرزخاً وآخرة، والآلات مصاحبة لا تنفك في هذه المنازل والمواطن والحالات عن هذه اللطيفة الإنسانية.

ثم إن الشقاء لهذه اللطيفة أمر عارض يعرض لها كما يعرض المرض في الدنيا لها لفساد هذه الأخلاط بزيادة أو نقص، فإذا زيد في الناقص أو نقص من الزائد وحصل الاعتدال زال المرض وظهرت الصحة، كذلك ما يطرأ عليها في الآخرة من الشقاء، ثم المآل إلى السعادة وهي استقامة النشأة في أي دار كان من جنة أو نار، إذ قد ثبت أنه لكل واحد من الدارين ملؤها، فالله يجعلنا ممّن حفظت عليه صحة مزاج معارفه وعلومه، فهذا طرف من حقيقة مسمّى اللطيفة الإنسانية، بل كل موجود من الأجسام له لطيفة روحانية إلهية تنظر إليه من حيث صورته لا بدّ من ذلك وفساد الصورة والهيئة موت حيث كان.

وأما اصطلاحهم اللطيفة على المعنى الآخر الذي هو كل إشارة تلوح في الفهم لا تسعها العبارة فاعلم أن أهل الله قد جعلوا الإشارة نداء على رأس البعد وبوحاً بعين العلة، ولكن في التقسيم في الإشارات يظهر فرقان، وذلك أن الإشارة التي هي نداء على رأس البعد فهو حمل ما لا تبلغه العبارة، كما أن الإشارة للذي لا يبلغه الصوت لبعد المسافة وهو ذو بصر فيشار إليه بما يراد منه فيفهم، فهذا معنى قولهم: نداء على رأس البعد، فكل ما لا تسعه عبارة من العلوم فهو بمنزلة من لم يبلغه الصوت فهو بعيد عن المشير وليس ببعيد عمّا يراد منه، فإن الإشارة قد أفهمته ما يفهمه الكلام أو يبلغه الصوت، وقد علمت قطعاً أن المشير إذا كان الحق فإنه بعيد عن الحد الذي يتميز به العبد فهذا بعد حقيقي لا بدّ منه ولا يكون الأمر إلاّ هكذا، فلا بدّ من الإشارة وهي اللطيفة فإنه معنى لطيف لا يشعر به، ثم إنه وإن لم يكن بعد فهو بوح بعين العلة وذلك أن الأصم يكون قريباً من المتكلم ولكن قربه لا تقع به الفائدة لأنه لا يصل إليه الصوت لعلة الصمم فيشير إليه مع القرب، كما يقول الحق على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فهذا غاية القرب مع وجود العلة وظهورها، وأكثر من هذا القرب ما يكون فإنه

هو مع قوله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ففرّق وفصل، وأين هذا ممّن جعل قوله قوله وأنه المتكلم والقائل لا هو، فهذا قرب معلول فهو قولهم وبوح بعين العلة، ولهذا سمّيت لطيفة لأنها أدرجت الرب في العبد فقال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وكان المتكلم محمداً ﷺ بكلام الله، وقال تعالىٰ: «كنت سمعه وبصره ولسانه»، وهذا من ألطف ما يكون ظهور رب في صورة خلق عن إعلام إلهيّ لا تعرف له كيفية ولا تنفك عنه بينية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ثم إنه من هذا الباب حنين الأمهات إلى أولادها وعطفها عليهم، والحنين إلى الأوطان والشوق إلى الآلاف وهي مناسبات في الجملة بين الأمرين إذا أراد الشخص أن يعرف عللها لم يقدر على ذلك ولكن يقارب إلاً من حصل له التعريف الإلهيّ فذلك عالم بما هو الأمر عليه تلقاه من أصل الوجود بل من عين الوجود إذا لحق وهو الوجود ليس إلاّ.

الباب السادس عشر ومائتان
في معرفة الفتوح وأسراره

[نظم: البسيط]

إن الفُتُوحَ هو الراحاتُ أجمَعُها ... وهو العذابُ فلا تَفْرَحْ إذا وَرَدَا
حتَّى تَرَى عَيْنَ ما يأتي به فإذا ... رأيتَه فاتَّخذْ ما شئْتَهُ سَنَدَا
الريحُ بُشْرَى من الرحمن بين يَدَيْ ... ما شاء من رحمةٍ فيها إذا قَصَدَا
وقد تكونُ عَذَاباً ما استعدَّ له ... كريحِ عادٍ بنَقْلٍ ثابتٍ شَهِدَا
فالمكرُ منه خفيٌّ فاستعدَّ له ... عسى تحوزُ بذاك الفوْزَ والرَّشَدَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بما أيّد به الخاصة من عباده أن الفتوح عند الطائفة على ثلاثة أنواع: النوع الواحد فتوح العبارة في الظاهر قالوا: وذلك سببه إخلاص القصد، وهو صحيح عندي وقد ذقته وهو قوله عليه السلام: «**أوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِم**» ومنه إعجاز القرآن، وقد سألت في الواقعة عن هذه المسألة فقيل لي: لا تخبر إلاّ عن صدق وأمر واقع محقق من غير زيادة حرف أو تزوير في نفسك، فإذا كان كلامك بهذه الصفة كان معجزاً. وأمّا النوع الثاني من الفتوح فهو فتوح الحلاوة في الباطن قالت الطائفة: هو سبب جذب الحق بأعطافه. وأما النوع الثالث فهو فتوح المكاشفة بالحق قالت الطائفة: هو سبب المعرفة بالحق، والجامع لذلك كله أن كل أمر جاءك من غير تعمّل ولا استشراف ولا طلب فهو فتوح ظاهراً كان أو باطناً، وله علامة في الذائق الفتوح وهي عدم الأخذ من فتوح الغير أو نتائج الفكر، ومن شرط الفتوح أن لا يصحبه فكر ولا يكون نتيجة فكر، وكان شيخنا أبو مدين يقول في الفتوح: اطعمونا لحماً طرياً كما قال الله تعالىٰ: لا تطعمونا القديد أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلاّ ما يفتح به عليكم في قلوبكم، لا تنقلواإلينا فتوح غيركم يرفع بهذا همة أصحابه لطلب الأخذ من الله تعالىٰ، فاعلموا يا إخواننا أن مقام الفتوح محتاج إلى ميزان حقيقي وهو مقام فيه مكر خفيّ

واستدراج، فإن الله قد ذكر الفتح بالبركات من السماء والأرض وذكر الفتح بالعذاب هذا حتى لا يفرح العاقل بالفتح عند فتح الباب حتى يرى ما يفتح له، قال بعضهم عند الموت: هذا باب كنت أقرعه منذ كذا وكذا سنة هو ذا يفتح لي ولا أدري بماذا قالت عاد، هذا عارض ممطرنا حجبتهم العادة قيل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٤] فلا تغتر بالفتح إذا لم تدر ما ثمة. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤].

ولما كان الفتح الإلهيّ على نوعين في العالم: فتح عن قرع وفتح ابتداء لا عن قرع، فأما فتح القرع فيعلم أهل الله بماذا يفتح فإن القرع هو دليلهم على ما يفتح به وليس مطلوب القوم بالفتوح هذا النوع وإنما مطلوبهم بالفتوح ما يكون ابتداء من غير تعمل لذلك، وإن كان يطلبه العمل من العبد الذي هو عليه بحكم التضمن، ولكن ما يخطر للعبد العامل ذلك جملة واحدة فيكون الفتح في حقه إذا ورد ابتداء، وإذا ورد الفتح على اختلاف ضروبه كما قررناه تعين على هذا العبد إقامة الوزن بالقسط كما أمره الله في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] فيقيم الوزن هذا العبد بين حاله الذي هو عليه وبين الفتح، فإن كان الفتح مناسباً للحال فهو نتيجة حاله فيقيم عند ذلك وزناً آخر وهو أن ينظر في مقدار الفتح وقوّة الحال فإن ساواه فهو نتيجة بلا شك، فليحذر هذا العبد مكر الله في هذا الفتح فإنه نتيجة في غير موطنها، فربما عجلت له عطيته وانقلب إلى الدار الآخرة صفر اليدين، فإن كان الفتح ممّا يعطي أدباً وترقياً فليس بمكر بل هو عناية من الله تعالىٰ بهذا العبد حيث زاده فتحاً يؤدّيه إلى زيادة خير عند الله تعالىٰ. وإن أقام الوزن بين مقدار الفتح وقوّة الحال ورأى الفتح فوق الحال فينزل منه مقدار قوّة الحال وما زاد فذلك هو الفتوح الذي ذكرته الطائفة، هذا أصل ينبغي أن يعلم ويتحقق وله شواهد يعلمها الذائق له، وإن لم يدخل الفتح في ميزان الحال جملة واحدة وبقي حاله موفوراً عليه كان ذلك الفتح هو الفتح المطلوب عند القوم.

وبعد أن تقرر هذا فلنذكر كل نوع من أنواع الفتوح، أما الفتوح في العبارة فإنه لا يكون إلاّ للمحمدي الكامل من الرجال ولو كان وارثاً لأي نبي كان، وأقوى مقام صاحب هذا الفتح الصدق في جميع أقواله وحركاته وسكونه إلى أن يبلغ به الصدق أن يعرف صاحبه وجليسه ما في باطنه من حركة ظاهرة، لا يمكن لصاحب هذا الفتح أن يصوّر كلاماً في نفسه ويرتبه بفكره ثم ينطق به بعد ذلك، بل زمان نطقه زمان تصوّره لذلك اللفظ الذي يعبر به عمّا في نفسه زمان قيام ذلك المعنى في نفسه وصورته، وليس لغير صاحب هذا الفتح هذا الوصف، ويكون التنزّل على صاحب هذا الفتح من المرتبة التي نزل فيها القرآن خاصة من كونه قرآناً لا من كونه فرقاناً ولا من كونه كلام الله، فإن كلام الله لا يزال ينزل على قلوب أولياء الله تلاوة، فينظر الوليّ ما تلى عليه مثل ما ينظر النبي فيما أنزل عليه فيعلم ما أريد به في تلك التلاوة، كما يعلم النبي ما أنزل عليه فيحكم بحسب ما يقتضيه الأمر هكذا هو الشأن، ولهذا التنزّل في قلب الوليّ حلاوة نذكرها في النوع الثاني من الفتح، فلا تقع التلاوة لصاحب هذا الفتح إلاّ من كون المتلوّ قرآناً لا غير، فيفتح الله له في العبارة فيعرب بقلمه أو بلفظه عمّا في نفسه بحيث أن

يوضح المقصود عند السامع إذا كان السامع ممّن ألقى السمع، ومن علامة صاحب هذا الفتح عند نفسه استصحاب الخشوع وتوالي الاقشعرار عليه في جسده بحيث أن يحسّ بأجزائه قد تفرقت، فإن لم يجد ذلك في نفسه فيعلم أنه ليس ذلك الرجل المطلوب ولا هو صاحب هذا الفتح، وهذا فتح ما رأيت له في عمري فيمن لقيته من رجال الله أثراً في أحد، وقد يكون في الزمان رجال لهم هذا الفتح ولم ألقهم غير أني منهم بلا شك عندي ولا ريب فللّه الحمد على ذلك، وسيرد في فصل المنازل في منزل القرآن فرقان ما بين أسمائه، فإنه القرآن والفرقان والنور والهدى وغير ذلك من الأسماء الموضوعة له، ومهما تصوّر المتكلم المعبر عمّا في نفسه ما يتكلم به قبل العبارة ويرتب التعبير عن الأمر في نفسه ويحسنه ويتمعنه بحيث أن يحسن عند كل من يسمع تلك العبارة فليس هو بصاحب فتح، فإنه من شأن الفتوح أن يفجأ ويأتي بغتة من غير شعور، هكذا كل فتوح يكون في هذا الطريق. ثم إنه من حقيقة صاحب هذا الفتح شهود ما يعبر عنه وشهود من يسمع منه وبما يسمع منه، فيعطيه من العبارة ما يليق بذلك السمع الخاص، فإن لم يكن بهذا الوصف فليس هو بصاحب فتح في العبارة، وهذا معنى قولنا إن سببه الإخلاص.

النوع الثاني من الفتوح الذي هو فتح الحلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه، فهذه الحلاوة وإن كانت معنوية فإن أثرها عند صاحبها يحسّ به كما يحسّ ببرد الماء البارد، وصورة الإحساس بها كصورة الإحساس بكل محسوس، وطريقها في الحسّ من الدماغ ينزل إلى محل الطعم فيجدها ذوقاً، فيجد عند حصول هذا الذوق استرخاء في الأعضاء والمفاصل وخدراً في الجوارح لقوّة اللذة واستفراغاً لطاقته، ومن أصحاب هذا الفتح من تدوم معه هذه الحلاوة ساعة ويوماً، وأكثر من ذلك ليس لبقائها زمان مخصوص فإنه اختلف علينا بقاؤها، فوقتاً نزلت علينا في قضية فدامت معنا ساعة ثم ارتفعت ثم نزلت في واقعة أخرى فدامت أياماً ليلاً ونهاراً حينئذ ارتفعت، فإذا ارتفعت زال ذلك الخدر من الجوارح، وهذه الحلاوة لا يمكن أن يشبهها لذة من اللذات المحسوسة لأنها غريبة لكونها معنوية في غير مادة محسوسة، فما تشبه حلاوة العسل ولا حلاوة الجماع ولا حلاوة شيء محسوس، كما أنها أيضاً لا تشبه حلاوة حصول العلوم المعشوقة للطالب بل هي أعلى وأجلّ، وأثرها في الحسّ أعظم من أثر الحلاوة المركبة في المواد المحسوسة كحلاوة كل حلو، وتميزها عن لذات المعاني إنما هو بما لها من الأثر في الحسّ فافهم ذلك.

ولما سماني الحق عبداً بأسمائه وفتح لي في هذه الحلاوة ما رأيت أشد أثراً منها في الاسم العزيز، فلما ناداني بيا عبد العزيز ومعنى ذلك أن يقام الإنسان عبداً في كل اسم إلهيّ ليحصل الفرقان بين الحقائق لتحصيل العلوم الإلهية وجدت لهذا النداء من الحلاوة ما لم أجد لغيره من الأسماء، ونظرت في سبب ذلك فوجدت أن مقام العزّة يقتضي أن يكون الأمر كذلك، وهذه الحلاوة وإن تميزت عن حلاوة المحسوسات والمعاني فهي متنوعة في نفسها، فحلاوة أمر مّا منها خلاف حلاوة أمر آخر يجد الذائق الفرق بينهما كحلاوة السكر يجد

الإنسان الفرق بينها وبين حلاوة العسل وإن اشتركا في الحلاوة وكذلك الأمر هنا، ولا تحصل هذه الحلاوة لأحد من أهل الله إلاّ بالعطف الإلهيّ، فإذا ورد العطف الإلهيّ على العبد رزقه الله وجدان هذه الحلاوة في باطنه فيجذبه إليه تعالىٰ لأن النفس مجبولة على الميل إلى كل ما تستلذه، ومن أشدّ حلاوة من هذا الفتح مرّ عليّ في هذا الزمان لما تلى عليّ ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ١] فلم أجد لذة أعظم من لذة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] فهذه أعظم بشرى وردت عليّ. ثم إنه تليت عليّ مرتين في زمانين متتابعين فزادني إعجاباً بها تكرار التلاوة عليّ بها، وتكرار التلاوة فينا مثل تكرار نزول الآية أو السورة على الرسول مرتين، كما جاء في نزول سورة والمرسلات وغيرها أنها نزلت مرتين، فإذا عطف الحق على عبده بهذه الحلاوة فجذبه إليه بها ليمنحه علماً لم يكن عنده فإن لم يجد علماً فليس بجذب ولا تلك حلاوة فتح فذلك من علامات فتح الحلاوة، وإنما يفعل الحق ذلك لتكون حركة العبد معلولة لأنه معلول في الأصل وذلك لإقامة حجة الله عليه، فإن العبد يزهو بالقوّة الإلهية التي عنده، فربما يرى أن له تنزيهاً بانجذابه إلى الحق دون غيره من العبيد، ويزعم أن ذلك إيثار منه لجناب الحق، فجعل الله انجذابه عن حلاوة، فإن زها كما قلنا قامت الحجة علينا بأنه ما أخذ به إلى الحق إيثار جناب الحق بل وجدان الحلاوة والالتذاذ فلنفسه سعى ولله المنة وحده لا منة لأحد على الله، وله الحجة البالغة لا حجة لأحد على الله، وكل من قال بغير هذا من أهل الله فإنما قالها شطحاً لا حقيقة لغلبة الحال عليه فهو لسان حاله لا لسانه، فإذا أفاق قال: سبحانك تبت إليك.

فإن قلت: فما معنى الجذب هنا مع كونه معه؟ قلنا: ليس أحد مع الحق من حيث ما هو الحق لنفسه وإنما هم مع الحق من حيث ما أقامه الحق فيه، فيكون من الحق الجذب بهذه الحلاوة من الحال التي أقامه الحق فيها لحال آخر يفيده فيه علماً لم يكن عنده ذوقاً هكذا على الدوام إلى ما لا نهاية له، وسمّاه جذباً لأنّ العبد لا بدّ أن يتعشق بحاله ويألفه فلا ينجذب عنه إلاّ بما هو أعجب إليه منه، فلهذا فتح له في الحلاوة لتخلصه ممّا وقف معه، فإذا انجذب إلى الحق صحبه حاله الذي كان عليه أيضاً لأنه لا يفارقه إذ المعلوم لا يجهل فبقي حكم الجذب، إنما متعلقه أن لا يتركه يقف مع حاله فيقتصر عليه فيحدث له التشوّق إلى تحصيل أمر آخر ليس عنده مع صحبته لما كان عليه من الحال فاعلم ذلك. وليس كل أهل الله على هذا القدم الذي ذكرناه، وإنما هذا الذي ذكرناه حال الأكابر منهم، فإن جماعة من أهل الله يشغلهم ما رجعوا إليه عمّا كانوا عليه، فإن الله قد رفع بعضهم على بعض وفضل كل صنف بعضه على بعض فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥].

واعلم أن أصل وجدان هذه الحلاوة فينا من الجناب الإلهيّ من الحلاوة الإلهيّة التي يتضمنها صريح قوله عليه السلام: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ» الحديث، فمن هناك نشأت هذه الحلاوة في باطن أهل الله، فإن فهمت فقد رميت بك على الطريق، ولا يعرف هذا إلاّ

العارفون بالله المنعوت في الشرع لا المدلول عليه بالعقل، وهكذا جميع ما يأتي من مثل هذا الباب، وليس للضحك الإلهيّ ولا التبشبش مدخل في هذه الحلاوة بل ذلك للفرح فلا تخلط ولا تقس فإن طريق الله لا تدرك بالقياس، فما كل أمر يشبه أمراً له حكم ذلك المشبه ليس الأمر كذلك، وإنما له منه حكم ما وقع الشبه به كالحمصة تشبه اللؤلؤة في الاستدارة وما لكل واحدة منهما حكم الأخرى، كما تختلف العلل أيضاً مع أحدية المعلول إذا كان المعلول محمولاً كالاستدارة التي وقع التمثيل بها وهي أمر محمول في المستدير، كان المستدير ما كان فعلة استدارة الفلك ليست علة استدارة اللؤلؤ، فاختلفت العلل لاختلاف محال المعلول والمعلول الاستدارة، فاحذر من القياس في العلم الإلهيّ، بل إن تحققت الأمور لم يصحّ وجود القياس أصلاً، وإنما هو من الأمور التي غلط فيها أهل النظر في أن حملوا حكم المقيس عليه على المقيس، فهذا قد بيّنا في هذا النوع من الفتح قدر ما تقع به الكفاية لمن أراد تحصيله ذوقاً من نفسه فإذا ذاقه علم ما يحتمله من البسط.

وأما النوع الثالث من الفتوح وهو فتوح المكاشفة الذي هو سبب معرفة الحق اعلم أوّلاً أن الحق أجل وأعلى من أن يعرف في نفسه لكن يعرف في الأشياء، فالمكاشفة سبب معرفة الحق في الأشياء والأشياء على الحق كالستور، فإذا رفعت وقع الكشف لما وراءها فكانت المكاشفة فيرى المكاشف الحق في الأشياء كشفاً، كما يرى النبي ﷺ من وراءه من خلف ظهره فارتفع في حقّه الستر وانفتح الباب مع ثبوت الظهر والخلف فقال: «**إني أَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِ ظَهرِي**» وقد ذقنا هذا المقام ولله الحمد فلا يعرف الحق في الأشياء إلاّ مع ظهور الأشياء وارتفاع حكمها، فأعين العامة لا تقع إلاّ على حكم الأشياء، والذين لهم فتوح المكاشفة لا تقع أعينهم في الأشياء إلاّ على الحق، فمنهم من يرى الحق في الأشياء، ومنهم من يرى الأشياء والحق فيها وبينهما فرقان، فإن الأوّل ما تقع عينه عند الفتح إلاّ على الحق فيراه في الأشياء، والثاني تقع عينه على الأشياء فيرى الحق فيها لوجود الفتح، وأصل ظهور هذا الفتح من الجناب الإلهيّ حالة قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] فيرفع الابتلاء حجاب الدعوى الذي كان يدعيه الكون، فيكون الكشف وهو التعلّق الخاص من العلم الإلهيّ بما وقع الأمر عليه، فعلم صدق دعوى الكون من كذبه، فمن هذه الصفة الإلهيّة ظهر فتح المكاشفة إذ لا يظهر في الوجود حكم إلاّ وله أصل في الجناب الإلهيّ إليه استناده، ولا يصحّ أن يكون الأمر إلاّ هكذا، فإنه قد ذكرنا في غير ما موضع أن علم الله بالأشياء من علمه بنفسه فخرج العالم على صورته فلا يشذ عنه حكم أصلاً، فهو سبحانه رب كل شيء ومليكه، فالأشياء مرتبطة به في كل حال، وما هو في كل حال مرتبط بالأشياء، ولهذا غلط من غلط من أصحابنا ومن بعض النظار في أنهم عرفوا الله ثم عرفوا الأشياء فهم عرفوا الله من حيث أنه واجب الوجود لذاته وأنه لا يصحّ أن يكون ثم واجب الوجود لذاته فصحّت أحدية واجب الوجود، هذا كله صحيح لا نزاع فيه عند المنصف، ولكن ليس المقصود إلاّ علم كونه رباً لهذا العالم، هذا لا يعرفه ما لم تتقدم له معرفته بالعالم، هذا ما يعطيه علم الكمل من

رجال الله من أهل الحق ولهذا قال عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» ما قال: من عرف ربه عرف نفسه، لأنه من حيث نفسه واجب الوجود وله الغنى المطلق، فلا التفات للغنى المطلق إلى غير ذاته، إذ لو التفت لم يصحّ ما قرره فلا يعلم أنه بإله للعالم، فإذا أراد أن يعلم أنه إله العالم نظر في العالم فرأى فيه حقيقة الافتقار بإمكانه إلى المرجح، فلم يجد إلاً هذا الواجب الوجود لذاته الذي أثبته بدليله قبل أن ينظر في هذه المسألة الأخرى فأضافه إليه فقال: هذا الواجب هو رب هذا العالم، وبغير هذا الطريق في النظر فلا يعرف أنه إله العالم.

ثم إن أهل النظر انحجبوا عمّا ثبت في نفوسهم من افتقارهم حين صرفوا النظر إلى معرفة واجب الوجود لذاته، فإن ثبت عندهم بالدليل أظهر لهم إمكانهم وافتقارهم من حيث لا يشعرون أن ذلك الواجب الوجود هو إلههم فقالوا: علمنا بالله متقدم على علمنا بالعالم وصدقوا ما قالوا علمنا بإلهنا أنه إلهنا متقدم على علمنا بنا فلم يشعروا بما وقعوا فيه من الغلط وعلمت بذلك الأنبياء فجعلت العالم دليلاً عليه، وأعظم فتح المكاشفة في مثل هذه المسألة أن يرى الحق فيكون عين رؤيته إياه عين رؤيته العالم للارتباط المحقق فيكشف العالم من رؤيته الله تعالىٰ، ولكن هذه الدقيقة ليست لأهل النظر لأن النظر ليس في قوّته ذلك وإنما هو من خصائص الكشف، هذا أبلغ ما يمكن أن تحقق به هذه المسألة من تقدّم العلم بالله من كونه إلهاً للعالم على العلم بالعالم، فهذا لا يعرف إلاً من فتوح المكاشفة، وما رأيت أحداً من المتقدّمين من أهل الله تعالىٰ نبّه في هذا الفتوح الكشفيّ على هذه المسألة على التعيين، فأحمد الله تعالىٰ حيث أجرى على لساني الإبانة عن هذه المسألة فإنه ما كان في نفسي أن أشير إليها فأحرى أن أصرّح بها، وإنما الغيرة غلبت عليّ والحرص على نصح العباد الذين أمرني الحق بنصحهم على التخصيص أدّاني إلى شرح هذا القدر في فتوح المكاشفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر ومائتان
في معرفة الرسم والوسم وأسرارهما

[نظم: السريع]

الرَّسْمُ ما أعطَيْتَه من أَثَرْ	والوَسْمُ ما دلَّ عليه الخَبَرْ
أن دياراً قد عفى رسمها	ما فيهما لعاقلٍ مُعْتَبَرْ
والوَسْمُ للتمييز إن كنت ذا	معرفةٍ وصحَّ منك النَّظَرْ
وعنهما أخبَرَنا قَولُه	سيماهُمُ في وجههم من أَثَرْ
في أزل كان لهم كلُّ ما	أظهره ربُّ القضاء والقَدَرْ
فسلم الأمرَ إلى عِلْمِهِ	وكُنْ به في حِزب مَنْ قد شَكَرْ
فإنه أَوْلَى بنا لا تَكُنْ	في حزب من يَجْحَدُ أو من كَفَرْ

اعلم أن الوسم والرسم عند الطائفة نعتان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل، يريدون

بما سبق في علم الله لا أنهما جريا في الأزل ويستبين تحقيق الإشارة إليهما، فالوسم بالواو من السمة وهي العلامة الإلهيّة على العبد أو في العبد تكون دلالة على أنه من أهل الوصول والتحقق. وأما الرسم بالراء فهو أثر الحق على العبد الظاهر عليه عند رجوعه من حال مّا قد ادعاه أو مقام فيصدقه هذا الأثر الظاهر عليه في دعواه، فاعلموا أيّدنا الله وإياكم بروح منه أن الوسم فينا كالأسماء لله دلالات عليه ليعرف بها، فلما كثرت المعاني وتعددت نسبتها جعل للذات المنسوبة إليها هذه المعاني أسماء بإزاء كل معنى اسماً يدل عليه ويعرف به لتحصيل الفوائد من العلماء بذلك المتعلقة بها، فجعل الله لكل حال ومقام علامة تسمى وسماً تدل على ذلك المقام والحال دلالة ترفع الإبهام والإجمال والاشتراك، وتكون تلك الدلالة نعتاً لذلك المعنى الذي له الحكم من هذه الذات، فلا يزال يجري في الأبد أي يظهر دائماً كما لم يزل في الأزل.

وهنا نكتة بديعة وذلك أنا قد قدمنا أن العالم على صورة الحق ومن علمه بنفسه تعلق العلم بالعالم فكان العالم مشهوداً للحق أزلاً وإن لم يكن موجوداً، والوسم من جملة العالم على حكمه ومرتبته فهو مشهود له أزلاً يجري بحسب ما هو عليه في الأبد، هذا هو تحقيق شأنه وكذلك الرسم، فجميع ما هو العالم عليه في الأبد إنما هو على صورة ما ظهر به في الأزل إذ لا يختلف شهود الحق فيه، وقد كان مشهوداً له في الأزل حيث لم يكن موجوداً عينياً، فقد شاهد هذا الرسم والوسم أزلاً يجريان في العالم كما هما في الأبد عليه فافهم ذلك، وليس الوسم ولا الرسم بجعل جاعل في الأصل بل ظهرا هنا في الأبد بجعل جاعل وهو الله تعالىٰ، ولا بدّ لكل حال ومشهد ومقام من أثر فيمن قام به ذلك لأثر هو الرسم، فالأثر من حيث ظهوره في المؤثر فيه بفتح الثاء يسمى رسماً وهو بعينه من حيث أنه دلالة على صدق صاحب ذلك الحال أو المشهد أو المقام أو ما كان يسمى وسماً، فعين مسمّى الوسم هو عين مسمّى الرسم، ويختلفان من حيث الحكم، فالوسم عين الرسم من وجه وليس هو عينه من وجه إذا اعتبرت الحكم، فالرسم في الجناب الإلهيّ الذي صدر عنه هذا الرسم في الكون هو كون الحق يظهر فيه أثر الإجابة عند سؤال السائلين إذ لا يكون مجيباً إلاّ عن سؤال، فلما أوجب السؤال الإجابة كانت الإجابة أثراً في المجيب فهذا هو الرسم الإلهيّ ودليلنا عليه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ولما كان الأمر في نفسه بهذه المثابة في الجناب الإلهيّ ظهر في العالم الأثر أيضاً إذ لو لم يكن كذلك لظهر في العالم أمر لا مستند له في الجناب الإلهيّ فيناط به الجهل به إذ قد تقرّر أن علمه بالعالم علمه بنفسه، فلهذه الحقيقة الإلهيّة استناد الرسم والوسم، وقد يكون قول الطائفة في الوسم والرسم بما جريا في الأزل حكمهما في الجناب الإلهيّ إذ كان العالم ظاهراً بصورة حق، ولا يحتمل البسط في هذا الباب أكثر من هذا، وأمّا التفصيل فيه فيطول بطول العالم والعالم لا يتناهى الأثر فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر ومائتان

في معرفة القبض وأسراره على الاختصار والإجمال

[نظم : السريع]

لـلـقَـبْـضِ أسـبـابٌ ولـكـنَّـهـا تُـعْـلَـمُ أوقـاتـاً وقـد تُـجْـهَـلُ

فـكـلُّ مـا تُـعْـلَـمُ أسـبـابُـه فـحُـكْـمُـه الـسَّـبَـبُ الأوّلُ

وكـلُّ مـا تُـجْـهَـلُ أسـبـابُـه فـلا تَـقُـلْ أدنـى ولا أفـضَـلُ

فـأفـضـلُ الـقَـبْـضِ إلـيـه الـذي يـعـرفـه الأمْـثَـلُ فـالأمْـثَـلُ

كَـقَـبْـضِـهِ الـظـلَّ إلـيـه وذا عـلـيـه أهـلُ الله قـد عَـوَّلـوا

اعلم أن الطائفة قالت في القبض إنه عبارة عن حال الخوف في الوقت، فإن الأسف في الماضي والخوف والحذر في المستقبل والقبض للمعنى الحاصل في الوقت، وبعضهم نزع في القبض إلى نتائجه فقال: القبض وارد يرد على القلب يوجب إشارة إلى عتاب أو زجر باستحقاق تأديب. وقال بعضهم: القبض حال ينتجه الخوف وقد يكون الخوف مشعوراً به وقد لا يكون، فاعلموا أيّدكم الله أن القبض في الجناب الإلهيّ الذي عنه صدر القبض في الكون هو ما اتصف به الحق سبحانه من صفات المخلوقين ولا سيما في قوله: «ووسعني قلب عبدي»، ثم تجليه لكل معتقد فيه في صورة اعتقاده فيه فصار الحق كأنه محصور مقبوض عليه بالاعتقادات، وهي العلامة التي بين الله وبين عامة عباده، ولو لم يكن كذلك لم يكن إلهاً وهو إله العالم بلا شك فلا بدّ من اتصافه بهذه السعة والعالم متباين الاستعداد، ولا بدّ له من الاستناد، فلا يزال يعبد كل جزء من العالم الله من حيث استعداده، فلا بدّ أن يتجلى له الحق بحسب استعداده للقبول ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فقد قبض بكلتا يديه على ما اعتقده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فلو كان تسبيحهم راجعاً إلى أمر واحد لم يجهل أحد تسبيح غيره. وقد قال الله: إن تسبيح الأشياء لا يفقه، فدل على أن كل شيء يسبح إلهه بما تقرر عنده منه ممّا ليس عند الآخر. ولما كان في قضية العقل أن الله عزّ وجلّ لا يكون محصوراً وفي قضية الوقوع وجود الحصر وصف نفسه في آخر الآية بأنه حليم، فلم يؤاخذ مع القدرة من زعم أن الحق على وصف كذا خاصة وما هو على وصف كذا، ووصف نفسه في آخر هذه الآية بأنه غفور لما ستر به قلوبهم عن العلم به إلاّ من شاء من عباده فإنه أعطاه العلم به على الإجمال وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لأنه عين كل شيء بدليل العلامة التي ثبتت عنه، والشيء لا يكون مثلاً لعينه لأنه عين كل شيء في كل ظل وكل فيء، وكل طائفة سوى أهل الله قد نزهته أن يكون كذا ولهذا أخبر عنهم فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ أي ينزّه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي بالثناء عليه والتنزيه البعد، وما ذكر الله أنه أمرهم بتسبيحه بل أخبر أنهم يسبحون بحمده، فاجعل بالك لقول الله في تلاوتك لما يقوله ربك عن نفسه وما يقوله العالم عنه وفرّق ولا تحتج فيه إلاّ بما قاله عن نفسه لا بما

يحكيه من قول العالم فيه تكن من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. وحقيقة حال القبض الإلهيّ في إخباره تعالىٰ عن نفسه: «ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بدّ له من لقائي»، فوصف نفسه بالكراهة وكل كاره فحاله القبض، فافهم ما نبهتك عليه تعثر على الحق.

وقد حصل في هذا الخبر أمران موجبان للقبض وهما: التردّد والكراهة والغضب المنسوب إليه والغضب حكم قبض بلا شك، ولكن لما كان الجناب الإلهيّ في اعتقاد العامة يضيق المجال فيه الذي وسعه الشارع لم نقدر على إيضاح الأمر على ما هو عليه ذلك الجناب الإلهيّ إذ له الاتساع الذي لا ينبغي إلا له ومن أسمائه الواسع وهو من أعظم الأسماء إحاطة وهو الاسم الذي يتضمن الأسماء الإلهيّة التي تطلبها الأكوان كلها لاتساعه وهي أكثر من أن تحصى كثرة، وأعيانها معلومة عند أهل الله تعالىٰ في قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فمن كحل عين بصيرته بكحل الكشف علم ما قلناه، وكل أثر وخبر ورد فيه القهر الإلهيّ فإنه من باب القبض الإلهيّ، ومن هناك ظهر القبض فينا، فمن وفى مقام القبض حالاً وذوقاً كان قبضه إلهياً بلا شك.

وأما القبض الذي هو عن حال الخوف كما يراه بعضهم فذلك قبض خاص يتعلق بالنفس وسواء خاف صاحبه على نفسه أو على غيره، فإن كان خوفه على غيره صحبه الإشفاق إذ كان آمناً على نفسه، وكخوف الأنبياء على أممهم يوم القيامة فهم وأمثالهم ممّن يحزنهم الفزع الأكبر من أجل أممهم وهم ممّن لا يحزنهم الفزع الأكبر من أجل أنفسهم، والقبض حال خوف أبداً إلاّ القبض المجهول سببه فإنه أيضاً مجهول الخوف، فإذا ورد القبض المجهول على قلب العارف سكن تحته ولم يتحرك رأساً حتى ينقدح له السبب، فيعمل عند ذلك بحسب ما تقتضيه حقيقة ذلك السبب من الأثر فيه في أي جانب ظهر من حق وخلق وهو من المقامات المستصحبة إلى أول قدم يلقيه في الجنة فيرتفع عنه ولا يتصف به أبداً، كما يرتفع بعض حكم الأسماء الإلهيّة الموجودة هنا وفي الآخرة بانقضاء مدة حكمها فلا تجد قابلاً فترتفع بارتفاع حكمها إذ كانت عين حكمها، ومن هنا تعلم أن أعيان الأسماء الإلهيّة هي أعيان أحكامها، ولذلك تبقى أعيانها ما بقيت أحكامها وتفنى بفناء أحكامها، فلو كانت الأسماء الإلهيّة راجعة إلى ذات المسمّى موجودة قائمة بها لم يصحّ فناؤها ولا فناء أحكامها، ولو كانت أيضاً راجعة إلى ذات المسمّى لكان حكمها كذلك فلم يبق أن تكون إلاّ لنسب وإضافات لا وجود لها في عينها، فلذلك قلنا إنها عين أحكامها فتزول بزوال الحكم وتثبت بثبوته.

الباب التاسع عشر ومائتان

في معرفة البسط وأسراره

[نظم: البسيط]

البَسْطُ حالٌ ولكن ليس يَدْريهِ إلاّ الإلهُ الذي أقامنا فيهِ

له التَّحَكُّمُ في الأكوان أجْمَعِها ... به الوجودُ الذي تبدو مَعَانيهِ
وليس يَحْجُبه عنا سوى قَدَرِ ... وهو الذي عن عيونِ الخَلْقِ يُخْفيهِ
البَغْيُ حكمٌ له إن كنتَ ذا نظرٍ ... جاء الكتابُ به لو كنتَ تَدْريهِ
في عالم الخَلْق هذا الحكمُ ليس له ... في عالم الأمر هذا في تَجَلِّيهِ

اعلم وفّقك الله أن البسط عند الطائفة عبارة عن حال الرجاء في الوقت، وقال بعضهم: القبض والبسط أخذ وارد الوقت بحكم قهر وغلبة، والبسط عندنا حالٌ حكم صاحبه أن يسع الأشياء ولا يسعه شيء، حقيقة البسط لا تكون إلاّ لرفيع المنزلة رفيع الدرجات، فينزل بالحال إلى حال من هو في أدنى الدرجات فيساويه وهو في الجناب الإلهيّ في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وأعظم في النزول ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] ولأجل هذا البسط قال من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨١] وهذا القول تصديق قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٧] ومن البسط الإلهيّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٨] ولولا البسط الإلهيّ ما تمكن لأحد من خلق الله أن يتخلق بجميع الأسماء الإلهيّة، وأعظم تعريف في البسط الإلهيّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ فلما تمكن مثل هذا البسط في قلوب العباد ربما أثر في قلوبهم بغياً فتعدوا منزلتهم، فلما علم الحق أنه ربما أثر ذلك مرضاً في قلوب بعض العباد جعل دواءه تمام الآية وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فأنزل الداء والدواء وهذا من نشر رحمته لأن الأدنى في مرتبة تقتضي أن لا يكون صاحب بسط، فإن انبسط فليس له إلاّ أن يجول في غير ميدانه فيكون البسط من الأدنى سوء أدب. ولما علم الحق هذا أمر عباده بالتخلق بمكارم الأخلاق وأثنى عليهم بها وجعل ذلك من أعظم أعمال العباد فظهروا بها عن الأمر الإلهيّ فكان بسطهم عبادة وقربة إلى الله، وهذا من نشر رحمته واتساع مغفرته وعموم تفضله، فبسط العباد بسط عن قبض وبسط الحق لا عن قبض بل له البسط ابتداء، ثم بعد ذلك يكون القبض الإلهيّ وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَت غَضَبَهُ**» فمن رحمته وبسطه أوجد الخلق، ولا يكون حكم القبض والبسط إلاّ مع ثبوت الأغيار، ولولا الأغيار لم يتحقق بسط ولا قبض فتحقق ذلك.

واعلم أن أعظم بسط العبد أن يكون خلاقاً، فإن تأدّب في هذا البسط فهو المذكور الداخل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فأضاف الحسن إلى الخالقين غير أن الله أحسن الخالقين إذ كان هذا النعت من خصوص وصف الإله لأنه قال تعالىٰ في الردّ على عبدة الأوثان: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] فنفى الخلق عن الخلق فلو لم يرد عموم نفي الخلق عن الخلق لم تقم به حجة على من عبد فرعون وأمثاله ممّن أمر من المخلوقين أن يعبد من دون الله، ولم يكن هؤلاء ممّن يدخل في عموم الخالقين من قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فإنهم لم يتصفوا بالإحسان

في الخلق فإن الإحسان في العباد أن تعبد الله كأنك تراه فتعلم من هو الخالق على الحقيقة، فلما كان هذا النعت من خصوص وصف الإله وقد أضاف الخلق إلى الخلق انفرد هو بالنظر إلى ما أثبت من الخلق للخلق بالأحسن في ذلك فقال: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وهو معنى قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ والبركة الزيادة فزاد أحسن في قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وما أحسن قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٥٨، ٥٩] ولم يقل أأنتم تخلقون منه ولا فيه وإنما قال تخلقونه فأراد عين إيجاده منياً خاصاً، والاسم المصوّر هو الذي يتولى فتح الصورة فيه أي صورة شاء من الجنس أو غيره وهو قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٨] فهو الاسم المصوّر، وهنا أسرار من علوم الطبيعة لما جعل الله فيها من الاشتراك في التكوين فهل هي سبب من جملة الأسباب التي تفعل لعينها بذاتها فيكون الحق يفعل بها لا عندها، أو تكون من الأسباب التي يفعل الحق مسببها عندها لا بها ويتفاوت هنا نظر النظار، وأمّا أهل الكشف فيعلمون ذلك ابتداء عند الكشف من غير نظر لعلمهم بمرتبة الطبيعة، وأن منزلتها منزلة جميع الحقائق والحقائق لا تتبدّل، فيجرونها مجراها وينزلونها منزلتها، فبسط العلماء بالله هو عين العلم بالله، فإذا علموا علموا من انبسط ومن له البسط وعلموا من انقبض ومن له القبض فيبقى عندهم كل أمر على أصله وحقيقته لا تبديل عندهم في ذلك ولا تحويل لأنهم على سنة الله ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: الآية ٤٣] فأهل سنة الله لهم البسط المحقق لأن البسط نشر والنشر ظهور، ولولا الظهور ما أدركت الأشياء: [الوافر]

فَبَسْطُ العارفين على يَقينِ ... وبَسْطُ الخَلْقِ تَخمينٌ وحَدْسُ

إذا خشعت الأصوات للرحمن فكيف يكون الحال مع الجبار؟ [الطويل]

خُشُوعَ حياءٍ لا خُشُوعَ مَهانةٍ ... وهَيْبَةَ إجلالٍ وقَبْضَ تَأَدُّبِ

قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: الآية ١٠٨] حكم اقتضاه الموطن.

واعلم أيها الوليّ الحميم أن الخلق كان في قبض الحق للحق، فلما انبسط ظهر للعالم، قال الله تعالىٰ لآدم ويداه مقبوضتان: يا آدم اختر أيتهما شئت، فقال آدم: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة فبسطها فإذا فيها آدم وذريته، ولو فتح الأخرى لكان فيها سائر العالم، فانظر إلى كون الإنسان في اليمين الحق إذ علم آدم أن بين اليدين فرقاناً ولذلك قال أدباً: وكلتا يدي ربي يمين مباركة، فاختار القوّة نظراً إلى نفسه لما علم أنه على الصورة وأنه خليفة فعلم أن القوّة له فاختار الأقوى بأدب، ولما كان الخلق مطوياً في الحق لم ير نفسه وهو مشهود لله، فلما كان البسط الإلهيّ ظهر العالم لنفسه فرأى نفسه ورأى من كان في قبضته عن شهود نفسه فعلم من أين صدر وكيف صدر وما علم هل له رجوع أم لا؟ فقيل له: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٤] وعلم أن الرجوع إنما هو ردّ إلى الأصل وقد علم أصل الوجود فعلم إلى أين يرجع، وقد كان في الأصل لا

يعلم نفسه، فعلم أنه يرجع إلى منزله لا بعلم نفسه مع ظهور عينه كما لم يشهد نفسه إذ كان في قبضة موجده، فيكون مآل العارفين ورجوعهم مع ثبوت عينهم إلى أن الحق عينهم لا هم، وهذا مقام لا يكون إلاّ للعارفين فهم مقبوضون في حال بسطهم، ولا يصحّ لعارف قط أن يكون مقبوضاً في غير بسط ولا مبسوطاً في غير قبض وما سوى العارف إذا كان في حال قبض لا يكون له حال بسط، وإذا كان في حال بسط لا يكون له حال قبض، فالعارف لا يعرف إلاّ بجمعه بين الضدين فإنه حق كله كما قال أبو سعيد الخرّاز وقد قيل له: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين لأنه شاهد جمعهما في نفسه، وقد علم أنه على صورته وسمعه يقول: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] وبهذه الآية احتجّ في ذلك، ثم نظر إلى العالم فرآه إنساناً كبيراً في الجرم ورآه قد جمع بين الضدين، فإنه رأى فيه الحركة والسكون والاجتماع والإفتراق، ورأى فيه الأضداد وهو أيضاً على صورة العالم كما هو على صورة الحق، فانظر ما أعجب هذه اللفظة من أبي سعيد، ولهذا المقام كان يشير ذو النون المصري في مسائله من إيراد الكبير على الصغير وإدخال الواسع في الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، وقد ذكرنا هذه المسألة في معرفة الخيال من باب المعرفة من هذا الكتاب مستوفاة، فبسط العلماء بالله من البسط المنسوب إلى الحق بل هو عين البسط المنسوب إلى الحق لأنهم إليه رجعوا: [المتقارب]

فـلـم يَـكُـنِ الـبَـسْـطُ إلا لـهُ ... فـهُـمْ أهـلُ مَـحْـوٍ وإن أثْـبِـتُـوا

وهذا القدر كافٍ في تحقيق البسط من العلم الإلهيّ.

الباب العشرون ومائتان

في معرفة الفناء وأسراره

[نظم: مجزوء الكامل]

إن الـفَـنَـاءَ أخـو الـعَـدَمْ ... ولـه الـتَّـسَـلْـطُـنُ إن حَـكَـمْ
ثـم الـفـنـاءُ عـن الـفَـنَـا ... ء حِـجـابُ مـا يـنـفـي الـظُّـلَـمْ
هـي لـفْـظَـةٌ مـا تَـحْـتَـهـا ... عَـيْـنٌ ولـكـنْ تُـخْـتَـكَـمْ
هـو عـن كـذا لا غَـيْـرِهِ ... فـبـعَـنْ لـه فـيـنـا قَـدَمْ
فَـشَـبِـيـهُـهُ بـل عَـيْـنُـه ... مـا قِـيـلَ فـي عَـدَمِ الـعَـدَمْ
مـا زال تَـطْـلُـبـه الـرِّجـا ... لُ فَـمَـنْ يـقـوم بـه عُـصِـمْ
فـيـه إذا سُـلْـطـانُـه ... يُـمْـضـيـه تَـخْـصـيـنُ الـحِـكَـمْ

اعلم أن الفناء عند الطائفة يقال بإزاء أمور، فمنهم من قال: إن الفناء فناء المعاصي. ومن قائل: الفناء فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك. وقال بعضهم: الفناء فناء عن الخلق وهو عندهم على طبقات منها الفناء عن الفناء وأوصله بعضهم إلى سبع طبقات، فاعلموا أيّدنا الله وإياكم بروح القدس أن الفناء لا يكون إلاّ عن كذا، كما أن البقاء لا يكون إلاّ بكذا ومع

كذا، فعن للفناء لا بدّ منه، ولا يكون الفناء في هذا الطريق عند الطائفة إلاً عن أدنى بأعلى، وأما الفناء عن الأعلى فليس هو اصطلاح القوم وإن كان يصحّ لغة. فأما الطبقة الأولى في الفناء فهي أن تفنى عن المخالفات فلا تخطر لك ببال عصمة وحفظاً إلهياً، ورجال الله هنا على قسمين: القسم الواحد رجال لم يقدر عليهم المعاصي فلا يتصرفون إلاً في مباح وإن ظهرت منهم المخالفات المسماة بالمعاصي شرعاً في الأمة إلاً أن الله وفّق هؤلاء فكانوا ممّن أذنبوا فعلموا أن لهم رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، فقيل لهم على سماع منهم لهذا القول: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وكأهل بدر ففنيت عنهم أحكام المخالفات فما خالفوا، فإنهم ما تصرّفوا إلاً فيما أبيح لهم، فإن الغيرة الإلهية تمنع أن ينتهك المقرّبون عنده حرمة الخطاب الإلهيّ بالتحجير، وهو غير مؤاخذ لهم لما سبقت لهم به العناية في الأزل، فأباح لهم ما هو محجور على الغير، وسائر من ليس له هذا المقام لا علم له بذلك فيحكم عليه بأنه ارتكب المعاصي وهو ليس بعاص بنص كلام الله المبلغ على لسان رسول الله ﷺ، وكأهل البيت حين أذهب عنهم الرجس ولا رجس أرجس من المعاصي وطهرهم تطهيراً وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ وخبر الله صدق وقد سبقت به الإرادة الإلهيّة، فكل ما ينسب إلى أهل البيت ممّا يقدح فيما أخبر الله به عنهم من التطهير وذهاب الرجس، فإنما ينسب إليهم من حيث اعتقاد الذي ينسبه لأنه رجس بالنسبة إليه، وذلك الفعل عينه ارتفع حكم الرجس عنه في حق أهل البيت، فالصورة واحدة فيهما والحكم مختلف.

والقسم الآخر رجال اطلعوا على سرّ القدر وتحكمه في الخلائق وعاينوا ما قدر عليهم من جريان الأفعال الصادرة منهم من حيث ما هي أفعال لا من حيث ما هي محكوم عليها بكذا أو كذا، وذلك في حضرة النور الخالص الذي منه يقول أهل الكلام: أفعال الله كلها حسنة ولا فاعل إلاً الله فلا فعل إلاً لله، وتحت هذه الحضرة حضرتان: حضرة السدفة وحضرة الظلمة المحضة، وفي حضرة السدفة ظهر التكليف وتقسمت الكلمة إلى كلمات وتميز الخير من الشر، وحضرة الظلمة هي حضرة الشرّ الذي لا خير معه وهو الشرك والفعل الموجب للخلود في النار وعدم الخروج منها وإن نعم فيها، فلما عاين هؤلاء الرجال من هذا القسم ما عاينوه من حضرة النور بادروا إلى فعل جميع ما علموا أنه يصدر منهم وفنوا عن الأحكام الموجبة للبعد والقرب، ففعلوا الطاعات ووقعوا في المخالفات، كل ذلك من غير نية لقرب ولا انتهاك حرمة، فهذا فناء غريب أطلعني الله عليه بمدينة فاس ولم أر له ذائقاً مع علمي بأن له رجالاً ولكن لم ألقهم ولا رأيت أحداً منهم، غير أني رأيت حضرة النور وحكم الأمر فيها، غير أنه لم يكن لتلك المشاهدة فينا حكم بل أقامني الله في حضرة السدفة وحفظني وعصمني فلي حكم حضرة النور وإقامتي في السدفة وهو عند القوم أتم من الإقامة في حضرة النور، فهذا معنى قول بعضهم في الفناء أنه فناء المعاصي.

وأما النوع الثاني من الفناء فهو الفناء عن أفعال العباد بقيام الله على ذلك من قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] فيرون الفعل لله من خلف حجب

الأكوان التي هي محل ظهور الأفعال فيها وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢] أي ستره واسع، والأكوان كلها ستره وهو الفاعل من خلف هذا الستر وهم لا يشعرون، والمثبتون من المتكلمين أفعال العباد خلقاً لله يشعرون ولكن لا يشهدون لحجاب الكسب الذي أعمى الله به بصيرتهم كما أعمى بصيرة من يرى الأفعال للخلق حين أوقفه الله مع ما يشاهده ببصره، فهذا لا يشعر وهو المعتزلي، وذلك لا يشهد وهو الأشعري، فالكل على بصره غشاوة.

وأما النوع الثالث فهو الفناء عن صفات المخلوقين بقوله تعالىٰ في الخبر المروي النبوي عنه: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» وكذا جميع صفاته والسمع والبصر وغير ذلك من أعيان الصفات التي للعبد أو الخلق قل كيف شئت، وعرف الحق أن نفسه هي عين صفاتهم لا صفته، فأنت من حيث صفاتك عين الحق لا صفته، ومن حيث ذاتك عينك الثابتة التي اتخذها الله مظهراً أظهر نفسه فيها لنفسه فإنه ما يراه منك إلاَّ بصرك وهو عين نظرك، فما رآه إلاَّ نفسه وأفناك بهذا عن رؤيته فناء حقيقة شهودية معلومة محققة لا يرجع بعد هذا الفناء حالاً إلى حال يثبت لك أن لك صفة محققة ليست عين الحق، وصاحب هذا الفناء دائماً في الدنيا والآخرة لا يتصف في نفسه ولا عند نفسه بشهود ولا كشف ولا رؤية مع كونه يشهد ويكشف ويرى، ويزيد صاحب هذا الفناء على كل مشاهد وراء ومكاشف أنه يرى الحق كما يرى نفسه لأنك رأيته به لا بك، وهذا مشهد عزيز لم أر له بالحال ذائقاً فإنه دقيق، فمن زعم أنه ذاقه ثم رجع بعد ذلك إلى حسّه ونفسه وأثبت لنفسه صفة ليست هي عين الحق التي علمها فليس عنده خبر بما قاله ولا يعرف من شاهد ولا ما شاهد، ثم إن صاحب هذا الفناء مهما فرق بين صفاته في حال الفناء فرأى غير ما سمع، وسمع غير ما سعى، وسعى غير ما شمّ وطعم ،وطعم غير ما علم، وعلم غير ما قدر وميّز وفرّق بين هذه النسب وادّعى أنه صاحب هذا النوع من الفناء فليس هو، وإذا توحدت عنده العين فسمع بما به رأى بما به تكلم بما به علم وسعى وشمّ وطعم وأحسّ ولم يختلف عليه الإدراك باختلاف الحكم فهو صاحب هذا الفناء ذوقاً صحيح الحال.

وأما النوع الرابع من الفناء فهو الفناء عن ذاتك، وتحقيق ذلك أن تعلم أن ذاتك مركبة من لطيف وكثيف، وأن لكل ذات منك حقيقة وأحوالاً تخالف بها الأخرى، وأن لطيفتك متنوّعة الصور مع الآنات في كل حال، وأن هيكلك ثابت على صورة واحدة وإن اختلفت عليه الأعراض، فإذا فنيت عن ذاتك بمشهودك الذي هو شاهد الحق من الحق وغير الحق ولا تغيب في هذه الحال عن شهود ذاتك فيه فممّا أنت صاحب هذا الفناء، فإن لم تشهد ذاتك في هذا الشهود وشاهدت ما شاهدت فأنت صاحب هذا النوع من الفناء، وإنما قلنا شاهدت ما شاهدت ولم نخصص شهود الحق وحده فإن صاحب هذا الفناء قد يكون مشهوده كوناً من الأكوان وهو حال يعصم ذات الإنسان من التأثر، أخبرني الأستاذ النحوي عبد العزيز بن زيدان بمدينة فاس وكان ينكر حال الفناء وكان يختلف إلينا وكانت فيه إنابة، فلما كان ذات

يوم دخل عليّ وهو فارح مسرور فقال لي: يا سيدي الفناء الذي تذكره الصوفية صحيح عندي بالذوق قد شاهدته اليوم، قلت له: كيف؟ قال: ألست تعلم أن أمير المؤمنين دخل اليوم من الأندلس إلى هذه المدينة؟ قلت له: بلى، قال: اعلم أني خرجت أتفرج مع أهل فاس فأقبلت العساكر فلما وصل أمير المؤمنين ونظرت إليه فنيت عن نفسي وعن العسكر وعن جميع ما يحسّه الإنسان وما سمعت دوي الكوسات ولا صوت طبل مع كثرة ذلك ولا البوقات ولا ضجيج الناس ولا رأيت ببصري أحداً من العالم جملة واحدة سوى شخص أمير المؤمنين، ثم إنَّه ما أزاحني أحد عن مكاني ووقفت في طريق الخيل وازدحام الناس وما رأيت نفسي ولا علمت أني ناظر إليه بل فنيت عن ذاتي وعن الحاضرين كلهم بشهودي فيه، ولما انحجب عني ورجعت إلى نفسي أخذتني الخيل وازدحام الناس فأزالوني عن موضعي وما تخلصت من الضيق إلاّ بشدّة، وأدرك سمعي الضجيج وأصوات الكوسات والبوقات فتحققت أن الفناء حق وأنه حال يعصم ذات الفاني من أن يؤثر فيه ما فني عنه، هذا يا أخي فناء في مخلوق فما ظنك بالفناء في الخالق، فإن شاهدت في هذا الفناء تنوّع ذاتك اللطيفة ولم تشاهد معها سواها ففناؤك عنك بك لا بسواك، فأنت فان عن ذاتك ولست فانياً عن ذاتك، فإنك لك بك مشهود من حيث لطيفتك، وإنك لك بك مفقود من حيث هيكلك، فإن شاهدت مركبك في حال هذا الفناء فمشهودك خيال ومثال ما هو عينك ولا غيرك بل حالك في هذا الفناء حال النائم صاحب الرؤيا.

وأمّا النوع الخامس من الفناء وهو فناؤك عن كل العالم بشهودك الحق أو ذاتك، فإن تحققت من تشهد منك علمت أنك شاهدت ما شاهدته بعين حق والحق لا يفنى بمشاهدة نفسه ولا العالم، فلا تفنى في هذه الحال عن العالم وإن لم تعلم من يشهد منك كنت صاحب هذا الحال وفنيت عن رؤية العالم بشهود الحق أو بشهود ذاتك، كما فنيت عن ذاتك بشهود الحق أو بشهود كون من الأكوان، فهذا النوع يقرب من الرابع في الصورة وإن كان يعطي من الفائدة ما لا يعطيه النوع الرابع المتقدّم.

وأما النوع السادس من الفناء فهو أن تفنى عن كل ما سوى الله بالله، ولا بدّ وتفنى في هذا الفناء عن رؤيتك، فلا تعلم أنك في حال شهود حق إذ لا عين لك مشهودة في هذا الحال، وهنا يطرأ غلط لبعض الناس من أهل هذا الشأن وأبينه لك إن شاء الله حتى يتخلص لك المقام، وإن الله ألهمني لهذا البيان، وذلك أن صاحب هذا الحال إذا فني عن كل ما سوى الله بشهود الله فيما يقول فلا يخلو في شهوده ذلك، إما أن يرى الحق في شؤونه أو لا يراه في شؤونه، فإنه لا يزال في شؤون إذ لا غيبة له عن العالم ولا عن أثر فيه، فإن شاهده في شؤونه فما فني عن كل ما سوى الله، وإن شاهده في غير شؤونه بل في غناه عن العالم فهو صحيح الدعوى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وهذا المشهد كان للصدّيق فإنه قال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فأثبت أنه رآه ولا شيء، ثم أقيم في مشهد آخر فرأى صدور الشيء عنه وقد كان رآه ولا شيء، فجعل تلك الرؤية قبل هذا الشهود فقال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فقد أبنت لك الأمر على ما هو عليه.

وأما النوع السابع من الفناء فهو الفناء عن صفات الحق ونسبها، وذلك لا يكون إلاّ بشهود ظهور العالم عن الحق لعين هذا الشخص لذات الحق ونفسه لا لأمر زائد يعقل، ولكن لا من كونه علة كما يراه بعض النظار، ولا يرى الكون معلولاً وإنما يراه حقاً ظاهراً في عين مظهر بصورة استعداد ذلك المظهر في نفسه، فلا يرى للحق أثراً في الكون، فما يكون له دليل على ثبوت نسبة ولا صفة ولا نعت، فيفنيه هذا الشهود عن الأسماء والصفات والنعوت، بل إن حققه يرى أنه محل التأثر حيث أثر فيه استعداد الأعيان الثابتة من أعيان الممكنات، وممّا يحقق هذا كونه تعالىٰ وصف نفسه في كتابه وعلى ألسنة رسله بما وصف به المخلوقات المحدثات. وإما أن تكون هذه الصفات في جنابه حقاً ثم نعتنا بها، وإما أن تكون لنا حقاً ونعت نفسه بها توصلاً لنا، وخبره بها صدق لا كذب وإن كنا نحن فيها الأصل فهو مكتسب، وإن كان هو الأصل فقد كسبنا إياها، وهذه من أغمض نتائج العلم بالله فإنه أضاف إليه نعوت المحدثات كلها بأخبار قديم أزلي، فمنها ما أشار به في أخباره بأنه مكتسب لبعضها مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] ومنها ما ذكره ولم يقيد باكتساب ولا غيره ومن هذا الباب ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] واسألوني أعطكم واستغفروني أغفر لكم ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] وأما قولهم: الفناء عن الفناء فما هو نوع ثامن وإنما هو الفاني إذا لم يعلم في فنائه أنه فان، فذلك الفناء عن الفناء كصاحب الرؤيا الذي لا يعلم أنه في رؤيا، فهو حال تابع في كل نوع يقوم من أنواع الفناء، وحال الفناء لا ينال بتعمّل أي لا يقصد وأدناه درجة حكمه في المتفكر، فإذا استغرق الإنسان الفكر في أمر ما من أمور الدنيا أو في مسألة من العلم فتحدّثه ولا يسمعك وتكون بين يديه ولا يراك وترى في عينه جموداً في تلك الحالة، فإذا عثر على مطلوبه أو طرأ أمر يردّه إلى إحساسه حينئذ يراك ويسمعك، فهذه أدنى درجاته في العالم، وسبب ذلك ضيق المحدث فإنه لا شيء أوسع من حقيقة الإنسان ولا شيء أضيق منها، فأما اتساع القلب فإنه لا يضيق عن شيء ولكن عن شيء واحد، وأما ضيقه فإنه لا يسع خاطرين معاً فإنه أحدي الذات فلا يقبل الكثرة، فهو من حيث هذه الحقيقة في الحكم الإلهيّ في معنى قوله: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وفي الرتبة الأخرى في قوله: فأحببت أن أعرف، وهذا القدر كاف في معرفة هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون ومائتان

في معرفة البقاء وأسراره

[نظم: البسيط]

إذا رأيتَ قيامَ الله جَلَّ على ... كلِّ النفوسِ بما فيها من الأثَرِ

ذاك البقاءُ الذي قال الرجالُ به ... وأنتَ باقٍ به إن كنتَ ذا نَظَرِ

فكُنْ به لا تكُنْ بالفكر مُتَّصفاً فإنما الغَيْرُ مُشْتَقٌّ من الغِيَرِ
وأينَ غَيْرٌ وما في الكون أجْمَعِهِ سوى الوجودِ الذي تَدْعوه بالبَشَرِ
فإنه اسمٌ يَعُمُّ الكونَ أجمَعَه عيناً وعلماً فلا تَخْرُجْ عن الصُّوَرِ

اعلم أن البقاء عند بعض الطائفة بقاء الطاعات كما كان الفناء فناء المعاصي عند صاحب هذا القول، وعند بعضهم البقاء بقاء رؤية العبد قيام الله على كل شيء، وهذا قول من قال في الفناء إنه فناء رؤية العبد فعله بقيام الله تعالىٰ على ذلك، وعند بعضهم البقاء بقاء بالحق وهو قول من قال في الفناء إنه فناء عن الخلق.

اعلم أن نسبة البقاء عندنا أشرف في هذا الطريق من نسبة الفناء لأن الفناء عن الأدنى في المنزلة أبداً عند الفاني، والبقاء بالأعلى في المنزلة أبداً عند الباقي، فإن الفناء هو الذي أفناك عن كذا فله القوّة والسلطان فيك، والبقاء نسبتك إلى الحق وإضافتك إليه، أعني البقاء في هذا الطريق عند أهل الله فيما اصطلحوا والفناء نسبتك إلى الكون فإنك تقول: فنيت عن كذا، ونسبتك إلى الحق أعلى فالبقاء في النسبة أولى لأنهما حالان مرتبطان، فلا يبقى في هذا الطريق إلاّ فان ولا يفنى إلاّ باق، والموصوف بالفناء لا يكون إلاّ في حال البقاء، والموصوف بالبقاء لا يكون إلاّ في حال الفناء، ففي نسبة البقاء شهود حق وفي نسبة الفناء شهود خلق لأنك لا تقول: فنيت عن كذا إلاّ مع تعقلك من فنيت عنه، ونفس تعقلك إياه هو نفس شهودك إياه، إذ لا بدّ من إحضاره في نفسك لتعقل حكم الفناء عنه، وكذلك البقاء لا بدّ من شهود من أنت باق به، ولا يكون البقاء في هذا الطريق إلاّ بالحق، فلا بدّ من شهود الحق فإنه لا بدّ من إحضارك إياه في قلبك وتعقلك إياه، فحينئذ تقول: بقيت بالحق، وهذه النسبة أشرف وأعلى لعلوّ المنسوب إليه، فحال البقاء أعلى من حال الفناء وإن تلازما وكانا للشخص في زمان واحد، فلا خفاء عند ذي نظر سليم في الفرق بين النسبتين في الشرف والمنزلة.

شرح هذا المقام يتضمنه شرح باب الفناء: وذلك أن ننظر في كل نوع من أنواع الفناء إلى السبب الذي أفناك عن كذا فهو الذي أنت باق معه هذا جماع هذا الباب، إلاّ أن هنا تحقيقاً لا يكون إلاّ في الفناء، وذلك أن البقاء نسبة لا تزول ولا تحول، حكمه ثابت حقاً وخلقاً وهو نعت إلهيّ، والفناء نسبة تزول وهو نعت كياني لا مدخل له في حضرة الحق، وكل نعت ينسب إلى الجانبين فهو أتم وأعلى من النعت المخصوص بالجانب الكوني إلاّ العبودة فإن نسبتها إلى الكون أتم وأعلى من نسبة الربوبية والسيادة إليه. فإن قلت: فالفناء راجع إلى العبودة ولازم. قلنا: لا يصحّ أن يكون كالعبودة فإن العبودة نعت ثابت لا يرتفع عن الكون، والفناء قد يفنيه عن عبودته وعن نفسه، فحكمه يخالف حكم العبودة، وكل أمر يخرج الشيء عن أصله ويحجبه عن حقيقته فليس بذلك الشرف عند الطائفة فإنه أعطاك الأمر على خلاف ما هو به فألحقك بالجاهلين، والبقاء حال العبد الثابت الذي لا يزول فإنه من المحال عدم عينه الثابتة، كما أنه من المحال اتصاف عينه بأنه عين الوجود بل الوجود نعته بعد أن لم تكن، وإنما قلنا هذا لأن الحق هو الوجود ولا يلزم أن تكون الصفة عين الموصوف بل هو

محال والعبد باقي العين في ثبوته ثابت الوجود في عبودته دائم الحكم في ذلك ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فنحن عنده وهو عندنا، فالحق النفاد والبقاء بمن ألحقته هذه الآية والنفاد فناء والبقاء نعت الوجود من حيث جوهره، والفناء نعت العرض من حيث ذاته، بل نعت سائر المقولات ما عدا الجوهر، وقد أومأنا إلى ما فيه غنية لمن كان له قلب أو ألقى السمع لخطاب الحق وهو شهيد.

الباب الثاني والعشرون ومائتان
في معرفة الجمع وأسراره

[نظم: البسيط]

إذا سَمِعتَ بحقٍّ أو نظرتَ به ... فهو السَّميعُ البصيرُ الواحدُ الأَحَدُ
وأنتَ لا فيه والأعيانُ قائمةٌ ... والنفسُ والعقلُ والأرواحُ والجَسَدُ
فإن أخذتَ بجَمْعِ الجَمْعِ تَصْحَبُه ... به فأنتَ هناك السَّيدُ الصَّمَدُ
وإن علمتَ بهذا واتَّصَفْتَ به ... حالاً عليك جميعُ الأمرِ يَنْعَقِدُ

اعلم أن الجمع عند بعض الطائفة إشارة من أشار إلى حق بلا خلق، وقال أبو علي الدقاق: الجمع ما سلب عنك، وقالت طائفة منهم: الجمع ما أشهدك الحق من فعله بك حقيقة. وقال قوم: الجمع مشاهدة المعرفة وحجته ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] وقال بعضهم: الجمع إثبات الخلق قائماً بالحق، وجمع الجمع الفناء عن مشاهدة كل شيء سوى الحق. وقال بعضهم: الجمع شهود الأغيار بالله وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله عند غلبات الحقيقة. وقال بعضهم: الجمع مشاهدة تصريف الحق الكل، ومن نظم القوم في الجمع والفرق: [المتقارب]

جمعتُ وفرَّقتُ عني به ... ففَرْطُ التَّواصُلِ مَثْنَى العَدَدْ

فهذا قد ذكرنا بعض ما وصل إلينا من قولهم في الجمع وجمع الجمع، والجمع عندنا أن تجمع ما له عليه ممّا وصفت به نفسك من نعوته وأسمائه، وتجمع ما لك عليك ممّا وصف الحق به نفسه من نعوتك وأسمائك، فتكون أنت أنت، وهو هو، وجمع الجمع أن تجمع ماله عليه وما لك عليه وترجع الكل إليه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٣] فما في الكون إلاّ أسماؤه ونعوته، غير أن الخلق ادعوا بعض تلك الأسماء والنعوت ومشى الحق دعواهم في ذلك فخاطبهم بحسب ما ادعوه، فمنهم من ادعى في الأسماء المخصوصة به تعالي في العرف. ومنهم من ادعى في ذلك وفي النعوت الواردة في الشرع ممّا لا يليق عند علماء الرسوم إلاّ بالمحدثات. وأما طريقنا فما ادعينا في شيء من ذلك كله بل جمعناها عليه، غير أنا نبهنا أن تلك الأسماء حكم آثار استعداد أعيان الممكنات فيه وهو سرّ خفي لا يعرفه إلاّ من عرف أن الله هو عين الوجود،

وأن أعيان الممكنات على حالها ما تغير عليها وصف في عينها، ويكفي العاقل السليم العقل قولهم الجمع فإنه لفظ مؤذن بالكثرة والتمييز بين الأعيان الكثيرة، فمن حيث التمييز كان الجمع عين التفرقة وليست التفرقة عين الجمع إلاً تفرقة أشخاص الأمثال فإنه جمع وتفرقة معاً، وأن الحد والحقيقة بجمع الأمثال كالإنسانية، وأشخاص ذلك النوع يتصفون بالتفرقة، فزيد ليس بعمرو، وإن كان كل واحد منهما إنساناً، وهكذا جميع الأمثال وأشخاص النوع الواحد. قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على وجوه كثيرة قد علم الله ما يؤول إليه قول كل متأول في هذه الآية وأعلاها قولاً أي ليس في الوجود شيء يماثل الحق أو هو مثل للحق، إذ الوجود ليس غير عين الحق فما في الوجود شيء سواه يكون مثلاً له أو خلافاً هذا ما لا يتصور، فإن قلت: فهذه الكثرة المشهودة. قلنا: هي نسب أحكام استعدادات الممكنات في عين الوجود الحق، والنسب ليست أعياناً ولا أشياء، وإنما هي أمور عدمية بالنظر إلى حقائق النسب، فإذا لم يكن في الوجود شيء سواه فليس مثله شيء لأنه ليس ثم، فافهم وتحقق ما أشرنا إليه، فإن أعيان الممكنات ما استفادت إلاً الوجود، والوجود ليس غير عين الحق لأنه يستحيل أن يكون أمراً زائداً ليس الحق لما يعطيه الدليل الواضح، فما ظهر في الوجود بالوجود إلاً الحق، فالوجود الحق وهو واحد، فليس ثم شيء هو له مثل لأنه لا يصحّ أن يكون ثم وجودان مختلفان أو متماثلان، فالجمع على الحقيقة كما قررناه أن تجمع الوجود عليه فيكون هو عين الوجود، وتجمع حكم ما ظهر من العدد والتفرقة على أعيان الممكنات أنها عين استعداداتها، فإذا علمت هذا فقد علمت معنى الجمع وجمع الجمع ووجود الكثرة، وألحقت الأمور بأصولها وميزت بين الحقائق، وأعطيت كل شيء حكمه كما أعطى الحق كل شيء خلقه، فإن لم تفهم الجمع كما ذكرناه فما عندك خبر منه.

وأما إشارات الطائفة التي سردناها فإن لهم في ذلك مقاصد أذكرها إن شاء الله مع معرفتهم بما ذهبنا إليه أو معرفة الأكابر منهم. وأما قول من قال منهم إن الجمع حق بلا خلق فهو ما ذهبنا إليه أن الحق هو عين الوجود، غير أنه ما تعرّض لما أعطته استعدادات أعيان الممكنات في وجود الحق حتى اتصف بما اتصفت به. وأما قول الدقاق في الجمع إنه ما سلب عنك فإنه يقتضي مقامه أن يريد سلب ما وقعت فيه الدعوى منك وهو له كالتخلق بالأسماء الحسنى ونسبة الأفعال إليك وهي له، هذا يعطيه حال الدقاق لا الكلام، فإنه لو قال غيره هذه الكلمة ربما قالها على أنه يريد بقوله ما سلب عنك عين الوجود فإنه الذي سلب عنك إذ كان عين الوجود. وأما قول الآخر إن الجمع ما أشهدك الحق من فعله بك حقيقة فإنه يريد أنك محل لجريان أفعاله والأمر في الحقيقة بالعكس، بل هو المنعوت بحكم آثار استعدادات أعيان الممكنات فيه، إلاً أن يريد بقوله من فعله بك أي بك ظهر الفعل ولم يتعرض لذكر فيمن ظهر الأثر فقد يمكن أن يريد ذلك وهو ما ذهبنا إليه وما تعطيه الحقائق، فلو علمنا من هو صاحب هذا القول حكمنا عليه بحاله كما حكمنا على الدقاق لمعرفتنا بمقامه وحاله.

وأما قول من قال: الجمع مشاهدة المعرفة، فاعلم أن المعرفة بالله تعطي أن للعبد نسبة إلى العمل صحيحة أثبتها الحق ولذلك كلفه بالأعمال، وللحق تعالىٰ نسبة إلى العمل أثبتها الحق لنفسه وشرع لعبده أن يقول في عمله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وقال موسىٰ كليم الله وأعلم الخلق بالله رسل الله فقال لقومه: استعينوا بالله واصبروا، ولا فرق عندنا بين ما يقوله الله أو يقوله رسول الله من نعت الله في الصحة والنسبة إليه، وقال الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، ثم فصل سبحانه وبين ما يقول العبد ويقول الله فنسب القول إلى العبد نسبة صحيحة والقول عمل وهو طلب العون من الله في عمله ذلك فصحّت المشاركة في العمل، فهذا قد جمعت في العمل بين الله وبين العبد، فهذا معنى الجمع، فقد قررت أن عين العبد مظهر بفتح الهاء، وأن الظاهر هو عين الحق، وأن الحق أيضاً عين صفة العبد، وبالصفة وجد العمل والظاهر هو العامل، فإذاً ليس العمل إلاّ لله خاصة، قلنا: وعندما قررنا ما ذكرته قررنا أيضاً أن عين العبد لها استعداد خاص مؤثر في الظاهر وهو الذي أدّى إلى اختلاف الصور في الظاهر الذي هو عين الحق، فذلك الاستعداد جعل الظاهر أن يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يخاطب ذلك الظاهر بأثر استعداد هذا العين المصلية حكم الاسم المعين أن يعينه على عمله، فإن عين الممكن إذا كان استعداده يعطي عجزاً وضعفاً ظهر حكمه في الظاهر، فقول الظاهر هو لسان عين الممكن بل قول الممكن بلسان الظاهر كما أخبر الحق أنه قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فأعطت المعرفة أن تجمع العمل على عامله لما وقع في ذلك من الدعاوي بما قد ذهب إليه أصحاب النظر القائلين بإضافة الأفعال إلى العباد مجردة، والقائلين بإضافة الأفعال إلى الله مجردة، والحق بين الطائفتين أي بين القولين، فللعبد إلى العمل نسبة على صورة ما قررناها من أثر استعداد عين الممكن في الظاهر، وللحق نسبة إلى العمل على صورة ما قررناه من قبول الظاهر لتأثير العين فيه، فإن العبد قال على لسان أثره في الظاهر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا مذهبنا في الجمع، فإن كان صاحب القول في الجمع أراد أنه مشاهدة المعرفة ويعرف معنى مشاهدة المعرفة فهو على ما قلناه، فنحن إنما تكلمنا على معنى مشاهدة المعرفة لا على مقام قائلها، إذ لهذه اللفظة وجوه نازلة عمّا ذهبنا إليه في شرحها فشرحناها على أتم الوجوه وأكملها، وهو الذي الأمر عليه في نفسه، ومن أجل بعض تلك الوجوه اعترضنا على قائل هذه اللفظة في مختصر هذا الكتاب، وإلى ما قررناه وذهبنا إليه في الجمع ترجع أقوال الجماعة التي ذكرناها وحكيناها في أوّل الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون ومائتان

في معرفة حال التفرقة

[نظم: البسيط]

إذا جَمَعْتَ فقد أثبتَّ تَفْرِقَةً ... كما تحقَّقْتَ قرآناً وفُرْقَانَا

والعينُ واحدةٌ والحكمُ مختلفٌ ... وقد أقمتُ على ما قُلْتُ بُرْهَانَا

فالجَمْعُ والفَرْقُ حالٌ ناقصٌ أبداً فاعدلْ وكُنْ واحداً إن كنتَ إنسانَا
والزَمْ طريقةَ جبريلٍ وصاحبِه إذ قرَّرا لك إسلاماً وإيمانَا
وثمَّ جاء بما قد صَحَّ بعدهما فقرَّرا لك إحساناً وإحسانَا
فتلك أربعةٌ لا خامس لها سوى المؤيّدِ جلَّ الحقُّ سُبْحَانَا

اعلم أن التفرقة عند بعض القوم إشارة من أشار إلى خلق بلا حق، وعند أبي عليّ الدقاق: الفرق ما ينسب إليك، وعند بعضهم: الفرق ما أشهدك الحق من أفعالك أدباً، وعند بعضهم: الفرق مشاهدة العبودية، وقيل: الفرق إثبات الخلق، وقيل: التفرقة شهود الأغيار لله، وقيل: التفرقة مشاهدة تنوّع الخلق في أحوالهم، ومستند مقام التفرقة من العلم الإلهيّ نعت الحق ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وهو انقضاء المدة التي سبق في علم الله مقدارها وهو زمان الحياة الدنيا في كل شخص شخص.

واعلم أن أصل الأشياء كلها التفرقة وأوّل ما ظهرت في الأسماء الإلهيّة فتفرّقت أحكامها بتفرّق معانيها، حتى لو نظر الإنسان فيها من حيث دلالتها كلها على العين مع الفرقان المعلوم بين معانيها التي يعقل فيها من أنه سميت هذه العين بكذا لكذا، ولا سيما إذا كانت الأسماء تجري مجرى النعوت على طريق المدح والتفرقة أظهر، وبالتفرقة تعرف إلينا سبحانه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧] ففرّق بين من يخلق ومن لا يخلق، وحدود الأشياء أظهرته التفرقة بين الأشياء، وبالتفرقة ظهرت المقامات والأحوال وكثرت مراتب الخلق وتميزت بها، فللّه ثمانون عبداً حققهم بحقائق الإيمان، ولله مائة عبد حققهم بحقائق النسب الإلهيّة والأسماء، ولله ستة آلاف عبد ويزيدون حققهم بحقائق النبوّة المحمدية، ولله ثلاثمائة عبد حققهم بحقائق الأخلاق الإلهيّة، ففرّق عزّ وجلّ بين عباده بالمراتب وعين الجمع هو عين التفرقة إذ هو دليل على الكثرة، وإنما سمّي جمعاً من أجل العين الواحدة التي تجمع هذه التفرقة. فقول من قال في التفرقة إنها إشارة من أشار إلى خلق بلا حق، فمشهوده ما أعطته الحدود، والحدود لم يكن لها ظهور إلاّ في الخلق، إذ كان الحق لا يعرف لأنه الغنيّ عن العالمين، أي هو المنزّه عن أن تدل عليه علامة، فهو المعروف بغير حدّ المجهول بالحدّ والحدود، أظهرت التفرقة بين الخلق، وكل إنسان من أهل الذوق لا يتعدى في أخباره منزلة شهوده وذوقه لأنهم أهل صدق لا يخبرون أبداً إلاّ عن شهود لا عن خبر.

وأما قول الدقاق: الفرق ما نسبت إليك، فهو ما ذكرناه، فإنه ما نسب إليك إلاّ الحدود إذ الحق لا ينسب إليه حد، وجميع ما ينسب إلى العبد فمآله إلى الفناء والعدم، وما ينسب إلى الحق فمآله إلى البقاء والوجود، فكن ممّن ينسب إلى الحق ولا ينسب إلى الخلق وهو معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ فوصف بالنفاد ما نسبه إلينا وما لفظة تدل على كل شيء كذا قاله سيبويه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فمن كان عند الله منا صحّ له البقاء، ومن كان عند الخلق صحّ له النفاد. ألا ترى من هو عبد لغير الله من المماليك إذا جاء الموت ارتفع

الملك إذا كان للسيد عليه فنفد، فكل ما نسب إلى المخلوق فإنه ينفد بالموت أو بالشهادة، وكل ما ينفد فقد فارق من كان عنده، وهذا لا يوجد في الحق فإنه لا يفارقه شيء لأنه معنا وإليه تصير الأمور، فهذا معنى قوله: الفرق ما ينسب إليك.

وأما قول من قال: الفرق ما أشهدك الحق من أفعالك أدباً، يشير إلى الأفعال التي لا يعطي الأدب أن تنسب إلى الله، وإن كانت من الله لا إلى الأفعال التي تنسب إلى الله أدباً وحقيقة، وأفعال العباد لا بقاء لها عند العبد سوى زمان وجودها خاصة، وتزول عنه في الزمان الذي يلي زمان وجودها، فهذا معنى قول الدقاق فاجتمعا في المعنى، غير أن هذا القائل خصّص بعض الأفعال بقوله أدباً، فإذا نسبت أعيان هذه الأفعال إلى الله اتصفت بالبقاء لا لأعيانها بل لكونها مشهودة لله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ كما يبقى الفعل عندك ما دام مشهوداً لك، فإذا لم تشهده زال عينه عن شهودك ولهذا قال: ما أشهدك الحق من أفعالك ولم يتعرض لما يشهدك كما أنه لم يتعرض إلى المحمود من أفعالك مع كونه ينسب إليك فقال أدباً.

وأمّا قول من قال: الفرق مشاهدة العبودية فإنه نسب العبد إلى الصفة القائمة به ولا ينبغي أن تنسب إلاّ إلى الله، والعبودية صفة للعبد، فمن شاهد عبوديته كان لمن شاهد، ولهذا ينسب عباد الله إلى العبودة لا إلى العبودية، فهم عبيد الله من غير نسبة بخلاف نسبتهم إلى العبودية فإن الحق لا يقبل نسبة العبودية لأنه عين صفة العبد لا عين العبد، فمن شاهد العبودية فلم يشاهد كونه عبد الله ففرّق بين ما ينسب إلى الصفة وبين ما يضاف إلى الله، قال أهل اللسان: رجل بين الخصوصية والخصوصة، وبين العبودية والعبودة، والعبودية نسبة إليها، والعبودة نسبة إلى السيد.

وأما قول من قال: الفرق إثبات الخلق فهو كما تقدم في معنى قولهم إشارة إلى خلق بلا حق غير أن بينهما فرقاناً فإنه قال إثبات الخلق ولم يقل وجود الخلق، لأن عين وجود الخلق عين وجود الحق والخلق من حيث عينه هو ثابت وثبوته لنفسه أزلاً، واتصافه بالوجود أمر حادث طرأ عليه قد عرفناك بما يعقل من هذه اللفظة، فقوله: إثبات الخلق، أي في الأزل وقع الفرق بين الله والخلق، فليس الحق هو عين الأعيان الثابتة، بخلاف حال اتصافها بالوجود فهو تعالىٰ عين الموصوف بالوجود لا هي، فلهذا قال هذا القائل في الفرق أنه إثبات الخلق.

وأما قول من قال: إن الفرق شهود لأغيار اللّه، أراد من أجل الله فهذه لام العلة، فيشاهد في عين وجود الحق أحكام الأعيان الثابتة فيه فلا يظهر إلاّ بحكمها، ولهذا ظهرت الحدود وتميزت مراتب الأعيان في وجود الحق فقيل: أملاك، وأفلاك، وعناصر، ومولدات، وأجناس، وأنواع، وأشخاص، وعين الوجود واحد والأحكام مختلفة لاختلاف الأعيان الثابتة التي هي أغيار بلا شك في الثبوت لا في الوجود فافهم.

وأما قول من قال: التفرقة شهود تنوّعهم في أحوالهم، يريد ظهور أحكامهم في وجود الحق فإنها متنوّعة والحق لا يقبل التنوّع، فثبت أن ذلك حكم الأعيان، والمشهود لهذا العبد التنوّع فالمشهود له الأعيان ففرّق بينها وبين الوجود. وأما قول من قال في التفرقة: [المتقارب]

جـمـعـتُ وفـرَّقـتُ عَـنِّـي بـه فَـفَـرْطُ الـتَّـوَاصُـلِ مَـثْـنَـى الـعَـدَدْ

فإنه أراد ظهور الواحد في مراتب الأعداد، فظهرت أعيان الاثنين والثلاثة والأربعة إلى ما لا يتناهى بظهور الواحد، وهذه غاية الوصلة أن يكون الشيء عين ما ظهر، ولا يعرف أنه هو كما رأيت النبي ﷺ في المنام وقد عانق أبا محمد بن حزم المحدث فغاب الواحد في الآخر فلم نر إلاّ واحداً وهو رسول الله ﷺ، فهذه غاية الوصلة وهو المعبر عنه بالاتحاد أي الاثنين عين للواحد ما في الوجود أمر زائد، كما أن زيداً هو عين عمرو، بل عين أشخاص هذا النوع الإنسانيّ في الإنسانية، فهو هو من حيث الإنسانية وليس هو هو من حيث الشخصية، فانعطاف الواحد بنفسه على مرتبة الاثنين هو عين ظهور الاثنين وما ثم سوى عين الواحد وهكذا ما بقي من الأعداد التي لا تتناهى، فتحقق معنى التفرقة إن كنت ذا لب سليم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والعشرون ومائتان

في معرفة عين التحكم

عين التحكم عند القوم التصرف لإظهار الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء، وهذا ضرب من الشطح وقريب منه لما يتوهم من دخول النفس فيه إلاّ أن يكون عن أمر إلهيّ فلا مؤاخذة على صاحبه فيه: [الكامل]

مـهـمـا تـحـكَّـمَ عـارفٌ فـي خَـلْـقـه عـن غـيـر أَمْـرٍ فـالـرُّعُـونَـةُ قـائـمَـهْ
تَـرْكُ الـتَّـحَـكُّـم نَـعْـتُ كـل مـحـقِّـق لـزمَ الـحـيـاءَ ولـو أتَـتْـهُ راغِـمَـهْ
مـا لـلـرجـال الـصـمِّ أعـيـانِ الـوَرَى الـمُـصْـطَـفـيـن لـه نـفـوسٌ حـاكـمَـهْ
بـل هـم عـبـيـدٌ لـم يـزالـوا خُـشَّـعـاً فـي كـل حـالٍ فـالـشـهـادةُ دائـمَـهْ
إن الـتَّـحَـكُّـمَ فـي الـحـجـاب مـقـامُـهُ خلفَ الستور المُرْسَلاتِ المُظْلمَهْ

فإذا كان عن أمر إلهيّ بتعريف فالإنسان فيه عبد ممتثل أمر سيده بطريق الوجوب، فإن عرض عليه عين التحكم من غير أمر عرض الأمانة وقبله فليس هناك بل مرتبته مرتبته في قبول الأمانة المعروضة التي قال الله فيمن حملها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] ظلوماً لنفسه جهولاً بقدر ما تحمل لأنه جهل ما في علم الله فيه، هل هو ممّا يؤدّي الأمانة إلى أهلها أم لا؟ فعين التحكّم مخصوص بالرسل في إظهار المعجزات والتحدّي بها عن الأمر الإلهيّ فإنهم مرسلون بالدلالات على أنهم رسل الله، فهم مخبرون بالحال أنهم المصطفون الأخيار لا بالقصد، ثم قد يقع منهم بعد ثبوت الرسالة قول خارج عن مقتضى الدلالة، ولا يكون منهم إلاّ عن أمر إلهيّ يؤذن ذلك القول بمرتبة القائل عند الله مثل قوله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فلما كان في قوّة هذا اللفظ إظهار الخصوصية عند الله ومن هو مشغول بالله ما عنده فراغ لمثل هذا، ومن شغل أهل الله بالله امتثال أمر الله فأخبر عليه السلام حين عمّ فقال: «**ولا فَخْرَ**» أي ما قصدت الفخر، أي هكذا أمرت أن أعرفكم، فإن العارف كيف يفتخر

والمعرفة تمنعه ومشاهدة الحق تشغله، ولا يظهر مثل هذا ممّن ليس بمأمور به إلاّ عن رعونة نفس أو فناء لغلبة حال يستغفر الله من ذلك إذا فارقه ذلك الحال الذي أفناه، وقد يظهر مثل هذا من صاحب الغيرة خاصة وهو مذهب شيخنا أبي مدين وقد ظهر منه مثل ذلك من باب الغيرة، فلا يدل على إظهار الخصوصية وذلك بأن يرى الإنسان دعوة الرسل تردّ ويتوقف في تصديقها، ولا سيما عند من ينفي النبوّة التي نثبتها فيقوم هذا العبد مقام وجود الرسول فيدعي ما يدعيه الرسول من إقامة الدلالة على صدق الرسول في رسالته نيابة عنه، فيأتي بالأمر المعجز على طريق التحدي للرسول لا لنفسه فيظهر منه ذلك، وهذا لا يدل على مقام الخصوصية عند الله فهو خارج عن عين التحكم وليس بخارج من حيث ما هو تحكيم لكنه خارج من حيث ما هو تحكيم خاص، وقد يكون عين التحكيم في رجل يكون له مقام الإدلال مع الحق، ويكون عنده تعريف إلهيّ بمقامه المعلوم كالملائكة في قوله تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤ ـ ١٦٦] فأثنوا على أنفسهم بعد معرفتهم وتعريفهم بمقامهم، فلا ينقصهم هذا الثناء ولا يحط مرتبتهم، وإذا لم يؤثر عين التحكيم في المقام فلا بأس به وتركه أعلى لأنه على كل حال فراغ، وما وقع مثل هذا من جبريل إلاّ لكونه معلماً رسول الله صلوات الله عليهما، والمعلم ينبّه التلميذ بمرتبته لتعلو همته ليلحق بمعلمه، ومنهم من يبلغ في التحكيم أن يقسم على الله في أمر فيبر الحق قسمه ومع هذا يستغفر الله، فلولا أن فيه رائحة ما استغفر. والحكايات في التحكيم عن الصالحين كثيرة ولا سيما ما يحكى عن عبد القادر الجيلي رحمه الله كان ببغداد أدركناه بالسنّ، وكالذي سجد وحلف أن لا يرفع رأسه من سجدته حتى ينزل الغيث فأبر الله قسمه، وكالذي وقف على رأس بئر وقد عطش ولم يكن له حبل ولا ركوة فقال: لئن لم تسقني لأغضبن ففاض الماء على فم البئر فسئل على من تغضب؟ فقال: على نفسي فأمنعها الماء. وأما عين التحكيم عندنا فأمر هين في شهود المعرفة فإن التحكيم للظاهر في المظهر فما تحكم إلاّ من له التحكم، فمهما ظهر الظاهر به دلّ على أن استعداد المظهر أعطى هذا فيفرّق بينه وبين ما يعطيه مظهر آخر من عدم التحكيم، وهذه طريقة انفردنا بإظهارها في الوجود لأنها تقرّب على أهل الله مأخذ الأمور ولا تستعظم شيئاً ممّا ظهر فإنه ما ظهر إلاّ ممّن له الأمر من قبل ومن بعد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون ومائتان

في معرفة الزوائد

اعلم أن الزوائد في اصطلاح الصوفية من أهل الله تعالىٰ زيادات الإيمان بالغيب واليقين: [الوافر]

إذا ما أُنزلتْ بالنور سُورَهْ ... يزيد المؤمنون بها سُرورَا

فعلْمُ الغيبِ أنْفَسُ كلِّ علمٍ ... وكان العلمُ أجْمَعُه حُضُورَا

وإدراكُ الغيوبِ بلا دليلٍ سوى الرحمنِ لا يُعطي ثُبُورَا
وما للغيبِ عند الحقِّ عينٌ ولو جلَّى لك الاسمَ الخبيرَا
لقد حجبَ العبادَ وكلَّ عقلٍ بحتى نعلَمَ الجلْدَ الصَّبُورَا

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤، ١٢٥] فلا بدّ من الزوائد في الفريقين وهي الشؤون التي الحق عليها وفيها في كل يوم أي في كل نفس الذي هو أصغر الأيام، غير أن الزوائد التي اصطلح عليها أهل الله هي ما تعطي من ذلك سعادة خاصة وعلماً بغيب يزيده يقيناً مثل قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] يقول: بلى آمنت ولكن وجوه الأحياء كثيرة متنوّعة، كما كان وجود الخلق، فمن الخلق من أوجدته عن ﴿كُن﴾ ومنهم من أوجدته بيدك، ومنهم من أوجدته بيديك، ومنهم من أوجدته ابتداء، ومنهم من أوجدته عن خلق آخر، فتنوّع وجود الخلق وإحياء الخلق بعد الموت إنما هو وجود آخر في الآخرة فقد يتنوّع وقد يتوحد، فطلبت العلم بكيفية الأمر هل هو متنوّع أو واحد؟ فإن كان واحداً فأيّ واحد هو من هذه الأنواع؟ فإذا أعلمتني به اطمأنّ قلبي وسكن بحصول ذلك الوجه والزيادة من العلم ممّا أمرت بها قال تعالىٰ آمراً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فأحاله على الكيفية بالطيور الأربعة التي هي مثال الطبائع الأربع إخباراً بأن وجود الآخرة طبيعيّ يعني حشر الأجساد الطبيعية، إذ كان ثم من يقول: لا تحشر الأجسام وإنما تحشر النفوس بالموت إلى النفس الكلية مجرّدة عن الهياكل الطبيعية، فأخبر الله إبراهيم أن الأمر ليس كما زعم هؤلاء فأحاله على أمر موجود عنده تصرّف فيه إعلاماً أن الطبائع لو لم تكن مشهودة معلومة مميزة عند الله لم تتميز، فما أوجد العالم الطبيعي إلاّ من شيء معلوم عنده مشهود له نافذ التصرف فيه، فجمع بعضها إلى بعض فأظهر الجسم على هذا الشكل الخاص، فأبان لإبراهيم بإحالته على الأطيار الأربعة وجود الأمر الذي فعله الحق في إيجاد الأجسام الطبيعية والعنصرية، إذ ما ثم جسم إلاّ طبيعي أو عنصري، فأجسام النشأة الآخرة في حق السعداء طبيعية، وأجسام أهل النار عنصرية لا تفتح لهم أبواب السماء، فلو فتحت خرجوا عن العناصر بالترقي.

وأما حشر الأرواح التي يريد أن يعقلها إبراهيم من هذه الدلالة التي أحاله الحق عليها في الطيور الأربعة فهي في الإلهيات كون العالم يفتقر في ظهوره إلى إله قادر على إيجاده، عالم بتفاصيل أمره، مريد إظهار عينه، حيّ لثبوت هذه النسب التي لا تكون إلاّ لحيّ، فهذه أربعة لا بدّ في الإلهيات منها، فإن العالم لا يظهر إلاّ ممّن له هذه الأربعة، فهذه دلالة الطيور له عليه السلام في الإلهيات في العقول والأرواح وما ليس بجسم طبيعي، كما هي دلالة على تربيع الطبيعة لإيجاد الأجسام الطبيعية والعنصرية. ثم قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠]

أي ضمهنّ والضم جمع عن تفرقة وبضم بعضها إلى بعض ظهرت الأجسام ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] وهو ما ذكرناه من الصفات الأربع الإلهيات وهي أجبل لشموخها وثبوتها فإن الجبال أوتاد ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] ولا يدعى إلاّ من يسمع وله عين ثابتة فأقام له الدعاء بها مقام قوله: ﴿كُن﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فزاد يقينه طمأنينة بعلمه بالوجه الخاص من الوجوه الإمكانية ومن الزوائد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] فتزيد علماً لم يكن عندك بعلمك إياه الحق تعالىٰ تشريفاً منحك إياه التقوى، فمن جعل الله وقاية حجبه الله عن رؤية الأسباب بنفسه فرأى الأشياء تصدر من الله، وقد كان هذا العلم مغيباً عنك فأعطاك العلم به زيادة الإيمان بالغيب الذي لو عرض على أغلب العقول لردّته ببراهينها فهذه فائدة هذا الحال. ومن الزوائد أن تعلم أن حكم الأعيان ليس نفس الأعيان، وأن ظهور هذا الحكم في وجود الحق وينسب إلى العبد بنسبة صحيحة وينسب إلى الحق بنسبة صحيحة فزاد الحق من حيث الحكم حكماً لم يكن عليه، وزاد العين إضافة وجود إليه لم تكن يتصف به أزلاً، فانظر ما أعجب حكم الزوائد، ولهذا عمّت الفريقين فزادت السعيد إيماناً وزادت الشقيّ رجساً ومرضاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون ومائتان

في معرفة الإرادة

الإرادة عند القوم لوعة يجدها المريد من أهل هذه الطريقة تحول بينه وبين ما كان عليه ممّا يحجبه عن مقصوده. [نظم: المديد]

لَوْعَةٌ في القلب مُحْرِقَةٌ هي بدءُ الأمر لو عَلِمُوا
فلهذا حنَّ صاحبُها للذي عنه العبادُ عَمُوا
فإذا يبدو لناظِرِهِ يَعْتَريه البَهْتُ والصَّمَمُ
فتراهُ دائماً أبداً بلهيبِ النار يَضْطَلِمُ
كل شيء عنده حَسَنٌ وبهذا كلُّهم حَكَمُوا

والإرادة عند أبي يزيد البسطامي ترك الإرادة وذلك قوله: أريد أن لا أريد، فأراد محو الإرادة من نفسه، وقال هذا القول في حال قيام الإرادة به، ثم تمّم وقال: لأني أنا المراد وأنت المريد، يخاطب الحق، وذلك أنه لما علم أن الإرادة متعلقها العدم والمراد لا بدّ أن يكون معدوماً لا وجود له ورأى أن الممكن عدم، وإن اتصف بالوجود لذلك قال: أنا المراد أي أنا المعدوم وأنت المريد فإن المريد لا يكون إلاّ موجوداً. وأمّا الإرادة عندنا فهي قصد خاص في المعرفة بالله وهي أن تقوم به إرادة العلم بالله من فتوح المكاشفة لا من طريق الدلالة بالبراهين العقلية، فتحصل له المعرفة بالله ذوقاً وتعليماً إلهياً فيما لا يمكن ذوقه وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقالت المشايخ في الإرادة: إنها ترك ما

عليه العادة، وقد تكون عادة زيد ما هي عادة عمرو فيترك عمرو عادته بعادة زيد لأنها ليست عادة له.

ثم اعلم في مذهبنا أنك إذا علمت أن الإرادة متعلقها العدم وعلمت أن العلم بالله مراد للعبد، وعلمت أنه لا يحصل العلم به على ما يعلم الله به نفسه لأحد من المخلوقين مع كون الإرادة من المخلوقين لذلك موجودة، فالإرادة للعبد ما دام في هذا المقام لازمة لازم حكمها وهو التعلّق بالمعدوم والعلم بالله كما قلنا لا يصحّ وجوده، فالعبد حكم الإرادة فيه أتم من كونها فيمن يدرك ما يريد، فليست الإرادة الحقيقية إلاّ ما لا يدرك متعلقها فلا يزال عينها متصفاً بالوجود ما دام متعلقها متصفاً بالعدم، فإن الإرادة إذا وجد مرادها أو ثبت زال حكمها وإذا زال حكمها زال عينها، وينبغي للإرادة فينا أن لا تزول فإن مرادها لا يكون. وأما من يتكوّن عن إرادته ما يريد فلا تصحبه الإرادة وجوداً وإنما بقيت الإرادة هناك لأن متعلقها آحاد الممكنات وآحادها لا تتناهى فوجودها هناك لا يتناهى ولكن يختلف تعلقها باختلاف المرادات. والذي يشير إليه أهل الله في تحقيق الإرادة أنها معنى يقوم بالإنسان يوجب له نهوض القلب في طلب الحق المشروع ليتصف به بالعمل ليرضى الله بذلك فيكون ممّن رضي الله عنهم ورضوا عنه، فصاحب الإرادة يسعى في أن يكون بهذه المثابة، ثم ما زاد على هذا ممّا يناله أهل الله من الفتوح والكشف والشهود وأمثال هذه الأحوال فذلك من الله ليست مطلوبة لصاحب الإرادة التي يقتضيها طريق الله، إنما جلّ إرادتهم أن يكونوا على حال مع الله يرضي الله في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم إيثاراً لجناب الحق لا رغبة في نعيم ينالونه بذلك ولا فراراً من ضده دنيا ولا آخرة بل هم على ما شرع لهم، ولله الأمر فيهم بما يشاء، لا تخطر لهم حظوظ نفوسهم بخاطر، هذا أتم ما توجبه الإرادة في المريد، وإن خطر لهم حظ في ذلك فما خرجوا عن حكم الإرادة، ولكن يكون صاحب الحظ النفسيّ ناقص المقام بالنظر إلى الأوّل مع كونه صاحب إرادة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] مع أن النبوّة موجودة فما زالوا من النبوّة مع فضل بعضهم على بعض.

وأما معنى قول الطائفة في الإرادة أنها لوعة يجدها المريد تحول بينه وبين ما كان عليه ممّا يحجبه عن مقصوده فصحيح، غير أنه ثم أمر تعطيه المعرفة بالله إذا حصل له العلم بالله من طريق الكشف والتعليم الإلهيّ فلا يبقى شيء يتصف به العبد يحجبه عن مقصوده إذا كان مقصوده الحق فهو يشهده في كل عين وفي كل حال ولا ينال هذا المقام إلاّ من رضي الله عنه، ومن علامات صاحب هذا المقام معانقة الأدب إلاّ أن يسلب عنه عقله بهذه المشاهدة فلا يطالب بالأدب كالبهاليل وعقلاء المجانين لأنه طرأ عليهم أمر إلهي ضعفوا عن حمله فذهب بعقولهم في الذاهبين، وحكمهم عند الله حكم من مات على حالة شهود ونعت استقامة وبقي من حالته هذه حكمه حكم الحيوان ينال جميع ما يطلبه حكم طبيعته من أكل وشرب ونكاح وكلام من غير تقييد ولا مطالبة عليه عند الله مع وجود الكشف وبقائه عليهم كما يكشف الحيوان وكل دابة حياة الميت على النعش وهو يخور ويقول سعيدهم: قدموني

قدموني، ويقول الشقيّ: إلى أين تذهبون بي؟ ويشاهدون عذاب القبر ويرون ما لا يراه الثقلان، كذلك هذا الذي ذهب الله بعقله فيه حكمه حكم الحيوان وكل دابة وكما هو الميت على حكم ما مات عليه، كذلك هذا البهلول هو على حكم ما ذهب عنده عقله فهو معدود في الأموات بذهاب عقله، معدود في الأحياء بطبعه، فهو من السعداء الذين رضي الله عنهم كمسعود الحبشيّ وعلي الكردي وجماعة رأيناهم بهذه المثابة بالشام وبالمغرب وهم من عباد الله على مثل هذا الحال نفعنا الله بهم، ومهما ردّ على من هذه حاله عقله وهو في الحياة الدنيا فإنه من حينه يلازم الآداب الشرعية ويعانقها، ومن أبقى عليه عقله كان عند القوم أتم وأعلى. قيل للشيخ أبي السعود بن الشبل: ما تقول في هؤلاء المجانين من أهل الله؟ فقال رضي الله عنه: هم ملاح ولكن العاقل أملح، يشير إلى أن العناية بمن أبقي عليه عقله أتم، فهذا أصل ما يرجع إليه مجموع أقوال أهل الله في الإرادة المصطلح عليها عندهم وإن اختلفت عباراتهم فهم بين أن ينطقوا في ذلك بأمر كليّ أو بأمر جزئيّ بحسب ذوقه، وما يترجح عنده في حاله فإنهم لا يتعدّون في العبارة عن الشيء ما يعطيه ذوقهم ولا يتصنعون ولا يتعملون ولا يأخذون شيئاً في تحقيق ذلك عن فكرهم بل ما يتعدّى نطقهم ذوقهم ووجودهم، فهم أهل صدق وعلم محقق لا تدخله شبهة عندهم، ومن فكر فليس منهم، ويصيب ويخطئ وليس صاحب الفكر بصاحب حال ولا ذوق. وأما أهل الاعتبار فيكون منهم أصحاب أذواق ويعتبرون عن ذوق لا عن فكر، وقد يكون الاعتبار عن فكر فيلتبس على الأجنبيّ بالصورة فيقول في كل واحد أنه معتبر ومن أهل الاعتبار، وما يعلم أن الاعتبار قد يكون عن فكر وعن ذوق.

والاعتبار في أهل الأذواق هو الأصل وفي أهل الأفكار فرع، وصاحب الفكر ليس من أهل الإرادة إلاّ في الموضع الذي يجوز له الفكر فيه إن كان ثم ممّا لا يمكن أن يحصل الأمر المفكر فيه إلاّ به بفتح الكاف فحينئذ يأخذه من بابه، وهل ثم أمر بهذه المثابة لا يمكن أن ينال من طريق الكشف والوجود أم لا؟ فنحن نقول ما ثم ونمنع من الفكر جملة واحدة لأنه يورث صاحبه التلبيس وعدم الصدق، وما ثم شيء إلاّ ويجوز أن ينال العلم به من طريق الكشف والوجود والاشتغال بالفكر حجاب وغيرنا يمنع هذا، ولكن لا يمنعه أحد من أهل طريق الله بل مانعه إنما هو من أهل النظر والاستدلال من علماء الرسوم الذين لا ذوق لهم في الأحوال، فإن كان لهم ذوق في الأحوال كأفلاطون الإلهيّ من الحكماء فذلك نادر في القوم وتجد نفسه يخرج مخرج نفس أهل الكشف والوجود، وما كرهه من كرهه من أهل الإسلام إلاّ لنسبته إلى الفلسفة لجهلهم بمدلول هذه اللفظة والحكماء هم على الحقيقة العلماء بالله وبكل شيء ومنزلة ذلك الشيء المعلوم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٣٠] ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] والحكمة هي علم النبوّة كما قال في داود عليه السلام وأنه ممّن آتاه الله الملك والحكمة فقال: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥١].

والفيلسوف معناه محب الحكمة لأن سوفيا باللسان اليوناني هي الحكمة وقيل هي

المحبة، فالفلسفة معناه حب الحكمة وكل عاقل يحب الحكمة، غير أن أهل الفكر خطؤهم في الإلهيات أكثر من إصابتهم سواء كان فيلسوفاً أو معتزلياً أو أشعرياً أو ما كان من أصناف أهل النظر، فما ذمّت الفلاسفة لمجرّد هذا الاسم وإنما ذمّوا لما أخطأوا فيه من العلم الإلهيّ ممّا يعارض ما جاءت به الرسل عليهم السلام بحكمهم في نظرهم بما أعطاهم الفكر الفاسد في أصل النبوّة والرسالة ولماذا تستند فتشوش عليهم الأمر، فلو طلبوا الحكمة حين أحبوها من الله لا من طريق الفكر أصابوا في كل شيء، وأما ما عدا الفلاسفة من أهل النظر من المسلمين كالمعتزلة والأشاعرة فإن الإسلام سبق لهم وحكم عليهم ثم شرعوا في أن يذبّوا عنه بحسب ما فهموا منه فهم مصيبون بالأصالة مخطؤون في بعض الفروع بما يتأوّلونه ممّا يعطيهم الفكر والدليل العقليّ من أنهم إن حملوا بعض ألفاظ الشارع على ظاهرها في حق الله ممّا أحالته أدلة العقول كان كفراً عندهم فيؤوّلونه، وما علموا أن لله قوّة في بعض عباده تعطي حكماً خلاف ما تعطي قوّة العقل في بعض الأمور وتوافق في بعض، وهذا هو المقام الخارج عن طور العقل فلا يستقل العقل بإدراكه ولا يؤمن به إلاّ إذا كانت معه هذه القوّة في الشخص، فحينئذ يعلم قصوره ويعلم أن ذلك حق فإن القوى متفاضلة تعطى بحسب حقائقها التي أوجدها الله عليها، فقوّة السمع لو عرض عليها حكم البصر أحالته والبصر كذلك مع غيره من القوىٰ، والعقل من جملة القوىٰ بل هو المستفيد من جميع القوىٰ ولا يفيد العقل سائر القوىٰ شيئاً ومن صحّ له حكم الإرادة المصطلح عليها عند أهل الله عرف هذه المقامات كلها والمراتب كشفاً وعرف صورة الغلط في الأشياء وأنه واقع في النسب والوجوه، وكل غالط إنما غلط في النسبة حيث نسبها إلى غير جهتها فيأخذها أهل الله فيجعلون تلك النسبة في موضعها ويلحقونها بمنسوبها وهذا معنى الحكمة، فأهل الله من الرسل والأولياء هم الحكماء على الحقيقة وهم أهل الخير الكثير جعلنا الله من أهل الإرادة وممّن جمع بين العادة وترك العادة من حيث ما تعطيه الشهادة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون ومائتان

في معرفة حال المراد

[نظم: البسيط]

إن الـمـرادَ هـو الـمـجـذوبُ بـالـحَـالِ ... فـي كـل حـالٍ عـلـى حِـلٍّ وتـرْحَـالِ

يـمـشـي بـه وهـو فـي بـيـضـاءَ فـي دَعَـةٍ ... عـلـى الـمـقـامـاتِ مـن حـالٍ إلـى حَـالِ

عـنـايـةً مـنـه والـرحـمـنُ يَـحْـرُسُـه ... بـعـيـنـه فـهـو فـي نُـعْـمَـى وإقْـبَـالِ

اعلموا أن المراد في اصطلاح القوم هو المجذوب عن إرادته مع تهيؤ الأمور له، فهو يجاوز الرسوم والمقامات من غير مشقة بل بالتذاذ وحلاوة وطيب تهون عليه الصعاب وشدائد الأمور، وينقسم المرادون هنا إلى قسمين: القسم الواحد أن يركب الأمور الصعبة وتحلّ به البلايا المحسوسة والنفسية ويحسّ بها ويكره ذلك الطبع منه غير أنه يرى ويشاهد ما له في

ذلك في باطن الأمر عند الله من الخير مثل العافية في شرب الدواء الكريه، فيغلب عليه مشاهدة ذلك النعيم الذي في طيّ هذا البلاء فيلتذ بما يطرأ عليه من مخالفة الغرض وهو العذاب النفسيّ ومن الآلام المحسوسة لأجل هذه المشاهدة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه من أصحاب هذا المقام فقال في ذلك: ما أصابني الله بمصيبة إلاّ رأيت أن لله عليّ فيها ثلاث نعم: النعمة الواحدة حيث لم تكن تلك المصيبة في ديني. والنعمة الثانية حيث لم تكن مصيبة أكبر منها إذ في الجائز أن يكون ذلك. والنعمة الثالثة ما عند الله لي فيها من تكفير الخطايا ورفع الدرجات، فأشكر الله تعالىٰ عند حلول كل مصيبة. وهنا فقه عجيب في طريق القوم تعطيه الحقائق لمن عرف طريق الله، فإنّ البلاء لا يقبل الشكر والنعمة لا تقبل الصبر، فإن شكر من قام به البلاء فليس مشهوده إلاّ النعم فيجب عليه الشكر، وأن صبر من قامت به النعماء فليس مشهوده إلاّ البلاء وهو ما فيها من تكليف طلب الشكر عليها من الله وما كلفه من حكم التصرّف فيها فمشهوده يقتضي له الصبر والحق سبحانه يردف عليه النعم وهو في شهوده ينظر ما لله عليه فيها من الحقوق فيجهد نفسه في أدائها، فلا يلتذ بما يحسب الناس أنه به ملتذ فيصبر على ترادف النعماء عليه فهو صاحب بلاء فليس المعتبر إلاّ ما يشهده الحق في وقته فهو بحسب وقته إما صاحب شكر أو صاحب صبر فهذا حال القسم الواحد من المرادين. وأما القسم الآخر فلا يحسّ بالشدائد المعتادة بل يجعل الله فيه من القوّة ما يحمل بها تلك الشدائد التي يضعف عن حملها غيرها من القوىٰ كالرجل الكبير ذي القوّة فيكلف ما يشق على الصغير أن يحمله فما عنده خبر من ذلك بل يحمله من غير مشقة فإنه تحت قوّته وقدرته، ويحمله الصغير بمشقة وجهد فهذا ملتذ بحمله فارح بقوّته يفتخر بها لا يجد ألماً ولا يحسّ به كما قال أبو يزيد في بعض مناجاته: [الوافر]

أريـــدكَ لا أريـــدكَ لـــلـــثَّـــوَابِ ... ولـــكـــنّـــي أريـــدكَ لـــلـــعِـــقَـــابِ
وكـلُّ مـآربـي قـد نِـلْـتُ مـنـهـا ... سـوى مَـلْـذُوذِ وَجْـدي بـالـعَـذَابِ

فطلب اللذة بما جرت العادة به أن يثمر عذاباً خرقاً للعادة فما طلب العذاب، يقول أهل الله: ليس العجب من ورد في بستان وإنما العجب من ورد في قعر النيران، يقول صاحب هذا الكلام: ليس العجب ممّن يلتذ بما جرت العادة أن يلتذ به الطبع وإنما العجب أن يلتذ بما جرت العادة أن يتألم به الطبع.

ذكر أن بعض المحبين جنى جناية فجلده الحاكم مائة جلدة فما أحسّ بتسع وتسعين منها فما استغاث فلما كان في السوط المكمل مائة استغاث فقيل له في ذلك فقال: العين التي كنت أعاقب من أجلها كانت تنظر إليّ فكنت أتنعم بالنظر إليها فما كنت أحسّ بمواقع السوط من ظهري فلما كان في السوط الموفى مائة غابت عني فأحسست بموقع السوط فاستغثت. ورأيت المرأة الصالحة بمكة فاطمة بنت التاج ضربها أبوها ضرباً مبرحاً من غير جناية فما أحسّت بذلك وكانت تحسّ بشيء يحول بين ظهرها ومواقع السياط فيقع السوط في ذلك الحائل وتسمع وقع السوط بأذنها وتتعجب حيث لا تحسّ به.

وقد جرى لنا مثل هذا في بدايتنا في حكاية طويلة، فهذا المراد قد يعطيه الله اللذة دائماً بكل شيء يقوم به من بلاء ونعمة، فإن النعيم ليس بشيء زائد على عين اللذة القائمة بالشخص، كما أن البلاء ليس بشيء زائد على وجود عين الألم، وأما الأسباب الموجبة لهما فغير معتبرة عندنا فليس صاحب البلاء إلاَّ من قام به الألم، وليس صاحب النعمة سوى من قامت به اللذة، ويكون السبب ما كان معتاداً أو غير معتاد، وهذا القسم قد يجعل الله فيه أن يكون مراداً له في نفسه جميع ما يريد الله أن ينزله به، فإذا أعطاه الله مرادة ولا بدّ من ذلك فإن ذلك مراد لله تعالىٰ فإنه يلتذ بوقوع مراده، فتكون الشدائد والمكاره المضادة مرادة له فتحل به فيحملها بما عنده وما جعل الله فيه من القوّة، فقد يكون حال المراد بهذه المثابة وأهل البداية في هذا الطريق كلهم عند حصول التوبة ملتذون بكل شدة تطرأ عليهم فهي شدة عند غيرهم وهي ملذوذة هينة عندهم، ولهذا أهل النهاية من العارفين يحنون إلى البداية لأجل هذه اللذة فإنهم لا يجدونها في النهاية فإنهم أهل تمييز متحققون بالحق فهم أهل غضب ورضى فيحنون إلى البداية لأجل ما فيها من الالتذاذ، وكلما كمل الرجل أعطاه الله التمييز في الأمور وحققه بالحقائق إذ الموطن يعطي ذلك، فلو كان مزاج الدنيا على مزاج الجنة لم يعطَ إلاَّ نسيماً مجرداً أو على مزاج النار لم يعط إلاَّ ألماً، فلما كان ممتزجاً وقتاً هكذا ووقتاً هكذا كان العارفون بحسب الموطن، وإذا علمت هذا فاعلم أنه يكون أيضاً من أحوال المراد رفع التمني والطمع والإخلاص من نفسه مع المبالغة في الأعمال فيشاهدها من حيث ما هو محل لجريانها ويجعلها من جملة الأقدار الجارية عليه وذلك لفنائه عمّا ينسب إليه من الحول والقوّة فليس له مقام ولا يحكم عليه حال، فإنه لا يرى المقام ولا الحال لنظره إلى رب المقام والحال بعين رب المقام والحال متفرج في جريان الأقدار عليه وظهورها فيه وهو مع نفسه كأنه لا داخل فيها ولا خارج عنها.

وصل: وأما كون هذا الشخص سمّي مراداً ليس معناه أنه مراد لما أريد به وإنما معناه أنه محبوب، فإن المحبوب لا يكون معذباً بشيء فلا بدّ أن يحول المحب بين ما يؤلم محبوبه وبين محبوبه وإن لم يفعل ذلك فليس بمحب ولا ذلك محبوباً، وكذا وقع أنّ الله ما ابتلى من ابتلى من عباده المحبوبين عنده من كونهم محبوبين وإنما رزقهم من جملة ما رزقهم أن جعلهم محبين له، فلما ادّعوا محبته ابتلاهم من كونهم محبين لا من كونهم محبوبين فافهم، فالمحبوب له الإدلال والمحب له الخضوع فالمراد هو المحبوب فلا يذوق بلاء، وأما المراد الذي يكون مراداً لما أريد به فإنه لا بدّ أن يرزق الإرادة لما أريد به فلا يقع له إلاَّ ما هو مراد له وقد ذكرناه، وما كل مراد لما أريد به يكون له إرادة فيما أريد به، فمن يكون له إرادة ذلك فهو المراد المصطلح عليه في هذا الطريق، فالمراد لما أريد به هو حال يعمّ الخلق أجمعه ما فيه اختصاص، ومن يكون له إرادة فيما أريد به فذلك خصوص وهو المطلوب بهذه اللفظة وهذا الاسم في هذا الطريق عند أهل الله فيكون مراداً مريداً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فإن الكلام في باب الإرادة والمراد والمريد يطول.

الباب الثامن والعشرون ومائتان

في حال المريد

فاعلم يا وليّ وفقك الله أنه: [البسيط]

لـيـس الـمـريـدُ الـذي قـامَـتْ إرادتُـهُ ... بـه ولـكـنَّـه مـن يَـنْـقَـضِـي غَـرَضُـهْ

فــإن أرادَ أمــوراً لــيــس يُــدْركُــهــا ... فــإن حــاكـمَـه فـي صَـرْفِـه مَـرَضُـهْ

ولـيـس إذ ذاك مـن أَهْـلِ الـطـريـقِ ولا ... في حكمه جَوْهَرٌ في الكون أو عَرَضُهْ

لفظة المريد عند المحققين من أهل الله تطلق بإزاء المنقطع إلى الله المؤثر جناب الله الساعي في محاب الله ومراضيه، وقد يطلقونها بإزاء المتجرد عن إرادته، وأعظم مراتب المريد عندهم وعندنا أن يكون نافذ الإرادة لا عن كشف، فإن كان عن كشف فليس بمريد وإنما هو عالم بما يكون، كما أنه ليس من شرط المراد أن تكون له إرادة فيما يقع في الوجود به وبغيره أن يكون ما يقع مشهوداً له في إرادته فيريده قبل وقوعه بل قد لا يكون ذلك وليس بشرط، وإنما حاله أن الأمر إذا وقع في الوجود يرضى به ويلتذّ بوقوعه ولا يردّه بخاطره ولا يكرهه، فاعلم أنه من أعلمه الله مراده فيما يكون عناية منه فإنه مطلوب بالتأهب لذلك ولا سيما فيما يقع به لا بغيره فيتلقاه بالصفة التي يطلبها ذلك الواقع شرعاً من رضى أو صبر أو شكر، فإن كان مع هذا الإعلام يكون مريداً لذلك فتلك إرادة موافقة، ويكون مريداً لقيام الإرادة به لا لنفوذ إرادته، فإنه لا ينبغي في الطريق أن يسمّى مريداً إلاّ من تنفذ إرادته وهو الله أو من أعطاه الله ذلك من خلقه، وما سمعنا أنه نال هذا المقام أحد من خلق الله فإنه قد صحّ عندنا كشفاً ونقلاً أنه لا مقام أعلى من مقام محمد ﷺ ومع هذا قد سأل الله في أشياء منها أن لا يجعل الله بأس أمته بينها فلم يقبل سؤاله في ذلك قال ﷺ: «**فَمَنَعَنِيهَا**» فإذا لم يكمل مقام نفوذ الإرادة له ﷺ فكيف يناله غيره؟ فإنه ممّن انفرد الله به، فمن أطلعه الله على مراداته فما أراد إلاّ ما يقع فيظهر نفوذ إرادته وما يعلم الناس ما هو مشهوده الذي أشهده الحق فهم يتخيلون أن ذلك المراد الواقع من أثر همته وليس كذلك، فالمريد من انقطع إلى الله تعالىٰ عن نظر واستبصار وطلب مرضاة الله وتجرّد عن إرادته، إذ علم أنه ما يقع في الوجود إلاّ ما يريده الله لا ما يريده الخلق فيقول هذا المريد: فلماذا أتعنّى وأريد ما لا أعلم أنه يقع أم لا يقع، فإنه لا علم لي بما في علم الله تعالىٰ من ذلك، فإن وقع ما أريد فلكونه مراد الله فبماذا أفرح؟ وإن لم يقع فلا بدّ من انكسار الخيبة فاستعجل الهمّ وربما ينجر معه عدم الرضى لعدم وقوع المراد، فالأولى أن لا يريد إلاّ ما يريده الحق كان ما كان على الإجمال، فمتى وقع تلقيته بالقبول والرضى فيتجرد عن إرادته فلا يبقى له إرادة إلاّ على هذا الحكم.

وأما الذي يطلعه الله من المريدين على مراد الله في العالم فإن ذلك قد يكون على أحد طريقين: الطريق الواحدة بإخبار إلهيّ وكشف لما يكون. والطريق الثانية أن يرزقه الله علم ما تعطيه حقائق الأشياء وترتيبها الإلهيّ الذي رتبت عليه فيريد عند ذلك أمراً مّا فلا تخطئ له

إرادة بل يقع مراده على حسب ما تعلق به، فهذا مريد بالحق كما كان سميعاً بصيراً بالحق إذ كان الحق سمعه وبصره فتكون أيضاً إرادته، ومهما أخطأت إرادته فليس بمريد على الحقيقة، إذ لا فائدة في أن لا يكون مريداً إلاّ من قامت به الإرادة، وإنما الفائدة في أن لا يكون مريداً إلاّ من تنفذ إرادته، فالمريد في هذه الطريقة يحمل المشاق والشدائد، والمكاره مشاق وشدائد ومكاره غير ملتذّ بها بل يحملها من أجل الله أو أجل ما له فيها أي في حملها من السعادة الأبدية أعلاها وأن يشكر الله فعله فيكون ممّن أثنى الله عليه، فيتجرع الغصص ويصبر عليها لعلمه بما في طيّ ذلك من الخير الإلهيّ، وقد يكون بعض رجال الله مريداً من وجه مراداً من وجه فتختلف أحواله فتختلف أحكامه، فإذا التذّ بالواقع المكروه كان مراداً، وإذا تألم بالواقع المحبوب كان مريداً فكيف حاله بالمكروه؟ فهذا حال المريد قد بيّناه مفصلاً لمن يعقل من أهل الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون ومائتان

في حال الهمة

[نظم: المتقارب]

إذا كـنـتَ فـي هِـمَّـةٍ فـاتَّـئـدْ فـإن الـوجـودَ لـهـا مـسْـتـعِـدّ

ولا تـفـتَـحَـنَّ بـهـا مُـغْـلـقـاً ولا تَـكُ مـمَّـنْ بـهـا يَـسْـتَـبِـدّ

ولا تَـرْكَـنَـنَّ إلـيـهـا وكُـنْ كـمـا أنـتَ فـي بـاطـنِ الـمُـعْـتَـقَـدْ

فباطن المعتقد كون الله هو الفاعل للأشياء لا أثر فيها لهمة مخلوق ولا لسبب ظاهر ولا باطن، لعلمه بأن الأسباب إنما جعلها الله ابتلاء ليتميز من يقف عندها ممّن لا يرى وقوع الفعل إلاّ بها ممّن لا يرى ذلك، ويرى الفعل لله من ورائها عندها لا بها.

اعلم أن الهمة يطلقها القوم بإزاء تجريد القلب للمنى، ويطلقونها بإزاء أوّل صدق المريد، ويطلقونها بإزاء جمع الهمم بصفاء الإلهام فيقولون: الهمة على ثلاث مراتب: همة تنبه، وهمة إرادة، وهمة حقيقة. فاعلم أن همة التنبّه هي تيقّظ القلب لما تعطيه حقيقة الإنسان ممّا يتعلق به التمنّي سواء كان محالاً أو ممكناً فهي تجرد القلب للمنى فتجعله هذه الهمة أن ينظر فيما يتمناه ما حكمه فيكون بحسب ما يعطيه العلم بحكمه، فإن أعطاه الرجوع عن ذلك رجع، وإن أعطاه العزيمة فيه عزم، فيحتاج صاحب هذه الهمة إلى علم ما تمناه. وأما همة الإرادة وهي أوّل صدق المريد فهي همة جمعية لا يقوم لها شيء وهذه الهمة توجد كثيراً في قوم يسمون بأفريقية العزابية يقتلون بها من يشاؤون، فإن النفس إذا اجتمعت أثرت في أجرام العالم وأحواله ولا يعتاض عليها شيء حتى أدّى من علم ذلك ممّن ليس عنده كشف ولا قوّة إيمان أن الآيات الظاهرة في العالم على أيدي بعض الناس إنما ذلك راجع إلى هذه الهمة ولها من القوّة بحيث أن لها إذا قامت بالمريد أثراً في الشيوخ الكمل فيتصرفون فيهم بها، وقد يفتح على الشيخ في علم ليس عنده ولا هو مراد به بهمة هذا المريد الذي يرى أن ذلك عند هذا

الشيخ، فيحصل ذلك العلم في الوقت للشيخ بحكم العرض ليوصله إلى هذا الطالب صاحب الهمة إذ لا يقبله إلاً منه، وذلك لأن هذا المريد جمع همته على هذا الشيخ في هذه المسألة، والحكايات في ذلك مشهورات مذكورة، وأثر هذه الهمة في الإلهيات قول الله تعالىٰ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيَ بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً**» فمن جمع همته على ربه أنه لا يغفر الذنب إلاً هو وأن رحمته وسعت كل شيء كان مرحوماً بلا شك ولا ريب، قال تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٣] لأنهم ظنوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] فلهذا قلنا إنه لا بدّ من علم ما تتعلق به هذه الهمة، فإن تعلقت بمحال لم يقع وعاد وبالها على صاحبها فأثر في نفسه بهمته، وإن تعلقت بما ليس بمحال وقع ولا بدّ وهنا من هذه الطائفة تعلقت بالمحال وهو نفي العلم عن الله ببعض أعمال العباد فعذبهم الله بأعمالهم فظنهم أرداهم، وهذه مسألة لا يمكن أن أوفيها حقّها لاتساعها وما يدخل فيها ممّا لا ينبغي أن يقال ولا يذاع، غير أن لها النفوذ حيث وجدت، فإذا لم تجتمع ودخلها خلل فليس لها هذا الحكم، فلو أن هؤلاء الذين ظنوا بربهم أنه ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يظنون أن الله لا يؤاخذ على الجريمة لما هو عليه من الصفح والتجاوز وتحجبهم جمعيتهم على هذا عن بطشه تعالىٰ وشديد عقابه لم يؤاخذهم فإن ظنهم إنما تعلق بممكن.

وأمّا همة الحقيقة التي هي جمع الهمم بصفاء الإلهام فتلك همم الشيوخ الأكابر من أهل الله الذين جمعوا هممهم على الحق وصيّروها واحدة لأحدية المتعلق هرباً من الكثرة وطلباً لتوحيد الكثرة أو للتوحيد، فإن العارفين أنفوا من الكثرة لا من أحديتها في الصفات كانت أو في النسب أو في الأسماء وهم متميزون في ذلك أي هم على طبقات مختلفة، وأن الله يعاملهم بحسب ما هم عليه لا يردّهم عن ذلك إذ لكل مقام وجه إلى الحق، وإنما يفعل ذلك ليتميز الكثير الاختصاص بالله الذي اصطنعه الله لنفسه من عباد الله عن غيره من العبيد، فإن الله أنزل العالم بحسب المراتب لتعمير المراتب، فلو لم يقع التفاضل في العالم لكان بعض المراتب معطلاً غير عامر، وما في الوجود شيء معطل بل هو معمور كله، فلا بدّ لكل مرتبة من عامر يكون حكمه بحسب مرتبته، ولذلك فضل العالم بعضه بعضاً، وأصله في الإلهيات الأسماء الإلهية أين إحاطة العالم من إحاطة المريد من إحاطة القادر؟ فتميز العالم عن المريد والمريد عن القادر بمرتبة المتعلق، فالعالم أعمّ إحاطة فقد زاد وفضّل على المريد والقادر بشيء لا يكون للمريد ولا للقادر من حيث إنه مريد وقادر فإنه يعلم نفسه تعالىٰ ولا يتصف بالقدرة على نفسه ولا بالإرادة لوجوده، إذ من حقيقة الإرادة أن لا تتعلق إلاً بمعدوم والله موجود، ومن شأن القدرة أن لا تتعلق إلاً بممكن أو واجب بالغير وهو واجب الوجود لنفسه، فمن هناك ظهر التفاضل في العالم التفاضل المراتب، فلا بدّ من تفاضل العامرين لها، فلا بدّ من التفاضل في العالم إذ هو العامر لها الظاهر بها، وهذا ممّا لا يدرك كشفاً بل إدراكه بصفاء الإلهام، فيكشف المكاشف عمارة المراتب بكشفه للعامرين لها ولا يعلم التفاضل إلاً بصفاء الإلهام الإلهيّ، فقد نبهناك على معرفة الهمة بكلام مبسوط في إيجاز فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ثلاثين ومائتين

في الغربة

[نظم: الطويل]

تـغـرَّبْ عـن الأوطـانِ والـحـالِ والـحـقِّ ... عَسَاكَ تَحُوزُ الأمرَ في مَقْعَد الصِّدْقِ

وكُـنْ نـافـذاً فـي كـل أمـرٍ تَـرُومُـهُ ... ولا تَـدْهَـشَـنْ إن جـاءك الـحـقُّ بـالـحـقِّ

ولولا وجودُ الفَتْقِ في الأرض والسَّمَا ... لـمـا دارتِ الأفـلاكُ مـن شـدَّة الـرَّتْـقِ

كـذاك سـمـواتُ الـعـقـول وأرضُـهـا ... وأعـني بـهـا الطَّبْعَ الـمؤثِّرَ في الـخَلْقِ

فـدارتْ بـأفـلاك الـقـوى ثـم أبْـرَزَتْ ... مـعـارِفَـهـا لـلـسـامـعـيـن مـن الـنُّـطْـقِ

اعلم أن الغربة عند الطائفة يطلقونها ويريدون بها مفارقة الوطن في طلب المقصود ويطلقونها في اغتراب الحال، فيقولون في الغربة الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه، والغربة عن الحق غربة عن المعرفة من الدهش، أما غربتهم عن الأوطان بمفارقتهم إياها فهو لما عندهم من الركون إلى المألوفات، فيحجبهم ذلك عن مقصودهم الذي طلبوه بالتوبة وأعطتهم اليقظة وهم غير عارفين بوجه الحق في الأشياء فيتخيلون أن مقصودهم لا يحصل لهم إلاَّ بمفارقة الوطن وأن الحق خارج عن أوطانهم، كما فعل أبو يزيد البسطامي لما كان في هذا المقام خرج من بسطام في طلب الحق فوقع به رجل من رجال الله في طريقه فقال له: يا أبا يزيد ما أخرجك عن وطنك؟ قال: طلب الحق، قال له الرجل: إن الذي تطلبه قد تركته ببسطام، فتنبّه أبو يزيد ورجع إلى بسطام ولزم الخدمة حتى فتح له فكان منه ما كان فهؤلاء هم السائحون، فجعل الله سياحة هذه الأمة الجهاد في سبيل الله.

واعلم أن هذا الأمر ليس باختيار العبد وإنما صاحب هذا الأمر يطلب وجود قلبه مع ربه في حاله، فإذا لم يجده في موضع يقول: ربما أن الله تعالىٰ لم يقدر أن يظهر إلى قلبي في هذا الموضع، فيرحل عنه رجاء الحصول لما علم أن الله تعالىٰ قد رتّب أموراً واقتضى علمه أزلاً أنه لا يكون كذا إلاَّ بموضع كذا وبطالع كذا وبسبب كذا، فلما حكم عليه هذا الإمكان وفقد قلبه في بعض المواطن عن وجود متقدم أولاً عن وجود رحل عن ذلك الموطن رجاء حصول البغية، هذا سبب اغترابهم عن الأوطان وأمثاله، فإن بعضهم قد يفارق وطنه لما كان فيه من العزّة فإذا رأى أنه قد زاد عزّاً بالزهد والتوبة أو لم يكن مذكوراً فاشتهر بالتوبة والخير فأورثه عزّاً في قلوب الناس فوقع الإقبال عليه بالتعظيم فيفر يغترب عن وطنه إلى مكان لا يعرف فيه لمعرفته بنفسه مع ربه، فإن تعظيم الناس للشخص سم قاتل مؤثر فيه أثراً يؤديه إلى الهلاك، وهذا أيضاً من الأسباب المؤدية إلى مفارقة الموطن والاغتراب عن الأهل، فحيث وجد قلبه مع الله أقام.

أخبرني شيخي أبو الحسين ابن الصائغ الزاهد المحدث بسبتة قال: سمعت شيخنا أبا عبد الله محمد بن رزق رحمه الله في سياحة كنا معه فيها أقرأ عليه بعض أجزاء الحديث وكان

صاحب رواية يقول: مررت في سياحتي بمسجد خراب في فلاة من الأرض فقلت: أدخل أركع فيه ركعتين فدخلته فوجدت قلبي فقعدت فيه سنتين فأين زمان ركعتين من سنتين؟ فمطلوبهم بالغربة عن الأوطان وجود القلب مع الله، فحيثما وجدوه قاموا في ذلك الموضع.

قال بعضهم: كنت ماراً إلى مكة فرأيت في الطريق شاباً تحت شجرة وهو يصلي في البرية وحده فقلت له: ألا تمشي إلى مكة؟ فقال لي: كنت أسير إلى مكة عام أول فلما مررت بهذه الشجرة وجدت قلبي فلي هنا سنة لا أبرح من هذا الموضع إلاَّ إن فقدت قلبي، قال: فبعد سنة مررت بذلك الموضع وبتلك الشجرة فلم أجد الشاب فمشيت غير بعيد فإذا بالشاب قائم يصلي فسلمت عليه فعرفني فقلت له: رأيتك قد تركت تلك السمرة، فقال لي: لما فقدت قلبي أخذت في طريقي الذي نويت أولاً أريد مكة فانتهيت إلى هذا الموضع فوجدت قلبي فأنا به أيضاً مقيم، فقلت له: من أين طعامك وشرابك؟ قال: من عنده يجيئني به في الوقت الذي يريد أن يغذيني، قال: فتركته وانصرفت وما أدري ما انتهى إليه أمره بعد ذلك، فقد يطلبون بالغربة وجود قلوبهم مع الله.

وأما غربة العارفين عن أوطانهم فهي مفارقتهم لا مكانهم فإن الممكن وطنه الإمكان فيكشف له أنه الحق والحق ليس وطنه الإمكان فيفارق الممكن وطن إمكانه لهذا الشهود، ولما كان الممكن في وطنه الذي هو العدم مع ثبوت عينه سمع قول الحق له: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فسارع إلى الوجود فكان ليرى موجده، فاغترب عن وطنه الذي هو العدم رغبة في شهود من قال له: ﴿كن﴾ فلما فتح عينه أشهده الحق أشكاله من المحدثات ولم يشهد الحق الذي سارع إلى الوجود من أجله، وفي هذه الحال قلت: [الطويل]

إذا ما بدا الكونُ الغريبُ لنَاظري حَنَنْتُ إلى الأوطانِ حَنَّ الرَّكَائبِ

يقول: فأردت الرجوع إلى العدم، فإني أقرب إلى الحق في حال اتصافي بالعدم مني إليه في حال اتصافي بالوجود لما في الوجود من الدعوى وطلب حالة الفناء عن الحق للبقاء بالحق هو أن يرجع إلى حالة العدم التي كان عليها، فهذه غربة أيضاً موجودة واقعة عن وطن بغير اختيار العبد، ومن غربة العارفين بالله غربتهم عن صفاتهم عند وجودهم الحق عين صفاتهم وهذه غربة حقيقية، فإن الصفة مضافة إليهم بكلام الله وهو الصادق فهم أهل صفة، ولكن ما هي تلك الصفة وإلى من تضاف حقيقة؟ فإن العالم يضاف إلى الله بأنه عبد الله، كما أن الله مضاف إلى العالم فإنه رب العالمين فإضافة العبد مستندة إلى إضافة الحق، فأول غربة اغتربناها وجوداً حسيّاً عن وطننا غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات فكانت الأرحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة فكانت الدنيا وطننا واتخذنا فيها أوطاناً فاغتربنا عنها بحالة تسمّى سفراً وسياحة إلى أن اغتربنا عنها بالكلية إلى موطن يسمّى البرزخ فعمرناه مدة الموت فكان وطننا، ثم اغتربنا عنه بالبعث إلى أرض الساهرة فمنا من جعلها وطناً أعني القيامة ومنا من لم يجعله وطناً فإنه ظرف زماني، والإنسان في تلك الأرض كالماشي في سفره بين المنزلتين ويتخذ بعد ذلك أحد الموطنين: إما الجنة وإما النار،

فلا يخرج بعد ذلك ولا يغترب، وهذه هي آخر الأوطان التي ينزلها الإنسان ليس بعدها وطن مع البقاء الأبدي.

وأما قولهم في الغربة إنها الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه، فتلك غربة أخرى، وذلك أن أصحاب الأحوال لا شكّ أن لهم النفوذ والتحكّم وبها يكون خرق العوائد لهم المشهورة في العالم، فإذا اطلعوا على أن الحال لا أثر له فيما ظهر له من الفعل عند قيامه بهم فيما أعطاه الكشف لم يرضوا به فاغتربوا عنه وقالوا: الوقوف معه وبال على صاحبه، فيرون أن الغربة عنه غاية السعادة وأنه من أعظم حجاب يحجب به الإنسان وأنه موضع المكر والاستدراج، فإن العاقل لا يقف في مواطن إمكان المكر فيها بل ينبغي له أن لا يقف إلاّ في موضع يكون على بصيرة فيه كما فعل موسىٰ في غربة الوطن ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١] فاغترب بجسمه عن وطنه خوفاً منهم، فلو كان مثل خروج محمد ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً لم يكن خوفه منهم، بل كان مشهوده خوفه من الله أن يسلطهم عليه فوهب له مع الرسالة التي كانت له قبل هجرته السيادة على العالمين فإن الهجرة كانت له مطلوبة وهي الاغتراب عن وطنه، فعلامة صدق المريد في غربته عن وطنه حصول مقصوده، فإذا لم يحصل فخلل في غربته إذا طلبه وجده فليس بصادق، وإذا فارقه بالكلية ظاهراً وباطناً فلا بدّ من حصول المقصود، فمن تعلق قلبه بوطنه في حال غربته فما اغترب الغربة المطلوبة.

وأما الغربة عن الحق التي هي من حقيقة الدهش عن المعرفة فاعلم أن الإمكان موطنه غير موطن الوجوب بل هما موطنان للواجب والممكن، وموطن الممكن العدم أولاً وهو موطنه الحقيقي، فإذا اتصف بالوجود فقد اغترب عن وطنه بلا شك، وكان في حال سكناه في وطنه مشاهداً للحق فإنه جار له إذ وصف العدم له أزلاً وصف الوجود لله أزلاً فاغترب عن وطنه بالوجود ففارق مجاورة الحق ولزم الحدوث بهذه الغربة والحق غير متصف بهذه الصفة ولم يتصف الحق بالحدوث أزلاً في حال عدمه فاغترب عن الحق بحدوثه، ولما حصل له الوجود الحادث ووقعت المشاركة في الوجود بينه وبين الحق دهش فإنه رأى ما لا يعرفه فإنه عرف نفسه متميزاً عن الحق بحال العدم، فلما فارق هذا الحال بالوجود أدركه الدهش عن المعرفة الأولى، وهذه الغربة حال رجلين: رجل لم يأنس بهذا المقام ولا وصل إليه بطريق استدراج وترق من حال إلى حال بل أتاه بغتة فجاءه ما لم يعهده ولا ألفه فرأى نفسه تضعف عن حمله فيخاف من عدم عينه فيدهش عن تحصيل تلك المعرفة ويرجع إلى حسّه عاجلاً فيتغرب عن الحق في تلك الرجعة، ورأينا من أهل هذا المقام أبا العباس أحمد العصاد المعروف بمصر بالحريري وما رأينا غيره. وأما الرجل الآخر فهو رجل ما من معرفة ترد عليه إلاّ وتدهشه لعظيم ما يرى ممّا هو أعلى ممّا حصل له وأمكن، فيتغرب عن الحق الذي كان بيده ويحصل من هذه المعرفة حقاً يقوم به إلى وقت تجلّ آخر يعطي فيه معرفة تدهشه لما ذكرناه فيتغرب أيضاً عن الحق الذي حصل له في هذه المعرفة دائماً أبداً دنيا وآخرة.

وأما العارفون المكملون فليس عندهم غربة أصلاً وإنهم أعيان ثابتة في أماكنهم لم يبرحوا عن وطنهم، ولما كان الحق مرآة لهم ظهرت صورهم فيه ظهور الصور في المرآة فما هي تلك الصور أعيانهم لكونهم يظهرون بحكم شكل المرآة ولا تلك الصور عين المرآة لأن المرآة ما في ذاتها تفصيل ما ظهر منهم وما هم فما اغتربوا وإنما هم أهل شهود في وجود، وإنما أضيف إليهم الوجود من أجل حدوث الأحكام إذ لا تظهر إلاً من موجود، فمرتبة الغربة ليست من منازل الرجال فهي منزلة أدنى ينزلها المتوسطون والمريدون. وأما الأكابر فما يرون أنه اغترب شيء عن وطنه بل الواجب واجب والممكن ممكن والمحال محال فتعين وطن كل مستوطن، ولو قامت غربة بهم لانقلبت الحقائق وعاد الواجب ممكناً والممكن واجباً والمحال ممكناً والأمر ليس كذلك، والغربة عند العلماء بالحقائق في هذا المقام غير موجودة ولا واقعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون ومائتان

في المكر

[نظم: السريع]

يُسْتَدرجُ العاقلُ في عَقْلِهِ ... من حيثُ لا يعلمه الماكِرُ
ومَكْرُه عاد عليه وما ... يدري بذاكَ الفَطِنُ الخَابِرُ
فمن أراد الأمنَ من مَكْرِهِ ... ليحصلَ الباطنُ والظاهرُ
يُحَقِّقُ الميزانَ من شَرْعِهِ ... فيُعْلَمُ الرابحُ والخاسِرُ

اعلم أن المكر يطلقه أهل الله على أرداف النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الآيات من غير أمر ولا حدّ. واعلم أنه من المكر عندنا بالعبد أن يرزق العبد العلم الذي يطلب العمل ويحرم العمل به وقد يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه، فإذا رأيت هذا من نفسك أو علمته من غيرك فاعلم أن المتصف به ممكور به، ولقد رأيت في واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء ونزلت خزائن المكر الإلهيّ مثل المطر العام وسمعت ملكاً يقول: ماذا نزل الليلة من المكر، فاستيقظت مرعوباً ونظرت في السلامة من ذلك فلم أجدها إلاً في العلم بالميزان المشروع، فمن أراد الله به خيراً وعصمه من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله وهذه حالة المعصوم والمحفوظ. فأما إرداف النعم مع المخالفة فهو موجود اليوم كثير في المنتمين إلى طريق الله، وعاينت من الممكور بهم خلقاً كثيراً لا يحصي عددهم إلاً الله وهو أمر عام. وأما إبقاء الحال مع سوء الأدب فهو في أصحاب الهمم وهم قليلون على أنا رأينا منهم جماعة بالمغرب وبهذه البلاد وهو أنهم يسيؤون الأدب مع الحق بالخروج عن مراسمه مع بقاء الحال المؤثرة في العالم عليهم مكراً من الله، فيتخيلون أنهم لو لم يكونوا على حق في ذلك لتغير عليهم الحال نعوذ بالله من مكره الخفي، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٢]

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٣] وقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [سورة الطارق: الآية ١٥ ـ ١٦] وهو من كاد من أفعال المقاربة أي كاد أن يكون حقاً لظهوره بصفة حق، فهو كالسحر المشتق من السحر الذي له وجه إلى الليل ووجه إلى النهار، فيظهر للممكور به وجه النهار منه فيتخيل أنه الحق نعوذ بالله من الجهل.

واعلم أن المكر الإلهي إنما أخفاه الله عن الممكور به خاصة لا عن غير الممكور به ولهذا قال: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأعاد الضمير على المضمر في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وقال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فمضمرهم هو المضمر في مكروا فكان مكر الله بهؤلاء عين مكرهم الذي اتصفوا به وهم لا يشعرون، ثم قد يمكر بهم بأمر زائد على مكرهم فإنه أرسله سبحانه نكرة فقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ فدخل فيه عين مكرهم ومكر آخر زائد على مكرهم، وقد يكون المكر الإلهي في حق بعض الناس من الممكور بهم يعطي الشقاء وهو في العامّة، وقد يكون يعطي نقصان الحظ وهو المكر بالخاصة وخاصة الخاصة لسرّ إلهيّ وهو أن لا يأمن أحد مكر الله لما ورد في ذلك من الذمّ الإلهيّ في قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٩٩] ومن خسر ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] فأخفى المكر الإلهيّ وأشده ستراً في المتأوّلين ولا سيما إن كانوا من أهل الاجتهاد وممّن يعتقد أن كل مجتهد مصيب وكل من لا يدعو إلى الله على بصيرة وعلم قطعيّ فما هو صاحب اتباع لأن المجتهد مشرع ما هو متبع إلاّ على مذهبنا، فإن المجتهد إنما يجتهد في طلب الدليل على الحكم لا في استنباط الحكم من الخبر بتأويل يمكن أن يكون المقصود خلافه، فإذا أمكن فليس صاحبه ممّن هو على بصيرة، وإن صادف الحق بالتأويل فكان صاحب أجرين بحكم الاتفاق لا بحكم القصد فإنه ليس على بصيرة، وإن لم يصادف الحق كان له أجر طلب الحق فنقص حظه، فهذا مكر إلهيّ خفي بهذا العالم المتأوّل فإنه من المتأهلين أن يدعو إلى الله على بصيرة بتعليم الله إياه إذا كان من المتقين، فمكر العموم الإلهيّ في إرداف النعم على أثر المخالفات وزوالها عند الموافقات فلا يؤخذ بها، فإن كان من علماء عامّة الطريق فيرى أن ذلك من حكم قوّة الصورة التي خلق عليها فيدعي القهر والتأثير في الحكم الإلهيّ بالوعيد، ويرى أن عموم الحكمة أن يعطي الأسماء الإلهية حقها، فيرى أن الاسم الغفار والغفور وأخواته ليس له حكم إلاّ في المخالفة، فإن لم تقم به مخالفات لم يعط بعض الأسماء الإلهيّة حقها في هذه الدار ويحتج لنفسه بقول الله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وكذلك يفعل وهذا النظر كله لا يخطر له عند المخالفة وإنما يخطر له ذلك بعد وقوع المخالفة، فلو تقدّمها هذا الخاطر لمنع من المخالفة فإنه شهود والشهود يمنعه من انتهاك الحرمة الشرعية ولهذا ورد الخبر: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتّى إِذَا أَمْضَى فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَره رَدَّهَا عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبِروا**» فمنهم من يعتبر ومنهم من لا يعتبر

كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فمنهم من عبده ومنهم من أشرك به، فما يلزم نفوذ حكم العلة في كل معلول، فلو أبقى عليهم عقلهم ما وقع منهم ما وقع كذلك لو كان المشهود له عند إرادة وقوع المخالفة للأسماء الإلهيّة لمنعه الحياء من المسمّى أن ينتهك حرمة خطابه في دار تكليفه، فالمخالف يقاوم القهر الإلهيّ ومن قاوم القهر الإلهي هلك، فإذا أردف النعم على من هذه حالته تخيل أن ذلك بقوّة نفسه ونفوذ همته وعناية الله به حيث رزقه من القوّة ما أثر بها في الشديد العقاب وغاب عن الحليم وعن الإمهال وعدم الإهمال، فإن لم يقصد انتهاك الحرمة بقوّة ما هو عليه من حكم اسم إلهيّ فليس بممكور به مثل عصاة العامّة عن غفلة وندامة بعد وقوع مخالفة، فالصبر على إرداف النعم لما في طيّها من المكر الإلهيّ أعظم من الصبر على الرزايا والبلايا، فإن الله يقول لعبده: مرضت فلم تعدني، ثم قال في تفسير ذلك: أما إن فلاناً مرض فلم تعده فلو عدته لوجدتني عنده كما يجده الظمآن المضطر عندما يسفر له السراب عن عدم الماء فيرجع إلى الله بخلاف النعم فإنها أعظم حجاب عن الله إلاّ من وفّقه الله.

وأما مكر الله بالخاصة فهو مستور في إبقاء الحال عليه مع سوء الأدب الواقع منه وهو التلذّذ بالحال والوقوف معه، وما يورث من الإدلال فيمن قام به والهجوم على الله وعدم طلب الانتقال منه وما قال الله لنبيه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وما أسمعنا ذلك إلاّ تنبيهاً لنقول ذلك ونطلبه من الله، ولو كان خصوصاً بالنبي لم يسمعنا أو كان يذكر أنه خاص به كما قال في نكاح الهبة فللحال لذة وحلاوة في النفس يعسر على بعض النفوس طلب الانتقال من الأمر الذي أورثه ذلك الحال بل لا يطلب المزيد إلاّ منه وجهل أن الأحوال مواهب.

وأما المكر الذي في خصوص الخصوص وهو في إظهار الآيات وخرق العوائد من غير أمر ولا حدّ الذي هو ميزانها فإنه لما وجب على الأولياء سترها كما وجب في الرسل إظهارها إذا مكّن الوليّ منها وأعطي عين التحكيم في العالم يطلب الممكور به لنقص حظ عن درجة غيره يريد الحق ذلك به، وجعل فيهم طلباً لطريق إظهارها من حيث لا يشعر أن ذلك مكر إلهيّ يؤدّي إلى نقص حظ، فوقع الإلهام في النفس بما في إظهار الآيات على أيديهم من انقياد الخلق إلى الله عزّ وجلّ، وإنقاذ الغرقى من بحار الذنوب المهلكة وأخذهم عن المألوفات، وأن ذلك من أكبر ما يدعى به إلى الله، ولهذا كان من نعت الأنبياء والرسل، ويرى في نفسه أنه من الورثة، وأن هذا من ورث الأحوال فيحجبهم ذلك عمّا أوجب الله على الأولياء من ستر هذه الآيات مع قوتهم عليها وغيبهم عن ما أوجب الله على الرسل من إظهارها لكونهم مأمورين بالدعاء إلى الله ابتداء، والوليّ ليس كذلك إنما يدعو إلى الله بحكاية دعوة الرسول ولسانه لا بلسان يحدثه كما يحدث لرسول آخر والشرع مقرّر من عند العلماء به، فالرسول على بصيرة في الدعاء إلى الله بما أعلمه الله من الأحكام المشروعة، والوليّ على بصيرة في الدعاء إلى الله بحكم الاتباع لا بحكم التشريع فلا يحتاج إلى آية ولا بينة، فإنه لو قال ما يخالف حكم الرسول لم يتبع في ذلك ولا كان على بصيرة فلا فائدة لإظهار الآية، بخلاف

الرسول فإنه ينشئ التشريع وينسخ بعض شرع مقرر على يد غيره من الرسل فلا بدّ من إظهار آية وعلامة تكون دليلاً على صدقه أنه يخبر عن الله إزالة ما قرّره الله حكماً على لسان رسول آخر إعلاماً بانتهاء مدة الحكم في تلك المسألة، فيكون الوليّ مع خصوصيته قد ترك واجباً فنقصه من مرتبته ما يعطيه الوقوف مع ذلك الواجب والعمل به، فلا شيء أضرّ بالعبد من التأويل في الأشياء، فالله يجعلنا على بصيرة من أمرنا ولا يتعدّى بنا ما يقتضيه مقامنا، والذي أسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا أعلى مقام عنده يكون لأعلى وليّ فإن باب الرسالة والنبوّة مغلق، وينبغي للعالم أنه لا يسأل في المحال وبعد الإخبار الإلهيّ يغلق هذا الباب فلا ينبغي أن نسأل فيه، فإن السائل فيه يضرب في حديد بارد إذ لا يصدر هذا السؤال من مؤمن أصلاً قد عرف هذا، ويكفي الوليّ من الله أن جعله على بصيرة في الدعاء إلى الله تعالىٰ من حيث ما يقتضيه مقام الولاية والاتباع كما جعل الرسول يدعو إلى الله على بصيرة من حيث ما يقتضيه مقام الرسالة والتشريع ويعصمنا من مكره ولا يجعلنا من أهل النقص، ويرزقنا المزيد والترقي دنيا وآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون ومائتان

في مقام الاصطلام

[نظم: الكامل]

لـلاصْـطِـلامِ عـلـى الـقـلـوبِ تَـحَـكُّـمُ ... ولـه عـلـى كـل الـنُّـعـوت تَـقَـدُّمُ

يـعـطـي الـتَّـحَـيُّـرَ فـي الـعـقـولِ وجـودُهُ ... وهــو الـسـبـيــلُ مــن الإلــه الأقْــوَمُ

مــن قــال زِدْنــي فــيــك تَــحَـيُّــراً ... ذاك الــمــؤمِّــلُ والــنــبــيُّ الأعْــلَــمُ

لــولاه مــا عُــرِفَ الإلــهُ ولا دَرَتْ ... أَلْــبَــابُ أهــل الله أيــن هُــمُ هُــمُ

الاصطلام في اصطلاح القوم وله يرد على القلب سلطانه قويّ فيسكن من قام به تحته، وهو أن العبد إذا تجلّى له الحق في سرّه في صورة الجمال أثر في نفسه هيبة، فإن الجمال نعت الحق تعالىٰ والهيبة نعت العبد، والجمال نعت الحق، والأنس نعت العبد، فإذا اتصف العبد بالهيبة لتجلّى الجمال فإن الجمال مهوب أبداً كان عن الهيبة أثر في القلب وخدر في الجوارح، حكم ذلك الأثر اشتعال نار الهيبة فيخاف لذلك سطوته فيسكن، وعلامته فيه في الظاهر خدر الجوارح وموتها، فإن تحرك من هذه صفته فحركته دورية حتى لا يزول عن موضعه فإنه يخيل إليه أن تلك النار محيطة به من جميع الجهات فلا يجد منفذاً فيدور في موضعه كأنه يريد الفرار منه إلى أن يخف ذلك عنه بنعت آخر يقوم به وهو حال ليس هو مقام. ولما كان هذا الاصطلام نعت الشبلي كان يدور لضعفه وخوفه غير أن الله كانت له عناية منه فكان يرده إلى إحساسه في أوقات الصلوات، فإذا أدّى صلاة الوقت غلب عليه حال الاصطلام بسلطانه فقيل للجنيد عنه فقال: أمحفوظ عليه أوقات الصلوات؟ فقيل: نعم، فقال الجنيد: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب، فما أحسن قول الجنيد لسان ذنب فإنه أخيد

وقته فليس بصاحب ذنب والغريب يشهده تاركاً للصلاة، ومن أعجب حكم الاصطلام الجمع بين الضدين فإن الخدر ينفي الحركة فهو مخدور الجوارح بل هو محرّك يدار به وهو صاحب خدر هكذا يحسّه من نفسه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون ومائتان

في الرغبة

[نظم: المجتث]

رَغِبْتُ عنه وفيه ... من أجل ما يَقْتَضيهِ
مَقَامُ من هُوَ مثلي ... في كلِّ ما يَرْتَضيهِ
لله سَيْفُ حُسَام ... لكلِّ إذ يَنْتَضِيهِ

الرغبة في اصطلاح القوم على ثلاثة أنحاء: رغبة محلها النفس متعلقها الثواب، ورغبة محلها القلب متعلقها الحقيقة، ورغبة محلها السرّ متعلقها الحق. فأما الرغبة النفسية فلا تكون إلاّ في العامة وفي الكمل من رجال الله لعلمهم بأن الإنسان مجموع أمور أنشأه الله عليها طبيعية وروحانية وإلهية، فعلم أن فيه من يطلب ثواب ما وعد الله به فرغب فيه له إثباتاً للحكم الإلهيّ. وأما العامّة فلا علم لها بذلك، فيشترك الكامل والعامي في صورة الرغبة، ويتميز في الباعث كل واحد عن صاحبه، كالخوف يوم الفزع الأكبر يشترك فيه الرسل عليهم السلام وهم أعلى الطوائف، والعوام وهم المذنبون والعصاة، فالرسل عليهم السلام خوفاً على أممها لا على أنفسها فإنهم الآمنون في ذلك الموطن، والعامة تخاف على نفوسها فيشتركان في الخوف ويفترقان في السبب الموجب له، كان بعض الكمل قد برّد ماء في الكوز ليشربه فنام فرأى في الواقعة المبشرة حوراء من أحسن ما يكون من الحور العين قد أقبلت فقال لها: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان ثم تناولت الكوز وهو ينظر إليها فكسرته فكانت له فلما استيقظ وجد الكوز مكسوراً فترك خزفه في موضعه لم يرفعه حتى عفى عليه التراب تذكرة له، فعلم أن فيه من يطلب ربه وفيه من يطلب تلك الجارية ولذلك استفهمها فأعطى كل ذي حق حقه فلم يكن ظلوماً لنفسه، فإن من المصطفين من عباد الله من يكون ظالماً لنفسه أي من أجل نفسه يظلم نفسه بأنه لا يوفيها حقها لنزوله في العلم عن رتبة من يعلم أن حقائقه التي هو عليها لا تتداخل ولا تتعدّى كل حقيقة مرتبتها ولا تقبل إلاّ ما يليق بها، فلا تقبل العين إلاّ السهر والنوم وما يختص بها، ولا تقبل من الثواب إلاّ المشاهدة والرؤية، والأذن لا تقبل في الثواب إلاّ الخطاب إذ ليس الشهود للسمع، والكامل يسعى لقواه على قدر ما تطلبه وهو إمام ناصح لرعيته ليس بغاش لها، فإن ظلمها فإنما يظلمها لها في زعمه وذلك لجهله بما علم غيره من ذلك كسلمان الفارسي وأخيه في الله أبي الدرداء في حالهما فرجح رسول الله ﷺ سلمان فإنه كان يعطي كل ذي حق حقّه فيصوم ويفطر ويقوم وينام، وكان أبو الدرداء مع كونه مصطفى ظالماً لنفسه يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

وأما الرغبة القلبية في الحقيقة فإن الحقيقة في الوجود التلوين والمتمكن في التلوين هو صاحب التمكين ما هو المقابل للتلوين لأن الحقيقة تعطي أن يكون الأمر هكذا لأن الله كل يوم في شأن فهو في التلوين، فهذا القلب يرغب في شهود هذه الحقيقة، وجعل الله محلها القلب ليقرب على الإنسان تحصيلها لما في القلب من التقليب ولم يجعلها في العقل لما في العقل من التقييد، فربما يرى أنه يثبت على حالة واحدة لو كانت هذه الرغبة في العقل بخلاف كونها في القلب فإنه يسرع إليه التقليب فإنه بين أصابع الرحمن فلا يبقى على حالة واحدة في نفس الأمر، فيثبت على تقليبه في أحواله بحسب شهوده وما يقلبه الأصابع فيه.

وأما الرغبة السرية التي متعلقها الحق فنعني بالحق هنا ما يظهر للخلق في الأعمال المشروعة، فيرغب السرّ في هذا الحق لما يندرج في ذلك، أو يظهر به من المعارف الإلهيّة التي تتضمنها الأحكام المشروعة ولا تكشف إلاً بالعمل بها، فإن الظاهر أقوى من الباطن حكماً أي هو أعمّ، لأن الظاهر له مقام الخلق والحق والباطن له مقام الحق بلا خلق، إذ الحق لا يبطن عن نفسه وهو ظاهر لنفسه، فمن علم ذلك رغب سرّه في الحق، فإن الله ربط العالم به وأخبر عن نفسه أن له نسبتين: نسبة إلى العالم بالأسماء الإلهية المثبتة أعيان العالم ونسبة غناه عنه، فمن نسبة غناه عنه يعلم نفسه ولا نعلمه فلم يبطن عن نفسه، ومن نسبة ارتباط العالم به للدلالة عليه علم أيضاً نفسه وعلمناه، فعمّ الظاهر النسبتين فكان أقوى في الحكم من الباطن، فرغب السرّ في الحق لعلمه بأنه مدرك نسبة الغنى لا يدركها إلاً هو فقطع يأسه وأراح نفسه وطلب ما ينبغي له أن يطلب، فنفخ في ضرم ولم يكن لحماً على وضم، جعلنا الله ممّن رأى الحق حقاً فاتبعه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون ومائتان

في الرهبة

[نظم: البسيط]

الرَّهبةُ الخَوْفُ من سَبْقٍ وتَقْليبِ ... ومن وعيدٍ لصدْقِ المُخبرِ الصَّادقِ
دلَّ الدليلُ عليه من مُضايَفَةٍ ... فالراهبُ الخائفُ المُسَارعُ السَّابقُ
يَسيرُ في ظلمةٍ عَمْيَاءَ غاسِقَةٍ ... سَيْرَ المُريبِ وسَيْرَ الوالهِ العاشقِ
يَسْري بِهِمَّتِهِ خوفاً فتُبْصره ... يخافُ في سَيْره من فَجْأةِ الطَّارقِ

الرهبة عند القوم تقال بإزاء ثلاثة أوجه: رهبة من تحقيق الوعيد، ورهبة من تقليب العلم، ورهبة من تحقيق أمر السبق. فالأوّل: إذا جاء الوعيد بطريق الخبر والخبر لا يدخله النسخ فهو ثابت. والثاني: تقليب العلم ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩]. والثالث: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وأما الرهبة المطلقة من غير تقييد بأمر ما معين فهي كل خوف يكون بالعبد حذراً أن لا يقوم بحدود ما شرع له، سواء كان حكماً مشروعاً إلهياً أو حكماً حكمياً كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] أي هم

شرعوها لأنفسهم ما أوجبناها عليهم ابتداء، فاعتبرها الحق وآخذهم بعدم مراعاتها، فما كتبها الله عليهم إلاَّ ابتغاء رضوان الله، فأثنى على المراعين لها ليحسن القصد والنية في ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير كأنه يقول: فما رعوها حق رعايتها إلاَّ ابتغاء رضوان الله يعني المراعين لها، وفي شرعنا من هذه الرهبانية من سنّ سنّة حسنة وهذا هو عين الابتداع، ولما جمع عمر بن الخطاب الناس على أبيّ في قيام رمضان قال: نعمت البدعة هذه فسمّاها بدعة ومشت السنّة على ذلك إلى يومنا هذا، فلما اقترن بالأعمال المشروعة وجوب القيام بحقها كالنذر خاف المكلف فقامت الرهبة به فأدته إلى مراعاة الحدود فسمّي راهباً وسمّيت الشريعة رهبانية، ومدح الله الرهبان في كتابه، فمن الناس من علّق رهبته بالوعيد فخاف من نفوذه كالمعتزلي القائل بإيفاد الوعيد فيمن مات عن غير توبة.

فاعلم أن هنا نكتة أنبهك عليها وذلك أنه من المحال أن يأتي مؤمن بمعصية توعد الله عليها فيفزع منها إلاَّ ويجد في نفسه الندم على ما وقع منه، وقد قال ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» وقد قام به الندم فهو تائب فسقط حكم الوعيد لحصول الندم، فإنه لا بدّ للمؤمن أن يكره المخالفة ولا يرضى بها وهو في حال عمله إياها فهو من كونه كارهاً لها مؤمن بأنها معصية ذو عمل صالح، وهو من كونه فاعلاً لها ذو عمل سيىء فغايته أن يكون من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فقال تعالىٰ عقيب هذا القول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] وعسى من الله واجبة ورجوعه عليهم إنما هو بالمغفرة ويرزقهم الندم عليها، والندم توبة فإذا ندموا حصلت توبة الله عليه فهو ذو عمل صالح من ثلاثة أوجه: الإيمان بكونها معصية، وكراهته لوقوعها منه، والندم عليها وهو ذو عمل سيىء من وجه واحد وهو ارتكابه إياها، ومع هذا الندم فإن الرهبة تحكم عليه سواء كان عالماً بما قلناه أو غير عالم، فإنه يخاف وقوع مكروه آخر منه، ولو مات على تلك التوبة فإن الرهبة لا تفارقه وينتقل تعلقها من نفوذ الوعيد إلى العتاب الإلهيّ والتقرير عند السؤال على ما وقع منه فلا يزال مستشعراً وهو نوع من أنواع الوعيد فإن الله يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٧، ٨] فلا بدّ أن يوقف عليه، فهو يرهب من هذا التوبيخ برؤية ذلك العمل القبيح الذي لا بدّ له من رؤيته ولم يتعرّض الحق في هذه الآية للمؤاخذة به فالرؤية لا بدّ منها، فإن كان ممّن غفر له يرى عظيم ما جنى وعظيم نعمة الله عليه بالمغفرة هذا يعطيه الخبر الإلهيّ الصدق الذي لا يدخله الكذب فإنه محال على الجناب الإلهيّ، فإن نظر العالم إلى أن خطاب الحق لعباده إنما يكون بحسب ما تواطؤوا عليه، وهذا خطاب عربي لسائر العرب بلسان ما اصطلحوا عليه من الأمور التي يتمدحون بها في عرفهم، ومن الأمور التي يذمونها في عرفهم، فعند العرب من مكارم الأخلاق أن الكريم إذا وعد وفا، وإذا أوعد تجاوز وعفا، وهي من مكارم أخلاقهم وممّا يمدحون بها الكريم، ونزل الوعيد عليهم بما هو في عرفهم لم يتعرض في ذلك لما تعطيه الأدلة العقلية من عدم النسخ لبعض الأخبار ولاستحالة الكذب بل المقصود إتيان مكارم الأخلاق، قال شاعرهم: [الطويل]

وإنـي إذا أَوْعَـدتُـه أو وَعَـدْتُـهُ لـمُـخْـلِـفُ إيـعـادي ومُـنْـجِـزُ مَـوْعِـدي

مدح نفسه بالعفو والتجاوز عمن جنى عليه بما أوعد على ذلك من العقوبة بالعفو والصفح، ومدح نفسه بإنجاز ما وعد به من الخير، يقال في اللسان: وعدته في الخير والشر، ولا يقال: أوعدته بالهمز إلاّ في الشر خاصة والله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] أي بما تواطأوا عليه، والتجاوز والعفو عند العرب ممّا تواطأوا على الثناء به على من ظهر منه، فالله أولى بهذه الصفة، فقد عرفنا الله إن وعيده ينفذه فيمن شاء ويغفر لمن شاء، ومع هذه الوجوه فلا يتمكن زوال الرهبة من قلب العبد من نفوذ الوعيد لأنه لا يدري هل هو ممّن يؤاخذ أو ممّن يعفى عنه؟ وقد قدمنا ما يجده المخالف عقيب المخالفة من الندم على ما وقع منه وهو عين التوبة، فالحمد لله الذي جعل الندم توبة ووصف نفسه تعالىٰ بأنه التوّاب الرحيم، أي الذي يرجع على عباده في كل مخالفة بالرحمة له فيرزقه الندم عليها فيتوب العبد بتوبة الله عليه لقوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ ليتوبوا﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨].

وأما الرهبة الثانية التي هي لتحقيق تقليب العلم فيخاف من عدم علمه بعلم الله فيه هل هو ممّن يستبدل أم لا؟ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد: الآية ٣٨] فقد أعطى السبب وهو التولّي، وقد أعطى العلامة وهو عدم التولي عن الذكر لا عن الله فإن التولّي عن الله لا يصحّ، ولهذا قال لنبيه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] كيف يتولّى عمّن هو بالمرصاد والكل في قبضته وبعينه. ولما كان مشهده تقليب العلم بتقليب المعلوم فإن العلم يتعلق به بحسب بما هو عليه، فتغير التعلّق لتغيّر المتعلق لا لتغيّر العلم، فرهبته من تقليب العلم عين رهبته ممّا يقع منه، فإن العلم لا حكم له في التقليب على الحقيقة، وإنما التقليب لموجد عين الفعل الذي يوقع الرهبة في القلب وهو كونه قادراً، ويتعلق العلم بذلك الانقلاب والمنقلب إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] أي إذا ظهر منكم عند الابتلاء بالتكليف ما يكون منكم من مخالفة أو طاعة يتعلق العلم مني عند ذلك به كان ما كان وحضرة تقليب العلم قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] فذكر المحو بعد الكتابة ويثبت ما شاء ممّا كتبه ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] وهي السابقة التي لا تتبدّل ولا تمحى، فلما علم عزّ وجلّ ما يمحو من ذلك بعد كتابته وما يثبت أضيف التقليب إلى العلم، والتحقيق ما ذكرناه من تغيير التعلّق وعدم التقليب في العلم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] فما أراد هنا تعلّق علمه تعالىٰ بأنهم يختانون أنفسهم وإنما المستقبل هنا بمعنى الماضي، فإن اللسان العربي يجيء فيه المستقبل ببنية الماضي إذا كان متحققاً كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [سورة النحل: الآية ١] وشبهه، وقد كان الحق كلفهم قبل هذا التعريف أن لا يباشر الصائم امرأته ليلة صومه، فمنهم من تعدّى حدّ الله في ذلك، فلما علم الله ذلك عفا عمّن وقع

منه ذلك وأحلّ له الجماع ليلة صومه إلاّ أن يكون معتكفاً في المسجد فما خفف عنهم حتى وقع منهم ذلك ومن من شأنه مثل هذا الواقع فإنه لا يزال يتوقع منه مثله فأبيح له رحمة به، حتى إذا وقع منه ذلك كان حلالاً له ومباحاً وتزول عنه صفة الخيانة فإن الدين أمانة عند المكلف.

وأما الرهبة لتحقيق أمر السبق فلقوله تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وإن كان يسوغ في هذه الآية أن كلمات الله عبارة عن الموجودات كما قال في عيسىٰ إنه كلمته ألقاها إلى مريم، فنفى أن يكون للموجودات تبديل بل التبديل لله ولا سيما وظاهر الآية يدل على هذا التأويل وهو قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠] أي ليس لهم في ذلك تبديل، وهذه بشرى من الله بأن الله ما فطرنا إلاّ على الإقرار بربوبيته، فما يتبدّل ذلك الإقرار بما ظهر من الشرك بعد ذلك في بعض الناس لأن الله نفى عنهم أن يكون لهم تبديل في ذلك بل هم على فطرتهم، وإليها يعود المشرك يوم القيامة عند تبري الشركاء منهم، وإذا لم يضف التبديل إليهم فهي بشرى في حقّهم بمآلهم إلى الرحمة، وإن سكنوا النار فبحكم كونها داراً لا كونها دار عذاب وآلام، بل يجعلهم الله على مزاج ينعمون به في النار، بحيث لو دخلوا الجنة بذلك المزاج تألّموا لعدم موافقة مزاجهم لما هي عليه الجنة من الاعتدال، فمن حقّت عليه كلمة الله بأمر فإنه يعمل في غير معمل ويطمع في غير مطمع، قال رسول الله ﷺ فيمن يعمل بعمل أهل الجنة حتى يقرب منها بعمله فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخل النار وكذلك الآخر ثم قال: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**» فذكر في هذا الحديث لمن هي السابقة وأن الخاتمة هي عين حكم السابقة، ولهذا كانَ بعضهم يقول: أنتم تخافون من الخاتمة وأنا أخاف السابقة، وإنما سميت سابقة من أجل تقديمها على الخاتمة، فهذا معنى موجود لم يظهر حكمه إلاّ بعد زمان، فهو من بعض ما يمكن أن يستند إليه القائل بالكمون والظهور، ولا سيما والشارع قد نبّه عليه في الحديث بقوله في عمل أهل النار أعمال السعداء فقال فيما يبدو للناس وكذلك في عمل أهل الجنة أعمال الأشقياء فيما يبدو للناس والذي عندهم وهم فيه في بواطنهم خلاف ما يبدو للناس فعلم الله ذلك منهم، فهذا معنى ما ظهر له حكم في الظاهر مع وجوده عندهم والمراؤون من هذا القبيل، غير أن هنا بشرى فيما يذهب إليه، وذلك أن العلماء قد علموا أن الحكم للسابق فإن اللاحق متأخر عنه، ولهذا السابق يحوز قصب السبق وقصب السبق هنا آدم وذريته، وقد تجارى غضب الله ورحمته في هذا الشأو فسبقت رحمته غضبه فجازتنا، ثم لحق الغضب فوجدنا في قبضة الرحمة قد حازتنا بالسبق فلم ينفذ للغضب فينا حكم التأبيد بل تلبس بنا للمشاهدة بعض تلبس لما جمعنا مجلس واحد أثر فينا بقدر الاستعداد منا لذلك، فلما انفصلت الرحمة من الغضب من ذلك المجلس أخذتنا الرحمة بحيازتها إيانا وفارقنا غضب الله، فحكمه فينا أعني بني آدم غير مؤبّد وفي غيرنا من المخلوقين ما أدري ما حكمه فيهم من

الشياطين والله أعلم، وصاحب هذا الذوق ما يرهب السابقة فإن رحمة الله لا يخاف منها إلاّ في دار التكليف، فرهبة السبق إنما متعلقها سبق مخصوص لا سبق الرحمة، وذلك السبق عرضيّ ليس بدائم إذا كان سبق شقاوة لأنه ليس له أصل يعضده فإن أصله غضب الله وهو لا حق لا سابق، وأما سبق السعادة فما هو عرضي فيزول لأن له أصلاً يعضده ويقوّيه وهو رحمة الله التي سبقت غضبه، ولهذا السبق الجزئي العرضيّ السعادي يبقى والشقاوي لا يبقى فاعلم ذلك. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون ومائتان

في التواجد وهو استدعاء الوجد

[نظم: البسيط]

إن التَّوَاجُدَ لا حالٌ فتَحْمَدُه ... ولا مَقَامٌ له حُكْمٌ وسُلطانُ

يُزْري بصاحبه في كل طائفةٍ ... وما له في طريقِ القَومِ ميزانُ

بل ذمَّهُ القومُ لما كان مَنْقَصَةً ... والنَّقْصُ ما فيه في التَّحْقيق رُجْحَانُ

وكلُّ ما هو فيه من يقوم بهِ ... فإنه كلُّه زورٌ وبُهْتَانُ

اعلم أن التواجد استدعاء الوجد لأنه تعمّل في تحصيل الوجد، فإن ظهر على صاحبه بصورة الوجد فهو كاذب مراء منافق لا حظ له في الطريق، ولهذا لم تسلمه الطائفة إلاّ لمن أعلم الجماعة التي يكون فيها أنه متواجد لا صاحب وجد، ولا يسلم له ذلك إلاّ إذا اتفق أن يعطى الحال بقرينته أن يوافق أهل الوجد في حركاتهم عن إشارة من شيخ يكون له حكم في الجماعة أو حرمة عندهم، فإن خرج عن هذه الشروط فلا يجوز له أن يقوم متواجداً ولا أن يظهر عليه من ذلك أثر، وكل وجد يكون عن تواجد فليس بوجد، فإن من حقيقة الوجد أن يأتي على القلب بغتة يفجأه وهو الهجوم على الحقيقة، فالوجد كسب فهو له والتواجد تكسب، واكتساب الوجد عن التواجد اكتساب لا كسب، وهذه بشرى من الله حيث جعل المخالفة اكتساباً والطاعة كسباً فقال لها يعني للنفس ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] فأوجبه لها، وقال في الاكتساب: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] فما أوجب لها إلاّ الأخذ بما اكتسبته، فالاكتساب ما هو حق لها فتستحقه فتستحق الكسب ولا تستحق الاكتساب، والحق لا يعامل إلاّ بالاستحقاق، فالعفو من الله يحكم على الأخذ بالجريمة، فالتواجد الذي عند أهل الله إظهار صورة وجد من غير وجد على طريق الموافقة لأهل الوجد مع تعريفه لمن حضر أنه ليس بصاحب وجد لا بدّ من هذا ومع هذا الصدق فتركه أولى لأن مراعاة حق الله أولى من مراعاة الخلق، إذ مراعاة الخلق إن لم تكن عن مراعاة أمر الحق بها وإلاّ فهي مداهنة، والمداهنة نعت مذموم لا ينبغي لأهل الله أن تتصف بشيء لا يكون للحق فيه أمر بوجوب إن كان فعلاً، أو يكون لذلك الفعل نعت إلهيّ في النعوت فتستند إليه فيه ولو كان مذموماً في الخلق فإنه محمود في جانب الحق لظهور الحق به لأمر يقتضيه الحكم، فمستنده

الإلهيّ قول نوح لقومه: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٨] وقول الله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٤] ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [سورة الجاثية: الآية ٣٤] فوصف نفسه بالنسيان، ويظهر حكم مثل هذا المقصود من ألحق به هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون؟ فموضع الاستشهاد من هذا الموافقة في الصورة فانسحب الاسم عليه في الجناب الإلهيّ كما انسحب عليه في الجناب الكونيّ، ولم يكن الغرض كون ذلك الأمر محموداً أو مذموماً وإنما المراد ظهور الموافقة الإلهيّة، فلما رأى أهل الله ظهور الموافقة الإلهيّة سامحوا في التواجد واشترطوا التعريف لما يعطيه مقام الصدق الذي عليه اعتماد القوم. فإن قلت: فهذه الموافقة الإلهيّة والنبوية إنما وقعت في دارين ومجلسين مختلفين والتواجد في مجلس واحد. قلنا: صدقت فيما ذكرته في عين ما استشهدنا به فنحن ما قصدنا إلاّ الموافقة، فإن أردت حصول الأمر من الجانبين في وقت واحد فذلك موجود في مكر الله بالماكرين من حيث لا يشعرون فلا يكون ذلك إلاّ في الدنيا، فإنهم في الآخرة يعرفون أن الله مكر بهم في الدنيا بما بسط لهم فيها ممّا كان فيه هلاكهم، فهنا وقع المكر بهم حيث وقع المكر منهم بل في بعض الوقائع أو أكثرها بل كلها أن عين مكرهم هو مكر الله بهم وهم لا يشعرون.

ولما دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ فوجده وأبا بكر يبكيان في قضية أسارى بدر فقال لهما عمر بن الخطاب: اذكرا لي ما أبكاكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجده تباكيت أي أوافقكما في إرسال الدموع، والتباكي كالتواجد إظهار صورة من غير حقيقة فهي صورة بلا روح غير أن لها أصلاً معتبراً ترجع إليه وهو ما ذكرناه. فإن قلت: فكيف تعطي الحقائق إظهار حكم معنى في الظاهر من غير وجود ذلك المعني فيمن ظهر عليه حكمه؟ قلنا: هذا موجود في الإلهيات في قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] والرضى إرادة وقد نفى أن يكون مرضياً عنده فقد نفى أن يكون مراداً له، فقد ظهر حكم معنى نفاه الحق عن نفسه، فكذلك حكم الوجد في التواجد مع نفي الوجد عنه. ولمسألة الرضى معنى دقيق ذكرناه في كتاب المعرفة وهو جزء لطيف فلينظر هناك، وإنما جئنا به هنا صورة لم نذهب به مذهب التحقيق الذي لنا في الأشياء وإنما أخرجناه مخرج البرهان الجدليّ الموضوع لدفع حجة الخصم لا لإقامة البرهان على الحق، فالوجد الظاهر في التواجد هو حكم وجد متخيل في نفس المتواجد، فهو حكم محقق في حضرة خيالية، وقد بيّنا أن الخيال حضرة وجودية وأن المتخيلات موصوفة بالوجود، فما ظهر المتواجد بصورة حكم الوجد إلاّ لهذا الوجد المتخيل في نفسه فما ظهر إلاّ عن وجود فله وجه إلى الصدق، ولهذا يجب على المتواجد التعريف بتواجده ليعلم السامع من أهل المجلس أن ذلك عن الوجد المتخيل لا عن الوجد القائم بالنفس في غير حضرة الخيال له والخيال حكم صحيح في الحسّ كصاحب الصفراء إذا كان في موضع يتخيل السقوط منه فيسقط فهذا سقوط عن تخيّل ظهر حكمه في الحسّ، وكذلك المتواجد قد يحكم عليه الوجد المتخيل بحيث أن يفنيه عن الإحساس كما يفنى صاحب الوجد

الصحيح، ولكن بينهما فرقان في النتيجة قد ذكرناه في شرح ما لا يعوّل عليه في الطريق، فإن نتيجة الوجد الصحيح مجهولة، ونتيجة الوجد الخياليّ إذا حكم مقيدة معلومة يعلمها صاحبها، إن كان من أهل هذا الشأن فإنه ما ينتج له إلاّ ما يناسب خياله في الوجد وهو معلوم، والوجد الصحيح مصادفة من حيث لا يشعر صاحبه فلا يدري بما يأتيه به، وقد ذكرنا في التواجد ما فيه غنية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون ومائتان

في الوجد

[نظم: الوافر]

إذا أفناكَ عنكَ ورودُ أمرٍ ... فذاك الوَجْدُ ليس به خَفَاءُ

له حكمٌ وليس عليه حكمٌ ... نعَمْ وله التَّلذُّذُ والفَنَاءُ

وذا من أعْجَبِ الأشياءِ فيهِ ... فإنَّ مزاجَهُ عَسَلٌ وماءُ

اعلم أن الوجد عند الطائفة عبارة عما يصادف القلب من الأحوال المفنية له عن شهوده وشهود الحاضرين، وقد يكون الوجد عندهم عبارة عن ثمرة الحزن في القلب، قال الأستاذ: وبالجملة فهو حسن، الوجد حال والأحوال مواهب لا مكاسب، ولهذا كان وجد المتواجد إذا أورثه التواجد الوجد لانفعال نفسه لما يجتلبه مكتسباً والحال لا يكتسب عند القوم فلذلك لا يعول على وجد المتواجد، فنظير الوجد في الأحوال عند القوم كمجيء الوحي إلى الأنبياء يفجؤهم ابتداء، كما ورد في الحديث: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَزَلْ يَتَحَنَّثُ فِي غَارِ حِرَاءٍ حَتَّى فَجَأَهُ الوَحْيُ**» ولم يكن ذلك مقصوداً له، فكذلك أهل الوجد إنما هم في سماع من الحق في كل ناطق في الوجود، وما في الكون إلاّ ناطق، فهم متفرّغون للفهم عن الله في نطق الكون، وسواء كان ذلك في نغم أو غير نغم، وبصوت أو غير صوت، فيفجؤهم أمر إلهيّ وهم بهذه المثابة فيفنيهم عن شهودهم أنفسهم وعن شهودهم أنهم أهل وجد وعن شهود كل محسوس، فإذا حصل لهم ذلك فذلك هو الوجد عند القوم، ولا بدّ لصاحبه من فائدة يأتي بها فإن جاء بغير فائدة ولا مزيد علم فذلك نوم القلب من حيث لا يشعر، فإن الذي يأتيه في تلك الفجأة إنما يأتيه من الله ليفيده علماً بما ليس عنده ممّا تشرف به نفسه وتكمل وتربى على غيرها من النفوس فإنه لا يرد إلاّ على نفس طاهرة زكية هذا حكمه في هذا الطريق.

وأمّا الوجد العام فهو ما ذكرناه في حدّه في أوّل الباب، فلا يشترط فيه طهارة ولا غيرها إلاّ في هذا الطريق، ولما كان يظهر في العموم مع عدم الطهارة لهذا لا يكون الوجد شاهد صدق إلاّ على نفسه أنه وجد خاصة لا أنه وجد في الله، ولهذا يلتبس على الأجانب فلا يفرّقون بين أهل الله فيه وبين المتصوّرين بصورة أهل الله وإن كانوا ليسوا منهم فالحال الحال، ولهذا أهل الله في السماع المقيد بالنغم من شرطهم أن يكونوا على قلب واحد وأن لا يكون فيهم من ليس من جنسهم، فلا يحضرون إلاّ مع الأمثال أو مع المؤمنين بأحوالهم المعتقدين

فيهم، ومستنده الإلهيّ كون الحق نعت نفسه بأن قاتل نفسه بادره بنفسه وإن كان ما بادره إلاّ به ولكن هكذا ورد في النعوت الإلهية فنقرّه ولا بدّ، فإنه أراد الله بذلك المحل أمراً مّا فيما كلفه به فجاء ذلك الأمر الإلهيّ الشرعيّ لمجيء زمانه ووقته، فصادف المحل على غير ما تعطيه حقيقة ذلك الوارد بالوارد الذي فجأه الحاكم على المحل مع علمنا أنه ما نفذ فيه إلاّ علم الله فيه، ولكن تعمير المراتب أدّى إلى اختلاف المذاهب فصار الحق هنا صاحب وجد وموجدة على من قتل نفسه مبادراً كما جاء عنه في غضبه على من غضب عليه، ففني المقام الإلهيّ هنا عن شهود نفسه بأنه غني عن العالمين، إذ المقامات تتجاور ولا تتداخل فكل مقام له حكم، وقد بيّن الله لعباده في أخباره الصادقة في كتبه وعلى ألسنة رسله ما هو عليه بما ينسب إليه، فمن الآداب أن تنسب إليه ما نسبه إلى نفسه، وإن ردته الأدلة العقلية فإن بالدليل العقلي أيضاً قد علمنا أن بعض الكون لا يعرفه على حدّ ما يعرف نفسه فهو المجهول المعروف لا إله إلاّ هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فإن قلت: فالمصادفة تقضي بعدم العلم بما صادف فأين مستنده الإلهي؟ فنقول في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] مع علمه بما يكون منهم فبتلك النسبة تجري هنا وقد وردت، والوجد يفنى كما يفنى الفناء والغيبة ولا بدّ لصاحب هذه الأحوال ممّن يحضرون معه ويتصفون بالبقاء معه والشهود له وإن لم يكونوا بهذه المثابة فما هو المطلوب بهذه الألفاظ، واختلفوا في الوجد هل يملك أم لا يملك؟ فذكر القشيري عن بعضهم أنه كان يملك وجده، وكان إذا ورد عليه وعنده من يحتشمه ويلزم الأدب معه أمسك وجده، فإذا خلا بنفسه أرسل وجده وجعل ذلك كرامة له أنتجها احترام من يجب احترامه، وعندنا أن الوجد لا يملك وذلك الذي أرسله ما هو عين ما ورد عليه مع حضور من احترمه، فإن المعدوم ماله عين يملكها المحدث، فلما خلا ذلك الرجل ظهر حكم الوجد فيه في ذلك الوقت فتخيل أنه مالك لوجده كما يملك القاعد قيامه أي بما هو مستعد للقيام لا أن القيام وجد فيه فلم يقم فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون ومائتان

في الوجود

[نظم: الوافر]

وجـودُ الـحـقِّ عـيـنُ وجـودِ وَجْـدي ... فـإنـي بـالـوجـودِ فَـنِـيـتُ عَـنْـهُ

وحُـكْـمُ الـوَجْـدِ أفـنَـى الـكـلَّ عـنـي ... ولا يُـدْرَى لـعَـيْـن الـوَجْـد كُـنْـهُ

ووجـدانُ الـوجـود بـكـل وَجْـهٍ ... بـحـالٍ أو بـلا حـالٍ فَـمِـنْـهُ

اعلم أن الوجود عند القوم وجدان الحق في الوجد، يقولون: إذا كنت صاحب وجد ولم يكن في تلك الحال الحق مشهوداً لك وشهوده هو الذي يفنيك عن شهودك وعن شهودك الحاضرين فلست بصاحب وجد، إذ لم تكن صاحب وجود للحق فيه. واعلم أن وجود الحق

في الوجد ما هو معلوم، فإن الوجد مصادفة ولا يدري بما تقع المصادفة، وقد يجيء بأمر آخر، فلما كان حكمه غير مرتبط بما يقع به السماع كان وجود الحق فيه على نعت مجهول، فإذا رأيتم من يقرّر الوجد على حكم ما عيّنه السماع المقيد والمطلق فما عنده خبر بصورة الوجد وإنما هو صاحب قياس في الطريق، وطريق الله لا تدرك بالقياس فإنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وكل نفس في استعداد ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٧٤].

واعلم أنه إنما اختلف وجود الحق في الوجد عند الواجدين لحكم الأسماء الإلهية ولحكم الاستعدادات الكونية، فكل نفس من الكون له استعداد لا يكون لغيره، وصاحب النفس بفتح الفاء هو الموصوف بالوجد فيكون وجده بحسب استعداده، والأسماء الإلهيّة ناظرة رقيبة وليس بيد الكون من الله إلاّ نسب أسمائه ونسب عنايته، فوجود الحق في الوجد بحسب الاسم الإلهيّ الذي ينظر إليه، والأسماء الإلهيّة راجعة إلى نفس الحق، وقد شهد روح الله بشهادة تعمّ الكون في الله فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] على الوجهين، الوجه الواحد: أن تكون النفس هنا نفس عيسىٰ عينه أو تكون نفس الحق، فإذا جهل العبد ما هي عليه نفسه من حكم الاستعداد الذي به يقبل الوجود الحق الخاص فهو بما ينظر إليه من الأسماء الإلهيّة في المستأنف أجهل، فإذا ظهر لصاحب الوجد وجود الحق عند ذلك الظهور يعلم ما تجلّى له من الأسماء فيخبر عند رجوعه عن وجود معين وشهود محقق، وأما غير صاحب الوجد فحكمه بحسب الحال التي يقام فيها، والضابط لباب العلم بالله أنه لا يعلم شيء من ذلك إلاّ بإعلام الله في المستأنف. وأما في الحال والماضي فإعلام الله به وقوعه مشهوداً لمن وقع به عن ذوق لا عن نقل إلاّ أن يكون الناقل مقطوعاً بصدقه، ويكون القول أيضاً في الباب نصاً جلياً لا يحتمل إن لم يكن بهذه المثابة وإلاّ فلا يعلم أصلاً، وإن وقع العلم به من شخص في وقت فبحكم المصادفة، ومثل هذا لا يسمّى علماً عند أحد من أهل النظر، وإن كان الشاعر قد سمّاه علماً في قصة ابن عمر أو من كان من الصحابة في حديث الفاتحة فقال: ليهنك العلم، مع كونه مصادفة. واعلم أن الذي يتقيد به وجود الحق في صاحب الوجد إنما هو بحسب الوجد والوجد ليس بمعلوم وروده لمن ورد عليه حتى ينزل به، فوجود الحق في كل صاحب وجد بحسب وجده.

ثم إن الوجد عند العارفين يخرج عن حكم الاصطلاح بل يرسلونه في العموم، فما عندهم صاحب وجد صحيح كان فيمن كان إلاّ وللحق في ذلك الوجد وجود يعرفه العارفون بالله، فيأخذون عن كل صاحب وجد ما يأتي به في وجده من وجوده، وإن كان صاحب ذلك الوجد لا يعرف أن ذلك وجود الحق فإن العارف يعرفه فيأخذ منه ما يأتي به صاحب كل وجد من وجود، وأن الحق تجلّى في ذلك الوجد بصورة ما قيده به هذا المخبر عن وجود ما وجده في وجده، وهذا ذوق عزيز هو حق في نفس الأمر معتبر مقطوع به عند أرباب هذا الشأن لا عند كلهم، وقد أنبأ الحق عن نفسه في ذلك بتغير الصور والنعوت عليه لتغير أحوال العباد،

ومعلوم أنه ما تغيرت أحوال الكون في الثقلين إلاّ لتغيّر حكم الأسماء، وتغيرت الصور والتجليات لتغير أحوال الكون، فالأمر منه بدأ وإليه يعود، فللعبد أثر بوجه ما قرّره الحق له فلا يرفع عنه حكم ما قرّره الحق، ومن فعل ذلك فقد نازع الحق وهو القهار في مقابلة المنازعين، فالعلماء بالله يقهرون بالله ولا يتجلى لهم الله في اسم قاهر ولا قهار في نفوسهم، وإنما يرونه في هذا الاسم في صورة الأغيار فيعرفونه منهم لا من نفوسهم لأنهم محفوظون من المنازعة بينهم وبين أشكالهم فكيف بينهم وبين الله؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون ومائتان

في الوقت

[نظم: البسيط]

الـوقـتُ مـا أنـتَ مـوصـوفٌ بـه أبـداً	فـلا تـزالُ بـحُـكْـمِ الـوقـتِ مَـشْـهُـودَا
فـالله يـجـعـل وقـتـي مـنـه مَـشْـهَـدَه	فـإن فـي الـوقـتِ مَذْمُـومـاً ومَـحْـمـودَا
لـه الـشـؤونُ مـن الـرحـمـن وهـي بـنـا	تـقـومُ شَـرْعـاً وإيـمـانـاً وتَـوْحـيـدَا

اعلم أن القوم اصطلحوا على أن حقيقة الوقت ما أنت به وعليه في زمان الحال، وهو أمر وجودي بين عدمين، وقيل: الوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم، وقيل: الوقت ما يقتضيه الحق ويجريه عليك، وقيل: الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك، وقيل: الوقت كل ما حكم عليك، ومدار الكل على أنه الحاكم، ومستند الوقت في الإلهية وصفه نفسه تعالىٰ أنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] فالوقت ما هو به في الأصل إنما يظهر وجوده في الفرع الذي هو الكون فتظهر شؤون الحق في أعيان الممكنات، فالوقت على الحقيقة ما أنت به، وما أنت به هو عين استعدادك، فلا يظهر فيك من شؤون الحق التي هو عليها إلاّ ما يطلبه استعدادك، فالشأن محكوم عليه بالأصالة، فإن حكم استعداد الممكن بالإمكان أدّى إلى أن يكون شأن الحق فيه الإيجاد، ألا ترى أن المحال لا يقبله؟ فأصل الوقت من الكون لا من الحق وهو من التقدير، ولا حكم للتقدير إلاّ في المخلوق، فصاحب الوقت هو الكون فالحكم حكم الكون كما قررنا في ظهور الحق في أعيان الممكنات بحسب ما تعطيه من الاستعداد فتنوعه بها وهو في نفسه الغني عن العالمين.

ولما كانت أذواق القوم في الوقت تختلف لذلك اختلفت عباراتهم عنه والوقت حقيقة كل ما عبّروا به عنه وهكذا كل مقام وحال، ليس يقصدون في التعبير عنه الحدّ الذاتي وإنما يذكرونه بنتائجه وما يكون عنه ممّا لا يكون إلاّ فيمن ذلك المقام أو الحال نعته وصفته، فمن أحكامه فيهم وفي غيرهم أن الله قد رتب لهم أموراً معتادة يتصرّفون فيها بحكم العادة ممّا لا جناح عليهم فيها أو ممّا قد اقترن به خطاب من الحق بأنه قربة فيختارون لأنفسهم فعل ذلك على جهة القربة إن كان من القرب أو على كونه مرفوع الحرج فيصادفهم من الحق أمر لم يكن

في خاطرهم ولا اختاروه لأنفسهم، فيعلمون أن الوقت أعطى ذلك الأمر وأن الله اختاره لهم فإنه القائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يقدر ويوجد ثم قال: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٨] ونفى أن تكون لهم الخيرة فقال: ما كان لهم الخيرة، وعندنا أن ما هنا اسم وهو في موضع نصب على أنه مفعول بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي كان لهم الخيرة يعني فيه، فإذا علم العبد ذلك سلم الحكم فيه لله واستسلم، وكان بحكم وقت ما يمضيه الله فيه لا بحكم ما يختاره لنفسه في المنشط والمكره، ويرى أن الكل له فيه خير فيعامله الله في كل ذلك بخير، فإن كان وقته يعطي نعمة وكان عقده مع الله مثل هذا رزقه الشكر عليها والقيام بحق الله فيها وأعين عليها، وإن كان بلاء رزق الصبر عليه والرضا به وجعل الله له مخرجاً من حيث لا يحتسب، كرجل يريد أن يسبح الله مائة ألف تسبيحة فيحتاج إلى زمان طويل في ذلك مع ما فيه من التعب والتفرّغ إليه من الحضور فيعثر على خبر صدق أن النبيّ ﷺ جعل قول الإنسان: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات، والحمد لله مثل ذلك، والله أكبر مثل ذلك، ولا إله إلاَّ الله مثل ذلك، أفضل ممّا أراده هذا العبد، فقال هذا القول الذي جاءه بحكم المصادفة وإن لم يكن عنده منه خبر وترك ما كان يريد أن يذكره وعلم أن الذي اختار الله له بهذا التعريف في هذا الوقت أعظم ممّا اختاره لنفسه. وقد وقع هذا من رسول الله ﷺ مع عجوز مرّ عليها والحديث مشهور.

فإذا اقتضى الحق أمراً وكان له بك عناية أجراه عليك ورزقك القيام بحقه، فالعاقل من أهل الله من يرى أن الخير كله الذي يكون للعبد هو فيما اقتضاه الحق فيما شرع لعباده وبعث به رسوله ﷺ، فمن استعمله الله في اقتضاء الحق المشروع فما بعد عناية الله به من عناية لمن عقل عن الله. فالوقت المعلوم من جانب الحق هو عين ما خاطبك به الشرع في الحال، فكن بحسب قول الشارع في كل حال تكن صاحب وقت وهو علامة على أنك من السعداء عند الله، وهذا عزيز الوجود في أهل الله هو لآحاد منهم من أهل المراقبة لا يغفلون عن حكم الله في الأشياء.

وهنا زلّت أقدام طائفة من أهل الحضور مع الله في كل شيء فهم لا يغفلون عن الله طرفة عين ولكنهم يغفلون عن حكم الله في الأشياء أو في بعضها أو أكثرها، فمن لم يغفل عن حكم الله في الأشياء فما غفل عن الله فقد جمعوا بين الحضور مع الله ومع حكمه فهم أكثر علماً وأعظم سعادة، وهم أصحاب الوقت الذي يعطي السعادة. وبعض رجال الله علم أن الله لا يعدم الأشياء القائمة بأنفسها بعد وجودها ولا يتصف بإعدام أحوالها ولا إعراضها بعد وجودها، وإنما الأشياء تكون على أحوال فتزول تلك الأحوال عنها فيخلع الله عليها أحوالاً غيرها أمثالاً كانت أو أضداداً مع جواز إعدام الأشياء بمسكه الإمداد بما به بقاء أعيانها، لكن قضى القضية أن لا يكون الأمر إلاَّ هكذا ولذلك قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] ولكن ما فعل فإن الإرادة والمشيئة ما تحدث له إذ ليس محلاً للحوادث فمشيئته

أحدية التعلق لكنه في الأشياء بين أن يجمعها أو يفرقها كلاً أو بعضاً وهي الأكوان، فالوقت على الحقيقة عند الكامل جمع وتفرقة دائماً، ومن الناس من يشهد التفرقة خاصة في الجمع ولا يشهد جمع التفرقة فيتخيل أن ذلك عين الوقت، فإذا سئل عن الوقت يشبهه بالمبرد فيقول الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك، يقول: يفرق جمعيتك ولا يذهب عينك، فمن عرف الوقت وأن الحكم له فيه سكن تحت ما حكم به عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون ومائتان

في الهيبة

[نظم: البسيط]

إن الجمالَ مَهُوبٌ حيثما كانا ... لأن فيه جَلالَ المُلْكِ قد بَانَا

الحُسْنُ حلْيَتُه واللُّطفُ شيمَتُه ... لذاك نشهده روحاً ورَيْحَانَا

فالقلبُ يشهده يَسْطُو بخالقِهِ ... والعينُ تَشْهَدُه بالذَّوْقِ إنسانَا

اعلم أن الهيبة حالة للقلب يعطيها أثر تجلّي جلال الجمال الإلهيّ لقلب العبد، فإذا سمعت من يقول: إن الهيبة نعت ذاتيّ للحضرة الإلهيّة فما هو قول صحيح ولا نظر مصيب، وإنما هي أثر ذاتي للحضرة إذا تجلّى جلال جمالها للقلب، وهي عظمة يجدها المتجلي له في قلبه إذا أفرطت تذهب حاله ونعته ولا تزيل عينه، فلما تجلّى ربه للجبل جعله ذلك التجلّي دكاً فما أعدمه ولكن أزال شموخه وعلوه، وكان نظر موسىٰ في حال شموخه، وكان التجلّي له من الجانب الذي لا يلي موسىٰ، فلما صار دكاً ظهر لموسىٰ ما صير الجبل دكاً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] لأن موسىٰ ذو روح له حكم في مسك الصورة على ما هي عليه، وما عدا الحيوان فروحه عين حياته لا أمر آخر، فكان الصعق لموسىٰ مثل الدك للجبل لاختلاف الاستعداد، إذ ليس للجبل روح يمسك عليه صورته، فزال عن الجبل اسم الجبل ولم يزل عن موسىٰ بالصعق اسم موسىٰ ولا اسم الإنسان، فأفاق موسىٰ ولم يرجع الجبل جبلاً بعد دكّه لأنه ليس له روح يقيمه، فإن حكم الأرواح في الأشياء ما هو مثل حكم الحياة لها، فالحياة دائمة في كل شيء، والأرواح كالولاة وقتاً يتصفون بالعزل، ووقتاً يتصفون بالولاية، ووقتاً بالغيبة عنها مع بقاء الولاية، فالولاية ما دام مدبراً لهذا الجسد الحيواني والموت عزله والنوم غيبته عنه مع بقاء الولاية عليه، فإذا علمت أن الهيبة عظمة وأن العظمة راجعة لحال المعظم بكسر الظاء اسم فاعل علمت أنها حالة القلب فهو نعت كياني، ومستنده في الإلهية من العلوم التي لا تنقال ولا تذاع ولا يعرفه إلاَّ من علم أن الوجود هو الحق وأنه المنعوت بكل نعت، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] يعني تلك العظمة، ولما كانت العظمة تعطي الحياء والحياء نعت إلهيّ فإن الله يستحي من ذي الشيبة يوم القيامة لعظيم حرمة الشيب عنده تعالىٰ، فقد نعت نفسه بأن بعض الأشياء تعظم عنده كما قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ١٥] فقد قامت به

العظمة لذلك الذي هان على الجاهل بقدره من الافتراء على بيت رسول الله ﷺ والألفاظ لما كانت محجورة من الشارع علينا فلا نطلقها إلاً حيث أمرنا بإطلاقها، فوقع الفرق بين الهيبة والعظمة، فنطلق العظمة في ذلك ولا نطلق الهيبة ولا الخوف ولا القبض فاعلم ذلك، والله سبحانه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون ومائتان

في الأنس

[نظم: البسيط]

الأنسُ بالأنس لا بالصُّور يجمعنا ... فاحذَرْ فإنك مَمْكُورٌ ومَخْدوعُ

لا تَقْفُ ما لستَ تدريه وتَجْهَلُه ... فإن ودَّكَ مَفْروقٌ ومَجْمُوعُ

أنت الإمامُ ولكنْ فيكَ حكمَتُه ... تُعْطي بأنك مَخْلوقٌ ومَصْنُوعُ

فكيف يأنَسُ من تُفْني شَوَاهِدُه ... أكوانَه وهو في الأسْمَاع مَسْمُوعُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الأنس عند القوم ما تقع به المباسطة من الحق للعبد، وقد تكون هذه المباسطة على الحجاب وعلى الكشف، والأنس حال القلب من تجلّي الجمال وهو عند أكثر القوم من تجلّي الجمال وهو غلط من جملة ما غلطوا فيه، لأن لهم أغاليط في العبارة لعدم التمييز بين الحقائق، فما كل أهل الله رزقوا التمييز والفرقان مع الشهود الصحيح، ولكن الشأن في معرفة ما هو هذا الذي وقع عليه الشهود، وقد رأينا جماعة ممّن شهد حقاً ولكن ما عرف ما شهد وحمله على خلاف طريقه، فلا بدّ مع التجلّي من تعريف إلهيّ إما بصفاء إلاً لها، وإما بما شاءه الحق من أنواع التعريف، وللأنس بالله علامة عند صاحبه فإنه موضع يغلط فيه كثير من أهل الطريق، فيجدون أنساً في حال ما يكون عليه فيتخيل أن ذلك أنس بالله، فإذا فقد ذلك الحال فقد الأنس بالله، فعندنا وعند الجماعة أن أنسه كان بذلك الحال لا بالله، لأن الأنس بالله إذا وقع لم يزل موجوداً عنده في كل حال، ولذلك يقول القوم: من أنس بالله في الخلوة وفقد ذلك الأنس في الملأ فأنسه كان بالخلوة لا بالله.

واعلم أنه لا يصحّ الأنس بالله عند المحققين، وإنما يكون الأنس باسم إلهيّ خاص معين لا بالاسم الله، وهكذا جميع ما يكون من الله لعباده لا يصحّ أن يكون من حكم الاسم الله لأنه الاسم الجامع لحقائق الأسماء الإلهيّة، فلا يقع أمر لشخص معين في الكون إلاً من اسم معين، بل ولا يظهر في الكون كله أعني في كل ما سوى الله شيء يعمّه إلاً من اسم خاص معين لا يصحّ أن يكون الاسم الله فإنه من أحكامه أيضاً الغنى عن العالمين، كما أنه من أحكامه ظهور العالم وحبّه سبحانه لذلك الظهور، والغنى عن العالم لا يفرح بالعالم والله يفرح بتوبة عبده، فالاسم الله تعلم مرتبته ولا يتمكن ظهور حكمه في العالم لما فيه من التقابل، هذه مسألة عظيمة جليلة القدر صعبة التصوّر في الإلهيات، فإن الشيء إذا اقتضى أمراً لذاته فمن المحال أن تتصف الذات بالغنى عن ذلك الأمر كما لا تتصف

بالافتقار إليه، وقد ورد الغنى عن العالمين، فإن جعلناه غنياً عن الدلالة كأنه يقول: ما أوجدت العالم ليدل علي ولا أظهرته علامة على وجودي، وإنما أظهرته ليظهر حكم حقائق أسمائي وليست لي علامة على سوائي فإذا تجليت عرفت بنفس التجلي، والعالم علامة على حقائق الأسماء لا علّي، وعلامة أيضاً على أني مستنده لا غير، فالعالم كله ذو أنس بالله، ولكن بعضه لا يشعر أن الأنس الذي هو عليه هو بالله لأنه لا بدّ أن يجد أنساً بأمر ما بطريق الدوام أو بطريق الانتقال بأنس يجده بأمر آخر، وليس لغير الله في الأكوان حكم فأنسه لم يكن إلاّ بالله وإن كان لا يعلم، والذي ينظر فيه أنه أنس به فذلك صورة من صور تجليه، ولكن قد يعرف وقد ينكر فيستوحش العبد من عين ما أنس به وهو لا يشعر لاختلاف الصور، فما فقد أحد الأنس بالله ولا استوحش أحد إلاّ من الله، والأنس مباسطة، والاستيحاش انقباض، وأنس العلماء بالله إنما هو أنسهم بنفوسهم لا بالله إذ قد علموا أنهم ما يرون من الله سوى صورة ما هم عليه، ولا يقع أنس عندهم إلاّ بما يرون وغير العارفين لا يرون الأنس إلاّ بالغير فتدركهم الوحشة عند انفرادهم بنفوسهم، وكذلك الاستيحاش إنما يستوحشون من نفوسهم لأن الحق مجلاهم فهم بحسب ما يرونه فيهم بل فيه من أحوالهم فيقع الحكم فيهم بالأنس أو بالوحشة، وحقيقة الأنس إنما تكون بالمناسب، فمن يقول بالمناسبة يقول بالأنس بالله، ومن يقول بارتفاع المناسبة يقول: لا أنس بالله ولا وحشة منه، وكل واحد بحسب ذوقه فإنه الحاكم عليه، ومن له الإشراف من أمثالنا على المقامات والمراتب ميّز وعرف كل شخص من أين تكلم ومن نطقه، وأنه مصيب في مرتبته غير مخطئ بل لا خطأ مطلقاً في العالم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون ومائتان
في معرفة الجلال

[نظم: البسيط]

إن الجلالَ على الضدَّين يَنطلقُ ... وهو الذي بنُعوتِ القَهْر أَشْهَدَهُ

له العُلُوُّ ولا عُلُوّ يُماثِلُه ... له النُزولُ فكلُّ الخَلْق يَجْحَدُهُ

إني بكلِّ الذي قد قُلْتُ أعرِفُهُ ... وليس غيرَ الذي قد قلتُ أقصدُهُ

اعلم أن الجلال نعت إلهيّ يعطي في القلوب هيبة وتعظيماً وبه ظهر الاسم الجليل، وحكم هذا الاسم من أعجب الأحكام، فإن له حكم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] وله حكم قوله على لسان رسوله ﷺ: «**مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي وَجعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي**» فأنزل نفسه منزلة من هذه صفته من الافتقار إلى العبيد، وكذلك نزوله في قوله: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي**» ومن هذا الباب فرحه بتوبة عبده وتعجبه من الشاب الذي لا صبوة له وتبشبشه بالذي يأتي إلى المسجد للصلاة، هذا كله وأمثاله من نعوت التنزيه والتشبيه يعطيه حكم

الجلال والاسم الإلهيّ الجليل، ولهذا قلنا أنه يدل على الضدّين كالجون ينطلق على الأبيض والأسود، وكذلك القرء ينطلق على الحيض والطهر، ومن حضرة الجلال نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] فمن وصفه إنما وصف نفسه ولا يعرف منه إلاّ نفسه لأن ربّ العزّة لا يعينه وصف ولا يقيده نعت ولا يدل على حقيقته اسم خاص، وإن لم يكن الحكم ما ذكرناه فما هو ربّ العزّة، فإن العزيز هو المنيع الحمى، ومن يوصل إليه بوجه ما من وصف أو نعت أو علم أو معرفة فليس بمنيع الحمى، ولذلك عمّ بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ولحضرة الجلال السبحات الوجهية المحرقة، ولهذا لا يتجلى في جلاله أبداً، لكن يتجلى في جلال جماله لعباده فبه يقع التجلي فيشهدونه مظهر ما ظهر من القهر الإلهيّ في العالم: [الكامل]

إن الجليلَ هو الذي لا يُعْرَفُ ... وهو الذي في كلِّ حالٍ يُوصَفُ
فهو الذي يبدو فيُظْهِرُ نفسَه ... في خَلْقِهِ وهو الذي لا يُعْرَفُ

والجلال لا يتعلق به إلاّ العلماء بالله وما له أثر إلاّ فيهم وليس للمحبين إليه سبيل، هذا إذا كان بمعنى العلو والعزّة، وأنه إذا كان بالمعنى الذي هو ضدّ العزّة والعلو فإنّ المحبين يتعلقون به كما يتعلق به العارفون وحضرته من العماء إلى قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] وأما قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فذلك من أسمائه المؤثرة فينا خاصة والحافظة لنا والرقيبة علينا. وأما الأسماء التي تختص بالعالم الخارج عن الثقلين فأسماء أخر ما هي الأسماء التي معنا أينما كنا، وقد بيّنا في شرح الأسماء الحسنى معنى الاسم الجليل على الوجهين مختصراً في جزء لنا في شرحها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون ومائتان
في الجمال

[نظم: الطويل]

جميلٌ ولا يُهْوَى جَليٌّ ولا يُرَى ... وتَشْهَدُه الألبابُ من حيثُ لا تَدْري
ولا تُدركُ الأبصارُ منه سوى الذي ... تُنَزِّهه عنه عقولُ ذوي الأمْرِ
فإن قلتَ محجوبٌ فلستَ بكاذبٍ ... وإن قلتَ مشهودٌ فذاك الذي أدري
فما ثَمَّ محبوبٌ سواه وإنما ... سُلَيْمَى وليلى والزَّيانِبُ للسَّتْرِ
فهنَّ ستورٌ مُسْدلاتٌ وقد أتى ... بذلك نَظْمُ العاشقين مع النَّثْرِ
كمجنونِ ليلى والذي كان قَبْلَه ... كبشرٍ وهند ضَاقَ من ذِكْرهم صَدْري

اعلم أن الجمال الإلهيّ الذي تسمّى الله به جميلاً ووصف نفسه سبحانه بلسان رسوله أنه يحب الجمال في جميع الأشياء وما ثم إلاّ جمال، فإن الله ما خلق العالم إلاّ على صورته وهو جميل فالعالم كله جميل وهو سبحانه يحب الجمال، ومن أحب الجمال أحب الجميل،

والمحب لا يعذب محبوبه إلاّ على إيصال الراحة أو على التأديب لأمر وقع منه على طريق الجهالة، كما يؤدّب الرجل ولده مع حبّه فيه، ومع هذا يضربه وينتهره لأمور تقع منه مع استصحاب الحب له في نفسه، فمآلنا إن شاء الله إلى الراحة والنعيم حيث ما كنا، فإن اللطف الإلهيّ هو الذي يدرج الراحة من حيث لا يعرف من لطف به، فالجمال له من العالم، وفيه الرجاء والبسط واللطف والرحمة والحنان والرأفة والجود والإحسان والنقم التي في طيّها نعم، فله التأديب فهو الطبيب الجميل، فهذا أثره في القلوب، وأثره في الصور ما يقع به العشق والحب والهيمان والشوق ويورث الفناء عند المشاهدة، ومن هذه الحضرة تنتقل صورة تجليه فيها إلى المشاهد فينصبغ بها انتقال فيض كظهور نور الشمس في الأماكن ويسمّى ذلك النور شمساً وإن لم يكن مستديراً ولا في فلك، ثم يفيض الإنسان من تلك الصورة التي ظهر فيها عن الفيض الإلهيّ على جميع ملكه في ردّه إلى قصره، فينصبغ ملكه كله بصورة جمال لم يكن، فلا يفقد الإنسان في ملكه صورة ما شاهدها من ربه في رؤيته، فهو عند العلماء بالله تجلّ دائم دنيا وآخرة لا ينقطع، وعند العامّة في الجنة خاصة لكونهم لا يعرفون الله معرفة العارفين، وليس لتجلي الجلال في الجنة حكم أصلاً، وإنما محله الدنيا والبرزخ والقيامة، وبه تبقى النار والشقاء في الأشقياء مدّة بقائهم فيه إلى أن يرتفع الشقاء وتغلب الرحمة، فلا يبقى لتجلي الجلال في التعلق حكم، وتنفرد به الملائكة بطريق الهيبة والعظمة والخوف والخشوع والخضوع والله أعلم.

الباب الثالث والأربعون ومائتان
في الكمال

[نظم: البسيط]

لـيس الـكـمـالُ الـذي بـالـنَّـقْص تَـعْـرِفُـهُ ... إن الـكـمـالَ الـذي بـالـنَّـقْص مَـوْصُـوفُ

الـعـلـمُ يـشْـهَـدُه والـعـيـنُ تُـنْـكِـرُه ... لأنـه عَـدَمٌ والـنَّـقْـصُ مَـعْـروفُ

لـو لـم يـكـنْ لـم تَـكُـنْ عـيـنٌ ولا صفةٌ ... ولا وجـودٌ ولا حـكـمٌ وتَـصْـريـفُ

ألا تَـرَى الـتُّـسْـتُـرِيَّ الـحَـبْـرَ أثـبـتـه ... وهـو الـصـوابُ الـذي مـا فـيـه تَـخْـريـفُ

أراد بقول سهل إن لكذا سراً لو ظهر بطل، كذا أعلم أن الكمال الذي لا يقبل الزيادة لا يكون إلاّ لله من كونه غنياً عن العالمين. وأما الكمال الذي يقبل الزيادة فمثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: ٣١] كما أمر نبيه أن يقول: ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] فالكمال هو وقوف الإنسان على الصورة الرحمانية بطريق الإحاطة لذلك عند مقابلة النسخة حرفاً حرفاً، فيؤثر ولا يتأثر، ولا يميل ولا يؤثر، عدل في فضل ولا فضل في عدل، بل يرتفع الفضل والعدل، ويبقى الوجود والشهود وقبول القوابل بحسب استعدادها روحاً وجسماً، فلا ينسب إليه من حيث هو حكم أصلاً، وجميع النسب تتصف به القوابل، وهو على الوجه الواحد الذي يليق به، لا يقبل التغيّر ولا التأثّر، كما لا يقبل النور من حيث ذاته وعينه ألوان

الزجاج مع أنك تنظر إلى النور أحمر وأصفر وأخضر متنوّعاً بتنوّع ألوان الزجاج، فالنور ما انصبغ بالألوان ولكن هكذا تشهده العين، والعلم يقضي بأنه على صورته التي كان عليها ما تأثر في عينه بشيء من ذلك، ألا تنظر إليه في المساحة الهوائية التي بين موضع الزجاج وموضع النور المنعكس المتلوّن هل ترى في النور في هذه المساحة لوناً من تلك الألوان مع كونه قد انبسط على الزجاج؟ وحينئذ عمر المساحة الهوائية التي بين ما يظهر من الألوان وبين الزجاج وكقوس قزح، فالكامل من لا يقبل الزائد ونحن في مزيد علم دنيا وآخرة فالنقص بنا منوط، فكما لنا بوجود النقص فيه، فلنا كمال واحد وللحق كمالان: كمال مطلق وكمال يقول به حتى نعلم، فنسختنا من كمال حتى نعلم لا من الكمال المطلق فافهم فإنه سرّ عجيب في العلم الإلهيّ فنشهده تعالىٰ من كونه إلهاً لا من كونه ذاتاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والأربعون ومائتان
في الغيبة

[نظم: البسيط]

أغيبُ عنه ولي عينٌ تُشاهِدُه ... في حَضْرةِ الغيبِ والغُيَّابُ ما حَضَرُوا

ما في الوجودِ سواهُ في شَهادته ... وَغَيْبِه فانظروا في الغَيْب وافْتَكِرُوا

فتلكَ غَيْبَةُ مَنْ هاتيكَ حَالتُه ... فغَيْبَةُ القلب حالٌ ليس تُعْتَبَرُ

عمَّنْ تغيب وما في الكون من أحدٍ ... سوى الوجودِ فلا عينٌ ولا أثَرُ

اعلم أن الغيبة عند القوم غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل القلب بما يرد عليه، وإذا كان هذا فلا تكون الغيبة إلاّ عن تجلّ إلهيّ، ولا يصحّ أن تكون الغيبة على ما حدّوه عن ورود مخلوق فإنه مشغول غائب عن أحوال الخلق وبهذا تميزت الطائفة عن غيرها، فإن الغيبة موجودة الحكم في جميع الطوائف، فغيبة هذه الطائفة تكون بحق عن خلق حتى تنسب إليه على جهة الشرف والمدح وأهل الله في الغيبة على طبقات، وإن كانت كلها بحق فغيبة العارفين غيبة بحق عن حق، وغيبة من دونهم من أهل الله غيبة بحق عن خلق، وغيبة الأكابر من العلماء بالله غيبة بخلق عن خلق، فإنهم قد علموا أن الوجود ليس إلاّ الله بصور أحكام الأعيان الثابتة الممكنات، ولا يغيبه إلاّ صورة حكم عين في وجود حق، فيغيب عن حكم صورة عين أخرى تعطى في وجود الحق ما لا تعطى هذه، والأعيان وأحكامها خلق، فما غاب إلاّ بخلق عن خلق في وجود حق، فالعامّة مصيبة لبعض هذه المسألة، فإنها ينقصها منها في وجود حق، وغيبتها إنما هي بخلق عن خلق مثل الكمل من رجال الله، وما في الأعيان عين يكون حكمها مشاهدة للكل فلا تتصف بالغيبة، ولما لم تكن ثم عين لها وصف الإحاطة بالحضور مع الكل وأن ذلك من خصائص الإله فلا بدّ من الغيبة في العالم والحضور، وقد أومأنا إلى ما فيه كفاية في هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون ومائتان

في الحضور

وهو الحضور مع الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه مع الغيبة هكذا هو عند القوم: [المتقارب]

حضوري مع الحقِّ في غَيْبَتي ... حُضُوري به فهو الحاضِرُ
هو الباطنُ الحقُّ في غَيْبَتي ... وعند حُضُوري هو الظَّاهِرُ
فإنْ فُتُّهُ فأنا أوّلٌ ... وإن فاتَني فأنا الآخِرُ

اعلم أنه لا تكون غيبة إلاَّ بحضور، فغيبتك من تحضر معه لقوّة سلطان المشاهدة، كما أن سلطان البقاء يفنيك لأنه صاحب الوقت، والحكم والتفصيل في الحضور في أهله كما ذكرناه في الغيبة سواء، فكل غائب حاضر وكل حاضر غائب لأنه لا يتصوّر الحضور مع المجموع وإنما هو مع آحاد المجموع، لأن أحكام الأسماء والأعيان تختلف والحكم للحاضر، فلو حضر بالمجموع لتقابلت وأدّى إلى التمانع وفسد الأمر، فلا يصحّ الحضور مع المجموع لا عند من يرى حضوره بحق ولا عند من يرى حضوره بخلق، فإن حكم الأعيان مثل حكم الأسماء في التقابل والاختلاف وظهور السلطان، فتدبر ما ذكرناه تجد العلم إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون ومائتان

في السكر

[نظم: مجزوء الكامل]

السُّكْرُ أقعَدَني على العز ... شِ المحيطِ المُسْتَدِيرْ
وأنا بقاعٍ قَرْقَرٍ ... من كل ما يُغْني فَقيرْ
والسُّكْرُ من خَمْرِ الهَوَى ... والسُّكْرُ من نَظَرِ المُديرْ
قد قالَ قَبْلي شاعرٌ ... وهو العليمُ به الخَبيرْ
فإذا سَكِرْتُ فإنني ... ربُّ الخَوَرْنَقِ والسَّديرْ
وإذا صَحَوْتُ فإنني ... ربُّ الشُّوَيْهَةِ والبَعيرْ

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] وهو علم الأحوال، ولهذا يكون لمن قام به الطرب والالتذاذ، وأما حدّهم له بأنه غيبة بوارد قويّ فما هو غيبة إلاَّ عن كل ما يناقض السرور والطرب والفرح وتجلّي الأمانيّ صوراً قائمة في عين صاحب هذا الحال، ورجال الله تعالىٰ في حال السكر على مراتب نذكرها إن شاء الله، فسكر طبيعيّ وهو ما تجده النفوس من الطرب والالتذاذ والسرور والابتهاج بوارد الأمانيّ إذا قامت الأمانيّ له في خياله صوراً قائمة لها حكم وتصرف يقول شاعرهم: [مجزوء الكامل]

فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسَّدير

فإنه كان يرى ملكه لذينك غاية مطلوبه، فلما سكر قامت له صورة الخورنق والسَّدير ملكاً له يتصرّف فيه في حضرة تخيله وخياله أعطاه إياه حال السكر فإن له أثراً قوياً في القوّة المتخيلة، فالواقفون من أهل الله مع الخيال لهم هذا السكر الطبيعيّ، فإنهم لا يزالون يراقبون ما تخيلوا تحصيله من الأمور المطلوبة لهم من الله حتى يتقوّى عندهم ذلك ويحكم عليهم، مثل قوله عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وقوله ﷺ أيضاً: «**إِنَّ اللَّهَ فِي قِبْلَةِ الْمُصَلِّي**» وقول الصاحب لرسول الله ﷺ وقد سأله ﷺ عن حقيقة إيمانه حين قال: أنا مؤمن حقاً، فقال رضي الله عنه: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً يعني في يوم القيامة، فجاء بما تعطيه حضرة الخيال، فإذا تقوّى مثل هذا التخيل أسكر النفس وقامت له صورة ما تخيل ينظر إليها بعينه ويخبر عنها كرؤية صاحب الرؤيا سواء وتلقى إليه ويصغي إليها وهو لا يعلم أنه يخاطب ويشاهد صورة خيالية بل يقطع أن ذلك شهود حسيّ، فإذا صحا من ذلك السكر ارتفع عنه ذلك الأمر من حيث صورته مع بقاء تخيله عند بعض الناس ممّن يتذكر ذلك في الذهن كما يرتفع عنه صورة ما رأى في النوم بالانتباه.

ومن أهل هذا المقام من يبقي الله له تلك الصورة المتخيلة في حال صحوه فيثبتها له محسوسة بعدما كانت متخيلة، كالجنة التي خيلها إبليس في الخيال المنفصل لسليمان عليه السلام ليفتنه بها ولا علم لسليمان عليه السلام بذلك فسجد شكراً لله تعالىٰ حيث أتحفه بها فأبقاها الله له جنة محسوسة يتنعم بها ورجع إبليس خاسراً لأنه أراد بذلك فتنته، وما علم أن أهل الله إذا وقع لهم مثل هذا أنه يحدث ذلك عبادة لله عندهم، هذا والمخيل عدوّ فكيف حالهم إذا كان خيالهم منهم وليسوا بأعداء نفوسهم فإنهم يسعون في خلاصها ونجاتها، فإذا كان سكرهم الطبيعي أثمر لهم مثل هذا فما ظنك بما فوقه من مراتب الإسكار؟

وأما السكر العقلي فهو شبيه بالسكر الطبيعي في رد الأمور إلى ما تقتضيه حقيقته لا إلى ما يقتضيه الأمر في نفسه، ويأتي الخبر الإلهي عن الله لصاحب هذا المقام بنعوت المحدثات أنها نعت لله فيأبى قبولها على هذا الوجه لأنه في سكرة دليله وبرهانه، فيرد ذلك الخبر لما يقتضيه نظره مع جهله بذات الحق، وهل تقبل هذا النعت أو لا تقبله؟ بل تخيل أنها لا تقبله فيمد رجله هذا العقل لسكره في غير بساطه فوقع في الحق بسكره ويعذره الحق في ذلك، لأن السكران غير مؤاخذ بما ينطق، فجرد عن الله ما نسبه الحق لنفسه، فإذا صحا هذا العاقل عن سكره بالإيمان لم يرد الخبر الصدق والقول الحق وقال: إن الحق أعلم بنفسه وبما ينسبه إليه من العقل، فإن العقل مخلوق والمخلوق لا يحكم على الخالق فإنه ما من مصنوع إلاّ ويجهل صانعه، فإن الشقة تجهل صانعها وهو الحائك، كذلك الأركان مع الأفلاك، وكذلك الأفلاك مع النفس، والنفس مع العقل، وكذلك العقل مع الله، وغاية ما علم من علم منهم افتقاره إليه واستناده في وجوده إلى صانعه ولا يحكم عليه بشيء، ولا سيما إن أخبر الصانع عن نفسه بأمور فليس للمصنوع إلاّ قبولها فإن ردّها فلسكر قام به، فخمره الذي يشرب إنما هو دليله

وبرهانه، ويقويه على ذلك ما تعطيه بعض الأخبار الإلهية من النعوت في حقّه الموافقة لبرهانه ودليله فهذا سكر عقلي، فالسكر الطبيعي سكر المؤمنين، والسكر العقلي سكر العارفين، وبقي سكر الكمل من الرجال وهو السكر الإلهيّ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً»** والسكران حيران، فالسكر الإلهيّ ابتهاج وسرور بالكمال وقد يقع في التجلي في الصور سكر بحق قال بعضهم: [مخلع البسيط]

وأَسْكَرَ القَوْمَ دَوْرُ كأسٍ وكان سُكْري من المُدِيرِ

فمن أسكره الشهود فلا صحو له البتة، وكل حال لا يورث طرباً وبسطاً وإدلالاً وإفشاء أسرار إلهية فليس بسكر، وإنما هو غيبة أو فناء أو محق، ولا يقاس سكر القوم في طريق الله على سكر شارب الخمر فإنه ربما أورث بعض من يشربه غماً وبكاء وفكرة وذلك لما يقتضيه مزاج ذلك الشارب ويسمونه سكران، ومثل هذا لا يكون في سكر الطريق، وقليل من الناس من يفرق بين الحيوان والسكران، وعندنا في العلم الطبيعي أن شارب الخمر إذا أورثه غماً وبكاء وحزناً وفكرة وإطراقاً لما يقتضيه طبعه ومزاجه فليس بسكران ولا هو صاحب سكر، فإن بعض الأمزجة لا تقبل السكر ولا أثر له فيها، فغيبة السكران ليست عن إحساسه وإنما غيبته عن مقابل الطرب لا غير، ونظير هؤلاء الذين لا يطربون نظير أصحاب الفكرة والغيبة والفناء، ويفارق السكر سائر الغيبات لأن الصحو لا يكون إلاً عن سكر والسكر يتقدم صحوه، وليس الحضور مع الغيبة كذلك ولا الفناء مع البقاء كذلك، لكنه مثل الصعق مع الإفاقة والنوم مع اليقظة، فإن النوم مقدم على الانتباه والغشية متقدمة على الإفاقة، وإنما ذكرنا هذا التفصيل من أجل مذهبهم في حدّ السكر أنه غيبة بوارد قوي فأطلقوا عليه اسم الغيبة، فيتخيل من لا ذوق له أن حكمه حكم الغيبة، فيقيس فيخطئ في تربيته للمريد إن كان من المتشيخين فيلتبس عليه الأمر فلا يفرق في حال المريد بين سكره وغيبته وفنائه، والسكران في هذا الطريق لا يغيب عن إحساسه، فإن غاب كما يراه الحنفيون في سكر شارب الخمر فقد انتقل عندنا من حال السكر إلى حال فناء أو غيبة أو محق ولم يعقب سكره صحو بل انتقل من حال سكر إلى حال فناء أو غيره من الأحوال المغيبة عن بعضه أو كله، ولا يتخيل أن السكر لما كان على هذه المراتب المتميزة أنه يمكن أن يكون لصاحب هذه الحال سكران أو يجمعها كلها لما هو عليه من الحقائق كما قررنا في بعض المسائل من جمع الإنسان لأمور كثيرة لحقائق تطلبها منه، ولا سيما وقد أنشد بعض من أسكره الخمر والهوى فقال: [الكامل]

سُكْرَانِ سُكْرُ هوًى وسُكْرُ مُدَامَةٍ فَتَى يفيقُ فَتًى به سُكْرَانِ

فأخبر أنه قام به سكران وسكر أهل الله ليس كذلك فإن المعرفة تمنع منه، فإن السكران الإلهي لا يتمكن أن يكون له السكر العقلي فإن الشهود يمنع من ذلك، والسكران بالسكر العقلي لا يتمكن له أن يتمكن منه السكر الطبيعي فإن دليله ينفيه، فإنه إذا كان يردّ حكم السكر الإلهيّ فكيف يقبل حكم السكر الطبيعي؟ وإنما السكران من أهل الله يرتقي في سكره من سكر إلى سكر لا يجمع بينهما مثل ما قال هذا الشاعر، وما استشهد به في الطريق إلاّ صاحب

قياس لا صاحب ذوق، فمن أسكره السكر الطبيعي ثم جاءه السكر العقلي فإن السكر الطبيعي يفارق المحل بالضرورة ويزول حكمه عن صاحبه، وما هو الأمر في هذه الإسكارات بالتدريج قد يوهب الإنسان السكر ابتداء أعني السكر الإلهي فلا يمكن أن يكون له ذوق السكر العقلي أبداً لكنه قد يكون له العلم به وبمرتبته من غير أن يكون له أثر فيه وهو الذوق، وقد يوهب السكر العقلي ابتداء ذوقاً فلا يتمكن له أن يكون له ذوق في السكر الطبيعي، لكن قد يتنقل إلى السكر الإلهيّ ذوقاً فيزول عنه حكم السكر العقلي ذوقاً وحالاً، ويبقى له العلم به من طريق الذوق لأنه قد تقدمه ذوقه قبل أن ينتقل، فهكذا هو الأمر في سكر أهل الطريق في الإلهيات، وأما في غير الإلهيات فقد يمكن أن يجمع بين السكرين في الصورة، وإذا حققت الأمر فيه وجدته على خلاف ذلك، فإنه قد يتخيل في الإنسان أنه إذا علم شيئاً فهو صاحب ذوق له وليس الأمر كذلك فإن الذوق لا يكون إلاّ عن تجلّ والعلم قد يحصل بنقل الخبر الصادق الصحيح فهكذا فلتعرف طريق الله يا وليّ فقد أعطيتك ميزان الأمور في هذه المقامات وأريتك مستندها، وما تجد هذا البيان في غير هذا الكتاب في كلام هذه الطائفة إلاّ أن تكون إشارات منهم إلى ذلك في بعض ما ينقل عنهم فإنهم عالمون به ضرورة إذا كانوا أصحاب ذوق وهم أصحاب ذوق، إذ لا يكون منهم إلاّ من هو صاحب ذوق، فالطبع يشهده فيسكر، والعقل يشهده فيسكر، والسر يشهده فيسكر، ولا تجتمع هذه الإسكارات أبداً لأحد في وقت واحد وإن كان الكل من أهل الله، كما أن الظالم لنفسه ما هو مقتصد فيما هو ظالم ولا سابق فيما هو مقتصد مع كون كل واحد منهم مصطفى من ورثة الكتاب الإلهيّ، بل يعطي الكشف الصحيح أنه لا يكون ظالماً لنفسه من ذاق الاقتصاد، وكذا ما بقي من غير تقييد فإن حكم الأذواق في الأمور وحصول العلم عنها ما هو مثل حكم سائر الطرق فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ولو شاء لهداكم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الباب السابع والأربعون ومائتان

في الصحو

[نظم: البسيط]

الصَّحْوُ يأتي بعين العلم والأدبِ ... إن لم يكنْ صَيْلَماً للحُكْم والسَّبَبِ
ووارِدُ الصَّحْو أقْوَى عند طائفةٍ ... من وارِدِ السُّكرِ إذ يُغْني عن الطَّرَبِ
واللَّهْوُ تحيا به كلُّ النفوس وما ... في وارِدِ الصَّحْو من لهوٍ ومن لَعبِ
لذاك قوَّاه أقوامٌ وأضعَفَهُ ... قومٌ وعندي فحُكْمُ الوقت للنَّسَبِ

اعلم أن الصحو عند القوم رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي، واعلم أنهم قد جعلوا في حدّ السكر أنه وارد قوي، وكذلك الصحو أنه وارد قوي، وما قالوا إنه أقوى، وذلك أن المحل الموصوف بالسكر والصحو لهذين الواردين مع استوائهما في القوّة فيتمانعان، بل وارد السكر أولى فإنه صاحب المحل فله المنع، ولكن لا يتمكن لورود وارد

على محل إلاّ بنسبة واستعداد من المحل يطلب بتلك النسبة أو الاستعداد ذلك الوارد المناسب وإن تساوت الواردات، فإذا جاء الوارد وفي المحل غيره فوجد النسبة والاستعداد يطلبه حكم عليه وأزال عنه حكم الوارد الآخر الذي كان فيه لا لقوته وضعف الآخر بل للنسبة والاستعداد. واعلم أنه لا يكون صحو في هذا الطريق إلاّ بعد سكر، وأمّا قبل السكر فليس بصاحٍ ولا هو صاحب صحو، وإنما يقال فيه ليس بصاحب سكر بل يكون صاحب حضور أو بقاء وغير ذلك.

ثم اعلم أن صحو كل سكران بحسب سكره على ميزان صحيح، فلا بدّ أن يأتي بعلم محقق استفاده في غيبة سكره، فإن كان صحوه صيلماً فما كان قط سكران سكر الطريق إذ العلم شرط في الصاحي من السكر هكذا هو طريق أهل الله، لأنّ الجود الإلهيّ ما فيه بخل ولا في قدرته عجز، فإذا صحا كتم ما ينبغي أن يكتم وأذاع ما ينبغي أن يذاع، وقوله في حال صحوه مقبول لأنه شاهد عدل، وقول السكران وإن كان شاهد عدل فإنه لا يقبل إذا ناقض قول الصاحي وإن كان حقاً، ولكن إذا قيل الحق في غير موطنه لم يقبل وربما عاد وباله على قائله مع كونه حقاً إذ كل قول حق لا يكون محموداً عند الله، وهذا معلوم مقرّر في شرع الله في العموم والخصوص كالشبليّ والحلاج، فقال الشبليّ: شربت أنا والحلاج من كاس واحد فصحوت وسكر فعربد فحبس حتى قتل، والحلاج في الخشبة مقطوع الأطراف قبل أن يموت فبلغه قول الشبليّ فقال: هكذا يزعم الشبليّ لو شرب ما شربت لحلّ به مثل ما حلّ بي أو قال مثل قولي، فقبلنا قول الشبليّ ورجحناه على قول الحلاج لصحوه وسكر الحلاج، فالصحو بالله والسكر بالله لا بدّ فيه من علم بالله، وما لا يعطي علماً فليس بصحو الطريق ولا سكره، وقد تقدم تقسيم السكر فذلك التقسيم يرد على الصحو فإنه لكل سكر صحوان لم يمت صاحب السكر في حال سكره فيكون صحوه في البرزخ، ومنهم من يبقى على سكره في البرزخ إلى البعث.

واعلم أنه إن تقدم للعبد سكر طبيعيّ أو عقليّ ثم أزالهما أو أحدهما السكر الإلهيّ فالسكر الإلهيّ صحو من هذا السكر الذي كان في المحل، وإن لم يتقدم لصاحب السكر الإلهيّ في المحل سكر عقليّ ولا طبيعيّ فليس سكره الإلهيّ بصحو بل هو حال سكر ورد عليه، ومعنى الصحو أنه ينكشف له حق الله في الأمور التي استفادها في حال سكره فيعلم عند صحوه ما ينبغي أن يذاع منها في العموم والخصوص وما ينبغي أن يستر، فإن كان قد أذاع منها في حال سكره شيئاً فيعطيه الصحو أن يستغفر الله من ذلك وعذره مقبول، وإنما يستغفر لأنّ السكران لا بدّ أن يبقى فيه من الإحساس ما يكون معه الطرب، فلو لم يبق معه إحساس لكان مثل النائم يرتفع عنه القلم أي لا يلزمه الاستغفار، وهذا الفرق بين السكران والمجنون، وإن كان كل واحد منهما من أهل الإحساس فإن المجنون ارتفع عنه الحكم ولم يرتفع عن السكران، ومن حاله الاستغفار ممّا ظهر منه ما هو مثل حال من لم يقع منه ما يوجب الاستغفار، فإن الاستغفار عندنا في طريق الله يكون في مقامين: المقام الواحد ما ذكرناه وهو

أن يبدو منه ما ينبغي أن يكون مستوراً فيجب عليه الاستغفار من ذلك، وقد يقع الاستغفار ممّن لم يبد منه شيء يوجب الاستغفار فيستغفر من هذا مقامه أي يطلب أن يستره الله في كنف عنايته أن يحكم عليه حال من شأنه إذا لم يستره الله في كنف عنايته أن يبدو منه بحكم ذلك الحال ما ينبغي أن يستر، وهذا هو المقام الثاني الذي لأهل الاستغفار، فيبتدؤون بطلب الستر من الله عن حكم حال يوجب عليهم الاعتذار من وقوعه، وهذا هو استغفار الأكابر من الرجال المعصومين، ولذلك ما سمع من نبي قط في حال نزول الوحي عليه كلام حتى يسري عنه، فإذا صحا حينئذ يخبر بما يجب، ولهذا ما نقل عن نبي قط أنه ندم على ما قاله ممّا أوحي إليه فيه، وأمّا ما كان عن نظر من غير وارد وحي فقد يمكن أن يرجع عن ذلك ويندم على ما جرى منه في ذلك، وقد وقع منه مثل هذا في أسارى بدر وسوق الهدي في حجة الوداع وغير ذلك.

ولما كان في الصحو انكشاف لمراتب الأمور قدمناه في الفضيلة على السكر أي صاحبه مقبول الحكم لمعرفته بالمواطن، وإن كان السكران صاحب حق، ألا ترى الصحو في السماء إذا أصحت، أي زال غيمها وانكشفت لتعطي الشمس من حرارتها لما يخرج من الأرض من النبات وتسخين العالم لأنّ لها أثراً في ذلك، كما أعطى الغيم ما في قوّته من الرطوبة في الأرض لأجل ذلك النبات فأفاد حال السكر وحال الصحو في الطبيعة، فإذا لم تقع فائدة عند السكران في الطريق ولا عند الصاحي منه فما هو من أهل الطريق بل يكون كالصحو الذي معه القحط المسمّى صيلماً وهو الذي أشرنا إليه في الأبيات في أوّل هذا الباب، فصحو السكر كله أدب وعلم والناس فيه متفاضلون تفاضلهم في السكر: [مخلع البسيط]

فكلُّ سُكْرٍ له احْتِكَامٌ وكلُّ صَحْوٍ له ثَبَاتُ

واعلم أن من الصاحين من يصحو بربه، ومنهم من يصحو بنفسه، والصاحي بربه لا يخاطب في صحوه إلاّ ربّه ولا يسمع إلاّ منه، فلا يقع له عين إلاّ على ربه في جميع الموجودات وهو على أحد مقامين: إما أن يكون يرى الحق من وراء حجاب الأشياء بطريق الإحاطة مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [سورة البروج: الآية ٢٠] وإما أن يرى الحق عين الأشياء وهنا ينقسم رجال الله على قسمين: قسم يرى الحق عين الأشياء في الأحكام والصور، وقسم يرى الحق عين الأشياء من حيث ما هو قابل لحكم الصور وأحكامها لا من حيث عين الصور، فإن الصور من جملة أحكام الأعيان الثابتة، فتختلف أحوال رجال الله في صحوهم بالله، وأما من صحا بنفسه فإنه لا يرى إلاّ أشكاله وأمثاله ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] خاصة ولا يعطي مقامه ولا حاله أن يتم الآية ذوقاً وإن تلاها وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وصاحب الذوق الأوّل يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ذوقاً وتلاوة فيرى صاحب صحو النفس أن الحق في عزلة عنه كما يراه من جعله في قبلته إذا صلّى ولا يراه أنه هو المصلي، وهذا القدر من الإشارة في معرفة الصحو كاف، والصحو والسكر من الألفاظ المحجورة المختصة بالأكوان فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون ومائتان

في الذوق

[نظم: البسيط]

لـكـلِّ مـبـدإٍ مَـجْـلَـى فـي تَـجَـلِّـيـهِ ... ذوقٌ يـنـبِّـيءُ عـن مَـغْـنَـى تَـخَـلِّـيـهِ

إن الـتَّـجَـلِّـيَ بـالأسـمـاء يـحْـكُـمُـهـا ... وذلـك الـحـكـمُ مـن أغـلَـى تَـوَلِّـيـهِ

إذا تـــدلَّـــى إلـــى أمـــرٍ يـــعـــنُّ لـــه ... كـــان الـــدنـــوُّ إلـــيـــنـــا فـــي تَـــدَلِّـــيـــهِ

لـمـا تَـلَـقَّـاه قـلـبـي فـي مَـنَـازِلِـهِ ... كـان الـتَّـرقِّـي بـه إلـى تَـجَـلِّـيـهِ

اعلم أن الذوق عند القوم أوّل مبادي التجلي وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعداً كان شرباً، وهل بعد هذا الشرب ري أم لا؟ فذوقهم في ذلك مختلف فيه، وقد ذكر عن بعضهم أنه شرب فارتوى نقل عنه ذلك، ونقل عن أبي يزيد أن الري محال، وكل نطق بحاله، ولكل صاحب قول وجه عندنا صحيح في الطريق، وعندنا في هذه المسألة تفصيل يرد إن شاء الله فيما بعد في باب الشرب أو الريّ أو في باب عدم الري إن ذكرنيه الله فابحث عليه في آخر هذه الأبواب من هذا الكتاب.

اعلم أن قولهم أوّل مبادئ التجلي إعلام أن لكل تجلّ مبدأ هو ذوق لذلك التجلي، وهذا لا يكون إلاّ إذا كان التجلي الإلهيّ في الصور أو في الأسماء الإلهية أو الكونية ليس غير ذلك، فإن كان التجلي في المعنى فعين مبدئه عينه ماله بعد المبدأ حكم يستفيده الإنسان بالتدريج، كما يستفيد معاني تلك الصورة المتجلي فيها أو معاني الأسماء كلها كل اسم منها، فيرى في المبدأ ما لا يراه من ذلك الاسم بعد ذلك، وصاحب المعنى مبدأ كل شيء عينه فلا يستفيد منه بعد هذه الإفادة الكلية، فله التفصيل في التعبير عن ذلك الأمر الواحد وهو المراد بقولنا في صدر هذا الكتاب: [الكامل]

حـتَّـى بـدَتْ لـلـعـيـن سُـبْـحَـةُ وجْـهِـهِ ... وإلـــى هَـــلُـــمَّ لَـــمْ تَـــكُـــنْ إلاَّ هِـــيَ

فكان مبدؤها عينها، وكل ما نأتي به بعد ذلك في جميع كلامنا إنما هو تفصيل لذلك الأمر الكلي تتضمنه تلك النظرة في تلك العين الواحدة وأكثر الناس على خلاف هذا الذوق ولهذا لا ينتظم كلامهم، ويطلب الناظر فيه أصلاً يرجع إليه جميع أقوالهم فلا يجد، وكلامنا مرتبط بعضه ببعضه لأنه عين واحدة وهذا تفصيلها، ويعرف ما قلناه من يعرف مناسبة آي القرآن في نسق بعضها إلى بعض، فيعرف الجامع بين الآيتين وإن كان بينهما بعد ظاهر فذلك صحيح، ولكن لا بدّ من وجه جامع بين الاسمين مناسب هو الذي أعطى أن تكون هذه الآية مناسبة لما جاورها من الآيات لأنه نظم إلهيّ، وما رأينا أحداً ذهب إلى النظر في هذا إلاّ الرمانيّ من النحويين فإن له تفسير للقرآن أخبرني من وقف عليه أنه نحا في القرآن هذا المنحى وما وقفت عليه، لكني رأيت بمراكش ببلاد المغرب أبا العباس السبتي صاحب الصدقات يسلك هذا المسلك وفاوضته فيه وكان من أصحاب الموازين.

ثم اعلم أن الذوق يختلف باختلاف التجلي، فإن كان التجلي في الصور فالذوق خيالي، وإن كان في الأسماء الإلهية والكونية فالذوق عقلي، فالذوق الخياليّ أثره في النفس، والذوق العقليّ أثره في القلب، فيعطي حكم أثر ذوق النفس المجاهدات البدنية من الجوع والعطش وقيام الليل، وذكر اللسان، والتلاوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ورمي ما تملكه اليدان، كان وحده لا تكون له عائلة ولا شيخ، فإن كان بين يدي شيخ معتبر يربيه فيرمي ما بيده بين يدي ذلك الشيخ ويخرج عنه بالكلية ظاهراً وباطناً ولا يبقى له ملكاً، وإن كره ذاك بباطنه لضعفه أو أدركته فيه مشقة فلا ينظر بإخراج ذلك من يده الالتذاذ بذلك، بل إذا أخرجه عن مشقة أخرجه بنظر صحيح ثابت لا يتمكن له في نفسه إزالة ما نواه في ذلك، وإذا أخرجه عن يده بلذة فما أخرجه بعقله، فإن ارتفعت اللذة يمكن أن يدركه الندم بخلاف الكاره، فإنه إذا أخرجه مع الكره ثم بدا له في نفسه بالعناية الإلهية ما أزال الكره عنه انتقل إلى حالة الالتذاذ بذلك فهو أثبت في المقام، وهكذا كان خروجنا عمّا بأيدينا، ولم يكن لنا شيخ نحكمه في ذلك ولا نرميه بين يديه، فحكمنا فيه الوالد رحمه الله لما شاورناه في ذلك، فإنا تركنا ما بأيدينا ولم نسند أمره إلى أحد لأنا لم نرجع على يد شيخ ولا كنت رأيت شيخاً في الطريق بل خرجت عنه خروج الميت عن أهله وماله، فلما شاورنا الوالد وطلب منا الأمر في ذلك حكمناه في ذلك، ولم أسأل بعد ذلك ما صنع فيه إلى يومي هذا، هذا ما يعطي حكم ذوق النفس ولا بدّ منه لكل طالب، وأصله إتيان أبي بكر بجميع ما يملكه إلى النبي ﷺ حين قال له: ائتني بما عندك، وأتاه عمر بشطر ماله فإنه ﷺ ما حدّ لهم في ذلك، ولو حدّ لهم في ذلك ما تعدّى أحد منهم ما حدّه له رسول الله ﷺ، وإنما أراد ﷺ أن تتميز مراتب القوم عندهم فقال لأبي بكر: ما تركت لأهلك؟ فقال: الله ورسوله، وهذا غاية الأدب حيث قال: ورسوله، فإنه لو قال: الله لم يتمكن له أن يرجع في شيء من ذلك إلاّ حتى يردّه الله عليه من غير واسطة حالاً وذوقاً، فلما علم ذلك قال: ورسوله، فلو ردّ إليه رسول الله ﷺ من ماله شيئاً قبله لأهله من رسول الله ﷺ فإنه تركه لأهله، فما حكم فيه إلاّ من استنابه رب المال، فانظر ما أحكم هذا وما أشدّ معرفة أبي بكر بمراتب الأمور، وتخيل عمر أنه يسبق أبا بكر في ذلك اليوم لأنه رأى إتيانه بشطر ماله عظيماً. ثم قال لعمر بن الخطاب: ما تركت لأهلك؟ قال: شطر مالي، فقال رسول الله ﷺ: بينكما ما بين كلمتيكما، قال عمر: فعلمت أني لا أسبق أبا بكر أبداً، والإنسان ينبغي أن يكون عالي الهمة يرغب في أعلى المراتب عند الله ويوفي كل مرتبة حقها، فلم يردّ رسول الله ﷺ على أبي بكر شيئاً من ماله تنبيهاً للحاضرين على ما علمه من صدق أبي بكر في ذلك، فإن رسول الله ﷺ قد علم منه الرفق والرحمة، فلو ردّ شيئاً من ذلك عليه تطرّق الاحتمال في حق أبي بكر أنه خطر له رفق رسول الله ﷺ فعوض رسول الله ﷺ أهل أبي بكر بما يقتضيه نظره ﷺ. وجاءه عبد الرحمن بن عوف بجميع ماله فردّه عليه كله وقال: أمسك عليك مالك فإنه ما دعاه إلى ذلك ولو دعاه إلى ذلك لقبله منه كما قبله من أبي بكر.

ويعطي حكم ذوق العقل الرياضات النفسية وتهذيب الأخلاق فتتضمن الرياضة المجاهدات البدنية ولا تتضمن المجاهدة الرياضات والرياضات أتم في الحكم، فإن النبيّ ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فمن جبل عليها فهو منوّر الذات مقدس ومن لم يجبل عليها فإن الرياضة تلحقه بها وتحكم عليه والرياضة تذليل الصعب من الأمور، فمن ذلّل صعباً فقد راضه وأزال عن النفس جموحها فإنها تحب الرياسة والتقدم على أشكالها، والرياضة تمنع النفس من هذا الخاطر وسلطانه ولا ترى لها شفوفاً على غيرها لاشتراكها معهم في العبودية وإحاطة القبضة بالكل فبماذا ترأس فتمتثل أمر الله من حيث أنها مخاطبة من عند الله بذلك، وتود أن يكون كل مخاطب من العبيد مسارعاً إلى امتثال أمر سيده إيثاراً لجنابه ما يخطر لها في المسارعة أن تسبق غيرها من النفوس، فيكون لها بذلك مزية على غيرها لا يقتضي مقام الرياضة ذلك، فإن الرياضة خروج عن الأغراض النفسية مطلقاً من غير تقييد.

وأما الذوق الذي مبدؤه نفس عينه كما قدمنا فلا يحتاج إلى رياضة ولا مجاهدة، فإن الرياضة لا تكون إلاّ في صعب الانقياد كثير الجموح أو منعوت بالجموح، والمجاهدة إحساس بالمشقة، وهذه العين التي ذكرناها ما تركت صعباً فتحكم عليه الرياضات فهو ذلول في نفسه أعطته ذلك مشاهدة تلك العين دفعة.

وأما الإحساس بالمشقات البدنية فذلك حسّ الطبع لا حسّ النفس، فهو صاحب لذة في مشقة يحكم فيها بحكم ما عين الله له من الحقوق حيث قال له على لسان المبين عنه وهو رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**» فالذائق لهذه العين حكمه ما شرع له ليس له ولا عنده رياضة في قبول ذلك أصلاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. والذوق يعطيك بعد ذلك التجلي العلم ومنه تحقيق ميزانه ومرتبته فيتأدب معه بما يستحقه في النظر إليه فإنه نظير العين فيما لا مساغ لها فيه، وهو الذي يورث عندك الظمأ إذا لم تكن مؤمناً فإن كنت مؤمناً فالإيمان يعطيك الظمأ ويشتد عطشك ويقل على قدر إيمانك، ومن ليس بمؤمن لا ظمأ عنده البتة لشرب التجلّي، وإن أدركه العطش للعلم فمن حيث النظر الفكري، وأما العلوم التجلي فليس إلاّ الإيمان ولا يحصل إيمان إلاّ والظمأ يصحبه فيزيد بالذوق فافهم.

الباب التاسع والأربعون ومائتان

في الشرب

[نظم: البسيط]

الـشُّـرْبُ بـيـن مَـقَـام الـذَّوْقِ والـرِّيِّ ... مـثـل الـقَـضـيَّـة بـيـن الـنَّـشْـر والـطَّـيِّ

إن الـحـقـوقَ الـتـي لـلـحـقِّ قـائـمـةٌ ... عـلـيـكَ فـاحـذَرْ إذا مـا كـنـتَ فـي الـغَـيِّ

أنـتَ الـغـنـيُّ بـه إذ كـان عَـيْـنَـكُـمُ ... فـلا سـبـيـلَ إلـى مَـطْـلٍ ولا لَـيِّ

غَيْلانُ لم يكُ مثلي في محبَّتهِ إذا تَناظرتِ العُشَّاقُ في مَيِّ
وصْلُ الوفاء وهَجْرُ المَطْل من شِيَمي فإنني حاتِميُّ الأصْلِ من طَيِّ

اعلم أيّدك الله أن الشرب هو ما تستفيده في النفس الثاني مضافاً إلى ما استفدته في نفس الذوق بالغاً ما بلغ على مذهب من يرى الري ومن لا يراه. واعلم أن الشرب قد يكون عن عطش وقد يكون عن التذاذ لا عن عطش كشرب أهل الجنة بعد شربهم من الحوض الذي قام لهم مقام الذوق فشربهم من الحوض عن ظمأ ثم لا يظمؤون بعد ذلك أبداً، فإن أهل الجنة لا يظمؤون فيها وهم يشربون فيها شرب شهوة والتذاذ لا شرب ظمأ ولا دفع ألمه. واعلم أن الشرب يختلف باختلاف المشروب، فإن كان المشروب نوعاً واحداً فإنه يختلف باختلاف أمزجة الشاربين وهو استعدادهم، فمن الناس من يكون مشروبه ماء، ومنهم من يكون مشروبه لبناً، ومنهم من يكون مشروبه خمراً، ومنهم من يكون مشروبه عسلاً بحسب الصورة التي يتجلّى فيها ذلك العلم، فإن هذه الأصناف صور علوم مختلفة قد ذكرناها في جزء لنا سميناه مراتب علوم الوهب، ودليلنا على ما قلناه أنها علوم رؤيا النبيّ ﷺ فإنه قال: «**أُريتُ كَأني أُوتِيتُ بقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنهُ حَتى رَأَيتُ الرِّيَّ يَخْرجُ مِنْ أَظَافِرِي ثُمَّ أَعْطَيتُ فَضْلي عُمَرَ، قالوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قَالَ: العِلْمُ**» فهذا علم تجلّى في صورة لبن، كذلك تتجلى العلوم في صور المشروبات.

ولما كانت الجنة دار الرؤية والتجلي وما ذكر الله فيها سوى أربعة أنهار ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] علمنا قطعاً أن التجلي العلمي لا يقع إلاّ في أربع صور: ماء، ولبن، وخمر، وعسل، ولكل تجلّ صنف مخصوص من الناس وأحوال مخصوصة في الشخص الواحد، فمنه ما هو لأصحاب المنابر وهم الرسل، ومنه ما هو لأصحاب الأسرة وهم الأنبياء، ومنه ما هو لأصحاب الكراسي وهم الورثة الأولياء العارفون، ومنه ما هو لأصحاب المراتب وهم المؤمنون، وما ثم صنف خامس، وكل صنف يفضل بعضه على بعضه كما قال الله في ذلك: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٥٥] فإن الأعمال كانت هنا في زمن التكليف مقسمة على أربع جهات، ولذلك لما علم إبليس بهذه الجهات قال: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ولم يذكر بقية الجهات لأنه لم يقترن بها عمل فإنها للتنزل الإلهيّ والوهب الربانيّ الرحمانيّ الذي له العزّة والمنع والسلطان، فالعلوم وإن كثرت فإن هذه الأربعة تجمعها وهي مجال إلهية في منصات ربانية في صور رحمانية، وهي في حق قوم مع الأنفاس دائماً، وهم الذين لا يقولون بالري وفي حق قوم إلى أمد معين عينه لهم قوله تعالىٰ يوم الزور والرؤية ردّوهم إلى قصورهم وهم الذين يقولون بالري في هذه المشروبات كلها وفي بعضها، والمتنوع في الكل من الناس من يكون مشروبه واحداً ممّا ذكرناه لا ينتقل عنه أبداً.

ومنهم من يتنوّع في المشروبات وهو الأتم، وكان رسول الله ﷺ يحب مزج الماء

باللبن فيشربه ومزج العسل باللبن، وما بقي إلاّ الخمر وليست دار الدنيا بمحل لإباحته في شرع محمد ﷺ الذي مات عليه، فلم يمكن لنا أن نضرب به المثل بالفعل كما ضرب النبي ﷺ بالفعل بشرب اللبن بالماء وشرب العسل باللبن فشربه رسول الله ﷺ خالصاً وممزوجاً بما هو حلال له، ولذلك أيضاً كان رسول الله ﷺ يقول في اللبن إذا شربه: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ**» لأنه تقوم معه صورة ضرب المثل به في العلم في حديث الرؤيا الصحيح وهو مأمور بطلب الزيادة من العلم بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] فكان اللبن مذكراً له بطلب الزيادة منه، وكان يقول في سائر الأطعمة: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْه**» وكان ﷺ: «**إِذَا شَرِبَ مَاءَ زَمْزَمَ تَضَلَّعَ مِنْهُ**» وكان يحب الحلوى والعسل، فهذه كلها أعني المشروبات وضعها الله ضرب أمثلة لأصناف علوم تتجلى للعارفين في صور هذه المحسوسات، وخصّ الخمر بالجنة دون الدنيا، وقرن به اللذة للشاربين منه، ولم يقل ذلك في غيره من المشروبات وذلك لأنه ما في المشروبات من يعطي الطرب والسرور التام والإبتهاج إلاّ شرب الخمر فيلتذ به شاربه وتسري اللذة في أعضائه وتحكم على قواه الظاهرة والباطنة، وما في المشروبات من له سلطان وتحكم على العقل سوى الخمر، فهو للعلم الإلهيّ الذوقي الذي تمجه العقول من جهة أفكارها ولا يقبله إلاّ الإيمان، كما أن علم العلماء في علم هذا الطريق تهمة لأن علم هذا الطريق له أثر فيها فهو الحاكم المؤثر في غيره من أصناف العلوم، ولا يؤثر فيه غيره لقوّة سلطانه لأنه مؤثر في العقل، والعقل أقوى ما يكون، وكذلك يزيل حكم الوهم والوهم سلطان قوي، وليس يزيل حكمه من المشروبات إلاّ الخمر، فلا يقف لقوّة سلطانه عقل ولا وهم، وأعظم قوّة من هاتين في الإنسان ما يكون، ألا ترى إلى السكران يلقي نفسه في المهالك التي يقضي العقل والوهم باجتنابها، فحكم العلم المشبه به في العلوم حكمه، فلو أبيح في هذه الشريعة مع ما أعطى الله هذه الأمّة من الكشف والفتوح والإمداد في العلوم وثبوت القدم فيها لظهرت أسرار الحق على ما هي عليه وبطلت أشياء كثيرة كان الشرع من علم اللبن قد قررها، فهذا التجلي في صورة الخمر لا يحصل في الدنيا إلاّ للأمناء فيلتذون به في بواطنهم ولا يظهر عليهم حكمه وهو ما أشار إليه سهل بن عبد الله التستريّ بقوله: إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت النبوّة، وإن للنبوّة سرّاً لو ظهر لبطل العلم، وإن للعلم سرّاً لو ظهر لبطلت الأحكام، فلو وقع التجلي في صورة الخمر وظهر هذا العلم في العموم ولم يكن الإنسان في طبعه ومزاجه على مزاج أهل الجنة لظهرت الأسرار بإظهاره إياها في العالم، فأدّى ظهورها إلى فساد لقوّة سلطانه في الإلتذاذ والابتهاج والفرح ومغيب حكم العقول عن شاربه، ولهذا ضرب الله مثلاً فيمن حصل له هذا التجلي في الدنيا ولم يظهر عليه حكمه مثل الأنبياء وأكابر الأولياء كالخضر والمقرّبين من عباده، فخلق بعض الأجسام البشرية هنا على مزاج لا يقبل السكر ليعلم أن ثم لله عباداً حصل لهم هذا التجلي الإلهيّ في صورة الخمر وهم على استعداد يعطي الكتمان وعدم الإفشاء.

واعلم أن من أعطاه الله المعاني مجردة عن الخطاب أو النصوص في الخطاب فهو عن

تجليه في صورة الماء غير الآسن وهو العلم الإلهيّ الذي لا تعلّق له بالطبيعة. ومن أعطاء الله العلم بأسرار الشرع وأحكامه وعلم حكمة قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] وعرف ميزان الأحكام بعلم الأوقات والأحوال فيحرم في شرع ما يحلل في غيره فذلك من علم تجليه في صورة اللبن، أعني الحليب منه الذي لم يتغير طعمه بعقده أو مخضه أو تربيبه، ومن أعطاه الله العلم بالكمال والأحوال والجمال فإنه عن تجلّي العلم في صورة الخمر، ومن أعطاه الله العلم بطريق الوحي والإيمان وصفاء الإلهام وعمّ علمه كل شيء ممّا يصحّ أن يعلم حتى يعلم أنه ما لا يصحّ أن يعلم لا يعلم فذلك العلم عن التجلّي في صورة العسل، فإذا كان شربه شيئاً من هذه المشروبات أو كلها كان محصلاً لما شرب كالنبي الذي قال: فعلمت علم الأوّلين والآخرين، ولم يذكر أنه اختصّ به، فلما لم يذكر الاختصاص أبقى الباب غير مغلق لمن أراد الدخول منه إلى نيل هذا المقام، فالواجب على كل عاقل أن يتعرض لنفحات الجود الإلهيّ، فإن لله نفحات فتعرضوا لها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخمسون ومائتان

في الريّ

[نظم: البسيط]

الـريُّ قـال بـه قـومٌ ولـيـس لـهـم ... عـلـمٌ بـأنَّ وجـودَ الـريِّ مَـعْـدُومُ

لـو كـان ريٌّ تَـنَـاهَـى الأمـرُ وانـقـطـعَـتْ ... أمـدادُه وزيـاداتٌ وتَـعْـلـيـمُ

فـالأمـرُ لـيـس لـه حـدٌّ يُـحـيـطُ بـه ... لـكـنَّـه الـرزقُ فـي الأشـخـاصِ مَـقْـسُـومُ

الريّ ما يحصل به الاكتفاء ويضيق المحل عن الزيادة منه. اعلم أنه لا يقول بالريّ إلاّ من يقول بأن ثم نهاية وغاية وهم المكشوف لهم عالم الحياة الدنيا ونهاية مدّتها، وهم أهل الكشف في اللوح المحفوظ المعتكفون على النظر فيه، أو من كان كشفه في نظرته ما هو الوجود عليه، ثم يسدل الحجاب دونه ويرى التناهي إذ كل ما دخل في الوجود متناه، وليس لصاحب هذا الكشف من الكشف الأخروي شيء، فمن رأى الغاية قال بالري وعلّق همته بالغاية، وهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخنا أبو مدين: إنه من رجال الله من يحن في نهايته إلى البداية، وذلك لأنّ الله ما كشف لهم عن حقيقة الأمر على ما هو عليه كالقائلين برجوع الشمس في طول النهار وما هو رجوع في نفس الأمر، والقائلون بالريّ هم القائلون بالدور لما يرونه من تكرار أيام الجمعة والشهور، والذين لا يقولون بالريّ هم الذين يسمون النهار والليل الجديدين وليس عندهم تكرار جملة واحدة، فالأمر له بدء وليس له غاية، لكن فيه غايات بحسب ما تتعلق به همم بعض العارفين فيوصلهم الله إلى غاياتهم، ومن هناك يقع لهم التجديد فيه لا عليه، فيفوتهم خير كثير من الحكم وعلم كبير في الإلهيات، بل يفوتهم من علم الطبيعة خير كثير، فإن تركيبها لا نهاية له في الدنيا والآخرة، ويحجبهم عن عدم الريّ قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] فسمّاه رجوعاً وذلك لكونه شغلهم عنه

بالنظر في ذواتهم وذوات العالم عند صدورهم من الله، فإذا وفوا النظر فيما وجد من العالم تعلقوا بالله فتخيلوا أنهم رجعوا إليه من حيث صدورهم عنه، وما علموا أن الحقيقة الإلهية التي صدروا عنها ما هي التي رجعوا إليها بل هم في سلوك دائماً إلى غير نهاية، وإنما نظروا لكونهم رجعوا إلى النظر في الإله بعدما كانوا ناظرين في نفوسهم لما لم يصحّ أن يكون وراء الله مرمى، وسبب الريّ الحقيقيّ أنه لما لم يتمكن أن يقبل من الحق إلاّ ما يعطيه استعداده وليس هناك منع فحصل الاكتفاء بما قبله استعداد القابل وضاق المحل عن الزيادة من ذلك فقال صاحب هذا الذوق: ارتويت، فما يقول بالريّ إلاّ من هو واقف مع وقته وناظر إلى استعداده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والخمسون ومائتان

في عدم الريّ

وقال به قوم: [نظم: الرمل]

عَـدَمُ الـريِّ دلـيـلٌ واضـحٌ ... أن أحـكـامَ الـتَّـنَـاهِـي لا تَـكُـونْ

قـال بـالـريِّ رجـالٌ غـلـطـوا ... ورأوا أن الـذي قِـيـلَ يَـهُـونْ

وهُـمُ لـو عـرفـوا مـقْـدَارَهُ ... ورأوا مـا يَـقْـتَـضـي كُـنْ فـيـكـونْ

لـم يـقـولـوا مـثْـلَ هـذا وأتَـوْا ... لـلـذي أنْـكَـرَهُ يَـعْـتَـذرونْ

أمر الله تعالىٰ نبيه أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] ومن طلب الزيادة فما ارتوى، وما أمره إلى وقت معين ولا حدّ محدود بل أطلق فطلب الزيادة والعطاء دنيا وآخرة، يقول النبيّ ﷺ في شأن يوم القيامة: «**فَأَحْمَدُهُ**» يعني إذا طلب الشفاعة «**بِمَحَامِدَ يُعلِّمُنِيها اللَّهُ لاَ أَعْلَمُها الآنَ**» فالله لا يزال خلاقاً إلى غير نهاية فينا، فالعلوم إلى غير نهاية، وليس غرض القوم من العلم إلاّ ما يتعلق بالله كشفاً ودلالة، وكلمات الله لا تنفد وهي أعيان موجوداته، فلا يزال طالب العلم عطشاناً أبداً لا ريّ له، فإن الاستعداد الذي يكون عليه يطلب علماً يحصله، فإذا حصل أعطاه ذلك العلم استعداداً لعلم آخر كونيّ أو إلهيّ، فإذا علم بما حصل له أن ثم أمراً يطلبه استعداده الذي حدث له بالعلم الحاصل عن الاستعداد الأوّل يعطش إلى تحصيل ذلك العلم، فطالب العلم كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، والتكوين لا ينقطع، فالمعلومات لا تنقطع، فالعلوم لا تنقطع، فأين الريّ؟ فما قال به إلاّ من جهل ما يخلق فيه على الدوام والاستمرار، ومن لا علم له بنفسه لا علم له بربه، قال بعض العارفين: النفس بحر لا ساحل له، يشير إلى عدم النهاية، وكل ما دخل في الوجود أو اتصف بالوجود فهو متناه، وما لم يدخل في الوجود فلا نهاية له وليس إلاّ الممكنات، فلا يصحّ أن يعلم إلاّ محدث، فإن المعلوم لم يكن ثم كان ثم يكون آخر أيضاً، فلو اتصف المعلوم بالوجود لتناهى واكتفي به، فلا تعلم من الله إلاّ ما يكون منه ويوجده فيك إما إلهاماً أو كشفاً عن حدوث تجلّ، وهذا كله معلوم محدث فلا علم لأحد إلاّ بمحدث ممكن مثله، والممكنات لا تتناهى لأنها غير

داخلة في الوجود دفعة واحدة بل توجد مع الآنات، فلا يعلم الله إلاّ الله، ولا يعلم الكون المحدث إلاّ محدثاً مثله يكوّنه الحق فيه، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] وهو كلامه وحدث فيهم فتعلق علمهم به فما تعلق إلاّ بمحدث وذلك الذي يتخيله من لا علم له من أنه علم الله فلا صحة له لأنه لا يعلم الشيء إلاّ بصفته النفسية الثبوتية وعلمنا بهذا محال، فعلمنا بالله محال، فسبحان من لا يعلم إلاّ بأنه لا يعلم، فالعالم بالله لا يتعدّى رتبته، ويعلم ما يعلم أنه ممّن لا يعلم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الثاني والخمسون ومائتان

في المحو

[نظم: البسيط]

لِلْمَحْوِ حُكْمٌ إلهيٌّ يقولُ به ... في سورة الرَّعْد والبرهانُ يَحْمِلُهُ

المَحْوُ يُثْبِتُهُ الإثباتُ وهو له ... ضدٌّ وهل بوجود الضدِّ تَعْقِلُهُ

المَحْوُ ثَبْتٌ ولكنْ حُكْمُه عَدَمٌ ... فابحَثْ على عالمٍ به يُفَصِّلُهُ

اعلم أن المحو عند الطائفة رفع أوصاف العادة وإزالة العلة وما ستّره الحق ونفاه قال تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] فثبت المحو وهو المعبر عنه بالنسخ عند الفقهاء، فهو نسخ إلهيّ رفعه الله ومحاه بعدما كان له حكم في الثبوت والوجود وهو في الأحكام انتهاء مدّة الحكم، وفي الأشياء انتهاء المدّة فإنه تعالىٰ قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] فهو يثبت إلى وقت معين ثم يزول حكمه لا عينه فإنه قال: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا بلغ جريانه الأجل زال جريانه، وإن بقي عينه فالعادة التي في العموم يمحوها الله عن الخصوص، فمنهم من تمحى عن ظاهره، ومنهم من تمحى عن باطنه وتبقى عليه أوصاف العادة وهو الكامل مع كونه صاحب محو، كما أنه يكون المسخ في القلوب وهم اليوم كثير. وكان في بني إسرائيل ظاهراً بالصورة فمسخهم الله قردة وخنازير وجعل ذلك في هذه الأمّة في باطنها تمييزاً لها، ولكن لا تقوم الساعة حتى يظهر في صورها شيء من ذلك مع خسف وقذف، كذا ورد الخبر عن رسول الله ﷺ.

ومن العادة الركون إلى الأسباب والعلل، فصاحب المحو يزول عنه الركون إلى الأسباب لا الأسباب، فإن الله لا يعطل حكم الحكمة في الأشياء والأسباب حجب إلهية موضوعة لا ترفع أعظمها حجابا عينك، فعينك سبب وجود المعرفة بالله تعالىٰ، إذ لا يصحّ لها وجود إلاّ في عينك، ومن المحال رفعك مع إرادة الله أن يعرف فيمحوك عنك فلا تقف معك مع وجود عينك وظهور الحكم منه كما محا الله رسول الله ﷺ في حكم رميه مع وجود الرمي منه فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ فمحاه ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت السبب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] وما رمى إلاّ بيد رسول الله ﷺ وفي الصحيح: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ**» فإزالة العلة في المحو إنما هي في الحكم لا في العين، إذ لو زالت العلة والسبب لزال وهو لا

يزول، فمن الحكمة إبقاء الأسباب مع محو العبد من الركون إليها على حكم نفي أثرها في المسببات، فالأسباب ستور وحجب ولا يكون محو أبداً إلاّ فيما له أثر وإلاّ فليس بمحو، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون ومائتان

في معرفة الإثبات وهو إحكام العادات وإثبات المواصلات

[نظم: الطويل]

إلى حَضْرَةِ الإثْبَاتِ أعْمَلْتُ همَّتي ... من المَحْو لما أن دَعَاني إمامُهَا

فلما أتينا حَضْرَةً لم نَزَلْ بها ... بهادٍ وَحَادٍ خَلْفَها وأمامَهَا

إلى أن تراءتْ بين سَلْعٍ وحَاجِرٍ ... وقد ساقها شَوْقاً إليَّ غَرَامُهَا

الإثبات هو الأمر المقرّر الّذي عليه جميع العالم، فمن طلب من غير نبي أو مشدّ لنبي رفع حكم العوائد فقد أساء الأدب وجهل، وأما هذا الذي يسمونه خرق عادة هو عادة إذ كان ثبوت خرق العادة عادة فما محوت العادات إلاّ بإثباتها، غير أن صاحب الإثبات لا بدّ أن تكون له وصلة بالحق ولهذا يثبت أحكام العادات فإن صاحبه وضعها، ومن شرط الصحبة الموافقة فكيف يصحبه ويكون مواصلاً له ويحكم عليه بإزالة ما يرى الحكمة في ثبوته؟ ولا سيما وقد علم صاحب هذا المقام أن الله حكيم عليم بما يجريه ويثبته، فيثبت ما أثبته صاحبه، وإن لم يفعل وطلب غير ذلك فهو منازع، ومن نازعك فما هو بصاحب لك ولا أنت بصاحب له إن نازعته، وكان إلى العناد أقرب، فصاحب الإثبات دائم المواصلة مع الحق فإنه يثبت أحكام العادات لأنه يشهده فيها، فلا يمكن له مع هذا أن يطلب رفع أحكامها ولا محوها، فهذا مقام الإثبات على غاية الإيجاز والبيان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون ومائتان

في معرفة الستر وهو ما سترك عمّا يفنيك

[نظم: البسيط]

والله ما تُسْدَلُ الأستارُ والكُلَلُ ... إلاّ مِنَ أجلِ الذي تَحْظى به المُقَلُ

وقد يكونُ حَذاراً من تأمُّلِهَا ... أو للذي يَقْتَضيه الطَّبْعُ والمَلَلُ

إذا نَظَرْتَ الذي يحويه من عِبَرٍ ... أساساً لها قامَتِ الأغراضُ والمِلَلُ

لولا السُّتورُ التي تُخْفي ضَنَائنَها ... لم يُدْرَ ما كان لي غَرَضٌ ولا أمَلُ

والله ما تُرْسَلُ الأستارُ والكُلَلُ ... إلاّ لأمرٍ عظيمٍ خَطْبُهُ جَلَلُ

الستر غطاء الكون والوقوف مع العادات ونتائج الأعمال، وقد أعلمناك أن الأسباب حجب إلهية لا يصحّ رفعها إلاّ بها، فعين رفعها سدلها، وحقيقة محوها إثباتها، والستر رحمة عامة إلهية في حق العامة لما قدر عليهم من المخالفة لأوامره، فلا بدّ لهم من إيقاعها ومع

الكشف والتجلي فلا تقع أبداً فلا بدّ من الستر، ولهذا أهل التجلي العلمي رفع عنهم الحجر فلم يبق في حقهم تحجير بل أبيح لهم ما شاؤوه في تصرفهم، فإنه ورد في صحيح الخبر أن الله يقول لمن أذنب فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب: «**اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**» فأباح لمن هذه صفته ما حجره على غيره، ومن المحال أن يأمره بإتيان ما حجر عليه الإتيان به، فإن الله لا يأمر بالفحشاء فأسدل الستور دون أهل الحجر، هذا حكمه في العامة، وأما في الخاصة فقول القائل: [الطويل]

فأنتَ حجابُ القلبِ عن سرِّ غَيْبِهِ ولولاكَ لم يُطْبَعْ عليه خِتَامُهُ

فجعلك عين ستره عليك، ولولا هذا الستر ما طلبت الزيادة من العلم به، فأنت المتكلم والمخاطب من خلف ستر الصورة التي كلمك منها، فانظر في بشريتك تجدها عين سترك الذي كلمك من ورائه فإنه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] وقد يكلمك منك فأنت حجاب نفسك عنك وستره عليك، ومن المحال أن تزول عن كونك بشراً فإنك بشر لذاتك، ولو غبت عنك أو فنيت بحال يطرأ عليك فبشريتك قائمة العين فالستر مسدل فلا تقع العين إلاّ على ستر لأنها لا تقع إلاّ على صورة، وهذا لما تقتضيه الألوهية من الغيرة والرحمة فأما الغيرة فإنه يغار أن يدركه غير فيكون محاطاً لمن أدركه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ والمحاط فلا يكون محيطاً لمن أحاط به. وأما الرحمة فإنه علم أن المحدثات لا تبقى لسبحات وجهه بل تحترق بها فسترهم رحمة بهم لإبقاء عينهم.

ثم إن الله أيضاً أسدل للعالمين ستور نتائج أعمالهم بقوله: إن عمل كذا ينتج لعامله كذا فيقف العامل مع النتيجة لا رغبة فيها إذا كان من أهل الخصوص، وإنما يرغب من يرغب فيها ليصحّح بها وبشهودها عمله الذي كلفه به سيده. وأما العامة فلرغبتها فيها وتعشقها بها، فلما جعل الله علامات تدل على صحة الأعمال في العاملين رغبت الخاصة في مشاهدة نتائج الأعمال ليكونوا على بصيرة في أمورهم إذ كان مطلوبهم وهممهم القيام بما أشهدهم عليه من الحقوق وليست الحقوق سوى الأعمال التي كلفهم، وقد يسدل الستر خوفاً من نفوذ العين وإصابته، ويدخل في هذا سدل الحجب من أجل السبحات الوجهية المحرقة أعيان الممكنات وأما في حق بعض الناس ممّن ليست له تلك القدم في العلم بالله فلا يعلم أن لله تجلياً في كل نفس ما هو على صورة التجلي الأوّل، فلما غاب عنه هذا الإدراك ربما استصحب تجلياً ودام عليه شهوده والطبع يطلبه بحقيقته فيدركه الملل، والملل في هذا المقام عدم احترام بالجناب الإلهيّ فإنهم ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] مع الأنفاس، وهم يتخيلون أن الأمر ما تغير، فسدل الستر من أجل الملل الذي يؤدّي إلى عدم الاحترام لما حرمهم الله العلم بهم وبالله فهم يتخيلون أنهم هم في كل نفس وهم هم من حيث جوهريتهم لا من حيث ما يتصفون به، ولا تقل إن الأمر ليس كذلك، هذا من الأسرار الإلهية التي قد حجب الله عن إدراكها خلقاً كثيراً من أهل الله أرباب فتوح المكاشفة فكيف حال غيرهم فيها؟ فالستر لا بدّ منه إذ لا بدّ منك فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون ومائتان
في معرفة المَحْقِ وهو فناؤك في عينه
وفي معرفة مَحْقِ المَحْقِ وهو ثبوتك في عينه

[نظم: الوافر]

فَنَاءُ الكون في الأعيان مَحْقُ ... وعَيْنُ الكون حقٌّ ثم خَلْقُ
فإن قام الدليلُ على وجودي ... يقومُ بذاتِ من يَبْغيه مَحقُ
وإني بالذي يَحْويه كَوْني ... مِنَ أسماءِ الحقيقةِ فيَّ شِقُّ

هذا المحق. وأما محق المحق فهو: [المديد]

إن مَحْقَ المَحْقِ إبْدَارُ ... وهو في التَّحْقيقِ إنذَارُ
فإذا أبصَرْتَ طَلْعَتَهُ ... فيَّ لم تُدْرِكْه أبْصَارُ
قالَ للحَدَّاد حين أتى ... دونَه حُجْبٌ وأسْتَارُ
من أنا فقال خالِقُنَا ... ودليلي فيكَ آثارُ

اعلم أن المحق ظهورك في الكون به بطريق الاستخلاف والنيابة عنه فلك التحكم في العالم، ومحق المحق ظهورك بطريق الستر عليه والحجاب، فأنت تحجبه في محق المحق، فيقع شهود الكون عليك خلقاً بلا حق لأنهم لا يعلمون أن الله أرسل ستراً دونهم حتى لا ينظرون إليه، فمحق المحق يقابل المحق ما هو مبالغة في المحق وإنما هو مثل عدم العدم، فإذا أقيم العبد خروجه عن حضرة الحق إلى الخلق بطريق التحكيم فيهم من حيث لا يشعرون، وقد يشعرون في حق بعض الأشخاص، من هذا النوع كالرسل عليهم السلام الذين جعلهم الله خلائف في الأرض يبلغون إليهم حكم الله فيهم وأخفى ذلك في الورثة فهم خلفاء من حيث لا يشعر بهم، ولا يتمكن لهذا الخليفة المشعور به وغير المشعور به أن يقوم في الخلافة إلاّ بعد أن يحصل معاني حروف أوائل السور سور القرآن المعجمة مثل ألف لام ميم وغيرها الواردة في أوائل بعض سور القرآن، فإذا أوقفه الله على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة وكان أهلاً للنيابة، هذا في علمه بظاهر هذه الحروف، وأما علمه بباطنها فعلى تلك المدرجة يرجع إلى الحق فيها فيقف على أسرارها ومعانيها من الاسم الباطن إلى أن يصل إلى غايتها، فيحجب الحق ظهوره بطريق الخدمة في نفس الأمر، فيرى مع هذا القرب الإلهيّ خلقاً بلا حق كما يرى العامّة بعضهم بعضاً، فيحكم في العالم عند ذلك بما تقتضيه حقيقته بما هو نسخة كونية للمناسبة التي بينه وبين العالم، فلا يعلم العالم هذا القرب الإلهيّ، وهذا هو محق المحق الذي يصل إليه رجال الله، فهو يشهد الله بالله، ويشهد الكون بنفسه لا بالله، ويكون في هذا المقام متحققاً من حروف أوائل السور المعجمة بالألف والراء خاصة مع علمه بما بقي منها، غير أن الحكم فيه للألف والراء في هذا المقام حيثما وقعا من السور.

وأما حكمه في العالم في هذا المقام فمن باقي هذه الحروف من لام وميم وصاد وكاف وهاء وياء وعين وطاء وسين وحاء وقاف ونون، فبهذه الحروف يظهر في العالم في مقام محق

المحق، وبالألف والراء يظهر في المحق وهم الأولياء الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**» وذلك لأن عين تجليهم بهذين الحرفين في الصورة الظاهرة عين تجلي الحق، فمن رآهم رأى الحق، فهم إذا رؤوا ذكر الله لتحققهم بصفته، فهم يشاهدون الحق فيه إذا تجلّى لهم في صورة حق، ولقد رأيته في هذا التجلي، ورأيت كثيرين من أهل الله لا يعرفونه وينكرونه، وتعجبت من ذلك حتى أعلمت بأنهم وإن كانوا من أهل الله من حيث إنهم عاملون بأوامر الله لا عالمون فهم أهل إيمان، ولما كان بين رتبة الألف من هذه الحروف وبين الراء ثلاث مراتب لذلك لم تقو الراء قوّة الألف، فإنّ الألف لا تحمل الحركة ولا تقبلها والراء ليست كذلك.

واعلم أن محق المحق أتمّ عند أهل الله في الدنيا والمحق أتم في الآخرة، ومحق المحق لا يفوز به إلاّ أخص أهل الله، وهو للعقول المنوّرة هياكلها، والمحق يفوز به الخصوص وهو للنفوس المنوّرة جعلنا الله ممّن محق محقه فانفرد به حقّه، وهذه التي تسمّى خلوة الحق فإنه لا يشهد ولا يرى، وإن علمه بعض الناس فلا يكون مشهوداً له، ومن هذه الحقيقة اتخذ أهل الله الخلوة للإنفراد لما رأوه تعالىٰ اتخذها للانفراد بعبده، ولهذا لا يكون في الزمان إلاّ واحد يسمّى الغوث والقطب وهو الذي ينفرد به الحق ويخلو به دون خلقه، فإذا فارق هيكله المنوّر انفرد بشخص آخر لا ينفرد بشخصين في زمان واحد، وهذه الخلوة الإلهية من علم الأسرار التي لا تذاع ولا تفشى، وما ذكرناها وسميناها إلاّ لتنبيه قلوب الغافلين عنها بل الجاهلين بها، فإني ما رأيت ذكرها أحد قبلي ولا بلغني مع علمي بأن خاصة أهل الله بها عالمون، وقد ورد خبر صحيح في التنبيه على هذا يوم القيامة حيث الجمع الأكبر في انفراد العبد مع ربه وحده فيضع كنفه عليه ويقرّره على ما كان منه ثم يقول له: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها عليك هنا ثم يأمر به إلى الجنة، فنبّه على الانفراد بالله، ونبهناك نحن على الانفراد الإلهيّ بالعبد، وذلك العبد عين الله في كل زمان لا ينظر الحق في زمانه إلاّ إليه، وهو الحجاب الأعلى، والستر الأزهى، والقوام الأبهى.

الباب السادس والخمسون ومائتان

في معرفة الإبدار وأسراره

[نظم: البسيط]

بَدْرُ الرجوع إلى بَدْر السُّلوكِ عَمَى	فانظُرْ بهَلْ وبلَمْ وثَمَّ كيف وَمَا
فإن تعالىٰ وجودٌ عن مَطَالِبِها	لا فرقَ بين استوى فيه وبين عَمَا
من لا يؤثّرُ في توحيده نَسَبٌ	ذاك الذي حارَ في تَوْحيدِهِ القُدَمَا
وما رأينا لعقلٍ في تَقَلُّبِه	في حَضْرةِ الذات في تَوْحيده قَدَمَا

اعلم أنه لا يقال في مذكور هل هو موجود أم لا حتى يكون خفي الوجود، ومن كان وجوده ظاهراً لكل عين فإنه يرتفع عنه طلب هل فإنه استفهام، والاستفهام لا يكون إلاّ عن جهالة بحال ما استفهم عنه، وكذلك لا يقال لم إلاّ في معلول، ولا يقال ما إلاّ في محدود،

ولا يقال كيف إلاَّ في قابل للأحوال، والحق منزّه عن هذه الأمور المعقولة من هذه المطالب، فهو منزّه الذات عن هذه المطالب، بل لا يجوز عليه لا في حق من يرى أن الوجود هو الله ولا في حق من لا يراه، فإن الذي يرى أن الوجود هو الله فيرى أن حكم ما ظهر به الحق إنما هو أحكام أعيان الممكنات، فما وقعت هذه المطالب إلاَّ على مستحقها، فإنه ما طلبت عين الحق إلاَّ من حيث ظهورها بحكم عين الممكن، فعين الممكن هو المطلوب والتبس على الطالب، وأما من لا يرى أن عين الوجود هو الحق فلا تجوز عليه المطالب.

ثم نرجع فنقول: أما الأبدار الذي نصبه الله مثالاً في العالم لتجليه بالحكم فيه فهو الخليفة الإلهيّ الذي ظهر في العالم بأسماء الله وأحكامه، والرحمة والقهر والانتقام والعفو، كما ظهر الشمس في ذات القمر فأناره كله فسمّي بدراً، فرأى الشمس نفسه في مرآة ذات البدر فكساه نوراً سمّاه به بدراً، كما رأى الحق في ذات من استخلفه فهو يحكم بحكم الله في العالم، والحق يشهده شهود من يفيده نور العلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وعلمه جميع الأسماء وأسجد له الملائكة لأنه علم أنهم إليه يسجدون، فإن الخليفة معلوم أنه لا يظهر إلاَّ بصفة من استخلفه فالحكم لمن استخلفه. قال الحق لأبي يزيد في بعض مكاناته مع الحق: أخرج إلى الخلق بصفتي فمن رآك رآني ومن عظمك عظمني، فتعظيم العبيد لتعظيم سيدهم لا لنفوسهم فهذا سرّ الإبدار، فنصب الله صورة البدر مع الشمس مثلاً للخلافة الإلهيّة، وأن الحق يرى نفسه في ذات من استخلفه على كمال الخلقة، فإنه لا يظهر له إلاَّ في صورته وعلى قدره، ومن يرى أن الحق مرآة العالم وأن العالم يرى نفسه فيه جعل العالم كالشمس والحق كالبدر وكلا المثلين صحيح واقع.

واعلم أن الله قصد ضرب الأمثال للناس فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧، ١٨] الآية، فالعالم كله بما فيه ضرب مثل ليعلم منه أنه هو فجعله دليلاً عليه وأمرنا بالنظر فيه، فما ضرب الله في العالم من المثل صورة القمر مع الشمس فلا يزال الحق ظاهراً في العالم دائماً على الكمال فالعالم كله كامل، وجعل الله للعالم وجهين: ظاهراً وباطناً فما نقص في الظاهر من إدراك تجليه أخذه الباطن وظهر فيه فلا يزال العالم بعين الحق محفوظاً أبداً ولا ينبغي أن يكون إلاَّ هكذا، وأحوال العالم مع الله على ثلاث مراتب: مرتبة يظهر فيها تعالىٰ بالاسم الظاهر فلا يبطن عن العالم شيء من الأمر وذلك في موطن مخصوص وهو في العموم موطن القيامة ومرتبطة يظهر فيها الحق في العالم في الباطن فتشهده القلوب دون الأبصار ولهذا يرجع الأمر إليه، ويجد كل موجود في فطرته الاستناد إليه والإقرار به من غير علم به ولا نظر في دليل، فهذا من حكم تجليه سبحانه في الباطن ومرتبطة ثالثة له فيها تجلّ في الظاهر والباطن، فيدرك منه في الظاهر قدر ما تجلّى به، ويدرك منه في الباطن قدر ما تجلّى به، فله تعالىٰ التجلي الدائم العام في العالم على الدوام، وتختلف مراتب العالم فيه لاختلاف مراتب العالم في نفسها، فهو يتجلى بحسب استعدادهم، فمن فهم هذا علم أن الإبدار لا يزال فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون ومائتان

في معرفة المحاضرة وهي حضور القلب بتواتر البرهان ومجاراة ألأسماء الإلهية بما هي عليه من الحقائق التي تطلبها الأكوان

[نظم: المديد]

محاضَرةُ الأسماء في حَضْرة الذَّاتِ ... دليلٌ على الماضي دليلٌ على الآتي
أقولُ بها والكونُ يعطي وجودَها ... لوجْدانِ آلامٍ ووجدانِ لَذَّاتِ
فلولا وجودُ المَحْو ما صحَّ عندنا ... ولا عند من يدري وجودٌ لإثباتِ

المحاضرة صفة أهل الاعتبار والنظر المأمور به شرعاً، فما يفرغون من نظر في دليل بعد إعطائه إياهم مدلوله إلاَّ ويظهر الله لهم دليلاً آخر فيشتغلون بالنظر فيه إلى أن يوفى لهم ما هو عليه من الدلالة، فإذا حصلوا مدلوله أراهم الحق دليلاً آخر هكذا دائماً وهو قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فذكر أنه يريهم آيات ما جعل ذلك آية واحدة، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] وهو عثورهم على وجه الدليل وحصول المدلول، وهذه مسألة تختلف فيها فتوح المكاشفة، فمنهم من يعطي الدليل ومدلوله كشفاً ولا يعطي أبداً ذلك المدلول دون دليله، حتى زعم بعض العلماء به أن علوم الوهب التي من شأنها أن لا تدرك في النظر إلاَّ بالدليل العقليّ لا توهب لمن وهبت إلاَّ بأدلتها فإنها بها مرتبطة ارتباطاً عقلياً. ومنهم من يقول: إنه قد يعطي الله ما يشاء من العلوم التي لا تدرك في العقل إلاَّ بالأدلة بغير دليلها لأن المقصود ما هو الدليل وإنما المقصود مدلوله، فإذا حصل بوجه من الحق من غير الدليل الذي يرتبط به في النظر العقليّ فلا حاجة للدليل، إذ قد علمنا أن الدليل يقابل حصول المدلول في النفس وأنهما لا يجتمعان وهذا غلط، وإنما الذي لا يجتمع مع المدلول النظر في الدليل لا عين الدليل، فإن الناظر في الدليل فاقد واجد ومحصل للمدلول، وقد تكون المحاضرة من العبد مع الأسماء الإلهيّة والكونية من حيث أن الأسماء الكونية قد وسم الحق بها نفسه، والأسماء الإلهيّة قد وسم الكون بها نفسه واستحق الجنابان الأسماء جميعها، وهذا ممّا يقوي حديث خلق العالم على الصورة، فإذا حضرت الأسماء الحسنى وأسماء الكون وجرت في ميدان المفاخرة فإن الله يستهزىء بالمنافقين وبأهل الاستهزاء بالجناب الإلهيّ ويمكر سبحانه بالماكرين ويعجب ممّن قهر الطبيعة على قوّتها في الحكم، وهذا كله سمات المحدثات، وقد وسم الحق بها نفسه كما وسمها بكونه قديراً وخلاقاً وعليماً وغير ذلك، فالكل عند طائفة أصل للأصل النسبي الذي أوجد العالم، وبعضهم فرق فجعل خلاف الأسماء الحسنى أصلاً في الكون منقولاً في الجناب الإلهيّ، وحكم هذه المحاضرة في كل شخص بحسب ما يتقوّى عنده ويعطيه النظر، فتختلف أحوال أهل الله في ذلك وهو قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣] والتفكّر في ذات الله محال، فلا يبقى إلاَّ التفكّر في الكون ومتعلّق الفكرة

الأسماء الحسنى وسمات المحدثات، فالأسماء كلها أصل في الكون على هذا النظر، فإذا وقف على محاضرة الأسماء ومناظرتها علم من أثر في وجود الكون بعد أن لم يكن هل أثر فيه الحق الوجود أو استعداده أو المجموع، هذه فائدة المحاضرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون ومائتان

في معرفة اللوامع وهي ما ثبت من أنوار التجلِّي وقتين وقريباً من ذلك

[نظم: المديد]

لَمَعَتْ أنوارُ توحيدي ... عند تَغْريدي بتَجْريدي
كُلَّما أبْدَتْ لوامِعَها ... أذنَتْ فينا بتَحْديدي
كل مَخْدودٍ يؤولُ إلى ... حلِّ تركيبٍ وتَبْديدِ
فَضْلُه من جنسه عَلَمٌ ... ظاهرٌ بنَقْصِ تَوْحيدي

اللوامع فوق الذوق فإنها تزيد على المبدأ ودون الشرب فإن الشرب قد ينتهي إلى الري وقد لا ينتهي، فإذا ثبتت أنوار التجلي وقتين وقريباً من ذلك فهي اللوامع، وهذا لا يكون في التجلي الذاتي وإنما يكون في تجلي المناسبات، فإذا تجلى في المناسبات دام بقدر ثبوت تلك المناسبة، والمناسبات صغيرة الزمان قصيرة في الثبوت، لأنّ الشؤون الإلهيّة لا تتركها، وما سوى الأعيان القائمة بأنفسها أعراض سريعة الزوال، وإنما ثبتت وقتين وقريباً من ذلك، لأنّ الوقت الأوّل لظهورها، والوقت الثاني لإفادة ما تعطيه ممّا لمعت له، فإن المحل يدهش عند لمعانها، وهو حديث عهد بالتجلي الذي فارقه، فتتربص هذه اللوامع حتى يزول الدهش والتعلّق بما كان عليه فيقبل ما أتته به هذه اللوامع وأعني بتربصها تواليها، فإذا حصل القبول مضى حكمها فزالت وجاء غيرها مثلها أو خلافها، وصاحبها أبداً سريع الرجوع إلى عالم الحسّ، ولا تردّ هذه اللوامع إلاّ بعلوم إلهية لا تعلق لها بعلوم الكون فهي إلهية مجرّدة هذه ميزانها، فإن وجد الإنسان علماً يكون في حاله فما هي لوامع لأن ضروب التجلي كثيرة متنوّعة الحكم فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون ومائتان

في معرفة الهجوم والبواده فالهجوم ما يرد على قلب بفوت الوقت من غير تصنع منك، والبواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة وهو إما موجب فرح أو ترح

[نظم: البسيط]

نورُ البَوَادِهِ فَجآتُ الغُيوب على ... قلبٍ تَقَلَّب في ظَلْمَائه زَمَنَا
وواردات هُجوم الكَشْفِ تُوْرِثُها ... حالاً فتُلْحِقُهُ بحالة الزَّمْنَى

لـو أنـهـا وردتْ لـروح نَـشْـأتِـنـا   مـا دبَّـرتْ روحَـنَـا نـفـسـاً ولا بَـدَنَـا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن البواده والهجوم والصحو والسكر والذوق والشرب وأمثالها إنما هي واردات الغيب ترد على القلوب فتؤثر فيها أحوالاً مختلفة فيمن قامت به ويسمّون ذلك الحال بالوارد، وليس للعبد تعمّل في تحصيل هذه الواردات، مع أنها ما ترد إلاّ على قلب مستعدّ لقبولها فإذا ورد الوارد على القلب فجأة من غير تصنع فيعطيه ذلك الوارد حسرة فوت الوقت فإنه منبّه لمن غفل عن حكم وقته فيه، فلم يتأدّب مع وارد وقته أراد الحق أن ينبّهه عناية منه به فبعث إليه هذا الوارد رسولاً من الله يكشف له عن فوت وقته وأنه ممّن أساء الأدب مع الله فيندمه على ما كان منه من فوت الوقت، فيجبر له هذا الندم فضيلة ما فاته من وقته حتى يكون كأنه ما فاته شيء، وهذا غلط عظيم فيتزين وقته بزينة ندمه، كما كان يتزين بزينة أدبه معه لو حضر معه ولم يفته، فهذه فائدة الهجوم يجبر الوقت الذي فاته، ولنا في ذلك: [البسيط]

بَـادِرْ لـجَبْـر الـذي قـد فـاتَ مـن عُـمُـرِكْ   ولـتـتَّـخـذْ زادَكَ الـرَّحْـمٰـنَ فـي سَـفَـرِكْ

وأما البواده فهي أيضاً فجأة إلهية تفجأ القلوب من حضرة الغيب بحكم الوقت، ولا تأتي في اصطلاحهم هذه البواده إلاّ أن تعطي فرحاً في القلب أو حزناً فتضحك وتبكي وهو قول أبي يزيد: ضحكت زماناً وبكيت زماناً يريد أنه كان في حكم البواده، ثم قال: وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي، يعرف بانتقاله من تأثّر حال البواده فيه إلى حال العظمة، ولا تكون البواده إلاّ فيمن يتصف، ومن لا وصف له لا بديهة له، غير أنه لما كانت البواده من حضرة الهو لم يعرف متى تأتي، فإذا وردت إنما ترد فجأة وبغتة فتعطى ما وردت به وتنصرف. وأما البديهة التي تعرفها الناس فليست تتقيد بفرح ولا ترح فما هي التي اصطلح عليها القوم وهي عينها إلاّ أن القوم ما سمّوا بديهة إلاّ ما أوجب فرحاً أو ترحاً، وأما إذا لم يوجب ذلك فأحوالهم فيها أحوال الناس، غير أن أهل الطريق يعلمون أن البواده إذا وردت لا يخطئ حكمها البتة ولها الإصابة في كل ما ترد به، ولهذا إذا سأل الشيوخ تلاميذهم عن مسألة على تعليم الأخذ عن الله لا يتركونه يفكر في الجواب فيكون جوابهم نتيجة فكر، وإنما يقولون لا تجب إلاّ بما يخطر لك فيما سئلت عنه عند السؤال، فتنظر إلى قلبك ما ألقى فيه عند ورود السؤال فاذكره ببادئ الرأي، فإن لم يفعل فلا يقبل منه الجواب، وإن أصاب عن فكر ونظر فإنّ الله لا يغفل في كل نفس عن قلب أحد من عباده بل هو الرقيب عليه، فيهبه في كل نفس بحسب ما يريده سبحانه، فأصحاب القلوب المراقبين قلوبهم من أجل آثار ربهم فيها يجيبون بورود الوارد في كل نفس، فيعملون بمقتضاه إن وافق الميزان الشرعي الذي قد شرع لسعادتهم، وإن لم يوافق طريق السعادة فإنّ لهم لهذا الوارد أخذاً مخصوصاً فيأخذونه تنبيهاً من الحق وتعريفاً لا مؤثراً في ظاهرهم ولا باطنهم، فهذا قد بيّنا معنى البواده والهجوم عند القوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ستين ومائتين

في معرفة القرب وهو القيام بالطاعات وقد يطلقونه ويريدون به قرب قاب قوسين وهما قوسا الدائرة إذا قطعت بخط أو أدنى

[نظم: البسيط]

إذا قطعتَ بخطٌ أكْرَةً فبدا ... قوسان ذلك قُرْبُ الحقّ فاعتبروا
إلى الحقيقة أدنَى منهما فإذا ... ما حُزْتَه لاحَ ما يَقْضي به النَّظَرُ
إن المعارجَ للأرواح نسْبَتُها ... خلافُ نِسْبَةِ ما يَسْري به البَصَرُ

قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فوصف نفسه بالقرب من عباده، والمطلوب بالقرب إنما هو أن يكون صفة العبد فيتصف بالقرب من الحق اتصاف الحق بالقرب منه كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] والرجال يطلبون أن يكونوا مع الحق أبداً في أي صورة تجلى، وهو لا يزال متجلياً في صور عباده دائماً، فيكون العبد معه حيث تجلّى دائماً، كما لا يخلو العبد عن أينية دائماً، والله معه أينما كان دائماً، فأينية الحق صورة ما يتجلى فيها، فالعارفون لا يزالون في شهود القرب دائمين لأنهم لا يزالون في شهادة الصور في نفوسهم وفي غير نفوسهم وليس إلاّ تجلي الحق. وأما القرب الذي هو القيام بالطاعات فذلك القرب من سعادة العبد بالفوز من شقاوته وسعادة العبد في نيل جميع أغراضه كلها ولا يكون له ذلك إلاّ في الجنة، وأما في الدنيا فإنه لا بدّ من ترك بعض أغراضه القادحة في سعادته، فقرب العامة والقرب العام إنما هو القرب من السعادة فيطيع ليسعد، وقرب العارفين ما ذكرناه، فهو يتضمن السعادة وزيادة، ولولا الأسماء الإلهيّة وحكمها في الأكوان ما ظهر حكم القرب والبعد في العالم، فإن كل عبد في كل وقت لا بدّ أن يكون صاحب قرب من اسم إلهيّ صاحب بعد من اسم آخر لا حكم له فيه في الوقت، فإن كان حكم ذلك الاسم الحاكم في الوقت المتصف بالقرب منه يعطي للعبد فوزاً من الشقاء وحيازة لسعادته فذلك هو القرب المطلوب عند القوم وهو كل ما يعطي العبد سعادة، وإن لم يعط ذلك فليس بقرب عند القوم، وإن كان قرباً من وجه آخر لا من حيث ما وقع عليه الاصطلاح أخبر رسول الله ﷺ عن ربّه في هذا الباب أن الله يقول: «**مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِمْ، وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتى أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً ومُؤَيِّداً**» وقال سبحانه في الخبر الصحيح: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيهِ ذِراعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَسْعَى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] وقال في حق الميت: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] ومعناه عندنا لا تميزون، يقول: تبصرون ولكن لا تعرفون ما تبصرون فكأنكم لا تبصرون.

اعلم أن القرب من الله على ثلاثة أنحاء: قرب بالنظر في معرفة الله جهد الاستطاعة أصاب

في ذلك أو أخطأ بعد بذل الوسع في الاجتهاد في ذلك فقد يعتقد المجتهد فيما ليس ببرهان أنه برهان فيجازيه الله مجازاة أصحاب البراهين الصحيحة، وقد نبّه سبحانه على ما يفهم منه ما ذكرناه وهو قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] وقد رأى بعض العلماء أن الاجتهاد يسوغ في الفروع والأصول، فإن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران. والنوع الآخر: قرب بالعلم. والنوع الثالث: قرب بالعمل وينقسم على قسمين: قرب بأداء الواجبات، وقرب بالمندوبات في عمل الظاهر والباطن، فأما قرب العلم فأعلاه توحيد الله في ألوهته فإنه لا إله إلاّ هو، فإن كان عن شهود لا عن نظر وفكر فهو من أولي العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] لأن الشهادة إن لم تكن عن شهود وإلاّ فلا، فإن الشهود لا يدخله الريب ولا الشكوك، وإن وحّده بالدليل الذي أعطاه النظر فما هو من هذه الطائفة المذكورة فإنه ما من صاحب فكر وإن أنتج له علماً إلاّ وقد يخطر له دخل في دليله وشبهة في برهانه يؤدّيه ذلك إلى التحيّر والنظر في ردّ تلك الشبهة، فلذلك لا يقوى صاحب النظر في علم ما يعطيه لنظر قوة صاحب الشهود، وهذا الصنف إذا قضى الله عليه بدخول النار لأسباب أوجبت له ذلك فهو الذي يخرجه الحق من النار بعد شفاعة الشافعين، وأما قرب العمل فهو علم ظاهر وهو ما يتعلق بالجوارح، وعلم باطن وهو ما يتعلق بالنفس، فأعمّ الأعمال الباطنة الإيمان بالله وما جاء من عنده لقول الرسول لا للعلم بذلك، وعمل الإيمان يعمّ جميع الأفعال والتروك، فما من مؤمن يرتكب معصية ظاهرة أو باطنة إلاّ وله فيها قربة إلى الله من حيث إيمانه بها أنها معصية فلا يخلص أبداً لمؤمن عمل سيء دون أن يخالطه عمل صالح قوله تعالى فيمن هذه صفته ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] وما ذكر لهم قربة فما تاب هنا في هذه الآية عليهم ليتوبوا وإنما هو رجوع بالعفو والتجاوز، وعسى من الله واجبة عند جميع العلماء، فالشرط المصحّح لقبول جميع الفرائض فرض الإيمان ثم يتقرب العبد بأداء الفرائض، فمن حصل له هنا ثمرتها كان سمعاً للحق وبصراً فيريد الحق بإرادته على غير علم منه أن مراده مراد لله وقوعه، فإن علم فليس هو صاحب هذا المقام هذا ميزان أداء الفرائض وهو أحب ما يتقرب به إلى الله، وأما قرب النوافل فإنه أيضاً يحبه الله، ومحبة الله أعطته أن يكون الحق سمعه وبصره، هذا ميزانها في قرب النوافل.

ولما كانت المحبة لها مراتب متميزة في المحب قيل محب وأحب، وقد وصف الله نفسه بأحب في قوله بأحب إليّ من أداء ما افترضته عليه. وفي النوافل قال: أحببته من غير مفاضلة، وافترض عليه الإيمان به وبما جاء من عنده فالمؤمن له مرتبة الحب والأحب.

وأما عمل الجوارح فإنه قرب أيضاً، ولا بدّ أن تجني الجارحة ثمرتها أي ثمرة عملها في حق كل إنسان من غير تقييد، ولكن هم في ذلك على طبقات مختلفة في أي دار كانوا أو من أي صنف كانوا، وسواء قصد القرب بذلك العمل أو لم يقصد فإن العمل يطلب ميزانه وقد وقع من الجارحة فهو حق لها والنية حق للنفس، حتى إنه لو ذكر الله بيمين فاجرة يقتطع بها حق امرئ لكان للجارحة أجر ذكر الله لما جرى على اللسان وعلى النفس وما نوته من ذلك،

والتنبيه على ما ذكرناه كون حكم ظاهر الشرع أسقط عنه بيمينه حق الطالب، فإذا كان أثرها في الظاهر بهذه القوّة في الدنيا فما ظنك بما تجنيه تلك الجارحة الذاكرة ربها في الأخرى، فإن الجارحة لا خبر لها بما نوته النفس من ذلك، فحظها النطق بذكر الله لا تدري أن ذلك الذكر يعود منه وبال على النفس أم لا، ولا تدري هل هو مشروع أم غير مشروع؟ ولذلك إذا شهدت الجوارح والجلود بما وقع منها من الأعمال على النفس المدبرة لها ما تشهد بوقوع معصية ولا طاعة وإنما شهادتها بما عملته، والله يعلم حكمه في ذلك العمل، ولهذا إذا كان يوم القيامة ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٢٤] ولم يشهدوا بكون ذلك العمل طاعة ولا معصية، فإن مرتبتهم لا تقتضي ذلك، فالإنسان من حيث هيكله سعيد كله، ومن حيث نفسه إن كان مؤمناً فهو صاحب تخليط.

وأما قرب الله منه فعلى نوعين: النوع الواحد قرب رحمة وعطف وتجاوز ومغفرة وإحسان. والنوع الآخر قرب لا يمكن كشفه لكن نومئ إليه فنقول: لا يخلو الحق مع كل عبد عندما يتجلى له أن يظهر له في مادة أو في غير مادة، فإن تجلى له في مادة وهي الصورة تبع القرب تلك المادة في مجلس الشهود وحضرة الرؤية، وإن تجلى له في غير مادة كان قرب المنزلة والمرتبة كقرب الوزير والقاضي والوالي وصاحب الحسبة من الملك فإنه قرب متفاضل، وقد يدني مجلس الأدون ليساره بأمر ينفذ في مرتبته ويكون الأعلى أبعد منه مجلساً في ذلك المجلس، ولا يقتضي قربه في ذلك المجلس بأنه أعلى رتبة من الأعلى منه، فإن حكم المواد يخالف حكم النفوس في الصورة، وإذا علمت هذا فقد قربت من العلم بقرب الحق والقرب بين الاثنين على حد واحد، فمن قرب منك فقد اتصفت بأنك منه قريب، وفي نفس الأمر ليس للبعد من الله سبيل، وإنما البعد أمر إضافي يظهر في أحكام الأسماء الإلهيّة، فزمان حكم الاسم الإلهيّ في الشخص هو زمان اتصافه بالقرب من البعد وقرب العبد منه، والاسم الإلهيّ الذي ما له حكم الوقت في الشخص هو منه بعيد، كيف يتصف بالبعد عنك أو تتصف بالبعد منه من أنت في قبضته؟ ألم يفتح لآدم يده اليمنى تعالىٰ وكلتا يديه يمين مباركة فبسطها فإذا فيها آدم وذريته؟ وهل يؤبد شقاء من هو في يمين الحق؟ لا والله، وكانت القبضة الأخرى جميع العالم، فانظر في اختيار آدم يمين الحق للتمييز مع كونه يعرف أن كلتي يدي ربه يمين مباركة وليس إلاّ ما ذكرناه، ولولا ما كان التجلي لآدم في صورة مادية ما اتصفت اليدان بالقبض والبسط، وقد نبهتك على معرفة القرب حتى تشهده من نفسك مع الله إن كنت من أهل التجلي في هذه الدار، وإذا وقع التجلي في المواد جاءت الحدود بغير شك، فجاء الشبر والذراع والباع والسعي والهرولة بحسب ما يقتضيه الحال، فإن قرب المواد تابع للأحوال، فعلى قدر الحال يكون القرب في المادة بين القريبين ليعلم بذلك القرب أن حاله أعطى ذلك فهو ترجمان عن الأحوال.

وأما القرب من الله بحياز الصورة فليس ذلك إلاّ للخلفاء خاصة سواء كانوا رسلاً أو لم يكونوا، فإن الرسالة ليست بنعت إلهيّ وإنما هي نسبة بين مرسل ومرسل إليه لينوب عنه فيما يريد أن يبلغه إلى هذا الشخص المرسل إليه، فالرسول خليفة ونائب في التبليغ خاصة، وتتمة الخلافة

والنيابة إنما هي في الحكم بما تقتضيه حقائق الأسماء الإلهيّة من القهر والإرعاد والإبراق والأخذ والرحمة والعفو والتجاوز والانتقام والحساب والمصادرة، وما ثم أصعب في الإلهيات من المصادرة إذا لم تقع عن حساب أو تجاوز في الأخذ حد الاستحقاق وذلك في قوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] والأخذ والتجاوز بعد التقرير، والحساب والسؤال في قوله: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فقرب بالصورة على نوعين في الخلافة: النوع الواحد خلافة عن تعريف إلهيّ بمنشور وخلافة لا عن تعريف إلهيّ مع نفوذ الأحكام منه، ولا يسمّى مثل هذا القرب على طريق الأدب بلسان الأدباء خلافة ولا هو خليفة وبالحقيقة هو خليفة وتلك خلافة فالخلفاء متفاضلون أيضاً فيها، والخلافة بغير التعريف أتم في القرب المعنوي. فإن الخليفة بالتعريف والأمر الظاهر يبعد من المستخلف في الصورة، فإن حكمه في العالم لم يكن عن أمر من غيره بل هو حاكم لنفسه، فمن حكم في العالم بنفسه ونفذ حكمه فيه من غير أمر إلهيّ ولا استخلاف بتعريف ولا منشور فهو أقرب من الصورة الإلهيّة ممّن عقدت له الخلافة عن أمر إلهيّ بتعريف ومنشور، لكنه أقرب إلى السعادة المطلوبة له من ذلك الذي لم يقترن بخلافته أمر إلهيّ، والقرب إلى السعادة هو المطلوب عند العلماء بالله، وهذا القدر كاف في معرفة القرب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والستون ومائتان

في معرفة البعد

اعلم أن البعد هو الإقامة على المخالفة، ويطلق أيضاً على البعد منك. [نظم: المجتث]

البُعْدُ منكَ دُنُوُّ ... وَتْرٌ وشَفْعٌ وتَوُّ
لما رأيتُ إماماً ... يقول للقوم سَوُّوا
صُفُوفَكُم في صلاةٍ ... لها العُلاَ والدُّنُوُّ
علمتُ أنَّ وجودي ... له البَقَا والسُّمُوُّ

واعلم أن البعد يختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يراد به قرائن الأحوال، وأن الأحوال وجميع ما ذكرناه فيما يكون قرباً إذا لم يكن صفة للعبد فعدمه عين البعد، هذا هو الجامع لهذا الباب الذي أشار إليه القوم.

وأما حكم البعد عندنا فقد يكون على خلاف ما قرروه بعد مع تقريرنا ما قرروه بعداً أنه بعد بلا شك، إلاَّ أنّا زدنا فيه أموراً أغفلتها الجماعة لا أنهم جهلوا ما نذكره، إلاَّ أنهم ما ذكروه في معرفة البعد وأدخلوه في باب القرب، وذلك أن القرب اجتماع والبعد افتراق، وما يقع به الاجتماع غير ما يقع به الافتراق فالبعد غير القرب، فإذا اجتمع أمران في شيء ما فذلك غاية القرب، لأن عين كل واحد منهما عين الآخر فيما وقع فيه الاجتماع، فإذا تميز كل واحد من العينين عن صاحبه بنعت لا يكون عليه الآخر فقد تميز عنه، وإذا تميز عنه فذلك البعد لأنه ليس عينه من حيث ما هو عليه ممّا وقع له به الافتراق ويظهر ذلك في حدود الأشياء، وإذا

وقع البعد اختلف الحكم، وقد يكون البعد بنعت عرضي كالمكان والزمان والحد والمقدار والأكوان والألوان في حق من تطلب ذاته هذه النعوت، فإذا عقل أمران لا اجتماع بين واحد منهما مع الآخر وافترقا من جميع الوجوه كلها فذلك غاية البعد، فلا أبعد من العالم من الله لأنه ما ثم من حيث ذاته شيء يجمع بينهما وهذا موجود في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وكان الله ولا شيء معه.

ثم ننزل في درجة البعد دون هذا فنقول: العبد لا يكون سيداً لمن هو عبد له فلا شيء أبعد من العبد من سيده، فالعبودية ليست بحال قربة وإنما يقرب العبد من سيده بعلمه أنه عبد له، وعلمه بأنه عبد له ما هو عين عبوديته، فعبوديته تقتضي البعد عن السيد وعلمه بها يقضي بالقرب من السيد، قال الله لأبي يزيد البسطامي لما حار في القرب وما عرف بماذا يتقرب إليه فقال له الحق في سرّه: يا أبا يزيد تقرّب إليّ بما ليس لي الذلّة والافتقار، فنفى سبحانه عن نفسه هاتين الصفتين الذلة والافتقار وما نفاه عنه فإنه صفة بعد منه، فمن قامت به تلك الصفة التي تقتضي البعد فهو بحيث هي وهي تقتضي البعد. وقال أبو يزيد لربه في وقت آخر: بمَ أتقرب إليك؟ فقال له الحق: اترك نفسك وتعال، وإذا ترك نفسه فقد ترك حكم عبوديته لما كانت العبودية عين البعد من السيادة، فالعبد بعيد من السيد، فطلب منه في الذلّة والإفتقار القرب بالعبودية، وطلب منه في ترك النفس القرب بالتخلق بأخلاق الله وهو ما يكون به الاجتماع، فالتجلي في غير مادة تجلي البعد وفي المواد تجلي القرب، وأما البعد من الأسماء الإلهية فكل اسم لا يكون العبد تحت حكمه في الوقت.

واعلم أن الأسماء الإلهيّة إذا ظهر بها العبد عن الأمر الإلهيّ فهو في قرب النيابة عن الله لا في قرب الحقيقة، وإذا ظهر ببعضها عن غير أمر إلهيّ فهو في عين البعد المستعاذ منه في قوله ﷺ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنكَ» لأن حقيقة المخلوق لا تتمكن في حال شهوده لمخلوقيته أن يكون خالقاً، والكبرياء والجبروت صفة للحق، فإذا قامت بالعبد فقد قام به الحق فاستعاذ منه وما ثم أعظم منه يستعاذ به فاستعاذ به، فأين كبرياء الحق وجبروته من صفته بأنه يفرح بتوبة عبده ويصف نفسه بجوع عبده وعطشه ومرضه؟ فبمثل هذا استعاذ، ومن مثل ذلك الآخر استعاذ، والمنعوت بهما واحد العين وهو الله فاستعاذ به منه فقال: وأعوذ بك منك، وهذا غاية ما يصل إليه تعظيم المحدث إذا عظم جناب الله. وأما بعد المخالفة فهو بعد العبد عن سعادته وعن الأسماء الإلهيّة التي تقتضي الموافقة في القرب بالطاعات، وإن كان في المخالفة قريباً من الأسماء الإلهيّة التي تطلب الأكوان من حيث التكليف فإنها محصورة في عفو ومؤاخذة فهو قريب بالمؤاخذة منه، فالمخالفة تطلب الرحمة وتتعرّض للعقوبة وهو سبحانه على مشيئته في ذلك، فلم يبق في بعد المخالفة إلاّ البعد عن سعادته إما بنقصان حظ عن غيره أو مؤاخذة بالجريمة، وأما البعد منك الذي ذكرته الطائفة فهو قوله لأبي يزيد: اترك نفسك وتعال، ومن ترك نفسه بعد عنها، وقد بيّنا لك في هذا الباب معنى هذا القول، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والستون ومائتان

في معرفة الشريعة ؛ الشريعة: التزام العبودية بنسبة الفعل إليك

[نظم : البسيط]

إن الشريعةَ حَدٌّ ما له عِوَجُ ... عليه أهلُ مَقامات العُلَى دَرَجُوا

عَلَوْا معارجَ من عَقْلٍ ومن هِمَمٍ ... لحضرةٍ دخلوا فيها وما خَرجُوا

جاؤوا بأمرٍ عظيمِ القَدْرِ منه وما ... عليهم في الذي جاؤوا به حَرَجُ

الشريعة السنّة الظاهرة التي جاءت بها الرسل عن أمر الله، والسنن التي ابتدعت على طريق القربة إلى الله كقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] وقول الرسول ﷺ: «**من سنّ سنّة حسنة**» فأجاز لنا ابتداع ما هو حسن وجعل فيه الأجر لمن ابتدعه ولمن عمل به، وأخبر أن العابد لله بما يعطيه نظره إذا لم يكن على شرع من الله معين أنه يحشر أمة وحده بغير إمام يتبعه فجعله خيراً وألحقه بالأخيار كما قال في إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٠] وذلك قبل أن يوحى إليه. قال عليه السلام: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**» فمن كان على مكارم الأخلاق فهو على شرع من ربه وإن لم يعلم ذلك، وسمّاه النبي ﷺ خيراً في حديث حكيم بن حزام وأنه كان يتبرر في الجاهلية بأمور من عتق وصدقة وصلة رحم وكرم وأمثال ذلك فقال له رسول الله ﷺ لما سأله عن ذلك: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**» فسمّاه خيراً وجازاه الله به، فالشريعة إن لم تفهم هكذا وإلاَّ فما فهمت الشريعة. وأما تتمة مكارم الأخلاق فهي تعريتها ممّا نسب إليها من السفسفة، فإن سفساف الأخلاق أمر عرضي، ومكارم الأخلاق أمر ذاتي، لأن السفساف ليس له مستند إلهيّ فهو نسبة عرضية مبناها الأغراض النفسية، ومكارم الأخلاق لها مستند إلهيّ وهو الأخلاق الإلهيّة، فتتمة النبي ﷺ مكارم الأخلاق ظهر في تبيينه مصارفها، فعين لها مصارف تكون بها مكارم أخلاق وتعري بذلك عن ملابس سفساف الأخلاق فما في الكون إلاَّ شريعة.

ثم اعلم أن الشريعة أتت بلسان ما تواطأت عليه الأمة التي شرع الله لها ما شرع، فمنه ما كان عن طلب من الأمة، ومنه ما شرعه ابتداء من الأحكام ولهذا كان يقول ﷺ: «**اتْرُكُوني مَا تَرَكْتُكُمْ**» فإن كثيراً من الشريعة نزل بسؤال من الأمة لو لم يسألوه ما نزل، وأسباب الأحكام دنيا وآخرة معلومة عند العلماء بأسباب النزول والحكم، يقال: شرعت الرمح قبله أي قصدته به مستقبلاً، والشريعة من جملة الحقائق فهي حقيقة لكن تسمّى شريعة وهي حق كلها، والحاكم بها حاكم بحق مثاب عند الله لأنه حكم بما كلف أن يحكم به وإن كان المحكوم له على باطل والمحكوم عليه على حق، فهل هو عند الله كما هو في الحكم أو كما هو في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم، ومنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، وفي هذه المسألة نظر يحتاج إلى سبر أدلة، فإن العقوبة قد أوقعها الله في رمي المحصنات وإن صدقوا إذا لم يأتوا بأربعة شهداء، وقال في

قضية خاصة في ذلك كان الرامي كاذباً فيها فقال: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [سورة النور: الآية ١٣] كما قرّر في الحكم: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [سورة النور: الآية ١٣] فقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ هل يريد بهذه الإشارة هذه القضية الخاصة أو يريد عموم الحكم في ذلك؟ فجلد الرامي إنما كان لرميه ولكونه ما جاء بأربعة شهداء، وقد يكون الشهداء شهداء زور في نفس الأمر وتحصل العقوبة بشهادتهم في المرمى فيقتل، وله الأجر التام في الأخرى مع ثبوت الحكم عليه في الدنيا وعلى شهود الزور والمفتري العقوبة في الأخرى وإن حكم الحق في الدنيا بقوله: وشهادة شهود الزور فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وإِنَّكُمْ لَتَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنَ الآخَرِ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**» فقد قضى له بما هو حق لأخيه وجعله له حقاً مع كونه معاقباً عليه في الآخرة كما يعاقب على الغيبة والنميمة مع كونهما حقاً، فما كان حق في الشرع تقترون به السعادة، ولما كان الشريعة عبارة عن الحكم في المشروع له والتحكم فيه بها كان المشروع له عبداً فالتزم عبوديته لكون الحكم لا يتركه يرفع رأسه بنفسه، فما له من حركة ولا سكون إلاً وللشرع في ذلك حكم عليه بما يراه، فلذلك جعلت الطائفة الشريعة التزام العبودية فإن العبد محكوم عليه أبداً. وأما قولهم بنسبة الفعل إليك فإنك إن لم تفعل ما يريده السيد منك وإلاً فما وجب عليك الأخذ به، ولذلك رفع القلم عمّن لا عقل له، ويكفي هذا القدر في علم الشريعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والستون ومائتان

في معرفة الحقيقة وهي سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه أنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]

[نظم: البسيط]

إن الحقيقةَ تُعطي واحداً أبَدا ... والعقلُ بالفكر يَنفي الواحدَ الأحَدَا

فالذاتُ ليس لها ثانٍ فيَشفَعُها ... والكونُ يطلبُ من آثاره العَدَدَا

والكلُّ ليس سوى عينٍ محقّقَةٍ ... لا أهلَ فيها ولا أباً ولا وَلَدَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الحقيقة هي ما هو عليه الوجود بما فيه من الخلاف والتماثل والتقابل إن لم تعرف الحقيقة هكذا وإلاً فما عرفت، فعين الشريعة عين الحقيقة والشريعة حق ولكل حق حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما تنزل في الشهود منزلة شهود عينها في باطن الأمر فتكون في الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الناظر، قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً، فادّعى حق الإيمان وهو من نعوت الباطن فإنه تصديق والتصديق محله القلب فآثاره في الجوارح إذا كان تصديق له أثر، فإن كانت تصديق ما له أثر فلا يلزم ظهوره على الجوارح كما قال، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، فنسب الصدق إلى الفرج وهو عضو ظاهر، فقال له

رسول الله ﷺ: فما حقيقة إيمانك؟ فقال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وقد كان صدق رسول الله ﷺ في قوله: «**إنّ عَرْشَ رَبِّهِ يَبْرُزُ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فجعله هذا السامع مشهود الوقوع في خياله فقال: كأني أنظر إليه أي هو عندي بمنزلة من أشاهده ببصري، فلما أنزله منزلة الشهود البصري والوجود الحسّي عرفنا أن الحقيقة تطلب الحق لا تخالفه، فما ثم حقيقة تخالف شريعة لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، فالشرع ينفي ويثبت فيقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فنفى وأثبت معاً كما يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهذا هو قول الحقيقة بعينه فالشريعة هي الحقيقة، فالحقيقة وإن أعطت أحدية الألوهة فإنها أعطت النسب فيها، فما أثبتت إلاّ أحدية الكثرة النسبية لا أحدية الواحد، فإن أحدية الواحد ظاهرة بنفسها، وأحدية الكثرة عزيزة المنال لا يدركها كل ذي نظر، فالحقيقة التي هي أحدية الكثرة لا يعثر عليها كل أحد.

ولما رأوا أنهم عاملون بالشريعة خصوصاً وعموماً ورأوا أن الحقيقة لا يعلمها إلاّ الخصوص فرّقوا بين الشريعة والحقيقة، فجعلوا الشريعة لما ظهر من أحكام الحقيقة، وجعلوا الحقيقة لما بطن من أحكامها لما كان الشارع الذي هو الحق قد تسمّى بالظاهر والباطن، وهذان الاسمان له حقيقة، فالحقيقة ظهور صفة حق خلف حجاب صفة عبد، فإذا ارتفع حجاب الجهل عن عين البصيرة رأى أن صفة العبد هي عين صفة الحق عندهم، وعندنا أن صفة العبد هي عين الحق لا صفة الحق، فالظاهر خلق والباطن حق والباطن منشأ الظاهر، فإن الجوارح تابعة منقادة لما تريد بها النفس، والنفس باطنة العين ظاهرة الحكم، والجارحة ظاهرة الحكم لا باطن لها لأنه لا حكم لها، فينسب الاعوجاج والاستقامة للماشي بالممشى به لا إلى من مشى به، والماشي بالخلق إنما هو الحق وذكر أنه على صراط مستقيم، فالاعوجاج قد يكون استقامة في الحقيقة كإعوجاج القوس فاستقامته التي أريد لها اعوجاجه، فما في العالم إلاّ مستقيم لأن الآخذ بناصيته هو الماشي به وهو على صراط مستقيم، فكل حركة وسكون في الوجود فهي إلهيّة لأنها بيد حق وصادرة عن حق موصوف بأنه على صراط مستقيم بإخبار الصادق، فإن الرسل لا تقول على الله إلاّ ما تعلمه منه فهم أعلم الخلق بالله، وليس للكون معذرة أقوى من هذه، فمن رحمة الرسل بالخلق تنبيه الخلق على مثل هذا، ولما حكاها الحق عنه يسمعنا مقالته علمنا أن ذلك من رحمته بنا حيث عرّفنا بمثل هذا، فكان تعريفه إيانا بما قاله رسوله بشرى من الله لنا من قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وكانت البشرى من كلمات الله ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] ومن باب الحقيقة كونه عين الوجود وهو الموصوف بأن له صفات من كون الموجودات ذات صفات، ثم أخبر أنه من حيث عينه عين صفات العبد وأعضائه فقال: كنت سمعه، فنسب السمع إلى عين الموجود السامع وأضافه إليه وما ثم موجود إلاّ هو فهو السامع والسمع، وهكذا سائر القوىٰ والإدراكات ليست إلاّ عينه، فالحقيقة عين الشريعة فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون ومائتان

في معرفة الخواطر والخواطر ما يرد على القلب

والضمير من الخطاب من غير إقامة وهو من الواردات التي لا تعمل لك فيها فإذا أقامت فهي حديث نفس ما هي خواطر: [المتقارب]

إذا كـــان واردُنـــا خـــاطـــراً يـــمـــرُ بـــنـــا ثـــمَّ لا يَـــرْجِـــعُ
فـمـا فـي الـوجـودِ سـوى خـاطـرِ ومـــا فـــيـــه ردٌّ ولا مَـــدْفَـــعُ
تُـــجَـــدَّدُ أعـــيـــانُـــنـــا كـــلـــمـــا تُـــجَـــدَّد أعـــراضُـــنـــا فـــاســـمـــعُـــوا
فـــمـــا ثَـــمَّ عـــيـــنٌ ســـوى واحـــدِ وآخـــرُ فـــي إثْـــره يَـــتْـــبَـــعُ

اعلم أن الله سفراء إلى قلب عبده يسمّون الخواطر لا إقامة لهم في قلب العبد إلاّ زمان مرورهم عليه، فيؤدّون ما أرسلوا به إليه من غير إقامة، لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به، فكل خاطر عينه عين رسالته، فعندما يقع عليه عين القلب فهمه، فأما يعمل بمقتضى ما أتاه به أو لا يعمل، وجعل الله بينه وبين هذا القلب طرقاً خمسة عليها تمشي هذه الخواطر إلى القلب، وهذه الطرق أحدثها الله لما أحدث الشرائع، فلولا الشرائع ما أحدثها وجعلها كالهالة للقمر محيطة به، فسمّى الطريق الواحد وجوباً وفرضاً، وسمّي الثاني ندباً، والثالث حظراً، والرابع كراهة، والخامس إباحة، وخلق الملك الموكل بالقلب يحفظه عن أمر الله بذلك، وعين له من الطرق طريق الوجوب والندب، وجعل في مقابلته شيطاناً أقعده إلى جانبه عن غير أمر الله المشروع حسداً منه لما رأى من اعتناء الله بهذه النشأة الإنسانية دونه وشفوفه عليه، وعلم ما يفضي إليه من السعادة إذا قام بحق ما شرع له من فعل وترك، وجعل مثل ذلك على طريق الحظر والكراهة سواء، وجعل على طريق الإباحة شيطاناً لم يجعل هناك ملكاً في مقابلته، وجعل قوىٰ النفس كلها وجبلتها مستفرغة لذلك الطريق، وأمرها الله بحفظ ذاتها من ذلك الطريق من الشيطان، وجعل الله في هذه النفس الإنسانية صفة القبول تقبل بها على كل من يقبل إليها، وقبل إحداث الشرائع من آدم إلى زماننا إلى انقضاء الدنيا لم يكن ثم شيء ممّا ذكرناه من ملك حافظ وشيطان منازع مناقض، بل كان الأمر كما يؤول إليه عند ارتفاع الشرائع من الله إلى عبده، ومن العبد إلى الله من غير تحجير ولا حكم من هذه الأحكام، بل يتصرّف بحسب ما تعطيه إرادته ومشيئته، ثم خلق الله لهذه النفس الإنسانية صفة المراقبة لمن يرد من هذه الطرق عليها، وأوحى إليها إلهاماً أن بينه وبينها سفراء يأتون إليها من هذه الطرق ولا إقامة لهم عندها، وقد أنشأنا ذواتهم من صورة رسالتهم حتى إذا رأيتهم علمت بالمشاهدة ما بعثهم الله به إليك فتيقظ ولا تغفل عنهم فإنهم يمرّون بساحتك ولا يثبتون ويقول الحق قلت لهؤلاء السفرة: إني أوجدت في هذا المرسل إليه صفتين: صفة سميتها الغفلة وصفة سميتها اليقظة والانتباه، فإن وجدتموه متصفاً باليقظة فهو الغرض المقصود، وإن وجدتموه متصفاً بالغفلة

فأقرعوا عليه بابه فإنه يتيقظ فإن لم يتيقظ فإنكم لا تفوتونه، فإني جعلت له بصراً حديداً يدرك به صورتكم فيعلم ما بعثتكم به، وإن لم يتيقظ لنقركم فاتركوه وتعالوا إلينا، وقد ملك الله هذا الملك الموكل بالحفظ والقرين الملازم والنفس قوّة التصوّر والتشكل لما يرون، فيشكلون أمثاله حتى كأنه هو وليس هو، وجعل هذه الأمثال في المرتبة الثانية فصاعداً في المراتب لا قدم لهم في المرتبة الأولى، فالمرتبة الأولى لها الصدق ولا تخطئ، فلا تعمل النفس بمقتضى ذلك الخاطر الأوّل فتخطئ ولا تكذب أبداً.

وأما التي على صورة الخواطر الأول فقد تصدق وتخطئ بحسب قوة التصوير وحفظ أجزاء الصورة، وكذلك النظرة الأولى والحركة الأولى والسماع الأوّل، وكل أوّل فهو إلهيّ صادق، فإذا أخطأ فليس بأوّل، وإنما ذلك حكم الصورة التي وجدت في المرتبة الثانية، وأكثر مراقبة الأمور الأول لا يكون إلاَّ في أهل الزجر وقد رأيناه منهم وفي أهل الله خاصة، فهو في أهل الله رتبة عاصمة وحافظة من الخطأ والكذب، وهو في الزاجر قوّة مراقبة وعلم وشهود، واسم هذا الخاطر الأوّل عندهم الهاجس ونقر الخاطر والسبب الأوّل فما يمرّ من هؤلاء السفرة الكرام البررة على هذه الطرق المعينة لهذا القلب يلقى من هو عليه من ملك وشيطان ونفس فيأخذه من بادر إليه من هؤلاء بالتلقي، فإن أخذه الملك وهو ممّا يقتضي وجود عمل سعادي أوحى إليه الملك في سرّه اعمل كذا وكذا، فيقول له الشيطان: لا تعمله وأخره إلى وقت كذا طمعاً منه في أن لا يقع منه ما يؤدي إلى سعادته، وهو ما يجده الإنسان من التردّد في فعل الخير وتركه، وفي فعل الشر وتركه، وكذلك إذا جاءه على طريق الإباحة، فذلك التردّد في فعل المباح وتركه إنما هو بين النفس والشيطان لا بين الملك والشيطان، فإن لمة الملك ولمة الشيطان المقابلة إنما تكون في الأربعة الطرق من الأحكام، وأما في المباح فلمة الشيطان خاصة وما له منازع إلاَّ النفس، وإنما كان للنفس المباح دون غيره لأنها جبلت على جلب المنافع ودفع المضار، والأمر أبداً يتقدّم النهي في لمة الملك والشيطان، فصاحب الأمر في الشر هو الشيطان فله التقدم، وصاحب الأمر في الخير إنما هو الملك فله التقدم، فلا يرد نهي إلاَّ بعد أمر، ولا عكس في مثل هذا في هذه الحضرة، وأصله في الإنسان من آدم عليه السلام، فإن الأمر تقدمه بسكنى الجنة والأكل منها حيث شاء، ثم نهاه عن قرب شجرة مشار إليها أن تقربها، فوقع التحجير والنهي في قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٥] لا في الأكل، فما حجر عليه الأكل وإنما حجر عليه القرب منها الذي كان قد أطلقه في ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فما أكلا منها حتى قربا منها فأخذا بالقرب لا بالأكل، وكان له بعد المؤاخذة الإلهيّة ما أعطته خاصية تلك الشجرة لمن أكل من ثمرها من الخلد ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٠] وكان ذريته فيه لما وقع منه ما وقع ثم أهبط للخلافة وحواء للنسل لأنها محل التكوين، فخرجت الذرية بعد أن تاب الله عليه بكله وذريته فيه وأسعد الله الكل، فله النعيم في أي دار كان منهم ما كان بعد عقوبة وآلام تقوم بهم دنيا وآخرة، فأما الدنيا فالكل لا بدّ من ألم أدناه استهلال المولود حين ولادته صارخاً لما يجده عند المفارقة للرحم وسخانته فيضربه الهواء

عند خروجه من الرحم فيحسّ بالألم فيبكي، فإن مات فقد أخذ بحظه من البلاء، ثم يعيش فلا بدّ له في الحياة الدنيا من الآلام فإن الحيوان مجبول على ذلك، فإذا نقل إلى البرزخ فلا بدّ من ألم السؤال، فإذا بعث فلا بدّ له من ألم الخوف على نفسه أو على غيره، فإذا دخل الجنة ارتفع ذلك عنه أعني حكم الآلام وصحبه النعيم دائماً، وإذا دخل النار صحبه الألم ما شاء الله، فإذا نفذت مشيئته فيه بما كان من الآلام أعقبه فيها نعيماً بالعناية التي أدركته وهو في صلب أبيه آدم لما تاب عليه ليأخذ حظه من الألم واللذة كما أخذ أبوه فله نصيب من توبة أبيه، وبقيت أسماء الانتقام في حق من شاء الله من سوى هذا المسمّى إنساناً تحكم بحسب حقائقها، فإن رحمته ما سبقت غضبه إلاّ في هذه النشأة الإنسانية، وأما ما عداها فمن كون رحمته ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] لا من السبق، فللإنسان دون غيره الرحمة الواسعة والرحمة السابقة فتطلبه الرحمة من وجهين، وليس لغير الإنسان هذا الحكم من الرحمة فهي أشد عناية بالإنسان منها بغيره.

ثم نرجع إلى ما كنا بصدده من معرفة الخواطر فنقول: وبعد أن أعلمتك بحقائقها فتختلف آثارها في النفس باختلاف من يتعرض لها في طريقها، فإن لم يتعرض لها أحد ممّن ذكرنا فذلك خاطر العلم لا يكون خاطر عمل ألبتة وهو الخاطر الرباني، وخواطر الأعمال والتروك تكون ملكية وشيطانية ونفسية لا غير ذلك ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] فأحرى قديماً ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ عملاً أو تركاً لمجيئه على يد شيطان ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] عملاً أو تركاً لمجيئه على يد ملك، فمن راقب خواطره من طرقها فقد أفلح فإنه يعلم من يأخذها، ومن يتعرض إليها من القاعدين لها كل مرصد، ومن غفل عن طرقها وما شعر بها حتى وجدها في المحل كما تجدها العامة عمل بمقتضاها وهو عمل الجاهل بالشيء، فإن كان خيراً فبحكم المصادفة، وإن كان شراً فكذلك، لأن الخاطر الأوّل الذي أتاه بالعلم بمن يأتي بعده من الخواطر وعلى يد من يأتيه لم يشعر به ولا علمه ولا شاهده ففاته حكمه، فلما فجئته هذه الخواطر العملية على حين غفلة وعدم تيقظ ومراقبة لطرقها عمل بمقتضاها فكان خيره وشره مصادفة.

ورأيت ابن الحجازي المحتسب بمدينة فاس ولم يكن صاحب علم بالشريعة يوفقه الله لإصابة الحكم وأعرف من صلاحه أنه ما فاتته تكبيرة الإحرام خلف الإمام في الصلوات كلها بجامع القرويين إلى أن مات، فكانت أحكامه في حسبته تجري على السداد إلهاماً من الله فكان يقول: إني لأعجب من أمري ما اشتغلت بعلم أحكام الشريعة وأوافق حكم الشرع في جميع أحكامي، ولم يقدر أحد من علماء الشريعة يأخذ عليه في حكم لم يقل به مجتهد، هذا وحده رأيته من عامة الناس معتنى به ولم يكن من أهل الطريق بل كان حريصاً على الدنيا مكباً عليها كسائر عامّة الناس، لكن كان منوّر الباطن ولا يشعر بذلك، والخواطر كلها خطابات إلهية ما هي تجليات، ولهذا ينشئها الله صوراً تحدث في العماء الذي هو النفس الإلهيّ، فمن شهدها ولا يرزقه الله علماً بما ذكرناه يتخيل أن الخواطر تجلّ إلهيّ لما يرى من الصورة، وهذا هو

السبب في تسميتها خواطر وأنها لا تثبت كما لا تثبت صورة الحرف في الوجود بعد نطق اللسان به فما له سوى زمان النطق به ثم ينعدم ويبقى في فهم السامع مثال صورته، فيتخيل أن الخاطر باق كما تخيل ذو النون في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فقال: كأنه الآن في أذني فما ذلك هو الكلام الذي سمع وإنما ذلك الباقي ممّا أخذ الفهم من صورة الكلام فثبت في النفس، والقليل من أهل الله من يفرق بين الصورتين.

ولما كانت الخواطر من الخطاب الإلهيّ لذلك دعا من دعا من أهل الله الخلق إلى الله على بصيرة، فإن الدعاء على بصيرة لا يكون إلاَّ بالتعريف الإلهيّ، والتعريف الإلهيّ لا يكون إلاَّ كلاماً لا غير ذلك ليرتفع الإشكال، ولو كان التكوين عن غير كلمة ﴿كُن﴾ لم يكن له ذلك الإسراع في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ بفاء التعقيب وهي جواب الأمر، لأن الذي يكون كان على بصيرة لأنه خطاب، فلو كان غير خطاب لم يكن له هذا الحكم، ولكن أين النفوس المراقبة العالمة المحسّة التي تعرف الأمر على ما هو عليه، وغاية الناظر في هذا الأمر أن يجعل ما هو خطاب حق في النفس أن ذلك المعبر عنه بالعلم الضروري خلقه الله في محل هذا الشخص لا غير، وصاحب الكشف الصحيح يدري أن الله ما خلق له العلم الضروري بالأمر إلاَّ بعد إسماعه إياه كلامه، فيعلم عند ذلك ما أراد الحق بذلك الخطاب، فذلك العلم هو العلم الضروري ولكن ما يشعر به إلاَّ أهل الشعور من أصحاب الأسرار الإلهيّة من أهل الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والستون ومائتان
في معرفة الوارد

[نظم: المتقارب]

تَعَشَّقْتُ بالصادر الواردِ ... تَعَشُّقَ شَفْعِيَ بالواحدِ

وأسماؤه كلُّها واردٌ ... سراعاً لتَخْفَى على الرَّاصدِ

وتعطي بآثارها همَّةً ... إلى كل قلبٍ لها قاصِدِ

الوارد عند القوم وعندنا ما يرد على القلب من كل اسم إلهيّ، فالكلام عليه بما هو وارد لا بما ورد، فقد يرد بصحو وبسكر وبقبض وببسط وبهيبة وبأنس وبأمور لا تحصى وكلها واردات، غير أن القوم اصطلحوا على أن يسمّوا الوارد ما ذكرناه من الخواطر المحمودة، فاعلم يا أخي أن الوارد بما هو وارد لا يتقيد بحدوث ولا قدم، فإن الله قد وصف نفسه مع قدمه بالإتيان، والورود إتيان، والوارد قد تختلف أحواله في الإتيان، فقد يرد فجأة كالهجوم والبواده، وقد يرد غير فجأة عن شعور من الوارد عليه بعلامات وقرائن أحوال تدل على ورود أمر معين يطلبه استعداد المحل، وكل وارد إلهيّ لا يأتي إلاَّ بفائدة، وما ثم وارد إلٰهي كونياً كان أو غير كوني، والفائدة التي تعمّ كل وارد ما يحصل عند الوارد عليه من العلم من ذلك الورود ولا يشترط فيه ما يسرّه ولا ما يسوءه فإن ذلك ما هو حكم الوارد، وإنما حكم الوارد

ما حصل من العلم وما وراء ذلك، فمن حيث ما ورد به لا من حيث نفسه، فيأتي الله يوم القيامة للفصل والقضاء بين الناس، فمن الناس من يقضى له بما فيه سعادته، ومن الناس من يقضى له بما فيه شقاوته، والإتيان واحد والقضاء واحد، والمقضى به مختلف.

والوارد لا يخلو إما أن يكون متصفاً بالصدور في حال وروده فيكون وارداً من حيث من ورد عليه صادراً من حيث من صدر عنه، فلا بدّ أن يكون هذا الوارد محدثاً من الله، وإن لم يتصف بالصدور في حال وروده فإنه وارد قديم، والورود نسبة تحدث له عند العبد الوارد عليه، فالواحد صادر وارد، والآخر وارد لا غير، وما ثم قديم يرد غير الأسماء الإلهية، فإن وردت من حيث العين فلا تختلف في الورود، وإن وردت من حيث الحكم فتختلف باختلاف الأحكام فإنها مختلفة الحقائق إلاّ ما تكون عليه من دلالتها على العين فلا تختلف، وسواء كان الوارد قديماً أو محدثاً، فإن الذي ورد به لا بدّ أن يكون محدثاً، وهو الذي يبقى عند الوارد عليه، وينصرف الوارد ولا بدّ من انصرافه، وسبب ذلك بقاء الحرمة عليه فإنه لا بدّ من وارد آخر يرد عليه، فلا بدّ من القبول عليه من هذا الشخص والإعراض عمّن يكون هناك، فيقع عدم وفاء باحترام الوارد الأوّل، فلهذا يرحل بعد أداء ما ورد به، فإذا ورد الوارد الثاني وجده مفرغاً له فاستقبله وما ثم خاطر يجذبه عنه بتعلقه به، فكل وارد يصدر عنه بحرمته وحشمته فيثني عليه خيراً عند الله فيكون ذلك الثناء سعادته، والواردات على الحقيقة إذا كانت محدثة فما هي سوى عين الأنفاس، والذي ترد به من الأمور والأحكام هي التي تعرفها أهل الطريق بالواردات، فإن الأنفاس هي الحاملة لصور هذه الواردات، فليست الواردات المحدثة فإنها بأنفسها بل هي صور الأنفاس، فتختلف صورها باختلاف أحكام الأسماء الإلهيّة فيها، فالوارد لها كالتحيّز للعرض بحكم التبعية للجوهر فيه، فالجوهر هو المتحيز لا العرض، كذلك النفس هو الوارد لا الصورة، والفائدة في الصورة كالرسالة في الرسول، فوارد بعلم ووارد بعمل، ووارد جامع لهما، ووارد بحال، ووارد بعلم وحال، ووارد بعمل وحال، ووارد بعلم وعمل وحال، وذلك كوارد الصحو والسكر وأمثاله وهو أقوى الواردات، وإذا كان الوارد غير محدث فهو المعبر عنه بارتفاع الوسائط بين الله وبين عبده، فهو تجلّ من الوجه الخاص الذي لكل مخلوق، فما ينقال ما يعطيه ولا ما يحصل له فيه، وقليل من أهل الله من يكون له ذلك وليس في الواردات مثله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون ومائتان
في معرفة الشاهد وهو بقاء صورة المشاهد في نفس المشاهد

اسم فاعل، فصورة المشهود في القلب هي عين الشاهد وبه يقع النعيم للمشاهد:

[نظم: المتقارب]

مُشَاهدةُ الحقِّ من علمنا تحصيلُ شَاهِدِها في القُلوبْ

فيُدْركها بعيون الحِجَى موفَّقَةً خلف سِتْر الغُيوبْ

ويطلعه بَدْرُ [ما] تمّ عُلاً على شَمْسه في مَهَبُ الجَنوبْ

ولما كان الشاهد حصول صورة المشهود في النفس عند الشهود فيعطي خلاف ما تعطيه الرؤية فإن الرؤية لا يتقدمها علم بالمرئي والشهود يتقدمه علم بالمشهود وهو المسمّى بالعقائد، ولهذا يقع الإقرار والإنكار في الشهود، ولا يكون في الرؤية إلاَّ الإقرار ليس فيها إنكار، وإنما سمّي شاهداً لأنه يشهد له ما رآه بصحة ما اعتقده، فكل مشاهدة رؤية وما كل رؤية مشاهدة ولكن لا يعلمون، فما يرى الحق إلاَّ الكمَّل من الرجال ويشهده كل أحد ولا يكون عن الرؤية شاهد، وقال الله تعالىٰ في إثبات الشاهد: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وفي هذه الآية وجوه كلها مقصوده لله، فيكون العبد على كشف من الله لما يريده به أو منه، وذلك لا يكون له إلاَّ بإخبار إلهيّ وإعلام بالشيء قبل وقوعه وهو قول الصديق: «**مَا رَأَيتُ شَيْئاً إلاَّ رَأَيتُ اللَّهَ قَبْلَهُ**» ثم إنّ ذلك الأمر لا يكون له عين إلاَّ من اسم إلهيّ يكون له إثر ذلك الاسم، فيقوم الاسم في قلب العبد ويحضر فيه فيشهده العبد ثم يرى ظهور ذلك الأثر ووجوده في نفسه أو في الآفاق الذي تقدم له به الإعلام الإلهي، فيسمّى ذلك الاسم شاهداً حيث شهده هذا العبد متعلق ذلك الأثر المعلوم عنده، وهذا لا يكون إلاَّ للكمل من الرجال، فهم أصحاب شهود في كل أثر يشهدون لهم به بعد العلم به الإلهيّ على طريق الخبر، وإنما قلنا في الوجوه أنها مقصودة لله فليس يتحكم على الله ولكنه أمر محقق عن الله، وذلك أن الآية المتلفظ بها من كلام الله بأي وجه كان من قرآن أو كتاب منزّل أو صحيفة أو خبر إلهيّ، فهي آية على ما تحمله تلك اللفظة من جميع الوجوه أي علامة عليها مقصودة لمن أنزلها بتلك اللفظة الحاوية في ذلك اللسان على تلك الوجوه، فإن منزلها عالم بتلك الوجوه كلها، وعالم بأن عباده متفاوتون في النظر فيها، وأنه ما كلفهم من خطابه سوى ما فهموا عنه فيه، فكل من فهم من الآية وجهاً فذلك الوجه هو مقصود بهذه الآية في حق هذا الواجد له، وليس يوجد هذا في غير كلام الله وإن احتمله اللفظ فإنه قد لا يكون مقصوداً للمتكلم به، لعلمنا بقصور علمه عن الإحاطة بما في تلك اللفظة من الوجوه، فإن كان من أهل الله الذين يقولون ما في الوجود متكلم إلاَّ الله وهم أهل السماع المطلق منه فتكون تلك الوجوه كلها مقصودة لأن المتكلم الله والشخص المقول على لسانه تلك الكلمة مترجم كما قال على لسان عبده في الصلاة: سمع الله لمن حمده، فالمتكلم هنا هو الله والمترجم العبد، ولهذا كان كل مفسر فسّر القرآن ولم يخرج عمّا يحتمله اللفظ فهو مفسر، ومن فسّره برأيه فقد كفر، كذا ورد في حديث الترمذي، ولا يكون برأيه إلاَّ حتى يكون ذلك الوجه لا يعلمه أهل ذلك اللسان في تلك اللفظة ولا اصطلحوا على وضعها بإزائه، وهنا إشارة نبوية في قوله: «**فَقَدْ كَفَرَ**» ولم يقل أخطأ فإن الكفر الستر، ومن لا يرى متكلماً إلاَّ الله من أهل الله، وقد جعل هذا التفسير لهذه الآية مضافاً إلى رأيه فقد ستر الله عن بعض عباده في هذا الوجه مع كونه حقاً لإضافته إلى رأي المفسر، لأن أهل اللسان ما اصطلحوا على وضع ذلك اللفظ بإزاء ذلك الوجه ولا استعاروه له لا بدّ من هذا الشرط والمتكلم الله به وبالوجه،

والإصابة حق إذا أضيفت إلى الحق، فلذلك قال عليه السلام: «فَقَدْ كَفَرَ» ولم يقل أخطأ ولله أن يستر ما شاء، وإضافة الخطأ إليه محال فإنه لا يقبله لإحاطة علمه بكل معلوم، ويكفي هذا القدر في معرفة الشاهد عند القوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون ومائتان

في معرفة النفس بسكون الفاء وهو عندهم ما كان معلولاً من أوصاف العبد وهو المصطلح عليه في الغالب

[نظم: مخلع البسيط]

النفسُ من عالم البَرَازِخْ فكلُّ سرٍّ منها يَبينْ
مَقامُها في العلوم شامِخْ وكلُّ صَعْبٍ بها يَهُونْ
وروحُها في العَماء راسخْ يُمدُّه روحُه الأمينْ
مَنْسُوخُها بالنكاح ناسخْ وسرُّه في الوَرَى دفينْ
سامي العُلَى مجدُها وباذِخْ سُبْحانَه ما يَشَا يكونْ

اعلم أنه لما كان الغالب في اصطلاح القوم بالنفس أنه المعلول من أوصاف العبد اقتصرنا على الكلام فيه خاصة في هذا الباب فإنهم قد يطلقون النفس على اللطيفة الإنسانية، وسنومئ في هذا الباب إن شاء الله إلى النفس ولكن بما هي علة لهذا المعلول. فاعلم أن لفظة النفس في اصطلاح القوم على الوجهين من عالم البرازخ حتى النفس الكلية، لأن البرزخ لا يكون برزخاً إلاَّ حتى يكون ذا وجهين لمن هو برزخ بينهما ولا موجود إلاَّ الله، وقد جعل ظهور الأشياء عند الأسباب فلا يتمكن وجود المسبب إلاَّ بالسبب، فلكل موجود عند سبب وجه إلى سببه ووجه إلى الله فهو برزخ بين السبب وبين الله، فأوّل البرازخ في الأعيان وجود النفس الكلية فإنها وجدت عن العقل والموجد الله فلها وجه إلى سببها ولها وجه إلى الله فهي أوّل برزخ ظهر، فإذا علمت هذا فالنفس التي هي لطيفة العبد المدبرة هذا الجسم لم يظهر لها عين إلاَّ عند تسوية هذا الجسد وتعديله، فحينئذ نفخ فيه الحق من روحه فظهرت النفس بين النفخ الإلهيّ والجسد المسوّى، ولهذا كان المزاج يؤثر فيها وتفاضلت النفوس فإنه من حيث النفخ الإلهيّ لا تفاضل وإنما التفاضل في القوابل، فلها وجه إلى الطبيعة ووجه إلى الروح الإلهيّ فجعلناها من عالم البرازخ، وكذلك المعلول من أوصاف العبد من عالم البرازخ فإنه من جهة النفس مذموم عند القوم وأكثر العلماء، ومن كونه مضافاً إلى الله من حيث هو فعله محمود، فكان من عالم البرازخ بين الحمد والذم لا من حيث السبب، بل الذم فيه من حيث السبب لاعينه، فكل وصف يكون لنفس العبد لا يكون الحق للنفس في ذلك الوصف مشهوداً عند وجود عينه فهو معلول فلذلك قيل فيه أنه نفس أي ما شهد فيه سوى نفسه، وما رآه من الحق كما يراه بعضهم فيكون الحق مشهوداً له فيه، وكذلك إذا ظهر عليه هذا الوصف لعلة كونية لا تعلّق لها بالله في شهودها ولا خطر عندها نسبة ذلك إلى الله فهو معلول لتلك العلة

الكونية التي حركت هذا العبد لقيام هذا الوصف به، كمن يقوم مريد العرض من إعراض الدنيا لا يحركه قولاً أو فعلاً إلاّ ذلك الغرض، وحبّه لا يخطر له جانب الحق في ذلك بخاطر فيقال: هذه حركة معلولة أي ليس لله فيها مدخل في شهودك كما قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٧] يعني فداء أسارى بدر، فأرسل الخطاب عامّاً في اعراض الدنيا ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٧] فالعرض القريب هو السبب الظاهر الأوّل الذي لا تعرف العامة مشهوداً سواه، والأمر الأخروي غيب عنها وعن أصحاب الغفلة لأنه مشهود بعين الإيمان، وقد يغيب الإنسان في وقت عن معرفة كونه مؤمناً لشغله بشهود أمر آخر لغفلته، ولو مات على تلك الحالة لمات مؤمناً بلا شك مع غفلته، فإن الغافل من إذا استحضر حضر والجاهل ليس كذلك لا يحضر إذا استحضر فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والستون ومائتان

في معرفة الروح وهو الملقي إلى القلب علم الغيب على وجه مخصوص

[نظم: البسيط]

الروحُ روحان روحُ الياء والأمرِ والحكمُ يثبتُ بين النَّهي والأمرِ
وما سواهُ فأخبارٌ منبّئةٌ أن الكوائنَ بين السرِّ والجهرِ
وعالمُ البَرْزَخِ الأعلى يُخلِّصه عِنايةُ حالهِ من قبضة الأسرِ

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وقال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[سورة الشعراء: الآية ١٩٣و١٩٤] فذكر الإنذار، وهكذا في قوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ﴾ وكذلك: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ [سورة النحل: الآية ٢] فما جاء إلاّ بالإعلام، وفيه ضرب من الزجر حيث ساق الإعلام بلفظة الإنزال فهو إعلام بزجر فإنه البشير النذير، والبشارة لا تكون إلاّ عن إعلام، فغلب في الإنزال الروحاني باب الزجر والخوف لما قام بالنفوس من الطمأنينة الموجبة إرسال الرسل ليعلموهم أنهم عن الدنيا إلى الآخرة منقلبون وإلى الله من نفوسهم راجعون.

وأما قولنا روح الياء فأردنا قوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] بياء الإضافة إلى نفسه ينبهه على مقام التشريف أي إنك شريف الأصل فلا تفعل إلاّ بحسب أصلك لا تفعل فعل الأراذل، وروح الأمر قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ أي من أين ظهر فقيل له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] فما كان سؤالاً عن الماهية كما زعم بعضهم فإنهم ما قالوا ما الروح وإن كان السؤال بهذه الصيغة محتملاً، ولكن قوىٰ الوجه الذي ذهبنا إليه في السؤال ما جاء في الجواب من قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ولم يقل هو كذا فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد، فمن عرفهم تلقاهم بالأدب وأخذ منهم بالأدب، ومن لم يعرفهم أخذ علم الغيب ولا يدري ممّن كالكهنة وأهل الزجر وأصحاب الخواطر، وأهل الإلهام

يجدون العلم بذلك في قلوبهم ولا يعرفون من جاءهم به، وأهل الله يشاهدون تنزل الأرواح على قلوبهم ولا يرون الملك النازل إلاّ أن يكون المنزل عليه نبياً أو رسولاً، فالوليّ يشهد الملائكة ولكن لا يشهدها ملقية عليه، أو يشهدون الإلقاء ويعلمون أنه من الملك من غير شهود، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه إليه إلاّ نبيّ أو رسول، وبهذا يفترق عند القوم ويتميز النبيّ من الوليّ أعني النبيّ صاحب الشرع المنزّل، وقد أغلق الله باب التنزّل بالأحكام المشروعة، وما أغلق باب التنزّل بالعلم بها على قلوب أوليائه، وأبقى لهم التنزّل الروحاني بالعلم بها ليكونوا على بصيرة في دعائهم إلى الله بها كما كان من اتبعوه وهو الرسول ولذلك قال: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فهو أخذ لا يتطرق إليه تهمة عندهم، ولهذا قال القشيريّ في الثناء على علم أهل الله: ما ظنّك بعلم علم العلماء فيه تهمة لأن غيرهم من العلماء ما هم على بصيرة لا في الفروع ولا في الأصول، أما في الفروع فللاحتمال في التأويل، وأما في الأصول فلما يتطرّق إلى الناظر صاحب الدليل إلى دليله من الدخل عليه فيه والشبه من نفسه أو من نفس غيره فيتهم دليله لهذا الدخل وقد كان يقطع به، وأهل البصائر من الله لا يتصفون بهذا في علمهم، وذلك العلم هو حق اليقين أي حق استقراره في القلب أن لا يزلزله شيء عن مقرّه، وهذا القدر كاف في علم الروح الملقى.

وأما كيفية الإلقاء فموقوفة على الذوق وهو الحال ولكن أعلمك أنه بالمناسبة لا بدّ أن يكون قلب الملقى إليه مستعداً لما يلقى إليه، ولولاه ما كان القبول وليس الاستعداد في القبول وإنما ذلك اختصاص إلهيّ، نعم قد تكون النفوس تمشي على الطريق الموصلة إلى الباب الذي يكون منه إذا فتح هذا الإلقاء الخاص وغيره، فإذا وصلوا إلى هذا الباب وقفوا حتى يروا بماذا يفتح في حقهم، فإذا فتح خرج الأمر واحد العين وقبله من خلف الباب بقدر استعدادهم الذي لا تعمل لهم فيه، بل اختصّ الله كل واحد باستعداد، وهناك تتميز الطوائف والأتباع من غير الأتباع والأنبياء من الرسل والرسل من الأتباع المسمّين في العرف أولياء، فيتخيل من لا علم له أن سلوكهم إلى الباب سبب به وقع الكسب لما حصل لهم عند الفتح ولو كان ذلك لتساوي الكل وما تساوى، فما كان ذلك إلاّ بالاستعداد الذي هو غير مكتسب، ومن هنا أخطأ من قال باكتساب النبوّة من النظار، ولا يقول باكتسابها إلاّ من يرى أنها ليست من الله، وإنما هي فيض من العقل والأرواح العلوية على بعض النفوس المنعوتة بالصفاء والتخلص من أسباب الطبيعة، فانتقش فيها صور ما في العالم لصفائها وصفاؤها مكتسب فما حصله صفاؤها فهو مكتسب وهذا غلط بل الصفاء صحيح، ونقش صور ما في العالم صحيح في نفس من لها هذه الصفة من الاطلاع، وكون هذا الشخص دون غيره من أهل الصفاء مثله رسولاً ونبياً وصاحب تشريع دون غيره اختصاص إلهيّ ينقشه في نفسه ما في صور العالم، فإن اللوح المحفوظ هو العام لما ذكرناه، ففيه منقوش صورة الرسول ورسالته، وصورة النبي ونبوته، وصورة الوليّ وولايته، فإذا صفت النفس وانتقش فيها ما في اللوح لم يلزم أن يكون رسولاً

بل انتقش فيها من يكون رسولاً وتميزت الأشياء عندها، وهذا خلاف ما توهموه ممّا يحصل بصفاء النفوس، فانتقشت فيها المراتب وأصحابها علواً وسفلاً.

وأما حكم الاستعداد الذي يقبل الإلقاء بالمناسبة التي هي الحبل الإلهيّ الحاصل في القلب الموجود بالاستعداد إذا اتصل بحضرة الحق نزل الإلقاء عليه وهو الطريق فيتنوّر القلب بما حصل فيه من علم الغيب ولا سيما إذا كان من العلم بالله الذي لا تعلق له بالكون كالعلم بأنه ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وبتنزيهه عن الأوصاف وبـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ومثال الاستعداد والتنزّل والحبل المتصل مثل الفتيلة إذا بقي فيها النار خرج من ذلك النار شبه دخان يطلب الصعود بطبعه إلى فوق ويكون هناك سراج موقد فيضع الفتيلة الخارج منها الدخان تحت السراج وعلى سمته بحيث يتصل ذلك الدخان بسرعة فيتصل برأس الفتيلة فتتقد الفتيلة فتظهر صورة السراج المنير الذي منه نزل النور إليها، وينظر هل انتقص من السراج شيء أو هل حلّ منه فيه شيء؟ فلا تجد مع وجود الصورة كأنه هو، فمن علم سرّ هذا علم معنى قوله: «**إن الله خَلَقَ آدَم عَلى صُورَته**»، وعلم أن الاستعداد إذا كان على المقابلة وصحة المناسبة وتعلّقت الهمة الخاصة به أنه ينزل عليه بحسب ذلك ويكون النور الحاصل في الفتيلة في العظم الجرمي والصغر بحسب كبر جرمها وصغره، وتكون إضاءته بحسب صفائها وصفاء دهنها، وتكون إقامته فيها بحسب كثرة دهنها وقلته فإنه الممد لبقائه، فإن فهمت ما قلناه في هذا التشبيه فقد علمت علماً لا يعلمه إلاّ العلماء بالله، وتحققت إلقاء الروح على القلب علم الغيب كيف يكون وأي قلب يقبل ذلك وما يكون عليه من الصفات، وتعلم أن همة الأدنى تؤثر في الأعلى إذا تعلّقت به، كما وقع الجواب من الله للعبد إذا دعاه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والستون ومائتان

في معرفة علم اليقين وهو ما أعطاه الدليل الذي لا يقبل الدخل ولا الشبهة، ومعرفة عين اليقين وهو ما أعطته المشاهدة والكشف ومعرفة حق اليقين وهو ما حصل في القلب من العلم بما أريد له ذلك الشهود

[نظم: الكامل]

عِلْمُ اليَقين بِعَيْنه وبحَقِّهِ ... تبدو دلائلُه على الأكْوَانِ
لولا وجودُ العَيْن في مَلَكُوتِهِ ... ما قام تَوْحيدٌ على بُرْهانِ
فانظرْ إلى حقِّ اليقين وَعَيْنِه ... في عالَم الأرواح والأبْدَانِ
تَجِدِ الذي عنه تَكَوَّن سرُّه ... في كل ما يَبْدو من الأعْيَانِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أنا قد علمنا علماً يقيناً لا تدخله شبهة أن في العالم بيتاً يسمّى الكعبة ببلدة تسمّى مكة لا يتمكن لأحد الجهل بهذا ولا أن يدخله شبهة ولا يقدح في دليله دخل، فاستقرّ العلم بذلك فأضيف إلى اليقين الذي هو الاستقرار أن لله بيتاً يسمّى الكعبة بقرية

تسمّى مكة تحج الناس إليه في كل سنة ويطوفون به، ثم شوهد هذا البيت عند الوصول إليه بالعين المحسوسة، فاستقر عند النفس بطريق العين كيفيته وهيئته وحاله، فكان ذلك عين اليقين الذي كان قبل الشهود علم يقين، وحصل في النفس برؤيته ما لم يكن عندها قبل رؤيته ذوقاً، ثم فتح الله عين بصيرته في كون ذلك البيت مضافاً إلى الله مطافاً به مقصوداً دون غيره من البيوت المضافة إلى الله، فعلم علة ذلك وسببه بإعلام الله لا بنظره واجتهاده، فكان علمه بذلك حقاً يقيناً مقرراً عنده لا يتزلزل، فما كل حق له قرار، ولا كل علم ولا كل عين فلذلك صحّت الإضافة، فلو كان علم اليقين وعينه وحقه نفس اليقين ما صحّت الإضافة، لأن الشيء الواحد لا يضاف إلى نفسه، لأنّ الإضافة لا تكون إلاّ بين مضاف ومضاف إليه فتطلب الكثرة حتى يصحّ وجودها، ومن لم يفرق بين اليقين والعلم ويقول إن العلم هو اليقين، وقد ورد في كتاب الله مضافاً، احتاج إلى طلب وجه في ذلك تصحّ له به الإضافة ليؤمن بما جاء من عند الله فقال: قد يكون المعنى واحداً، ويدل عليه لفظان مختلفان، فيضاف أحد اللفظين إلى الآخر فإنهما غيران بلا شك في الصورة مع أحدية المعنى، ولفظة العلم ما هي لفظة اليقين، فأضيف العلم إلى اليقين لهذا التغاير، فصحّت الإضافة في الألفاظ لا في المعنى، وإنما احتال من احتال هذه الحيلة لقصور فهمه عمّا تدل عليه الألفاظ في الموضوعات من المعاني، فلو علم ذلك لعلم أن مدلول لفظة العلم غير مدلول لفظة اليقين، وإذا تقرّر هذا فقد علمت معنى علم اليقين وعينه وحقّه.

ثم بعد هذا فاعلم أن اليقين في هذه المسألة هو المطلوب، ولهذا أضيفت هذه الثلاثة إليه وكان مدارها عليه، فمن ثبت له القرار عند الله في الله بالله مع الله فلا بدّ له من علامة على ذلك تضاف إلى اليقين لأنها مخصوصة به ولا تكون علامة إلاّ عليه فذلك هو علم اليقين، ولا بدّ من شهود تلك العلامة وتعلّقها باليقين واختصاصها به فذلك هو عين اليقين، ولا بدّ من وجوب حكمة في هذه العين وفي هذا العلم فلا يتصرّف العلم إلاّ فيما يجب له التصرّف فيه، ولا تنظر العين إلاّ فيما يجب لها النظر إليه وفيه، فذلك هو حق اليقين الذي أوجبه على العلم والعين.

وأما اليقين فهو كل ما ثبت واستقرّ ولم يتزلزل من أي نوع كان من حق وخلق فله علم وعين وحق أي وجوب حكمه إلاّ الذات الإلهية، فيقينها ما له سوى حق اليقين وصورة حقها أي الوجوب علينا منها السكوت عنها وترك الخوض فيها لأنها لا تعلم، فما ثم علم يضاف إلى اليقين ولا يشهد فلا تضاف العين إلى اليقين، ولها الحكم على العالم كله بترك الخوض فيها فلها الحق فأضيف إليها فلا يضاف إلى اليقين إلاّ ما يقبله، فإن كان ممّا تدل عليه علامة أضيف إليه العلم، وإن لم يكن فلا يضاف إليه، وإن كان ممّا يشهد أضيفت إليه العين، وإن لم يكن فلا تضاف إليه، وإن كان ممّن له في نفس الأمر حكم واجب على أحد من المخلوقين حتى على نفسه مثل قوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أضيف إليه الحق فقيل حق اليقين لوجوبه، وإن لم يكن شيء ممّا ذكرناه فلا يضاف إلى شيء ممّا تقدم، فقد أعطيتك أمراً كلياً في هذه المسألة في كل متيقن، فلك النظر في حقيقة ذلك اليقين وهذا القدر كاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثامن عشر.

الفصل الرابع
في المنازل
[السفر التاسع عشر]
الباب السبعون ومائتان
في معرفة منزل القطب والإمامين من المناجاة المحمدية

[نظم : مخلع البسيط]

مَنْزِلَةُ القُطْبِ والإمَامَهْ ... مَنْزِلَةٌ مَا لَهَا عَلامَهْ
يَمْلِكُهَا واحِدٌ تَعَالىٰ ... عَنْ صِفَةِ السَّيْرِ والإقَامَهْ
يَعْلُوه فِي لَوْنِه اصْفِرارٌ ... فِي أيْمَنِ الخَدِّ مِنْه شَامَهْ
خَفِيَّةٌ مَا لَهَا نُتُوٌّ ... أيَّده الله بِالسَّلامَهْ
تَوَّجَه الله بِالمَعَالِي ... فِي عَالَمِ الأمْرِ فِي القِيَامَهْ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن ممّن تحقق بهذا المنزل من الأنبياء صلوات الله عليهم أربعة : محمد وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام . ومن الأولياء اثنان وهما : الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، وإن كان لمن عدا هؤلاء المذكورين منه شرب معلوم على قدر مرتبته من الإمامة . فاعلم أن الأقطاب والصالحين إذا سمّوا بأسماء معلومة لا يدعون هناك إلاّ بالعبودية إلى الاسم الذي يتولاهم قال تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [سورة الجن : الآية ١٩] فسمّاه عبد الله وإن كان أبوه قد سمّاه محمد أو أحمد ، فالقطب أبداً مختص بهذا الاسم الجامع فهو عبد الله هناك ، ثم إنهم يفضل بعضهم بعضاً مع اجتماعهم في هذا الاسم الذي يطلبه المقام ، فيختص بعضهم باسم ما غير هذا الاسم من باقي الأسماء الإلهية فيضاف إليه وينادى في غير مقام القطبية كموسىٰ صلّى الله عليه وسلّم اسمه عبد الشكور ، وداود عليه السلام اسمه الخاص به عبد الملك ، ومحمد ﷺ اسمه عبد الجامع ، وما من قطب إلاّ وله اسم يخصه زائد على الاسم العام الذي له الذي هو عبد الله ، سواء كان القطب نبياً في زمان النبوّة المقطوع بها أو وليّاً في زمان شريعة محمد ﷺ، وكذلك الإمامان لكل واحد منهما اسم يخصّه ينادى به كل إمام في وقته هناك ، فالإمام الأيسر عبد الملك ، والإمام الأيمن عبد ربه ، وهما للقطب الوزيران ، فكان أبو بكر رضي الله عنه عبد الملك ، وكان عمر رضي الله عنه عبد ربه في زمان رسول الله ﷺ إلى أن مات ﷺ فسمّي أبو بكر عبد الله ، وسمّي عمر عبد الملك ، وسمّي الإمام الذي ورث مقام عمر عبد ربه ولا يزال الأمر على ذلك إلى يوم القيامة .

وكان الحسن والحسين رضي الله عنهما أمكن الناس في هذا المقام من غيرهما ممّن

اتصف به، وجرت السنّة الإلهية في القطب إذا ولي المقام أن يقوم في مجلس من مجالس القربة والتمكين وينصب له فيه تخت عظيم لو نظر إلى بهائه الخلق لطاشت عقولهم فيقعد عليه ويقف بين يديه الإمامان اللذان قد جعلهما الله له ويمدّ يده للمبايعة الإلهية والاستخلاف وتؤمر الأرواح الملكية والجن والبشر الروحاني بمبايعته واحداً بعد واحد، فإنه جلّ جناب الحق أن يكون مصدر الكل وارد وأن يرد عليه إلاّ واحد بعد واحد، فكل روح يبايعه في ذلك المقام يسأله أعني يسأل الروح القطب عن مسألة من المسائل فيجيبه أمام الحاضرين ليعرفوا منزلته من العلم فيعرفون في ذلك الوقت أي اسم إلهيّ يختصّ به، وقد أفردنا لهذه المبايعة كتاباً كبيراً سميناه مبايعة القطب في حضرة القرب، وذكرنا فيه معاني مسائل كثيرة ممّا سئل عنها فأجاب، ولا تبايعه إلاّ الأرواح المطهرة المقربة، ولا يسأله من الأرواح المبايعة من الملائكة والجن والبشر إلاّ أرواح الأقطاب الذين درجوا خاصة، فذكرنا في ذلك الكتاب سؤالاتهم وجوابه عليها موفى، وهكذا هي حالة كل قطب يبايع في زمانه. فلنذكر في هذا الباب من بعض أحواله العامّة لكل قطب دون الأحوال الخاصة به ليعلم الواقف على كتابي هذا صاحب الذوق المشاهد إياه أنا ما عدلنا في كتابنا هذا عن الطريقة التي لا يجهلها كل عارف من أهل هذا الشأن، فلو ذكرنا الحال الخاص به ربما كان يقول: هذه دعوى، فلنبدأ أوّلاً بحال الإمام الأقصى ثم الإمام الأدنى، ثم القطب.

فأمّا الإمام الأقصى وهو عبد ربه فإن حاله البكاء شفقة على العالم لما يراهم عليه من المخالفات وينظر إلى توجه الأسماء الإلهيّة التي تقتضي العقاب والأخذ، ولا يتجلى له من الأسماء الإلهيّة ما تقتضيه المخالفات من العفو والتجاوز فلهذا يكثر بكاؤه، فلا يزال داعياً لعباد الله رحيماً بهم سائلاً الله سبحانه أن يسلك بهم طريق الموافقات، ولقد عاينت في بعض سياحاتي هذا الإمام فما رأيت ممّن رأيت من الصالحين أشدّ خوفاً منه على عباد الله ولا أعظم رحمة فقلت له: لم لا تأخذك الغيرة لله؟ فقال: إني لا أريد أن يغار لله من أجلي ولكن أريد أن يسأل الله من أجلي ليرحمني ويتجاوز فلا أحب لعباد الله إلاّ ما أحبه لنفسي، ولا ينبغي للصادق مع الله أن يتصوّر في صورة حال لا يعطيه مقامه، ولهذا الإمام قوّة سلطان على الشياطين الملازمين أهل الخير والصلاح ليصرفوهم عن طريقهم فإذا وقع نظر الشيطان على هذا الإمام وهو عند بعض الصالحين يحتال كيف يصرفه عن طريقته يذوب كما يذوب الرصاص في النار فيناديه الإمام باسمه عسى يسلم فيدبر هارباً، فلا يزال ذلك الصالح محفوظاً من إلقاء هذا الصنف من الشياطين إليه ما يخرجه عن صلاحه ما دام هذا الإمام حاضراً ناظراً إليه وإن كان ذلك الصالح لا يعرفه ولا يعرف ما جرى، وقد عاينا هذه الطائفة فيدفع الله عن عباده بهذا الإمام الشرور التي تختص بالصالحين من عباده خاصة عناية منه بهم.

ومن خاصية هذا الإمام التصديق بكل خبر مخبر به عن الله سواء كان ذلك المخبر صادقاً في أخباره أو مفترياً، فإن هذا الإمام يصدقه لكونه ناظراً إلى الاسم الإلهيّ الذي يتولى هذا المخبر في أخباره، فإن كان صادقاً فأخباره عن كشف محقق فيستوي هو والإمام في

ذلك، وإن لم يكن له كشف وأخبر عمّا وقع عنده وهو لا يدري من أوقعه ويقصد الكذب فإن هذا الإمام يصدقه في أخباره، والمخبر معاقب من الله محروم بقصده الكذب وهو في نفس الأمر ليس كذلك، فوبال قصده عاد عليه فعذب أن آخذه الله بذلك. ومن أحوال هذا الإمام أن يسأل دائماً الانتقال إلى مقام المشاهدة من الأحوال ومقام الصلاح من المقامات وله اطلاع دائم إلى الجنان، وإنما خصّه الله بهذا الإطلاع إبقاء عليه فيقابل ما هو عليه من البكاء والحزن المؤدّي إلى القنوط بما يراه ويطلعه الله عليه من سرور الجنان ونعيم أهله فيه ويعاين اشتياق أهله إليه وانتظارهم لقدومه، فيكون ذلك سبباً لاعتداله، ومقام هذا الإمام الإحسان الأوّل وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله عليه الصلاة والسلام: ما الإحسان؟ وجوابه ﷺ: **«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»**، والذي بعده ليس لهذا الإمام، وبيد هذا الإمام مصالح العالم وما ينتفعون به وهو يربي الأفراد ويغذيهم بالمعارف الإلهية، ويقسم المعارف على أهلها بميزان محقق على قدر ما يرى فيه صلاح ذلك العارف لتحيا بتلك المعرفة نفسه، وله السيادة على الثقلين والحكم والتصرّف فيهما بما تعطيه المصلحة لهم، ومن خصائص هذا الإمام الإقامة على كل ما يحصل له من الأحوال والمقامات وليس ذلك لكل أحد فما يتصف بحال فينتقل عنه ولا بمقام، وغير هذا الإمام إذا انتقل إلى مقام أو حال حكم عليه سلطان ذلك المقام والحال وغيبه عما انتقل عنه وهذا الإمام ليس كذلك، فإن المقام الذي انتقل عنه محفوظ عليه لا يغيب عنه قوّة إلهية خصّه الله بها ولروحه من الأجنحة مائتا جناح وأربعة أجنحة أي جناح نشر منها طار به حيث شاء، وله قدم في المرتبة الثالثة والأولى، ويدعى في بعض الأحايين بالبر الرحيم، وكانت بدايته من المرتبة الثالثة ونهايته إلى المرتبة الأولى، فكان طريقته من غايته إلى بدايته بخلاف السلوك المعروف، فرجع القهقرى بقطع المقامات والدرجات والمنازل، فمن نهايته إلى بدايته تسعة عشر منزلاً فيها منزل البداية والنهاية، فتمّ منزل درجاته مائة اثنتان وعشرة وتسعون وعشرون وثلاثة وأربعة وثلاثون وخمسة وأربعون وستة وخمسون وسبعة وستون وثمانية وسبعون وثمانون وتسعة ومائتان. ولما كانت المراتب أربعاً لا زائد عليها وكل مرتبة تقتضي أموراً لا نهاية لها من علوم وأسرار وأحوال، فالمرتبة الأولى إيمان، والثانية ولاية، والثالثة نبوّة، والرابعة رسالة، والرسالة والنبوّة وإن انقطعت في هذه الأمة بحكم التشريع فما انقطع الميراث منهما، فمنهم من يرث نبوّة، ومنهم من يرث رسالة ونبوّة معاً.

وإذ قد ذكرنا ما لهذا الإمام الأقصى فلنذكر ما للإمام الأدنى وهو عبد الملك فنقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: إن لهذا الإمام من جهة روحانيته من الأجنحة تسعين جناحاً أي جناح نشر منها طار به حيث شاء، وكانت بدايته ونهايته في المرتبة الثانية ليس له قدم في باقي المراتب الثلاثة، فلم يكن له منازل ولا درجات ولا مقامات يقطعها، ولهذا الإمام الشدّة والقهر وله التصرّف بجميع الأسماء الإلهيّة التي تستدعي الكون مثل: الخالق والرازق والملك والبارىء على بعض وجوهه وغير ذلك، وليس له تصرّف بأسماء التنزيه

بخلاف الإمام الذي تقدم ذكره، ويلجأ إليه في الشدائد والنوازل الكبار فيفرجها الله على يده فإن الله قد جعل له عليها سلطاناً وله الكرم وليس له الإيثار لنزاهته عن الحاجة إلى ما يقع به الإيثار، وله الإنعام على الخلق من حيث لا يشعرون، ولقد أنعم علي هذا ببشارة بشرني بها وكنت لا أعرفها في حالي وكانت حالي فأوقفني عليها ونهاني عن الإنتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لي: لا تنتم إلاّ لله فليس لأحد ممّن لقيته عليك يد ممّا أنت فيه بل الله تولاك بعنايته، فاذكر فضل من لقيت إن شئت ولا تنتسب إليهم وانتسب إلى ربك، وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء لم يكن لأحد ممّن لقيه عليه يد في طريق الله إلاّ لله، هكذا نقل لي الثقة عندي عنه، وأخبرني الإمام بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في مشهد برزخي اجتمعت به فيه لله الحمد والمنة على ذلك، وولاة أمور الخلق راجعون إلى هذا الإمام فيولي ويعزل ويدفع الله به الشرور، وله سلطان قوي على الأرواح النارية من الشياطين المبعودين من رحمة الله، ويجتمع مع الإمام الأوّل الأقصى في درجة واحدة من خمس درجات وينفرد عنه الإمام الأقصى بأربع درجات، وقد ذكرنا من أحواله في جزء لنا في معرفة القطب والإمامين ما فيه كفاية، فلنقتصر على ما قد ذكرناه رغبة في الاختصار.

وإذ قد ذكرنا من أحوال الإمامين هذا القدر فلنذكر أيضاً من حديث القطب ما تقع به الكفاية في هذه العجالة إن شاء الله، فأما القطب وهو عبد الله وهو عبد الجامع فهو المنعوت بجميع الأسماء تخلقاً وتحققاً، وهو مرآة الحق، ومجلى النعوت المقدسة، ومجلى المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت وعين الزمان وسرّ القدر، وله علم دهر الدهور الغالب عليه الخفاء محفوظ في خزائن الغيرة ملتحق بأردية الصون، لا تعتريه شبهة ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، كثير النكاح راغب فيه محب للنساء، يوفي الطبيعة حقها على الحدّ المشروع له، ويوفي الروحانية حقّها على الحدّ الإلهيّ، يضع الموازين ويتصرّف على المقدار المعين، الوقت له ما هو للوقت، هو لله لا لغيره، حاله العبودية والافتقار، يقبح القبيح، ويحسن الحسن، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يذوب عشقاً، يغار لله ويغضب لله، لا تتقيد له المظاهر الإلهية بالتدبير بل له الإطلاق فيها، فتظهر له في تدبير المدبر روحانيته من البشر المحسوس من خلف حجاب الشهادة والغيب، لا يرى من الأشياء إلاّ وجه الحق، فيها يضع الأسباب ويقيمها ويدل عليها ويجري بحكمها، ينزل إليها حتى تحكم عليه وتؤثر فيه، لا يكون فيه ربانية بوجه من الوجوه، مصاحب لهذا الحال دائماً، إن كان صاحب دنيا وثروة تصرّف فيها تصرّف عبد في مال سيد كريم وإن لم يكن له دنيا وكان على ما يفتح له لم تستشرف له نفس بل يقصد بنفسه عند الحاجة إلى بعض ما تحتاج إليه طبيعته بيت صديق ممّن يعرفه يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشفيع لها عنده فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليه وينصرف، لا يجلس عن حاجته إلاّ من ضرورة، فإذا لم يجد لجأ إلى الله في حاجة طبيعته لأنه مسؤول عنها لكونه والياً عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأله، فإن شاء أعطاه ما سأل عاجلاً أو آجلاً، فمرتبته الإلحاح في السؤال والشفاعة في حق طبيعته

بخلاف أصحاب الأحوال فإن الأشياء تتكوّن عن همتهم وطرحهم الأسباب عن نفوسهم، فهم ربانيون، والقطب منزّه عن الحال ثابت في العلم مشهود فيه فيتصرّف به، فإن أطلعه الحق على ما يكون أخبر بذلك على جهة الافتقار والمنة لله لا على جهة الافتخار، لا تطوى له أرض، ولا يمشي في هواء ولا على ماء، ولا يأكل من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء ممّا ذكرناه من خرق العوائد، وما تعطيه الأحوال إلاّ نادراً لأمر يراه الحق فيفعله، لا يكون ذلك مطلوباً للقطب، يجوع اضطراراً لا اختياراً ويصبر عن النكاح، كذلك لعدم الطول يعلم من تجلي النكاح ما يحرّضه على طلبه والتعشّق به، فإنه لا يتحقق له ولا لغيره من العارفين عبوديته أكثر ممّا يتحقق له في النكاح لا في أكل ولا في شرب ولا في لباس لدفع مضرة، ولا يرغب في النكاح للنسل بل لمجرد الشهوة، وإحضار التناسل في نفسه لأمر مشروع، والتناسل في ذلك للأمر الطبيعي لحفظ بقاء النوع في هذه الدار، فإن نكاح صاحب هذا المقام كنكاح أهل الجنة لمجرّد الشهوة، إذ هو التجلي الأعظم الذي خفي عن الثقلين إلاّ من اختصه الله به من عباده، وعلى هذا يجري نكاح البهائم لمجرّد الشهوة، لكن غاب عن هذه الحقيقة كثير من العارفين فإنه من الأسرار التي لا يقف عليها إلاّ القليل من أهل العناية، ولو لم يكن فيه من الشرف التام الدال على ما تستحقه العبودية من الضعف إلاّ ما يجد فيه من قهر اللذة المفنية له عن قوّته ودعواه، فهو قهر لذيذ إذ القهر مناف للالتذاذ به في حق المقهور، لأن اللذة في القهر من خصائص القاهر لا من خصائص المقهور إلاّ في هذا الفعل خاصة، وقد غاب الناس عن هذا الشرف وجعلوه شهوة حيوانية نزهوا نفوسهم عنها مع كونهم سمّوها بأشرف الأسماء وهو قولهم حيوانية أي هي من خصائص الحيوان، وأي شرف أعظم من الحياة، فما اعتقدوه قبحاً في حقهم هو عين المدح عند العارف المكمل هذا مضى بسبيله.

وأما حب القطب الجمال المقيد المندرج في الجمال المطلق فذلك لقربه في المناسبة إلى الجمال، فلا يحتاج فيه إلى غور بعيد وقوّة يشق بها حجاب قبح الطبع إلى إدراك الجمال الإلهيّ المودع في ذلك القبح، فالجمال المقيد يعطيه بأوّل وهلة مقصوده حتى يتفرّغ إلى أمر آخر آكد عليه من مقاومة القبح الطبيعيّ لإدراك الجمال المطلق، إذ الأنفاس عزيزة في دار التكليف، ويريد أن لا يكون له نفس إلاّ وقد تلقاه بأحسن أدب وصرفه بأحسن خلعة وزينة، وقد غاب عن هذا القدر من المعرفة جماعة من العارفين وأنفت نفوسهم من ذلك لمشاركة أهل الأغراض من العامة فيه، وما علموا أن هذا الرجل له مشاهدة الجمال المطلق في الجمال المقيد وفي غيره بخلاف العامة.

واعلم أن القطب هو الرجل الكامل الذي قد حصل الأربعة الدنانير الذي كل دينار منها خمسة وعشرون قيراطاً وبها توزن الرجال، فمنهم ربع رجل ونصف وثمن وسدس ونصف سدس وثلاثة أرباع ورجل كامل، فالدينار الواحد للمؤمن الكامل، والدينار الثاني للوليّ الخاص، والدينار الثالث للنبوّتين، والدينار الرابع للرسالتين أعني الأصلية بحكم الأبوة والوراثة بحكم البنوة، فمن حصل الثاني كان له الأوّل، ومن حصل الثالث كان له الثاني

والأوّل، ومن حصل الرابع حصل الكل، والقطب من الرجال الكمل، وإنما قلنا من الرجال الكمل من أجل الأفراد فإنهم مكملون، ومن أحوال القطب تقرير العادات والجري عليها ولا يظهر عليه خرق عادة دائماً كما يظهر على صاحب الحال، ولا يكون خرق العادة مقصوداً له بل تظهر منه ولا تظهر عنه، إذ لا اختيار له في ذلك كما قال العارف أبو السعود بن الشبل في الرجل يتكلم على الخاطر وما هو مع الخاطر فيكون في حقه بحكم الاتفاق الوجودي وفي حق الله بحكم الإرادة والقصد، فقد بيّنا بحمد الله الضروري الخاص من أحوال القطب وبيّنا رتبته لمن جهلها، وأن الرجولية ليست فيما يتخيله الجهال من عامّة الطريق بطريق الله، فينحجبون بالحال عمّا يقتضيه العلم والمقام فيقولون: كل علم لا يكون بالحال فليس بشيء، فقل له: لا تقل ذلك يا أخي فإنه خلاف الأمر وإنما الصحيح أن تقول: كل علم لا يكون عن ذوق فليس بعلم أهل الله، فأراك لا تفرق بين الحال والذوق، وما ثم علم قط إلاً عن ذوق لا يكون غير هذا، والمتمكن في العبودة لا حال له البتة يخرجه عن عبودته، فلو لم يكن في الأحوال من النقص إلاً أنها تخرج العبد عن مقامه إلى ما لا يستحقه ولا هو حق له حتى أنه لو مات في حال الحال لمات صاحب نقص وحشر صاحب نقص، فليست الأحوال من مطالب الرجال لكن الأذواق مطالبهم وهي لهم لما يحصل لهم فيها من العلوم بمنزلة الأدلة لأصحاب النظر فيها، فالله يجعلنا ممّن فهم ففهم عن الله مراده، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وفي هذا الباب من العلوم علم ما يستند إليه من الحضرة الإلهية، وعلم نسبة بني آدم إلى الله من أسماء مخصوصة، وعلم ما يتقى ويحذر من العالم الروحاني، وعلم رجعة العالم الروحاني من أين وإلى أين، وعلم الصدور البشري.

الباب الأحد والسبعون ومائتان

في معرفة منزل «عند الصباح يحمد القوم السرى» من المناجاة المحمدية وهو أيضاً من منازل الأمر

[نظم: الرجز]

مـا لَـفْـظَـةٌ يـقـولـهـا كـلُّ الـورى ... عـنـدَ الـصـبـاحِ يَـحْـمَـدُ الـقـوم الـسُّـرَى

مـاذا تَـرَى فـي قَـوْلـهـم يـا مَـنْ يَـرَى ... كـلَّ الأنـام فـي الإمـام والـوَرَا

قـد خـابَ فـي أنـبـائـه مَـنِ افْـتَـرَى ... عـلـى الإلـهِ عـالـمـاً بـمـا جَـرَى

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن هذا المنزل منزل علم السرى وأهله، ويتضمن معرفة عالم الخلق والظلال، ومنه يعرف كسوف القمر أهل الكشف وأنه من الخشوع الطارىء عن القمر من التجلي، ويتعلق بهذا المنزل علم هاروت وماروت من علم السحر وعلم طلوع الأنوار.

اعلم وفقك الله للقبول أن الأنوار على قسمين: أنوار أصلية وأنوار متولدة عن ظلمة الكون كنور قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧]

وكقوله عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٦] ينظر إلى ذلك: ﴿إِلَيْهَا﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ليكون له على النور ولادة، والنور المتكلم عليه في هذا المنزل هو النور المولد الزماني، وهذا المنزل مخصوص بالإمام الواحد من الإمامين اللذين للقطب وهو المسمّى بعبد ربه، وتارة يكون هذا النور ذكراً وتارة يكون أنثى، فإذا غشي الليل النهار فالمتولد منه هو النور المطلوب، وهذا النور المولد الذي شرعنا فيه هو نور العصمة للنبي والحفظ للولي وهو يعطي الحياء والكشف التام فإنه يكشف ويكشف به، والنور الأصلي يكشف ولا يكشف به لأنه يغلب على نور الأبصار فتزول الفائدة التي جاء لها النور، ولهذا تلجأ نفوس العارفين بالأنوار ومراتبها إلى هذا النور المولد من الظلمة للمناسبة التي بيننا وبينه من خلق أرواحنا، فإن الأرواح الجزئية متولدة عن الروح الكلي المضاف إلى الحق والأجسام الطبيعية الظلمانية بعد تسويتها وحصول استعدادها للقبول، فيظهر بينهما في الجسم الروح الجزئي الذي هو روح الإنسان ينفلق عنه الجسم كانفلاق الصباح من فالق الإصباح في الليل، فتقع المناسبة بين هذا النور وبين روح الإنسان فلذلك يأنس به ويستفيد منه، وهكذا أجرى الله العادة ولم يعط من القوّة أكثر من هذا ولو شاء لفعل، وهكذا جرت المظاهر الإلهية المعبر عنها بالتجليات، فإن النور الأصلي مبطون فيها غيب لنا، والصور التي يقع فيها التجلي محل لظهور المظهر فتقع الرؤية منا على المظاهر، ولهذا هي المظاهر مقيدة بالصور ليكون الإدراك منا بمناسبة صحيحة، فإن المقصود من ذلك حصول الفائدة به وبما يكون منه، وهذا منزل عال كبير القدر العالم به متميز على أبناء جنسه وهو سار في الأشياء، فكما أنه سبحانه ذكر أنه فالق الإصباح كذلك هو فالق الحب والنوى بما يظهر منهما، فما وقعت الفوائد إلاً بمثل هذا النور، وكانت الأنبياء عليهم السلام تتخذه وقاية تتقي به حوادث الأكوان التي هي ظلم الأغيار.

وكما تبين لك قدر هذا النور المولد ومنزلته فلنبين ما يتخذ له وقاية، وذلك أن الوقاية لا تكون إلاً من أجل الأمور التي يكرهها الإنسان طبعاً وشرعاً، وهي أمور مخصوصة بعالم الخلق والتركيب الطبيعي لا بعالم الأمر، وقد بينا في هذا الكتاب وغيره ما نريده بعالم الأمر وعالم الخلق والكل لله تعالىٰ، قال عزّ وجلّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] فخصّه بالاسم الرب دون غيره. ولما كان عالم الخلق والتركيب يقتضي الشر لذاته لهذا قال عالم الأمر الذي هو الخير الذي لا شرّ فيه حين رأى خلق الإنسان وتركيبه من الطبائع المتنافرة والتنافر هو عين التنازع والنزاع أمر مؤد إلى الفساد ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] من غير تعرّض لمواقع الأحكام المشروعة، وكذلك وقع مثل ما قالوه ورأوا الحق سبحانه يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٤] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥] فكرهوا ما كره الله، وأحبوا ما أحب الله، وجرى حكم الله في الخلق بما قدره العزيز العليم، فما ظهر من عالم التركيب من الشرور فمن طبيعته التي ذكرتها الملائكة، وما ظهر منه من خير فمن روحه الإلهيّ الذي هو

النور المولد فصدقت الملائكة ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] وإذا كان عالم الخلق بهذه المثابة فواجب على كل عاقل أن يعتصم بهذا النور المذكور في هذا المنزل، فالشرور كلها مضافة إلى عالم الخلق، والخير كله مضاف إلى عالم الأمر.

واعلم أن الطبيعة لما تألفت واجتمعت لظهور عالم الخلق بعد أن كانت متنافرة ليظهر بذلك شرف هذا النور بما يكون فيه من الخير مع تولده من هذا التركيب لقوته وغلبة عالم الأمر على نشأته دخلت في الوجود الحسيّ فسميت جسماً وحيواناً ونباتاً وجماداً، وما من شيء من هذا كله إلاّ والفساد والتغيير موجود فيه في كل حال، ولولا هذا النور الاعتصامي لهلك عالم الخلق جملة واحدة، فأمر الله سبحانه أن يلجأ إليه بالدعاء في دفع هذه المكاره كلها، فيؤيد الله هذا الروح بما يعطيه من هذا النور من الاسم الرب ليدفع به ما تقع له به المضرة من جانب ظلمة الطبع.

واعلم أن مسمّى الشر على الحقيقة ومسمّى الخير إنما هو راجع إما لوضع إلهيّ جاءت به ألسن الشرائع، وإما لملائمة مزاج فيكون خيراً في حقه، أو منافرة مزاج فيكون شراً في حقه، وإما لكمال مقرّر اقتضاه الدليل فيكون خيراً، أو نقص عن تلك الدرجة فيكون شراً، وإما لحصول غرض فيكون خيراً في نظره، أو عدم حصوله فيكون شراً في نظره، فإذا رفع الناظر نظره عن هذه الأشياء كلها لم تبق إلاّ أعيان موجودات لا تتصف بالخير ولا بالشر، هذا هو المرجوع إليه عند الإنصاف والتحقيق، ولكن ما فعل الله سبحانه إلاّ ما قد حصل في الوجود من كمال ونقص وملايمة ومنافرة وشرائع موضوعة بتحسين وتقبيح، وأغراض موجودة في نفوس تنال وقتاً ولا تنال وقتاً، وما خلا الوجود من هذه المراتب، وكلام المتكلم إنما هو بما حصل في الوجود لا بالنظر الآخر المنسوب إلى جانب الحق، ثم أصل هذا الأمر كله إنما هو من جانب وجود واجب الوجود لذاته وهو الخير المحض الذي لا شر فيه، ومن جانب العدم المطلق الذي في مقابلة الوجود المطلق، وهذا العدم هو الشر المحض الذي لا خير فيه، فما ظهر من شر في العالم فهذا أصله لأنه عدم الكمال أو عدم الملايمة أو عدم حصول الغرض فهي نسب، وما ظهر من خير فالوجود المطلق فاعله ولذلك قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وما هو موصوف بأنه عندك فليس هو عينك، والإعدام والإيجاد بين إرادته سبحانه وقدرته ولهذا قلنا: إن الخير فعل الحق، ولم نقل في الشر فعلاً وإنما قلنا إن ذلك العدم المطلق أصله، فحررنا العبارة عنه ليعرف العاقل الناظر في كتابي هذا ما أردناه.

وإذ قد تبين هذا الأصل النافع في هذا الباب فلنقل: وممّا يلجأ إليه في دفع ما يكره من الأفعال ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان من علم السحر الذي مزجوه بما أنزل على الملكين هاروت وماروت من علم الحق فعلم الحق من ذلك هو العلم بالأمور التي تسمّى معجزات، فإن الحق معجز وهو النور الذي يستند إليه، وعلم الباطل من ذلك علم الخيال الذي قال فيه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٦] ولهذا سمّي السحر سحراً مأخوذ من السحر وهو اختلاط الضوء والظلمة، فالسحر له وجه إلى الظلمة وليس ظلاماً

خالصاً، وله وجه إلى الضوء وليس ضوءاً خالصاً، كذلك السحر له وجه إلى الحق وهو ما ظهر إلى بصر الناظر فإنه حق، وله وجه إلى الباطل لأنه ليس الأمر في نفسه على ما أدركه البصر فلهذا سمته العرب سحراً وسمّي العامل به ساحراً لا العالم به، ولهذا سمّي كيداً من كاد يكيد أي كاد يقارب الحق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [سورة الطارق: الآية ١٥] أي يقاربون الحق فيما يظهر لكم، وكاد من أفعال المقاربة، تقول العرب: كاد العروس يكون أميراً أي قارب أن يكون أميراً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [سورة طه: الآية ٦٩] أي فعلوا ما يقارب الحق في الصورة الظاهرة للبصر، فإذا لم يكن حقاً ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢] أي كيف تصرفون عن معرفة هذه الحقائق؟ وممّا يتعلق بهذا العلم من الشر مقلوب الحمد ولهذا قال: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٢] فإنّ مقلوب الحمد كفر وهو الذمّ، إذ الحمد هو الثناء على المحمود بما هو عليه من الخلال، وبما يكون منه ممّا تعطيه مكارم الأخلاق والذم في مقابلة ما ذكرناه، قال تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي من المعلمين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٢] والله قد كره ذلك وقد ذمّه وندب إلى الألفة وانتظام الشمل.

ولما علم سبحانه أن الافتراق لا بدّ منه لكل مجموع مؤلف لحقيقة خفيت عن أكثر الناس شرع الطلاق رحمة بعباده ليكونوا مأجورين في أفعالهم محمودين غير مذمومين إرغاماً للشياطين، ومع هذا فقد ورد في الخبر النبوي أنه ﷺ قال: «**مَا خَلَقَ اللَّهُ حَلاَلاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلاَقِ**» لأنه رجوع إلى العدم إذ كان بائتلاف الطبائع ظهر وجود التركيب وبعدم الإئتلاف كان العدم، فكانت الأسماء الإلهية معطلة التأثير، فمن أجل هذه الرائحة كره الفرقة بين الزوجين، فعدم عين الاجتماع أي هذه الحالة ارتفعت بافتراق هذين الزوجين وإن بقيت أعيانهما، وإن كان الاجتماع والافتراق والحركة والسكون الحاصل من ذلك راجع إلى نسب معقولة لا أعيان موجودة كما يراه بعضهم، وبهذا النور الخاص بهذا المنزل يندفع جميع ما ذكرناه من الشرور، وما لم نذكره ممّا ينطلق عليه اسم شر بالإضافة إلى ما قرّرناه من الكمال والملايمة وغير ذلك، وهذا القدر من السحر الذي يعطي التفرقة هو الذي يدفعه سبب وجود هذا النور في هذا المنزل خاصة وعند الخروج من هذه السدف والظلم بالإدلاج فيها حتى يطلع لك الصباح وتشرق الأنوار وذلك عالم الآخرة حيث كان حينئذ تحمد مسعاك، وما فاتك بذلك السهر في سيرك من لذة النوم والاضطجاع والسكون، فوضعوا لذلك لفظاً مطابقاً وهو قولهم: عند الصباح يحمد القوم السرى، والصباح عبارة عن هذا النور، ومن حصل له هذا النور كان الناس فيه بين غابط وحاسد، فالغابط من طلب من الله أن يكون له مثل ما حصل لهذا من هذه الحال من غير أن يسلب ذلك عن صاحبه، والحاسد من يطلب زوال هذا الأمر من صاحبه ولا يتعرّض في طلبه لنيله جملة واحدة، فإن طلب مع طلب إزالته من ذلك نيله فبه يقع الاشتراك بين الغابط والحاسد، وما يقع به الاشتراك غير ما يقع به الامتياز، فطلب نيل ذلك محمود وهو الغبط، وطلب إزالته مذموم وهو الحسد، فلذلك فصلنا فيه هذا التفصيل، وإن كان

الشرع قد أطلق لفظ الحسد في موضع الغبط فقال ﷺ: **«لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ وَيُفَرِّقُهُ يَمِيناً وَشِمَالاً»** وفي هذا سرّ وتنبيه على فضل الكرم والعطاء لغير عوض، فإنه من أعطى لعوض فهو شراء ليس بكرم إذ الكريم من لا يطلب المعاوضة فلذا قال: **«يميناً وشمالاً»** ولو عنى بالشمال الإنفاق في معصية من زنا أو غيره فليس بكرم لأنه يحصل به عوضاً هو أحب إليه من المال، فإن قيل: إن العوض له لازم فإن الثناء بالكرم لازم لذي الكرم. قلنا: هذا لا يقع إلاَّ من الجاهل لأن الثناء الحسن من لوازم الكرم سواء طلبه أو لم يطلبه، فاشتغاله بطلب الحاصل جهل فإن الحاصل لا يبتغى واللازم للشيء لا بدّ له منه وإلاَّ فليس بلازم، فإن فعل ذلك التحق بأصحاب الأعواض ولم يتصف عند ذلك بالكرم ولا لبسه. والرجل الآخر: **«رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَهُوَ يَبُثُّهُ فِي النَّاسِ»** أي يفرقه فيهم الحديث كما قاله عليه السلام، فإنا أوردناه من جهة المعنى وبعض ألفاظه ﷺ فسمّاه حسداً، وقد يسمّى الشيء باسم الشيء بما يقاربه أو يكون منه بسبب.

وبعد أن فصلنا ما أردنا ارتفع الإشكال فيما قصدناه، ونحن إنما أردنا ما أراد الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق: الآية ٥] وليس الشرّ في طلب نيل مثله وإنما الشرّ في طلب زواله ممّن هو عنده. ولما قلنا إنّ عبد الرب له خمس درجات وأنه يزيد على عبد الملك بأربع درجات كان هذا المنزل على خمس درجات والدرجة السادسة التي لهذا المنزل فيها خلاف بين أهل هذا الشأن، فمنهم من جعلها درجة مستقلة بنفسها لكنها فاصلة بين مقامين من المقامات الإلهية وليس هو مذهبنا، ومنهم من جعلها درجة سادسة في عين هذا المقام وهو مذهبنا، وهذه الدرجة تتضمن منزلاً واحداً من منازل الغيب بالإجماع من أهل هذا الشأن، وقيل: ثلاث منازل بخلاف بينهم. فأمّا ابن برجان فانفرد دون الجماعة بإظهار المنزل الثاني في هذه الدرجة من منازل الغيب ولم أعلم ذلك لغيره وله وجه في ذلك ولكن فيه بُعد عظيم، وإن كنا نحن قد ذهبنا إلى هذا المذهب في بعض كتبنا ولكن ليس في وجوده تلك القوّة وإنما يظهر عند صنعة التحليل، والكلام على المفردات من علم هذا الطريق وهو ممّا يتعلق بمعرفة الهوية، ولهذه الدرجة تسعة عشر منزلاً من منازل الشهادة كل منزل من هذه المنازل يمنع ملكاً من التسعة عشر الذين على النار فلا يصيب صاحب هذه الدرجة من النار شيء قال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣٠] فلوجود هذه المنازل في هذه الدرجة جعلت ملائكة النار تسعة عشر، ولا نعكس فنقول: من أجل هؤلاء الملائكة جعلت هذه المنازل تسعة عشر فإن الأمر لم يكن كذلك، ولم تكن هذه المنازل بحكم الجعل بخلاف الملائكة فإن هذه الدرجة اقتضت هذه المنازل لذاتها. وقال في الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] فكانوا بحكم الجعل، وكانوا في عالم الشهادة، لأن النار محسوسة مشهودة، وتتضمن هذه الدرجة السادسة من العلوم علم الأسماء الإلهيّة المتعلقة بالكون، ولها صورة في العموم من حيث الإيجاد وفي الخصوص من حيث السعادة. واعلم أنه ما من منزل من هذه المنازل التي في هذا الكتاب إلاَّ وله هذه الدرجة، وتختلف آثارها باختلاف المنازل

إلاً منزلاً واحداً من منازل القهر وسيأتي ذكره إن شاء الله، وكنا قد ذكرنا في كتاب هياكل الأنوار هذا المنزل وما يختص به وما يعطيه هيكله فلينظر هناك وهو الهيكل الثاني عشر ومائة، وهذه العجالة تضيق عن أسرارها في كل منزل من هذه المنازل المودعة فيه أعني في هذا الكتاب، وكذلك المنازلات.

والفرق بين المنزل والمنازلات ما نبينه لك، وذلك أن المنزل عبارة عن المقام الذي ينزل الحق فيه إليك، أو تنزل أنت فيه عليه، ولتعلم الفرق بين إليك وعليه. والمنازلة أن يريد هو النزول إليك ويجعل في قلبك طلب النزول عليه فتتحرك الهمة حركة روحانية لطيفة للنزول عليه فيقع الاجتماع به بين نزولين: نزول منك عليه قبل أن تبلغ المنزل، ونزول منه إليك أي توجه اسم إلهيّ قبل أن يبلغ المنزل، فوقوع هذا الاجتماع في غير المنزلين يسمّى منازلة، وهنا يكون لصاحب هذه الحالة أحد ثلاثة أمور: إما تحصل الفائدة عند اللقاء المطلوبة لذلك الاسم من هذا العبد ولهذا العبد من ذلك الاسم فينفصل عنه الاسم إلى مسمّاه ويرجع العبد إلى مقامه الذي منه خرج. وإما أن يحكم عليه الاسم الإلهيّ بالرجوع إلى ما منه خرج ويكون ذلك الاسم الإلهيّ معه إلى أن يوصله إلى ما منه خرج. وإما أن يأخذه الاسم الإلهيّ معه ويعرج به إلى مسمّاه، وأيّ الأمرين حصل من هذا الذي ذكرنا فيسمّى عندنا هذا المنزل الذي رجعا إليه بهذه الصفة الخاصة منزل المنازلات لأنه يعطي من الأحكام خلاف ما يعطيه إذا لم يكن نزوله عن منازلة، يعرف هذا أهل الأذواق وأهل الشرب والريّ، وقد جعلنا في هذا الكتاب من المنازلات ما تقف عليه إن شاء الله.

واعلم أن المنازل لا ينطلق عليها هذا الاسم إلاً عند النزول فيها، فإن أقام فيها ولم ينتقل عنها حدث لها اسم الموطن لاستيطانه فيها واسم المسكن لسكونه إليها وعدم انتقاله إلى منزل، إلاً أنه لا بدّ له أن ينتقل في نفس هذا المنزل في دقائقه بحيث لا يخرج عنه، كمثل الذي يتصرّف في بيوت الدار التي هو ساكنها فما دام العارف مستصحباً لاسم واحد إلهيّ مع اختلاف تصرّفه فيه كان موطناً له من حيث الجملة، ومن المحال أن يقيم أحد نفسين على حالة واحدة فلا بدّ له من الانتقال في كل نفس، ولهذا منع بعضهم من أهل الله أن يكون الاسم موطناً أو مسكناً لأنه تخيل أن لكل نفس وكل حال اسماً إلهيّاً، ولم يدر أن الاسم الإلهيّ قد يكون له حكم أو يكون له أحكام كثيرة مختلفة، فيكون موطناً لهذا الشخص ما دام يتصرّف تحت أحكامه. فأما قولهم من المحال بقاؤه نفسين على حكم واحد على أن يكون واحد نعتاً لحكم فصحيح. وأما إن أرادوا استحالة بقائه نفسين على حكم واحد على طريق الإضافة إضافة الحكم إلى الواحد فليس بصحيح، فإن الوجوه لهذا الاسم الإلهيّ، فالغفار يستره عن كذا وكذا، وكذا وكذا بحسب المطالب التي تطلبه في كل نفس ممّا يصحّ أن يستره عنها الاسم الغفار على التتالي والتتابع من غير أن يتخللها ما يطلب اسماً آخر، ولهذا صحّت فيه المبالغة لأنه يكثر منه ذلك، وهكذا الخلاق والرزاق، وجميع الأسماء التي لها حكم في الكون إذا توالى على الإنسان ما يطلب هذا الاسم ولا بدّ فالأسماء الإلهيّة منازل بوجه،

ومساكن ومواطن بوجه، وقد بيّنا في هذا الباب على طريق الإشارة وضيق الوقت ما تقع به الفائدة لصاحب الذوق، وما نودع كل باب ممّا عندنا فيه إلاّ نقطة من بحر محيط هذا بالنظر إلى ما عندنا فيه فكيف هو بالنظر إلى ما هو عليه في نفسه هو البحر الذي لا ساحل له، وهذا المنزل من منازل الأمر، وهذه المنازل الأمرية وإن كانت سبعة في العدد فمن حيث الأمهات وإنما هي أكثر من ذلك، ولا بدّ لنا إن تفرّغنا إليها من حصرنا إياه حتى يعلم إلى كم تنتهي من جناب الحق، فإن فيها فوائد جمة هي مثبوتة في كتبنا، والله سبحانه يقول الحق وهو يهدي السبيل. وفي هذا المنزل من العلوم: علم إخراج المغيبات بالأسماء الإلهية، وعلم الخلق، وعلم الغيب الداخل في الشهادة، وعلم الشبه، وعلم نفث الروح في الروع.

الباب الثاني والسبعون ومائتان

في معرفة منزل تنزيه التوحيد

[نظم: الطويل]

بتنزيه توحيدِ الإله أقولُ ... وذلك نور ما لديه أُفولُ

وتنزيهُه ما بين ذاتٍ ورتبةٍ ... وإن الذي يدري به لَقليلُ

تَنَزَّه عن تنزيه كل مُنَزِّهٍ ... فمن شاء قولاً فليَقُلْ بيقولُ

فإن وجودَ الحق في حَرْفِ غَيْبِهِ ... فحرفُ حُضورٍ ما عليه قَبُولُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن المراد بلفظة تنزيه التوحيد أمران: الواحد أن يكون التوحيد متعلق التنزيه لا الحق سبحانه. والأمر الآخر أن يكون التنزيه مضافاً إلى التوحيد على معنى أن الحق تعالىٰ قد ينزّه بتنزيه التوحيد إياه لا بتنزيه من نزّهه من المخلوقين بالتوحيد مثل حمد الحمد، فإن قيام الصفة بالموصوف ما فيها دعوى، ولا يتطرّق إليها احتمال، والواصف نفسه أو غيره بصفة ما يفتقر إلى دليل على صدق دعواه فيتعلق بهذا فصول تدل عليها آيات من الكتاب منها هل يصحّ الإضمار قبل الذكر في غير ضرورة الشعر أم لا؟ فالشاعر يقول: جزى ربه عني عدي بن حاتم. فأضمر قبل الذكر، ولكن الشعر موضع الضرورة، ومن فصول هذا المنزل الأمر بتوحيد الله فلا يكون فيه توحيد الحق نفسه ويتعلق به التقليد في التوحيد لأن الأمر لا يتعلق بمن يعطيه الدليل ذلك إلاّ أن يكون متعلق الأمر الاستدلال لا التعريف على طريق التسليم أو الاستدلال بالتنبيه على موضع الدلالة مثل قوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٩١] وكقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] وكقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ومن فصول هذا المنزل قوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٣] لعدم الكفاءة إذ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] فلو كانت الكفاءة موجودة لجاز ذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢١] فجعل الكفاءة بالدين، وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فجعله من قبيل الإمكان فقال: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية

٤] والاصطفاء جعل والمجعول ينافي الكفاءة للجاعل، وأين مرتبة الفاعل من المفعول؟ ومن فصول هذا المنزل التنزيه أن يكون مدركاً بالمقدمات التي تنتج وجوده أو المعرفة به تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ومن فصول هذا المنزل أنه لا يكون مقدّمة لإنتاج شيء للتركيب الذي يتصف به المقدمات والسبب الرابط في المقدمات فيستدعي المناسبة، والمناسبة بين الخلق والحق غير معقولة ولا موجودة، فلا يكون عنه شيء من حيث ذاته، ولا يكون عن شيء من حيث ذاته، وكل ما دلّ عليه الشرع أو اتخذه العقل دليلاً إنما متعلقه الألوهة لا الذات، والله من كونه إلهاً هو الذي يستند إليه الممكن لإمكانه، فلنذكر ما يتعلق بفصول هذا المنزل على الاختصار إن شاء الله.

اعلم أن هذا المنزل هو الرابع من منازل العظمة في حق أصحاب البدايات وهو الحادي عشر والعاشر ومائة في حق الأكابر الروحانيين، ولما كانت الحضرة الإلهية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ذات، وصفات، وأفعال، كان هذا المنزل أحدها وهو الثالث منها، ولما كانت الصفات على قسمين: صفة فعل، وصفة تنزيه، كان هذا المنزل صفة التنزيه منهما، فأما تنزيه التوحيد فهو أن هذا التوحيد الذي ننسبه إلى جناب الحق منزّه أن ينسب إلى غير الحق فهو المنزه على الحقيقة لا الحق، وإنما قلنا هذا لأنه يجوز أن يوصف به غير الحق فيما يعطيه اللفظ كما وقعت المشاركة في إطلاق لفظة الوجود والعلم والقدرة وسائر الأسماء في حق الحق والخلق، فهذا المنزل ينزّه هذا التوحيد المنسوب إلى الله أن يوصف به غيره فإنه توحيد الذات من جميع الوجوه، ولا يوصف بهذا التوحيد غيره لا في اللفظ ولا في المعنى، وكانت ذات الحق المنسوب إليها هذا التوحيد لا يتعلق بها تنزيه لأنه لا يجوز عليها فتبعد عن وصفها الذي يجوز عليها إذ كانت في نفس الأمر منزهة لا بتنزيه منزّه، وأما إذا كان تنزيه التوحيد متعلقه الحق سبحانه فيكون منزهاً من حيث ذاته بلسان عين هذا الوصف الذي هو التوحيد له كثناء لسان صفة الكرم بالكريم لقيامه به لا بقول القائل، ودليل الناظر أنه سبحانه واحد فقد كان له هذا الوصف ولا أنت وله هذا الوصف وأنت أنت، وإذا كان هذا الأمر على هذا الحدّ فما ثم موجود يصحّ أن يضمر قبل الذكر إلاّ من يستحق الغيب المطلق الذي لا يمكن أن يشهد بحال من الأحوال، فيكون ضمير الغيب له كالاسم الجامد العلم للمسمّى يدل عليه بأوّل وهلة من غير أن يحتاج إلى ذكر متقدم مقرر في نفس السامع يعود عليه هذا الضمير، فلا يصحّ أن يقال هو إلاّ في الله خاصة، فإذا أطلق على غير الله فلا يطلق إلاّ بعد ذكر متقدم معروف بأيّ وجه كان ممّا يعرف به فيقال هو، وعين محل هذا الضمير مشهود عند من لا يصحّ أن يقال فيه هو لحضوره عنده فيزول عنه اسم الهو بالنظر إلى ذلك، ويثبت له اسم الهو بالنظر إلى من غاب عنه.

فإن قيل: إذا صحّ ما قررته فإنه سبحانه مشهود لنفسه فيزول عنه الهو بالنظر إلى شهوده نفسه، فإذا الهو ليس له بمنزلة الاسم العلم كما زعمت. قلنا: وإن شهد نفسه فإن الهوية

معلومة غير مشهودة وهي التي ينطلق عليها اسم الهو، هذا على مذهبنا وهو مذهب أهل الحق كيف وثم طائفة تقول: إنه لا يعلم نفسه فلا يزال الهو له منا ومنه، قال تعالىٰ في أوّل سورة الإخلاص لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١] فابتدأ بالضمير ولم يجر له ذكر متقدم يعود عليه في نفس القرآن، وإن كانت اليهود قد قالت له: انسب لنا ربك؛ فربما يتوهم صاحب اللسان أن هذا الضمير يعود على الرب الذي ذكرته اليهود، ولتعلم أن هذا الضمير لا يراد به الرب الذي ذكرته اليهود لأن الله يتعالىٰ أن يدرك معرفة ذاته خلقه ولذلك قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ وما ذكر في السورة كلها شيئاً يدل على الخلق بل أودع تلك السورة التبري من الخلق فلم يجعل المعرفة به نتيجة عن الخلق فقال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ولم يجعل الخلق في وجوده نتيجة عنه كما يزعم بعضهم بأيّ نسبة كانت فقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] ونفى التشبيه بأحدية كل أحد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] وأثبت له أحدية لا تكون لغيره، وأثبت له الصمدانية وهي صفة تنزيه وتبرئة، فارتفع أن يكون الضمير يعود على الرب المذكور المضاف إلى الخلق في قولهم له ﷺ: أنسب لنا ربك، فأضافوه إليه لا إليهم، ولما نسبه ﷺ بما أنزل عليه لم يضفه لا إليه ولا إليهم بل ذكره بما يستحقه جلاله، فإذاً ليس الضمير في هو الله يعود على من ذكر، وأين المطلق من المقيد؟ فهوية المقيد ليست هوية المطلق، فهوية المقيد نسبة تتعلق بالكون فتتقيد به إذ تقيد الكون بها فيقال: خالق ومخلوق، وقادر ومقدور، وعالم ومعلوم، ومريد ومراد، وسميع ومسموع، وبصير ومبصر، ومكلم ومكلم، والحيّ ليس كذلك فهو هويته لا تعلق له بالكون وليس القيوم كذلك، فإذا عرفت ما ذكرناه عرفت أن الإضمار قبل الذكر لا يصحّ إلاّ على الله وبعد الذكر تقع فيه المشاركة، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢] فأعاد الضمير على الله المذكور في أوّل الآية.

واعلم أن التوحيد الذي يؤمر به العبد أن يعلمه أو يقوله ليس هو التوحيد الذي يوحد الحق به نفسه، فإن توحيد الأمر مركب، فإن المأمور بذلك مخلوق ولا يصدر عن المخلوق إلاّ ما يناسبه وهو مخلوق عن مخلوق، فهو أبعد في الخلق عن الله من الذي وجد عنه هذا التوحيد على كل مذهب من نفاة الأفعال عن المخلوقين ومثبتيها لأنّ النفاة قائلون بالكسب وغير النفاة قائلون بالإيجاد، فكيف يليق بالجناب العزيز ما هو مضاف إلى الخلق؟ وإن كنا تعبدنا به شرعاً فنقرّره في موضعه ونقوله كما أمرنا به على جهة القربة إليه مع ثبوت قدمنا فيما أشهدنا الحق من المعرفة به من كونه لا يعرف في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وفيما ذكره في سورة الإخلاص وفي عموم قوله بالتسبيح الذي هو التنزيه ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] والعزّة تقتضي المنع أن يوصل إلى معرفته. ومن أسرار هذا المنزل قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فإن كان لو حرف امتناع ولكنه امتناع شيء لامتناع غيره فهو عدم لعدم، فإذا جاء حرف لا بعد لو كان لو حرف امتناع لوجود ولم يأت في هذه الآية لا فنفى الإرادة أن تتعلق باتخاذ الولد، ولم يقل أن يلد ولداً فإنه يقول:

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ والولد المتخذ يكون موجود العين من غير أن يكون ولداً فيتبنى بحكم الاصطفاء والتقريب في المنزلة أن ينزله من نفسه منزلة الولد من الوالد الذي يكون له عليه ولادة، والحقيقة تمنع من الولادة والتبني لأن النسبة مرتفعة عن الذات، والنسبة الإلهيّة من الله لجميع الخلق نسبة واحدة لا تفاضل فيها إذ التفاضل يستدعي الكثرة فلهذا أتى بلفظة لو ولم يجعل بعدها لفظة لا فكان حرف امتناع، أي لم يقع ذلك ولا يقع لامتناع الذات أن توصف بما لا تستحقه ولهذا قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [سورة الجن: الآية ٣] فوصفه بالعلوّ عن قيام هذا الوصف لعظمة الرب المضاف إلى المربوب بالذكر، فكيف بالرب من غير إضافة لفظية؟ فكيف بالاسم الله؟ فكيف بالذات من غير اسم؟ فأعظم من هذا التنزيه ما يكون.

وأما نفي الكفاءة والمثل فربما يتوهم من لا معرفة له بالحقائق أنه لو وجدت الكفاءة جاز وقوع الولد بوجود الصاحبة التي هي كفؤ فليعلم أن الكفاءة مشروعة لا معقولة، والشرع إنما لزمها من الطرف الواحد لا من الطرفين، فمنع المرأة أن تنكح ما ليس لها بكفؤ ولم يمنع الرجل أن ينكح ما ليس بكفؤ له، ولهذا له أن ينكح أمته بملك اليمين وليس للمرأة أن ينكحها عبدها والحق ليس بمخلوق وهو الوالد لو كان له ولد، والكفاءة من جهة الصاحبة لا تلزم فارتفع المانع لوجود الولد لا لعدم الكفاءة، بل لما تستحقه الذات من ارتفاع النسب والنسب ولما تستحقه أحدية الألوهة إذ الولد شبيه بأبيه، فبطل مفهوم من حمل ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٣] على جواز ذلك إذ كان متخذاً وكان المفهوم منه ومن نفي الكفء والمثل ما ذكرناه.

ولما كان التنزيه للذات على ما قرّرناه بطل أن تكون المعرفة به القائمة بنا نتيجة عن معرفتنا بنا لاستنادنا إليه من حيث إمكاننا، وأن ذلك لا يتضمن معرفة ذاته بالصفة الثبوتية النفسية التي هو عليها بالأصح من ذلك إلاّ الاستناد لذات منزّهة عمّا ينسب إلينا مجهولة عندنا ما ينسب إليها من حيث نفسيتها فلا يعرف سبحانه أبداً، وإذا كانت المعرفة به من النزاهة والعلوّ بهذا الحدّ فأحرى أن يكون وجوده معلولاً لعلة تتقدّمه في الرتبة أو مشروطاً بشرط متقدم أو محققاً لحقيقة حاكة أو مدلولاً لدليل يربطه به وجه ذلك الدليل، فلا جامع سبحانه بيننا وبينه من هذه الجوامع الأربعة، فالتحقت المعرفة به منا بوجوده في النزاهة والرفعة عن الإدراك لها، وكما لم يصحّ أن ينتجه شيء فلا تكون هويته أيضاً من حيث هويته لا من حيث مرتبته تنتج شيئاً، إذ لو ارتبط به شيء من حيث هويته لارتبطت هويته بذلك الشيء، فلا يصحّ أن يكون علة لمعلول، ولا شرطاً لمشروط، ولا حقيقة لمحقق، ولا دليلاً لمدلول، ولا سيما وقد قال سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ مطلقاً وما فيها، فلو كان حقيقة لولد محققاً، ولو كان دليلاً لولد مدلولاً، ولو كان علة لولد معلولاً، ولو كان شرطاً لولد مشروطاً، فهو سبحانه المستند المجهول الذي لا تدركه العقول ولا تفصل إجماله الفصول، فهذا أيضاً وجه من وجوه تنزيه التوحيد.

وأما ما يتعلق بالواحد والأحد من التوحيد في أحديته فإن لفظ الأحدية جاءت ثابتة

الإطلاق على من سواه فقال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] وإن كان المفهوم منه بالنظر إلى تفسير المعاني على طريق أهل الله أنه لا يعبد من حيث أحديته لأن الأحدية تنافي وجود العابد فكأنه يقول: لا يعبد إلاّ الرب من حيث ربوبيته. فإن الرب أوجدك فتعلق به وتذلل له ولا تشرك الأحدية مع الربوبية في العبادة فتتذلل لها كما تتذلل للربوبية فإن الأحدية لا تعرفك ولا تقبلك، فيكون تعبد في غير معبد، وتطمع في غير مطمع، وتعمل في غير معمل، وهي عبادة الجاهل، فنفى عبادة العابدين من التعلّق بالأحدية فإن الأحدية لا تثبت إلاّ لله مطلقاً، وأما ما سوى الله فلا أحدية له مطلقاً، فهذا هو المفهوم من هذه الآية عندنا من حيث طريقنا في تفسير القرآن، ويأخذ أهل الرسوم من ذلك قسطهم أيضاً تفسيراً للمعنى، فيحملون الأحد المذكور على ما اتخذوه من الشركاء وهو تفسير صحيح أيضاً، فالقرآن هو البحر الذي لا ساحل له إذ كان المنسوب إليه يقصد به جميع ما يطلبه الكلام من المعاني بخلاف كلام المخلوقين، وإذا علمت هذا علمت المراد بقوله جلّ ثناؤه لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي لا يشارك في هذه الصفة. وأما الواحد فإنا نظرنا في القرآن هل أطلقه على غيره كما أطلق الأحدية؟ فلم أجده وما أنا منه على يقين، فإن كان لم يطلقه فهو أخص من الأحدية ويكون اسماً للذات علماً لا يكون صفة كالأحدية فإن الصفة محل الاشتراك، ولهذا أطلقت الأحدية على كل ما سوى الله في القرآن، ولا يعتبر كلام الناس واصطلاحهم وإنما ينظر ما ورد في القرآن الذي هو كلام الله، فإن وجد في كلام الله لفظ الواحد كان حكمه حكم الأحدية للاشتراك اللفظي فيه، وإن كان لا يوجد في كلام الله لفظ الواحد يطلق على الغير فيلحقه بخصائص ما تستحقه الذات ويكون كالاسم الله الذي لم يتسم به أحد سواه.

وممّا يتعلق بهذا المنزل من التنزيه الخاص به ما يحصل من المعارف التي ذكرناها في كتاب مواقع النجوم في التجلي الصمداني، ولا نريد بذلك ما أراد العارف أبو عبد الله البستي في كتابه الذي جعله في عبد الرب وعبد الصمد فإن الصمد الذي نريده لا يضاف ولا يضاف إليه، فإن المتضايفين لا بدّ أن يكون لهما بينية فيكون بينهما نسبة رابطة بها يصحّ أن تكون الإضافة محققة لهما، فالصمد الذي أراده البستيّ بعبد الصمد هو الذي يلجأ إليه ويتعلق به ويقابل بالتوجه، ولهذا أنهت الشريعة للمصلي إذا استتر بأصطوانة أو عصا أو مؤخرة رحل أو ما هو مثلها أن يصمد إليها صمداً ولكن ينحرف عنها قليلاً يميناً أو شمالاً، وليس من أوصاف التنزيه من يصمد إليه ولكنه من أوصاف الكرم، فالصمدية المطلقة عن هذا التقييد هي التي تستحق أن تكون صفة تنزيه إذ لا تعلق للكون بها وهي المطلوبة في هذا المنزل وشرحها في اللغة مذكور، واعلم أن هذا المنزل وإن كان يطلب الأحدية والتنزيه من جميع الوجوه فإنه يظهر في الكشف الصوري المقيد بالمظاهر كالبيت القائم على خمسة أعمدة عليها سقف مرفوع محيط به حيطان لا باب فيها مفتوح فليس لأحد فيه دخول بوجه من الوجوه، لكن خارج البيت عمود قائم ملصق إلى حائط البيت يتمسح به أهل الكشف كما يقبلون ويتمسحون بالحجر الأسود الذي جعله الله خارج البيت وجعله يميناً له وأضافه إليه لا إلى البيت، كذلك

هذا العمود لا يضاف إلى هذا المنزل وإن كان منه إلاّ أنه ليس هو خاصاً به فإنه موجود في كل منزل إلهيّ، وكأنه ترجمان بيننا وبين ما تعطيه المنازل من المعارف، وقد نبّه على ذلك ابن مسرة الجبلي في كتاب الحروف له، وهذا العمود له لسان فصيح يعبر لنا عمّا تحويه المنازل فنستفيد منه علم ذلك، ومن المنازل ما ندخل فيه ونمشي في زواياه فنجد الأمر على حدّ ما عرفناه فيه، ومن المنازل ما لا سبيل لنا إلى الدخول فيه مثل هذا المنزل فنأخذ من هذا العمود التعريف بحكم التسليم فإنه قد قام الدليل لنا على عصمته فيما يخاطبنا به في عالم الكشف كالرسول في عالم الحسّ فهو لسان حق، ومن الناس من يلحقه بأعمدة البيت فإن بعض الحائط عليه ولا يظهر لنا منه إلاّ وجه واحد وسائره مستور في الحائط فيقول بعض المكاشفين: إن البيت قائم على ستة أعمدة فلا تناقض بين مثبتي الخمسة والستة في قيام البيت عليها، فقد بينا لك ذلك حتى لا تتخيل أن الحق في أحد القولين ومع إحدى الطائفتين، فكل طائفة منهما صادقة فلهذا أخبرتك بكيفية ذلك، وهكذا جميع ما يظهر للناس أنهم اختلفوا فيه، فليس بين القوم بحمد الله خلاف فيما يتحققون به بل هم في شغلهم أصحّ وأحق من أهل الحسّ فيما يدركونه بحواسهم.

واعلم أن الدخول لهذا المنزل من الدينار الثاني الذي للرجولية والنهاية فيه إلى الدينار الرابع وهو تمام الرجولية التي بها يسمّى الشخص رجلاً كما قد قدمناه في ترتيب الإيمان والولاية والنبوّة والرسالة ولا خامس لها يكون خامس خمسة بل قد يكون لها خامس أربعة فاعلم ذلك، وإذا تفطنت إلى ما فصله الحق تعالىٰ عرفت أنت تفصيله فيما أجمله في قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] يعني الاثنين ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] يعني السبعة فما فوقها من الأفراد، ففصل الحق بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] ولم يقل ولا أربعة إلاّ هو خامسهم فعرفنا من أدنى ذلك وأكثر أنه يريد الإفراد يشفعها بما ليس منها، فتحققنا أن الغيرة حكمت هنا فلم تثبت لأحد فردية إلاّ شفعتها هوية الحق حتى لا تكون الأحدية إلاّ له، فلا يشفع فرديته مخلوق ويشفع هو فردية المخلوقين ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ولم يقل وأنتم معه لأنه مجهول المصاحبة فيعلم سبحانه كيف يصحبنا ولا نعرف كيف نصحبه، فالمعية له ثابتة فينا منفية عنا فيه فلم يقل: ولا أربعة إلاّ هو خامسهم ولا اثنين إلاّ هو ثالثهما لأن الغيرة لا تتعلق بالشفعية في الأكوان لأن الشفع لها حقيقة، وإنما تتعلق بالوترية إذا نسبت إلى الأكوان وهي لا تستحقها فنوترها بالحق ليكون الظهور له تعالىٰ في الأشياء، وهذا من أقوى الدلائل على وصفه تعالىٰ بالغيرة لأنها مشتقة من رؤية الغير لأنه يستدعي المشاركة والله بريء من مشاركة الغير، فهو بريء أن يكون غير الأحد أو يكون أحد غير إله، قال ﷺ: «**لا أَحَدَ ـ أَوْ كما قالَ ـ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ**» فوصفه بالغيرة وحكمها في هذا المقام قوي، فهذا قد ذكرنا نبذاً ممّا يعطيه هذا المنزل على ضيق الوقت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وفي هذا المنزل من العلوم علم الأحدية والفرق بينها وبين الوحدانية وعلم النسب الإلهيّ يقول الله

تعالىٰ يوم القيامة: «اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي»، أين المتقون وعلم البسائط والعلم الضروري وعلم التماثل؛ والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الهلاك للهوى والنفس من المقام الموسوي

[نظم: الهزج]

هَلاكُ الخَلْقِ في الرِّيح إذا ما هبَّ في اللَّوْحِ
ولاذَ بغير مَوْلاهُ إلهِ الجسم والرُّوحِ
وَوَعَّرَ مَسْلكاً سهلاً بما قد جاء في نُوحِ
وفي لوطٍ فيا نَفْسي على ما قُلْتُه نُوحي
ولولا العشقُ آداه بريقٌ من سَنَا يُوحي

اعلم أن الله تعالىٰ لما خلق الأفلاك وعمرها بالأملاك، وقدّر للكواكب السبعة السيارة فيها منازل تجري فيها إلى أجل مسمّى، تعين الزمان بجريانها وسباحتها، وخلق المكانة قبل الأمكنة، ومدّ منها رقائق إلى أمكنة مخصوصة في السموات السبعة والأرض، ثم أوجد المتمكنات في أمكنتها على قدر مكانتها، فكان من تقدير الله العزيز العليم أن خلق عقلاً من العقول إعلاماً بما أودعه فيه من صفة القدرة لا من صفة غيرها خصّه بذلك على أبناء جنسه وذلك من الاسم الظاهر الذي يختص بهذا العقل، فألقى إليه ذلك بضرب من القهر سار فيه مودة لها ثلج وبرد وسرور فتفجرت فيه خمسة أنهار من العلم من الاسم الأوّل والآخر الذي يختصّ به هذا العقل، ثم جرت هذه الأنهار في الاسم الباطن الذي له فتقدست أوّليته على سائر الأوّليات وآخريته على سائر الآخريات، وكذلك ظاهره وباطنه، وصدر عن أم الكتاب الذي عنده حضرة تسمّى أم الجمع، أدخلني الحق إياها فرأيتها ورأيت ظاهرها وباطنها وعاينت مكان هذا العقل منها نكتة سوداء مستورة نقية ما بين حمرة وصفرة وعاينت الرقيقة التي بين المكانة وهذا المكان المعين، ورأيت موسىٰ وهارون ويوسف عليهم السلام ناظرين إلى هذا العقل، وفرّع سبحانه من هذه الحضرة الجامعة التي اختصها لنفسه حضرات لا يعلم عددها إلاّ الله في السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى إلى حد الاستواء، كل هذه الحضرات للحق إليها نظر خاص رفعها بذلك على غيرها، فلها عند من يعرفها ممّن عرفه الحق بها حرمة وبرّ وإكرام، تسمّى هذه الحضرات مقامات التنزيه، إذا دخلتها الروحانيات العلى اكتسبت من أحوال التنزيه الإلهيّ ما لا يعلم قدره إلاّ الله، وحصل لهم من الخضوع والخشوع والذلة والإفتقار ما لم يكن لهم قبل دخولهم، ومن هذه الحضرات وفي هذه المقامات يحصل لهم رؤية وجه الحق في كل شيء على التمام والكمال، لكن من الرجال من يشاهدها ومن الرجال من يعطيهم هذه الحال ولا يعرفها ولا يدري في أيّ رتبة حصلت له على قدر ما سبق به علم الله فيه فمنهم ومنهم، فلنرجع إلى ذلك العقل الذي ذكرناه الذي له

أثر انفعال بمكانته في هذا المنزل، ونذكر ما كان له وما كان عنه وبسببه ممّا يختص بهذا المنزل عند كل من شاهده وشخص سبحانه مقام الصدق والصفاء وعين فيه اثنتين وسبعين مرقاة كل مرقاة منها تعطي علوماً لمن يرقى فيها للصفاء الذي استلزمته هذه الصورة فهي علوم كشف إلى أن ينتهي إلى ذروتها، فتقابله حضرة الأم بذاتها فتعطيه من التنزيه الإلهيّ والثناء بالوحدانية والصدق والقهر والنصر والإخلاص والذلّة.

ولما أدخلني الله هذه المراقي رأيته سبحانه قد حجبها عن الأعين بظلمة الطبيعة حجاباً لا يرفع، فليس اليوم لراق فيها قدم موضوعة لكنه يكاشف بها من خلف ظلمة الطبع ولا يحصل له فيها قدم كذا رأيته، ورأيت معي من حقائق العارفين جملة كثيرة على مراتب مختلفة من عال وأعلى وهم فيها بهذه المثابة، فأمر لهذا العقل المخصوص بهذا المنزل أن يرقى فيما شخصه ممّا ذكرناه، واجتمعت العقول إليه وأنا أنظر ما يصنع وما يقول لأستفيد منه، ثم رأيته شخص ولم يتكلم ولا أدري بأمر إلهيّ أشخص، فرأيت عليه حين رجع أثر كآبة وقهر وإنزعاج، فعلمت أنه في مقام إنذار من الإنذارات الحق للأرواح. روي في خبر أن جبريل وميكائيل عليهما السلام قعدا يبكيان فأوحى الله إليهما ما هذا البكاء؟ فقالا: إنّا لا نأمن من مكرك، فأوحى الله إليهما كذلك فلتكونا، فلما ألقي إلينا ما ألقي إليه بخشوع وذلّة واتفق أني اطلعت على اليسار فرأيت الهوى والشهوة وهما يتناجيان، وقد أعطى الله من القوّة النافذة لهذا الهوى ما يظهر بها على أكثر العقول إلاّ أن يعصم الله تعالىٰ فوقف الهوى في ذلك الموقف وقال: أنا الإله المعبود عند كل موجود وأعرض عن العقل وما جاء به من النقل فاتبعته الشياطين والشهوة بين يديه حتى توسط بحبوحة النار ففرش له فراش من القطران واعتمد على أمر تخيل أنه ينجيه من عذاب الله فحال الله بينه وبين من اعتمد عليه واستند إليه فهلك ومن تبعه بنعيم السعداء، وكان مشهداً كريماً هائلاً مفزعاً ما صدقنا التخلص منه أنا وكل عارف حضره معنا في ذلك اليوم.

ثم إني أردت أن أحيط بما في هذا المنزل من المراتب والحقائق والأسرار والعلوم فأخذ بيدي ذلك العقل صاحب هذا المنزل وبسببه ظهر هذا المنزل وقال لي: هذا منزل الهلاك ومصرع الهلاك، فرأيت فيه خمسة أبيات: في البيت الأوّل أربع خزائن على الخزانة الأولى ثلاثة أقفال وعلى الثانية مثل ذلك وعلى الثالثة ستة أقفال وعلى الرابعة ثلاثة أقفال فأردت فتحها فقال لي: سر حتى ترى ما في كل بيت من الخزائن وبعد ذلك تفتح أقفالها وتعرف ما فيها، ثم أخذ بيدي وقمنا فخرجنا إلى البيت الثاني فدخلته فرأيت فيه أربع خزائن: على الخزانة الأولى ستة أقفال وعلى الخزانة الثانية ثلاثة أقفال وعلى الخزانة الثالثة أربعة أقفال وعلى الخزانة الرابعة ستة أقفال، ثم أخذ بيدي فخرجنا من ذلك البيت فدخلت البيت الثالث فرأيت فيه ثلاث خزائن: على الخزانة الأولى خمسة أقفال وعلى الخزانة الثانية أربعة أقفال وعلى الخزانة الثالثة ستة أقفال، ثم أخذ بيدي فخرجنا من ذلك البيت وكل ذلك أدخل من باب وأخرج من باب آخر فدخلت البيت الرابع وإذا فيه ثلاث خزائن: على الخزانة الأولى

سبعة أقفال وعلى الخزانة الثانية خمسة أقفال وعلى الثالثة خمسة أقفال، ثم أخذ بيدي فخرجنا منها فدخلت البيت الخامس فرأيت فيه ثلاث خزائن: على الخزانة الأولى سبعة أقفال وعلى الخزانة الثانية ثلاثة أقفال وعلى الخزانة الثالثة خمسة أقفال، ثم أخذ بيدي وخرجنا نطلب البيت الأوّل لنفتح تلك الأقفال فنبصر ما تحوي عليه تلك الخزائن من الودائع. فدخلت البيت الأوّل إلى الخزانة الأولى فرأيت معلقاً على كل قفل مفتاحه وبعض الأقفال عليه مفتاحان وثلاثة، فرأيت على القفل الأوّل ثلاثة مفاتيح تحوي تلك المفاتيح على أربعمائة حركة فمددت يدي وفتحت ذلك القفل، ثم رأيت على القفل الثالث كذلك ثلاثة مفاتيح تحوي على أربعمائة حركة ففتحت الثالث ورجعت إلى الثاني وعليه مفتاحان وهو قفل مطبق فهما قفلان في قفل واحد يحوي على أربع حركات في حركتين، فلما فتحت الأقفال وأطلعت في الخزائن بدا لي من صور العلوم على قدر حركات مفاتيح تلك الخزانة لا تزيد ولا تنقص، فرأيت علوماً مهلكة ما اشتغل بها أحد إلاً هلك من علوم العقل المخصوصة بأرباب الأفكار من الحكماء والمتكلمين، فرأيت منها ما يؤدّي صاحبها إلى الهلاك الدائم، ورأيت منها ما يؤدّي صاحبه إلى هلاك ثم ينجو، غير أنه ليس لنور الشرع فيها أثر البتة قد حرمت صاحبها السعادة فيها من علوم البراهمة كثير ومن علوم السحر وغير ذلك، فحصلت جميع ما فيها من العلوم لنجتنبها وهي أسرار لا يمكن إظهارها وتسمّى علوم السرّ، وكان ممّن اختصّ بها من الصحابة رضي الله عنهم حذيفة بن اليمان خصّه بها رسول الله ﷺ فلذلك كان بين الصحابة يقال له صاحب علم السرّ وبه كان يعرف أهل النفاق، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استحلفه يوماً بالله هل فيّ من ذلك شيء؟ قال: لا ولا أقوله لأحد بعدك، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة بحضور حذيفة حتى يرى حذيفة يقول بالصلاة عليها فإن صلّى حذيفة صلّى عمر وإلاً فلا، فمن علمها ليحذرها فقد سعد، ومن علمها يعتقدها ويعمل عليها فقد شقي، فلما حصلتها وأحطت بها علماً ونزّهت نفسي بما عصمني الله به من العناية الإلهية عن العمل بها والإتصاف بأثرها شكرت الله على ذلك، وفي هذه المقامات هلك كثير من سالكي هذه الطريقة لأنهم يرون علوماً تتعشق بها النفوس ويكونون بها أرباباً ويكونون بها أشياخاً، والنفوس تطلب الشفوف والرياسة على أبناء جنسها فيخرجون بها فيستعملونها في عالم الملك فيضلون ويضلون فأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

ثم إني انتقلت إلى الخزانة الثانية فرأيت على قفلين منها مفاتيح والقفل الثالث لا مفتاح عليه فرأيت على القفل الأوّل ثلاثة مفاتيح تحوي على عشر حركات ففتحته، ثم جئت القفل الثاني فوجدت عليه مفتاحاً واحداً يحوي على أربع حركات فأخذته وفتحت به القفل، ثم جئت إلى القفل الثالث فلم أر عليه مفتاحاً فحرت ولم أدر كيف أصنع فقيل لي: اقرأ على كل قفل لا مفتاح له: إن ربك هو الفتاح العليم، ثم قيل لي: هذا القفل مفتاحه من مفاتيح الغيب لا يعلمه إلاّ هو فقلت ذلك فانفتح القفل وانفتحت الخزانة فرأيت صور العلوم على عدد حركات المفاتيح، ورأيت صورة علم زائد على ما رأيت من الصور التي ظهرت على عدد

حركات المفاتيح فقلت: ما هذا العلم؟ فقال: العلم الساري في المعلومات والعلوم فجميع العلوم معلومات بهذا العلم لا بأنفسها، فعلمت أن أبا المعالي الجوينيّ لما قال: إذ بالعلم يعلم العلم كما يعلم به سائر المعلومات، وأراد أن العلم الذي به يعلم معلوم ما به يعلم نفس العلم وليس الأمر كما زعم بل يعلم العلم بهذا العلم الساري فتكون العلوم به معلومة وهو لا يعلم فاعلم ذلك، فهذا هو الذي أعطاه الكشف كشف المعاني لا كشف الصور، وهذه العلوم التي رأيت في هذه الخزانة الثانية علوم القدرة والاقتدار والعلوم التي تتكوّن عنها الأشياء وتظهر بها الأعيان المضافة إلى الأكوان، وهي أعيان أفعال منسوبة إلى العباد، فهذا المنزل يحكم عليها بالهلاك بسبب العلم الساري الذي صحبها وهو هلاك إضافة ونسبة لا هلاك عين، فالذي هلك إنما هو نسبة هذه الأفعال إلى العباد فيعطيه هذا المنزل أن هذه النسبة ليست بصحيحة وهو عين هلاكها، وأطلعه العلم الساري أنها أفعال الله، فأعيان أفعال العباد بريئة من الهلاك، فحصلت من هذه الحركة علوم التكوين وسرقوا له: ﴿كُن﴾ الساري في كل متكوّن.

ثم إني انتقلت إلى الخزانة الثالثة التي عليها ستة أقفال ومفاتيحها على أقفالها، فعلى القفل الأوّل مفتاح واحد يحوي على حركة واحدة، وعلى الثاني مفتاحان يحويان على حركتين، وعلى الثالث مفتاحان يحويان على عشر حركات، وعلى الرابع مفتاح واحد يحوي على ثلاثين حركة، وعلى الخامس مفتاح واحد يحوي على خمس حركات، وعلى السادس مفتاحان يحويان على حركتين، فأخذت المفاتيح وفتحت الأقفال فلما انفتحت الخزانة رأيت جهنم تحطم بعضها بعضاً وفي وسطها روضة خضراء ورأيت رجلاً قد أخرج من النار ووقف به في تلك الروضة ساعة ثم ردّ إلى النار فيعذب بستة أنواع من العذاب ثم يعاد إلى الروضة ساعة ثم يخرج منها إلى النار فيعذب بستة أنواع من العذاب، فحصلت من علم ما يتقى به ذلك العذاب المؤلم والنار المحرقة من ماء شربته من تلك الروضة كانت في تلك الشربة عصمتي.

ثم انتقلت إلى الخزانة الرابعة فرأيت على القفل الأوّل منها مفتاحاً واحداً له ست حركات هندسية، وعلى القفل الثاني ثلاثة مفاتيح تحوي الثلاثة المفاتيح على أربعمائة حركة بصنعة معلومة، وعلى القفل الثالث وهو قفلان في قفل يعرف بالقفل المطبق مفتاحان يحويان على حركتين في أربع حركات، ففتحت الأقفال فرأيت بقية علوم الخزانة الأولى من هذا البيت، غير أن تلك العلوم التي في الخزانة الأولى من هذا البيت يتعلق إهلاكها بأعيان الصفات، وهذه العلوم التي في الخزانة الرابعة يتعلق إهلاكها بأعيان الذوات الموصوفين بتلك الصفات الهالكة، فحصلت علومها أيضاً لأتقيها وأجتنب الأفعال التي تطلبها بالخاصية، وصور العلوم فيها أيضاً على قدر ما تحويه المفاتيح من الحركات، وهكذا هي علوم هذا المنزل كلها عددها على عدد حركات مفاتيحها، ولها تفاصيل وأحوال أضربنا عن ذكرها مخافة التطويل.

ثم انتقلنا إلى البيت الثاني لأطلع أيضاً على ما في خزائنه وهي أربع خزائن، فجئت الخزانة الأولى فإذا عليها ستة أقفال، على القفل الأوّل مفتاح واحد يحوي على أربعين

حركة، ولم أر للقفل الثاني مفتاحاً ففتحته بالاسم، ورأيت على القفل الثالث مفتاحاً واحداً يحوي على حركة واحدة، وفتحت القفل الرابع بمفتاحين وجدتهما عليه يحويان على تسعمائة حركة كل حركة لا تشبه الأخرى، وفتحت القفل الخامس بمفتاحين وجدتهما عليه يحويان على خمسين حركة هندسية، وجئت القفل السادس فلم أر عليه مفتاحاً ففتحته بالاسم، وقد يظهر لبعض المكاشفين الداخلين هذا المنزل هذا القفل السادس وعليه مفتاحان يحويان على عشر حركات وعدم المفتاح أصحّ من وجوده لهذا القفل في حضرة الخطاب الفهواني، والذي يرى له المفتاح فإنما يراه من اللوح المحفوظ، فلما فتحت هذه الخزانة رأيت صور العلوم المخزونة فيها على عدد حركات المفاتيح سواء لا ينقص ولا يزيد وهي علوم الفناء عن الأمر الذي يستند إليه من لا معرفة له بربه سبحانه وتعالىٰ، فحصلت جميع ما فيها من العلوم من علوم الفناء وكأنها تدل على حصر الأمور التي يستند إليها.

ثم خرجت من هذه الخزانة وجئت الخزانة الثانية فرأيت عليها ثلاثة أقفال على القفل الأوّل مفتاح وعلى الثاني مفتاحان وعلى الثالث مفتاح، تحوي هذه المفاتيح على مائة وخمس وعشرين حركة ففتحت الخزانة فإذا علوم من صور علوم لا تؤخذ إلاّ عنه فهي ما آخذ عزيزة المثال فحصلتها كلها في لحظة واحدة.

ثم جئت الخزانة الثالثة فإذا عليها أربعة أقفال على القفل الأوّل والثالث والرابع مفتاح مفتاح تحوي هذه المفاتيح على إحدى وسبعين حركة والقفل الثاني لا مفتاح له، ففتحت تلك الأقفال بالمفاتيح والاسم فإذا صور العلوم التي أضلّ بها السامريّ قومه وما هدى فحصلتها لأتقي شرّها وأخذت بها مصرفاً مرضياً عند الله لا تبعة فيه.

ثم جئت الخزانة الرابعة وعليها ستة أقفال، على القفل الأوّل والثاني والرابع والخامس مفتاح مفتاح والثالث لا مفتاح له والسادس عليه مفتاحان يحوي جميع المفاتيح على ثلثمائة وتسع وستين حركة، ففتحت الأقفال بالاسم الإلهيّ والمفاتيح فرأيت صور العلوم التي تحويه وهي العلوم التي تنال بالكسب لا بطريق الوهب وهي العلوم المدركة بالفكر، فحصلتها بطريق العمل حتى لا تبرح مكتسبة.

ثم إني خرجت إلى البيت الثالث فدخلته فرأيت فيه ثلاث خزائن، فقصدت الخزانة الأولى فإذا عليها خمسة أقفال على القفل الثاني ثلاثة مفاتيح والقفل الخامس لا مفتاح له، وبقية الأقفال عليها مفتاح مفتاح، ففتحتها بالاسم والمفاتيح فرأيت فيها صور علوم الاصطلام وهي من علوم الأحوال فحصلتها من طريقها، وخرجت عنها وقصدت الخزانة الثانية فرأيت عليها أربعة أقفال، القفل الثاني والرابع لا مفتاح عليه والقفل الأوّل عليه مفتاحان يحويان على خمسين حركة، والقفل الثالث عليه مفتاح يحوي على مائتي حركة، ففتحتها بالاسم والمفاتيح فإذا هي تحوي على علوم الخوف والمجاهدة وأحوال الشوق والاشتياق وعلم السعير من جهنم لا علم الزمهرير، وعلم ما يكون عنه نضج الجلود في جهنم إذ لا يكونُ عن النار ولا عن الزمهرير بل عذاب متولد بينهما من مجاورة كل واحد منهما لصاحبه، فيتولد من

امتزاجهما حالة ثالثة ليس هي عين واحد منهما تلك الحالة الحادثة هي العذاب الذي به ينضج الجلود في جهنم، وعلم تبديلها من أيّ حضرة تبدّل وهو مشهد عظيم، فإن التبديل قد ورد النص به في الجلود والسموات والأرض ونفاه عن الخلق فقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠] ونفاه عن القول الإلهيّ فقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] كل هذا تتضمنه هذه الخزانة.

ثم جئت الخزانة الثالثة فرأيت عليها ستة أقفال فيها شبه بأقفال الخزانة التي خرجت منها إلى هذه، فالقفل الثاني لا مفتاح له، والقفل الأوّل له مفتاحان، والقفل الثالث عليه ثلاثة مفاتيح، والقفل الرابع والخامس لكل واحد منهما مفتاح، والقفل السادس عليه مفتاحان تحوي هذه المفاتيح على ألف ومائة وسبع وثلاثين حركة، ففتحتها بالاسم والمفاتيح فإذا فيها صور علوم الإرتقاءات والمعارج، ومعرفة اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة، ولكن إذا كانت الإرتقاءات والمعارج من المريدين لا من المرادين فتكون عن شوق ومجاهدة ورياضة ومكابدة.

ثم جئت إلى البيت الرابع فدخلته فإذا فيه ثلاث خزائن، الخزانة الأولى عليها سبعة أقفال القفل الثاني منها لا مفتاح عليه والقفل الأوّل له مفتاح فيه ست حركات، والقفل الثالث يحوي مفتاحه على أربعين حركة، وبقية الأقفال تحوي على ستمائة حركة وست حركات، فجميع حركات مفاتيحها ستمائة وإثنان وخمسون حركة، ففتحتها فإذا فيها علم النكاح وكيف يصحب الإنسان زوجته إذا كانت لا تعينه على طاعة ربه ويقف على قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] وهل يستعين الإنسان في عبادة ربه في وضوئه بغيره من صبّ الماء عليه إذا توضأ فإن بعض العلماء كره ذلك، وقد رأى النفيس ابن وهبان السلمي في واقعته كراهة ذلك من النبي ﷺ وأخبرني به، فمن هذه الخزانة يعرف ذلك. ثم جئت الخزانة الثانية فرأيت عليها خمسة أقفال، القفل الثاني منها مطبق والقفل الثالث لا مفتاح له والأوّل له مفتاح وكذلك الثاني والخامس، وأما الرابع فله ثلاثة مفاتيح تحوي هذه المفاتيح على أربعمائة وثمان وسبعين حركة ففتحتها فإذا هي تناسب التي قبلها وتزيد عليها بأمور ليست فيها، ثم جئت الخزانة الثالثة فإذا عليها خمسة أقفال، القفل الأوّل لا مفتاح له، والثاني والثالث والرابع ذو مفتاح مفتاح والخامس مفتاحان، تحوي هذه المفاتيح على ست وأربعين حركة ففتحتها فإذا هي معرفة الحجارة التي توقد بها النار في الآخرة وكيف تكون الحجارة تقبل الوقود وهي يابسة واليابس لا يقبل الوقود في علم الطبائع، وهل يجوز ما طبعه أمر ما أن يزال عنه طبعه مع بقاء عينه وذاته، فإن في هذا العلم زلّ كثير وجهل ممّن أثبت ذلك ونفاه، وكلتا الطريقتين غير محمودتين ولا صحيحتين، وكل واحد منهما أثبته من غير وجهه ونفاه من غير وجهه قال تعالىٰ: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩] وشبه هذا.

ثم جئت البيت الخامس فرأيت فيه ثلاث خزائن، الخزانة الأولى عليها سبعة أقفال، القفل الأوّل والثاني والثالث والرابع لكل واحد منها مفتاحان، والخامس والسادس لكل واحد

مفتاح، والسابع لا مفتاح له، تحوي هذه المفاتيح على مائة وثلاث عشرة حركة ففتحتها فإذا فيها علوم الحسّ والمحسوس، والخيال والمتخيل، والفكر وما يفكر فيه، والحافظ والمحفوظ، والعقل والمعقول، وجميع القوى التي تدرك بها العلوم ومعرفة الجماعات، والأنوار، والاستشرافات، ومجاري الأرواح في طرق السموات، ومجاري الطبيعة في الحيوانات والنبات والجماد، وما يختص به عالم الأنفاس من العلوم، ويقف على نفس الرحمن الذي أتى من قبل اليمن إلى رسول الله ﷺ. ثم جئت الخزانة الثانية فرأيت عليها ثلاثة أقفال، على الأوّل والثالث مفتاح مفتاح وعلى الثاني مفتاحان تحوي هذه المفاتيح على أربعين حركة ففتحتها فإذا فيها علم الأسباب العامة في الوجود والخاصة بأهل الله، وأسباب النزول المضافة إلى الله التي يعتمد عليها ويوصل إلى الله من يعتمد عليها، وطرد من يتركها من باب الله ومن سعادته، وهي علوم شريفة زهد فيها أكثر الناس فشقي، واستعملها بعض الناس فسعد، وتحوي على علم الشرائع المنزلة لا علم الشريعة الحكمية. ثم جئت الخزانة الثالثة فرأيت عليها خمسة أقفال، القفل الأوّل عليه مفتاح وكذلك بقية الأقفال، وتحوي أقفالها على أربعمائة وأربع وثلاثين حركة ففتحتها فإذا فيها صور علوم الإلتفاف، إلتفاف الأرواح بالأجساد، وإلتفاف أرواح المحبين والمحبوبين، وإلتفاف الساقين، وإلتفاف اللام بالألف ومعنى قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] وإلتفاف المتضايفين، وهذه كلها علوم الارتباطات، رب ومربوب، وإله ومألوه، وقادر ومقدور، وعالم ومعلوم، فهذه الخزانة تتضمن جميع العلوم. فهذا قد ذكرنا جميع ما يحويه هذا المنزل من خزائن العلوم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] غير أني تركت عند الدخول إلى هذا المنزل بيتاً واحداً في دهليز هذا المنزل لا يفتح لكل أحد وقد فتح لي ودخلته وعرفت ما فيه وهو يتضمن ويخزن فيه جميع مفاتيح الخزائن كلها التي تتضمنها هذه المنازل التي في هذا الكتاب، وهو يحوي على أمور جليلة، وللعارف به تحقق في إيجاد الكائنات عنه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وقد نبهنا على بعض ما في هذا المنزل من العلوم.

الباب الرابع والسبعون ومائتان
في معرفة منزل الأجل المسمّى من العالم الموسوي

[نظم: الطويل]

أَتَتْكَ فُتوحُ الكون بالبَلَد القَفْرِ ... مؤيَّدةً بالعزِّ والقَسْر والنَّصْرِ
وباللَّيْلة الغَرَّاء جاءت رَكَائبٌ ... من العالَم العُلْويّ في كَنَف الغَفْرِ
فراجِعْ إذا راجَعْتَ ربَّك وحدَه ... بتَنْزيهِ إيمانٍ تَوَلَّد عن ذِكْرِ
يُراجِعْكَ من عرشٍ وإن شاء من عَمًى ... بغير هواءٍ حَارَ في كونه فِكْري

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢] وهو نهاية عمر كل حي يقبل الموت وأجل مسمّى عنده، وهو ميقات حياة كل من كان قبل الموت في حياته الأولى وهو المعبر

عنه بالبعث ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢] يعني فيه، فإن الموت لا يمترون فيه فإنه مشهود لهم في كل حيوان مع الأنفاس، وإنما وقعت المرية في البعث وهو الأجل المسمّى المذكور، وإنما لم يجعل أجل الموت مسمّى لأن الله يقول: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] فاستثنى طائفة لا يصعقون فلا يموتون، فإمّا أن يكونوا لكونهم على حقائق لا تقبل الموت فيكون استثناء منقطعاً، وإمّا أن يكونوا على مزاج يقبل الموت لكن لم يسمعوا النفخ فلم يدركهم فلم يصعقوا فيكون استثناء متصلاً.

فاعلم أيها السامع أن أهل الله إذا جذبهم الحق إليه سبحانه من مريد ومراد جعل في قلوبهم داعية إلى طلب سعادتهم فبحثوا عليها وفحصوا عنها ووجدوا في قلوبهم رقة وخشوعاً وطلباً للسلامة ممّا الناس عليه من التكالب والتحاسد والتدابر والتنافر، فإذا وفوا مكارم الأخلاق أو قاربوا ذلك وجدوا في أنفسهم داعية إلى الخلوات والانفراد عن الناس، فمنهم من أخذ في السياحة ولازم الجبال والفلوات، ومنهم من كانت سياحته في البلاد كل ما أنس به أهل بلدة أو عرف فيها رحل عنها إلى غيرها، ومنهم من عزل في مسكنه بيتاً وانفرد به واحتجب عن الناس، كل ذلك ليقع له التفرّد بالحق الذي دعاه إليه والأنس به لا ليعلم ولا ليجد كوناً من الأكوان من خرق عادة في ظاهر الحسّ أو في سرّه، فلا يزال على كل ما ذكرناه إلى أن ينقدح له في نفسه لبعضهم، أو في خياله لبعضهم، أو من خارج لبعضهم من جانب الحق ما يحول بينه وبين نفسه ويستوحش من ذلك الوارد عليه ويطلب الأنس بالمخلوق في تلك الساعة، فإذا سكت حكم الوارد عنه وعاد إلى حسّه اشتاق إليه اشتياقاً شديداً، واستفرغ في محبة ذلك الوارد استفراغاً عظيماً، ووجد حلاوته عند فقده، وسرت اللذة في حسّه وروحه، ويأتيه في ذلك الوارد خطاب وتعريف بحاله أو بما يدعي إليه، كإبراهيم بن أدهم حين نودي من قربوس سرجه: ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. وآخر قيل له: إن كنت تطلبني فقد فقدتني في أوّل قدم. وآخر قيل له: أنت عبدي. فإن كان صاحب هذا الانقطاع من أصحاب الجبال والقفار جعل له الأنس في الحيوان، وإن كان سائحاً في البلدان جعل له الأنس في الحركة ما بين المدينتين، وإن كان ممّن لزم بيته جعل له الأنس في الروحانيات وكل هذا ابتلاء، إلاّ أن يجعل الله له الأنس في الأرواح النورية الملكية، فهذا يرجى فلاحه بل يتحقق وهي بشرى من الله سارعت إليه عناية منه به، وما عدا هذا فهو على خطر عظيم فليعمل في قطعه.

ثم إنه منهم من يظلم عليه الجوّ عند الوارد فيجد لذلك غماً وضيق صدر وعصراً في قلبه فليصبر فإنه يعقبه اتساع وانشراح، ثم لا تزال الأرواح تلزمه في عالم خياله في أكثر حالاته وتظهر له في الحسّ في أوقات فلا يرمى بذلك ولا يزهد فيه ويتعمل في إزالة التعلّق به ويقف مع الفائدة التي يأتيه بها فذلك المطلوب، فإن سمع خطاباً من وراء حجاب نفسه ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٣٧] ويع ما يسمع، فإن اقتضى الكلام جواباً على قدر

فهمك فلتجب بقدر فهمك، فإن رزقت العلم بذلك فهي العناية الكبرى، وإن لم يقتض جواباً فلتحصل ما قيل لك في خزانة حفظك فإن له موطناً يحتاج إليه فيه ولا بدّ، فيكون عندك بحكم الاستعداد لذلك الوقت، فإن الله سبحانه يقول: أعددت، فإذا كان الحق مع نفوذ قدرته في الآن قد أعدّ أموراً لأوقات ظهور أحكامها فالمخلوق أولى بهذا وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] و«إنْ» هنا بمعنى ما فعمّ بها وبشيء وجعله مخزوناً في خزائن غيبه عنا ولهذا قلنا: إن الكون صادر من وجود وهو ما تحويه هذه الخزائن إلى وجود وهو ظهورها من هذه الخزائن لا نفسها بالنور الذي تكشف به نفسها، فإنها في ظلمة الخزائن محجوبة عن رؤية ذاتها فهي في حال عدمها وقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢١] فما يتميز عنده إلاً ما هو موجود له، ولا يجري القدر إلاً في عين مميزة عن غيرها، وليس هذا صفة المعدوم من كل وجه، فدل ذلك كله على وجود الأعيان لله تعالىٰ في حال اتصافها بالعدم لذاتها، وهذا هو الوجود الأصلي الإضافيّ والعدم الإضافيّ، فثبتت الأحوال للعالم ولكل ما سوى الله، وأن الوجود ليس عين الموجود إلاً في حق الحق سبحانه حتى لا يكون معلولاً لوجوده، فإنه لو كان معلولاً لوجوده لكان حالاً له: تعالىٰ الله عن ذلك ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤] فإذا خلص الإنسان بعد خروجه من ظلمة طبعه وهواه إلى نور عقله وهداه أربعين صباحاً ظهر عنه مثل ما ظهر له، وأخذ عنه مثل ما أخذ، وتلك أوّل درجة الدينار الثالث وأوّل قيراط منه، ولا يزال فيه حتى يجب عليه أن يطلب على من يأخذ عنه، فإذا وجب عليه ذلك وجوباً شرعياً كفروض الأعيان كلها كان ذلك أوّل قيراط من الدينار الرابع وسمّي رجلاً عند ذلك، وإن لم يحصل له هذا الوجوب فليس برجل، فكمال الرجولية فيما ذكرناه وسواء كان ذكراً أو أنثى وأمّا الكمال الذاتيّ وهو غير كمال الرجولية فهو أن لا يتخلل عبوديته في نفسه ربانية بوجه من الوجوه، فيكون وجوداً في عين عدم وثبوتاً في عين نفي ولذلك أوجده الحق، فكمال الرجولية عارض وكمال العبودة ذاتيّ، فبين المقامين ما بين الكمالين.

وأما درجات منازل هذين الكمالين فمعلومة عندنا حيث هي، فدرجة الكمال الذاتيّ في نفس الحق، ودرجات الكمال العرضيّ في الجنان، فلهؤلاء النور ولهؤلاء الأجور، قال تعالىٰ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٧] يعني من كمالهم العرضي وما يستحق الأجر من كل أمر عرضيّ، ولهم نورهم من كمالهم الذاتي ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وتقول الرسل قاطبة وهم الكمل بلا خلاف ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: الآية ٧٢] فإن ذلك المقام يعطي الأجر ولا بدّ، فيقع التفاضل في الكمال العرضي ولا يقع في الكمال الذاتي. قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] وقال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٣] ولم يقل لهم درجات عند الله، فجعلهم أعيان الدرجات لأنهم عين الكمال الذاتيّ، وبالكمال العرضيّ لهم الدرجات الجنانية، فاعلم ذلك جعلنا الله ممّن جمع بين الكمالين، فإن حرمنا الجمع فالله يجعلنا من أهل الكمال الذاتي بمنّه

وكرمه، وأنا أرجو من الله أني قد حصلته تحصيلاً لا يحال بي دونه بحسن ظني بربي فما أعلاه من مشهد.

فإذا حصل للعبد هذا الكمال العرضي ورأى الإجابة الكونية لندائه من غير طلب دليل ولا برهان علم قطعاً أن الحق قد تجلّى لقلوب عباده، وأنه سبحانه قد رفع الوساطة في أمره بينه وبين قلوب عباده، فإن أمره سبحانه برفع الوسائط لا يتصوّر أن يعصى لأنه بكن إذ كن لا تقال إلاّ لمن هو موصوف بلم يكن، وما هو موصوف بلم يكن ما يتصوّر منه إباية، وإذا كان الأمر الإلهيّ بالوساطة فلا يكون بكن فإنها من خصائص الأمر العدمي الذي لا يكون بواسطة، وإنما يكون الأمر بما يدل على الفعل، فيؤمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيقال له: أقم الصلاة وآت الزكاة، فاشتق له من اسم الفعل اسم الأمر، فيطيعه من شاء منهم ويعصيه من شاء منهم، فإذا أطاعوه كما قد ذكرنا بهذا التجلي الإلهيّ لقلوب عباده الذي لا يحتاج فيه المأمور إلى دليل ولا برهان لوجود الإجابة من نفسه ضرورة لأن الضرورة إنما تصوّرت هنا لكون الإنسان لا يقدر على دفع ما تكون في نفسه، فإنّ ﴿كُن﴾ إنما تعلقت بما تكون في نفس الإنسان، فكان الحكم لما تكون فيمن تكون، فآمن ولا بدّ، أو صلّى ولا بدّ، أو صام ولا بدّ، على حسب ما تعطيه حقيقة الأمر الذي تعلق به ﴿كُن﴾ وقد يرد أمر الواسطة ولا يرد الأمر الإلهيّ، فلا يجد المخاطب آلة يفعل بها فيظهر كأنه عاص وإنما هو عاجز فاقد في الحقيقة لأنه ما تكوّن فيه ما أمر به أن يتكوّن عنه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥].

واعلم أن الفتوح الإلهيّ الذي يتعلق بالكون مثل النصر على الأعداء والقهر لهم والرحمة بالأولياء والعطف عليهم إنما هو من نتائج الرجولة لا من غيرها، فإذا حصل هذا المقام وأكمل نشأته ناداه الحق في سرّه من كماله سبحانه لكمال العبد الذاتي، فنزّه ذات موجده عن الكمال العرضي وهو الكمال الإلهي، فإن الكمال الإلهي بالفعل فهو في نفوذ الاقتدار في المقدورات، ونفوذ الإرادة في المرادات، وظهور أحكام الأسماء الإلهية والكمال الذاتي للذات الغنى المطلق عن هذا كله، فيكون العبد في هذا المقام لا يشهد ذات موجده من كونها موصوفة بالألوهة، وإنما مشهده غناها عمّا تستحقه الألوهة من الآثار الكونية فيفتقر إليها افتقاراً ذاتياً، فهو في عبادته تلك صاحب عبادة ذاتية من غير اقتران أمر بها لأن الأمر إنما متعلقه الأمور العارضة لا الذاتية، فلا يقال للعبد كن عبداً فإنه عبد لذاته، وإنما يقال له: اعمل كذا أيها العبد، وعمله أمر عرضي، والعمل متعلق الأمر من العبد، وقد يعمل وقد لا يعمل، وهذا المنزل يعطي جميع ما ذكرناه، ويكون تنزيهه لذات موجده بما يستحقه من الثناء الذي يليق بالكمال الذاتيّ، ثم أنه بما فيه من الكمال العرضي الذي هو كمال الرجولة قد يصدر عنه الثناء بما يستحقه الإله عارضاً بعارض ولكن لا بطريق التنزيه، فإن طريق التنزيه إنما هو للذات كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] للكمال الذاتيّ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] للكمال الإلهيّ لطلب المسموع والمبصر، وكل طالب يستدعي مطلوباً، والمستدعى فاقد لما استدعاه من أحوال هذا العبد ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة

التغابن: الآية ٦] فلسان الأدب أن يقال: طلبك لك لا له، وفي هذا ينبغي أن يقال ما قيل: [الهزج]

كتابٌ فيه ما فيهِ بديعٌ في مَعانيهِ
إذا عايَنْتَ ما فيه رأيتَ الدُّرَّ يَحْويهِ

وهو هذا المنزل، وهذا الكلام الذي سردناه، والكتاب الذي سطرناه ففيه ما فيه لسان الحقيقة يدل على أن الأمر فوق ما ذكر وسطر وليس في قوّة الترجمة عنه، والعبارة أكثر ممّا ظهر والله أكبر من ذلك، ثم ستر هذا اللسان الحقيقي بقوله: بديع في معانيه، فكأنه يقول في قوله «ما فيه» على طريق التعجب به والفرح ولهذا نبّه على ذلك بما ذكره في البيت الثاني، ثم إن الثناء على الله في هذا المنزل خاصة إنما هو بما تستحقه الربوبية لما خصصتك به من الفضل على أبناء جنسك لا بما تستحقه بما فضلت به على غيرك وما أنعمت به على سواك، فإن هذا المنزل لا يتضمن مثل هذا الثناء، فيستعين العبد في هذا المنزل على تنزيه الحق بثناء الربوبية على نفسها من جهة ما خصصتك به. ثم إنّ العبد بعد استفراغ طاقته في الثناء على ربه بربه من جهة نعمته عليه لاح له علم إلهيّ في فلاة نفسه عن يمين طريقه، فعرف أنه قد زلّ عن طريق ينبغي أن يسلك أيضاً عليها، وهنا مسألة دقيقة وهي تختص بهذا المنزل، وذلك أنه لما قيد ثناءه على ربه بما خصّه به ربه هل ذلك نقص في المعرفة أو في معرفته أو ليس في الوسع إلاّ ما وقع؟ وإذا لم يكن في الوسع فقد أتى بكمال ما في الوسع، وذلك أنه إذا أثنى على ربه بما كان منه سبحانه لغير هذا العبد المثني فلا يخلو إما أن يثني عليه بما تحققه علماً في نفسه ولا يكون إلاّ كذلك فقد صار هو منعوتاً بذلك العلم، وإن لم تقم به تلك الأوصاف التي وقع بها الثناء على الغير فوصفه بالعلم بذلك ثناء منه على ربه بما خصّه به من العلم بذلك وهو صفة إلهية، فإن الحق سبحانه يثني على عبده بما ليس هو الحق عليه ولا هي صفته، فالثناء على الله من ذلك وصفه سبحانه بالعلم بذلك والخلق له فيثني على العبد بالطاعة، وليست من صفات الحق كذلك هذا العبد إذا أثنى على ربه بما أعطى لغيره، فثناؤه على ربه بما أعطاه في نفسه هو ما حصل له من ربه من العلم بذلك، فإذن فما أثنى على ربه إلاّ بما خصّه به سواء أثنى على ربه بما أعطاه سبحانه لغيره أو لم يذكر الغير ولا تعرض له، فتحقق هذه المسألة فإنها من الحقائق والحقائق لا تقبل التبديل، وهذا المنزل من حصل فيه يعطيه ما ذكرناه، فإذا لاح له ذلك العلم الذي ذكرناه ستره نظره إليه عمّا هو عليه، وعرف أن ذلك العلم يدل على أمر غيبي ينبغي له أن يبقيه في غيبه ولا يظهره، ويرجع من حال الخطاب بالمواجهة والحضور إلى الخطاب بالغيبة فإنه أنزه، لأن الحقائق تعطي أنك ما حضرت إلاّ معك، فإن الأمر إذا أعطى للحاضر في حضوره مع من حضر أنه لا يتمكن أن يحضر معه إلاّ على حدّ ما تعطيه مرتبتك فمعك حضرت لا معه، فإنه ما تجلّى لك منه إلاّ قدر ما تعطيه مرتبتك، فافهم ذلك تنتفع به. ولا يغب هذا عنك في رجوعك إليه ممّا رجعت عنه لئلا تتخيل إنك رجعت إلى أعلى منك فإنك ما رجعت منك إلاّ إليك، والحق سبحانه لا يرجع إليك إلاّ بك لا به، لأنه

ليس في الوسع أن يطيقه مخلوق، ولهذا تتنوّع رجعاته وتختلف تجلياته وتكثر مظاهره ولا تتكرر، وهو في نفسه منزّه عن التكثر والتغير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فيما ينسب إلى ذاته.

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧١] ليتوبوا فرجوع العباد إليه نتيجة رجوعه إليهم بإعطاء ما رجعوا به إليه، فإذا رجعوا إليه ضاعف لهم الرجوع الإلهي الذي ينتجه رجوعهم إليه الذي هو في نفسه ينتجه رجوعه الأوّل إليهم، فالرجوع الإلهيّ الأوّل رجوع عناية وتفضل، والرجوع الثاني الذي أنتجه رجوعهم إليه سبحانه في قوله: «**مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً**» فمقدار الشبر من الذراع في الرجوع رجوع استحقاق يستحقه رجوعهم إليه، والشبر الثاني الذي به كمال الذراع من الرجوع رجوع منه لترجيح الوزن والوصف بالفضل والترغيب والتحضيض على معاملة الكريم، فالرجوع الإلهيّ الثاني يتضمن أمرين: رجوع الاستحقاق منه بمنزلة الجسد، ورجوع المنة منه بمنزلة الروح للجسد الذي به حياته، فإنه وإن كان الاستحقاق بما أوجبه الحق على نفسه فإن الحقيقة تعطي أن لا يستحق العبد شيئاً على سيده، فمن منته سبحانه على عبده أن أوجب له على نفسه ليأنس العبد بما أوجبه الحق عليه من طاعته ليسارع بأداء ما وجب عليه، فإذا حصل العبد في هذا المقام فليس وراءه مرمى لرام، ويعلم أن الله قد أراد أن ينقله من عالم شهادته إلى عالم غيبه، ليكون له غيبة شهادة في موطن آخر غير هذا الموطن له حكم آخر وهو الموطن الذي تكون فيه المظاهر الإلهية وهو أوسع المواطن، فلهذا عبر عن هذا المنزل بالأجل المسمّى لأنه أجل البعث إليه من عالم الشهادة المقيد بالصورة التي لا تقبل التحوّل في الصور لكن تقبل التغيير، وهو زوال عينها بغيرها لذلك الغيب الذي كانت به فيدبر الروح الغيبي صورة ذلك الغير، فلهذا قلنا: يقبل التغيير ولا يقبل التحويل فإن الحقائق لا تتبدّل، فانتقاله إلى موطن التحوّل في الصور يسمّى أجلاً مسمّى أي معلوم النهاية، وكان من المقام الموسوي دون غيره لأنه لم يرد في الخبر أنه عليه السلام رأى في إسرائه من جمع بين صورتين سوى موسىٰ عليه السلام فرآه في السماء وكان بينهما ما كان وهو في قبره يصلي والنبيّ يراه ﷺ عليهما في الحالتين معاً، ولا يقال في مثل هذا الكشف أن الآن لا يتسع لأمرين متعارضين في الشخص الواحد فصحيح ما يقول، ولكن أين الآن هنا؟ إنما ذلك لمن تقيد بالزمان وتعين بالمكان، فإذا كان الموجود لا يتقيد بالزمان ولا بالمكان فلا يستحيل هذا الوصف عليه، وإذا فهمت ما أشرنا إليه لم يعارض ما ذهبنا إليه وذكرناه كون الإسراء وقع بالليل وهو الزمان، وكون موسىٰ عليه السلام في القبر والسماء وهما المكان، فإنك أنت تسلم من مذهبك أن الجسم لا يكون في مكانين وأنت تؤمن بهذا الحديث، فإن كنت مؤمناً فقلد، وإن كنت عالماً فلا تعترض فإن العلم يمنعك، وليس لك الاختبار فإنه لا يختبر إلاّ الله، ولا تتأوّل أن الذي في الأرض غير الذي في السماء، فإن النبي عليه السلام ما قال: رأيت روح موسىٰ ولا جسد موسىٰ، وإنما قال: رأيت موسىٰ في السماء، ومعلوم أنه مدفون في الأرض، وكذلك سائر من رآه من الأنبياء عليهم السلام،

فالمسمّى موسىٰ إن لم يكن عينه، فالإخبار عنه كذب أنه موسىٰ هذا وأنت القائل: رأيتك البارحة في النوم وأنت تقول كذا وكذا، والمرئيّ معلوم أنه كان في منزله على حالة غير الحال التي رآه عليها أو عليها ولكن في موطن آخر، ولا تقول له رأيت غيرك ثم تنكر علينا مثل هذا، وإنما تختلف الحضرات والمواطن، وتختلف الأحوال والعين واحدة.

فهذا قد ذكرنا بعض ما يحوي عليه هذا المنزل وسكتنا عن بيوته وخزائنه، فما من منزل إلاّ وله بيوت وخزائن وأقفال ومفاتيح، ولكن يطول ذكرها في كل منزل، وربما إذا بيّناها يدعيها الكاذب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وفي هذا المنزل علم إتيان المعاني في الصور وعلم الفتوح وله باب قد تقدّم، وعلم الوافدين على الحق، وعلم التنزيه، وعلم الستر والتجلي، وعلم الرجوع الإلهيّ على من يرجع هل يرجع على عباده أو على أسمائه؟

الباب الخامس والسبعون ومائتان

في معرفة منزل التبري من الأوثان من المقام الموسويّ وهو من منازل الأمر السبعة

[نظم: السريع]

مــنـــازلُ الأمـــر بـــالـــنِّـــدَا ... مــنـــازلٌ مـــا لـــهـــا انْـــتِـــهَـــاءُ
يـــا أيُ يـــا أيُ لا تـــفـــارِقْ ... فـكَـوْنُـكـم مـا لـه انْـقِـضَـاءُ
وأيُ أيٍّ يـــكـــونُ مـــنـــه ... لـــوَجْـــهـــه بـــيْـــنَـــنَـــا رآءُ
عَـسَـاكِـرٌ لـلـحـروف جـاءتْ ... يَـضـيـق عـن حَـمْـلـهـا الـفَـضَـاءُ
أرمَـاحُـهَـا كـلُّـهـا نـجـومٌ ... أيَّـدَهـا الأمـرُ والـقَـضَـاءُ
سَـفَـائـنٌ بـحـرُهـا عـمـيـقٌ ... قـد مَـخَـرَتْ ريـحُـهـا رُخَـاءُ
فَـلْـتـلْـتـزِمْ يـا أخَـيَّ عـلـمـاً ... ضـاقَ لـه الأرضُ والـسـمـاءُ
ولـتَـتْـرُكِ الـغَـيْـرَ فـي عـمـاهُ ... بـمَـشْـهـدٍ مـا هـو الـعَـمَـاءُ

اعلم أن الذلّة والافتقار لا تكون من الكون إلاّ لله تعالىٰ، فكل من تذلّل وافتقر إلى غير الله تعالىٰ واعتمد عليه وسكن في كل أمره إليه فهو عابد وثن، وذلك المفتقر إليه يسمّى وثناً ويسميه المفتقر إلهاً، وألطف الأوثان الهواء وأكثفها الحجارة وما بينهما، ولهذا قال المشركون لما دعوا إلى توحيد الإله في ألوهته: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] فالناس يحملون قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أنه من قول الكفار حيث دعاهم إلى توحيد إله وهم يعتقدون كثرتها، وهو عندنا من قول الحق أو قول الرسول. وأما قول الكفار فانتهى في قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ والتعجب أنه يأوّل العقل يعلم الإنسان أن الإله لا يكون بجعل جاعل فإنه إله لنفسه، ولهذا وقع التوبيخ بقوله تعالىٰ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] والإله في ضرورة العقل لا يتأثر، وقد كان هذا خشبة يلعب بها أو حجراً يستجمر به ثم أخذه وجعله إلهاً يذل ويفتقر إليه ويدعوه خوفاً وطمعاً، فمن مثل هذا يقع التعجّب مع وجود العقل

عندهم، فوقع التعجّب من ذلك ليعلم من حجب العقول عن إدراك ما هو لها بديهي وضروري ذلك لتعلموا أن الأمور بيد الله وأن الحكم فيها لله وأن العقول لا تعقل بنفسها وإنما تعقل ما تعقله بما يلقي إليها ربها وخالقها ولهذا تتفاوت درجاتها، فمن عقل مجعول عليه قفل، ومن عقل محبوس في كن، ومن عقل طلع على مرآته صدأ، فلو كانت العقول تعقل لنفسها لما أنكرت توحيد موجدها في قوم وعلمته من قوم، والحدّ والحقيقة فيهما على السواء فلهذا جعلنا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ليس من قول الكفار.

فاعلم يا أخي أن هذا المنزل هو منزل من منازل الستر والكتمان، وتقرير الألوهة في كل من عبد من دون الله لأنه ما عبد الحجر لعينه وإنما عبد من حيث نسبة الألوهة إليه، ولهذا ذكرنا أنه من منازل الكتمان والستر، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٧] فما ذكروا قط إلاّ الألوهية وما ذكروا الأشخاص، ولكن لم يقبل الله منهم العذر بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الذي انفرد بهذا الاسم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] وهو قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] وهو كل من دعاكم إلى عبادة نفسه أو عبدتموه وكان في وسعه أن ينهاكم عن ذلك فما نهاكم فمثل هؤلاء يكونون من حصب جهنم، فالموحد يعبد الله من طريقين: من طريق الذات من كونها تستحق وصف الألوهة، ومن طريق الألوهة، فالسعيد الجامع بينهما لأن العابد مركب من حرف ومعنى، فالحرف للحرف والمعنى للمعنى، فلذلك لم نعبد الذات معراة عن وصفها بالألوهية، ولم تعبد الألوهية من غير نسبتها إلى موصوف بها، فلم تقم العبادة إلاّ على ما تقتضيه حقيقة العبد وهو التركيب لا على ما تقتضيه حقيقة الحق وهو الأحدية، ولهذا يكون القائل في عبادته وفاء لحق الله غير مصيب إذا أراد الذات فإن حقيقتها الأحدية، وقد يمكن أن يصح قول من قال: إنما أعبده وفاء لحق الربوبية لا لحقيقتها إذ كل حق لها حقيقة، فالحق من ذلك به تتعلق العبادة من العابد، والحقيقة هي الأحدية التي لا تتعلق ولا يتعلق بها، ولهذا كانت الألف في الوضع الإلهيّ بالخط العربي إذا تقدمت في الكلمة لا تتصل ولا يتصل بها، وإذا تأخرت اتصل بها بعض الحروف ممّن لا علم له بالأحدية المطلقة التي تستحقها هذه الذات إلاّ خمسة أحرف لا غير من جميع الحروف وهي: الدال والذال والراء والزاي والواو، وهي خمسة أحوال من اتصف بها عرف الأحدية، وكانت عبادته ذاتية لم يقترن بها أمر وهي عبادة المعنى للمعنى، فإن الأمر عبادة الحرف للحرف، فلا يخطر لعابد المعنى فرق بين الذات والألوهية ولا كثرة، بل يرى عيناً واحدة تستحق ما هو عليه هذا العارف من حيث معناه لا من حيث حرفه، وهذا مقام الجلال والعظمة وأحدية العبد التي أعطته معرفة الأحدية الذاتية والتنزيه والغنى، فهذه أحوال خمسة تدل عليها الحروف الخمسة التي لا تتصل بها الألف الواقعة في أواخر الكلم مثل جبيرا وعزيزا وأحدا وإذا وعلوا، فدلّت الألف في أوّل الكلمة من عدم الاتصال على قوله: «كان الله ولا شيء معه» وهو على ما عليه كان مع وجود الأشياء من عدم الاتصال كما لم تتصل الألف بالكلمة،

ودلّ عدم اتصال الحروف الخمسة بها في آخر الكلمة على حال معرفة مقام بعض العباد من العلماء بالله دون غيرهم حيث رفعوا النسبة بينهم وبين الله تعالىٰ، وأنهم مشاهدون لما ذكرناه من الجلال والعظمة والأحدية والتنزيه والغنى، وما عدا هذه الطائفة جعلوا نسبة ورابطة بين الإله والمألوه، وما فرقوا بين المرتبة والذات لما لم يعرفوا الله إلاً من نفوسهم بحكم الدلالة لاستناد الممكن إلى المرجح فطلبوه وطلبهم، ولهم من الحروف كل حرف اتصل بالألف في آخر الكلمة.

ولهؤلاء الأكابر أيضاً قسم وحظ وافر في منزل هذه الحروف التي اتصلت من حيث حرفيتهم لا من حيث معناهم، وهؤلائك جهلوا هذا القدر الفارق بينهم لكنهم ستروا ذلك عن العامّة وانفردوا به عن أشكالهم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٥] ولأجل هذا قال الجنيد سيد هذه الطائفة: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق، فإن هذا المقام يضرّ بمن ليس من أهله كما يضرّ رياح الورد بالجعل، لأن الحال التي هم عليها لا تقبل هذا المقام ولا يقبلها، فإذا رآهم الناس في العموم لم يعرفوهم لأنه ليس على حرفهم أمر ظاهر يتميز به عن العامّة، وإذا رآهم الناس في الخصوص كالفقهاء وأصحاب علم الكلام وحكماء الإسلام قالوا بتكفيرهم، وإذا رآهم الحكماء الذين لم يتقيدوا بالشرائع المنزّلة مثل الفلاسفة قالوا: إن هؤلاء أهل هوس قد فسدت خزانة خيالهم وضعفت عقولهم، فلا يعرفهم سواهم ومن اقتطعهم من خلقه إليه، قال تعالىٰ في المعنى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١] ولهؤلاء حظ وافر في هذه الآية حيث جهلهم العامّ والخاص والمسلم وغير المسلم، فهم الضنائن المصانون بحجب الغيرة فلا يعرفهم إلاً الحق، وهل يعرف بعضهم بعضاً؟ فيه توقف، وهم المطلوبون من العباد ألحقنا الله بهم وأرجو أن أكون منهم.

وأمّا تبرّي المسلم ممّن استند إليه المشرك فليس تبرؤه إلاً من النسبة ومن المنسوب إليه لا من المنسوب، فاجتمع المشرك والمسلم في المنسوب وافترقا في المنسوب إليه والنسبة، ولهذا لم تضرب الجزية على المشرك، وفرق بينه وبين الكفار من أهل الكتب المنزلة، فإن المشرك قادح في الحق وفي الكون بشركه فلم يكن له مستند يعصمه من القتل لأنه قدح في التوحيد وفي الرسل، والكفار من أهل الكتاب لم يقدحوا في التوحيد ولا في الكون أعني الرسل، لكن قدحوا في رسول معين لهوى أو شبهة قائمة بنفوسهم أدّاهم ما قام بهم إلى جحود الحق ظلماً وعلوّاً مع اليقين به. وأمّا لشبهة قامت بهم لم يثبت صدق صاحب الدعوى عندهم، فلهذا كان لهم في الجملة مستند صحيح عندهم لا في نفس الأمر يعصمهم من القتل، فضربت عليهم الجزية وتركوا على دينهم ليقيموه أو يقيموا بعضه على قدر ما يوفقون إليه، وهنا نكتة لمن فهم أن دينهم مشروع لهم بشرعنا حيث قرّرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا سمع أن الروم قد ظهرت على فارس يظهر السرور في وجهه مع كون الروم كافرين به ﷺ، ولكن الرسول لعلمه ﷺ كان منصفاً لأنه علم أن مستند الروم لمن استند إليه

أهل الحق لأنهم أهل كتاب مؤمنون به، لكنهم طرأت عليهم شبهة من تحريف أئمتهم ما أنزل عليهم حالت بينهم وبين الإيمان والإقرار بنبوّة محمد ﷺ أو بعمومها، وكلامنا مع المنصف منهم من علمائهم فعذرهم الشرع لهذا القدر الذي علمه منهم وراعى فيهم جناب الحق تعالىٰ حيث وحدوه، وما أشركوا به حين أشرك به فارس وعبدة الأوثان وقدحت في توحيد الإله وما يستحقه من الأحدية، وهكذا حال العارفين من أهل هذا المقام.

وأما قول رسول الله ﷺ في أمره إيانا بمخالفة أهل الكتاب إنما هو في كونهم آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وأرادوا أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، فأمرنا بمخالفتهم في أمور من الأحكام معينة وفيما ذكرناه، ولو أمرنا بمخالفتهم على الإطلاق لكنا مأمورين بخلاف ما أمرنا به من الإيمان فلا تصحّ مخالفتهم على الإطلاق، فهذا المراد بقوله ﷺ: «**خَالِفُوا أَهْلَ الكِتَابِ**» واعلم أن كل مشرك كافر، فإن المشرك باتباع هواه فيمن أشرك واتخذه إلهاً وعدوله عن أحدية الإله يسترها عن النظر في الأدلة والآيات المؤدية إلى توحيد الإله فسمّي كافراً لذلك الستر ظاهراً وباطناً، وسمّي مشركاً لكونه نسب الألوهية إلى غير الله مع الله فجعل لها نسبتين فأشرك، فهذا الفرق بين المشرك والكافر. وأما الكافر الذي ليس بمشرك فهو موحد غير أنه كافر بالرسول وببعض كتابه، وكفره على وجهين: الوجه الواحد أن يكون كفره بما جاء من عند الله مثل كفر المشرك في توحيد الله، والوجه الآخر أن يكون عالماً برسول الله وبما جاء من عند الله أنه من عند الله ويستر ذلك عن العامة والمقلدة من أتباعه رغبة في الرياسة، وهو الذي أراد عليه السلام بقوله في كتابه إلى قيصر: «**فَإِنْ تَوَلَّيتَ فَإِنَّ عَلَيكَ إِثمَ الأَرِيسِيِّينَ**» يعني الأتباع.

واعلم أن التأيّه والندا مؤذن بالبعد عن الحالة التي يدعوه إليها من يناديه من أجلها فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦] فلبعدهم ممّا أيه بهم أن يؤمنوا به لذلك أيه بهم، فإن كانوا موصوفين في الحال بما دعاهم إليه فيتعلق البعد بالزمان المستقبل في حقهم أي أثبتوا على حالكم الذي ارتضاه الدين لكم في المستقبل كما قال يعقوب لبنيه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] في حال حياتهم، فأمرهم بالإسلام في المستقبل أي بالثبوت عليه، والإستقبال بعيد عن زمان الحال، فيكون التأيّه أيضاً بما هو موجود في الحال أن يكون باقياً في المستقبل، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] وهم في حال الوفاء بعقد الأيمان فإنه نعتهم في تأيّهه بهم بالأيمان، فكان البعد في العقود إذا قبلوها متى قبلوها.

واعلم أن النداء الإلهي يعم المؤمن والكافر والطائع والعاصي والأرواح والروحانيين، ولا يكون النداء إلاّ من الأسماء الإلهية ينادي الاسم الإلهي من حكم عليه اسم إلهي غيره إذا علم أنه قد انتهت مدة حكمه فيه فيأخذه هذا الاسم الذي ناداه كذلك دنيا وآخرة، فجميع من سوى الله تعالىٰ منادى يناديه اسم إلهيّ لحال كوني يطلبه به ليوصله إليه، فإن أجاب سمّي مطيعاً وكان سعيداً، وإن لم يجب سمّي عاصياً وكان شقياً، فإن قال قائل: كيف يكون النداء

من اسم إلهيّ ويقف الكون عن إجابته مع ضعفه وقبوله للاقتدار الإلهيّ؟ قلنا: لم تكن إبايته عن إجابته من حيث نفسه وحقيقته لأنه مقهور دائماً، ولكن لما كان تحت قهر اسم إلهيّ لم يتركه ذلك الاسم أن يجيب من ناداه، فالتنازع وقع بين الأسماء الإلهيّة وهم أكفاء، والحكم لصاحب اليد وهو الاسم الذي هو في يده في وقت نداء الاسم الآخر فلهذا كان أقوى للحال. فإن قلت: فلماذا يؤاخذ بالإباية؟ قلنا: لأنه ادّعى الإباية لنفسه ولم يضفها إلى الاسم الإلهيّ الذي هو تحت قهره. فإن قلت: فالأمر باق فإنه إنما أبى لقهر اسم إلهيّ كانت الإباية عنه في هذا المدعوّ. قلنا: صدقت ولكنه جهل ذلك فأخذ بجهله فإن الجهل له من نفسه. فإن قلت: فإن جهله من اسم إلهيّ حكم عليه. قلنا: الجهل أمر عدمي لا وجودي والأسماء الإلهيّة تعطي الوجود ما تعطي العدم، فالعدم للمدعوّ من نفسه والجهل عدم العلم، فلم يدر المعترض ما اعترض به، والأسماء الإلهيّة لا تعطي إلاّ الوجود فلم يلزم ما ذكرته، وانقطع الاعتراض من هذا القائل بما ذكرناه.

وإذا ثبت أن النداء يعمّ فالمنادى به أيضاً يعمّ، ولكن نداء الحق لا يكون إلاّ بما يكون في إجابته السعادة للعبد، وأما النداء بما يكون فيه الشقاوة للعبد فذلك ليس نداء الحق والنداء من صفة الكلام، فكل فعل يفعله العبد ينقسم إلى أمرين: إلى فعل فيه سعادة ذلك العبد وهو الذي يقترن به نداء الحق تعالىٰ، وفعل لا يقترن به سعادة العبد فليس عن نداء الحق لكنه عن إرادة الحق وخلقه لا عن ندائه وأمر شرعه، ونفي السعادة فيه على قسمين: الواحد أن يكون فعلاً لا يقترن به شقاوة ولا سعادة، أو يكون فعلاً تقترن به شقاوة، والفعل الذي تقترن به الشقاوة على قسمين: قسم تقترن به على الأبد وهي شقاوة الشرك، وشقاوة لا تقترن به على الأبد وهو كل فعل لا يكون شركاً ولا نداء للحق فيه البتة، فهذا المنزل هو منزل النداء لا منزل الأفعال، وسيأتي إن شاء الله منازل الأفعال، ويشتبه على بعض العارفين هذا المنزل وإخوانه بمنزل الأفعال لكونه يرى النداء بالأفعال وليس المنزل واحداً في ذلك بل النداء له منزل والفعل له منزل.

واعلم أن النداء على مراتب لكل مرتبة أداة معينة، فالأدوات الهمزة ويا وأيا وهيا وأي مسكنة الياء فأقربها الهمزة في الرتبة وأبعدها هيا، والنداء قد يصحبه التنبيه وقد لا يصحبه التنبيه، فإذا كان النداء بأي فهو نكرة فلا بدّ من التنبيه لأن النداء إنما يطلب التعريف وهو بنفس المنادى، فلا بدّ أن يصحب هاء التنبيه لأي في النداء لأن التنبيه تعريف، ثم يردف التنبيه باسم المنادى ليعرف المنادى أنه منادى دون غيره، فإن كان اسمه ناقصاً كالذين فلا بدّ له من صلة وهو الذي يصفه به ليتم به المقصود، ولا بدّ من رابط بين هذه الصلة والموصول ليعلم أنه المراد بذلك النداء، وإن لم يردف باسم ناقص لم يحتج إلى ما ذكرناه فيقال: يا أيها الناس وأمثال هذا، وأما إذا لم يقترن بالنداء أي فإن النداء يتصل باسم المنادى، وقد يكون منادى منكوراً مطولاً مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [سورة يس: الآية ٣٠] ومثل قوله: يا عجباً. قال الشاعر: [الرجز]

يـا عَـجَـبـاً لـهـذه الـفَـلـيْـقَـهْ هـل تُـذْهِـبـيـن الـقُـرَّ بـالـرَّبـيـقَـهْ

وقد يكون منادى يعرف مثل: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٠] ولا يكون ما بعد النداء أبداً إلاَّ منصوباً إما لفظاً وإما معنى، ولهذا عطف بالمنصوب على الموضع في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٠] بالنصب عطفاً على موضع ﴿يَٰجِبَالُ﴾ وإن كان مرفوعاً في اللفظ فقد يراعى اللفظ في أوقات ولهذا قرىء أيضاً والطير بالرفع، ولكل فصل من هذه الفصول حقائق إلهية لولا التطويل لذكرناها فصلاً فصلاً، فتركناها لمن يقف على كلامنا من العارفين كالتنبيه لهم على ما يتضمنه منزل النداء من المعاني الإلهية وأن الكون مرتبط بعضه ببعض ارتباط المعاني بالكلمات، وربما جعلوا الواو من أدوات النداء ولكن خصّوها بنداء خاص لحال خاص بخلاف سائر الأدوات، فخصّوها بالانتداب فينادون الميت: واجبلاه واسنداه، وبه يعذب الميت الملك يطعنه في خاصرته أن هكذا كنت، ويقولون: وازيداه واسلطاناه، ولا بدّ في هذا النداء من إدخال الهاء هاء السكت في آخره لأنه ليس من شرط هذا النداء أن يقال بعده شيء فلهذا أدخل هاء السكت عليه فيكتفي به فيقول: واجبلاه واحزناه، ولا يحتاج إلى أمر آخر. وإذا قلت: يا زيد وناديته بسائر حروف النداء من غير نداء الندبة فلا بدّ أن تذكر السبب الذي ناديته من أجله فتقول: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾ [سورة النساء: الآية ١] فلا تكون هاء السكت إلاَّ في نداء الندبة خاصة، وأما النداء المرخم فإنهم يريدون به تسهيل الكلام ليخف على المنادي ليصل إلى المقصود مسرعاً بما حذفه من الكلمة، فإن الترخيم التسهيل، ومنه رخيم الدلال في وصف المعشوق المستحسن أي هو سهل، ومثل الترخيم في المرخم هو أن تحذف الآخر من اسم المنادى فتقول إذا ناديت من اسمه حارث: يا حار هلم فحذفت آخر الكلمة طلباً للتسهيل.

ولتعلم أن الأسماء وأسماء الأفعال على قسمين: معرب ومبني فما تغير آخره بدخول العوامل سمّي معرباً، والإعراب التغيير يقال: أعربت معدة الرجل إذا تغيرت، وقد تغير هذا الاسم من حال إلى حال، هذا بعض وجوه اشتقاقه من كونه سمّي معرباً. والمبني هو كل اسم لفعل كان أو لغير فعل ثبت على صفة واحدة لفظه، ولم يؤثر فيه دخول العوامل التي تحدث التغيير في المعرب عليه فسمّي مبنياً من البناء لثبوته وعدم قبوله للتغيير، وهذا له باب في الصفة الثبوتية للإله من كونه ذاتاً، ومن ثبوت نسبة الألوهية إليه دائماً، والمعرب له باب في المعارف الإلهية من قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] فهذا الفرق بين المعرب والمبني، فإذا رخم الاسم فقد ينتقل إعرابه إلى آخر ما يبقى من حروف الكلمة فتقول: يا حار هلم بعدما كانت الراء مكسورة نقل إليها حركة الثاء ليعرف السامع أنه قد حذف من الاسم حرف، فإنه إنما يعرف المنادى اسمه إذا كان اسمه حارثاً بالثاء، فإذا حذف الثاء ربما يقول ما هو أنا، فإذا نقل إلى الراء حركة الثاء علم أنه المقصود، كذلك إذا نودي العبد باسم إلهيّ ربما يقع في نفسه أنه جدير بذلك الاسم فينقل

وصف عبوديته إلى ذلك الاسم الإلهيّ الذي نودي به هذا العبد فيعرف أنه المقصود من كونه عبداً لاستصحاب الصفة له هذا إذا نقل، وإذا لم ينقل حركة المحذوف من الاسم لما بقي وترك على حاله كان القصد في ذلك قصداً آخر وهو ترك كل حق على حقيقته حتى لا يكون لكون أثر في كون، ولا يظهر لكون خلعة على كون ليكون المنفرد بذلك هو الله تعالىٰ، فإن الضمة التي على الثاء من حارث هي لباسه، فإذا خلعها على الراء في الترخيم فقد خلع كون على كون، فربما قصده المخلوع عليه بالعبودية له والثناء عليه، والخلع على الحقيقة إنما هو للمتكلم المنادى لا لحرف الثاء، فالمنادى هو الذي خلع على الراء الرفع الذي كان لحرف الثاء لما أزال عينه من الوجود كخلع القطبية والإمامة من الشخص الذي فقد عينه إلى الشخص الذي قام في ذلك المقام، إذ كان الله هو الذي أقامه لا هذا الإمام الذي درج، فهذا قد بيّنا في هذا المنزل بعض ما عندنا من أسرار ليقع التنبيه على ما فيه للطالب إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الحوض وأسراره من المقام المحمدي

[نظم: البسيط]

الحَوْضُ منزلُ وصفِ الماءِ بالكَدَرِ ... وهي العلومُ التي تختَصُّ بالبَشَرِ

فالماءُ في العين صافٍ ما به كَدَرٌ ... والقَعْرُ يُظْهِرُ ما فيه من الكَدَرِ

وعلَّةُ الرَّنْق كَوْن الفكر يُنتِجُه ... فاطلبْ من العلم ما يسمو عن الفِكَرِ

إن الخيالَ إذا جاءته قَيَّدها ... بالفكر في عالَم الأجساد والصُّوَرِ

والفكرُ من صُوَرٍ وقتاً يخلِّصها ... لكنه غيرُ معصوم من الضَّرَرِ

فاطلبْهُ بالذِّكر لا بالفكر تَحظَ به ... منزَّهاً خالصاً من شائب الغِيَرِ

اعلم أيّها الوليّ الحميم نوّر الله بصيرتك وحسّن سريرتك أن العلوم على قسمين: موهوبة وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وهي نتيجة التقوى كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١، ٢] ومكتسبة وإليها الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] يشير إلى كدّهم واجتهادهم وهم أهل الاقتصاد والضمير في أرجلهم يعود على الذين ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهم الذين أقاموا كتاب الله ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وهم المسارعون في الخيرات ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] فمنهم من سبق بالخيرات، ومنهم من أقام الكتاب من رقدته، فإن التأويل من العلماء أضجعه بعدما كان قائماً، فجاء من وفّقه الله فأقامه من رقدته أي نزّهه عن تأويله والتعمّل فيه بفكره فقام بعبادة ربه وسأله أن يوقفه على مراده من تلك الألفاظ التي حواها الكتاب والتعريف من المعاني المخلصة عن المواد فأعطاهم

الله العلم غير مشوب قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧] يعلمهم الحق ما يؤول إليه هذا اللفظ المنزّل المرقوم وما أودع فيه من المعاني من غير فكر فيه، إذ كان الفكر في نفسه غير معصوم من الغلط في حق كل أحد ولهذا قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧، ٨] يعني بالفكر فيما أنزلته ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الأخذ منك علم ما أنزلته إلينا ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨] فسأله من جهة الوهب لا من جهة الكسب، ولهذا جعلنا الضمير يعود على الذين أكلوا من فوقهم.

يقول: ومن تحت أرجل هؤلاء أمم منهم أمة مقتصدة وهم أهل الكسب وهم الذين يتأوّلون كتاب الله ولا يقيمونه بالعمل الذي نزل إليه ولا يتأدّبون في أخذه وهم على قسمين القليل منهم المقتصد في ذلك وهو الذي قارب الحق، وقد يصيب الحق فيما تأوّله بحكم الموافقة لا بحكم القطع، فإنه ما يعلم مراد الله فيما أنزله على التعيين إلاّ بطريق الوهب وهو الإخبار الإلهيّ الذي يخاطب به الحق قلب العبد في سرّه بينه وبينه ومن لم يقتصد في ذلك وتعمّق في التأويل بحيث أنه لم يترك مناسبة بين اللفظ المنزّل والمعنى، أو قرّر اللفظ على طريق التشبيه ولم يردّ علم ذلك إلى الله فيه وهم الذين قال الله فيهم في الآية عينها: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وأيّ سوء أعظم من هذا؟ وهؤلاء هم القسم الثاني. ولما شاهد الرسول هذا الأمر وقد بعث رحمة بما نزل به ورأى الكثير لم تصبه هذه الرحمة وأن علة ذلك إنما كان تأويلهم بالوجهين من التشبيه أو البعد عن مدلول اللفظ بالكلية تحير في التبليغ وتوقف حتى يرى هل يوجب ذلك عليه ربه أم لا؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦] وقيل له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٨] وقيل له: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٢] فيما يجري منهم من خير وشرّ، وقيل له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] فعلم الرسول أن المراد منه التبليغ لا غير، فبلغ ﷺ وما أخفى ممّا أمر بتبليغه شيئاً أصلاً فإنه معصوم محفوظ قطعاً في التبليغ عن ربه ما أمر بتبليغه وما خصّ به فهو فيه على ما يقتضيه نظره، فالتقدير في الآية على التفسير ومن تحت أرجلهم أمم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون. ولهذا قال لنبيه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٦] وقال: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٢].

فأشرف العلوم ما ناله العبد من طريق الوهب، وإن كان الوهب يستدعيه استعداد الموهوب إليه بما اتصف به من الأعمال الزكية المشروعة، ولكنه لما لم يكن ذلك شرطاً في حصول هذا العلم لذلك تعالىٰ هذا العلم عن الكسب، فإن بعض الأنبياء تحصل لهم النبوّة من غير أن يكونوا على عمل مشروع يستعدون به إلى قبولها، وبعضهم قد يكون على عمل مشروع فيكون ذلك عين الاستعداد، فربما يتخيل من لا معرفة له أن ذلك الاستعداد لولاه ما حصلت النبوّة فيتخيل أنها اكتساب والنبوّة في نفسها اختصاص إلهيّ يعطيه لمن شاء من عباده

وما عنده خبر بشرع ولا غيره ولا يعرف من هو ولا بما هو الأمر عليه، فلو كان الاستعداد ينتج هذا العلم لوجد ذلك في الأنبياء ولم يقع الأمر كذلك، فإن النبوّة غير مكتسبة بلا خلاف بين أهل الكشف من أهل الله، وإن كان اختلف في ذلك أهل الفكر من العقلاء فذلك من أقوى الدلالات عندنا على أن الفكر يصيب العاقل به ويخطىء، ولكن خطأه أكثر من إصابته لأنّ له حدّاً يقف عنده، فمتى ما وقف عند حدّه أصاب ولا بدّ، ومتى جاوز حدّه إلى ما هو لحكم قوّة أخرى يعطاها بعض العبيد قد يخطىء ويصيب، عصمنا الله وإياكم من غلطات الأفكار، وجعلنا من الذاكرين المذكورين بفضله لا رب غيره، ولنا فيما ذكرناه آنفاً نظم كتبت به إلى بعض الإخوان سنة إحدى وستمائة من مدينة الموصل في النبوّة أنها اختصاص من الله تعالىٰ ولذلك لا يشوب رائقها كدر: [الوافر]

ألا إن الرسالةَ بَرزخيَّهْ ... ولا يحتاجُ صاحبُها لنيَّهْ
إذا أعطَتْ بُنَيَّتَهُ قواها ... تلقَّتْها بقوَّتها البُنَيَّهْ
وأن الاختصاصَ بها مَنُوطٌ ... كما دلّتْ عليه الأشْعَريَّهْ
وهذا الحقُّ ليس به خَفَاءٌ ... فدَعْ أحْكامَ كُتْبِ فَلْسَفيَّهْ

في أبيات كثيرة، ولكن قصدنا إلى الأمر الذي يطلبه هذا الموضع منها، ولتعلم أن سبب ظهور الأكدار إنما هو قرار الماء وسكونه لطلب الراحة من الحركة في غير موضعها ومحلها، ولذلك كنينا عن هذه الحالة بالحوض لأنّ فيه قرار الماء وسكونه، وقد قلنا في باب الغزل والنسيب أصف نزاهة المعشوق في نفسه: [الخفيف]

روَّحَتْ كلَّ من أَشَبَّ بها ... نَقْلَةٌ عن مراتب البَشَرِ
غَيْرَةً أن يُشَابَ رائقُها ... بالذي في الحِياض من كَدَرِ

أريد أن المحب إذا تعشق من صفته هذه حكم عليه هذا المعشوق فنقله إليه وكساه من ملابسه، فأخرجه عن الذي يقتضيه عالم الطبيعة من كدر الشبه إذا كان المعشوق علماً، والشبهات والحرام إذا كان المعشوق عملاً، والشهوات الطبيعية إذا كان المعشوق روحاً مجرداً عن المواد، وعن البشرية إذا كان المعشوق ملكاً، وعمّا سوى الله إذا كان المحبوب هو الله، فالمحب الصادق من انتقل إلى صفة المحبوب لا من أنزل المحبوب إلى صفته، ألا ترى الحق سبحانه لما أحبنا نزل إلينا في ألطافه الخفية بما يناسبنا ممّا يتعالى جدّه وكبرياؤه عن ذلك، فنزل إلى التبشبش بنا إذا جئنا إلى بيته نقصد مناجاته، وإلى الفرح بتوبتنا ورجوعنا إليه من إعراضنا عنه، والتعجّب من عدم صبوة الشاب من الشاب الذي هو في محل حكم سلطانها، وإن كان ذلك بتوفيقه وإلى نيابته عنا في جوعنا وعطشنا ومرضنا، وإنزاله نفسه إلينا منزلتنا لما جاع بعض عبيده قال للآخرين: جعتُ فلم تطعمني، ولما عطش آخر من عباده قال سبحانه لعبد آخر: ظمئتُ فلم تسقني، ولما مرض آخر من عباده قال لآخر من عباده: مرضتُ فلم تعدني، فإذا سأله هؤلاء العبيد عن هذا كله يقول لهم: أما إن فلاناً مرض فلو عدته لوجدتني عنده، أما أنه جاع فلان فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي، أما أنه عطش فلان فلو

سقيته لوجدت ذلك عندي، والخبر صحيح. فهذا من ثمرة المحبة حيث نزل إلينا، فلهذا قلنا: إن الصدق في المحبة يجعل المحب يتصف بصفة المحبوب، وكذا العبد الصادق في محبته ربه يتخلق بأسمائه فيتخلق بالغنى عن غير الله، وبالعزّ بالله تعالىٰ، وبالعطاء بيد الله تعالىٰ، وبالحفظ بعين الله تعالىٰ، وقد علم العلماء التخلق بأسماء الله ودوّنوا في ذلك الدواوين، وسبب ذلك لما أحبوه اتصفوا بصفاته على حدّ ما يليق بهم.

ثم نرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] إن العلوم وأعني بها المعلومات إذا ظهرت بذواتها للعلم وأدركها العلم على ما هي عليه في ذواتها فذلك العلم الصحيح والإدراك التام الذي لا شبهة فيه البتة، وسواء كان ذلك المعلوم وجوداً أو عدماً أو نفياً أو إثباتاً أو كثيفاً أو لطيفاً أو رباً أو مربوباً أو حرفاً أو معنى أو جسماً أو روحاً أو مركباً أو مفرداً، أو ما أنتجه التركيب، أو نسبة أو صفة أو موصوفاً، فمتى ما خرج شيء ممّا ذكرناه عن أن يبرز للعلم بذاته وبرز له في غير صورته فبرز العدم له في صورة الوجود وبالعكس، والنفي في صورة الإثبات وبالعكس، واللطيف في صورة الكثيف وبالعكس، والرب بصفة المربوب والمربوب بصفة الرب، والمعاني في صور الأجسام كالعلم في صورة اللبن، والثبات في الدين في صورة القيد، والإيمان في صورة العروة، والإسلام في صورة العمد، والأعمال في صور الأشخاص من الجمال والقبح، فذلك هو الكدر الذي يلحق العلم فيحتاج من ظهر له هذا إلى قوّة إلهيّة تعديه من هذه الصورة إلى المعنى الذي ظهر في هذه الصورة فيتعب، وسبب ذلك حضرة الخيال والتمثّل والقوّة المفكرة، وأصل ذلك هذا الجسم الطبيعي وهو المعبر عنه بالحوض في هذا المنزل، وقعر هذا الحوض هو خزانة الخيال، وكدر ماء هذا الحوض المستقر في قعره هو ما يخرجه الخيال والتخيل عن صورته، فيطرأ التلبيس على الناظر بما ظهر له، فما يدري أي معنى لبس هذه الصورة فيتحير ولا يتخلص له ذلك أبداً من نظره إلاَّ بحكم الموافقة وهو على غير يقين محقق فيما أصاب من ذلك إلاَّ بإخبار من الله، ولهذا لما قام أبو بكر الصديق في هذا المقام وسأل تعبير الرؤيا وأمره النبي ﷺ بتعبيرها فلما فرغ سأل النبي ﷺ فيما عبره هل أصاب أو أخطأ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**أَصَبْتَ بَعْضاً وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً**» فما علم الصديق إصابته للحق في ذلك من خطئه، فلهذا قلنا: إن المصيب في مثل هذا ليس على يقين فيما أصابه، فلهذا جنح العارفون وامتنعوا أن يأخذوا العلم إلاَّ من الله بطريق الوهب الذي طريقه في الأولياء الذكر لا الفكر، فإن أعطوا المعاني مجردة وبرزت لهم المعلومات بذواتها في صورها التي هي حقائقها فهو المقصود، وإن أبرزها الحق لهم عند الذكر وهذا الطلب في غير صورها وحجب عنهم ذواتها أعطوا من القوّة والنور النفوذ في تلك الصور إلى ما وراءها، وهو الذي أريدت له هذه الصور وقيد بها، فمشهوده على كل حال المعاني التي هي المقصود وهي في عالم الألفاظ والعبارات بمنزلة المنصوص، والمحكم الذي لا إشكال فيه ولا تأويل، والآخر بمنزلة الظواهر التي تحمل المعاني المتعددة وما يعرف الناظر مقصد المتكلم بها منها.

واعلم أن هذه العلوم إذا أعطاها الله العبد في غير صورها وأعلمه ما أراد بها فوقف على عينها من تلك الصورة في تلك الصورة فهو المشبه بالحوض لأنه يدرك الماء ويدرك الكدر الذي في قعر الحوض ويلبس الماء، ولا بدّ في ناظر العين لون ذلك الكدر حمرة كان أو صفرة أو ما كان من الألوان، فتبصر الماء أحمر أو أصفر وغير ذلك من الألوان، ولهذا قال الجنيد وقد سئل عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، ولما قبل الماء هذا اللون صار في العين مركباً من متلوّن ولون، وهو في نفس الأمر شيء آخر فيعلم الماء ويعلم أن ذلك لون الوعاء، كذلك التجليات في المظاهر الإلهية حيث كانت، فأما العارف فيدركها دائماً والتجلي له دائم والفرقان عنده دائم فيعرف من تجلّى ولماذا تجلّى، ويختص الحق دون العالم بكيف تجلّى، لا يعلمه غير الله لا ملك ولا نبي، فإن ذلك من خصائص الحق لأن الذات مجهولة في الأصل، فعلم كيفية تجليها في المظاهر غير حاصل ولا مدرك لأحد من خلق الله، هذا هو العلم الذي لا ينتج غيره فهو منقطع النسل لا عقب له، وما عدا هذا من العلوم فقد يكون العلم بالنظر فيه ينتج علماً آخر ولا يكون إلاّ هكذا وهو الأكثر بل هو الذي بأيدي الناس، فإن المقدمات إن لم يحصل لك العلم بها وبما ينتج منها ممّا لا ينتج وبالسبب الرابط بينهما، فبعد حصول هذا العلم ينتج لك العلم بما أعطاه هذا التركيب الخاص وهو التناسل الذي يكون في العلوم بمنزلة التناسل الذي يكون في النبات والحيوان وهذا هو تناسل المعاني، ولهذا قبلت المعاني الصور الجسدية لأن الأجسام محل التوالد.

فإن قلت: فالذي يكون من العلوم لا ينتج فكان ينبغي أن لا يقبل الصورة. قلنا: إنما قبل الصورة من كونه نتيجة عن منتج ونتاج وهو في نفسه عقيم لا ينتج أصلاً، كالعقيم الذي يكون في الحيوان مع كونه متولداً من غيره ولكن لا يولد له لأنه على صفة قامت به تقتضي له ذلك، ولذلك جاء الحق في تنزيه نفسه عن الأمرين فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٣] وهذا تنزيه الذات فلا تتعلق ولا يتعلق بها، والنتاج إنما وقع وظهر في المرتبة، فطلب الرب المربوب والقادر المقدور. فإن قلت: فإذا كان الأمر على ما ذكرت في ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فكانت المظاهر تبطل وهي موجودة فما جوابك؟ قلنا: المظاهر للمرتبة لا للذات، فلا يعبد إلاّ من كونه إلهاً ولا يتخلق بأسمائه وهي عين العبادة له إلاّ من كونه إلهاً، ولا يفهم من مظاهره في مظاهره إلاّ كونه إلهاً فاعلم ذلك، ولو كانت المظاهر تظهرها الذات من كونها ذاتاً علمت، ولو علمت أحيط بها، ولو أحيط بها حدت، ولو حدت انحصرت، ولو انحصرت ملكت، وذات الحق تتعالىٰ علوّاً كبيراً عن هذا كله، فعلمنا أنه ليس بين الذات وبين هذه المظاهر نسبة يتعلق العلم بها من حيث نسبة المظهر إليها أصلاً، وإذا لم يحصل مثل هذا العلم في نفوس العلماء بالله وتعالىٰ عن ذلك فأبعد وأبعد أن تعلم نسبة الذات إلى المظاهر فإن قلت: أن النسبة واحدة ولكن لها طرفان من حيث الذات طرف ومن حيث المظهر طرف. قلنا: ليس الأمر كما تظن في أن النسبة واحدة بين المتضايفين، فإن نسبة الولد إلى الوالد نسبة بنوّة والبنوّة انفعال، ونسبة الوالد إلى الولد نسبة أبوّة والأبوّة فاعلية، وأين أن

يفعل من أن ينفعل هيهات فليست النسبة واحدة ولا لها طرفان أصلاً فإنها غير معقولة الانقسام، أعني هذه النسبة الخاصة وهو الطرف الذي جعلته أنت للنسبة بخيالك، فذلك الطرف هو النسبة التي تذكر إذ الطرفان للشيء الموصوف بهما يؤذنان بقسمته والمعنى لا ينقسم فإنه غير مركب، والذي ينتجه هذا العلم المشبه بالحياض مناجاة الحق من جهة الصدر وهو مناجاتك إياه في صدورك عنه حين أمرك بالخروج إلى عباده بالتبليغ إن كنت رسولاً، وبالتثبيت إن كنت وارثاً، وهذه المناجاة لا تكون منه إليك إلاَّ فيك لا في غيرك، فمنك تعرفه لا من غيرك لأنك الحجاب الأقرب والستر المسدل عليه، ومن كونك ستراً وحجاباً حددته، فمعرفتك به في هذا الموطن عين عجزك عن معرفته، وإن شئت قلت عين الجهل به، ونريد بالجهل عدم العلم.

وأما الغير فحجاب أبعد بالنظر إليك فإن الله ما وصف نفسه إلاَّ بالقرب إليك، وهكذا قربه من غيرك إلى ذلك الغير كقربه إليك، فوصفه بالقرب إليك أبعد بالنظر إلى غيرك إذا أراد العلم به منك، كما أنت إذا أردت العلم به من غيرك قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] فأثبت قربه إلى الأشياء ونفى العلم بكيفية قربه من الأشياء بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فعمّ البصيرة والبصر إذ كان إدراك البصر في الباطن يسمّى بصيرة والذات واحدة، واختلف عليها المواطن فسمّى في إدراك المحسوس بصراً وفي إدراك المعاني بصيرة، فالمدرك واحد العين فيهما، ولما كان على الحوض الذي يكون في الدار الآخرة كؤوس كثيرة على عدد الشاربين منه وأن الماء في الإناء على صورة الإناء شكلاً ولوناً علمنا قطعاً أن العلم بالله سبحانه على قدر نظرك واستعدادك وما أنت عليه في نفسك، فما اجتمع اثنان قط على علم واحد في الله من جميع الجهات لأنه ما اجتمع في اثنين قط مزاج واحد ولا يصحّ لأنه لا بدّ في الاثنين ممّا يقع به الامتياز لثبوت عين كل واحد، ولو لم يكن كذلك لم يصحّ أن يكونا اثنين، فما عرف أحد من الحق سوى نفسه، فإذا عامل من تجلّى له بما عامله به وقد ثبت أن عمله يعود عليه لن ينال الله من ذلك شيء، قال ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ فَيَكْسُوكُمُ الحَقُّ مِنْ أَعْمَالِكُمْ حُلَلاً عَلَى قَدْرِ مَا حَصَّنْتُمُوهَا وَاعْتَنَيْتُمْ بِأُصُولِهَا**» فمن لابس حرير أو من لابس مشاقة كتان وقطن وما بينهما فلا تلم إلاَّ نفسك، ولا تلم الحائك فما حاك لك إلاَّ غزلك.

فإن قلت: كيف تقول: لن ينال الله من ذلك شيء وقد قال سبحانه: ﴿يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٧] فلتعلم أن المراد بإثبات النَّيل هنا وعدم النَّيل في جانب الحق أن الله سبحانه ما يناله شيء من أعمال الخلق ممّا كلفهم العمل فيه نيل افتقار إليه وتزيّن به ليحصل له بذلك حالة لم يكن عليها ولكن يناله التقوى، وهو أن تتخذوه وقاية ممّا أمركم أن تتقوه به على درجات التقوى ومنازله فقد قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] فمعنى يناله التقوى أنه يتناولها منك ليلبسك إياها بيده تشريفاً لك حيث خلع عليك بغير واسطة إذ لبسها غير المتقي

من غير يد الحق، وسواء كانت الخلعة من رفيع الثياب أو دنيئها فذلك راجع إليك فإنه ما ينال منك إلاّ ما أعطيته، وإن جمع ذلك التقوى فإنه لا يأخذ شيئاً سبحانه من غير المتقي، فلهذا وصف نفسه بأن التقوى تناله من العباد، وإنما وصف الحق سبحانه بأن التقوى تصيبه، واللحوم والدماء لا تصيبه لما كانت الإصابة بحكم الاتفاق لا بحكم القصد أضاف النيل إلى المخلوق لأنه يتعالىٰ أن يعلم فيقصد من حيث يعلم، ولكن إنما يصاب بحكم الاتفاق مصادفة والحق منزّه أن يعلم الأشياء بحكم الإصابة فيكون علمه للأشياء اتفاقاً، فإذا ناله التقوى من المتقي وخدم بين يديه وجعل ذاته بين يديه مستسلماً لما يفعله فيه فيخلع سبحانه عند ذلك من العلم على المتقي، ومن شأن هذا العلم أن يحصل من الله تعالىٰ للعبد بكل وجه من وجوه العطاء حتى يأخذ كل آخذ منه بنصيب، فمنهم من يأخذه من يد الكرم، ومنهم من يأخذه من يد الجود، ومنهم من يأخذه من يد السخاء، ومنهم من يأخذه من يد المنة والطول إلاّ الإيثار فإنه ليس له يد في هذه الحضرة الإلهية إذ كان لا يعطى عن حاجة، لكن الأسماء الإلهية لما كانت تريد ظهور أعيانها في وجود الكون وأحكامها يتخيل أن إعطاءها من حاجة إلى الأخذ عنها فتتنسم من هذا رائحة الإيثار وليس بصحيح، وإنما وقع في ذلك طائفة قد أعمى الله بصيرتهم، ولذلك العارفون اتصفوا بأصناف العطاء في التخلق بالأسماء لا بالإيثار، فإنهم في ذلك أمناء لا يؤثرون، إذ لا يتصور الإيثار الحقيقي لا المجازي عندهم، والعارف لا يقول أعطيتكم وإنما يقول أعطيتك لأنه لا يشترك اثنان في عطاء قط فلهذا يفرد ولا يجمع، فالجمع في ذلك توسع في الخطاب والحقيقة ما ذكرناه، وللكلام في هذا المنزل مجال رحب لا يسعه الوقت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. [السريع]

منازلُ الخَوْض وأسرارِهِ ... مراتبُ العلم وأنوارِهِ
وهو من العلم الذي لم يَزَلْ ... صَفَاؤه شِيْبَ بأكدارِهِ
محلُّه الطبعُ الذي رَتْقُه ... يُلْحِقُه القَعْرُ بأغبارِهِ

الباب السابع والسبعون ومائتان

في معرفة منزل التكذيب والبخل وأسراره من المقام الموسوي

[نظم: البسيط]

العلمُ علمان علمُ الدين في الصُّوَرِ ... الظاهراتِ من الأرواح في البَشَرِ
وعلمُ حقٍّ بتحقيقٍ يؤيِّده ... ما أودَعَ الله في الآيات والسُّوَرِ
من كلِّ ناظرةٍ بالعين ناضرةٍ ... فاللامُ ناظرةٌ بالفاء في خَبَرِ
هذي منازلُ أنوارٍ سُبَاعيةٍ ... الخَمْسُ تَخْنُسُ دون الشمسِ والقَمَرِ
منها ليَظْهَر ما في الغَيْب من عَجَبٍ ... فكلُّ منزلةٍ تسعى على قَدَرِ
إن الصفاتِ التي جاء الكتابُ بها ... تقدَّسَتْ على مَجَال العقل والفِكَرِ
وكيف يُدْرِكُ من لا شيءَ يُشْبِهُهُ ... من يأخذُ العلمَ عن حسٍّ وعن نَظَرِ

فالعلمُ بالله عينُ الجهلِ فيه به — والجهلُ بالله عينُ العلمِ فاعْتَبِرِ
وليس في الكون معلومٌ سواه فما — تقول يا أيها المغلوبُ عن حَصَرِ
إن الظهورَ إذا جاز الحدودَ خَفَا — كذلك الأمرُ فانظُرْ فيه وافْتَكِرِ

اعلم أيّها الوليّ الحميم نوّر الله بصيرتك أن العلم بالجزاء عن نور الإيمان لا عن نور العقل، فإن ارتباط الجزاء بالأعمال في الدنيا والآخرة لا يعلم إلاّ من طريق الإيمان والكشف، فأما تسميتنا إياه علماً أعني علم الإيمان وإن كان عين التصديق بخبر المخبر فمثل هذا لا يكون علماً لزواله لو رجع المخبر عنه تقديراً وحينئذ فله وجهان: الواحد أن المؤمن يجده ضرورة في نفسه لو رام الانفكاك عنه لم يقدر على ذلك فهو عنده من العلوم الضرورية عند كل عقل عنده الإيمان، والوجه الآخر أن الإيمان له نور يكشف به ما وقع الأخبار به، كما يكشف المدلول العقل بالنظر الصحيح في الدليل الشاذ بل أكمل، لأن العقل إن لم يستند في دليله وبرهانه إلى العلوم الضرورية في ذلك وإلاّ فليس ببرهان عنده ولا هو علم. وعلم الإيمان علم ضروري وهو مستند العقل في الحق المطلوب، فالإنسان إذا سئل عن الجزاء من جهة علمه النظري لم يقل إنّه جزاء وإما اقتضت الحركة الفلكية وجود هذه الواقعة في عالم الكون والفساد بحسب القابل لها منه، واتفق أيضاً أنه كان قبل ذلك حركة أخرى اقتضت لهذا القابل من عالم الكون والفساد وجود أمر ما ظهر منه، فنوسب بين الواقعتين الأولى والثانية بأمر عرضيّ أو أمر وضعيّ مقرّر في نفوس العامة، فسمّوا الواقعة الآخرة جزاء للواقعة الأولى لمن قامت به ليس غير ذلك، فما يدرك تلك الرابطة إلاّ أهل الكشف الإلهي وإن أدركها أهل النظر العقلي لأنه قد يدرك الرابطة من كونها فعلاً لا من كونها جزاء، ولا سبيل إلى رفع ذلك جملة واحدة، وأهل الكلام من علماء النظر يجوزون رفعها بنور عقولهم وصدقوا، فإن نور العقل لا يتعدى قوّته فيما يعطيه، ونور الإيمان فوق ذلك يعطي أيضاً بحسب قوّته، وما جعل الله فيه ممّا لا يدركه العقل معرّى عن الشرط، فإن العقل يقول: إن كان سبق العلم به فلا بدّ منه عقلاً، فأدخل الشرط، والإيمان ليس كذلك فإنه عن كشف محقق لا مرية فيه.

ثم إن طائفة من العقلاء الذين ذكرناهم وهي التي أثبتت الفعل ولم تصدق أنه جزاء أنكروا ذلك دنيا وآخرة، فأما دنيا فلما ذكرناه، وأما آخرة فانقسموا في ذلك قسمين: فطائفة منهم أثبتوا الآخرة على وجه يخالف وجه الإيمان وهم الذين أنكروا الإعادة في الأجسام الطبيعية، وطائفة نفت الآخرة جملة واحدة فأحرى الجزاء، فأما الطائفة التي أثبتت الآخرة وأنكرت الجزاء فما أنكرت إلاّ الجزاء الحسيّ من نعيم الجنان وجعلت الجزاء الروحانيّ كون الأرواح لما فارقت تدبير أجسادها وتخلصت من أسر الطبيعة، وكانت في هذه المدة قد اكتسبت من الأخلاق الكريمة والعلوم الإلهية والروحانية هيئة حسنة ألحقتها بالرتبة الملكية، فلما انفصلت عن الطبيعة انفصالاً يسمّى الموت التحقت بالملائكة ودام لها ذلك مؤبداً، فكان ذلك الدوام لها في هذه الرتبة الملكية ثمرة جنتها ممّا حصلته في حال سجنها في تدبير جسمها الطبيعيّ فذلك المسمّى جزاء في الشرع وما ثم غيره، وأهل الإيمان بالله

وما جاء من عنده وهم أصحابنا، وأهل الكشف منا أيضاً الذين عملوا بنور الإيمان قد جمعنا مع هؤلاء فيما ذكروه من الجزاء الروحانيّ للنفوس التعليمية، وانفردنا عنهم بالإعادة في الأجسام الطبيعية على مزاج مخصوص يقتضي لها البقاء في دار الكرامة، والجزاء الحسيّ من اللباس والزينة والأكل والشرب والنكاح ورفع الخبائث من منزل الجنان كالأمور المستقذرة طبعاً، والأرواح النتنة طبعاً وذلك في حال السعداء، وأما في حال الأشقياء فالإعادة أيضاً لهم في الأجساد الطبيعية، ولكن على مزاج يقارب مزاج الدنيا في الذهاب والزوال بالعلل المنضجة للجلود المذهبة لأعيانها وإيجاد غيرها مع بقاء العين المعذبة بذلك، فليست تشبه إعادة الأشقياء إعادة السعداء وإن اشتركا في الإعادة، فمرض الأشقياء في دار الشقاء زمانة مؤبدة إلى غير نهاية مدة أعمارهم التي لا انقضاء لها، كالزمانة التي كانت للزمنى في الدنيا مدة أعمارهم، وتعلم كل طائفة من هؤلاء أن بعض الذي هم فيه جزاء بما كانوا يعملون، وإنما قلنا بالبعض لأن الجنان ثلاث: جنة جزاء العمل، وجنة ميراث وهي التي كان يستحقها المشرك لو آمن، وجنة اختصاص غير هاتين، ولا أدري جنة الاختصاص هل تعمّ أم هي لخصائص من عباد الله، والذين ما عملوا خيراً قط مشروعاً فلهم جنة الميراث، ولا أدري هل لهم جنة اختصاص أم لا كما قلنا. وأما جنة الأعمال المشروعة من كونها مشروعة لا من كونها موجودة فليس لهم فيها نصيب، فإنهم قد يكون منهم من فيه مكارم الأخلاق ولكن لم يعمل بها من كونها مشروعة.

فإذا تقرر ما ذكرناه فاعلم أن الطائفة التي لم يحصل لها الإيمان بعلم الجزاء يحرمون من العلوم الموهوبة قبول كل علم لا يقوم لهم فيه من نفوسهم ميزان من عمل عملوه، فإذا جاءهم الفتح في خلواتهم وسطعت عليهم الأنوار الإلهية بالعلوم المقدسة عن الشوب القادح ينظرون ما كانوا عليه من الأعمال وما كانوا عليه من الاستعداد التعملي، فيأخذون من تلك العلوم قدر ما أعطتهم موازينهم ويقولون: هذا من عند الله، وما لم يدخل لهم في موازينهم من هذه العلوم دفعوا بها، وهذا من أعجب الأمور الإلهية في حق هذه الطائفة أنها غير قائلة بعلم الجزاء، ولا تأخذ من العلوم إلاّ ما أعطتها موازينهم من الأعمال والاستعدادات التعملية، وهذا نقيض ما بني عليه الأمر عند أهل الطريق، وهذا كشف خاص خصّ به أمثالنا لله الحمد على ذلك.

وأما نحن ومن جرى مجرانا من أهل الطريق فلا نرمي بشيء ممّا يرد علينا من ذلك ولا ندفع به جملة واحدة سواء اقتضاه عملنا واستعدادنا التعمّلي أو لم يقتضه، فإن الاقتضاء غير لازم عندنا في كل شيء بل أوجد الله ما يريد في أي محل يريد، ولو نوّر الله بصائر هذه الطائفة التي ذكرناها لرأت واتعظت بحالها فإنها لا تصدق بالجزاء ولا تقبل من العلوم إلاّ ما أعطاه ميزان الجزاء من نفوسهم وهم لا يشعرون وهو موضع حيرة، كما أنا لا نرمي أيضاً بشيء ممّا أعطانا الله على يد واسطة مذمومة كانت تلك الواسطة أو محمودة كما فعل سليمان

عليه السلام، أو بارتفاع الوسائط سواء كان ذلك منهياً عنه أو مأموراً به، فإن الله قد أعطانا من القوّة وعلم السياسة بحيث نعلم كيف نأخذ، وإذا أخذنا كيف نتصرف به وفيه وفي أي محل نتصرف به، وهذا مخصوص بأهل السماع من الحق دائماً وهو طريقنا وعليه عمل أكابرنا، ويحتاج إلى علم وافر وعقل حاضر ومشاهدة دائمة وعين لا تقبل النوم ولا تعرفه، وتتحقق بذلك تحقيقاً يسري معها حساً وفي حال نومها خيالاً وفي حال فنائها وغيبتها تحققاً، وهو مقام عزيز مخصوص بالأفراد منا، وعلم الأنبياء أكثره من هذه العلوم التي ليس لها مستند، ولهذا كانت النبوّة اختصاصاً من الله لا بعمل ولا بتعمّل، ونحن ورثنا هذا المقام من عين المنة، فحصلنا من العلوم التي لا مستند لها يطلبها ما عدا النبوّة كثيراً تعرفها أسرارنا دون نفوسنا فلذلك لا يظهر علينا منها شيء فإنه لا تعلّق لها بالكون.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٦ ـ ٨] فاختلف أصحابنا في هذه الأحوال الثلاثة وما يشبهها هل هي استعدادات لما حصل من الإيواء والهدى والغنى أم ليست استعداداً؟ ومنا من قال: لا يكون استعداد إلاّ عن تعمّل فيه وهم الأكثرون، ومنهم من قال الاستعداد من أهل لتحصيل أمر ما سواء كان عن تعمّل أو غير تعمّل، فالخلاف لفظيّ وهو الخلاف الذي ينسب إلى أهل هذه الطريقة، وقد يكون الاستعداد معلوماً للشخص الذي هو صاحبه أنه استعداد وقد لا يكون، والتحقيق في ذلك ما نذكره، وذلك أن حقيقة الاستعداد ما هو الطلب أن يكون معداً لأمر ما عظيم من الله يحصل له فهذا يسمّى تعمّلاً لأنه استفعال مثل استخراج واستطلاق واسترسال، وأما كونه معدّاً لما حصل له فلا بدّ أن يكون في نفسه على ذلك لا بجعل جاعل وأخفاه العدم الممكن والعدم المحال، فلولا أن العدم الممكن هو معد في نفسه لقبول أثر المرجح ما كان له الترجيح إلى أحد الجانبين في وقت وترجيح الجانب الآخر في وقت آخر، والعدم المحال لولا ما هو في نفسه معد لعدم قبول ما يضادّ ما هو عليه في نفسه لقبله، وكذلك من ثبت له الوجوب الوجوديّ لذاته، فهذا تحقيق المسألة في الاستعداد، والفرق بينه وبين الإعداد والإعداد لا بدّ منه، وجوديّ وعدميّ ولا وجوديّ ولا عدميّ كالنسب، فهذا الفصل من هذا المنزل قد استوفيناه، وبقي من فصوله ما نذكره وذلك معرفة العلم الذي يطلبه الفقير بافتقاره ومسكنته ما هو وإذا حصل هل يقع له به الغنى أم لا؟ وهل إلى ذلك طريقة معلومة لقوم أم لا؟ وهل العالمون بها يتعين عليهم أن يحرضوا الناس على سلوكها أم لا؟.

فاعلم أن الافتقار في كل ما سوى الله أمر ذاتي لا يمكن الانفكاك عنه ذوقاً وعلماً صحيحاً إلاّ أنه تختلف مقاصده في تعيين ما يفتقر إليه هذا الفقير وما هو المعنى الذي يفتقر إليه فيه. فاعلم أن الفقر والمسكنة لما ثبت في العلم أنها صفة ذاتية كان متعلقها الذي افتقرت فيه طلبها استمرار كونها واستمرار النعيم لها على أكمل الوجوه بحيث أنه لا يتخلله النقيض، فأهل هذه الطريقة لم يروا ذلك حالاً وعقداً إلاّ من الله تعالىٰ، فافتقروا إليه في ذلك دون غيره

سبحانه، ولا يصحّ الافتقار لهم إليه في وجودهم لأنهم موجودون، وإنما كان ذلك الافتقار منهم لوجودهم في حال عدمهم فلهذا أوجدهم، فمتعلق الإفتقار أبداً إنما هو العدم ليوجده لهم إذ بيده إيجاد ذلك، وأما غيرنا فرأوا ذلك من الله عقداً لا حالاً وهم المسلمون الأكثرون عالمهم وجاهلهم، ومن الناس من يرى ذلك أصلاً لا عقداً أو لا حالاً وهم القائلون بالعلل والمعلولات وهم أبعد الطوائف من الله، ومن الناس من لا يرى ذلك من الله لا أصلاً ولا عقداً ولا حالاً وهم المعطلة. وما من طائفة ممّا ذكرنا إلاّ وتجد الافتقار من ذاتها، ومن المحال أن يقع الغنى من الله لأحد من هؤلاء الطوائف على الإطلاق أبداً، ولكن قد يقع لهم الغنى المقيد دائماً لا ينفكون عنه.

وأما فرض الطريق إليه فهو ذاتي أيضاً من حيث هو طريق، وإنما الذي يتعلق به الاكتساب سلوك خاص في هذا الطريق لمن يفتقر إليه، وإذا كان السلوك بهذه المثابة تعين التحريض عليه وتبيينه لمن جهله، فمن عدل عن تبيينه لمن يستحقه وهو عالم به فهو صاحب حرمان وخذلان، وقد نبّه عليه السلام على مرتبة من مراتب ذلك بقوله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَام مِنْ نَارٍ**» والسؤال قد يكون لفظاً وحالاً، والمسؤول عنه الذي تعلّق به الوعيد لا بدّ أن يكونَ واجباً عليه السؤال عنه، فلا بدّ أن يجب على العالم الجواب عنه وسؤالات الافتقار كلها بهذه المثابة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] ففي هذا الخطاب تسمية الله بكل اسم هو لمن يفتقر إليه فيما يفتقر إليه فيه وهو من باب الغيرة الإلهيّة حتى لا يفتقر إلى غيره والشرف فيه إلى العالم بذلك، وفي هذا الخطاب هجاء للناس حيث لم يعرفوا ذلك إلاّ بعد التعريف الإلهيّ في الخطاب الشرعي على ألسنة الرسل عليهم السلام، ومع هذا أنكر ذلك خلق كثير وخصّوه بأمور معينة يفتقر إليه فيها لا في كل الأمور من اللوازم التابعة للوجود التي تعرض مع الآنات للخلق، وكان ينبغي لنا لو كنا متحققين بفهم هذه الآية أن نبكي بدل الدموع دماً حيث جهلنا هذا الأمر من نفوسنا إلى أن وقع به التعريف الإلهيّ، فكيف حال من أنكره وتأوّله وخصّصه؟ فهذا قد بينا نبذة من الفصل الثاني المتعلق بهذا المنزل.

وأما الفصل الثالث من فصول هذا المنزل فاعلم أن الله تعالىٰ قد عرف عباده أن له حضرات معينة لأمور دعاهم إلى طلب دخولها وتحصيلها منه وجعلهم فقراء إليها، فمن الناس من قبلها ومن الناس من ردّها جهلاً بها، فمنها حضرة المشاهدة وهي على منازل مختلفة وإن عمتها حضرة واحدة، فمنهم من يشهده في الأشياء، ومنهم قبلها، ومنهم بعدها، ومنهم معها، ومنهم من يشهده عينها على اختلاف مقامات كثيرة فيها يعلمها أهل طريق الله أصحاب الذوق والشرب، ومنها حضرة المكالمة، ومنها حضرة الكلام، ومنها حضرة السماع، ومنها حضرة التعليم، ومنها حضرة التكوين وغير ذلك، فإنها كثيرة لا يتسع هذا التصنيف لذكرها، فحضرة المكالمة من خصائص هذا المنزل، فمن عدل عنها فقد حرم ما يتضمنه من المعارف

الإلهية والالتذاذ بالمحادثة الربانية، وكان ممّن قيل فيه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على حسب التجلي ﴿مُّحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥] وهي طائفة معينة، وأخرى ﴿ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢] فأهل طريقنا لم يشتغلوا عند ورود هذا الكلام بما يلهيهم عمّا يتضمنه من الفوائد، فإن اقتضى جواباً أجابوا ربهم، وإن اقتضى غير ذلك بادروا إلى فعل ما يقتضيه ذلك الخطاب، وهم يسارقون النظر في تلك الحالة إلى المتكلم لتقرّ أعينهم بذلك كما تنعمت نفوسهم من حيث السماع، غير أنهم لا يتحققون بالنظر في هذه الحال لمعرفتهم بأن مراد الحق فيهم الفهم عنه فيما يكلمهم به فيخافون من النظر مع شوقهم أن يفنيهم عن الذي طولبوا به من الفهم، فيكونون ممّن آثروا حظوظ نفوسهم على ما أراده الحق منهم، فهم في كلا الحالين عبيد فقراء، غير أن الأدب في كل حضرة من هذه الحضرات الوفاء بما تستحقه الحضرة التي يقام العبد فيها، ولمطلوبه حضرة أخرى هي غير هذه فلا يستعجل فيحرم ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] ينوب عنه في الكلام وهو الترجمان، قال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] يريد على لسان الترجمان الذي هو رسول الله ﷺ، فسمعت بعض الشيوخ يقول: ما دام في بشريته فالكلام له من وراء حجاب، ولكن إذا خرج عن بشريته ارتفع الحجاب، وهذا الشيخ هو عبد العزيز بن أبي بكر المهدوي المعروف بابن الكره سمعته منه بمنزله بتونس رحمه الله فأصاب فيه وأخطأ، فأما إصابته فإثباته وتقريره للكلام من وراء الحجاب وأنه لم يجمع بينه وبين المشاهدة، وأما خطؤه فقوله: ارتفع الحجاب ولم يقيد وإنما يقال: ارتفع حجاب بشريته، ولا شك أن خلف حجاب بشريته حجباً أخر، فقد يرتفع حجاب البشرية ويقع الكلام من الله لهذا العبد خلف حجاب آخر أعلاها من الحجب وأقربها إلى الله وأبعدها من المخلوق المظاهر الإلهية التي يقع فيها التجلي إذا كانت محدودة معتادة المشاهدة، كظهور الملك في صورة رجل فيكلمه على الاعتدال للعادة والحدّ وقد تجلّى له وقد سدّ الأفق فغشي عليه لعدم المعتاد وإن وجد الحدّ فكيف بمن لم ير حدّاً ولا اعتاد، فقد تكون المظاهر غير محدودة ولا معتادة، وقد تكون محدودة لا معتادة، وقد تكون محدودة معتادة وتختلف أحوال المشاهدين في كل حضرة منها، فمن عدل عن حضرة المكالمة فقد لحق بأهل الخسران وإن سعد ولكن بعد شقاء عظيم، وأن من الناس من أصحاب الدعاوي في هذه الطريقة الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٠] حين أفلح من زكّاها فيزعمون أنهم يكلمون الله في خلقه ويسمعون منه في خلقه، وهو في نفسه مع نفسه ما عنده خبر من ربه لأنه لا يعرفه ولا يعرف كيف يسمع منه ولا ما يسمع منه. فأصحاب الدعاوى في هذه الطريقة كالمنافقين في المسلمين فإنهم شاركوهم في الصورة الظاهرة وبانوا بالبواطن فهم معهم لا معه ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٩] وهو والله من عنده، ولكن من غير الوجه الذي يزعمون، ولهذا شقوا بما قالوه وإن كانوا لا يعتقدونه، وسعد الآخر بقوله: إنه من عند الله

واعتقاده ذلك على غير الوجه الذي يعطي الشقاء، فالقول واحد والحكم مختلف، فسبحان من أخفى علمه عن قوم وأطلع عليه آخرين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] ولا يكون الأمر إلاّ هكذا فإنه هكذا وقع ولا يقع إلاّ ما علم أنه يقع كذا فإنه في نفس الأمر كذا لا يجوز خلافه، وهنا عقدة لا يحلها إلاّ الكشف الاختصاصيّ لا تحلها العبارة.

وإذا فهمت هذا فاعلم أنه من آخر فصول هذا المنزل التعاون على البرّ والتقوى فإنه يكون عنه علم شريف يتعلق بمعرفة الأسباب الموضوعة في العالم، وإن رفعها عيناً لا يصحّ إذا كان السبب علة، فإن لم يكن علة فقد يصحّ رفع عينه مع بقاء لازمه لكن لا من حيث هو لازم له بل من حيث عين اللازم، فهو لما هو لازم له على الطريقة المختصة لا يرتفع وهو من حيث عينه وإن كان لازماً لغيره فيكون أثره لعينه فيوجد حكمه لعينه، ففي الأسباب التي ترفع ويوجد اللازم يفعل لعينه كالغذاء المعتاد على الطريقة المختصة به يلازمه الشبع بالأكل منه، وقد يكون الشبع من غير غذاء ولا أكل، ومثل السبب العليّ وجود اتصاف الذات بكونها شابعة لوجود الشبع، فلو رفعت الشبع ارتفع كونه شابعاً، فمن الأسباب ما يصحّ رفعها وما لا يصحّ، وتقرير الكل في مكانه وعلى حدّه على ما قرّره واضعه هو الأولى بالأكابر، وينفصلون عن العامة بالاعتماد، فلا اعتماد للأكابر في شيء من الأشياء إذا وصفوا بالاعتماد إلاّ على الله، فمن منع وجود الأسباب فقد منع ما قرّر الحق وجوده فيلحق به الذمّ عند الطائفة العالية وهو نقص في المقام، كمال في الحال، محمود في السلوك، مذموم في الغاية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الألفة وأسراره من المقام الموسوي والمحمدي

[نظم: الرمل]

مــنــزلُ الألْــفَــة لا يــدخــلــهُ غــيــرُ مــوجــودٍ عــلــى صــورتــهِ
فــتــراهُ عــنــدمــا تُــبْــصــرهُ نــازلاً فــيــه عــلــى سُــورتــهِ
حــاكــمــاً فــيــه بــمــا يَــعْــلــمُــهُ جــاريــاً فــيــه عــلــى سِــيــرَتــهِ
فــاصــطــفــاه الــحــقُّ مــرآةً لــه فــلــهــذا زاد فــي سَــوْرتــهِ
فــنــهــاه الله إعــلامــاً لــه أن ذاك الــنَّــهْــيَ مــن غَــيْــرَتــهِ
عــنــدمــا حــجَّــرَ مــا كــان لــه مُــطــلــقــاً نُــزِّه عــن حَــيْــرَتــهِ
أكــل الــمَــنْــهــيَّ عــنــه فــبَــدَتْ رتــبــةُ الأكْــل فــي عَــوْرتــهِ
فــدرى حــيــن رآهــا أنــهــا زَلَّــةٌ جــاءتــه مــن جِــيْــرَتــهِ

لا يتآلف اثنان إلاّ لمناسبة بينهما، فمنزل الألفة هي النسبة الجامعة بين الحق والخلق، وهي الصورة التي خلق عليها الإنسان، ولذلك لم يدع أحد من خلق الله الألوهية إلاّ الإنسان ومن سواه ادّعيت فيه وما ادّعاها، قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] وما في

الخلق من يملك سوى الإنسان، وما سوى الإنسان من ملك وغيره لا يملك شيئاً يقول تعالىٰ في إثبات الملك للإنسان: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٣] وما ثم موجود من يقرّ له بالعبودية إلاّ الإنسان فيقال: هذا عبد فلان، ولهذا شرع الله له العتق ورغبه فيه وجعل له ولاء العبد المعتق إذا مات عن غير وارث، كما أن الورث لله من عباده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [سورة مريم: الآية ٤٠] وما ثم موجود يقبل التسمية بجميع الأسماء الإلهية إلاّ الإنسان وقد ندب إلى التخلّق بها، ولهذا أعطى الخلافة والنيابة وعلّم الأسماء كلها، وكان آخر نشأة في العالم جامعة لحقائق العالم ممّا اختصّ الله بها ملكه كله وصورته، ومن نشأته أيضاً الطبيعية القائمة من الأربع الطبائع مع القوّة الناطقة التي اختصّ بها في طبيعته دون غيره ممّا خلق من الطبيعة كالصورة الإلهية القائمة على أربع الذي لا يعطي الدليل العقليّ غيرها وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة، فبهذه صحّ إيجاد العالم له وكان هو إلهاً بها، إذ لو جرّد عن هذه النسب لما كان إلهاً للعالم، وهو المثل المقرر في القرآن الذي لا يماثل في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] أي ليس مثل مثله شيء، فأثبت المثلية له بالإنسان تنزيهاً له تعالىٰ، أي إذا كان المثل المفروض لا يماثل فهو تعالىٰ أبعد وأنزه أن يماثل. وفي السنّة خلق آدم على صورته ونفى بهذه الآية أن يماثل هذ المثل وجعل له غيباً وشهادة.

ولما كان الإنسان بهذه المثابة كانت الألفة بينه وبين ربه فأحبه وأحبه، ولهذا ورد أن السماء والأرض يعني العلو والسفل ما وسعه ووسعه قلب العبد المؤمن التقيّ الورع، وهذا من صفة الإنسان لا من صفة الملك هذا وإن شورك الإنسان في كل ما ذكرناه إلاّ أن الإنسان امتاز عن الكل بالمجموع وبالصورة فاعلم هذا فلا تصحّ العبودية المحضة التي لا يشوبها ربوبية أصلاً إلاّ للإنسان الكامل وحده، ولا تصحّ ربوبية أصلاً لا تشوبها عبودة بوجه من الوجوه إلاّ لله تعالىٰ، فالإنسان على صورة الحق من التنزيه والتقديس عن الشوب في حقيقته فهو المألوه المطلق، والحق سبحانه هو الإله المطلق، وأعني بهذا كله الإنسان الكامل، وما ينفصل الإنسان الكامل عن غير الكامل إلاّ برقيقة واحدة وهي أن لا يشوب عبوديته ربوبية أصلاً. ولما كان للإنسان الكامل هذا المنصب العالي كان العين المقصودة من العالم وحده، وظهر هذا الكمال في آدم عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] فأكدها بالكل وهي لفظة تقتضي الإحاطة، فشهد له الحق بذلك كما ظهر هذا الكمال في محمد ﷺ أيضاً بقوله: «**فَعَلِمْتُ عِلمَ الأوّلين وَالآخِرينَ**» فدخل علم آدم في علمه فإنه من الأوّلين، وما جاء بالآخرين إلاّ لرفع الاحتمال الواقع عند السامع إذا لم يعرف ما أشرنا إليه من ذلك وهو ﷺ أنه قد أوتي جوامع الكلم بشهادته لنفسه.

واختلف أصحابنا في أيّ المقامين أعلى من شهد له الحق أو من شهد لنفسه بالحق كيحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، فأما مذهبنا في ذلك فإن الشاهد لنفسه الصادق في شهادته أتمّ وأعلى وأحق لأنه ما شهد لنفسه إلاّ عن ذوق محقق بكماله، فيما شهد لنفسه به مرتفعة شهادته

تلك عن الاحتمال في الحال، فقد فضل على من شهد له برفع الاحتمال والذوق المحقق فهذا المقام أعلى، وليس من شأن المنصف الأديب العالم بطريق الله أن يتكلم في تفاضل الرجال وإن علم ذلك فيمنعه الأدب فلهذا قلنا الأديب وإنما يتكلم في تفاضل المقامات فيخرج عن العهدة في ذلك ويسلم له الحال عن المطالبة فيه، إذ كانت المقامات ليس لها طلب وكان الطلب للموصوفين بها، فالأديب حاله ما ذكرناه.

وهذا الذي ذكرناه كله يشهده من حصل في هذا المنزل وله من الحروف ألفة اللام بالألف وهو أوّل حرف مركب من الحروف فوحده الشكل فلم يعرف الألف من اللام فألحق بالمفردات فكأنهما حرف واحد لما تعذر الانفصال ولم يتميز شكل اللام فيه من شكل الألف فلم يدركه البصر. فإن قيل: إن السمع يدركه بقوله لا، فليعلم أن اللام تحتمل الحركة والألف لا تحتمل الحركة فلم يتمكن النطق بالألف فينطق باللام مشبعة الحركة لظهور الألف ليعلم أنه أراد لام الألف لا لام غيره من الحروف حتى يرقمه الراقم على صورته الخاصة به، فلا تمتاز الألف من اللام لتمكن الألفة، كذلك الإنسان إذا كان الحق سمعه وبصره كما ورد في الخبر يرتبط بالحق ارتباط اللام بالألف ولهذا تقدّم في حروف شهادة التوحيد في لفظة لا إله إلاّ الله فنفى بحرف الألفة ألوهة كل إله أثبته الجاهل المشرك لغير الله فنفى ذلك بحرف يتضمن العبد والرب فإنه يتضمن مدلول اللام والألف كما قال عليه السلام: «**آمَنْتُ بِهٰذا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**» فشركهما معه بنفسه في الإيمان ولم يكونا حاضرين أو كانا فناب عنهما، فلما شهد الحق لنفسه بالتوحيد شهد عنه وعن عبده بذلك فأتى بحرف لام ألف، ولهذا سمّي لام ألف، ولم يقل لام الألف بالتعريف فسمّى باسم الحرفين لئلا يتخيل السامع إذا جاء به معرفاً أنه أراد الإضافة وما أراد هذا الحرف المعين، فجرى مجرى رام هرمز وبعلبك ولم يجر مجرى عبد الله وعبد الرحمن، ولهذا اختلف في موضع الإعراب من بعلبك ورام هرمز وبلال أباد، ولم يختلف في موضع الإعراب من عبد الله وعبد الرحمن لأن المسمّى بذلك قصد به الإضافة ولا بدّ، فمن أجرى هذه الأسماء مجرى الاسم المضاف جعل محل الإعراب آخر الاسم الأوّل، ومن أجراه مجرى زيد جعل محل الإعراب آخر الاسم الثاني، كذلك وقع الاختلاف في حرف لام ألف إذا وقع في الخط في تعيين أيّ فخذ من هذا الحرف هو اللام وأي فخذ هو الألف، واختلفت مراعاة الناس في ذلك، فمن قاس الخط على اللفظ كان اللام عنده الذي يبتدىء به الكاتب سواء كان الفخذ المتقدم في الترتيب أو المتأخر، ومن لم يحمله على النطق به بقي على الخلاف وجعل له التخيير في ذلك، فيجعل أيّ شيء أراد اللام من الفخذين وأيّ شيء أراد الألف، إذ كان كل واحد منهما على صورة الآخر للالتفاف الذي أخرج اللام عن حقيقته كذلك الإنسان الكامل والحق في الصورة التي تنزلت منزلة الالتفاف، فإن نسبت الفعل إلى قدرة العبد كان لذلك وجه في الإخبار الإلهيّ، وإن نسبت الفعل إلى الله كان لذلك وجه في الإخبار الإلهيّ.

وأما الأدلة العقلية فقد تعارضت عند العقلاء، وإن كانت غير متعارضة في نفس الأمر،

ولكن عسر وتعذر على العقلاء تمييز الدليل من الشبهة، وكذلك في الإخبار الإلهيّ يتعذر، وكذلك في حقيقة العبد يتعذر لتعلق الأمر به، فلا يؤمر إلاً من له قدرة على فعل ما يؤمر به وتمكن من ترك ما ينهى عنه فيعسر نفي الفعل عن المكلف الذي هو العبد لارتفاع حكمة الخطاب في ذلك، والإخبار الآخر والوجه الآخر العقلي يعطي أن الفعل المنسوب إلى العبد إنما هو لله فقد تعارضا خبراً وعقلاً، وهذا موضع الحيرة وسبب وقوع الخلاف في هذه المسألة بين العقلاء في نظرهم في أدلتهم وبين أهل الأخبار في أدلتهم، ولا يعرف ذلك إلاً أهل الكشف خاصة من أهل الله، وكون الإنسان على الصورة يطلب وجود الفعل له والتكليف يؤيده والحسّ يشهد له فهو أقوى في الدلالة، ولا يقدح فيه رجوع كل ذلك إلى الله بحكم الأصل فإنه لا ينافي هذا التقرير. ولهذا ضعفت حجة القائلين بالكسب لا من كونهم قالوا بالكسب فإن هؤلاء أيضاً يقولون به لأنه خبر شرعيّ وأمر عقليّ يعلمه الإنسان من نفسه، وإنما تضعف حجتهم في نفيهم الأثر عن القدرة الحادثة.

وبعد أن علمت هذا الفصل من منزل الألفة فلنشرع فيما يرجع إلى تحقيقه في غير هذا النمط ممّا يتضمنه على جهة الإفصاح عنه. فاعلم أن هذا المنزل هو منزل سفر الأبدال السبعة المجتمعين المتألفين مع القبض الذي هم عليه بعضهم عن بعض، وإنكار بعضهم على بعض مع وجود الصفاء فيما بينهم، ولهم سفران في باب المعرفة: سفر منهم إلى الإله في مظاهره، وسفر آخر منهم أيضاً إلى الذات، فسفرهم إلى الإله من ربوبيتهم، وسفرهم إلى الذات من ذواتهم، فإذا أرادوا السفر إلى الذات قصدوا اليمن، وإذا أرادوا السفر إلى الإله قصدوا الشام وبلاد الشمال، وأي جهة قصدوا فإنّ استعدادهم على السواء في القدر الذي يحتاجون إليه، وإن تنوّع فإن الأغذية تتنوّع بتنوّع الجهات، فلا يؤخذ من الزاد إلى كل جهة إلاً ما يصلح مزاج المسافر إلى تلك الجهة لئلا يحول بينه وبين مقصده مرض للأهواء المختلفة في الجهات وأثرها في المزاج، فلا بدّ أن يختلف الاستعداد، على أن إقامتهم قليلة في السفرين ويعودون إلى مواطنهم، فإذا قصدوا اليمن لم يقيموا فيه سوى أربعة وعشرين يوماً يحصلون فيها مرادهم ويرجعون إلى سنة أخرى، وإذا قصدوا الشمال لم يقيموا فيه إلا ستة أيام يحصلون فيها مرادهم ويرجعون إلى سنة أخرى وسفرهم روحانيّ لا جسمانيّ.

فأما العلوم التي يستفيدونها في سفرهم إلى اليمن فعلوم الاصطلام وعلم السبحات من وراء الحجب علم ذوق. وأما العلوم التي يستفيدونها في سفرهم إلى الشمال فعلوم زيادات اليقين بما يتجلى لهم، وعلم العبودية والقبض وما تنتجه الخلوات علم ذوق، وموطنهم الذي يستقرّون فيه مكة، فإن التنزّل في روحانيتها أتمّ التنزّل لأنها كما قال تعالى: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٢] وقال: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٧] فعمّ وقال فيه: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [سورة القصص: الآية ٥٧] فما أضافه إلى غيره فهي علوم وهب تحيا بها أرواحهم ولم يقل ذلك في غير مكة، ولا تحصل هذه العلوم التي أشرنا إليها إلاً لمن كان حاله الذلة والافتقار، ومقامه الجلال والقبض والهيبة والخوف، فإذا كانت أوصاف العبد ما ذكرناه منحه

الله العزّة والغنى في حاله والجمال والبسط والأنس به، والرجاء في غيره لا في نفسه، فإنه في حق نفسه من ربه في أمان لأنه قد بشر كما قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وبشارة الحق حق لا يدخلها نسخ فيؤمن بوجودها المكر ولكن إذا كان نصاً، وفي هذا المنزل ذوق عجيب لا يكون في غيره، وهو أنه إذا كنت في حال من الأحوال فإن الحق يهبك في تلك الحال علماً من ذلك الحال لا تخرج عنه مثل الذي ينتقل من العلم بالشيء إلى معاينة ذلك الشيء فلم يحصل له إلاّ مزيد وضوح في عين واحدة، كذلك هذا المنزل وهو منزل منه يعلم الجمع بين الضدين وهو وجود الضد في عين ضده، وهذا العلم أقوى علم تعلم به الوحدانية لأنه يشاهد حالاً لا يمكن أن يجهله إنّ عين الضد هو بنفسه عين ضده، فيدرك الأحدية في الكثرة لا على طريقة أصحاب العدد فإن تلك طريقة متوهمة، وهذا علم مشهود محقق.

وممّن تبرز في هذا المنزل المبارك أبو سعيد الخراز من المتقدمين، وكنت أسمع ذلك عنه حتى دخلته بنفسي وحصل لي ما حصل فعرفت أنه الحق وأن الناس في إنكارهم ذلك على حق فإنهم ينكرونه عقلاً، وليس في قوّة العقل من حيث نظره أكثر من هذا، ومن أعطى ما في وسعه من حيث ما تقتضيه تلك الجهة فقد وفى الأمر حقه، وهذا الذي استقر عليه قدمنا وثبت، فلا ننكر على مدع ما يدعيه إلاّ الإنكار الذي أمرنا به فننكره شرعاً، وهذا الإنكار حقيقة أيضاً لا نشهد إلاّ هيئة يجب الإنكار بها وفيها كما أنكرنا ذلك عقلاً، فللشرع قوّة لا يتعدّى بها ما تعطيه حقيقتها كما فعلنا في العقل، وللذوق قوّة نعاملها به أيضاً كما عاملنا سائر ما نسب إليه القوىٰ بحسب قوّته فنحن مع الوقت، فننكر مع العقل ما ينكره العقل لأنّ وقتنا العقل، ولا ننكره كشفاً ولا شرعاً وننكر مع الشرع ما ينكره الشرع لأن وقتنا الشرع، ولا ننكره كشفاً ولا عقلاً. وأما الكشف فلا ينكر شيئاً بل يقرر كل شيء في رتبته، فمن كان وقته الكشف أنكر عليه ولم ينكر هو على أحد، ومن كان وقته العقل أنكر وأنكر عليه، ومن كان وقته الشرع أنكر وأنكر عليه فاعلم ذلك.

واعلم أن لهذا المنزل حالاً لا يكون لغيره وهو أنه يعطي تحصيل هوية الأسماء الإلهية وهذا خلاف ما تعطيه حقيقة الهو، فإن الهو من حقيقته أنه لا يتحصل ولا يشاهد أبداً إلاّ في هذا المشهد والمنزل، فإن عين الظاهر فيه هو بنفسه عين الباطن، غير أن هوية الحق لا تدخل في هذا المنزل، وإنما قلنا ذلك في هوية الأسماء الإلهية من كون هويتها لا من أنانيتها. واعلم أن هذا المنزل إذا دخلته تجتمع فيه مع جماعة من الرسل صلوات الله عليهم فتستفيد من ذوقهم الخاص بهم علوماً لم تكن عندك فتكون لك كشفاً كما كانت لهم ذوقاً، فيحصل لك منهم علم الأدلة والعلامات، فلا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء إذا تجلى لك إلاّ تميزه وتعرفه حين يجهله غيرك ممّن لم يحصل في هذا المنزل وهو علم كشف لأنك تشهده بالعلامة لا تراه من نفسك لأنه ليس بذوق لك، ويحصل لك منهم علم القدم وهو علم عزيز به يكون ثباتك على ما يحصل لك من الأسرار والعلوم بعد انفصالك عن الحضرات التي يحصل لك فيها ما يحصل من العلم والأسرار، فكثير من الناس من نسي ما شاهده، فإذا

حصل له هذا العلم من هذا النبي يثبت فيه ثبات الأنبياء، ويحصل لك منهم أيضاً علم الشرائع في العالم ومن أين مأخذها وكيف أخذت؟ ولماذا اختلفت في بعض الأحكام؟ وفي ماذا اتفقت واجتمعت؟ حتى أن صاحب هذا الكشف لو لم يكن مؤيداً في كشفه لادّعى النبوّة، ولكن الله أيّد أولياءه وعصمهم عن الغلط في دعوى ما ليس لهم لخروجهم عن حظوظ نفوسهم عند الخلق، لكنهم لا يخرجون عن حظوظها عند الحق، ولا يصحّ أن يطلب الحق للحق وإنما يطلب للحظ، فإن فائدة الطلب التحصيل للمطلوب والحق لا يحصل لأحد فلا يصحّ أن يكون مطلوباً لعالم فلم يبق إلاَّ الحظ، ومن هذا العلم يداوى العشاق إذا أفرطت فيهم المحبة، من هذه الحضرة يستخرج لهم دواء الراحة ممّا هم فيه من العذاب الذي يعطيه العشق من القلق والكمد والانزعاج، ويحصل من مشاهدة هؤلاء الأنبياء أيضاً علم ما يحتاج إليه نواب الحق في عباده من الرحمة والقهر والشدة واللين، وما يعاملون به الخلق، وما يعاملون به أنفسهم إذا كانوا نوّاباً فيستفيد هذا كله وإن لم يحصل له درجة النيابة في العامّة، ولكنه نائب الله في عالمه الخاص به الذي هو نفسه وأهله وولده إن كان ذا أهل وولد، ويحصل له منهم السرّ الذي به يحيى الجاهل من موت جهله وما يحيي الله به الموتى فإنه راجع إلى منزل الألفة لأن الحياة للشيء إنما تكون لتألفها به ونظرها إليه من اسمه الحيّ الذي ليس عن تأليف، ويحصل أيضاً علم الخلق التام في قوله «مخلقة» ولا يحصل له في هذا المنزل علم غير المخلقة، وإنما يحصل ذلك لمن حصل من منزل آخر.

وفي هذا المنزل يعلم من هؤلاء الأنبياء العلم التصورّي وهو العلم بالمفردات التي لم تتركب، ومن هذا المنزل تلبس المعاني الصور فيصور المسائل العالم في نفسه ثم يبرزها إلى المتعلمين في أحسن صورة وهي المخلقة، فإن أخطأ فمن غير هذا المنزل، ومن هذا المنزل يعلم سبب العشق الحاصل في العاشق ما هو وما الرابطة بين العاشق والمعشوق حتى التفّ به على الاختصاص دون غيره، ولماذا يراه في عينه أجمل ممّن هو أجمل منه في علمه؟ ولماذا يكون تحت سلطان المعشوق وإن كان عبده؟ ولماذا ينتقل الحكم على السيد للعبد إذا كان معشوقاً له فيكون تحت أمره ونهيه لا يقدر في نفسه أن يتصور مخالفته فيما يأمره به عبده، وكيف انتقلت السيادة إليه وانتقلت العبودية إلى الآخر السيد ظاهرة الحكم بالتصرّف فيه؟ ولماذا يتخيل أنه يراه أعظم عنده من نفسه وأن سعادته في عبوديته وذلّته بين يديه مع أنه يحب الرياسة بالطبع؟ ولماذا أثر في طبعه؟ وتتبين له قوّة الأرواح على الطبع وأن العشق روحانيّ فردّه إلى ما تقتضيه حقيقة الروح، فإن الروح لا رياسة عنده في نفسه ولا يقبل الوصف بها، ويعلم هل ينقسم العشق إلى طبع وروح أو هو من خصائص الروح؟ أو هو من خصائص الطبع لوجوده من الحيوان والنبات؟ ويعلم لماذا كان العشق من الإنسان لجارية أو غلام بحيث أن يفنى فيه ويكون بهذه المثابة التي ذكرناها، ولا يستفرغ هذا الاستفراغ في حب من ليس بإنسان من ذهب وفضة وعقار وعروض وغير ذلك وهو علم شريف، ولماذا يستفرغ مثل هذا الاستفراغ في محبة الحق وحده دون ما ذكرناه ويعلم هل محبته للحق جزئية أم كلية؟ ومعنى

ذلك أنه هل أحبه بكله من حيث طبعه وروحه أو من حيث روحه فقط؟ لأن الحب الطبيعيّ لا يليق أن يتعلق من المحب بذلك الجناب، وهل لذلك الجناب مظهر يمكن أن يتعلق به الحب الطبيعيّ أم لا؟ كل ذلك من خصائص علم هذا المنزل، وممّا يستفيد من علوم هذا المنزل علم الزمان ولماذا يرجع؟ هل لأمر وجوديّ أو لأمر عدميّ؟ وهل الليل والنهار زمان أو دليل على أن ثم زماناً، وهل حدث الليل والنهار في زمان، ومن هذا المنزل يعلم ترتيب الهياكل الموضوعة لاستنزال الأرواح وصورها وأشكالها وبنائها وما ينقش عليها وما ينفعل عنها وكم مدتها بعد معرفته هل لها مدة أم لا؟ ويعلم علم الحروف والنجوم من حيث خصائصها وطبائعها وتأثيراتها التي فطرها الله عليها وفيمن تؤثر وبماذا تحتجب عن تأثيرها؟ وإذا قيدت بماذا يطلق من قيدته عن تقييدها، وإذا أطلق بماذا يقيد من إطلاقه، ويعلم من هذا المنزل ما أردناه بقولنا: [البسيط]

الحقُّ ما بين مجهولٍ ومَعْروفِ ... فالناسُ ما بين مَتْروكٍ ومَألوفِ

والشَّأنُ ما بين وصَّافٍ ومَوْصوفِ ... فالحالُ ما بين مَقْبولٍ ومَضْروفِ

فهذا بعض ما يحويه هذا المنزل وهو كثير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والسبعون ومائتان

في معرفة منزل الاعتبار وأسراره من المقام المحمدي

[نظم: الطويل]

تَجَلِّيه في الأفعال ليس بمُمْكنٍ ... لدينا وعند الغَيْر ذلك جائِزُ

ويحتجُّ في ذاك الجوازِ بفعْلِهِ ... وكيف يرى في الفَعْلِ والعبدُ عاجِزُ

فمن قائلٍ الحقُّ في الكون ظاهرٌ ... ومن قائلٍ الحقُّ في المَنْع ناجِزُ

وتَحْقيقُ هذا الأمر عَجْزٌ وحَيْرةٌ ... ولا يَنْجَلي إلاَّ لمن هو فائزُ

اعلم أن التجلي الذاتي ممنوع بلا خلاف بين أهل الحقائق في غير مظهر، والتجلي في المظاهر وهو التجلي في صور المعتقدات كائن بلا خلاف، والتجلي في المعقولات كائن بلا خلاف وهما تجلي الاعتبارات، لأنّ هذه المظاهر سواء كانت صور المعقولات أو صور المعتقدات فإنها جسور يعبر عليها بالعلم، أي يعلم أن وراء هذه الصور أمراً لا يصحّ أن يشهد ولا أن يعلم، وليس وراء ذلك المعلوم الذي لا يشهد ولا يعلم حقيقة ما يعلم أصلاً. وأما التجلي في الأفعال أعني نسبة ظهور الكائنات والمظاهر عن الذات التي تتكوّن عنها الكائنات وتظهر عنها المظاهر وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] فالحق سبحانه قرّر في اعتقادات قوم وقوع ذلك، وقرر في اعتقادات قوم منع وقوع ذلك، وهو سبحانه قد ذكرنا أنه يتجلى في صور المعتقدات، فمن عرف أن أفعال نفسه وغيره مخلوقة لله مع أنه يشاهدها عن قدرته ويعلم أنها عن القدرة الإلهية مع أنه لا يشهد تعلّق قدرته أو قدرة غيره بمقدوره حالة إيجاده وإبرازه من العدم إلى الوجود يمنع أن يتجلى الحق في الأفعال إلاّ على حد ما وقع هنا فمنع وقوع هذا التجلي، ومن عرف أن أفعال نفسه مخلوقة له

لا للقدرة القديمة مع أنه أيضاً لا يعرفها مشاهدة إلاّ حال وجودها، ولا يرى صاحب هذا الاعتقاد إذا أنصف تعلّق قدرته بإيجادها وإنما يشهد تعلّق الجارحة بالحركة القائمة قال بوقوع هذا التجلي، ففيه خلاف بين أهل هذا الشأن لا يرتفع دنيا ولا آخرة، غير أن الدنيا تقتضي بحالها أن يتنازعوا في هذا الأمر وغيره، وفي الجنة لا نزاع في ذلك لأن كل واحد قد قرّره الحق على اعتقاده وأبقى عليه، وهمّه في تلك الدار أنه متجلّ له في أفعاله، وأبقى على الآخر علمه أنه لا يتجلّى في أفعاله مع حصول تجلّي من أبقى عليه وهمّه لمن أبقى علمه عليه بالمنع، فصاحب المنع يشاهد من الحق ما يشاهده من يقول بوقوع التجلي في الأفعال فيعرف ما يشهد في ذلك التجلي، كما يعرف هنا من يعقل معقولاته الصادرة عنه، وذلك الآخر لا يعلم من الله هذا الذي يعلمه من يقول بالمنع، فحصل من هذا أن الأمر مشكل، فهو سبحانه المثبت لذلك والنافي له فيما خاطبنا به هنا في كتبه وعلى ألسنة رسله وقرّره في أفكار النظار لتأخذه العقول على حدّ ما قرّره في الأفكار من المنع لذلك أو وقوعه، وهذا الحجاب لا يرتفع أبداً، والتكليف محقق من حيث إن الأفعال مكتسبة بلا خلاف بين الطائفتين، وإنما الخلاف في الإيجاد عن أي القدرتين كان قال تعالىٰ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٥] وهو أقوى حجة للقائلين بالوقوع، وهو أقوى حجة للقائلين بالمنع ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] فقرن الرؤية بإلى وجعل المرئيّ الكيف، فيقول صاحب المنع: لما لم نشهد هنا ذات الحق وهو يكيف مدّ الظل ولا رأيناه وإنما رأينا مدّ الظلال عن الأشخاص الكثيفة التي تحجب الأنوار أن تنبسط على الأماكن التي تمتد فيها ظلال هذه الأشخاص، علمنا أن الرؤية في هذا الخطاب إنما متعلقها العلم بالكيف المشهود الذي ذكرناه، وأن ذلك من الله سبحانه لا من غيره، أي إنّه لو أراد أن تكون الأشخاص الكثيفة منصوبة والأنوار في جهة منها بمنع تلك الأشخاص انبساط النور على تلك الأماكن فيسمّى منعها ظلالاً أو يقبض تلك الظلال عن الانبساط على تلك الأماكن ولا يخلق فيها نوراً آخر ولا ينبسط ذلك النور المحجوب على تلك الأماكن لما قصرت إرادته عن ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٦] وهو رجوع الظل إلى الشخص الممتد منه ببروز النور حتى يشهد ذلك المكان، فجعل المقبوض إنما كان قبضه إلى الله لا إلى الجدار، وفي الشاهد وما تراه العين أن سبب انقباض الظل وتشميره إلى جهة الشخص الكثيف إنما هو بروز النور، فما في المسائل الإلهية ما تقع فيها الحيرة أكثر ولا أعظم من مسألة الأفعال، ولا سيما في تعلق الحمد والذمّ بأفعال المخلوقين، فيخرجها ذلك التعلّق أن تكون أفعال المخلوقين لغير المخلوقين حال ظهورها عنهم، وأفعال الله كلها حسنة في مذهب المخالف الذي ينفي الفعل عن المخلوق ويثبت الذم للفعل بلا خلاف ولا شك عنده في تعلّق الذم بذلك الفعل من الله وسببه الكسب لما وقع مخالفاً لحمد الله فيه مأموراً كان يفعله فلم يفعله أو منهياً عن فعله ففعله، وهذا فيه ما فيه، وفي مثل هذه المسائل قلت: [المديد]

حَيْرةٌ من حَيْرةٍ صَدَرتْ ... ليت شعري ثم من لا يَحَارْ

أنـــا إن قـــلـــتُ أنـــا قـــال لا		وهـــو إن قـــال أنـــا لا يُـــعَـــارْ
أنـــا مَـــجْـــبُـــورٌ ولا فـــعـــلَ لـــي		والـــذي أفـــعَـــلُـــه بـــاضـــطـــرَارْ
والـــذي أُسْـــنِـــدُ فِـــعْـــلـــي لـــه		لـــيـــس فـــي أفْـــعَـــالـــهِ بـــالـــخَـــيَـــارْ
فـــأنـــا وهـــو عـــلـــى نُـــقْـــطَـــةٍ		ثـــبـــتَـــتْ لـــيـــس لـــهـــا مِـــنْ قَـــرارْ

فقد أوقفناك بما ذكرناه في هذا الباب على ما يزيدك حيرة فيه، وبعد أن ذكرنا ما ذكرنا فاعلم أن هذا المنزل هو على الحقيقة منزل حيرة ومقام غيرة، ومن علوم هذا المنزل وهو داخل في باب الحيرة اتصاف العدم بالكينونة وهي تقتضيه، واتصاف الحق بجعل الموجودات في العدم وخلق العدم بحيث أن يقال: فعل الفاعل لا شيء ولا شيء لا يكون فعلاً، وقد نسبه الحق إليه فقال ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يلحقكم بالعدم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٩] فانظر كيف أضاف الإلحاق بالعدم إلى المشيئة ولم يضفه إلى القدرة التي يقع الخلق والجعل بها، والكتب الإلهية من هذا مشحونة ويحتوي عليها هذا المنزل، والصحيح في ذلك أن الموجودات إذا كانت كما قد ذكر لها أعيان ثابتة حال اتصافها بالعدم الذي هو للممكن لا للمحال، فكما أبرزها للوجود وألبسها حاله وعرّاها عن حال العدم فيسمّى بذلك موجداً وتسمّى هذه العين موجودة، لا يبعد أن يردّها إلى ما منه أخرجها وهي حالة العدم، فيتصف الحق بأنه معدم لها، وتتصف هي بأنها معدومة، ولا يتعرّض إلى العلم بأية صفة حصل ذلك، فإن سئلنا ألحقنا حصول الأمرين والحالتين بالمشيئة ويسلم ذلك الخصمان، وإذا سئلنا عن إلحاق تلك العين بالوجود نسبنا ذلك إلى القدرة والمشيئة ويسلم الخصمان لنا ذلك، فإذا فهمت ما أردناه فألحق الكل بالمشيئة وهو الأولى والأوجه حتى تسلم من النزاع في صنف الخبر من ذلك حتى لا يتصوّر نزاع فيه من جميع الطوائف، ومن هذا الباب: ذهب الله بنورهم، أي أزاله عن أبصارهم، ولكن لا يلزم من ذهابه عن أبصارهم إلحاقه بالعدم لولا أن المفهوم منه أن الله أعدم النور من أبصارهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

ومن علوم هذا المنزل بعث الحق تعالىٰ الجماعة لأمر يقوم به الواحد منهم أعني من تلك الجماعة، ومن علوم هذا المنزل وجود العلم عن النظرة والضربة والرمية، وكيف تقوم هذه الأمور مقام كلام العالم للمتعلم وذوقنا من هذا الفن ذوق النظرة. فاعلم أنه كما يتضمن النظر بنور الشمس جميع المرئيات على كثرتها وبعدها في غير زمان مطوّل بل عين زمان اللمحة زمان بسط النور على المبصرات عين زمان إدراك البصر لها عين زمان تعلّق العلم بما أدركه البصر من غير ترتيب زمانيّ ولا امتداد، وإن كان الترتيب معقولاً مثل ترتيب العلة والمعلول مع تساوقهما في الوجود، كذلك اللحظة أو الضربة أو الرمية تتضمن العلوم التي أودع الله فيها، فإذا وقعت من الضارب أو الرامي أو اللاحظ أدرك من العلم جميع ما في قوّة تلك الضربة مثل ما أعطت اللحظة بنور الشمس جميع ما في قوّة تلك اللحظة من المبصرات، وليس القصور من الضربة وغيرها فإنها تتضمن ما لا نهاية له من العلوم كما تشرق الشمس على أكثر ممّا يدركه البصر، وإنما القصور في قلب المدرك مثل القصور في المبصر عن إدراك

جميع ما أشرقت عليه الشمس، وهذا كله في آن واحد إن كان المدرك ممّن يتقيد بالزمان كالأرواح التي لا تتصف بالتحيز، فتدرك ما تدركه في غير زمان ممّا يدرك في زمان وفي غير زمان، ولهذه الإشارة بقوله ﷺ: «**إنَّ الحَقَّ ضَرَبَهُ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ أَوْ فِي ظَهْرِهِ فَوَجَدَ بَرْدَ الأَنَامِلِ بَيْن ثَدْيَيْهِ أَوْ فِي صَدْرِهِ فَعَلِمَ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فسبحان معلم من شاء بما شاء كيف شاء لا إله إلاّ هو العليم القدير. وكذلك من هذا الباب لما رمى التراب في وجوه الأعداء يوم حنين فأصابت عيون القوم فانهزموا، فانظر ما تضمنته تلك الرمية وما تضمنته تلك الضربة.

وأما النظرة فما رويتها عن أحد ولا سمعتها عن أحد لكني رأيتها من نفسي، نظرت نظرة فعلمت ما تضمنته من العلوم، وأعطيت نظرة فنظرت بها فعلمت بها من نظرت إليه من جميع ما تضمنته تلك النظرة من العلوم، وهذا هو علم الأذواق، ومن هنا يعلم قول من قال: يسمع بما به يبصر بما به يتكلم هذا مضى. وأما فائدة ما يقوم به الواحد بما نبعث به الجماعة فللإنعام الإلهيّ بتلك الجماعة وعناية الحق بهم حيث جعل لهم نصيباً في ذلك الخير لا لقصور القدرة عن إبلاغ الواحد ذلك الأمر دون الجماعة إلاّ أن تكون حقائق النسب، فإن ذلك ترتيب حقيقي لا وضعي، كتقدّم الحيّ على العالم، ودخول المريد تحت إحاطة العالم، ودخول القادر تحت إحاطة المريد، فلا يقوم المريد بما يختص به القادر، ولا يقوم العالم بما يختص به المريد، ولا يقوم الحيّ بما يختص به العالم، ولا يقوم العالم بما يختص به الحيّ، ولا يقوم المريد بما يختص به العالم، ولا يقوم القادر بما يختص به المريد، وعين العالم هو عين الحيّ عين المريد عين القادر، وعين الحياة هي عين العلم عين الإرادة عين القدرة، وعين الحياة هي عين الحيّ عين العالم عين المريد عين القادر، وكذلك ما بقي فالنسب مختلفة والعين واحدة، والمعلوم صفة وحال وموصوف، فالجمع في عين الوحدة مندرج حكماً لا عيناً، فإنه ما ثم أعيان موجودة لهذا المجموع، وإنما هي عين واحدة لها نسب مختلفة تبلغ ما بلغت، فهذا هو السريان الوجودي في الموجودات، فهذا من قيام الواحد بما تقوم به الجماعة بين موجود ومعقول، فهذا المنزل يتضمن ما ذكرناه.

ومن علوم هذا المنزل معرفة استحالات العناصر والمولدات بعضها إلى بعض بنسبة رابطة بين المستحيل والمستحال إليه، فإن ارتفعت تلك النسبة الرابطة لم يستحل شيء إلى شيء فإنه مناف له من جميع الوجوه، ولهذا كانت النسبة بين الرب والمربوب موجودة وبها كان رباً له ولم يكن بين المربوب وذات الرب نسبة، فلهذا لم يكن عن الذات شيء كما تقول أصحاب العلل والمعلولات، فلا تتوجه الذات على إيجاد الأشياء من كونها ذاتاً، وإنما تتوجه على الأشياء من نسبة القدرة إليها وعدم المانع وذلك مسمّى الألوهة، كذلك الطبائع رتبها الله ترتيباً عجيباً لأجل الاستحالات، فجعل عنصر النار يليه الهواء، وعنصر الهواء يليه الماء، وعنصر الماء يليه التراب، فبين الماء والنار منافرة طبيعية من جميع الوجوه، وبين الهواء والتراب منافرة من جميع الوجوه طبيعية، فجعل بينهما الوسائط لكونها ذات وجهين لكل واحد ممّا يلي الطرفين مناسبة خاصة، فإذا أراد الحق أن يحيل الماء ناراً وهو منافر طبعاً أحاله

أوّلاً هواء ثم أحال ذلك الهواء ناراً، فما أحال الماء ناراً حتى نقله إلى الهواء من أجل التناسب، وكذلك جميع الاستحالات كلها في عالم الطبيعة. وأما في الإلهيات فقد أشرنا إليه في هذه المسألة وفي هذا الكتاب في وصف ذات المخلوق بصفة ذات الخالق، ووصف ذات الخالق بصفة ذات المخلوق، ثم تجرّد ذات الخالق عمّا تقتضيه ذات المخلوق، وتجرّد ذات المخلوق عمّا تقتضيه ذات الخالق، فلولا النسبة الموجودة بين الرب والمربوب ما دلّ عليه ولا قبل الاتصاف بصفته لا هذا ولا هذا، وبتلك النسبة كان الحق مكلفاً عباده وآمراً وناهياً، وبها بعينها كان الخلق مكلفاً مأموراً منهياً، فحقق ما نبهناك عليه إن كنت ذا قلب وألقيت السمع وأنت شهيد لما ذكرناه، فإن لم تكن كذلك فاتك خير كثير وعلم نافع جليل القدر لكنه عظيم الخطر إلاّ أن يعصم الله.

ومكر إلهيّ خفيّ في هذا المنزل صدر عن الاسم القاهر والقادر موجود من عالم الغيب في عالم الحسّ بيده حسام القهر صلتاً يطلب به موجوداً تعلّق باسم رحمانيّ مثل طلب موسىٰ فرعون وطلب نمروذ وفراعنة الأنبياء للأنبياء عليهم السلام، كل ذلك صفات تقوم للعارف في ظاهره وباطنه يكاشفها من نفسه، فإذا صال رجال الاسم القاهر التجأ العارف إلى الاسم الباطن فشفع له عند القاهر فتبادر جماعة من الأسماء الإلهية من أجل الاسم الباطن تعظيماً له لقربه من الهو، وقاموا معه بالاسم القائم على الاسم الظاهر لبعد منزلته من الهوَ، فأقام لهم الاسم من عالم الغيب جماعة في عالم البرزخ فإنه أشد قوّة في التأثير من عالم الحسّ، فإنه يؤثر في عالم الحسّ ما يؤثره الحسّ، والحسّ لا يقدر يؤثر في الخيال، ألا ترى النائم يرى في الخيال أنه ينكح فينزل منه الماء في عالم الحسّ، ويرى ما يفزعه فيتأثر لذلك جسم النائم بحركة أو صوت يصدر منه أو كلام مفهوم أو عرق لقوّة سلطانه عليه، ويظهر الخيال في صورة الحسّ ما ليس في نفسه بمحسوس ويلحقه بالحسّ، وليس في قوّة الحسّ أن يرد المحسوس بعينه متخيلاً، فيحصل لهذا العارف علوم من عين تلك الجماعة البرزخية يطلع بها على معرفة تلك الشبهة القادحة في سعادته لو ثبتت ومات عليها، ولا بدّ في هذا المنزل من هذه الشبهة وهذه الأدلة.

فصل: واعلم أنه ما من منزل من المنازل ولا منازلة من المنازلات ولا مقام من المقامات ولا حال من الحالات إلاّ وبينهما برزخ يوقف العبد فيه يسمّى الموقف، وهو الذي تكلم منه صاحب المواقف محمد بن عبد الجبار النفري رحمه الله في كتابه المسمّى بالمواقف الذي يقول فيه: أوقفني الحق في موقف كذا، فذلك الاسم الذي يضيفه إليه هو المنزل الذي ينتقل إليه أو المقام أو الحال أو المنازلة إلاّ قوله: أوقفني في موقف وراء المواقف، فذلك الموقف مسمّى بغير اسم ما ينتقل إليه، وهو الموقف الذي لا يكون بعده ما يناسب الأوّل، وهو عندما يريد الحق أن ينقله من المقام إلى الحال، ومن الحال إلى المقام، ومن المقام إلى المنزل، ومن المنزل إلى المنازلات، أو من المنازلات إلى المقام، وفائدة هذه المواقف أن العبد إذا أراد الحق أن ينقله من شيء إلى شيء يوقفه ما بين ما ينتقل عنه وبين ما ينتقل إليه،

فيعطيه آداب ما ينتقل إليه ويعلمه كيف يتأدّب بما يستحقه ذلك الأمر الذي يستقبله، فإن للحق آداباً لكل منزل ومقام وحال ومنازلة إن لم يلزم الآداب الإلهية العبد فيها وإلا طرد، وهو أن يجري فيها على ما يريده الحق من الظهور بتجليه في ذلك الأمر أو الحضرة من الإنكار أو التعريف، فيعامل الحق بآداب ما تستحقه، وقد ورد الخبر الصحيح في ذلك في تجليه سبحانه في موطن التلبيس وهو تجليه في غير صور الاعتقادات في حضرة الاعتقادات، فلا يبقى أحد يقبله ولا يقربه بل يقولون إذا قال لهم أنا ربكم: نعوذ بالله منك فالعارف في ذلك المقام يعرفه، غير أنه قد علم منه بما أعلمه أنه لا يريد أن يعرفه في تلك الحضرة من كان هنا مقيد المعرفة بصورة خاصة يعبده فيها، فمن أدب العارف أن يوافقهم في الإنكار، ولكن لا يتلفظ بما تلفظوا به من الاستعاذة منه فإنه يعرفه، فإذا قال لهم الحق في تلك الحضرة عند تلك النظرة: هل كان بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون نعم، فيتحوّل لهم سبحانه في تلك العلامة مع اختلاف العلامات، فإذا رأوها وهي الصورة التي كانوا يعبدونه فيها حينئذٍ اعترفوا به، ووافقهم العارف بذلك في اعترافهم أدباً منه مع الله وحقيقة وأقرّ له بما أقرّت الجماعة، فهذه فائدة علم المواقف وما ثم منزل ولا مقام كما قلنا إلاً وبينهما موقف إلاً منزلان أو حضرتان أو مقامان أو حالان أو منازلتان كيف شئت قل ليس بينهما موقف، وسبب ذلك أنه أمر واحد، غير أنه يتغير على السالك حاله فيه فيتخيل أنه قد انتقل إلى منزل آخر أو حضرة أخرى فيحار لكونه لم ير الحق أوقفه والتغيير عنده حاصل، فلا يدري هل ذلك التغيّر الذي ظهر فيه هل هو من انتقاله في المنزل أو انتقاله عنه، فإن كان هنالك عارف بالأمر عرفه، وإن لم يكن له أستاذ بقي التلبيس، فإنه من شأن هذا الأمر أن لا يوقفه الحق كما فعل معه فيما تقدّم وكما يفعل معه فيما يستقبل، فيخاف السالك من سوء الأدب في الحال الذي يظهر عليه هل يعامله بالأدب المتقدم أوله أدب آخر؟ وهذا لمن أوقفه الحق من السالكين، فإذا لم يوقفه الحق في موقف من هذه المواقف ولم يعطه الفصل بين ما ينتقل إليه وعنه كان عنده الانتقالات في نفس المنزل الذي هو فيه، فإنه ما ثم عند صاحب هذا الذوق إلاً أمر واحد فيه تكون الانتقالات وهو كان حال المنذري صاحب المقامات، وعليها بني كتابه المعروف بالمقامات وأوصلها إلى مائة مقام في مقام واحد وهو المحبة، فمثل هذا لا يقف ولا يتحير ولكن يفوته علم جليل من العلم بالله وصفاته المختصة بما ينتقل إليه، فلا يعرف المناسبات من جانب الحق إلى هذا المنزل فيكون علمه علم إجمال قد تضمنه الأمر الأوّل عند دخوله إلى هذه الحضرات، ويكون علم صاحب المواقف علم تفصيل، ولكن يعفى عنه ما يفوته من الآداب إذا لم تقع منه وتجهل فيه ولا يؤثر في حاله بل يعطي الأمور على ما ينبغي، ولكن لا يتنزل منزلة الواقف ولا يعرف ما فاته فيعرفه الواقف وهو لا يعرف الواقف، فلهذا المنزل الذي نحن فيه موقف يجهل لا بل يحار فيه صاحب المواقف، لأن المناسبة بين ما يعطيه الموقف الخاص به وبين هذا المنزل بعيدة ممّا بني المنزل عليه، وكذلك الذي يأتي بعده، غير أن النازل فيه وإن كان حائراً فإنه يحصل له من الموقف في تلك الوقفة إذا ارتفعت المناسبة

بين المنزل والوقفة أن المناسبة ترجع بين الوقفة والنازل فيعرف ما تستحقه الحضرة من الآداب مع ارتفاع المناسبة فيشكر الله على ذلك، فصاحب المواقف متعوب لكنه عالم كبير، والذي لا موقف له مستريح في سلوكه غير متعوب فيه، وربما إذا اجتمعا ورأى من لا موقف له حال من له المواقف ينكر عليه ما يراه فيه من المشقة، ويتخيل أنه دونه في المرتبة، فيأخذ عليه في ذلك ويعتبه فيها ويقول له: الطريق أهون من هذا الذي أنت عليه، ويتشيخ عليه وذلك لجهله بالمواقف، وأما صاحب المواقف فلا يجهله ولا ينكر عليه ما عامله به من سوء الأدب ويحمله فيه ولا يعرّفه بحاله ولا بما فاته من الطريق، فإنه قد علم أن الله ما أراده بذلك ولا أهله فيقبل كلامه وغايته أن يقول له: يا أخي سلم إليّ حالي كما سلمت إليك حالك، ويتركه، وهذا الذي نبهتك عليه من أنفع ما يكون في هذا الطريق لما فيه من الحيرة والتلبيس فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثمانون ومائتان

في معرفة منزل ما لي وأسراره من المقام الموسوي

[نظم: الخفيف]

قلتُ ما لي فقال ما لكَ عَبْدي ... قلت ما لي فقال ما لكَ عِنْدي
قلتُ لما أضفته لي ملكاً ... لِمَ خصَّصْتَه بقولكَ عِنْدي
قال لما علمتُ أنك عندي ... كان ما تحتَ مِلْكِ عندِكَ عندي
قلتُ إن كان عَيْنُ أنَّك أني ... صحَّ ما قلتَ إن عندَكَ عندي
وكما قلتَ إن عندَكَ عندي ... فلنَقُلْ نحن إن عندكَ عندي
وهو أولى فإن ذاتيَ ظَرْفٌ ... وتعالَيْتَ أنت فالعِنْدُ عندي

هذا منزل عال ليس بينه وبين موقفه مناسبة فترجع المناسبة إلى الواقف كما كان في المنزل الذي قبله من هذا المنزل، قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٧] ومن هذا المنزل قال محمد ﷺ وقد نزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٤] فوقف على الصفا وجاء الناس يهرعون إليه فقال لأكرم الناس عليه: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْت مُحَمَّدٍ انْظُرِي لِنَفسِكِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**» وقال مثل هذه المقالة لجميع الأقربين وكان عمّه أبو لهب حاضراً فنفخ في يده وقال: ما حصل بأيدينا ممّا قاله شيء، وصدق أبو لهب فإنه ما نفعه الله بإنذاره ولا أدخل قلبه منه شيئاً لما أراد به من الشقاء فأنزل الله فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [سورة المسد: الآية ١، ٢] فإنه كان معتمداً على ماله، فمن اعتمد على غير الله في أموره خسر، والقائلون بالأسباب إذا اعتمدوا عليها وتركوا الاعتماد على الله لحقوا بالأخسرين أعمالاً، وإذا أثبتوا الأسباب واعتمدوا على الله ولم يتعدّوا فيها منزلتها التي أنزلها الله فيها فأولئك الأكابر من رجال الله الذين ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وأثبت لهم الحق

الرجولة في هذا الموطن، ومن شهد له الحق بأمر فهو على حق في دعواه إذا ادّعاه، ومن أثبت الأسباب بإثبات الحق وركن إليها ركون الطبع واضطرب عند فقدها في نفس الاعتماد على الله فذلك من متوسط الرجال، وإذا وقع الاضطراب في النفس فإن أحسّ بالفقد واضطرب المزاج فذلك من خصائص الرجال الأكابر، وإن لم يضطرب المزاج ولم يحسّ بالفقد فذلك حال الاعتماد على الله وهو مقام المتوسطين أصحاب الأحوال، ومن هذا المنزل قيل للنبيّ ﷺ في فتح مكة لما وقف بين يديه رجل ممّن كان النبي ﷺ يريد قتله فلما قضى حاجته منه وانصرف قال النبيّ ﷺ: «**لِمَ لَمْ تَقْتُلُوه حِينَ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيَّ؟ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِطَرْفِكَ؟ فَقَالَ** ﷺ: **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ عَيْنٍ**» وهي حالة لا يسلم منها، وغاية أن يسلم منها من سلم في الشرّ، وأما في الخير فإنهم ربما اتخذوها في الخير طريقاً محموداً فيومىء الكبير في حق الحاضر إلى بعض من يمتثل أمره أن يجيء إليه بخلعة أو بمال يهبه لذلك الحاضر يكون ذلك إيماء بالعين لا تصريحاً باللفظ من غير شعور من يومىء في حقه بذلك الخير ولا يقع مثل هذا وإن كان خيراً من نبيّ، وسببه أن لا تعتاده النفس فربما تستعمله في الشرّ لاستصحابها إياه في الخير، إذ كانت النفس من طبعها أن تسترقها العادة، وإنما سميت خائنة عين لأن الإفصاح عمّا في النفس إنما هو لصفة الكلام ليس هو من صفة العين، وإن كان في قوّة العين الإفصاح بما في النفس بالإشارة، ولكن إنما لها النظر، والذي عندها من صفة الكلام إنما هو أمانة بيدها للكلام، فإذا تصرّفت في تلك الأمانة بالإيماء والإشارة لمن تومىء إليه في أمر ما فقد خانت الكلام فيما أمنها عليه من ذلك، فلهذا سميت خائنة الأعين، فوصفت بالخيانة والخيانة التصرّف في الأمانة، فإن الأمانة ليست بملك لك، وإنك مأمور بأدائها إلى أهلها، فإذا اقتضى المنزل الأمر بخير وشرّ في حق شخص وفي قوّة العين الإفصاح عن ذلك لمن يشير إليه به، فعلمت أن ذلك صفة للكلام فلم تفعل وردّت تلك الأمانة إلى اللسان فنطق فقد أدّت هذه العين الأمانة إلى أهلها ولم تخن فيها، قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٩] أي يعلم أنها خيانة وكيف هي خيانة ولم يقل يعلم ما أشارت به الأعين وما أومأت، فإن المشار إليه يعلم ذلك فلا يكون مدحاً، ولكن لا يعلم كل أحد أنها خيانة إلاَّ من أعلمه الله بذلك وقد أعلمنا بها فعلمناها، فهي في الخير خيانة محمودة، وفي الشرّ خيانة مذمومة، وما زالت عن كونها خيانة في الحالين.

وبعد أن بيّنا لك هذا الأمر فتحفظ منها ما استطعت أن تفعلها مع الحضور فإنك لست بمعصوم فاستعمل الحضور عسى تفوز بهذا المقام. فإن قلت: قد أشارت من شهد لها بالكمال ومنعت من الكلام وهي مريم إلى عيسىٰ أن يسألوه عن شأنه، قلنا بعد ذلك نالت الكمال لا في ذلك الوقت، ألا ترى زكريا قيل له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤١] والرمز ما يقع بالإشارة، فإن الإشارة صريحة في الأمر المطلوب بل هي أقوى في التعريف من التلفظ باسم المشار إليه في مواطن يحتاج المتكلم فيها إلى قرينة حال، حتى لو قال شخص لآخر: كلم زيداً بكذا وكذا وزيد حاضر احتمل أن يفهم عنه

السامع زيداً آخر غير هذا، والمتكلم إنما أراد الحاضر، فإذا ترك التلفظ باسمه وأشار إليه بيده أو بعينه فقال كلم هذا مشيراً إليه كان أفصح وأبعد من الإبهام والنكر، والحرف إنما هو لفظ مجمل يحتمل التوجيه فيه إلى أمور مثل ما رمز الشاعر في التعريف بالنار من غير أن يسميها فقال: [الوافر]

وطائرةٍ تطير بلا جناحٍ ... وتأكلُ في المساء وفي الصباحِ
وتمشي في الغصون لها صِياحٌ ... وهزٌّ في الحُسام لدَى الكفاحِ
تفرُّ الأسْدُ منه في الفَيَافي ... وتغلب للصَّوارم والرِّماحِ
وتجلس بين أفخاذ العَذَارى ... وتَكْشفُ ما خَفِي تَحْتَ الوِشاحِ
إذا ماتَتْ تَجَارَحَ والداها ... فترجع حيَّةً عند الجِراحِ

يريد بالوالدين الزناد، فهذا هو الرمز في النار، وقال الآخر في العين فأحسن: [الوافر]

وطائرةٍ تطير بلا جَنَاحِ ... تفوقُ الطائرين وما تَطيرُ
إذا ما مسَّها الحجر استكَنَّتْ ... وتُنْكِرُ أن يلامسَها الحريرُ

يريد بالحجر الإثمد. واعلم أنه من أقام في نفسه معبوداً يعبده على الظنّ لا على القطع خانه ذلك الظنّ وما أغنى عنه من الله شيئاً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة النجم: الآية ٢٨] وقال في عبادتهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٣] فما نسب إليهم قط أنهم عبدوا غير الله إلاَّ على طريق الظنّ لا على جهة العلم، فإن ذلك في نفس الأمر ليس بعلم، فمن هنا تعلم أن العلم سبب النجاة، وإن شقي في الطريق فالمآل إلى النجاة، فما أشرف مرتبة العلم، ولهذا لم يأمر الله نبيه ﷺ أن يطلب من الله تعالىٰ الزيادة من شيء إلاَّ من العلم فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] فمن فهم ما أشرنا إليه علم أهل السعادة من أهل الشقاء ولم تؤثر فيه الأمور العرضية التي توجب الشقاء في الطريق، فلو علم المشرك ما يستحقه الحق من نعوت الجلال لعلم أنه لا يستحق أن يُشرك به، ولو علم المشرك أن الذي جعله شريكاً لا يستحق أن يوصف بالشركة لله في ألوهته لما أشرك فما أخذ إلاَّ بالجهل من الطرفين، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فلو اقتصر المشرك على الشركة في الفعل لا في الألوهة لكان في الأمر سعة، فإن إضافة الأفعال إلى المخلوقين فيه إشكال ويعذر صاحبه فيمن هو ذو فعل، فإذا أضافوا الأفعال إلى من يعلمون أنه ليس بفاعل فبالجهل أخذوا وبه وقع التوبيخ فقيل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] وقال في حق ذي فعل: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٧٩] فنسب الإضلال لفرعون وما نسبه إلى قومه فإنه عندهم ذو فعل وفي نفس الأمر كذلك وقوله: ﴿وما هدى﴾ أي ما بين لهم طريق الحق فإنه موضع لبس لكونه ذا أفعال، فلو كان المعبود جماداً ما وقع اللبس.

فإن قيل: فإن اتخذوا إلهاً من له فعل بالخاصية من جماد ونبات أيعذرون؟ قلنا: لا يعذرون فإن خاصيته لا تكون سارية في كل شيء حتى تضاف إليه الأفعال كما تضاف إلى

الله، وبهذا القدر من الجهل أخذوا عبدة المخلوقين ذوي الأفعال كفرعون وغيره، فإن القدرة التي له لا تزيد على قدرة العابد إياه فهي قاصرة عن سريانها في جميع الأفعال، فإن القدرة الحادثة لا تخلق المتحيزات من أعيان الجواهر والأجسام فعبدوا من لم يخلق أعيانهم ولهذا وبّخهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٧].

فإن قيل: فإن أقدر أحد على جهة خرق العادة على خلق جوهر فعبده أحد لذلك هل يعذر أم لا؟ قلنا: لا يعذر فإنه يشهد أنه يقبل الحوادث ولا يخلو عنها، وما لا يخلو عن الحوادث يستحيل أن يتقدمها على الجملة، وإذا لم يتقدّم الحوادث على الجملة كان حادثاً مثلها، ومن شأن الإله أن يكون أقدم من كل ما يحدث على الجملة، فلا بدّ أن يكون الحادث متأخراً عنه بأيّ نسبة كان من نسب التأخّر، فلما فاته هذا القدر من العلم وكان جاهلاً به لم يعذر وأخذ بذلك وأصله إنما كان الجهل بذلك، فمن استند إلى معبود موضوع فإنما استند إليه بظنّه لا بعلمه فلذلك أخذ به فشقي إلاّ أن يعطي المجهود من نفسه في نفي الشريك، فلم يعط فكره ولا نظره ولا اجتهاده نفيه جملة واحدة ولم يبعث إليه رسول ولم تصل إليه دعوته، فإن جماعة من أهل النظر قالوا بعذر من هذه حالته وهو مأجور في نفس الأمر مع أنه مخطىء وليس بصاحب ظنّ بل هو قاطع لا عالم، والقطع على الشيء لا يلزم أن يكون عن علم، وربما يستروح من قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] إن الله يعذره.

ولا شك أن المجتهد الذي أخطأ في اجتهاده في الأصول يقطع أنه على برهان فيما أدّاه إليه نظره، وإن كان ليس ببرهان في نفس الأمر فقد يعذره الله تعالىٰ لقطعه بذلك عن اجتهاده، كما قطع الصاحب أنه رأى دحية وكان المرئيّ جبريل فهذا قاطع على غير علم فاجتهد فأخطأ فإنه غير ذاكر لما نقصه من التقسيم، فإنه لو قال: إن لم يكن روحاً تجسد وإلاّ فهو دحية بلا شك، فتدبر ما قرّرناه في مثل هذا فإن النبيّ ﷺ يقول في المجتهد إذا اجتهد فأصاب: «**فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**» ولم يفصل بين الاجتهاد في الأصول والفروع، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] ويلحق بهذا الباب طوائف ممّن أوجب أكثر العلماء عليهم العذاب وحكموا عليهم بالشقاء من غير دليل واضح يفيد العلم، فأنزلوهم منازل الأشقياء بالظنّ والقطع على غير علم في نفس الأمر، فالإله لا يكون بالحسبان، فثبت بما ذكرناه أنه من ظنّ لم ينج من عذاب في الإله. فإن قيل: يقول الله: أنا عند ظنّ عبدي بي. قلنا له: هو مذهبنا، فإنه قال بي فقد أثبته، وما قال أنا عند ظنّ العبد بمن جعله إلهاً، فمتعلق الظنّ كان عنده بالله فيما يظنه من سعادة أو شقاء، فإنه عالم بالله صاحب ظنّ في مؤاخذته على الذنب أو العفو عنه.

وبعد أن تقرّر هذا فلتعلم أن الجنة جنتان: جنة حسيّة وجنة معنوية، فالمحسوسة تتنعم بها الأرواح الحيوانية والنفوس الناطقة، والجنة المعنوية تتنعم بها النفوس الناطقة لا غير وهي جنة العلوم والمعارف ما ثم غيرهما. والنار ناران: نار محسوسة ونار معنوية، فالنار

المحسوسة تتعذب بها النفوس الحيوانية والنفوس الناطقة. والنار المعنوية تتعذب بها النفوس الناطقة لا غير والفرق بين النعيمين والعذابين أن العذاب الحسيّ والنعيم الحسيّ يكون بالمباشرة للذي يكون عن مباشرته الألم القائم بالروح الحيوانيّ، والعذاب المعنويّ لا يكون بمباشرة للنفوس الناطقة وإنما هو بما حصل لها من العلم بما فاتها من العمل والعلم المؤدّي إلى سعادة الروح الحيوانيّ الذي يتضمن سعادة النفس الناطقة. وأما نار الفكر الذي يتعلق ألمه بالحسّ وبالنفس فهي نار معنوية، فإن حصل العلم عنها أعقبها نعيم جنة معنوية، وإن لم يحصل العلم عنها لم يزل صاحبها معذباً ما دام مفكراً ولا نعيم له معنويّ، وإذا زال الفكر عنه بأي وجه زال من غير حصول علم فذلك النعيم الذي تجده النفس إنما هو الراحة من فقد نار التفكّر المسلّط على قلبه فهي راحة حسيّة لا معنوية فاعلم ذلك.

واعلم أن هذا المنزل يتضمن علم عقل ما ليس بحيوان في الإدراك الحسيّ العادي عن الله تعالىٰ ما يأمره به مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فجمعهما جمع من يعقل، وأثبت لهما ما أثبت للحي العالم السميع القادر، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [سورة البلد: الآية ٢٠] فأخبر أنها مسلطة ولا يقبل التسليط إلاّ من يعقل وأنها محرقة بالطبع فإنه لو لم تحرق بالطبع ما قبلت الإرسال على الكفار، إذ لو كان الحرق فيها بغير الطبع لما تصورت منها المخالفة لأن المخالف إنما هو الاحتراق، فهو أمر آخر يفتقر وجوده إلى إيجاد موجده، والحق ما خاطب إلاّ النار، والإحراق عرض والعرض يفتقر إلى وجود في غير عين النار، فإنه إن وجد في النار فإنه لا ينتقل إلى الجسم المسلّط عليه النار لأن العرض لا ينتقل إذ لو انتقل لخلا عن المحل وقام بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه فمن المحال تحريق الجسم المحرق بالنار، فيكون خطاب النار بالإحراق عبثاً، وقد وقع الخطاب على النار بالتسليط، فعلى من وقع فبطل أن يكون الحق يتكلم بالعبث، فكيف يخرج هذا الخطاب وعلى من يقع إذا لم يكن الإحراق للنار بالطبع؟ وهكذا كل جماد ونبات وحيوان خوطب لا بدّ أن يكون حياً عاقلاً قابلاً لما يخاطب به من شأنه أن يعقل ما قيل له افعل قبولاً ذاتياً تابعاً لوجود عينه، فهذا قد نبهتك على هذا النوع من الإدراك الذي يتضمنه هذا المنزل.

واعلم أن جميع ما يحويه هذا المنزل من العلوم لا يوصل إليها إلاّ بالتعريف الإلهيّ بوساطة روحانية الأنبياء لهذا المكاشف، وتلك الأرواح لا يعلمها من الله إلاّ بوسائط لغموضها ودقتها، فمن جملة ما يحويه علم كسر المكسور إلى ما لا نهاية له، ومعلوم من طريق العقل أن المكسور محصور فهو متناه لنفسه فكيف يقبل الكسر إلى ما لا يتناهى؟ وهذه مسألة تشبه بمسألة انقسام الجسم إلى ما لا نهاية له عقلاً لا حساً عند الحكماء لإبطال إثبات الجوهر الفرد الذي تنتهي إليه قسمة الجسم في مذهب المتكلمين، فمن هذا المنزل تعرف الحق عند من هو من هاتين الطائفتين وتطلع من هذا المنزل على علم قيام العذاب وحمله في

غير أجسام المعذبين وعذاب المعذبين به مع كونه غير قائم بهم وهو من أشكل المسائل كيف يوجب المعنى حكمه لغير من قام به، فتشبه أيضاً هذه المسألة مسألة من يقول: إن الله إذا أراد أن يمضي أمراً خلق إرادة لا في محل ثم أراد بها إمضاء ذلك الأمر فقد أوجب المعنى حكمه لمن لم يقم به عند مثبتي الصفات أعياناً لها أحكام وهم المتكلمون.

والفرق بين هذه المسألة وبين مسألتنا أن العذاب محمول في أجسام وحكمه في أجسام أخر غير الأجسام القائم بها العذاب، والعذاب المحمول في هذه الأجسام لا تتعذب به وهو قائم بها وهي متصفة به من كونها محلاً له لا من كونها معذبة به، والوجه الجامع بين المسألتين وجود الحكم المضاف إلى المعنى في غير المحل الذي قام به ذلك المعنى، وهل العلم مثل الإرادة في هذا الباب وغيره من الصفات أم لا؟ فيقوم العلم بزيد ولا يعلم به زيد ويعلم به عمر وهذا محال عقلاً، ولكن هذا المنزل يحكم بوقوع ذلك، فإن أردت تأنيس النفس لقبول ما أعطاه هذا المنزل في هذه المسألة فانظر ما أنت مجمع عليه مع أصحابك أن الحق سبحانه يتعالى عن الحلول في الأجسام، فإن الإنسان إنما يبصر ببصره القائم بجارحة عينه في وجهه، ويسمع بسمعه القائم بجارحة أذنه، ويتكلم بالكلام الموجود في تحريك لسانه وتسكينه وشفتيه ومخارج حروفه من صدره إلى شفتيه. ثم إن هذا الشخص يعمل بطاعة الله تعالىٰ الزائدة على فرائضه من نوافل الخيرات، فينتج له هذا العمل نفي سمعه وبصره وكلامه وجميع معانيه من بطش وسعي التي كانت توجب له أحكامها، فكان ينطلق عليه من أحكامها سميع بصير متكلم إلى غير ذلك، فصار يسمع بالله بعدما كان يسمع بسمعه، ويبصر بالله بعدما كان يبصر ببصره، مع العلم بأن الله يتقدّس أن تكون الأشياء محلاً له أو يكون هو محلاً لها، فقد سمع العبد بما لم يقم به، وأبصر بما لم يقم به، وتكلم بما لم يقم به، فكان الحق سمعه وبصره ويده، فهكذا وجود العذاب في المحال التي لم تقم بها الصفة التي يكون حكمها العذاب، كما قد ثبت أن الصفة تعطي خلاف حكمها في المحل وأنت القائل به ولا فرق بين المسألتين، وقد أنشد في ذلك صاحب محاسن المجالس: [المجتث]

فهل سمعتم بصبٍّ سليم طرفٍ سقيمِ
منعَّم بعذابٍ مُعَذَّبٍ بنعيمِ

وأنشد أبو يزيد الأكبر طيفور بن عيسىٰ البسطامي يخاطب ربه عزّ وجلّ: [الوافر]

أريدكَ لا أريدكَ للثوابِ ولكني أريدكَ للعقابِ
وكلُّ مآربي قد نلتُ منها سوى مَلْذوذِ وَجْدي بالعَذابِ

فطلب اللذة في العذاب، وهذا عكس الحقائق في العقل، ولكن أهل الكشف والذوق وجدوا أموراً أحالها العقل وإن كنا نعرف نحن ما قاله القائلان في شعرهما، ومن هذا الباب قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩] والنار لا تكون برداً في العقل إذ لو كانت برداً لبطلت الحقائق أن تكون حقائق، فقد جاء الذوق في تجليه بخلاف ما يعطيه العقل وإن كنا نحن نعرف ما قاله الحق في ذلك ولمن خاطب به، ولكن جئنا بذلك تأنيساً للمريد

ليتحقق أن الله على كل شيء قدير وأن قدرته مطلقة على إيجاد المحال لو شاء وجوده كما ذكره في كتابه عن نفسه ما هو محال في العقل بما يعطيه دليله فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فألحقه بدرجة الإمكان بالنسبة إلى المشيئة الإلهية، والعقل قد دلّ على أن ذلك محال لا من كونه لم يرده، فكانت هذه الآية أوّلها جرح جرح به العقل في صحة دليله ليبطله، ثم داوى ذلك الجرح في آخر الآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي هو المنزّه أن يكون لأحديته ثان، غير أن في قوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ أسراراً من اعتبرها لمن يكون قهاراً، وجميع الأفعال إنما هي أحكام أسمائه في الكون فلا فعل لأحد إلاَّ لله، فالأفعال كلها من الاسم القادر والقاهر فما يقهر بالاسم القاهر إلاَّ موجد ذلك الفعل في الكون وهو أثر القاهر فما قهر إلاَّ نفسه وهو أثر الاسم القادر فما قهر إلاَّ الاسم القادر وهو المشارك له في وجود العين، فما قهر القاهر القادر إلاَّ بالاسم القادر، فالقادر نفسه قهر بالاسم القاهر إلاَّ أن يكون القهر بالمنع لا بالإيجاد فيكون عند ذلك القهر مضافاً إلى الاسم المريد، ولكن ما يمنع إلاَّ بالاسم القاهر للعين التي تهيأت لقبول الوجود، فقهرتها المشيئة وأخّرتها عن الوجود لأنّ لها الترجيح، فقد حصلت لك بما أوردته من الأنس في قبول هذه المسألة ما فيه كفاية فيما تعطيه طريقة القوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثمانون ومائتان

في معرفة منزل الضم وإقامة الواحد مقام الجماعة من الحضرة المحمدية

[نظم: الوافر]

صلاةُ العصر ليس لها نَظيرٌ ... لنَظْم الشَّمْلِ فيها بالحبيبِ
هي الوسْطَى لأمرٍ فيه دَوْرٌ ... مُحَصَّلَةٌ على أمرٍ عجيبِ
وما للدور من وَسَطٍ تراه ... ولا طرفين في عِلْم اللَّبيبِ
فكيف الأمرُ فيه فَدَتْكَ نفسي ... فخُصَّ العبدُ بالعلم الغريبِ

قال رب هذا المنزل: إن الصلاة الوسطى أجرها مقرون إذا لم تصل في جماعة بأجر من وتر أهله وماله، وقد قال العدل عيسىٰ عليه السلام: قلب كل إنسان حيث ماله فاجعلوا أموالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء، أي تصدقوا، وإلى هنا انتهت معرفة هذا العدل. وقال الصادق المؤتى جوامع الكلم رسول الله محمد ﷺ: «**الصَّدَقَةُ تَقَعُ بِيَدِ الرّحْمٰنِ فَيُرْبِيهَا فَيَكُونُ قَلْبُ العَبْدِ حَيثُ مَالُهُ**» وإن حيثيته يد الرحمن وأين يد الرحمن من السماء؟ فقد أجمع العدلان على أن المال له من القلب مكانة علية، وأما الأهل من زوج وولد فلا خفاء على ذي لب أنهم منوطون بالفؤاد، فأما الزوجة فقد جعل الله بينها وبين بعلها المودّة والرحمة والسكون إليها، والسكون صفة مطلوبة للأكابر وهي الطمأنينة، قال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠] أي يسكن إلى الوجه الذي يحيي به الموتى ويتعين لي إذ

الوجوه لذلك كثيرة، فسكن إليه سكوناً لا يشوبه تحيّر ولا تشويش يعني في معرفة الكيفية، فانظر بماذا قرن النبي ﷺ من فاتته صلاة العصر. وسبب ذلك أن أوائل أوقات الصلوات الأربع محدودة إلاً العصر فإنها غير محدودة وإن قاربت الحدّ من غير تحقيق فقربت من التنزيه عن تقييد الحدود، إذ كان المغرب محدوداً بغروب الشمس وهو محقق محسوس، والعشاء محدود أوله بمغيب الشفق وهو محقق محسوس أيّ شفق كان على الخلاف المعلوم فيه، والفجر محدود أوله بالبياض المعترض في الأفق المستطير لا المستطيل وهو محقق محسوس، والظهر محدود بزوال الشمس وفيء الظل وهو محقق محسوس، ولم يأت مثل هذه الحدود في العصر فتنزّهت عن الحدود المحققة فجعل النبيّ ﷺ وقتها أن تكون الشمس مرتفعة بيضاء نقية، والحدّ الوارد في ذلك ما يكون في الظهور مثل سائر حدود أوقات الصلوات، فعظم قدرها النبيّ ﷺ للمناسبة في نفي تحقيق الحدود، وكذلك حب المال والأهل لا يضبطه حدّ، يقول القائل في الولد: [السريع]

وإنـــمـــا أولادُنـــا بـــيـــنَـــنَـــا أكـــبـــادُنـــا تـــمـــشـــي عـــلـــى الأرضِ

فأنزل الولد منزلة النفس، وكما لا يفنى الإنسان في حبّه نفسه للقرب المفرط الذي ما يكون مثله قرب إليه البتة، كذلك لا يفنى الإنسان في حب ولده ولا ماله ولا أهله لأنه منوط بقلبه بمنزلة نفسه للقرب المفرط يخفى ذلك فيه، فإن اتفق أن يطلق امرأته وقد كان حبه إياها كامناً فيه لا يظهر لإفراط القرب أخذه الشوق إليها وهام فيها وحنّ إليها لبعدها عن ذلك القرب المفرط لتعلق الشوق والوجد بها، ولهذا يفنى العاشق في معشوقه الأجنبيّ لأنه ليس له ذلك القرب الظاهر الذي يحول بينه وبين الاشتياق إليه، ولقرب الحق من قلوب العارفين بالعلم المحقق الذوقيّ الذي وجدوه، لهذا صحّوا ولم يهيموا فيه هيمان المحبين لله من كونه تجلّى لهم في جمال مطلق وتجليه للعلماء به في كمال مطلق، وأين الكمال من الجمال؟ فإن الأسماء في حق الكامل تتمانع فيؤدّي ذلك التمانع إلى عدم تأثيرها فيمن هذه صفته، فيبقى منزّهاً عن التأثير مع الذات المطلقة التي لا تقيدها الأسماء ولا النعوت، فيكون الكامل في غاية الصحو كالرسل وهم أكمل الطوائف لأن الكامل في غاية القرب يظهر به في كمال عبوديته مشاهداً كمال ذات موجده، وإذا تحققت ما قلناه علمت أين ذوقك من ذوق الرجال الكمل الذين اصطفاهم الله فيه واختارهم منه ونزّههم عنه، فهم وهو كهو وهم فسماه الكامل منهم العصر لأنه ضمّ شيء إلى شيء لاستخراج مطلوب، فضمت ذات عبد مطلق في عبوديته لا يشوبها ربوبية بوجه من الوجوه إلى ذات حق مطلق لا يشوبها عبودية أصلاً بوجه من الوجوه من اسم إلهيّ بطلب الكون، فلما تقابلت الذاتان بمثل هذه المقابلة كان المعتصر عين الكمال للحق والعبد وهو كان المطلوب الذي له وجد العصر، فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد سعدت وألقيتك على مدرجة الكمال فارق فيها، ولهذا المعنى الإشارة في نظمنا في أوّل الباب: [الوافر]

صـلاةُ الـعـصـر لـيـس لـهـا نَـظـيـرٌ لـضـمّ الـشَّـمْـلِ فـيـهـا بـالـحـبـيـبِ

وبعد أن أبنت لك مرتبة الكمال فلنبين لك من هذا المنزل قيام الواحد مقام الجماعة

وهو عين الإنسان الكامل فإنه أكمل من عين مجموع العالم، إذ كان نسخة من العالم حرفاً بحرف ويزيد أنه على حقيقة لا تقبل التضاؤل حين قبلها أرفع الأرواح الملكية إسرافيل، فإنه يتضاءل في كل يوم سبعين مرة حتى يكون كالوضع أو كما قال، والتضاؤل لا يكون إلاّ عن رفعة سبقت ولا رفعة للعبد الكليّ في عبوديته فإنه مسلوب الأوصاف، فلو أنتج لذلك الروح المتضائل حال هذا العبد الكلي في عبوديته لما تكرّر عليه التضاؤل فافهم ما أشرت به إليك، وقد نبهتك بهذا الخبر أن هذا الملك من أعلم الخلق بالله وتكرار تضاؤله لتكرار التجلي، والحق لا يتجلى في صورة مرتين، فيرى في كل تجلّ ما يؤديه إلى ذلك التضاؤل، هذا هو العلم الصحيح الذي تعطيه معرفة الله، ثم لتعلم أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم للصورة التي خصّه بها وهي التي أعطته هذه المنزلة فكان أحسن تقويم في حقّه لا عن مفاضلة أفعل من كذا بل هو مثل قوله: الله أكبر، لا عن مفاضلة بل الحسن المطلق للعبد الكامل كالكبرياء المطلق الذي للحق فهو أحسن تقويم لا من كذا كما هو الحق أكبر لا من كذا لا إله إلاّ هو ولا عبد إلاّ المصمت في عبودته، فإن حاد العبد عن هذه المرتبة بوصف ما ربانيّ، وإن كان محموداً من صفة رحمانية وأمثالها فقد زال عن المرتبة التي خلق لها وحرم من الكمال والمعرفة بالله على قدر ما اتصف به من صفات الحق فليقلل أو يكثر.

واعلم أن للإنسان حالتين: حالة عقلية نفسية مجرّدة عن المادة، وحالة عقلية نفسية مدبرة للمادّة، فإذا كان في حال تجريده عن نفسه وإن كان متلبساً بها حسّاً فهو على حالته في أحسن تقويم، وإذا كان في حال لباسه المادّة في نفسه كما هو في حسّه فهو على حالته في خسر لا ربح في تجارته فيه ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦] وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦٦] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٤] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [سورة العاديات: الآية ٦] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [سورة العصر: الآية ٢] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] فإذا قال الإنسان الكامل الله نطق بنطقه جميع العالم من كل ما سوى الله ونطقت بنطقه أسماء الله كلها المخزونة في علم غيبه والمستأثرة التي يخصّ الله تعالىٰ بمعرفتها بعض عباده والمعلومة بأعيانها في جميع عباده فقامت تسبيحته مقام تسبيح ما ذكرته فأجره غير ممنون، وسنومىء إلى تحقيق هذا في المنزل التاسع والثمانين ومائتين.

وبعد أن نبهتك على معرفة قيام التوحيد بالواحد القائم مقام الجماعة في الخير والشر فإنه قال تعالىٰ في هذا المقام في الخير والشر: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٢] ومنزلتنا في هذا البيان لأصحابنا من أهل هذا الشأن ومنزلة القابلين لما بيّناه وغير القابلين ما أردف الله به هذه الآية من تعريف الأحوال فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٢] فلنبين إيمان العصاة المعبر عنه بالتوبة وما يلزمه، وذلك أن الإيمان الأصلي هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهو

شهادتهم له سبحانه بالوحدانية في الأخذ الميثاقي، فكل مولود يولد على ذلك الميثاق، ولكن لما حصل في حصر الطبيعة بهذا الجسم محل النسيان جهل الحالة التي كان عليها مع ربه ونسيها فافتقر إلى النظر في الأدلة على وحدانية خالقه إذا بلغ إلى الحالة التي يعطيها النظر، وإن لم يبلغ هذا الحدّ فإنّ حكمه حكم والديه، فإن كانا مؤمنين أخذ بتوحيد الله تعالىٰ منهم تقليداً، وإن كانا على أي دين كان ألحق بهما، فمن كان إيمانه تقليداً جزماً كان أعصم وأوثق في إيمانه ممّن أخذه عن الأدلة لما يتطرق إليها إن كان حاذقاً فطناً قويّ الفهم من الحيرة والدخل في أدلته وإيراد الشبه عليها، فلا يثبت له قدم ولا ساق يعتمد عليها فيخاف عليه، فإذا تقدّم إيمانه بتوحيد الله شرك ورثه عن أبويه أو عن نظره أو عن الأمة التي هو فيها فذلك الإيمان هو عين إيمانه الميثاقي لا غيره، وإنما حال بينه وبين العبد حجاب الشرك كالسحابة الحائلة بين البصر والشمس فإذا انجلت ظهر الشمس للبصر، كذلك ظهور الإيمان للعبد عند ارتفاع الشرك إذ كان المشرك مقراً بوجود الحق. فإن قلت: فما حكم المعطل هل يكون إيمانه يوجد في الوقت أم حاله حال المشرك؟ قلنا: المعطل أقرب إلى الإيمان من المشرك، فإنه لا بدّ لكل إنسان أن يجد نفسه مستنداً في وجوده إلى أمر ما لا يدري ما هو فيقال له: ذلك هو الله، فإن حدث له بعد ذلك هل هو واحد أو أكثر من واحد كان في محل النظر في ذلك أو يقلد من يعتقد فيه من الموحدين فما ثم إيمان محدث بل هو مكتوب في قلب كل مؤمن، فإن زال في حق المريد الشقاء فإنما تزول وحدانية المعبود لا وجوده، وبالتوحيد تتعلق السعادة وبنفيه يتعلق الشقاء المؤبد، ولهذا الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في الأخذ الميثاقي آمنوا لقول الرسول إليكم من عندنا، فلولا أن الإيمان كان عندهم ما وصفوا به.

وأما نسبة الأعمال إلى هذا المنزل فهو على ما نقرره وذلك أن النبي ﷺ قال: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**» ومكارم الأخلاق أعمال وأحوال إضافية، لأن الناس الذين هم محل مكارم الأخلاق على حالتين: حر وعبد، كما أن الأخلاق محمودة وهي التي تسمّى مكارم الأخلاق، ومذمومة وهي التي تسمّى سفساف الأخلاق، والذين تصرف معهم مكارم الأخلاق وسفسافها اثنان وواحد، فالواحد هو الله والإثنان نفسك إذا جعلتها منك بمنزلة الأجنبي وغيرك وهو كل ما سوى الله، وكل ما سوى الله على قسمين وأنت داخل فيهم عنصري وغير عنصري، فالعنصري تصريف الخلق معه حسيّ، وغير العنصري تصريف الخلق معه معنوي، فالأعمال المعبر عنها بالأخلاق على قسمين: صالح وهو مكارمها وغير صالح وهو سفسافها، قال تعالىٰ في القسم الواحد: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٩] وقال في الآخر عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فعلمه الأدب، وإن من الأدب أن تسأل عن علم ما لا يعلم فإذا علم فإن كان من أهل الشفاعة والسؤال فيه سأل فيه وإن لم يكن لم يسأل فيه ولكن غلبت عليه رحمة الأبوة، وهي شفقة طبيعية عنصرية فصرفها في غير موطنها فأعلمه الله أن ذلك من صفات الجاهلين، والجهل لا

يكون معه خير، كما أن العلم لا يكون معه شرّ، فقول النبيّ ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**» يريد أنه يعلم ما هي وكيف تصرف وأين تصرف؟ فلتعلم أن المخاطبين بها كما ذكرنا لك حرّ وعبد، فللعبد منها شرب وللحرّ منها شرب، فإذا أضفت الخلق إلى الله تعالىٰ فكل ما سوى الله عبد لله، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣].

وإذا أضفت الخلق بعضه إلى بعض فهو بين حرّ وعبد، فأمّا حظ العبد من الأخلاق فاعلم أن السيد على الإطلاق قد أوجب وحرم فأمر ونهى وقد أباح فخير وقد رجح فندب وكره، وما ثم قسم سادس، فكل عمل يتعلق به الوجوب من أمر من السيد الذي هو الله بعمل أو ندب إلى عمل فإن العمل به من مكارم الأخلاق مع الله ومع نفسك إن كان واجباً، وإن كان مندوباً إليه فهو من مكارم الأخلاق مع نفسك، فإن تضمن منفعة الغير ذلك العمل كان أيضاً من مكارم الأخلاق مع غيرك، وترك هذا العمل إذا كان على هذا الحكم من سفساف الأخلاق، وكل عمل يتعلق به التحريم أو الكراهة فالتقسيم فيه كالتقسيم في الواجب والمندوب إليه على ذلك الحدّ، فترك ذلك العمل لاتصافه بالتحريم أو الكراهة من مكارم الأخلاق، وعمله من سفساف الأخلاق، وترك العمل فيه عمل روحانيّ لا جسمانيّ لأنه ترك لا وجود له في العين. وأمّا العمل الذي تعلق به التخيير وهو المباح فعمله من مكارم الأخلاق مع نفسك دنيا لا آخرة، فإن اقترن مع العمل كونك عملته لكونه مباحاً مشروعاً كان من مكارم الأخلاق مع الله ومع نفسك دنيا وآخرة، وكذلك حكمه في ترك المباح على هذا التقسيم سواء، فجميع الأقسام تتعلق بالعبد، وقسم المباح يتعلق بالحرّ، وقسم المكروه والمندوب إليه يتعلق بالحر، وفيه من روائح العبودية شمة لا حقيقة، فهذا قد حصر لك هذا المنزل منازل الشقاء والسعادة وأبانها لك معينة أي عينت لك من أين تعلمها وهو معرفة الشرع الذي أنت عليه.

فإن كان الإنسان ممّن لم تبلغه الدعوة فمكارم الأخلاق في حقّه ما قرّرها العقل من وجود الغرض والكمال، وملايمة المزاج كشكر المنعم الذي هو من مكارم الأخلاق عقلاً وشرعاً، وكفر النعمة من سفساف الأخلاق عقلاً وشرعاً وما كلف الله نفساً إلاّ وسعها سواء بلغتها الدعوة أو لم تبلغها، فإن للشرع في عملها حكماً في نفس الأمر ويعفى عنه فيما أتته من سفساف الأخلاق حيث لم تبلغها الدعوة، والعفو عن ذلك من مكارم الأخلاق الإلهية، فالحق أولى بصفات الكرم من العبد بل هي له حقيقة وفي العبد بعناية التوفيق.

وممّا يتعلق بهذا المنزل من المكارم التعاون على شكر المنعم والتعاون على تلقي البلاء من المبلي بأن لا يستند في ارتفاع البلاء عنه إلاّ لمن أنزله به وهو الله تعالىٰ، فإن أنزله بالغير فهو من سفساف الأخلاق، وإن أنزله بالله كان من مكارم الأخلاق، والعبد في الحالتين طالب رفع البلاء عنه، والبلاء عبارة عن وجوده وإحساسه بالألم لا غير، وفي هذا المقام يغلط كثير من أهل الطريق، فيحبسون نفوسهم عن الشكوى إلى الله فيما نزل بهم، والشبهة في ذلك لهم أنهم يقولون: لا نعترض عليه فيما يجريه علينا فإنه يؤثر في حال الرضا عنه فيقال لهم: قد

حصل مقام الرضا بمجرّد إحساسه وعدم طلب رفعه وذلك حدّ الرضا لا استصحابه، فإن النفس كارهة لوجود الألم، ولذا عبرنا عن البلاء بالألم لا بسببه، وينبغي للعبد أن يسأل الله تعالىٰ أن يرفع عنه ما نزل به لما يؤدّي به إليه من كراهة فعل الله به، ولا بدّ من كراهته طبعاً لأن الألم يوجب حكمه لنفسه، والفعل في إنزاله إنما هو لله فيتضمن كراهة الألم كراهته طبعاً لأن الألم يوجب حكمه وجوده، ووجود الألم لم يكن لنفسه وإنما أوجده الله في هذا العبد فتتعلق الكراهة حالاً وضمناً بالجناب العزيز، فلهذا وقع من الأكابر ﴿ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣] والتعليم بالسؤال في أن لا يقع منه في المستقبل ما لم يقع في الحال بقوله: قالوا ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦] ويتعلق به من سوء الأدب مقاومة القهر الإلهيّ، ومقاومة العبد السيد في أمر ما في سفساف الأخلاق، إذ ليس ذلك من صفات العبودة، فيستعين العبد إذا كان ضعيفاً بأخيه المؤمن في ذلك، ويجب على الآخر معونته بالتعليم والتعزية، فإن المؤمن كثير بأخيه، وإذا انفرد الإنسان بهمه عظم عليه، وإذا وجد من يلقيه إليه ليقاسمه فيه ويستريح عليه ويخف عنه فأعانه الآخر يحسن الإصغاء إليه فيما يلقي إليه من همه، وجوابه إياه بما يسره في ذلك ومشاركته بإظهار التألّم لما ناله، فذلك الصديق الصادق المعين كما قيل: [الوافر]

صديقي من يُقاسمني هُمومي ... ويَرمي بالعَداوةِ مَنْ رماني

وقال الآخر: [الوافر]

إذا الحَمْلُ الثَّقيلُ تقسَّمَتْهُ ... رقابُ الخَلْق خَفَّ على الرِّقابِ

فهذا قد بيّنا لك بعض ما يحويه هذا المنزل بالإجمال لا بالتفصيل مخافة التطويل، فما تركنا منه شيئاً ولا أعلمناك منه بشيء، وهكذا فعلنا في كل منزل إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثمانون ومائتان

في معرفة منزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية

[نظم: الطويل]

إذا جهلَتْ أرواحُنا عِلْمَ ذاتها ... فذلك موتٌ والجُسُومُ قُبورُ

وإن علمَتْ فالحَشْرُ فيها محقَّقٌ ... وكان لها من أجل ذاك نُشُورُ

فما العلمُ إلاّ بين نورٍ وظُلمةٍ ... وكلُّ كلامٍ دون ذلك زُوْرُ

اعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية وهو طارىء عليهما بعدما كانا موصوفين بالاجتماع الذي هو علة الحياة، فكذلك موت النفس بعدم العلم. فإن قلت: إن العلم بالله طارىء الذي هو حياة النفوس والجهل ثابت لها قبل وجود العلم فكيف يوصف الجاهل بالموت وما تقدمه علم؟ قلنا: إن العلم بالله سبق إلى نفس كل إنسان في الأخذ الميثاقي حين أشهدهم على أنفسهم، فلما عمرت الأنفس الأجسام الطبيعية

في الدنيا فارقها العلم بتوحيد الله فبقيت النفوس ميتة بالجهل بتوحيد الله، ثم بعد ذلك أحيا الله بعض النفوس بالعلم بتوحيد الله، وأحياها كلها بالعلم بوجود الله، إذ كان من ضرورة العقل العلم بوجود الله فلهذا سميناه ميتاً، قال تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا﴾ يعني بما كان الله قد قبض منه روح العلم بالله ﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] فردّ إليه علمه فحيي به كما ترد الأرواح إلى أجسامها في الدار الآخرة يوم البعث، وقوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] يريد مقابلة النور الذي يمشي به في الناس وما هو عين الحياة، فالحياة الإقرار بالوجود أي بوجود الله، والنور المجعول العلم بتوحيد الله، والظلمات الجهل بتوحيد الله، والموت الجهل بوجود الله، ولهذا لم يذكر الله في الآية عنا في الأخذ الميثاقي إلاّ الإقرار بوجود الله لا بتوحيده ما تعرض للتوحيد فيها فقال: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فأقروا له بالربوبية أي أنه سيدهم، وقد يكون العبد مملوكاً لاثنين بحكم الشركة، فأي سيد قال له ألست بربك فلا بدّ أن يقول العبد بلى ويصدق فلهذا قلنا: إن الإقرار إنما كان بوجود الله رباً له أي مالكاً وسيداً، ولهذا أردف الله في الآية حين قال: ﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ فلم يكتف حتى قال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ يريد العلم بتوحيد الله لا غيره فإنه العلم الذي يقع به الشرف له والسعادة، وما عدا هذا لا يقوم مقامه في هذه المنزلة فتأمل ما قلناه، فقد علمت أن ورود الموت على النفوس إنما كان عن حياة سابقة، إذ الموت لا يرد إلاّ على حيّ، والتفرق لا يكون إلاّ عن اجتماع. وبعد أن علمت هذا فاعلم أنه من خصائص هذا المنزل أن علم الواحد بالكثرة يوجب له الجهل بنفسه لأن الكثرة مشهودة له، وذلك أن الروح لا يعقل نفسه إلاّ مع هذا الجسم محل الكم والكثرة، ولم يشهد نفسه قط وحده مع كونه في نفسه غير منقسم، ولا يعرف إنسانيته إلاّ بوجود الجسم معه، ولهذا إذا سئل عن حدّه وحقيقته يقول: جسم متغذٍ حساس ناطق، هذا هو حقيقة الإنسان وحدّه الذاتي النفسي، فيأخذ أبداً في حدّه إذا سئل عنه من كونه إنساناً هذه الكثرة، فلا يعقل أحديته في ذاته وإنما يعقل أحدية الجنس لا الأحدية الحقيقية، والذي يحصل له بالإكتساب أنه واحد في عينه علم دليل فكري لا علم ذوق شهودي كشفي، وكذلك العلم بالله إنما متعلقه العلم بتوحيد الألوهة لمسمّى الله لا توحيد الذات، فإن الذات لا يصحّ أن تعلم أصلاً، فالعلم بتوحيد الله علم دليل فكري لا علم شهود كشفي، فالعلم بالتوحيد لا يكون ذوقاً أبداً ولا تعلق له إلاّ بالمراتب، وأين التوحيد في الذات مع ما قد ورد من الصفات المعنوية واختلاف الناس فيها واختلاف أعيانها بالحدّ والحقيقة وأن هذه ليست عين هذه، هذا في العقل وفي الشرع.

ثم انفرد التعريف الإلهيّ باليد والعين والقدم والأصابع وغير ذلك وهذه كلها تنافي توحيد الذات ولا تنافي توحيد الألوهة، ولهذا ورد التنازع في قوله عليه السلام: «**إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخِرَ مِنْهُمَا**» لأن أحدية المرتبة لا تقبل الثاني ولا تحمل الشركة، لأن المطلوب الصلاح لا الفساد والإيجاد لا الإعدام، وقال تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] فوحد الإله وما قال لو كانت ذات الإله تنقسم لفسدتا ما تعرّض

لشيء من ذلك وأن الإله عند المتكلمين مجموع ذوات، فإن الصفات أعيان زائدة موجودة قائمة بذات الحق وبالمجموع يكون إلهاً فأين التوحيد الذي يزعمونه؟ وكذلك العقلاء من الفلاسفة الإله عندهم مجموع نسب فأين الوحدانية عندهم؟ فإنهم يصفونه بالعلم والحياة واللذة والابتهاج بكماله، فالوحدة أمر يسمع واسم على غير مسمّى حقيقي إذا أنصفت فلا إله إلاّ الله الواحد في ألوهيته القهار للمنازعين له في ألوهيته من عباده والمزاحمين له في أفعاله، وما عدا هذين الصنفين فلهم الله الواحد الغفار.

وبعد أن علمت هذا فلا تحجبك هذه الكثرة عن توحيد الله تعالىٰ، ولكن بينت لك متعلق توحيدك وما تعرضنا إلى الذات في عينها لأن الفكر فيها ممنوع شرعاً، قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ**» وقال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] يعني أن تتفكروا فيها فتحكموا عليها بأمر أنها كذا وكذا، وما حجر الكلام في الألوهة ولا تدرك بفكر، ومشاهدتها من حيث نفسها ممنوعة عند أهل الله، وإنما لها مظاهر تظهر فيها بتلك المظاهر تتعلق رؤية العباد، وقد وردت بها الشرائع وما بأيدينا من العلم به إلاّ صفات تنزيه أو صفات أفعال، ومن زعم أن عنده علماً بصفة نفسية ثبوتية فباطل زعمه فإنها كانت تحده ولا حدّ لذاته، فهذا باب مغلق دون الكون لا يصحّ أن يفتح انفرد به الحق سبحانه، وإذا كان الحق على ما أخبر الرسول ﷺ عن علمه بما علمه الله فقال: «**اللَّهُمَّ إِني أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» فعنده أسماء لاَ يعلمها إلاَّ هو هي راجعة إليه وقد منع باستيئثاره أنه لا يعلمها أحداً مَن خلقه، وأسماؤه ليست أعلاماً ولا جوامد، وإنما أسماؤه على طريق المحمدة والمدح والثناء، ولهذا كانت حسنى لما يفهم من معانيها بخلاف الأسماء الأعلام التي لا تدل إلاً على الأعيان المسمّاة بها خاصة لا على جهة المدح ولا جهة الذم، وأعظمها عندنا الاسم الله الذي لا تقع فيه المشاركة، فأين التوحيد مع هذا التعريف الذي يزعمه هذا الزاعم أنه قد حصل على علم التوحيد النفسي؟ وإذا لم يشهد له شرع ولا عقل ولا كشف وما ثم غير هؤلاء وهم عدول فكيف بك بما خرج عن هؤلاء؟ فالزم ما كلفته من زيارة الموتى وهو اللحوق بهم والإنخراط في سلكهم وهو العجز عن إدراك الأمر على ما هو عليه، وإنما نحن متصرّفون في أفعال المقاربة وهي كاد وأخواتها فيقال: كاد العروس يكون أميراً وما هو أمير في نفس الأمر، وكاد زيد يحج أي قارب الحج، وقال تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فوصفه بأنه ما رآها ولا قارب رؤيتها فإنه نفى القرب بدخول لم على يكاد وهو حرف نفي وجزم يدخل على الأفعال المضارعة للأسماء فينفيها، ويتعلق بهذا المنزل علم الزجر والردع لمن قال من الناس أنه قد علم ذات الحق أنه لا ينكشف له جهله بما زعم أنه عالم به إلاَّ في الدار الآخرة، فيعلم هناك أن الأمر على خلاف ما كان يعتقده من علمه وأنه لا يعلم دنيا ولا آخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] فعمّ فبدا لكل طائفة تعتقد أمراً ما ممّا الأمر ليس عليه نفي ذلك المعتقد، وما تعرض في الآية بما انتفى ذلك هل بالعجز أو بمعرفة

النقيض؟ وكلا الأمرين كائن في الدار الآخرة كمن يقول بإنفاذ الوعيد لمن مات عاصياً على غير توبة فيغفر الله له يوم القيامة، فقد بدا له من الله ما لم يكن يعلمه من التجاوز وزال علمه بالمؤاخذة، فكل طائفة يبدو لها من الله بحسب مسألتها، فلو كان العلم في نفس الأمر علم يقين لما تبدّل، وإنما هو حسبان وظن قد احتجب عن صاحبه بصورة علم فهو يقول أنه يعلم، والحق يقول له تظن وتحسب، وأين مقام من مقام؟ فما كل أمر يعلم ولا كل أمر يجهل، فأعلم العلماء من علم ما يعلم أنه يعلم وما لا يعلم أنه لا يعلم.

قال ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**» فقد علم أنه ثم أمر لا يحاط به. وقال الصديق: «العجز عن درك الإدراك إدراك» أي أنه أدرك أن ثم أمراً يعجز عن إدراكه فهذا علم لا علم. فيعلم الإنسان يوم القيامة عجز فكره عن إدراك ما حسب أنه أدركه غير أنه معذب بفكره بنار اصطلامه، فإن حجة الشرع عليه قائمة إذ قد أبان له وأعرب عمّا ينبغي له أن يفكر فيه كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٤] أي أنه يوصل إلى معرفة الرسول بالدليل، وبهذه الآية يستدل على أنه لا بدّ من أن ينصب الله تعالىٰ على يد هذا الرسول دليلاً يصدّقه في دعواه، ولو لم يكن كذلك ما صدق قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ولا تكون الفكرة إلاّ في دليل على صدقه أنه رسول من عند الله، والدليل هو المنظور فيه الموصل إلى المدلول، فلولا ما نصب الأدلة ما شرع للعقلاء التفكّر ولا طالبهم، وكذلك في معرفتهم به سبحانه فقال لما ذكر أموراً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٢] فإذا تعدّى بالفكر حدّه وفكّر فيما لا ينبغي له أن يفكر فيه عذب يوم القيامة بنار فكره.

ثم إن الإنسان يشغله الفكر فيما لم يشرع له التفكر فيه عن شكر المنعم على النعم التي أنعم الله عليه بها فيكون صاحب عذابين: عذاب الفكر فيما لا ينبغي، وعذاب عدم الشكر على ما أنعم به عليه، ولا نعمة أعظم من نعمة العلم، وإن كانت نعم الله لا تحصى من حيث أسبابها الموجبة لها، وإنما النعيم على الحقيقة وجود اللذة في نفس المنعم عليه بها عند أسباب كثيرة لا تحصى محصورة في أمرين: في وجود ما تكون به اللذة، وفي عدم ما يكون بعدمه اللذة وهي أمور نسبية، كوجود لذة خائف من عدوّ يتوقعه فيهلك ذلك العدوّ فيجد هذا من اللذة عند هلاكه ما لا يقدر قدرها، وذلك لوجود الأمن ممّا كان يحذره، فالأسباب لا تحصى كثرة واللذة واحدة وهي النعمة المحققة، كما أن الألم هو العذاب المحقق وأسبابه لا تحصى فسمّي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب.

واعلم أن الزيارة مأخوذة من الزور وهو الميل، فمن زار قوماً فقد مال إليهم بنفسه، فإن زارهم بمعناه فقد مال إليهم بقلبه، وشهادة الزور الميل إلى الباطل عن الحق، فزيارة الموتى الميل إليهم تعشقاً لصفة الموت أن تحل به، فإن الميت لا حكم له في نفسه وإنما هو في حكم من يتصرّف فيه، ولا يتصوّر من الميت منع ولا إباية ولا حمد ولا ذم ولا اعتراض بل هو مسلم تسليم حال ذاتي، كذلك ينبغي لزائره أن يكون حاله مع الله حال الميت مع من يتصرّف فيه، وإذا بلغ إلى هذا المقام على الحد المشروع فيه لا على الإطلاق حينئذ يبلغ مبلغ

الرجال، ولا يكون موصوفاً بهذه الصفة على الإطلاق إلاً في معناه لا في حسّه الظاهر والباطن، بل ينبغي له أن يكون حياً في أفعاله الظاهرة والباطنة في الأمور التي تعلق بها النهي الإلهيّ ويكون ميتاً بالتسليم لموارد القضاء عليه في كل ذلك لا للمقضى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثمانون ومائتان

في معرفة منزل القواصم وأسرارها من الحضرة المحمدية

[نظم: الطويل]

إذا كنتَ مَشْغُوفاً بحبِّ المَعَاصِم ... تذكَّرْ من الآيات آيَ القَوَاصِم

فإنَّ لها عن ذاك زَجْراً وعِصْمَةً ... وأفْلَحَ من تُحْيِيه آيُ العَواصِم

وهذي أمورٌ لم أنَلْها بفكرةٍ ... ولكنها جاءت على يَدِ قاسِم

ويُعْطي إلٰهُ الخَلْق عدلاً ومِنَّةً ... بقَصْمَةِ قَهَّارٍ وعِصْمَةِ عاصِم

فكم بين شَخْصٍ بالملائك مُلْحَقٍ ... وبين شُخَيْصٍ مُلحقٍ بالبهائم

اعلم أنه لما وصلت إلى هذا المنزل في وقت معراجي الذي عرج بي ليريني من آياته سبحانه ما شاء ومعي الملك قرعت بابه فسمعت من خلف الباب قائلاً يقول: من ذا الذي يقرع باب هذا المنزل المجهول الذي لا يعرف إلاَّ بتعريف الله؟ فقال الملك: عبداً لحضرة عبدك محمد بن نور، ففتح فدخلت فيه فعرفني الحق جميع ما فيه ولكن بعد سنين من شهودي إياه فكان ذلك شهوداً صورياً من غير تعريف، ثم بعد ذلك وقع التعريف به، ولما عرفني بأنه منزل مجهول قصم ظهري، ولما وقع التعريف به رأيته كله قواصم إلاَّ أن يعصم الله ممّا رأيت فخفت فسكن الله روعي بما جلى لي، فرأيت في هذا المنزل تحوّل الصور الحسيّة في الصور الجسمية كما يتشكل الروحانيون في الصور، فتخيلت أن تلك الصور الأول ذهبت فحققت النظر فيها فلم أدركها حتى أعطيت القوّة عليها، فتحولت فأدركت المطلوب فإذا هو على نوعين في التحوّل: النوع الواحد أن تعطي قوّة تؤثر بها في عين الرائي ما شئته من الصور التي تحب أن تظهر له فيها فلا يراك إلاَّ عليها وأنت في نفسك عن صورتك ما تغيرت لا في جوهرك ولا في صورتك، إلاَّ أنه لا بدّ أن تحضر تلك الصورة التي تريد أن تظهر للرائي فيها في خيالك، فيدركها بصر الرائي في خيالك كما تخيلتها، ويحجبه ذلك النظر في الوقت عن إدراك صورتك المعهودة. هذا طريق، وطريقة أخرى يتضمنها هذا المنزل وذلك أن الصورة التي أنت عليها عرض في جوهرك فيزيل الله ذلك العرض ويلبسك ما أردت أن تظهر به من صور الأعراض من حية أو أسد أو شخص آخر إنساني وجوهرك باقٍ وروحك المدبر جوهرك على ما هو عليه من العقل وجميع القوىٰ، فالصورة صورة حيوان أو نبات أو جماد، والعقل عقل إنسان وهو متمكن من النطق والكلام، فإن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم بأي لسان شاء الحق أن ينطقه به، فحكمه حكم عين الصورة في المعهود.

ومن هذا الباب يعرف نطق الجمادات والنبات والحيوان وهي على صورها وتسمعها كنطق الإنسان، كما أن الروح إذا تجسد في صورة البشر تكلم بكلام البشر لحكم الصورة عليه، وليس في قوّة الروحاني أن يتكلم بكلام غير الصورة التي يظهر فيها بخلاف الإنسان وهو في غير صورة الإنسان، وهذا منزل الممسوخ من هذه الحضرة تمسخ الصورة الحسيّة في الدنيا والآخرة، ومن هذا المنزل تمسخ البواطن فترى الصورة أناسي، وفي الباطن غير تلك الصورة من ملك أو شيطان بصورة حيوان مناسب لما هو باطنه عليه من كلب أو خنزير أو قرد أو أسد، وكل ذلك يخالف ما تطلبه إنسانيته إما عال وإما دون، ومسخ البواطن قد كثر في هذا الزمان كما ظهر المسخ في الصور الظاهرة في بني إسرائيل حين جعلهم الله قردة وخنازير، ولا بدّ في آخر الزمان أن يظهر المسخ في هذه الأمة ولكن في اليهود منها لا في المسلمين، فإن الإيمان يحفظهم فما يمسخ من هذه الأمة إلاّ يهودي أو منافق يظهر الإسلام ويخفي اليهودية، وإنما ألحقنا اليهود بهذه الأمة لأن أمة النبيّ ليست قبيلته، وإنما أمته جميع من بعث إليهم ومحمد ﷺ بعث إلى الناس عامة، فجميع الناس أمته من جميع الملل، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ومنهم من أسلم. وأما دخول الجن في دينه ﷺ فكان دخولهم في دينه مثل ما كان دخول من لم يبعث إليه نبي في وقته في دين نبي وقته، ثم إن ذلك النبي الذي ما بعث إليه إذا لم يكن ذلك الداخل ممّن بعث إليه نبي آخر تجري أحكامه على من بعث إليه بما بعث به، فإن لكل نبي شرعة ومنهاجاً، فهكذا كان إيمان الجن برسول الله ﷺ. وأما ما ذكرناه من مسخ البواطن فقول النبي ﷺ يخبر عن ربه في صفة قوم من أمته: **«أَنَّهُمْ إِخْوَانُ العَلاَنِيَةِ أَعْدَاءُ السَّرِيرَةِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ يَلْبَسونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ»** فهذا هو مسخ البواطن أن يكون قلبه قلب ذئب وصورته صورة إنسان، فالله العاصم من هذه القواصم.

وطريقة أخرى في التحوّل في الصورة وهي أن تبقى صورة هذا الشخص على ما كانت عليه ويلبس نفسه صورة روحاني يجد ذلك الروحاني في أي صورة شاء هذا الشخص أن يظهر للرائي فيها ويغيب هذا الشخص في تلك الصورة وهي عليه كالهواء الحافّ به فتقع عين الرائي على تلك الصورة الأسدية أو الكلبية أو القردية أو ما كانت كل ذلك بتقدير العزيز العليم.

وطريقة أخرى وهي أن يشكل الهواء الحافّ به على أي صورة شاء ويكون الشخص باطن تلك الصورة فيقع الإدراك على تلك الصورة الهوائية المشكلة في الصورة التي أراد أن يظهر فيها، ولكن إن وقع من تلك الصورة نطق فلا يقع إلاّ بلسانه المعروف عند الرائي فيسمع النغمة فيعرفها ويرى الصورة فينكرها، لا يتمكن لمن هذه حالته أن يزول عن نغمته، وهذه قوّة الجن لمن يعرفهم فإنهم يظهرون فيما شاؤوه من الصور، والنغمة منهم نغمة جن لا يقدرون على أكثر من ذلك، ومن لا معرفة له بهذا القدر فلا معرفة له بالجن، إلاّ أن ثم أقواماً تلعب الجن بعقولهم فتخيل لهم في عيونهم صوراً مثل ما يخيل الساحر الحبال في صورة حيات ساعية فيحسبون أنهم يرون الجن وليسوا بجن، وتكلمهم تلك الصور فيما يخيل إليهم

وليست الصور بمتكلمة، بخلاف تجسد الجن في أنفسهم، فمن عرف من العارفين نغمات كل طائفة عرف ما رأى ولم يطرأ عليه تلبيس فيما رآه، وقد رأينا جماعة بالأندلس ممّن يرون الجن من غير تشكل وفي تشكلهم منهم فاطمة بنت ابن المثنى من أهل قرطبة وكانت عارفة بهم من غير تلبيس، ورأيت طائفة بمدينة فاس ممّن كانت الجن تخيل لهم صوراً في أعينهم وتخاطبهم بما شاؤوا لتفتنهم وليسوا بجن ولا بشكل جن، منهم أبو العباس الزقاق بمدينة فاس وكان قد لبس عليه الأمر في ذلك فكان يخيل إليه أن الأرواح الجنية تخاطبه ويقطع بذلك وسبب ذلك الجهل بنغمتهم، فكان إذا قعد عندي وحضر مجلسي يبهت ثم يصف ما يرى فأعلم أنه يخيل له، فكان يصل في ذلك إلى حدّ الملاعبة والمصاحبة والمحادثة، وربما يقع بينه وبين ذلك الذي شاهده مخاصمة في أمور ومناكرة فتضره الجن من طريق آخر، وهو يتخيل أن تلك الصور منها صدر الضرر وغلب عليه ذلك رحمه الله، وكان أبو العباس الدهان وجميع أصحابنا يشاهدون ذلك منه، فمن عرف النغمات لم تلتبس عليه صورة أصلاً، وقليل من يعرف ذلك ويغترون بصدق ما يظهر من تلك الصور في أوقات، فهذا قد بيّنا لك مراتب التحوّل في الصور من هذا المنزل. وفيه من هذا الظهور في الصور عجائب جمة تبهر العقول، وأعظمها تغير المزاج إلى مزاج آخر مع بقاء الجوهر لا بدّ منه لحامل لهذه الصورة فإن لم يبق الجوهر فما تحول قط، ولكن هذا جوهر آخر في صورته ما تبدّل ولا هو ذلك، كما أن زيداً ليس عمراً.

ومن هذا المنزل أيضاً وزن أبي بكر الصديق بالأمة فرجح هذا منزل حضرة الوزن بين المخلوقين من كل ما سوى الله، ومن عرف ما في هذا المنزل وشاهد حكمه ورفعت له موازين الخلق على ما وضعهم الله عليه من الحال والمقام عرف فضل الملائكة بعضهم على بعض، وفضل الناس بعضهم على بعض، وفضل الجن بعضهم على بعض، وفضل الحيوان بعضه على بعض، وفضل النبات بعضه على بعض، وفضل الجماد بعضه على بعض، والمفاضلة بين الملائكة والبشر، وبين الجن والبشر، وبين الجماد والنبات والبشر، ويعرف مفاضلة كل جنس مع غير جنسه، ومن هنا يعرف فضل الحجر الأسود مع كونه جماداً وهو يمين الله، فانظر هذه الرتبة وهو جماد، وانظر في فرعون وأبي جهل وهو إنسان. ومن هذا المنزل إذا وقفت على هذه المفاضلات رأيت الجنة فيمن تسري من هؤلاء الأجناس وأنواع الأجناس وأنواع الأنواع إلى آخر درجة وهي أشخاص النوع الأخير، ويشاهد أيضاً سريان النار في الأجناس بين حر وزمهرير، وفي أنواع الأجناس، وأنواع الأنواع، حتى تنتهي إلى أشخاص النوع الأخير، فتحكم على كل من تشاهده بما تشاهده، فإنك إنما تشاهده بمآله لا بوقته، وهنا يقع تلبيس من حضرة خيالية في مقابلة هذه الحضرة، فيشاهد ما يعطيه شاهد الوقت فيحكم عليه بالمآل وهو تلبيس شيطاني من الصفة التي ذكرناها آنفاً من كون الجن والشياطين تخيل للناس صوراً عنهم وعن غيرهم وليس بحقيقة، وهذه المسألة التبس الأمر فيها على أبي حامد الغزالي وغيره.

وممّن التبس عليه الأمر في ذلك من الشيوخ الذين أدركناهم أبو أحمد بن سيد بون بوادي أشت فكان يقول هو وأمثاله: إن الإنسان إنما يطرأ عليه التلبيس ما دام في عالم العناصر فإذا ارتقى عنها وفتحت له أبواب السماء عصم من التلبيس، فإنه في عالم الحفظ والعصمة من المردة والشياطين، فكل ما يراه هنالك حق فلنبين لك الحق في ذلك ما هو، وذلك أن الذي ذهبت إليه هذه الطائفة القائلون بما حكيناه عنهم من رفع التلبيس فيما يرونه لكونهم في محال لا تدخلها الشياطين فهي محال مقدسة مطهرة كما وصفها الله وذلك صحيح أن الأمر كما زعموه، ولكن إذا كان المعراج فيها جسماً وروحاً كمعراج رسول الله ﷺ، وأما من عرج به بخاطره وروحانيته بغير انفصال موت بل بفناء أو قوّة نظر يعطى إياها وجسده في بيته وهو غائب عنه بفناء أو حاضر معه لقوّة هو عليها فلا بدّ من التلبيس إن لم يكن لهذا الشخص علامة إلهية بينه وبين الله يكون فيها على بينة من ربه فيما يراه ويشاهده ويخاطب به، فإن كان له علامة يكون بها على بينة من ربه وإلاّ فالتلبيس يحصل له، وعدم القطع بالعلم في ذلك إن كان منصفاً، وقد يكون الذي شاهده حقاً ويكون معصوماً محفوظاً في نفس الأمر ولكن لا علم له بذلك، فإذا كان على بينة من ربه حينئذ يأمن التلبيس كما أمنته الأنبياء عليهم السلام فيما يلقى إليهم من الوحي في بيوتهم، وذلك أن الشيطان لا يزال مراقباً لحال هذا المريد المكاشف سواء كان من أهل العلامات أو لم يكن فإن له حرصاً على الإغواء والتلبيس، ولعلمه بأن الله قد يخذل عبده بعد عصمته ممّا يلقى إليه فيقول عسى ويعيش بالترجي والتوقع، وإن عصم باطن الإنسان منه ورأى أنوار الملائكة قد حفت بهذا العبد انتقل إلى حسّه فيظهر له في صورة الحسّ أموراً عسى يأخذه بها عما هو بسبيله مع الله في باطنه، وهذا فعله مع كل معصوم محفوظ بأنوار الملائكة حساً في باطنه، وأما إن كان معصوماً في نفس الأمر وليس على باطنه حفظة من الملائكة فإن الشيطان يأتي إلى قلبه، وهذا الشخص بكونه معصوماً في نفس الأمر بالبينة التي هو عليها من ربه لا يقبل منه ما يلقى إليه، هذا إن لم يكن متبحراً في العلم ويكون صاحب مقام مقصور عليه. وأما إن كان صاحب تمكين وتبحر في العلم الإلهيّ أخذ ذلك منه فإنه رسول من الله إليه.

فإن كان محموداً فقلب عينه في مجرد الأخذ حيث أخذه عن الله ولم يلتفت إلى الواسطة لعلمه بمحلها عند الله من الطرد والبعد فينقلب خاسئاً حيث أراد أمراً فلم يتم له بل كان فيه زيادة سعادة لهذا الشخص، ولكن من حرصه على الإغواء يعود إليه المرة بعد المرة، وإن كان الذي أتاه به مذموماً قلب عينه فصار محموداً في حقه بأن يصرفه على المصرف المرضي فينقلب خاسئاً حيث أراد أمراً فلم يتم له بل كان فيه سعادة لهذا الشخص، فإن كان حال هذا الشخص الأخذ من الأرض أقام له الشيطان أرضاً ليأخذ منها، فإما أن يردّه خاسئاً ويفرق بين الأرضين، وإما أن يكون متبحراً فيشكر الله حيث أعطاه أيضاً أرضاً متخيلة كما أعطاه أرضاً محسوسة وينظر سر الله فيها ويأخذ منها ما أودع الله فيها من الأسرار التي لم تخطر ببال إبليس، ويردها الله لهذا الشخص زيادة في ملكه وإن كان حاله السماء فإن الشيطان

يقيم له سماء مثل السماء التي يأخذ منها ويدرج له من السموم القاتلة ما يقدر عليه فيعامله العارف بما ذكرناه في معاملته له بالأرض، وإن لم يكن في هذا المقام لبس عليه وتجرع تلك السموم القاتلة ولحق بالأخسرين أعمالاً، وإن كان حاله في سدرة المنتهى أو في ملك من الملائكة جلى له صورة سدرة مثلها أو صورة مثل صورة ذلك الملك وتسمّى له باسمه، ثم ألقى إليه ما عرف أنه يلقي إليه من ذلك المقام الذي هو فيه ليلبس عليه، فإن كان من أهل التلبيس فقد ظفر به عدوه، وإن كان معصوماً حفظ منه فيطرده ويرمي ما جاء به أو يأخذه من الله دونه ويشكر الله على ما أولاه وما زاده، ثم يرتقي هذا الشخص إلى حال هو أعلى فإن كان حاله العرش أو العماء أو الأسماء الإلهية ألقى إليه الشيطان بحسب حاله ميزاناً بميزان، فإن كان من أهل التلبيس كان كما ذكرناه، وإن لم يكن انقسم أمره إلى ما ذكرناه، فقد أعلمتك أن الشيطان لا يجلي للشخص إلاّ على ما هي عليه حالته في صورة ذلك على السواء وعلى ما استقرّ في ذهنه ممّا قررته الشريعة، ألا ترى ابن صياد لما أظهر له إبليسه العرش إذ كان حاله وأبصر ذلك العرش على البحر لأنه رأى الله تعالىٰ يقول: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٧] فجلى له العرش على البحر وهو قاعد عليه يأخذ عنه ابن صياد ويتخيل أنه يأخذ عن الله، فإن الله قد قال على ما أخبره به رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فقال له رسول الله ﷺ **«ماذا ترى؟»** قال: أرى العرش، قال: **«أين؟»** قال: على البحر، فقال له رسول الله ﷺ: **«ذٰلِكَ عَرْشُ إِبْلِيسَ»** وخبّأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان من القرآن فقال له رسول الله ﷺ: **«ما خبأتُ لك؟»** فقال: الدخ والدخ هي لغة في الدخان، فقال له رسول الله ﷺ: **«اخسأ فلن تَعْدُوَ قَدْرك»**، يعني إنك ممّن لبس عليه الأمر فإنه ﷺ ما خبأ له إلاّ سورة الدخان وهي تحوي على الدخان وعلى غيره فما خبّأ له الدخان فأتاه باسم السورة لا بما خبّأ له، وما قال سورة الدخان، وإنما قال: الدخ ولم يأت في هذه السورة إلاّ الدخان لا الدخ وإن كان هو بعينه، فلم يفرق ابن صياد بين سورة الدخان وبين الدخان فجهل فلهذا قال له رسول الله ﷺ: **«اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»** حيث جاءه من هذه السورة بما يناسب إبليس الذي عرّفه بذلك وهو أن الشيطان مخلوق من النار، فما رأى من تلك الخبيئة إلاّ ما يناسبه وما عرف أنها سورة الدخان فألقى إلى ابن الصياد في روعه هذا القدر وذٰلك أنْ النبي ﷺ تلفظ باسم السورة عندما عينها في نفسه فسرقها الشيطان واختطفها من لفظه، ولو أضمرها رسول الله ﷺ في نفسه ما عرفها إبليس فإنه ليس له على قلبه ﷺ إطلاع ولا استشراف بخلاف قلب الوليّ، ولهذا أن النبي معصوم من الوسوسة في حال نزول الوحي وفي غيرها لا فرق، ألا ترى الشيطان لما علم أنْ رسول الله ﷺ بهذه المثابة والعناية من الله في عصمة قلبه من استشراف إبليس عليه جاءه في الصلاة في قبلته بشعلة نار مخيلة فرمى بها في وجهه وغرضه أن يحول بينه وبين الصلاة لما يرى له فيها من الخير فإنه يحسده بالطبع فتأخر النبيّ ﷺ إلى خلف ولم يقطع صلاته وأخبر بذلك أصحابه. وأما الوليّ فقد يلقي إليه في قلبه وقد يسمع منه ما يحدث به نفسه فيطمع أن يلبس عليه حاله كما ذكرناه، فمن كان على بينة من

ربه فقد سعد وارتفع الإشكال، ولا بدّ للبينة التي يكون عليها أن تكون بينة له، وإن لم تكن بينة فلا يقدر أن يحكم بها، فإنه قد تكون علامة لا بينة، فيتخيل أن العلامة هي البينة وليس كذلك، فإن العلامة إذا لم تكن بينة وهو التحقق بها وبها يقطع النبيون والأولياء فيما يرد عليهم من الله.

ولقد أخبرني أبو البدر التماشكي البغدادي وهو من الفقراء الصادقين من أنظفهم ثوباً وأحسنهم عبارة قال لي: جمع بيني وبين الشيخ رغيب الرحبي مجلس وكان من العارفين غير أنه لم يبلغ فيما نقل إلينا مبلغ العارفين المكملين في شغلهم أنه قال له عن رجل الوقت أنه رأى خلعة قد خرجت له من الحضرة وقد أعطى علامة في ذلك الرجل وإلى الآن فما رآه لأنه لم ير تلك العلامة، فقال له أبو البدر رضي الله عن جميعهم: يا شيخ ألم تر بعد ذلك رجالاً كثيرة؟ فقال له: نعم، قال: وكانوا من الأكابر؟ قال: نعم ولكن ما رأيت تلك العلامة في واحد منهم، فقال له أبو البدر: وما يدريك أن واحداً من أولئك الرجال الذين رأيتهم كان هو المقصود بتلك الخلعة وتغرب عليك حتى لا تعرفه؟ فقال له رغيب: قد يكون ذلك فهذا صاحب علامة ولكن ما هو على بينة في علامته، فإن العلامة إنما هي في الباطن لا تزول عنه وهو الذي يكون بها على بينة من ربه في نفسه، فإذا جعلت له العلامة في غيره كان ذلك الغير حاكماً لها إن شاء ظهر له فيها وإن شاء لم يظهر، فلذلك قال رغيب ما قال في العلامة، ولم يبين من كان محل العلامة هل هو أو ذلك الرجل؟ فلما أقرّ بوقوع ما قال له أبو البدر في الدخول عليه في علامته علمنا قطعاً إذا صدقنا رغيباً في دعواه أن العلامة كانت في غيره فإنه ما هو على بينة من ربه فعلامته فيه ما يكون في غيره، فلذلك قد يمكن أن يصحّ ما قال أبو البدر أن يكون الرجل قد دخل عليه فيمن رأى من الرجال وتغرّب عليه، فاعتراض أبي البدر على هذا العارف اعتراض صحيح محرّر في الطريق، وإقرار رغيب في ذلك إقرار صادق يدل على صدق دعواه إلاً أنه قد يكون هذا الشيخ ممّن ليس على بينة، وقد يكون من أهل البينة، إذ لم يقع في دعواه لفظ البينة وعدل إلى العلامة التي يدخلها الاشتراك.

وأما الشيخ أبو السعود ابن الشبل شيخ أبي البدر المذكور فالموصوف من أحواله أنه كان على بينة من ربه إلاً أنه كان أعقل أهل زمانه، ولولا ما حكى عنه أبو البدر المذكور أنه انتهر شخصاً في ذكر عبد القادر بغيظ لا بسكون وهدوّ وعرفه أنه يعرف عبد القادر كيف كان حاله في أهله وحاله في قبره لكان عبداً محضاً ولكن عاش بعد هذا، فقد يمكن أنه صار عبداً محضاً لأنه لم ينتهر هذا الشخص لكونه أتى أمراً محرماً في الشرع، وإنما وصف أحوال عبد القادر وعظم منزلته، فلو أنه وقع في محظور شرعي وانتهره وغضب عليه لم يخرجه ذلك عن أن يكون عبداً محضاً، فسبحان من أعطى أبا السعود ما أعطاه، فلقد كان واحد زمانه في شأنه، نعم لو كان هذا الذاكر تلميذاً له لتعين عليه انتهاره إياه لأن انتهاره من تربيته، فإن كان من تلامذته فذلك الانتهار لا يخرجه عن عبوديته، فإن كان ذلك الانتهار من أبي السعود عن أمر إلهيّ خوطب به في نفسه لمصلحة الوقت في حق من كان أو لغيرة من الله على مقام قد

أساء هذا المتكلم فيه الأدب، فانتهاره ذلك ممّا يحقق عبوديته لا يخرجه عنها، وهذا هو الظن بحال أبي السعود لا الذي ذكرناه أولاً، وإنما ذكرنا ذلك وهذا وما بينهما لنستوفي الكلام على المقام بما يقتضيه من الوجوه على كمالها، فلا بدّ أن يكون هذا الشيخ على واحد منها ولم يحكم عليه بواحد منها، فأفدنا الواقف على هذا الكتاب معرفة هذا المقام وأحواله، وإن الله ما أخبرني بحال من أحوال أبي السعود حتى نلحقه بمنزلته، والله أعلم أيّ ذلك كان، إلاَّ أني أقطع أن ميزانه بين الشيوخ كان راجحاً، نفعنا الله بمحبته وبمحبة أهل الله، وقد أوردنا من هذا المنزل بعض ما يحويه من القواصم فإنها كلها مخوفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثمانون ومائتان

في معرفة منزل المجاراة الشريفة وأسرارها من الحضرة المحمدية

[نظم: الطويل]

تَجَارَتْ جيادُ الفكر في حَلْبَة الفَهْم ... تحصَّلَ في ذاك التَّجَاري من العلم

بأسرارِ ذَوْقٍ لا تُنَالُ براحةٍ ... تعالَتْ عن الحال المكيَّف والكَمّ

أغارَ على جيش الظلام صَبَاحُها ... فأسْفَرَ عن شمسي وأعْلَنَ عن كَتْمي

وأورى زنادُ الفكر ناراً تولَّدَتْ ... من الضَّرب بالروح المولَّدِ عن جسم

فقُمْتُ على ساق الثَّنَاء مُمَجِّداً ... فجاءتْ بشاراتُ المعارف بالخَتْم

فسبحانَ مَنْ أحيا الفؤادَ بنوره ... وخصَّصَني بالأَخْذ عنه وبالفَهْم

من هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] والناطق الذي يقوم للذاكرين في قلوبهم وما هو بحكمهم من دوام الذكر الذي يكونون عليه من غير أن يتخلله فترة فيسمعون ناطقاً في قلوبهم يذكر الله فيهم وهم سكوت، أو في حديث من أحاديث النفوس وما يعرفون من ينطق فيهم فذلك الناطق هو القائل لموسىٰ ﷺ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [سورة طٰه: الآية ١٤] ويسمّى هذا النطق نطق القلب وهو الناطق عندهم، وطائفة تقول: إنه ملك خلقه الله من ذكره الذي كان عليه وأسكنه فيه ينوب عن هذا العبد في ذكره في أوقات غفلاته المتخللة بالذكر، فإن استمرت غفلاته وترك الذكر فقد هذا الناطق، ومن الناس من يرى فيه أن الحق أسمعه نطق قلبه الذي في صدره الذي هو عليه دائماً خرق عادة كرامة لهذا الشخص من الله حيث أسمعه نطق قلبه ليزيد إيماناً بنطق جوارحه كما قال: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [سورة الفتح: الآية ٤] بما جاء من نطق جوارحهم في آخر الزمان وفي الدار الآخرة، قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى يُكَلِّمَ الرَّجُلَ فَخِذُهُ بِمَا فَعَلَ أَهْلُهُ وَحَتّى يُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ»** وقال الله تعالىٰ: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٢] وقال هؤلاء يوم القيامة: ﴿لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢١]

ومن زاد على مرتبة هذا الذاكر الذي سمع نطق قلبه بسمعه أسمعه الله نطق جسده كله بل نطق جميع الجمادات والنباتات والحيوانات، فأما الحيوانات فقد يسمع نطقها ويفهم ما تقول بغير طريق الذكر بل بخاصية لحم حيوان أو مرقة لحمه يطلع آكله أو شارب مرقته على غيوب ما يحدث الله في العالم من الحوادث الجزئية والعامة ويسمع ويفهم ما تنطق به جميع الحيوانات، وقد رأيت من رأى من أكل من لحم هذا الحيوان وشرب من مرقته فكانت له هذه الحالة فكان من رآها منه يتعجب، ويكون هذا الحيوان في البرية التي بين مكة والعراق لكن خارجاً عن طريق الركب بأيام في غيضة عظيمة، وشكل هذا الحيوان شكل امرأة تتكلم باللسان العربي يخرج إليها عرب تلك البرية وهم قبيلة معروفة في كل سنة يوماً معلوماً يأتون إلى تلك الغيضة بأيديهم الرماح فيقفون على أفواه سكك تلك الغيضة وتدخل طائفة منهم في الغيضة يتفرقون فيها بالصياح ويلحّون في الطلب على هذا الحيوان لينفروه فيخرج هذا الحيوان عند ذلك هارباً شارداً إما على بعض تلك الأفواه فإن تمكن منه الواقف على تلك السكة طعنه بالرمح فقتله، وإن فاته وتوغل في البرية رجعوا إلى مثل ذلك اليوم من السنة المستقبلة هكذا في كل عام، فإذا ظفروا به قطعوه وقسموا لحمه على الحي كله وطبخ كل واحد منهم قطعته وأكلها وشرب مرقتها وأطعم منها من شاء من أهله وبيته، وإن كان عندهم غريب ممّن قد انقطع من الركب وتاه وحصل عندهم وصادف ذلك اليوم منعوه من أكل لحمها أو شرب مرقتها إلاّ أن يتناوله بسرقة من غير علم منهم، فإن علموا به استفرغوه جبراً بالقيء المفرط فينقص فعل ذلك اللحم منه ولا يذهب بالكلية ويبقى عليه بقية من علم الغيوب، فسبحان من أخفى علم ما أودعه في مخلوقاته عن بعض مخلوقاته، لا إله إلا هو العليم الحكيم.

وكل ما ذكره من ذكره في معنى هذا الناطق وحقيقته فصحيح، فإنه قد يكون هذا الناطق عين قلبه، وقد يكون ملكاً يخلق من ذكره، وقد يكون روحاً يستلزمه، وقد يكون ما أومأنا إليه والفرقان بين ما أومأنا إليه وبين ما قاله غيرنا في تعيينه أنه يحادثه ويخاطبه بما شاء من التعريفات الإلهية والكونية أي بما يتعلق بمعرفة الله وبما يتعلق بالمخلوقين إذا استمر على ذكره ودام على طاعة ربه، وهو الذي قال لصاحب المواقف ما حكاه عنه في مواقفه من القول إن لم يكن هو رحمه الله قد نبّه على مراتب علوم فقال لي وقلت له، فإن بعض العارفين قد يفعل هذا إذ لم يروا قائلاً في الوجود غير الله حالاً ولفظاً وكله علم محقق، غير أنه إذا كان تعبيراً عن مراتب علوم فيتوهم السامع منه إذا قال صاحب هذا المقام قال لي وقلت له إن الحق يكلمه فإن سأله السامع عرفه بالأمر فإنهم أهل صدق إذا كان السائل مؤمناً بما يقوله أهل طريق الله، فإن كان متردّداً في إيمانه بذلك فإنه يسكت عنه في ذلك إن كان ممّن لا تلزمه طاعته شرعاً، فإن كان ممّن تلزمه طاعته شرعاً وليست عنده أهلية لذلك قال له إنما هي عبارات أحوال ونطق حال لا نطق مقال، كما تقول الأرض للوتد: لم تشقني؟ فيقول لها الوتد: سل من يدقني، يعني الدقاق الذي يدق به الوتد، وهذا لسان حال معلوم يضرب مثلاً معروفاً بين الناس.

ثم لتعلم بعد أن بيّنت لك هذا أن المسارع إلى الخيرات السابق لها إن كان يريد المشاهد الإلهيّة والعلوم الربانية فليكثر سهر الليل وليكثر فيه الجمعية دائماً، فإن لاحت له أنوار متفرّقة يتخللها ظلمة ما بين كل نور ونور ولا يكون لتلك الأنوار بقاء تكون سريعة الذهاب فتلك أوّل علامات القبول والفتح، فلا يزال تظهر له تلك الأنوار الشريفة بالمجاهدات والمسارعة فيها وإليها إلى أن يطلع له نور أعظم، فإنه يكشف به الموانع التي تمنع الناس من نيل هذه العلوم، ويكشف أسراراً في مقاماتها ليس فيه منها شيء ولا هو موصوف بها، فيكشف له عن أعماله التي كان عليها من أذكاره ورياضاته ومجاهداته قد أنشأها الله خلقاً روحانياً، فتسابق إلى أخذ تلك الأسرار كما يسبق هو بها فيأخذها وتكسو عاملها بها جزاء وفاقاً له حيث كان سبباً لوجود أعيان ذلك الخلق الذين هم عين أفعاله البدنية من نطق وحركة، وكان الحضور أرواح تلك الصور العملية، فيتصف العامل عند ذلك بالعلم بتلك العلوم والأسرار هكذا يشاهدها إذا أشهدها، وقد يجد تلك العلوم من خلف حجاب الغيب ولا يطلع على الأمر كيف كان وهو كما ذكرنا، قال القائل: [الكامل]

جيشٌ إذا عَطَس الصباحُ على العِدَى ... كانتْ إغارةُ خَيْلِهِ تَشْمِيتَا

ويشاهد مواقفات بين صور تلك العلوم وبين صور هذه الأعمال من أجل انتظار الإذن الإلهيّ في ذلك، فإن كان العامل ممّن قد أراد الله أن يفتح له في الدنيا في حصول هذه الأسرار ورد الإذن الإلهيّ بذلك ففتح على هذا العامل في باطنه بعلوم شتى فيقال: فلان قد فتح عليه وإن كان الله يريد أن يخبىء له ذلك إلى الدار الآخرة لمصلحة يراها له في منع ذلك لم تمكن صور الأعمال من خلع تلك العلوم على العامل لكن تلبسها الأعمال إلى أن ينقلب العامل إلى الدار الآخرة فيجدها مخبوءة له في أعماله فيلبسها خلعاً إلهية فيقال في هذا العامل في الدنيا إنه ما فتح له مع كثرة عمله، ويتعجب المتعجبون من ذلك لأنهم يتخيلون أن الفتح أمر لازم، وكذلك هو أمر لازم تطلبه الأعمال وتناله، ولكن متى يكون ذلك صفة للعامل هل في الدنيا أو في الآخرة؟ ذلك إلى الله، فإذا رأيت عامل صدق أو عرفت ذلك من نفسك ولم تر يفتح لك في باطنك مثل ما فتح لمن تراه على صورتك من العمل فلا تتهم فإنه مدّخر لك واطرح عن نفسك التهمة في ذلك، فلا تتهم ولا تجعل نفسك من أهل التهم وقل كما قلت في ذلك: [مجزوء الرجز]

مَا أنَا مِنْ أَهْلِ التُّهَمْ ... ولا أنا مِمَّنْ أُتَّهَمْ
وإنَّنِي إن قُلْتُ لا ... أقولُ مِنْ بعدِ نَعَمْ
ولا أقولُ عَكْسَ ذا ... فإنَّنِي بَحْرٌ خِضَمّ
وإنَّنِي ابنُ حاتم ... بيتِ السَّمَاحِ والكَرَمْ
فَكَمْ لَنَا مآثِرٌ ... مَنْصوبةٌ مثلَ العَلَمْ
ليُهْتَدَى بِضَوْئِها ... في عَرَبٍ وفي عَجَمْ
مَعْلومَةٌ مشهورةٌ ... مَذْكورةٌ بكلِّ فَمْ

مـــحـــبـــوبـــةٌ مـــشـــكـــورةٌ ســـــاريـــــةٌ وكـــــم وكَـــــمْ

وما أحسن قول القائل في مثل ما قلت: [الطويل]

وإنـــي إذا أَوْعَـــدتُـــه أو وَعَـــدْتُـــه لَـمُـخْـلِـفُ إيـعـادي ومُـنْـجِـزُ مَـوْعـدي

وهذا من الكرم الإلهي أنه جعل مانعاً في مقابلة الوعيد وإنفاذه وهو العفو والتجاوز، ولم يجعل للوعد بالخير مانعاً من اسم إلهي، وإذا كانت حالة العبد من الكرم بهذه المثابة فالجناب الإلهي أحق بهذه الصفة، وإنما نبهت على أنني ابن حاتم من أجل الكرم الذي جبلت عليه ولي فيه الأصل المؤثل مثل ما قيل: إن الجياد على أعراقها تجري. والأعراق هي الأصول جمع عرق وهو الأصل في لسان العرب.

واعلم أن العارفين يعاملون المواطن بحسب ما تقتضيه وغير العارفين ليس كذلك، فالعارف إن أظهر للناس ما منحه به ربه من المعارف والأسرار لا يظهر ذلك إلاَّ من أجل ربه لا على طريق الفخر على أبناء جنسه فحاشاه من ذلك كما قال ﷺ حين أمر أن يعرّف الناس بمنزلته: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**» هذا الذي قيل له قل ثم قال من نفسه: «**وَلاَ فَخْرَ**» يقول: إني ما قصدت بهذا الكلام الفخر ولكن عرفتكم بالمقام الإلهي عن الإذن. وأما إذا كانْ تعريف العارف منزلته للناس عن غير أمر إلهي ولا إذن رباني فإنه هوى نفس بتأويل ظهر له وهي زلة وقعت منه ينبغي له أن يتعوذّ بالله من شرها، فإن الموطن الدنياوي لا يقتضي الفتح ولا التعريف بالمقام إلاَّ للأنبياء خاصة إذا أرسلوا، وأما الأولياء فحصرتهم العبودية المحضة فهم في ستر مقامهم وحالهم لربهم لا لأنفسهم أي من أجل ربهم، وأنهم حاضرون في ذلك مع ربهم، وإن كان العارف من حيث إنسانيته ونفسه محباً في الثناء عليه بمنزلته من سيده ليظهر بذلك الشفوف على أبناء جنسه وهو معذور، فأي فخر أعظم من الفخر بالله؟ ولكن العبد الخالص له الدين الخالص والدين الخالص هو ما يجازيه به ربه من ثنائه عليه بلسان الحق وكلامه لا بلسان المخلوقين، فهو يحب الثناء من الله ليعلم بإعلام الله إياه أنه ما أخلّ بشيء ممّا يقتضيه مقام العبودية أو يستحقه مقام الربوبية ليكون من نفسه على بصيرة، فقد أحب ما تقتضيه إنسانيته ونفسه من حب الثناء، ولكن من الله لا من المخلوق ولا من نفسه على نفسه عند المخلوقين فإنه على غير بصيرة فيه ولا إذن من ربه في ذلك، كما أنه يحب المال لما يستلزمه من الغنى عن الافتقار إلى المخلوقين، فمن كان غناه بربه فهو ماله إذ المال ليس محبوباً لنفسه ولا لادّخاره من غير توهم رفع الحاجة بوجوده فاعلم ذلك، فجميع النفوس محبة للمال في الظاهر وهو الغنى في المعنى، فبأي شيء وقع الغنى في نفس العبد فهو المال المحبوب عنده بل لكل نفس، وفي ذلك قلت: [مخلع البسيط]

بـــالـــمـــال يَـــنْـــقـــاد كـــلُّ صَـــعْـــبٍ مـــن عَـــالَـــم الأرض والـــســـمـــاءِ

فـــحَـــبْـــسُـــه عـــالـــم حـــجـــابٌ لـــم يـــعـــرفـــوا لـــذَّةَ الـــعَـــطـــاءِ

ومنها أعني من هذه القصيدة: [مخلع البسيط]

لا تَـــحْـــسَـــبِ الـــمـــالَ مـــا تـــراه مـــن عَـــسْـــجَـــدٍ مُـــشْـــرِقٍ لـــرائـــي

بل هو ما كنتَ يا بُنَيَّ ... به غنياً عن السَّوَاءِ
فكُنْ بربٍّ العُلَى غنياً ... وعَامِلِ الحقَّ بالوفاءِ

ومن هذا المنزل تعلم يا بني ما أكنته القلوب من الأمور وما يجري فيها من الخواطر وما تحدث به نفوسها على طريق الإحصاء لها فيما مضى، حتى أن المتحقق بهذا المنزل يعرف من الشخص جميع ما تضمنه قلبه وما تعلقت به إرادته من حين ولادته وحركته لطلب الثدي إلى حين جلوسه بين يديه ممّا لا يعرفه ذلك الشخص من نفسه لصغره، ولما طرأ عليه من النسيان وعدم الالتفات لكل ما يطرأ في قلبه وما تحدثه به نفسه لقدم الزمان فيعرفه صاحب هذا المنزل منه معرفة صحيحة لا يشك ولا يرتاب فيها لا من نفسه ولا من كل من هو بين يديه أو حاضر في خاطره وهو حال يطرأ على العبد.

وهذا المنزل قد سمعنا من أحوال أبي السعود بن الشبل أنه كان له، حدثنا صاحبنا أبو البدر رحمه الله أن الشيخ عبد القادر ذكر بين يدي أبي السعود وأطنب في ذكره والثناء عليه وكان القائل قصد به تعريف الشيخ أبي السعود والحاضرين بمنزلة عبد القادر وأفرط فقال له الشيخ أبو السعود: كم تقول أنت تحب أن تعرفنا بمنزلة عبد القادر كالمنتهر له والله إني لأعرف حال عبد القادر كيف كان مع أهله وكيف هو الآن في قبره؟ وهذا لا يعلم إلاّ من هذا المنزل، ولكن لا يحصل له هذا التحصيل الكامل إلاّ في الرجوع من الحق إلى رؤية المخلوقين بعين الله وتأييده لا بعينه وقوّته. ومن هذا المنزل أيضاً يعلم كم حشر يحشر فيه الإنسان.

فاعلم أن الروح الإنساني أوجده الله حين أوجده مدبراً لصورة طبيعية حسية له سواء كان في الدنيا أو في البرزخ أو في الدار الآخرة أو حيث كان، فأول صورة لبستها الصورة التي أخذ عليه فيها الميثاق بالإقرار بربوبية الحق عليه، ثم إنّه حشر من تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمية الدنياوية وحبس بها في رابع شهر من تكوين صورة جسده في بطن أمّه إلى ساعة موته، فإذا مات حشر إلى صورة أخرى من حيث موته إلى وقت سؤاله، فإذا جاء وقت سؤاله حشر من تلك الصورة إلى جسده الموصوف بالموت فيحيا به ويؤخذ بأسماع الناس وأبصارهم عن حياته بذلك الروح إلاّ من خصّه الله تعالىٰ بالكشف على ذلك من نبي أو ولي من الثقلين، وأما سائر الحيوان فإنهم يشاهدون حياته وما هو فيه عيناً، ثم يحشر بعد السؤال إلى صورة أخرى في البرزخ يمسك فيها بل تلك الصورة هي عين البرزخ والنوم والموت في ذلك على السواء إلى نفخة البعث فيبعث من تلك الصورة ويحشر إلى الصورة التي كان فارقها في الدنيا إن كان بقي عليه سؤال، فإن لم يكن من أهل ذلك الصنف حشر إلى الصورة التي يدخل بها الجنة، والمسؤول يوم القيامة إذا فرغ عن سؤاله حشر في الصورة التي يدخل بها الجنة أو النار وأهل النار كلهم مسؤولون، فإذا دخلوا الجنة واستقروا فيها ثم دعوا إلى الرؤية وبادروا حشروا في صورة لا تصلح إلاّ للرؤية، فإذا عادوا حشروا في صورة تصلح للجنة، وفي كل صورة ينسى صورته التي كان عليها ويرجع حكمه إلى حكم الصورة التي انتقل إليها

وحشر فيها، فإذا دخل سوق الجنة ورأى ما فيه من الصور فأية صورة رآها واستحسنها حشر فيها، فلا يزال في الجنة دائماً يحشر من صورة إلى صورة إلى ما لا نهاية له ليعلم بذلك الاتساع الإلهيّ، فكما لا يتكرّر عليه صور التجلي كذلك يحتاج هذا المتجلي له أن يقابل كل صورة تتجلى له بصورة أخرى تنار إليه في تجليه، فلا يزال يحشر في الصورة دائماً يأخذها من سوق الجنة ولا يقبل من تلك الصور التي في السوق، ولا يستحسن منها إلاَّ ما يناسب صورة التجلي الذي يكون له في المستقبل، لأن تلك الصورة هي كالاستعداد الخاص لذلك التجلي، فاعلم هذا فإنه من لباب المعرفة الإلهية، ولو تفطنت لعرفت أنك الآن كذلك تحشر في كل نفس في صورة الحال التي أنت عليها، ولكن يحجبك عن ذلك رؤيتك المعهودة، وإن كنت تحسّ بانتقالك في أحوالك التي عليها تتصرف في ظاهرك وباطنك، ولكن لا تعلم أنها صور لروحك تدخل فيها في كل آن وتحشر فيها ويبصرها العارفون صوراً صحيحة ثابتة ظاهرة العين، وهذا المنزل منزل الخبرة والمهيمن عليه الاسم الرب، وهذه الصور إنما تطلبها الخبرة لإقامة الحجة عليها في موطن التكليف، فالعارف يقدم قيامته في موطن التكليف التي يؤول إليها جميع الناس فيزن على نفسه أعماله ويحاسب نفسه هنا قبل الانتقال، وقد حرّض الشرع على ذلك فقال: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**» ولنا فيه مشهد عظيم عايناه وانتفعنا بهذه المحاسبة فيه فلم تعد علينا في الموطن الذي يحاسب الناس فيه، وما أخذت هذا المقام إلاَّ من شيخنا أبي عبد الله بن المجاهد وأبي عبد الله بن قسوم بإشبيلية فإنه كان حالهما، وزدت على ابن قسوم في ذلك بمحاسبة نفسي بالخواطر، وكان الشيخ لا يحاسب نفسه إلاَّ على الأفعال والأقوال لا غير، وهذا القدر كاف في التعريف بما يتضمنه هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. قيل لي: قل في آخر كل منزل: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الباب الخامس والثمانون ومائتان
في معرفة منزل مناجاة الجماد ومن حصل فيه حصل من الحضرة المحمدية والموسوية نصفها

[نظم: الوافر]

تُناجيني العناصرُ مُفْصِحاتٍ ... بما فيها من العلم الغريبِ
فأعلمُ عند ذاك شُفُوفَ جسمي ... على نفسي وعقلي من قَريبِ
فيا قومي علومُ الكَشْف تَعْلو ... بما تُعطي على عِلْم القُلوبِ
فإنَّ العقلَ ليس له مجالٌ ... بمَيْدان المَشَاهد والغُيوبِ
فكم للفكر من خَطَأ وعَجْزٍ ... وكم للعين من نَظَر مُصيبِ
ولولا العينُ لم يظهَرْ لعقلٍ ... دليلٌ واضحٌ عند اللَّبيبِ

أما قولنا: وكم للعين من نظر مصيب فإنما جئنا به صنعة شعرية لما قلنا قبل في صدر

البيت، وإنما المذهب الصحيح أن العين لا تخطىء أبداً لا هي ولا جميع الحواس، فإن إدراك الحواس الأشياء إدراك ذاتيّ، ولا تؤثر العلل الظاهرة العارضة في الذاتيات، وإدراك العقل على قسمين: إدراك ذاتي هو فيه كالحواس لا يخطىء، وإدراك غير ذاتي وهو ما يدركه بالآلة التي هي الفكر وبالآلة التي هي الحسّ، فالخيال يقلد الحسّ فيما يعطيه، والفكر ينظر في الخيال فيجد الأمور مفردات فيحب أن ينشىء منها صورة يحفظها العقل فينسب بعض المفردات إلى بعض فقد يخطىء في النسبة الأمر على ما هو عليه وقد يصيب، فيحكم العقل على ذلك الحد فيخطيء ويصيب فالعقل مقلد ولهذا اتصف بالخطأ. ولما رأت الصوفية خطأ النظار عدلوا إلى الطريقة التي لا لبس فيها ليأخذوا الأشياء عن عين اليقين ليتصفوا بالعلم اليقيني، فإن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما جهله ولا يتصف باليقين، ولهذا جاز أن يضاف العلم إلى اليقين، وليس من إضافة الشيء إلى نفسه لا لفظاً ولا معنى. فأما اللفظ فإن لفظة اليقين ما هي لفظة العلم فجازت الإضافة، ومن طريق المعنى أن اليقين عبارة عن استقرار العلم في النفس والاستقرار ما هو عين المستقر بل الاستقرار صفة للمستقر وهي حقيقة معنوية لا نفسية فليست عين نفس العلم فجازت الإضافة، وإنما قلنا إن الجاهل قد يتصف بالعلم فيما هو جاهل به فهو قوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٩] فذكر «أعلم» في الصنفين، إنما شرحنا بهذا الكلام ما قلناه في شعرنا فهو يتضمن شرح ما في هذا المنزل فلهذا أوردناه، فلنرجع إلى ما يعطيه هذا المنزل فنقول والله المؤيّد:

اعلم أن من هذا المنزل تسبيح الحصى في كف النبيّ ﷺ، ومن هذا المنزل أكله كتف الشاة، ومن هذا المنزل حبّه جبل أحد، ومن هذا المنزل سلم عليه الحجر، ومنه يشهد للمؤذن مدى صوته من رطب ويابس، ومنه هرب الحجر بثوب موسىٰ عليه السلام حتى أبصرت بنو إسرائيل عورته بريئة ممّا نسبوا إليه فقال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٩] ومنه قالت السموات والأرض لما تعلق بهما الأمر الإلهيّ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١]. ولما كان طلب حمل الأمانة عرضاً لا أمراً لهذا أبت القبول لعلمها أنها تقع في الخطر فلا تدري ما يؤول إليه أمرها في ذلك، وحكم هذا المنزل في الشرع واسع، فلنذكر بتأييد الله بعض ما يتضمنه هذا المنزل إن شاء الله تعالىٰ.

فأول علم يتضمنه هذا المنزل علم الحركات المعقولة والمحسوسة، فاعلم أن الحركات وهي المعاني التي تكون عنها الانتقالات، واختلف أصحابنا فيها هل هي ذوات موجودة في عينها أم هي نسب؟ وهي عندنا نسب، وهذه النسب تعطي من الأحكام بحسب ما تنسب إليه، فلها نسبة في المتحيزات تخالف نسبتها في غير المتحيزات، ونسبة في الأجسام تخالف نسبتها في الجواهر، وما من موجود إلاّ ولها فيه نسبة خاصة وإن كانت نسبة، قال رسول الله ﷺ: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيا فِي الثُّلُثِ البَاقِي مِنَ الليلِ»** وهو موصوف سبحانه بأنه على عرشه مستو بالمعنى الذي أراده وهو سبحانه معكم أينما كنتم كما يليق به ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] إلينا، وهو تعالىٰ في العماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، فهذا كله يدلك على ما يراد بالانتقالات، فقد يكون ظهور حكم صفة على صفة، وقد يكون الانتقال من حال إلى حال، وقد يكون من حيّز إلى حيّز، وقد يكون من مكان إلى مكان، وقد يكون من منزلة إلى منزلة، فقد أعلمتك أن الانتقال سار في جميع الموجودات على ما تستحقه ذواتها فتختلف كيفيات النسب وكله راجع إلى حكم الحركة، ومن هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩].

ثم لتعلم بعد أن قرّرنا هذا أن الحركة في المتحركات على قسمين: طبيعية وهي كالنموّ في الناميات وعرضية، والعرضية اختيارية وغير اختيارية، فالاختيارية لا توجد إلاّ في الحيوان، وغير الاختيارية تكون في الحيوان وغيره، وقسرية وهي التي تقع من غير المتحرك سواء اقتضاها طبعه أو لم يقتضها طبعه، فالجماد والنبات الحركة القسرية فيه لا يقتضيها طبعه، وغير الجماد تكون فيه على خلاف ما يقتضيه اختياره، وقد يكون المحرك من جنس المحرك وقد لا يكون، وقد تكون الحركة قسرية عن حركة قسرية، وقد تكون لا عن حركة قسرية، فالأولى كتحريك الرياح الأغصان، والثانية كرمي الإنسان الحجر علواً في الهواء، ويدق الكلام في هذه المسألة ويخفى فإنها مسألة عظيمة القدر وما هي من العقول ببال، ولها تعلق بباب التولد مثل حركة الخاتم لحركة الأصبع وحركة الكم لحركة اليد، وللحركة سلطان عظيم حكمها مشهود في الأجسام ولوازمها ومعقول في المعاني وما لا يعرف حدّه فلها السريان الأتم في الموجودات، وأوّل حكم لها في كل ما سوى الله خروج الأعيان وانتقالها من حالة العدم إلى حالة الوجود، ولا يصحّ استقرار من موجود أصلاً، فإن الاستقرار سكون والسكون عدم الحركة فافهم.

وبعد أن تقرّر هذا فإن الحركة التي في هذا المنزل التبس على الناس أمرها، فما عرفوا هل هي طبيعية أو قسرية؟ أو طبيعية قسرية؟ أو طبيعية لا قسرية؟ أو قسرية لا طبيعية؟ وإنما تصوّر الخلاف ممّن لم يشهد هذا المنزل ولا دخل فيه وهي عندنا حركة طبيعية اختيارية لإظهار أسرار عن أمر إلهيّ. واختلفوا في السبب الموجب لهذه الحركة هل السبب سبب الحياة أو سببها عالم الأنفاس أو لا سبب لها إلاّ الأمر الإلهيّ؟ فاعلم أن الأمر في ذلك وجود الأمر الإلهيّ في عالم الأنفاس فتوجه على هذا الكون فحرّكه فقبل الحركة بطبعه كتوجه الهواء على الأشجار ليحركها بهبوبه، فالمشاهد يرى حركة الأغصان لهبوب الرياح، والعلم يرى أن لولا ما أخلت الأغصان أحيازها لم تجد الرياح حيث تهب فلها الحكم فيها بوجه وليس لها الحكم فيها بوجه، وكان المقصود من تحريك الهواء الأشجار إزالة الأبخرة الفاسدة عنها لئلاّ تودع فيها ما يوجب العلل والأمراض في العالم إذا تغذت به تلك الأشجار فيأكلها الحيوان أو تفسد هي في نفسها بتغذيها بذلك، فكان هبوب الرياح لمصالح العالم حيث يطرد الوخم عنه ويصفي الجوّ فتكون الحياة طيبة، فالريح سبب مقصود غير مؤثر في مسببه، وإنما الأثر في ذلك لناصب الأسباب وجاعلها حجاباً عنه ليتبين الفضل بين الخلائق في المعرفة بالله ويتميز

من أشرك ممّن وحّد، فالمشرك جاهل على الإطلاق، فإن الشركة في مثل هذا الأمر لا تصحّ بوجه من الوجوه، فإن إيجاد الفعل لا يكون بالشركة ولهذا لم تلتحق المعتزلة بالمشركين فإنهم وحّدوا أفعال العباد للعباد فما جعلوهم شركاء وإنما أضافوا الفعل إليهم عقلاً وصدقهم الشرع في ذلك، والأشاعرة وحّدوا فعل الممكنات كلها من غير تقسيم لله عقلاً وساعدهم الشرع على ذلك لكن ببعض محتملات وجوه ذلك الخطاب فكانت حجج المعتزلة فيه أقوى في الظاهر، وما ذهبت إليه الأشاعرة في ذلك أقوى عند أهل الكشف من أهل الله وكلا الطائفتين صاحب توحيد، والمشرك إنما جهلناه لكون الموجود لا يتصف إلاّ بإيجاد واحد، والقدرة ليس لها في الأعيان إلاّ الإيجاد، فلا يكون الموجود موجوداً بوجودين، فلا يصحّ أن يكون الوجود عن تعلّق قدرتين، فإن كل واحدة منهما إنما تعطي الوجود للموجود، فإذا أعطته الواحدة منهما وجوده فما للأخرى فيه من أثر فبطل إذا حققت الشركة في الفعل ولهذا هو غير مؤثر في العقائد، فالمشرك الخاسر المشروع مقته هو من أضاف ما يستحقه الإله إلى غير الله فعبده على أنه إله فكأنه جعله شريكاً في المرتبة كإشتراك السلطانين في معنى السلطنة وإن كان هذا لا يحكم في ملك هذا ولكن كل واحد منهما سلطان حقيقة.

وبعد أن عرفت ما يتعلق من العلم بالحركة على قدر ما أعطاه الوقت من التعريف بذلك فلنبين من هذا المنزل لم وجدت هذه الحركة الخاصة؟ فاعلم أنها وجدت لإظهار ما خفي في الغيب من الأخبار التي يثقل كونها على الخلق كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٥] وقال في شأن الساعة: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٧] وذلك أن الغيب إذا ثقل عليه الأمر وضاق عنه ولم يتسع له استراح على عالم الشهادة، فتنفس الغيب تنفس الحامل المثقل، فأبرز في عالم الشهادة ما كان ثقل عليه حمله، وهو في المعنى كما يثقل على الإنسان كتم سرّه وحمل همّه إذا لم يجد من يستريح عليه من إخوانه، فإذا وجد أخاً يبث إليه من همّه الذي هو فيه وثقل عليه ما يجد في بثّه له راحة بما أخذه منه صاحبه فكأنه قاسمه فيه فخف عليه، فإن كان ما وقع له به الهم تحت قدرة من يبثّه إليه من إخوانه فقضى حاجته أزال ذلك الثقل عنه بالكلية، فمثل هذا هو الثقل الذي يكون في الغيب فيستريح على الشهادة، وسبب ذلك كونه ليس له إنما هو أمانة عنده للشهادة، وإذا كان المطلوب من ذلك الأمر الشهادة فإنما هو عند الغيب أمانة، فيكون الغيب مكلفاً بحفظها وأدائها في وقتها إلى الشهادة فبالضرورة يثقل عليه، ألا ترى إلى قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ يعني لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] يعني بقدرها فهي ثقيلة في المعنى وإن كانت خفيفة في التحمّل، فكانت السموات والأرض والجبال في هذه المسألة أعلم من الإنسان ولم تكن في الحقيقة أعلم وإنما الإنسان لما كان مخلوقاً على الصورة الإلهية وكان مجموع العالم اغتر بنفسه وبما أعطاه الله من القوّة بما ذكرناه فهان عليه حملها، ثم إنه رأى الحق قد أهله للخلافة من غير عرض عليه مقامها فتحقق أن الأهلية فيه موجودة ولم تقو السموات على الانفراد ولا الأرض

على الانفراد ولا الجبال على الانفراد قوّة جمعية الإنسان، فلهذا أبين أن يحملنها وأشفقن منها، وما علم الإنسان ما يطرأ عليه من العوارض في حملها فسمّي بذلك العارض خائناً، فإنه مجبول على الطمع والكسل وما قبلها إلاً من كونه عجولاً، فلو فسح الحق له في الزمان حتى يفكر في نفسه وينظر في ذاته وفي عوارضه لَبانَ له قدر ما عرض عليه، فكان يأبى ذلك كما أبته السماء وغيرها ممّن عرضت عليه.

ولقد روينا فيما رويناه عن الحسن البصري أن رجلاً قدم من سفر فقصد دار الحسن فلما خرج إليه الحسن قال له: إني قدمت من مدينة كذا وحملني فلان صديقك السلام عليك فهو يسلم عليك، فقال له الحسن: متى قدمت؟ قال: الساعة، قال: هل مشيت إلى بيتك قبل أن تأتيني؟ قال: لا هذا دخولي على حالتي إليك لأؤدي أمانتك، قال: يا هذا أما إنك لو مشيت إلى بيتك قبل أن تأتيني ومتّ متّ خائناً، فالعاقل من لا يعد ولا يحمل أمانة، وحكم الأمانة إنما هي لمن توصل إليه لا لمن يحملك إياها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨] ولا شك ولا خفاء أنه في طبع كل شيء القلق ممّا يثقل عليه حتى يخرجه عنه لكونه ليس له ما ثقل عليه وإنما هو أمر زائد، فإذا كان ذلك الأمر له زال ذلك الثقل وفرح به حيث صار ملكه وظهرت له سيادته عليه، ألا ترى أن الإنسان إذا أودعت عنده مالاً كيف يجد ثقله عليه ويتكلف حفظه وصيانته؟ فإذا قال له رب المال: قد وهبته لك وأخرجته عن ملكي وخرجت عنه كيف يرجع حمل ذلك المال عنده خفيفاً ويسرّ به سروراً عظيماً ويعظم قدر ذلك الواهب في نفسه، كذلك العبد أوصاف الحق عنده أمانة لا يزال العارف بكونها أمانة عنده تثقل عليه بمراقبته كيف يتصرّف بها وأين يصرفها؟ ويخاف أن يتصرف فيها تصرف الملاك، فإذا ثقل عليه ذلك ردّها إلى صاحبها وبقي ملتذاً خفيفاً بعبوديته التي هي ملك له بل هي حقيقته، إذ الزائد عليه قد زال عنه وحصل له الثناء الإلهيّ بأداء أمانته سالمة، فقد أفلح من لم يتعد قدره، كما يقال في المثل: ما هلك امرؤ عرف قدره، ومن هذا المنزل يعلم متعلق الاستفهام حيث كان، وذلك أن الاستفهام لا يكون إلاً مع عدم العلم في نفس الأمر، أو مع إظهار عدم العلم لتقرير المستفهم من استفهمه على ما استفهمه مع علم المستفهم بذلك فيقول المستفهم: أيّ شيء عندك؟ وما لك ضربت فلاناً؟ فعلة الاستفهام عن الأمور عدم العلم.

والباعث على الاستفهام يختلف باختلاف المستفهم، فإن كان عالماً بما استفهم عنه فالمقصود به إعلام الغير حيث ظنوا وقالوا خلاف ما هو الأمر عليه مثل قوله تعالىٰ لعيسىٰ عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] بحضور من نسب إليه ذلك من العابدين له من النصارى، فتبرأ عيسىٰ بحضورهم من هذه النسبة فيقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦] فكان المقصود توبيخ من عبده من أمته وجعله إلهاً، فقد وقع في الصورة صورة الاستفهام وهو في الحقيقة توبيخ. ومثل هذا في صناعة العربية إذا أعربوه في الاصطلاح يعربونه همزة تقرير وإنكار لا استفهام وإن قالوا فيه همزة استفهام والمراد به الإنكار، فلهم في إعراب مثل هذا

طريقتان، فينبغي للعبد أن لا يظهر بصفة تؤدّيه إلى أن يستفهم عنه فيها ربه لما تعطيه رائحة الاستفهام في المستفهم من نفي العلم، وذلك الجناب مقدس منزّه عن هذا، فاحذر من هذا المقام ولا تعصم من مثل هذا إلاّ بأن تكون عبوديتك حاكمة عليك ظاهرة فيك على كل حال، فإن استفهمك الحق عن شيء فيكون ذلك ابتداء منه لا سبب لك فيه وهو سبحانه لا يحكم عليه شيء فإنه إن شاء استفهم وإن شاء لم يستفهم، مع نسبة العلم إليه تعالىٰ فيما يستفهم عنه لا بدّ من ذلك.

وللاستفهام أدوات مثل ما وأي والهمزة فيخصّ هذا المنزل من الأدوات بما خاصة دون من وغيرها من الأدوات ليس لغيرها من أدوات الاستفهام في هذا المنزل دخول، وما وقفت إلى الآن على سبب اختصاص هذا المنزل بها دون غيرها وهي في الحكم فيمن تدخل عليه حكم من، والهمزة فإنها تدخل على الأسماء والأفعال والحروف ما ثم إلاّ هذه الثلاث مراتب فعمّت فكان لهذا المنزل عموم الاستفهام، ولا يصحّ أن يظهر في هذا المنزل على هذه الحالة إلاّ أداة ما لان معانيه تطلبها وقد يستفهم بالإشارة، ومن هذا المنزل إفشاء الأسرار وخفي الغيوب لطلب المواطن لها، فيعلم الإنسان من هذا المنزل المواطن التي ينبغي أن يبدي فيها ممّا عنده من الغيوب ويعرف أن موطن الدنيا لا يقتضي ذلك ولهذا لم يظهر من ذلك على الملامية شيء، وأعني بالغيوب هنا كل غيب لا يطلبه الموطن. وأما الغيوب التي يطلبها كل موطن فلا بدّ أن يخرج غيب كل موطن في موطنه إلى الشهادة وهذا حال الملامية إلاّ أن يقترن بإبراز ذلك أمر إلهيّ ولا يقترن به أمر قط إلاّ أن يطلبه حال ما من الأحوال، وأما من غير حال تطلبه فلا، ولهذا جهل الناس مقادير أهل الله تعالىٰ عند الله وبهذا سمّوا أمناء، فإذا اقتضى الموطن إبراز غيبه فالعارف أول من يبادر إلى ذلك ويسارع فيه، وإن لم يفعل كان غاشاً خائناً لا يصلح لشيء، فإن سبق بإظهاره غيره تعين عليه ذلك الوقت إخفاؤه وأن لا يطلع أحد من الخلق على ما عنده فيه إذ قد ناب غيره فيه منابه، فلم يبق لهذا العارف في إظهار ذلك منه إلاّ حظ نفس لا غير، وهذا ليس من شأن خصائص الحق وأهله، فإن جاءه وحي من الله بذلك مع أنه قد ظهر على يد غيره فليبادر لأمر الله وليظهره ويكون فيه كالمؤيد للأوّل.

واعلم أنه ما من جنس من أجناس المخلوقين إلاّ وقد أرسل إليه من ملك وجن وإنسان وحيوان ونبات وجماد، فذكر من الحيوان النحل ومن الجماد السماء والأرض وإن كان الكل عندنا أحياء، ولكن نجري على المعهود المتعارف في الحسّ الغالب وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٤] وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩] وقال: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٥] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤] أي بلحنهم، والوحي على ضروب شتى ويتضمنه هذا المنزل، فمنه ما يكون متلقّى بالخيال كالمبشرات في عالم الخيال وهو الوحي في النوم، فالمتلقى خيال، والنازل كذلك، والوحي كذلك، ومنه ما

يكون خيالاً في حسّ على ذي حسّ، ومنه ما يكون معنى يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلّق حسّ ولا خيال بمن نزل به، وقد يكون كتابةً، ويقع كثيراً للأولياء وبه كان يوحى لأبي عبد الله قضيب البان ولأبي زكريا البجائي بالمعرة بدير النقرة ولبقي بن مخلد تلميذ أحمد بن حنبل صاحب المسند ولكن كان أضعف الجماعة في ذلك، فكان لا يجده إلاّ بعد القيام من النوم مكتوباً في ورقة، وممّا يتضمن هذا المنزل خلق الأعراض صوراً ذوات قائمة متحيزة في رأي العين. فاعلم أن الإنسان إذا جاء الله به إليه جمعه عليه جمعية لا تفرقة فيها حتى يهبه الله تعالىٰ في ذلك ما يريد أن يهبه مما سبق في علمه، فإذا خرج عن ذلك المشهد وعن تلك الحالة خرج بما حصل له، وكان قد حصل له أمراً كلياً مجملاً غير مفصل، فيبدو له عند الخروج مفصل الأعيان لكل جزء منه صورة تخصّه فيخرج عن حال جمعيته إلى حال تفرقته فتبادر صور الأعمال إليه دفعة واحدة، وتتعلق كل صورة منها بمن كان أصلاً في وجودها، فإما له وإما عليه، فتتعلق بعينه صور نظره وبأذنه صور تعلق سمعه، وكذلك سائر حواسه في ظاهره، ويتعلق بباطنه صور أعمال باطنه من أعمال فكره وخياله وسائر قواه الباطنة فيه، فإن كانت الصور العملية توجب فرحاً فرح بذلك وبضده، وإن كانت صور الأعمال توجب حزناً وغماً كان الإنسان بحسب ما توجبه الصورة، فإن كان من صورة ما يوجب هذا أو يوجب هذا كان فرح الجزء الذي له صورة العمل المفرح فرحاً من حيثيته لا من حيث النفس المكلفة، فيتنعم ذلك الجزء الإنساني بقدر ذلك، ويحزن الجزء الآخر بصورة عمله أيضاً، والنفس في هذه الحالة تفرح بحكم التبعية لفرح هذا وتحزن بحكم التبعية لحزن هذا في حال واحدة بإقبالين مختلفين، كما كانت تسمع في حال النظر، في حال البطش، في حال السعي، في حال اللمس، في حال الشم، في حال الطعم، ولا يشغلها واحد عن الباقي مع أحدية المدرك، كذلك ينعم من طريق ويحزن من طريق فهو الفرح المحزون وهو الرابح المغبون إلى أن يدخل الجنة، وهذا من أعجب المشاهد، وقليل واجده في هذه الدار من أهل الطريق لعدم كشفهم وتحققهم وقلة علمهم بذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثمانون ومائتان

في معرفة منزل من قيل له كن فأبى فلم يكن من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

شمسُ الفَنَاء بدَتْ في كافِ تكويني ... لعِلْمها أنها بالنور تُفْنيني

وقد أشارتْ ولم أعلَمْ إشارَتَها ... بأن في ذلك الإيماء تَغْنيني

فكنتُ واواً لعين العلم ظاهرةً ... خفيَّةَ العين بين الكاف والنُّونِ

فصَّلتُ في اللوح أسراراً متوَّجةً ... قد كان أجْمَلَها الرحمنُ في النونِ

من هذا المنزل قيدت جزءاً سميته الفناء في المشاهدة، فلنذكر الآن ما يتضمنه هذا المنزل على ما يحوي عليه من الأصول فإن البسط فيه يطول. فاعلم أن مظهر هذا المنزل

اسمه النور ولكن الأنوار على قسمين: نور ما له شعاع ونور شعشعاني. فالنور الشعشعاني إن وقع فيه التجلي ذهب بالأبصار وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حين قيل له: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: «**نورٌ أنَّى أراهُ**» يقول نور كيف أراه يريد النور الشعشعاني، فإن تلك الأشعة تذهب بالأبصار وتمنع من إدراك من تنشق منه تلك الأشعة، وهو أيضاً الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «**إنَّ للّهِ سَبعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَها لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ مَا أدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» والسبحات هنا هي أنوار حقيقته فإن وجه الشيء حقيقته. وأمّا النور الذي لا شعاع له فهو النور الذي يكون فيه التجلي ولا شعاع له ولا يتعدّى ضوؤه نفسه، ويدركه المبصر في غاية الجلاء والوضوح بلا شك وتبقى الحضرة التي يكون فيها هذا الذي كشفت له في غاية من الوضوح لا يغيب عنه منها شيء في غاية الصفاء، وفي هذا التجلي يقول النبيّ ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**» فمن بعض ما يريد بهذا التشبيه الذي وقع بالرؤية إدراك ذات القمر لضعف أشعة القمر أن يمنع البصر من إدراك ذاته، والصحيح في ذلك أنه يريد به إذا كسف ليلة بدره فإنه عند ذلك يدرك البصر ذات القمر التي لا تقبل الزيادة ولا النقصان فهو إدراك محقق لذات القمر. ثم قال في نفس الحديث: «**أَوْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بالظَّهِيرَةِ لَيسَ دُونَها سَحَابٌ**» وفي ذلك الوقت يكون نورها أقوى فتظهر الأشياء كلها بها فيدرك البصر كل ما وقع عليه من الأشياء إدراكه حين كشفت له هذه الشمس، وإذا أراد أن يحقق النظر إلى ذات الشمس في هذه الحالة لا يقدر، فأوقع التشبيه أن هذا التجلي ليس يمنع أن يرى الناس بعضهم بعضاً أي لا يفنى، فلهذا أوقع التشبيه برؤية القمر ليلة البدر وبرؤية الشمس وما اقتصر على واحد منهما، وأكد البقاء في هذا المشهد بقوله: «**لا تُضَارّونَ وَلاَ تُضَامُونَ**» من الضيم والضم الذي هو المزاحمة ومن الضير والإضرار، ولما دخلت هذا المنزل وقع لي فيه التجلي في النور الذي لا شعاع له فرأيته علماً ورأيت نفسي به ورأيت جميع الأشياء بنفسي وبما تحمله الأشياء في ذواتها من الأنوار التي تعطيها حقائقهم لا من نور زائد على ذلك، فرأيت مشهداً عظيماً حسياً لا عقلياً وصورة حقية لا معنى ظهر في هذا التجلي اتساع الصغير لدخول الكبير فيه مع بقاء الصغير على صغره والكبير على كبره، كالجمل يلج في سم الخياط يشاهد ذلك حساً لا خيالاً وقد وسعه ولا تدري كيف ولا تنكر ما تراه، فسبحان من تعالىٰ عن إدراك ما تُكَيِّفُه العقول وفضل إدراك البصر عليها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فأظهر عجز العقول بهذا التجلي الذي أظهر به قوّة الأبصار وفضلها على العقول، وأظهر في تجليه في النور الشعشعاني عجز الأبصار وقوّة العقول وفضلها على الأبصار ليتصف الكل بالعجز وينفرد الحق بالكمال الذاتي، فمن عاين هذا المنزل يرى من العجائب والآيات ما لا يمكن أن يحويه غيره، وأول هذا المنزل عند دخولك فيه ترى نفسك مظهراً للحق، فإذا رأيته تتحقق من نفسك أنه ليس هو وهو آخر هذا المنزل، فيتضمن أوله هو مشاهدة، ويخاطبك في هذا التجلي بأنه ليس هو فإنه من التجليات التي لا تفنى عين المشاهدة فتجمع بين الرؤية والخطاب، وآخر هذا المنزل يتضمن الهو وهو في الغيب من غير رؤية وهو

متعلق نظر العقل، فأول هذا المنزل بصري وآخره عقلي وما بينهما، وهذا منزل يتضمن أيضاً ما نذكره.

فاعلم أن الأسرار التي يمنحها الحق عبده من أهل هذه الطريقة على قسمين: منها أسرار تعطيك بذاتها إن تظهرها في الأكوان من غير حرج في ذلك عليك ولا تحتاج في إظهارها للغير إلى إذن إلهيّ، وأسرار لا تعطيك بذاتها هذا الحكم وهي على قسمين: قسم منها تحتاج في إظهاره إلى إذن إلهيّ فإن أظهرته عن غير إذن قوبلت ووقع الحرج والجناح عليك في إظهاره، وقد وقع لي مثل هذا ولكن بحمد الله قوبلت بالعتاب لا بالعقاب رحمة من الله بي وعناية، وأسرار أخر لا يعطيها الحق لأحد بواسطة، فلو طلبت الإذن فيها إذا أطلعك الحق عليها أن توصلها ما أذن لك فإنها أذواق لا تعرفها من غيرك بمجرد العبارة عنها، فإنها ممّا ينفرد الحق بإيصالها من الحق إلى العبد كما يفعل بالأحوال، فلو رام أحد أن يعبر عن الشوق الذي يجده إلى من اشتاق إليه ما أطاق ذلك ولا وصل إلى فهم الآخر منه شيء إلاّ أن يقوم الشوق به مثل ما قام بصاحبه فيعرف عند ذلك حقيقة مسمّى هذا اللفظ وكذلك ما في معناه، وكلذة الجماع التي حرمها العنين لا يتمكن لمن قامت به أن يوصلها بالتعريف إلى العنين، وكذلك كل علم يتعلق بالحواس لا يمكن للعقل أن يصل إلى معرفته بنفسه ولا بالعبارة عنه إلاّ أن يحسّ به الآخر، فالذي يختص بهذا المنزل معرفة الأسرار التي يتوقف إظهارها ممّن قامت به وأعطيته على الإذن الإلهيّ ومعرفة الأسرار الإلهية المستورة خلف حجاب الصور التي لا تظهر إلاّ لمن كان على بينة من ربه في ذلك، فإذا شهدت البينة لها عند العبد قبلها فلا يحتاج إلى شاهد مثل ما يحتاج في غيرها، فإذا حصل العبد في هذا المقام ووهبه الحق من هذه الأسرار وهب تجلّ واطلع على أمور غامضة من العلم بالله سترها في نفسه وكتمها عن غيره وفاء بحق الأمانة وحفظها، ومعرفة بقدرها ومنزلتها، ويطلع على هذه الأسرار معنا من ينسب بعض الأفعال إلى غير الله من المعتزلة والفلاسفة وأهل الشرك الذين عبدوا غير الله مع عبادة الله، فقد ينفردون في أوقات مع الله دون الشريك، وذلك في أوقات الضرورات المهلكة التي يقطعون فيها أن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً فيلجؤون إلى الله في رفعها، فمن تلك الحقيقة المستورة فيهم في حال لا يكون فيه تحت اضطرار حسيّ من ذلك الوجه ينالون هذه الأسرار وإن كانوا أشقياء، فإن نيلهم إياها ممّا يزيد في شقاوتهم حيث عرفوا من بيده الاقتدار وعدلوا عنه وعملوا لغيره ممّا نصبوه بأيديهم وأيدي من هو من جنسهم إلهاً وظهر لهم عجزه وتمادوا على غيّهم كما قال تعالىٰ: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥].

واعلم أن بينة الله في عباده على قسمين: القسم الواحد هو البينة الحقيقية وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة محمد: الآية ١٤] يعني في نفسه. وأما من تقام له البينة في غيره فقد يمكن أن يقبلها ويمكن أن لا يقبلها، والذي يقبلها إن قبلها تقليداً لم تكن في حقه آية بينة ولا تنفعه، وإنما يكون التقليد فيما يجيء به الرسول من الأحكام لا من البينات

والشواهد على صدقه، وإن لم يقبلها تقليداً فما قبلها إلاّ أن يكون هو على بينة من ربه في أن تلك آية بينة على صدق دعوى من ظهرت على يديه فيما ادعاه، فعلمت من هذا أن الشيء لا ينفعك إلاّ إذا كان فيك، ولا يضرك إلاّ إذا كان فيك، ولهذا نقول في كثير من كلامنا: إن حقيقة العذاب هي وجود الألم فيك لا أسبابه، سواء وقعت الأسباب فيك أو في غيرك، فلا نقول في الأشياء إلاّ أن تقوم لك منك، وأقلّها أن يقوم بك التصديق بما يتحقق به أهل طريق الله بأنه حق وإن لم تذقه ولا تخالفهم فتكون على بينة من ربك ولا بدّ في كونهم صادقين، وبتلك البينة التي أنت عليها توافقهم في ذلك فأنت منهم في مشرب من مشاربهم، فإنهم أيضاً ممّن يوافق بعضهم بعضاً فيما يتحققون به في الوقت، وإن كان لا يدرك هذا ذوقاً ما أدركه صاحبه فيقرّ له به ويسلمه له ولا ينكره لارتفاع التهمة، ومجالسة هؤلاء الأقوام لغير المؤمن بهم خطر عظيم وخسران مبين كما قال بعض السادة، وأظنه رويماً من قعد معهم وخالفهم في شيء ممّا يتحققون به في سرائرهم نزع الله نور الإيمان من قلبه، فلا يزال الإنسان على الحالة التي هو عليها حتى يقوم له الشاهد بالخروج عنها، فمن كان في حالة الكتم كتم، ومن كان في حالة الإظهار أظهر وأفشى ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٤] من هؤلاء الفرق، فالله يجعلنا وإياكم ممّن هو على بينة من ربه.

فإن تلاه شاهد فحسن ومزيد طمأنينة وتقوية للنفس فيما هي بسبيله، وإن لم يكن ذلك ففي كونه على بينة من ربه كفاية، فإن الشاهد إن لم يكن فيه المشهود له على بينة أنه صادق فيما يشهد له به وإلاّ فلا يقبله في باطنه، كالشاهد مع صاحب الدعوى إذا كان في دعواه محقاً فهو على بينة في نفسه من ربه أنه صادق ولكن الحاكم يطالبه بالشاهد، فإذا شهد الشاهد له علم المشهود له أنه صادق في شهادته ببينته التي هو عليها أنه على حق في دعواه، وإن كان المدعي ليس بصادق في دعواه فهو على بينة من نفسه ومن ربه أنه غير صادق فيما ادّعاه، فإذا طلبه الحاكم بالشاهد فأتى بشاهد زور فشهد له أنه صادق في دعواه فالمدعى على بينة من نفسه ومن ربه أن ذلك الشاهد الذي شهد له زور وشهد بالباطل ولا يقبله في نفسه وإن قبله الحاكم، فأوّل ما يتجرح شاهد الزور عند من شهد له بما يعلم المشهود له أن الأمر على خلاف ما شهد له به، فلهذا قلنا: إن الشاهد لا نلتزمه إذا كنا لا نقبله ولا نتحقق صدقه ولا كذبه إلاّ حتى يكون في ذلك على بينة من الله فاعلم ذلك. واعلم بعد أن تقرّر هذا أن الأمر الذي كنى عنه الحق بأنه بينة لك من عنده هو سفير من الله إلى قلبك من خفي غيوبه مختص بك من حضرة الخطاب الإلهيّ، والتعريف من الله أنه من عنده فخذ به وانظر ما يقبله فاقبله وما يدل عليه فاعتمد عليه وما ينفيه فانفه كما يفعل صاحب الفكر في دليله، غير أن صاحب الفكر قد يتخذ دليلاً ما ليس بدليل في نفس الأمر، وقد يتخذ دليلاً ما هو دليل في نفس الأمر، ولكن بالنظر إلى قوّة العقل فقد أعطى ما في قوّته، فلا يكون أبداً من حيث هو عقل إلاّ أن ذلك دليل وهو دليل، وصاحب البينة من ربه على نور من الله وصراط مستقيم لا يعلم الأشياء بها إلاّ على ما تكون عليه الأشياء، لا يقبل الشبه إلاّ شبهاً ذوقاً من صورته لا يتمكن له

أن يلبس فيها عليه بخلاف أصحاب الأفكار، والذي يعطيه هذا السفير منه ما يعطيه ما هو مختص به، ومنه ما يعطيه ما هو مطلوب له ولغيره، ومنه ما هو مطلوب لغيره ولا يعطيه ما ليس له ولا لغيره، وممّا يعطيه ما هو له مقيم وما ليس له بمقيم، فالمقيم كالمقامات وغير المقيم كالأحوال. ثم إن أصحاب هذا المقام يتفرقون فيه ويتنوّعون على نوعين: منهم من يعصم من تأثير هواه، ومنهم من لا يعصم من تأثير هواه فيه، مع أن كل واحد من الطائفتين على علم محقق، فبينتهم التي هم عليها أنه معصوم وأن هواه ليس له عليه سبيل وأنه غير معصوم وأن هواه قد أثر فيه لما سبق في علم الله فيه، وهل ينفعه هذا العلم عند الله في سعادته أم لا؟ فعندنا أنه نافع وعند غيرنا أنه غير نافع، وإنما وقع الخلاف في مثل هذه المسألة بوجود الكشف عند الواجد وعدم الكشف عند المخالف مع الاستناد إلى أمر معارض إمّا عقلي وإمّا سمعي. ثم إن الله تعالى أمر عباده بالإقامة على ما خلقهم له من الذلة والافتقار إليه ببواطنهم عامّة وبظواهرهم على طريقة مخصوصة بينها لهم الشارع وهي جميع الأفعال المقربة إلى الله، سواء اقترنت بها في الصورة الظاهرة عزة أو ذلة وربوبية أو عبودية بخلاف الباطن فإن الباطن يجري على الأمر المحقق الذي هو في نفسه عليه، والظاهر يجري على ما تقتضيه المصلحة في الوقت بك أو بغيرك، فإن ظهر ربوبية وعزة في ظاهر العبد العارف كما ذكرناه لمصلحته فإن الميل في الباطن إلى الذلة والعبودية موجود عنده وهو المعتمد عليه وذلك عارض ولا سيما في موطن التكليف، ومن هذا المنزل ينشىء العبد الأعمال صوراً قائمة يكون فيها خلاقاً بالفعل ولكن مما يقع له به السعادة عند الله، فلا يزال ينشىء تلك الصورة حتى يراها قائمة بين يديه حساً ينظر إليها ويفرح بها، وجميع ما يظهر من تلك الصورة مما تقتضيه السعادة فإنما هو لمنشىء هذه الصورة وهو هذا العبد فهي له كرأس المال وما يكون عنها كالأرباح والأرباح إنما تعود منفعتها على رب المال لا على نفس المال.

ومن هذا المنزل أيضاً يظهر الجود الذاتي الذي لا يمكن دفعه لا اختيار للعبد فيه فيعطي من نفسه لربه ما سأله فيه أن يعطيه مما لو لم يسأله فيه لأعطاه إياه، وهذا من كرم الله حيث علم أنه لا بدّ أن يعطيه ذلك لأنه أمر تقتضيه ذاتك، فسألك في ذلك أن يجازيك على امتثال أمره في ذلك، كما سألك فيما يمكن أن تعطيه وفيما يمكن أن تأباه، فأجرى هذا مجرى هذا جوداً منه وليقوم جزاء ما أعطيته عن أمره مما هو عطاء ذاتي في مقابلة منعته وخالفت فيه أمره مما ليس هو عطاء ذاتياً بل إمكانياً وهي جميع الأعمال المشروعة، فلهذا أمرك بما لا يمكنك الانفكاك عنه، كما لا يمكن للسراج أن يمنع ضوءه، ولكن يتصوّر أن يقال له: اعط الأبصار ضوءك ليدركوا به الأشياء فتجازى من حيث ذلك، وذلك أن تعلم أن حضرة ﴿كن﴾ تتضمن روحاً وجسماً وقد يرتبطان وقد لا يرتبطان، فإذا ارتبطا كان هذا الجسم حياً على هذه الصورة من الكاف والواو والنون، وإذا كان حياً انفعل عنه ما يتوجه عليه لارتباط الروح به وهو الإذن الإلهي كالنفخ من عيسى عليه السلام في الطائر مقارناً للإذن الإلهيّ الذي هو النفخ الإلهيّ، فاندرج النفخ الإذني الإلهي الذي به حيي الطائر وارتبط روحه في النفخ الجسماني القائم

بعيسى، فإذا وجد جسم ﴿كن﴾ من غير ارتباط الروح به لم يكن عنه شيء أصلاً، إذ الميت لا يضاف إليه فعل أصلاً ولا يقوم لعقل فيه شبهه، بخلاف الحي والصورة الجسمية فيهما واحدة، وإذا انفرد روح ﴿كن﴾ دون جسميته انفعلت عنه الأشياء، ومن جملة الأشياء جسمية ﴿كن﴾ الذي هو في عالم الحروف، فإذا عملت ما أوضحناه لك في هذا الكلام وقفت على أمر عظيم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠] ذلك الأمر ولا بدّ، ويقول الحق سبحانه لعباده في كلامه العزيز: أقيموا الصلاة ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٠٠]وجاهدوا ولا يقع شيء من ذلك لأنه قال لهم: اخلقوا وليس من شأنهم أن يخلقوا فتعلق بهم جسم ﴿كن﴾ لا روحها فكانت ميتة يحرم عليهم استعمالها فإذا تعلق الإذن الإلهيّ الذي هو ﴿كن﴾ الحية بإيجاد عين الجهاد أو الرباط أو الصلاة أو أي شيء كان من أفعال العباد تكون في حين التوجه علينا، وليس من شأن الأفعال أن تقوم بنفسها، فكانت الصلاة تظهر في غير مصل، والصيام في غير صائم، والجهاد في غير مجاهد، وهو لا يصح، فلا بدّ من ظهورها في المجاهد والمصلي وغير ذلك، فإذا ظهرت فيه نسب الله الفعل إليه وجازاه عليه منة منه وفضلاً لأنه ما ظهر عين الصلاة إلا في المصلى، فلو لم ينسب الفعل إليه لكان قدحاً في الخطاب والتكليف ومباهتة للحس وكان لا يوثق بالحس في شيء، فحسم الله هذا الأمر بما نسب من هذه الأفعال لمن أظهرها فيه وأضافها إليه وأمرهم بها وليس خلقها لهم وإنما ذلك إلى الله تعالى، فانظر ما أعجب هذا الأمر مع ما يتضمنه من التناقض المحقق والإيمان بالطريقتين المتناقضتين فيه واجب، والاطلاع عليه من باب الكشف مع وجود الإيمان تأييد عظيم وقوّة لمن أعطي ذلك، فإن في هذا الموطن زل كثير من أهل الكشف وهو قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣] والعلم كان لا ينبغي أن يصاحبه الضلال ولا يستلزمه وهنا قد وجد فيه ذلك فلا يخلو إما أن ضل بعلم أو لا بعلم والأمر فيه إشكال.

ثم إن هذا المنزل يتضمن الجزاء على الأعمال يعني جزاء من ذكرناه في هذا المنزل من الكاتمين لأسرار الحق الذين أمنهم الله عليها مما لا يظهرونها إلا عن إذن إلهيّ، ومن ذكرناه من الطوائف معهم فجزاؤهم الجلال والعظمة والهيبة، وفي الدنيا الخوف والقبض والوحشة، وفي الأحوال الاصطلام، وفي المحبة الغليل والاشتياق والشوق والكمد والخشية والتحقق بذلك في كل موطن بحسب ذلك الموطن من الدوام وعدم الدوام إلا أنه في ظهور كونه لا يتخلله غفلة ولا فترة أصلاً، فإذا زال المقام زال الحال لزواله، هذا جزاء من حفظ الأمانة ولم يظهرها إلا بأمر الله، وجزاء من أظهرها بإذن الله الإقامة في جوار الله من اسمه الرب لا غيره من الأسماء، ومعرفة العلوم التي تتعلق بمن هو تحت حيطته ودون منزلته لا بمن هو فوقه، وأن هذه الحالة لهم دائمة والمقام لهم دائم في الدنيا والآخرة ولهم الجمال والأنس، ومن الأحوال الرضا، ومن المحبة الوصلة والتعانق والالتذاذ بلثم المحبوب وضمه. ومن خصائص هذا المنزل أن صاحبه لا يبذل المجهود من نفسه في أعماله بل أعماله دون قوّته وطاقته ويقبل

الله منه ذلك فإنه ممن اتقى الله حق تقاته ما هو ممن اتقى الله استطاعته، وصاحب هذا المقام لا يتصوّر منه أن يطلب من الحق ما لم يعطه مما هو جائز أن يحصل له ويمنعه من ذلك الحياء من الله حيث لم يبذل المجهود من نفسه فيما كلفه من الأعمال على جهة الندب، فهو قانع بما أعطاه ربه ولا يجد حسرة فوت لما فاته مع علمه بما فاته، لأن حاله الالتذاذ في ذلك الوقت بما هو فيه من النعيم، وقد بينا أصول هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثمانون ومائتان

في معرفة منزل التجلي الصمداني وأسراره من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

شَخْصُ الزمان له نَفْسٌ تدبِّرهُ غِيداً معطَّرةً من عالم الأمْرِ

جيمٌ وعينٌ وفاءٌ من منازلها جاءت به رُسْلُه في مُحْكَم الذِّكْرِ

لها صلاتان من عِلْم الغُيوبِ وما للظُّهْر والعَصْرِ ذاك الفَخْر والفَجْرِ

من أراد أن يقف على ما تضمنه هذا المنزل في التجلي الصمداني الذي هو خاص به من المعارف والحقائق والأسرار الضيائية وغيرها فليطالعه في باب القلب من كتاب مواقع النجوم لنا في علم هذا الطريق، فلنذكر في هذا المنزل ما سوى ذلك مخافة التطويل فاعلم أن لهذا المنزل الإنابة وممن تحقق بها أبو يزيد البسطامي وهي الجمعية الذاتية، ولا تكون للعارف من الله إلا عن شهود محقق من خلف حجاب مظهر بشري.
واعلم أن القوم قد اصطلحوا على ألفاظ لمعان قرروها في نفوسهم يخاطبون بها بعضهم بعضاً، كما فعلت كل طائفة فيما تنتحله من العلوم كالنحويين وأصحاب العدد والمهندسين والأطباء والمتكليمن والفقهاء وغيرهم، فما اصطلحت عليه هذه الطائفة الهوية والأنية والأنانية لأغراض في نفوسهم، فهذا المنزل من ذلك منزل الأنانة، فالأنية هي عبارة عن الحقيقة من حيث الأحدية، والأنانية التي هنا عبارة عن الحقيقة الأحدية التي هي عين الجمع، فهذا منزل من منازل الغيوب لا ظهور له في الشهادة، لكن المنازل التي في الغيب على ضربين: منازل يكون عنها آثار في الشهادة يستدل بتلك الآثار عليها وإن كانت غيباً سواء ورد بذلك التعريف الإلهيّ أو لم يرد من حيث الخطاب، ومنازل لا يكون عنها في الشهادة أثر فلا تعرف إلا من طريق التعريف الإلهيّ ولا تتحقق تحقق منازل الآثار، وهذه الأنانية من المنازل التي لها آثار في عالم الشهادة والملكوت وآثارها مختلفة وتتقيد باختلاف آثارها، وإن كانت في نفسها مطلقة فتارة تتقيد باسم ضمير مثلها في الرتبة فتحتاج إلى تقييد آخر مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [سورة النساء: ١٦٣] فإنا والنون من أوحينا على مرتبة واحدة من حيث أحدية حقيقة الجمعية والتقييد لأنا الوحي والتقييد للنون من أوحينا ما يذكره بعده من قرآن أوروح أو غير ذلك، وتارة لا يتقيد باسم ضمير مثل قولهم: أنا بني فلان، وكما قيل: [الرجز]

نحن بني ضَبَّةَ إذ جدَّ الوَهَلْ الموتُ أحلَى عندنا من العَسَلْ

وما وقفت على مثل هذا في القرآن فكنا نستشهد به وإنما استشهدت بهذا وإن لم يكن قرآنا فإنه من كلام العرب الذي نزل القرآن بلسانهم، والذي تقيدت به في هذا المنزل الإنزال والإلهيّ لا التنزيل على العارفين من عباده، إما بما أجراه في خلقه أو بما يجريه في خلقه، وإنزاله على قسمين: قسم يكون الإنزال على جهة التعريف بمكانة ما يجريه في خلقه أو ما أجراه ومرتبته فيكون تنزله على قلب العبد من الغيب في الغيب من عين واحد إلى عين واحد لا يقبل التفصيل والقسم الآخر يكون تنزله على قلب العبد وهو مشغول في تدبير هيكله وطبيعته لا تأخذه عن ذلك، وذلك الإنزال من عين جمع إلى عين جمع ليفصل ما نزل عليه لخلقه مما أجراه الله أو يحويه. حكي لنا عن جماعة منهم أبو البدر عن شيخنا عبد القادر رحمه الله أنه قال: إن السنة تأتيني إذا دخلت فتخبرني بما يكون فيها وما يحدث، وكذلك الشهر والجمعة واليوم، وكذلك كان الشيخ أبو يعزى أبو النور ببلاد المغرب كان إذا دخل رمضان جاء يعلمه بما قبل فيه من العمل وممن قبل ويقبل، وإنما قيدته هنا في حق شيخنا أبي يعزى رمضان لأن صاحبنا أبا زيد الرقراقي الأصول أخبرني بشهادة هذا في شهر رمضان إذ كان هذا المخبر عنده في ذلك الوقت فرأى رمضان قد جاءه مخبراً بما ذكرناه فلا تعرف منازل الأكوان عند الله من طريق التعريف الإلهيّ والعناية بهذا المقرب إلا بتعريف الله عباده في أسرارهم بما يلقيه فيها من نفث روح في روع، مثل ما كانت الملائكة تنزل على الأنبياء عليهم السلام بذلك.

واعلم أن المراتب التي يكون الخلق عليها متفاضلة في كل جنس، فالرسل يفضل بعضهم بعضاً، والأنبياء يفضل بعضهم بعضاً، والمحققون يفضل بعضهم بعضاً، والعارفون يفضل بعضهم بعضاً، وهكذا إلى أصحاب الصنائع العلمية، فهذا المنزل يفضل غيره في التجليات الإلهية المشبه رؤيتها برؤية القمر والشمس بألفي تجل وثمان تجليات منطوية مندرجة في الألفين المذكورين، غير أن هذه الثمانية لها خصوص وصف يظهر في تجلي المقامات الذي هو مائة وستة وستون تجلياً، فعند ذلك يظهر سلطان هذه الثمانية من التجليات ويعطي من المعارف ما شاء الله أن يعطي. وأمّا الألفان فهي تجليات سريعة الزوال مكثها قليل ولا تعطي علماً عاماً. وأما المائة والستة والستون فتعطي من العلوم العامّة السارية في الموجودات وبقائها وما يكون عنها وبسببها علماً عاماً مجرّداً خالصاً ثابتاً لا يتزلزل ولا يشتبه، وإن كان حكمه ينتقل منه وفيه ولا يخرج عنه.

واختلف أصحابنا هل ثم تجل في هذه التجليات يتصف بالنقص من حيث الصورة التي يتجلى فيها إذا كانت صورة طبيعية والطبائع رباعية فيكون التجلي الناقص في الصورة الطبيعية في وقت في العنصر الناري فيكون غير كامل في نفسه ولكن يعطى بحسب ما يعطيه عنصره لا يزيد عليه فإذا كان في تجل آخر انضاف إلى تلك الصورة العنصر الثاني إلى أن يكمل العناصر في أربع تجليات، فيقع التجلي في العنصر الرابع بكمال الصورة الطبيعية على صورة مكملة

فيلحق بإخوانه من التجليات والأمر عندنا ليس كذلك، ولا يصح أن يكون هناك تجل ينقص أو يزيد، وإنما هذا الشخص القائل بهذا اظهرت له حالته في عين التجلي فتخيل أن النقص في التجلي وكان النقص فيه، ثم اتفق أنه لما تجلى له التجلي الثاني رأى تلك الصورة التي كان عليها في نفسه قد زاد فيها مالم يكن والنقص والزيادة فيه فحكم على التجلي بذلك.

واعلم أن الأرواح النورية المسخرة لا المدبرة تنزل على قلوب العارفين كما قلناه بالأوامر والشؤون الإلهية والخيرات بحسب ما يريده الحق بهذا العبد فترقيه بما نزلت به إليه ترقية، وتخليصاً إلى الحجاب الأقرب من الحجب البعيدة إلى أن يتولاه الله بارتفاع الوسائط، غير أن هذا القلب إذا فارقته التنزلات الروحية التي يشترك فيها أهل هذه الطريقة والحكماء العاملون على تصفية النفوس وتخليصها من كدر الطبع، وقبل أن يتولى الحق أمره بارتفاع الوسائط يمكث معرّى عن الأمرين مثل الوقفة بين المقامين، ومثل النومة العامّة بين الحس والخيال وهو مقام الحيرة لهذا القلب، فإن كان يأنس إليه ويأخذ عنه قد فقده، والذي يأتي إليه مارآه بعد فيبقى حائراً، ولقد أخبرني صاحبي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأنصاري القرطبي وفقه الله عن شيخنا أبي زكريا الحسني ببجاية قال: أخبرني غير واحد من أصحابه وممن حضرموته أن الشيخ خرج إلى الناس وكان في المسجد الجامع معتكفاً في شهر رمضان وقد غير لباسه الذي كان عليه وقد ظهر فيه التغير فقال لهم: ادعوا إليّ فإني قد فقدت الذي كان عندي، ولم يكن بعد قد حصل له شيء مما يأتي وحار في أمره فطلب من الناس الدعاء له فإنه لم يكن من أهل الأذواق الإلهية لغلبة الفقه عليه ما تخلص له الأمر ثم عاد إلى خلوته فأبطأ عليهم خروجه فدخلوا عليه فإذا هو مسجى قد فارق الدنيا، فاشار إليهم بتغيير لباسه أن الذي كان يلبسه قد جرد عنه والحيرة والافتقار إلى دعاء الإخوان دلت على أنه ما كان الحق تولى أمره الذي أومأنا إليه، ففرحت له بذلك لعل الله يكون قد تولاه قبل موته بلحظة فقبضه إليه وهو عنده، وحال العارف في هذه الحيرة والوقفة التضرّع والابتهال إلى الله بالافتقار والخشوع المستعمل في أن يتجلى له حكم توليه إياه بارتفاع الوسائط من الوجه الخاص الذي بين كل موجود وبين ربه الذي لا يعرفه كل عارف.

ومن هذا المنزل يعرف ما ينزل الحق من المعارف على قلوب عباده بإنزال الأرواح إليها، قال تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: ١٥] ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [سورة النحل: ٢] ولم يقل هو فكان الروح هو الملقى من عند الله إلى قلوب عباده، ويكون أمر الله هو الذي ألقاه، ويكون ذلك الروح صورة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ فارتفعت الوساطية في هذا المنزل إذ كان عين الوحي المنزل هو عين الروح وكان الملقي هو الله لا غيره، فهذا الروح ليس عين الملك وإنما هو عين المألكة فافهم، فمثل هذا الروح لا تعرفه الملائكة لأنه ليس من جنسها، فإنه روح غير محمول ليس نورانياً والملك روح في نور، وهذا الذوق لنا ولسائر الأنبياء. وأمّا الملائكة فقد يكونون ممن اختص بهم الرسل وهو قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] فهو رسول الرسول.

وأمّا تنزل الأرواح الملكية على قلوب العباد فإنهم لا ينزلون إلا بأمر الله الرب، وليس معنى ذلك أن الله يأمرهم من حضرة الخطاب بالإنزال وإنما يلقي إليهم ما لا يليق بمقامهم في صورة من ينزلون عليه بذلك، فيعرفون أن الله قد أراد منهم الإنزال والنزول بما وجدوه في نفوسهم من الوحي الذي لا يليق بهم، وأن ذلك الوحي من خصائص البشر، ويشاهدون صورة المنزل عليه في الصور التي عندهم تسبيحها، يا من أظهر الجميل وستر القبيح المستور التي تسدل وترفع فيرفعون من تلك الصور من هو صاحبها في الأرض فيينزلون عليه ويلقون إليه ما ألقى إليهم فيعبر عن ذلك الملقي بالشرع والوحي، فإن كان منسوباً إلى الله بحكم الصفة سمي قرآناً وفرقاناً وتوراة وزبوراً وإنجيلاً وصحفاً، وإن كان منسوباً إلى الله بحكم الفعل لا بحكم الصفة سمي حديثاً وخبراً ورأياً وسنة، وقد ينزلون أيضاً بالأمر الإلهي من حضرة الخطاب، وكلا الوجهين من التنزيل يتضمنه قول جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم لما قال له الحق أن يقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم عن ربه ولهذا جعله من القرآن وهو حكاية الله عن جبريل وجبريل هو الذي نزل به وما أخرجه نزوله به، والحكاية عنه عن أن يكون قرآناً فكان جبريل يحكي عن الله تعالى ما حكى الله تعالى عن جبريل أن لو قال لمحمد ﷺ ذلك لقاله له على هذا الحد في عالم الشهادة وهو قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٤] فيما شاهده من قول جبريل لمحمد عليهما السلام وهم أعيان ثابتة في حال عدمهم وخطاباتهم أعيان ثابتة في حال عدمهم له، فهو الإشارة إليه بقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ فكانت الحكاية أمراً محققاً عن وجود لله محقق لا يتصف بالحدوث، ثم حدث الوجود لتلك الأعيان فأخبرت بما كان منها قبل كونها مما شاهده الحق ولا تشهده لعدم وجودها في عينها. روي عن الزهري أنه حدّث عن شخص من الثقات حديثاً أو حدث عنه فقال المحدّث عنه: لا أعلم هذا الحديث ولا أنا منه على يقين ولكن أنت عندي ثقة، فرواه عنه عن نفسه وقال: حدثني فلان عني وقال: إني قلت له حدثني فلان واتصل الإسناد فتنبه لهذه المسألة في طريق الرواية.

ومما يتضمن هذا المنزل فضل العلم المستور على العلم المشهور، والعلم المستور هو على ضربين: ضرب منه لم يضمن من الشهادة صور كلمات، وضرب ضمن صور كلمات، فمثل العلم المضمن صور كلمات وهو مستور عن أن يتعلق به معرفة عارف على القطع إلا بأخبار إلهي فهو علم ما تشابه من القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله فهذا من العلوم المستورة، ولكن لا يعرف من صور الكلمات في أي وجه هو مستور فيه. والعلم الثاني المستور هو الذي لم يكن له صورة يحتجب بها من صورة الكلمات، وفضل مثل هذا العلم ومنزلته مجهولة يعلمها الله ومن أعلمه الله وقد يصادف الإنسان العمل بما يقتضيه ذلك العلم وهو لا يعرف ذلك حتى ينتقل إلى الدار الآخرة فيجد ثمرة عمله مرتبطة بمنزلة ذلك العلم المستور فيعلمه عند ذلك، ومما يتعلق بهذا الباب إنزال الهو منزلة الشاهد مع بقاء الهو في ثمرة عمله

مرتبطة بمنزلة ذلك العلم المستور فيعلمه عند ذلك، ومما يتعلق بهذا الباب إنزال الهو منزلة الشاهد مع بقاء الهو في عينه منزهاً، ولا يكون الهو ينزل أبداً إلا في صور مدركة بالحس إما في الحس وإما في الخيال، ويسمى بالهو في حال ظهور الصورة ليعلم أن الهو روح تلك الصورة ومدلولها، فيعلم أن تلك الصورة لا يعلم معناها إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩] ومن كان عند الهو كان بحيث الهو والهو غيب، والذي يكون عنده غيب، وإذا كان غيباً عند غيب فلا تعلمه الشهادة وإنما يعلمه الغيب، فلا يعلم ما في الغيب إلا من هو غيب، فمن حيث الصور ينسب إلى الغيب الظرفية، فإذا ارتفعت الصور زال الغيب لأن الحجاب قد ارتفع فلا يتصف بالغيب ولا بالشهادة لأن الشهادة لا تنفك عن الصور، وقد قلنا لا صورة فقد قلنا لاشهادة، والصورة تجعل ذلك الأمر غيباً وقد قلنا بزوال الصورة، فقد رفعنا حكم الغيب عن ذلك الأمر فلا غيب ولا شهادة. وفي هذ المنزل من العجائب والأسرار مالو أظهرناه لتوقفت عقول أكثر علماء هذه الطريقة السليمة عن قبول مثلها، ومن هذا المنزل يتلقى ملك الموت آجال الناس.

واختلف أهل الكشف في آجال الحيوان وفي آجال كل ما سوى الإنسان هل هذا المنزل منزل علمها أم لا؟ وهل لما عدا الحيوان آجال أم لا؟ فاعلم أن الله تعالى جعل لكل صورة في العالم أجلاً تنتهي إليه في الدنيا والآخرة إلا الأعيان القابلة للصور فإنه لا أجل لها بل لها منذ خلقها الله الدوام والبقاء، قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الرعد: ٢] وقال: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [سورة الأنعام: ٢] فجاء بكل وهي تقتضي الإحاطة والعموم، وقد قلنا إن الأعيان القابلة للصور لا أجل لها فبماذا خرجت من حكم كل؟ قلنا ما خرجت وإنما الأجل الذي للعين إنما هو ارتباطها بصورة من الصور التي تقبلها، فهي تنتهي في القبول لها إلى أجل مسمى وهو انقضاء زمان تلك الصورة فإذا وصل الأجل المعلوم عند الله في هذا الارتباط انعدمت الصورة وقبل العين صورة أخرى، فقد جرت الأعيان إلى أجل مسمى في قبول صورة مّا، كما جرت الصورة إلى أجل مسمى في ثبوتها لتلك العين الذي كان محل ظهورها فقد عم الكل الأجل المسمى، فقد قدر الله لكل شيء أجلاً في أمر ما ينتهي إليه، ثم ينتقل إلى حالة أخرى يجري فيها أيضاً إلى أجل مسمى، فإن الله خلاق على الدوام مع الأنفاس، فمن الأشياء ما يكون مدة بقائه زمان وجوده وينتهي إلى أجله في الزمان الثاني من زمان وجوده وهي أقصر مدة في العالم، وفعل الله ذلك ليصح الافتقار مع الأنفاس من الأعيان إلى الله تعالى، فلو بقيت زمانين فصاعداً لاتصفت بالغنى عن الله في تلك المدة، وهذه مسألة لا يقول بها أحد إلا أهل الكشف المحقق منا والأشاعرة من المتكلمين، وموضع الإجماع من الكل في هذه المسألة التي لا يقدرون على إنكارها الحركة إلا طائفتين من يجعل الحركة نسبة لا وجود لها وهو الباقلاني من المتكلمين، وأصحاب الكمون والظهور القائلون به، وإن قال القائلون بالكمون والظهور بذلك فإنهم تحت حيطة كل بهذا المذهب، فإنه جرى في كمونه إلى أجل مسمى وهو زمان ظهوره، فقد انقضت مدة كمونه وجرى في ظهوره إلى

أجل مسمى وهو زمان كمونه، فقد انقضت مدة ظهوره ولا يلزم من جريانهم إلى الأجل أن المراد عدمهم بل يجوز أن يكون له العدم، ويجوز أن يكون الانتقال مع بقاء العين الموصوفة بالجري، ويجوز أن يكون منه أجل يعدمه، ومنه ما يكون له أجل بانتقاله يعدمه وهو الذي نذهب إليه ونقوله به.

واعلم أن لله في هذا المنزل أرواحاً من الملائكة بأيديهم من الخيرات والنعيم الدائم ما لا يدري مقداره إلاّ الله تعالى، قد وكلهم الله على ذلك وجعلهم حفظة عليه وخزاناً لأصحابه من الأناسي يؤدّون ذلك إليه في الوقت الذي قد قرّر لهم الحق ذلك وعينه لهم بالحال التي ينتقل ذلك العبد السعيد إليها، وكذلك له ملائكة خزنة بالنقيض أيضاً معدة لإنسان آخر يؤدّون ذلك إليه في الوقت الذي قرره الحق لهم بالحال التي ينتقل إليها ذلك العبد الشقي كل ذلك بتقدير العزيز العليم.

واعلم أنه ما من كلمة يتكلم بها العبد إلا ويخلق الله من تلك الكلمة ملكاً فإن كانت خيراً ملك رحمة، وإن كانت شرّاً كان ملك نقمة، فإن تاب إلى الله وتلفظ بتوبته خلق الله من تلك اللفظة ملك رحمة وخلع من المعنى الذي دل عليه ذلك اللفظ بالتوبة الذي قام بقلب التائب على ذلك الملك الذي كان خلقه من كلمة الشر خلعة رحمة، وواخى بينه وبين الملك الذي خلقه من كلمة التوبة وهو قوله تُبتُ إلى الله، فإن كانت التوبة عامّة خلع على كل ملك نقمة كان مخلوقاً لذلك العبد من كلمات شرّه خلع رحمة وجعل مصاحباً للملك المخلوق من لفظة توبته فإنه إذا قال العبد: تبت إليك من كل شيء لا يرضيك، كان من هذا اللفظ من الخير جمعية كل شيء من الشرّ فخلق من هذا اللفظ ملائكة كثيرة بعدد كلمات الشرّ التي كانت منه، فإن الإنسان أعطى لفظاً يدل على الإفراد، وأعطى لفظاً يدل على الاثنين، وأعطى لفظاً يدل على الكثرة، فلفظة كل تدل على الكثرة، فعلم أن قوله: تبت إلى الله من كل شيء أنه تبت إلى الله من كذا، تبت إلى الله من كذا، تبت إلى الله من كذا، كما تقول زيدون تريد بذلك زيد وزيد وزيد، هذا أقله إلى ما لا يتناهى كثرة، وكذلك لفظة زيود في جمع التكسير، فلهذا خلق الله من كلمة الجمع ملائكة بعدد ما تعمه تلك الكلمة. وإنما قلنا بأن الملائكة المخلوقة من كلمة الشرّ يخلع عليها خلع الخير وترجع ملائكة رحمة في حق هذا التائب ويصاحب بينها وبين الملائكة المخلوقة من لفظ التوبة عن ذلك الشرّ فإن الكشف أعطى ذلك وصدقه الوحي المنزل بقول الله تعالى في هذا الصنف: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ﴾ [سورة الفرقان: ٧٠] فجعل التبديل في عين السيئة وهو ما ذكرناه.

ولقد أخبرني عبد الكريم بن وحشي المصري وكان من الرجال بمكة رحمه الله سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال لي: ركبت البحر من جدة نطلب الديار المصرية فلما مخرنا جئنا ليلة ونحن نجري في وسط البحر وقد نام أهل المركب فإذا شخص من الجماعة قد قام يريد قضاء الحاجة فزلقت رجله ووقع في البحر وأخذته الأمواج فسكت الرائس وما تكلم، وكانت الريح طيبة فما شعر رائس المركب إلاّ والرجل يجيء على وجه الماء حتى دخل المركب وصحبته

طائر كبير فلما وصل إلى المركب طار الطائر ونزل بجامور الصاري على رأس القرية ثم رآه قد مدّ منقاره إلى أذن ذلك الرجل كأنه يكلمه ثم طار، فلم يقل له الرائس شيئاً حتى إذا كان في وقت آخر من النهار أخذه الرائس وأكرمه وسأله الدعاء فقال له الرجل: ما أنا من القوم الذين يسأل منهم الدعاء، فقال له الربان: رأيتك البارحة وما جرى منك، فقال: يا أخي ليس الأمر كما ظننت ولكني لما وقعت في البحر وأخذتني الأمواج تيقنت بالهلاك وعلمت أن الاستغاثة بكم لا تفيد فقلت: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] مستسلماً لقضاء الله، فما شعرت إلاّ وطائر قد قبض عليّ وأقامني من بين الأمواج وحملني على موج البحر إلى أن أدخلني المركب كما رأيت، فتعجبت من صنع الله وبقيت أتطلع إلى الطائر وأقول: يا ليت شعري من يكون هذا الطائر الذي جعله الله سبب نجاتي وحياتي؟ فمدّ الطائر منقاره من أعلى الصاري إلى أذني وقال لي: أنا كلمتك ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وبه سميت، فكان اسم ذلك الطائر ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فهذا ممّا أشرنا إليه من خلق الله الملائكة من الكلمات، وتلك الكلمات تكون أسماءهم وبها يتميزون وبها يدعون كانت ما كانت، ويختص بهذا المنزل علوم كثيرة وتجليات يطول الكلام فيها ويكفي هذا القدر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثمانون ومائتان
في معرفة منزل التلاوة الأولى من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

كُنْ للإله كَبِسْمِ الله للبَشَرِ ... من اسمُه الربُّ ربُّ الروح والصُّوَرِ
فالخَلْقُ والأمرُ والتَّكوينُ أجْمَعُه ... له فلا فَرْقَ بين العقل والحَجَرِ
كالزاهدِ المُتَعالي في غِنَاه به ... فلا يُميِّزُ بين العين والمَدَرِ
والعارفُ المتعالي في نزاهَتِهِ ... له التميُّزُ بين العين والبَصَرِ
إذ الرُّجوعُ إلى التحقيق شِيْمَةُ من ... يرى المنازلَ في الأعلام والسُّوَرِ

أوّل ما أمر الله به عبده الجمع وهو الأدب وهو مشتق من المأدبة وهو الاجتماع على الطعام، كذلك الأدب عبارة عن جماع الخير كله، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَنِي**» أي جمع فيّ جميع الخيرات لأنه قال: «**فَحَسَّنَ أَدَبِي**» أي جعلني محلاً لكل حسن، فقيل للإنسان: اجمع الخيرات فإن الله جعل في الدنيا عبده عاملاً جابياً يجبي له سبحانه جميع ما رسم له، فهو في الدنيا يجمع ذلك فما خلقه الله إلاّ للجمع، فإن جمع ما أمر بجمعه وجباه كان سعيداً ووهبه الحق جميع ما جباه وأنعم عليه فكانت أجرته عين ما جمعه مع الثناء الإلهيّ الحسن عليه بالأمانة والعدل وعدم الظلم والخيانة، وإن كان عبد سوء خان في أمانته فأعطاها غير أهلها وجمع ما لم يؤثر بجمعه ممّا نهى عنه أن يدخل فيه نفسه وترك جمع ما أمر بجمعه، فلما انقلب إلى سيده وحصل في ديوان المحاسبة وقعد أهل الديوان يحاسبونه ورأى شدّة الهول في

حسابه وحساب غيره ورأى الأمناء الذين جبوا على حدّ ما رسم لهم قد سعدوا وأمنوا كثر عليه الغم والحزن، فمنهم من عفى عنه وخلى سبيله لشفاعة شافع، ومنهم من لم يكن له شفيع فعذب وعصر، فمن عرف ما خلق له وعمل عليه استراح راحة الأبد مع أنه في نفسه في زمان جبايته على حذر وخطر، وإن كان هذا فأحسن ما جمعه الإنسان في حياته العلم بالله والتخلّق بأسمائه والوقوف عند ما تقتضيه عبوديته، وأن يوفي ما تستحقه مرتبة سيده من امتثال أوامره، ومنزل هذا الأمر من الأسماء الإلهيّة الاسم الرب وقد نعت الله سبحانه هذا الاسم بالعظمة والكرم والعلوّ في مواضع من كتابه العزيز، وذكر ما جعل تحت حكمه بيده من الأمور وجعل الباء في هذا المنزل سلطاناً عظيماً حيث جعلها واسطة بين الله وعبده، فإن الله تعالىٰ قال لعبده: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] فأمره بتنزيهه فقال له العبد مقالة حال بما نسبحه فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] أي لا تنزهه إلاً بأسمائه لا بشيء من أكوانه، وأسماؤه لا تعرف إلاً منه عندنا، وإن كانت هذه المسألة مسألة خلاف بين علماء الرسوم، فإذا لم تعرف أسماؤه إلاً منه ولا ينزّه إلاً بها فكأن العبد ناب مناب الحق في الثناء عليه بما أثنى هو على نفسه لا بما أحدثه العبد من نظره، وأي شرف أعظم من شرف من ناب مناب الحق في الثناء عليه والمعرفة به فكان الحق استخلف عبده عليه في هذه الرتبة، فلو أن المثني على الله بأسمائه يعرف قدر هذه المنزلة التي أنزله الله فيها لفني عن وجوده فرحاً بما هو عليه، ثم لا يخلو العبد في هذا الثناء إما أن يثني على الله بأسماء التنزيه أو بأسماء الأفعال، فالمتقدم عندنا من جهة الكشف أن تبتدىء بأسماء التنزيه، وبالنظر العقلي بأسماء الأفعال فلا بدّ من مشاهدة المفعولات، فأوّل مفعول أشاهده الأقرب إليّ وهو نفسي فأثني عليه بأسماء فعله بي وفي، وكلما رمت أن أنتقل من نفسي إلى غيري اطلعت على حادث آخر أحدثه في نفسي بطلب يطلب مني الثناء عليه به فلا أزال كذلك أبد الآبد دنيا وآخرة ولا يكون إلاً هكذا، فأنظر ما يبقى عليّ من منازل الثناء على الله من مشاهدة ما سواي من المخلوقين، وهذا المشهد يطلب لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولهذا التتميم قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وبعد الفراغ مني ومن المخلوقين حينئذ أشرع في الثناء عليه بأسماء التنزيه والفراغ من نفسي محال، فالوصول إلى مشاهدة الأكوان بالفراغ من الأكوان محال، فالوصول إلى أسماء التنزيه محال، فإذا رأيت أحداً من العامة أو ممّن يدعي المعرفة بالله يثني على الله بأسماء التنزيه على طريق المشاهدة أو بأسماء الأفعال من حيث ما هي متعلقة بغيره، فاعلم أنه ما عرف نفسه ولا شاهدها ولا أحسّ بآثار الحق فيه، ومن عميَ عن نفسه التي هي أقرب إليه فهو على الحقيقة عن غيره أعمى وأضل سبيلاً. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٢] يعني في الدنيا وسمّاها دنيا لأنها أقرب إلينا من الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد القريبة ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٢] يعني البعيدة ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٢] ثم لتعلم أنك من جملة أسمائه بل من

أكملها اسماً، حتى أن بعض الشيوخ وهو أبو يزيد البسطامي سأله بعض الناس عن اسم الله الأعظم فقال: أروني الأصغر حتى أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمة فاصدق وخذ أي اسم إلهيّ شئت.

ولقيت الشيخ أبا أحمد بن سيد بون بمرسية وسأله إنسان عن اسم الله الأعظم فرماه بحصاة يشير إليه أنك اسم الله الأعظم وذلك أن الأسماء وضعت للدلالة فقد يمكن فيها الاشتراك وأنت أدل دليل على الله وأكبره فلك أن تسبحه بك. فإن قلت: وهكذا في جميع الأكوان. قلنا: نعم إلاّ أنك أكمل دليل عليه وأعظمه من جميع الأكوان لكونه سبحانه خلقك على صورته وجمع لك بين يديه ولم يقل ذلك عن غيرك من الموجودات. فإن قلت: فقد وصف نفسه بالعظمة. قلنا: وقد وصفك بالعظمة وندبك إلى تعظيمة فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] وأنت أعظم الشعائر فيتضمن قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٧٤] أن تنزهه بوجودك وبالنظر في ذاتك فتطلع على ما أخفاه فيك من قرة أعين فأنت اسمه العظيم، ومن كونك على صورته ثبتت العلاقة بينك وبينه فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] والمحبة علاقة بين المحب والمحبوب، ولم يجعلها إلاّ في المؤمنين من عباده، ولا خفاء أن الشكل يألف شكله وهو الإنسان الكامل الذي لا يماثل في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ولك حرف لام ألف من الصورة فإنه يلتبس على الناظر أي الفخذين هو اللام وأيهما هو الألف للمشابهة في لا تداخل كل واحد منهما على صاحبه، ولهذا كان لام الألف من جملة الحروف وإن كان مركباً من ذاتين موجودتين في العلم غير مفترقتين في الشكل، ولهذا وقع الإشكال في أفعالنا هل هي لنا أو لله؟ فلا يتخلص في ذلك دليل يعول عليه، فالألف لها الأحدية في المرتبة والأول من العدد، واللام لها المرتبة الثالثة من أوّل مراتب العقد، والثلاثة هي أوّل الأفراد فقد ظهر التناسب بين الأحد والفرد من حيث الوترية، فهو أوّل في الأحدية والإنسان الكامل أوّل في الفردية فاعلم ذلك، ولهذا جاء في نشأة الإنسان أنه علقة من العلاقة والعلقية في ثالث مرتبة من أطوار خلقته فهي في الفردية المناسبة له من جهة اللام في مراتب العدد، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] وهذه أوّل مرتبة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٣] هذي ثانية ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] وهي المرتبة الفردية ولها الجمع، والإنسان محل الجمع لصورة الحضرة الإلهية ولصورة العالم الكبير، ولهذا كان الإنسان وجوده بين الحق والعالم الكبير، وانفصل جميع المولدات ما سوى الإنسان عن وجود الإنسان بأن جميع المولدات ما عداه موجودون عن العالم فهو عن أم بغير أب كوجود عيسىٰ ابن مريم صلوات الله عليه.

وإنما نبهناك على هذا لئلا تقول إن جميع المولدات وجدوا بين الله والعالم، وما كان الأمر كذلك وإلا فلا فائدة لقوله: خلق آدم على صورته، ولو كانت الصورة ما يتوهمه بعض أصحابنا بل شيوخنا من كونه ذاتاً وسبع صفات فإن ذلك ليس بصحيح، فإن الحيوان معلوم أن

له ذاتاً وأنه حي، عالم، مريد، قادر، متكلم، سميع، بصير، فكان يبطل اختصاص الإنسان بالصورة وإنما جاءت على جهة التشريف له، فلم يبق إلاّ أن تكون الصورة غير ما ذكروه. فإن منعت العلم عن الحيوان كابرت الحسّ فإن الحيوان مفطور على العلم وأنه يوحى إليه كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فإن نازعت في الكلام قلنا لك: كلامه من جنس ما يليق بمزاجه. وأمّا المكاشف فلا يحتاج معه إلى هذا فإنه يرى ما نرى ويعلم ما نعلم. فإن قلت: فكلامنا هو الحقيقة. قلنا: فالكلام الذي تثبته لنفسك إن أردت به الأصوات والحروف المركبة فكلام الله عندك على خلاف هذا ليس بصوت ولا حرف إن كنت أشعرياً، وإن كنت معتزلياً فالكلام لمن خلقه، وإن كان الكلام عندك عبارة عن كلام النفس فذلك موجود في الحيوان، فصوت السنور إذا طلب ما يأكل خلاف صوته إذا طلب ما ينكح فقد أعرب بصوته عمّا حدثته به نفسه. فإن قلت: إن ذلك الذي في النفس إرادة وليس بكلام. قلنا: وكذلك الإنسان الذي في نفسه إرادة وليس بكلام. فإن قلت: ما استدل به أبو إسحاق الإسفرايني الأستاذ من حديث النفس بما مضى وما مضى لا يكون مراداً إذن فليست إرادة أعني ذلك الذي في النفس. قلنا: ذلك هو العلم بما قد مضى والتبس عليك ولا دليل لهم على كلام النفس أوضح من هذا وهو مدخول كما رأيت، فخرج من هذا أن قوله ﷺ على صورته لا يريد ما ذكره أصحابنا من الذات والصفات وكل الجماعة على ذلك فابحث على هذا الكنز حتى يفتح الله عليك به كما فتح به على من شاء من خلقه في قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥].

وممّا يختص به هذا المنزل من العلوم أيضاً أن الله لما خلق العقل الأوّل أعطاه من العلم ما حصل له به الشرف على من هو دونه، ومع هذا ما قال فيه أنه مخلوق على الصورة مع أنه مفعول إبداعي كما هي النفس مفعول انبعاثي، فلما خلق الله الإنسان الكامل أعطاه مرتبة العقل الأوّل وعلمه ما لم يعلمه العقل من الحقيقة الصورية التي هي الوجه الخاص له من جانب الحق، وبهذا زاد على جميع المخلوقات، وبها كان المقصود من العالم، فلم تظهر صورة موجود إلاّ بالإنسان والعقل الأوّل على عظمه جزء من الصورة، وكل موجود ممّا عدا الإنسان إنما هو في البعضية، ولهذا ما طغى أحد من الخلائق ما طغى الإنسان وعلا في وجوده فادّعى الربوبية، وأكبر العصاة إبليس وهو الذي يقول: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٨] عندما يكفر الإنسان إذا وسوس في صدره بالكفر وما ادّعى قط الربوبية، وإنما تكبر على آدم لا على الله، فلولا كمال الصورة في الإنسان ما ادّعى الربوبية، فطوبى لمن كان على صورة تقتضي له هذه المنزلة من العلوّ ولم تؤثر فيه ولا أخرجته من عبوديته، فتلك العصمة التي حبانا الله بالحظ الوافر منها في وقتنا هذا، فالله يبقيها علينا فيما بقي من عمرنا إلى أن نقبض عليها أنا وجميع إخواننا ومحبينا بمنه لا رب غيره. ومن هذا المنزل تعرف عقوبة من لم يعرف قدره وجاز حدّه واحتجب بالصورة عمّا أراد الحق منه في خلقه بما أخبر به في شريعته فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] ثم لتعلم أن علم

القربة في هذا المنزل من وقف عليه وشاهده كان على بينة من ربه فيما يتقرب إليه به وهو ما نبهناك عليه.

وممّا يتضمنه هذا المنزل خاصة علم الجمع بين التقدير والإيجاد، ولا تجد ذلك في منزل من المنازل مفصلاً لا واسطة بينهما، إذ كان التقدير يتقدّم الإيجاد في نفس الأمر في عالم الزمان ولهذا قيل: وبعض الناس يخلق ثم لا يفري. فاعلم أنه لم يكن في الأزل شيء يقدّر به ما يكون في الأبد إلاّ الهو، فأراد الهو أن يرى نفسه رؤية كمالية تكون لها ويزول في حقه حكم الهو، فنظر في الأعيان الثابتة فلم ير عيناً يعطي النظر إليها هذه الرتبة الإنانة إلاّ عين الإنسان الكامل فقدرها عليه وقابلها به فوافقت إلاّ حقيقة واحدة نقصت عنه وهي وجودها لنفسها فأوجدها لنفسها فتطابقت الصورتان من جميع الوجوه، وقد كان قدر تلك العين على كل ما أوجده قبل وجود الإنسان من عقل ونفس وهباء وجسم وفلك وعنصر ومولد، فلم يعط شيء منها رتبة كمالية إلاّ الوجود الإنساني، وسمّاه إنساناً لأنه أنس الرتبة الكمالية فوقع بما رآه الإنس له فسمّاه إنساناً مثل عمران فالألف والنون فيه زائدتان في اللسان العربي. فإن قلت: فلماذا ينصرف وعمران لا ينصرف؟ قلنا: في عمران علتان وهما اللتان منعتاه من الصرف وهما الزيادة والتعريف أعني تعريف العلمية، والإنسان ليس كذلك فإن فيه علة واحدة وهي الزيادة، وما لفظ الإنسان للإنسان اسم علم وإنما تعريفه إذا سمّي بآدم فلما سمّي بآدم لم ينصرف للتعريف والوزن وإنما سمّي باسم معلول بعلة تمنعه من الصرف الذي هو التصرّف في جميع المراتب ليعلم في صورته الإلهية أنه مقهور ممنوع عبد ذليل مفتقر، إذ كانت الصورة الإلهية تعطيه التصرّف في جميع المراتب ولهذا سمّي بإنسان فرفع وخفض ونصب، وما ثم في الأسماء مرتبة أخرى فهو إنسان من حيث الصورة، ومنها يتصرّف في المراتب كلها ومنع الصرف من حيث هو في قبضة موجده ملك يبقيه ما شاء ويعدمه إن شاء، فبالصورة نال الخلافة والتصريف واسم الإنسانية، فمن إنسانيته ثبت أنه غير يؤنس به، ومن الخلافة ثبت أنه عبد فقير ما له قوّة من استخلفه، بل الخلافة خلعت عليه يزيلها متى شاء ويجعلها على غيره كما قد وقع، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٩] وهي محل الخفض إذ الخفض لا يليق بالجناب العالي، فلهذا أقام له نائباً فيه ليعلم أنه عبد.

فلو استخلف الإنسان في السماء مع وجوده على الصورة لم يشاهد عبوديته في رفعته للصورة والمكان والمكانة فربما طغى ولو طغى ما وقع الأنس به، ولهذا من زاحم قصم. قال الله: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ**» فالعبد صغير في كبرياء الحق فإن هذا الكبرياء الإلهيّ ألبسه الصغار وهو حقير في عظمة الحق فإن هذه العظمة الإلهية ألبسته الحقارة، فالصغار رداء العبد والحقارة إزاره، فمن نازعه من الأناسي واحدة منهما أي طلب مشاركته فيهما عصم لا قصم ورحم ما حرم ولهذا خلق. فتأمل أيها الإنسان لم سماك إنساناً؟ وتأمل لم سماك خليفة؟ وتأمل لم سمّاك آدم في أوّل صورة ظهرت؟ ولا تتعد ما تعطيه حقيقة هذه الأسماء ولا تغب عنك فتكون من المفلحين، ولهذا ختم الاستخلاف الكامل باسم

منصرف وهو محمد ﷺ ليجبر به ما منع آدم من التصريف، فإنه ما منع إلاً لعلة قامت به وهو أوّل في هذا النوع، فعصم باسم غير منصرف ليعلم أنه تحت الحجر مقهور لا ينصرف ولا يتصرف إلاً فيما حدّ له، ثم بعد ذلك أعطى التصريف جماعة من الخلفاء كنوح، وشيث، وشعيب، وصالح، ومحمد، وهود، ولوط، وغيرهم، لأنه أمن بالأوّل وقوع ما كان يحذر، ثم إنه تخلل هؤلاء الخلفاء أسماء لا تنصرف كإدريس، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وسليمان، وداود، تنبيهاً للإنسان إذا سلك طريق الله ثم عاد بعد قطع الأسباب والاعتماد على الله إلى القول بالأسباب والوقوف عندها لكون الحق وضعها وربط الأمور بها، وحاله الاعتماد على الله والطبع من عادته الألفة ويسرق صاحبه إلى الركون لمألوفه كما قلنا لأنه إنسان يأنس بمألوفه، فربما يتخلله اعتماد على السبب فيضعف اعتماده على الله تعالىٰ فيتفقد نفسه بقطع الأسباب وقتاً بعد وقت، كما فعل الله بأسماء الخلائف وقتاً دعاهم باسم يقتضي لهم التصريف، ووقتاً دعاهم باسم يمنعهم التصريف تعليماً لهم لئلا يقعوا في محظور محذور، قال تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥] فلهذا كانت هذه الأسماء التي تمنع الصرف في بعض الخلفاء.

وأما الذين أعطوا التصريف فهم على قسمين: منهم من أعطي التصريف ظاهراً ومعنى وهو التصريف الكامل فلهم الاسم الكامل مثل محمد، وصالح، وشعيب، وكل اسم منصرف ظاهر لواحد من هؤلاء الخلفاء، والقسم الآخر أعطي التصريف معنى لا ظاهراً فليست له علة تمنعه من الصرف في المعنى وكان آخره حرف علة منعه ذلك الحرف من التصرف في الظاهر فكان مقصوراً، وسمّي ذلك الاسم مقصوراً كموسىٰ، وعيسىٰ، ويحيىٰ، فقصروا على المعنى دون الظاهر وسميت هذه بالمقصورة أي قصرت عن درجة التصرّف في الظاهر وحبست عنه ومنه ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وإنما قصر من قصر منهم صيانة لا سجناً فصانوا مثل هؤلاء كما صين من لم ينصرف من الأسماء عناية، ثم إن الله تعالىٰ لما أراد أن لا يحجبهم عنهم طبا في حقهم لما يعلم ما تقتضيه هذه النشأة من العلل إذ كان الكمال لا يطاق حكمه إلاً بالعناية الإلهيّة، فكان من العناية الإلهية بهم أن أجرى عليهم الأسماء النواقص ليعلموا أنهم في مرتبة النقص وهو كمالهم عن الكمال الإلهيّ فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٣] يعني محمداً ﷺ فكنى عنه بالذي جاء بالصدق والذي من الأسماء النواقص. ولما علم أن العبد المقرب يتألم بظهور نقصه ويخاف من إلحاقه بالعدم ورجوعه إلى أصله آنسه سبحانه من باب اللطف والكرم فسمى سبحانه نفسه بالأسماء النواقص فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ [سورة غافر: الآية ٦٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٥] وليس في القرآن لله تعالىٰ أكثر من الأسماء النواقص فكان ذلك تأميناً للخلفاء فإنهم قاطعون بأن الحق ليس له مرتبة النقص ولا يقبلها، ومع ذلك قد جرت عليه الأسماء النواقص، فلو أثرت الأسماء لذاتها في المسمّى لأثرت في الله وهي غير مؤثرة فيه إذاً فنرجو أنها لا تؤثر فينا تأثير العدم، ولكن كمالنا في أن تؤثر فينا تأثير وقوفنا مع عجزنا وفقرنا، وهذا

الباب الذي فتحناه علينا في هذا المنزل باب واسع لا يتسع الوقت لإيراد بعض ما يعطيه فليكف هذا القدر منه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر التاسع عشر من الفتوح المكي والحمد لله رب العالمين.

الباب التاسع والثمانون ومائتان

في معرفة منزل العلم الأميّ الذي ما تقدمه علم من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

العلمُ بالله تَزْيينٌ وتَخْلِيَةٌ والعلمُ بالفكر تَشْبيهٌ وتَضْليلُ

والعلمُ بالفكر إجمالٌ ومَغْلَطَةٌ والعلمُ بالله تحقيقٌ وتَفْصيلُ

والعلمُ بالفكر أعلامٌ مجَرَّدةٌ والعلمُ بالله تَحْويلٌ وتَبْديلُ

فلا تَغُرَّنك أقوالٌ مزخْرَفَةٌ فإن مَدْلولَها جَهْلٌ وتَغْليلُ

فالفيلسوفُ يرى نَفْيَ الإلهِ بما تُعطيه عِلَّتُه وذاك تَعطيلُ

والأشعريُّ يَرى عيناً مُكَثَّرةً وذاك علمٌ ولكنْ فيه تَمْثيلُ

الأمية عندنا لا تنافي حفظ القرآن ولا حفظ الأخبار النبوية، ولكن الأمية عندنا من لم يتصرف بنظره الفكري وحكمه العقلي في استخراج ما تحوي عليه من المعاني والأسرار، وما تعطيه من الأدلة العقلية في العلم بالإلهيات، وما تعطيه للمجتهدين من الأدلة الفقهية والقياسات والتعليلات في الأحكام الشرعية، فإذا سلم القلب من علم النظر الفكري شرعاً وعقلاً كان أمياً وكان قابلاً للفتح الإلهيّ على أكمل ما يكون بسرعة دون بطء، ويرزق من العلم اللدني في كل شيء ما لا يعرف قدر ذلك إلاّ نبي أو من ذاقه من الأولياء، وبه تكمل درجة الإيمان ونشأته، ويقف بهذا العلم على إصابة الأفكار وغلطاتها، وبأي نسبة ينسب إليها الصحة والسقم وكل ذلك من الله، ويعلم مع حكمه بالباطل أنه لا باطل في الوجود، إذ كان كل ما دخل في الوجود من عين وحكم لله تعالىٰ لا لغيره، فلا عبث ولا باطل في عين ولا حكم، إذ لا فعل إلاّ لله، ولا فاعل إلاّ الله، ولا حكم إلاّ لله، ولا حاكم إلاّ الله، فمن تقدّمه العلم بما ذكرناه فبعيد أن يحصل له من العلم اللدني الإلهيّ ما يحصل للأميّ منا الذي ما تقدّمه ما ذكرناه، فإن الموازين العقلية وظواهر الموازين الاجتهادية في الفقهاء ترد كثيراً ممّا ذكرناه، إذ كان الأمر جلّه ومعظمه فوق طور العقل وميزانه لا يعمل هنالك وفوق ميزان المجتهدين من الفقهاء لا فوق الفقه فإن ذلك عين الفقه الصحيح والعلم الصريح.

وفي قصة موسىٰ والخضر دليل قوي على ما ذكرناه، فكيف حال الفقيه؟ وأين الأينيّة وما شاكلها التي نسبها الشارع والكشف إلى الإله من الموازين النظرية والبراهين العقلية على زعم العقل وحكم المجتهد، فالرحمة التي يعطيها الله عبده أن يحول بينه وبين العلم النظري والحكم الاجتهادي من جهة نفسه حتى يكون الله يحابيه بذلك في الفتح الإلهيّ والعلم الذي يعطيه من لدنه قال تعالىٰ في حق عبده خضر: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فأضافه إلى نون الجمع

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ بنون الجمع ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ بنون الجمع ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بنون الجمع ﴿عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] أي جمع له في هذا الفتح العلم الظاهر والباطن، وعلم السرّ والعلانية، وعلم الحكم والحكمة، وعلم العقل والوضع، وعلم الأدلة والشبه، ومن أعطي العلم العامّ وأمر بالتصرّف فيه كالأنبياء ومن شاء الله من الأولياء أنكر عليه، ولم ينكر هذا الشخص على أحد ما يأتي به من العلوم وإن حكم بخلافه ولكن يعرف موطنه وأين يحكم به فيعطي البصر حقّه في حكمه وسائر الحواس، ويعطي العقل حكمه وسائر القوىٰ المعنوية، ويعطي النسب الإلهيّة والفتح الإلهيّ حكمهم، فبهذا يزيد العالم الإلهيّ على غيره وهو البصيرة التي نزل القرآن بها في قوله تعالىٰ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهو تتميم قوله تعالىٰ: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٢] فهو النبي الأميّ الذي يدعو على بصيرة مع أميته، والأميون هم الذين يدعون معه إلى الله على بصيرة فهم التابعون له في الحكم إذ كان رأس الجماعة، والمجتهد وصاحب الفكر لا يكون أبداً على بصيرة فيما يحكم به.

فأما المجتهد فقد يحكم اليوم في نازلة شرعية بحكم فإذا كان في غد لاح له أمر آخر أبان له خطأ ما حكم به بالأمس في النازلة فرجع عنه وحكم اليوم بما ظهر له ويمضي الشارع حكمه في الأوّل والآخر، ويحرم عليه الخروج عمّا أعطاه الدليل في اجتهاده في ذلك الوقت، فلو كان على بصيرة لما حكم بالخطأ في النظر الأوّل بخلاف حكم النبي فإن ذلك صحيح أعني الحكم الأوّل، ثم رفع الله ذلك الحكم بنقيضه وسمى ذلك نسخاً، وأين النسخ من الخطأ؟ فالنسخ يكون مع البصيرة، والخطأ لا يكون مع البصيرة، وكذلك صاحب العقل وهو واقع من جماعة من العقلاء إذا نظروا واستوفوا في نظرهم الدليل وعثروا على وجه الدليل أعطاهم ذلك العلم بالمدلول ثم تراهم في زمان آخر، ويقوم لهم خصم من طائفة أخرى كمعتزلي وأشعري أو برهمي أو فيلسوف بأمر آخر يناقض دليله الذي كان يقطع به ويقدح فيه فينظر فيه فيرى أن ذلك الأوّل كان خطأ، وأنه ما استوفى أركان دليله وأنه أخلّ بالميزان في ذلك ولم يشعر، وأين هذا من البصيرة؟ ولماذا لا يقع له هذا في ضرورات العقل؟ فالبصيرة في الحكم لأهل هذا الشأن مثل الضروريات للعقول، فمثل هذا العلم ينبغي للإنسان أن يفرح به.

حكي عن أبي حامد الغزالي المترجم عن أهل هذه الطريقة بعض ما كانوا يتحققون به قال: لما أردت أن أنخرط في سلكهم وآخذ مآخذهم وأغرف من البحر الذي اغترفوا منه خلوت بنفسي واعتزلت عن نظري وفكري وشغلت نفسي بالذكر فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي ففرحت بذلك وقلت: إنه قد حصل لي ما حصل للقوم، فتأملت فيه فإذا فيه قوّة فقهية ممّا كنت عليه قبل ذلك فعلمت أنه بَعْدُ ما خلص لي فعدت إلى خلوتي واستعملت ما استعمله القوم فوجدت مثل الذي وجدت أولاً وأوضح وأسنى فسررت، فتأملت فإذا فيه قوّة فقهية ممّا كنت عليه وما خلص لي عاودت ذلك مراراً والحال الحال، فتميزت عن سائر النظار

أصحاب الأفكار بهذا القدر ولم ألحق بدرجة القوم في ذلك وعلمت أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على غير المحو، ألا ترى الأشجار منها ما يتقدم ثمره زهره وهو كمرتبة علماء النظر إذا دخلوا طريق الله كالفقيه والمتكلم، ومنه ما لا يتقدم ثمره زهره وهو الأميّ الذي لم يتقدم علمه اللدني علم ظاهر فكري فيأتيه ذلك بأسهل الوجوه، وسبب ذلك أنه لما كان لا فاعل إلاّ الله وجاء هذا الفقيه والمتكلم إلى الحضرة الإلهية بميزانهما ليزِنوا على الله وما عرفوا أن الله تعالىٰ ما أعطاهم تلك الموازين إلاّ ليزِنوا بها لله لا على الله فحرموا الأدب، ومن حرم الأدب عوقب بالجهل بالعلم اللدني الفتحي فلم يكن على بصيرة من أمره، فإن كان وافر العقل علم من أين أصيب، فمنهم من دخل وترك ميزانه على الباب حتى إذا خرج أخذه ليزن به لله، وهذا أحسن حالاً ممّن دخل به على الله ولكن قلبه متعلق بما تركه إذ كان في نفسه الرجوع إليه فحرم من الحق المطلوب بقدر ما تعلق به خاطره فيما تركه للالتفات الذي له إليه، وأحسن من هذا حالاً من كسر ميزانه، فإن كان خشباً أحرقه وإن كان ممّا يذوب أذابه أو برده حتى يزول كونه ميزاناً، وإن بقي عين جوهره فلا يبالي، وهذا عزيز جدّاً ما سمعنا أن أحداً فعله، فإن فرضنا وليس بمحال أن الله قوّى بعض عباده حتى فعل مثل هذا كما ذكر أبو حامد الغزالي عن نفسه أنه بقي أربعين يوماً حائراً وهذا خطر ليس حال الأميّ على هذا فإن الأميّ يدخل إلى الله مؤمناً، وهذه الحال التي ذكرها أبو حامد ليست حال القوم وإنما هي حالة من لم يكن على شريعة فأراد أن يعرف ما ثم فسأل فدل على طريق القوم فدخل ليعرف الحق بتعريف الله، فهذا أيضاً طاهر المحل، وأبو حامد كان محله مشغولاً بالحيرة فلم يقوّ قوّة هذا في قبول ما يرد به الفتح الإلهيّ، فإذا اتفق على التقدير أن يفتح على مثل هذا الشخص الذي هو بهذه المثابة أبصر فيما يفتح له به تلك الموازين التي أذهبها فيعجب من ذلك، فلما خرج خرج بها فوزن بها لله لا عليه كما فعلته الأنبياء عليهم السلام، فهو لا يردّ شيئاً ولا يضع شيئاً في غير ميزانه، وارتفع الغلط والشك وعرف معنى قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] فجعلها موازين كثيرة ليزن بكل ميزان ما وضع له.

ولما وزن المتكلم بميزان عقله ما هو خارج عن العقل لكونه وراء طوره وهو النسب الإلهيّة لم يقبله ميزانه ورمى به وكفر به وتخيل أنه ما ثم حق إلاّ ما دخل في ميزانه، والمجتهد الفقيه وزن حكم الشرع بميزان نظره كالشافعيّ المذهب مثلاً أراد أن يزن بميزانه تحليل النبيذ الذي قبله ميزان أبي حنيفة فرمى به ميزان الشافعيّ فحرمه وقال: أخطأ أبو حنيفة، ولم يكن ينبغي للشافعيّ المذهب مثلاً أن يقول مثل هذا دون تقييد، وقد علم أن الشرع قد تعبد كل مجتهد بما أدّاه إليه اجتهاده وحرّم عليه العدول عن دليله فما وفى الصنعة حقها، وأخطأ الميزان العام الذي يشمل حكم الشريعة على الإطلاق وهو الذي استند إليه علماء الشريعة بلا خلاف في أصول الأدلة وفي فروع الأحكام، فأما في الأصول فالمثبتون القياس دليلاً أدّاهم إلى ذلك اجتهادهم المشروع لهم، وقد علم المخالف لهم من الظاهرية أن كل مجتهد متعبد بما أعطاه اجتهاده ولكن يقول فيهم إنهم أخطأوا في إثباتهم القياس دليلاً، وليس للظاهرية

تخطئة ما قرره الشرع حكماً فيثبت القياس دليلاً شرعاً ويثبت نفي القياس أن يكون دليلاً شرعاً.

وأما في الفروع فكعلي رضي الله عنه الذي يرى نكاح الربيبة إذا لم تكن في الحجر وإن دخل بأمها لعدم وجود الشرطين معاً وأنه بوجودهما تحرم الربيبة يعني بالمجموع والمخالف لا يرى ذلك، فالميزان العام يمضي حكم كل واحد منهما، ولكن العامل بالميزان العام قليل لعدم الإنصاف، فقد بيّنا في هذا الفصل سبب الحرمان الذي حكم على الفقهاء العقلاء النظار فلم يلجوا باب هذا العلم الشريف الإحاطي الذي يسلم لكل طائفة ما هي عليه، سواء قادهم ذلك إلى السعادة أو إلى الشقاء، ولا يسلم له أحد طريقه سوى من ذاق ما ذاقوه وآمن به كما قال أبو يزيد: إذا رأيتم من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة ويسلم لهم ما يتحققون به فقولوا له يدعو لكم فإنه مجاب الدعوة، وكيف لا يكون مجاب الدعوة والمسلم في بحبوحة الحضرة ولكن لا يعرف أنه فيها لجهله بها، فالله يجعلنا ممّن جعل له نوراً من النور الذي يهدي به من يشاء من عباده، حتى يهدي به إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض من الموازين والصراطات، ألا إلى الله تصير الأمور وترجع، قال تعالىٰ في معرض الامتنان منه على رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو قوله يلقي الروح من أمره ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وهو عروّ المحل عن كل ما يشغله عن قبول ما أوحى به إليه ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ يعني هذا المنزل ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ فجاء بمن وهي نكرة في الدلالة مختصة عنده ببعض عباده من نبي أو وليّ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ بذلك النور الذي هديتك به، فإن كان هذا العبد نبياً فهو شرع، وإن كان ولياً فهو تأييد لشرع النبي وحكمه أمر مشروع مجهول عند بعض المؤمنين به ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] في حق النبيّ طريق السعادة والعلم، وفي حق الوليّ طريق العلم لما جهل من الأمر المشروع فيما يتضمنه من الحكمة، قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ لا يقال فيه قليل، ثم قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] واللب نور في العقل كالدهن في اللوز والزيتون، والتذكّر لا يكون إلاّ عن علم منسي. فتنبّه لما حرّرناه في هذه الآيات تسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وبعد أن أبنت لك عن مرتبة هذا العلم من هذا المنزل فلنبين أصل هذا العلم ومادّة بقائه وحجاب مادّته وبماذا يوصل إلى ذلك بتأييد الله وتوفيقه فاعلم أن أصل هذا العلم الإلهيّ هو المقام الذي ينتهي إليه العارفون وهو أن لا مقام كما وقعت به الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٣] وهذا المقام لا يتقيد بصفة أصلاً، وقد نبّه عليه أبو يزيد البسطامي رحمه الله لما قيل له: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، فالصباح للشروق والمساء للغروب، والشروق للظهور، وعالم الملك والشهادة والغروب للستر وعالم الغيب والملكوت، فالعارف في هذا المقام كالزيتونة المباركة التي لا هي شرقية ولا غربية، فلا يحكم على هذا المقام

وصف ولا يتقيد به وهو حظه من: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] فالمقام الذي بهذه المثابة هو أصل هذا العلم، وبين هذا الأصل وهذا العلم مراتب، فالأصل هو الثبات على التنزيه عن قبول الوصف والميل إلى حال دون حال، ثم ينتج هذا الثبات صورة يتصف بها العارف لها ظاهر ولها باطن، فالباطن منها لا يصل إليه إلاّ بعد المجاهدة البدنية والرياضة النفسية، فإذا وصل إلى سرّ هذا الباطن وهو علم خاص هو لهذا العلم المطلوب كالدهن للسراج والعلم كالسراج، فلا يظهر لهذا العلم ثمرة إلاّ في العلماء به، كما لا يظهر للدهن حكم إلاّ في السراج القائم بالفتيلة، وهنا يقع له اكتساب الأوصاف التي نزهنا الأصل عنها في ذلك المقام، وفي هذا المقام نصفه بها من أجلنا لا من أجله، فهذا الوصف للآثار لا له كان الله ولا شيء معه. وسيأتي الكلام على هذا الأصل في الباب الخمسين وثلاثمائة من هذا الكتاب.

وممّا يتضمنه هذا المنزل علم خلق الأجسام الطبيعية وأن أصلها من النور، ولذلك إذا عرف الإنسان كيف يصفي جميع الأجسام الكثيفة الظلمانية أبرزها شفافة للنورية التي هي أصلها مثل الزجاج إذا خلص من كدروة رمله يعود شفافاً، وجلي الأحجار من هذا الباب ومعادن البلور والمهى، وإنما كان ذلك لأن أصل الموجودات كلها الله من اسمه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي ما علا ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] وهي ما سفل، فتأمل في إضافته النور إلى السموات والأرض، ولولا النورية التي في الأجسام الكثيفة ما صحّ للمكاشف أن يكشف ما خلف الجدران وما تحت الأرض وما فوق السموات، ولولا اللطافة التي هي أصلها ما صحّ اختراق بعض الأولياء الجدران ولا كان قيام الميت في قبره والتراب عليه أو التابوت مسمراً عليه مجعولاً عليه التراب لا يمنعه شيء من ذلك عن قعوده، وإن كان الله قد أخذ بأبصارنا عنه ويكشفه المكاشف منا، وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة وحكايات عن الصالحين، ولهذا ما ترى جسماً قط خلقه الله وبقي على أصل خلقته مستقيماً قط ما يكون أبداً إلاّ مائلاً للاستدارة لا من جماد ولا من نبات ولا من حيوان ولا سماء ولا أرض ولا جبل ولا ورق ولا حجر، وسبب ذلك ميله إلى أصله وهو النور، فأوّل موجود العقل وهو القلم وهو نور إلهيّ إبداعي وأوجد عنه النفس وهو اللوح المحفوظ، وهي دون العقل في النورية للواسطة التي بينها وبين الله، وما زالت الأشياء تكثف حتى انتهت إلى الأركان والمولدات، وبما كان لكل موجود وجه خاص إلى موجده به كان سريان النور فيه وبما كان له وجه إلى سببه به كان فيه من الظلمة والكثافة ما فيه فتأمل إن كنت عاقلاً، فلهذا كان الأمر كلما نزل أظلم وأكثف، فأين منزلة العقل من منزلة الأرض كم بينهما من الوسائط؟

ثم لتعلم أن جسم الإنسان آخر مولد فهو آخر الأولاد مركب من حمأ مسنون صلصال وهو كما رأيت مائل إلى الاستدارة، وإن كانت له الحركة المستقيمة دون البهائم والنبات، وفيه من الأنوار المعنوية والحسيّة والزجاجية ما فيه ممّا لا تجده في غيره من المولدات بما أعطاه الله من القوىٰ الروحانية فما قبلها إلاّ بالنورية التي فيه، فهي المناسبة لقبول هذه

الإدراكات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] فاعلم أن النور مبطون في الظلمة فلولا النور ما كانت الظلمة، ولم يقل نسلخ منه النور إذ لو أخذ منه النور لانعدم وجود الظلام إن كان أخذ عدم، وإن كان أخذ انتقال تبعه حيث ينتقل إذ هو عين ذاته، النهار من بعض الأنوار المتولدة عن شروق الشمس، فلولا أن للظلمة نوراً ذاتياً لها ما صحّ أن تكون ظرفاً للنهار، ولا صحّ أن تدرك وهي مدركة، ولا يدرك الشيء إن لم يكن فيه نور يدرك به من ذاته وهو عين وجوده واستعداده بقبول إدراك الأبصار بما فيها من الأنوار له واختصّ الإدراك بالعين عادة، وإنما الإدراك في نفسه إنما هو لكل شيء، فكل شيء يدرك بنفسه وبكل شيء.

ألا ترى الرسول ﷺ كيف كان يدرك من خلف ظهره كما كان يدرك من أمامه ولم يحجبه كثافة عظم الرأس وعروقه وعظامه وعصبه ومخه، غير أن الله أعطى الظلمة والكثافة الأمانة، فهي تستر ما تحوي عليه ولهذا لا تظهر ما فيها، فإذا ظهر فيكون خرق عادة لقوّة إلهيّة أعطاها الله بعض الأشخاص، وإذا أمر من أودع الأمانة من أودعها أن يظهرها لمن شاءه المودع وهو الحق تعالىٰ فله أن يؤديها إليه، فلا أمين مثل الأجسام المظلمة على ما تنطوي عليه من الأنوار، وقد نبّه الله على أمانتهم بذكر بعضهم في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [سورة التين: الآية ٣] فسمّاه أميناً وهو أرض ذو جدران وأسوار وتراب وطين ولبن، فوصفه بالأمانة وأقسم به كما أقسم بغيره تعظيماً لمخلوقات الله وتعليماً لنا أن نعظم خالقها ونعظمها بتعظيم الله إياها لا من جهة القسم بها، فإنه لا يجوز لنا أن نقسم بها، ومن أقسم بغير الله كان مخالفاً أمر الله، وهي مسألة فيها خلاف بين علماء الرسوم مشهور أعني القسم بغير الله، فكلما اعوجت الأجسام كانت أقرب إلى الأصل الذي هو الاستدارة، فإن أوّل شكل قبل الجسم الأوّل الاستدارة فكان فلكاً، ولما كان ما تحته عنه كان مثله وما بعد عنه كان قريباً منه، ولو لم تكن الطبيعة نوراً في أصلها لما وجدت بين النفس الكلية وبين الهيولى الكل، والهيولى الذي هو الهباء أوّل ما ظهر الظلام بوجودها فهو جوهر مظلم فيه ظهرت الأجسام الشفافة وغيرها، فكل ظلام في العالم من جوهر الهباء الذي هو الهيولى، وبما هي في أصلها من النور وقبلت جميع الصور النورية للمناسبة فانتفت ظلمتها بنور صورها فإن الصورة أظهرتها، فنسبت إلى الطبع الظلمة في اصطلاح العقلاء، وعندنا ليست الظلمة عبارة عن شيء سوى الغيب، إذ الغيب لا يدرك بالحسّ ولا يدرك به، والظلمة تدرك ولا يدرك بها، فلولا أن الظلمة نور ما صحّ أن ندرك، ولو كانت غيباً ما صحّ أن تشهد، فالغيب لا يعلمه إلاّ هو، وهذه كلها مفاتيح الغيب، ولكن لا يعلم كونها مفاتح إلاّ الله، يقول تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] وإن كانت موجودة بيننا لكن لا نعلم أنها مفاتح للغيب، وإذا علمنا بالأخبار أنها مفاتح لا نعلم الغيب حتى نفتحه بها، فهذا بمنزلة من وجد مفتاح بيت، ولا يعرف البيت الذي يفتحه به عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

ثم لتعلم بعدما عرّفتك بسريان النور في الأشياء أن الخلق بين شقي وسعيد، فبسريان

النور في جميع الموجودات كثيفها ولطيفها المظلمة وغير المظلمة أقرّت الموجودات كلها بوجود الصانع لها بلا شك ولا ريب، وبماله الغيب المطلق لا تعلم ذاته من طريق الثبوت، لكن تنزه عما يليق بالمحدثات، كما أن الغيب يعلم أن ثم غيباً ولكن لا يعلم ما فيه ولا ما هو، فإذا وردت الأخبار الإلهية على ألسنة الروحانيين ونقلتها إلى الرسل ونقلتها الرسل عليهم السلام إلينا فمن آمن بها وترك فكره خلف ظهره وقبلها بصفة القبول التي في عقله وصدق المخبر فيما أتاه به، فإن اقتضى عملاً زائداً على التصديق به عمله فذلك المعبر عنه بالسعيد وهو ممّا ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وله الجزاء بما وعده به من الخير في دار القرار والنعيم الدائم الذي لا يجري إلى أجل مسمّى، فينقطع بحلول أجله من حيث الجملة حكماً إلهياً لا يتبدل ولا ينخرم ولا ينتسخ، ومن لم يؤمن بها وجعل فكره الفاسد أمامه واقتدى به ورد الأخبار النبوية إما بتكذيب الأصل وإما بالتأويل الفاسد، فإن كذب المخبر بما أتاه به ولم يعمل بمقتضى ما قيل له إن اقتضى ذلك عملاً زائداً على التصديق به فذلك المعبر عنه بالشقي وهو من جهة ما فيه من الظلمة، كما آمن السعيد من جهة ما فيه من النور، وله الجزاء بما أوعده إن كذب من الشرّ في دار البور وعدم القرار لوجود العذاب الدائم الذي لا يجري إلى أجل مسمّى، وإن كان له أجل في نفس الأمر من حيث الجملة حكماً إلهياً عدلاً كما كان في السعيد فضلاً لا يتبدل ولا ينخرم ولا ينتسخ، وفي هذا خلاف بين أهل الكشف، وهي مسألة عظيمة بين علماء الرسوم من المؤمنين وبين أهل الكشف، وكذلك أيضاً بين أهل الكشف فيها الخلاف هل يتسرمد العذاب عليهم إلى ما لا نهاية له أو يكون لهم نعيم بدار الشقاء فينتهي العذاب فيهم إلى أجل مسمّى؟ واتفقوا في عدم الخروج منها وأنهم بها ماكثون إلى ما لا نهاية له، فإن لكل واحدة من الدارين ملؤها، وتتنوّع عليهم أسباب الآلام ظاهراً لا بدّ من ذلك، وهم يجدون في ذلك لذة في أنفسهم بالخلاف المتقدم باطناً بعدما يأخذ الألم منهم جزاء العقوبة.

حدثني عبد الله الموروري في جماعة غيره عن أبي مدين إمام الجماعة أنه قال: يدخل أهل الدارين فيهما السعداء بفضل الله وأهل النار بعدل الله وينزلون فيهما بالأعمال ويخلدون فيهما بالنيات، وهذا كشف صحيح وكلام حر عليه حشمة، فيأخذ جزاء العقوبة الألم موازياً لمدة المعمر في الشرك في الدنيا، فإذا فرغ الأمد جعل لهم نعيم في النار بحيث إنّهم لو دخلوا الجنة تألموا لعدم موافقة المزاج الذي ركبهم الله فيه، فهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير وما فيها من لدغ الحيات والعقارب، كما يلتذ أهل الجنة بالظلال والنور ولثم الحور الحسان لأن مزاجهم يقضي بذلك، ألا ترى الجعل في الدنيا هو على مزاج يتضرّر بريح الورد ويلتذ بالنتن كذلك من خلق على مزاجه، وقد وقع في الدنيا أمزجة على هذا شاهدناها، فما ثم مزاج في العالم إلاّ وله لذة بالمناسب وعدم لذة بالمنافر، ألا ترى المحرور يتألم بريح المسك؟ فاللذات تابعة للملايم والآلام لعدم الملايم، فهذا الأمر محقق في نفسه لا ينكره عاقل، وإنما الشأن هل أهل النار على هذا المزاج بهذه المثابة بعد فراغ المدة أم لا؟ أو هم على مزاج يقتضي لهم الإحساس بالآلام للأشياء المؤلمة، والنقل الصحيح الصريح النص

الذي لا إشكال فيه إذا وجد مفيداً للعلم يحكم به بلا شك فالله على كل شيء قدير، وإن كنت لا أجهل الأمر في ذلك ولكن لا يلزم الإفصاح عنه، فإن الإفصاح عنه لا يرفع الخلاف من العالم، وبعض أهل الكشف قال: إنهم يخرجون إلى الجنة حتى لا يبقى فيها أحد من الناس البتة وتبقى أبوابها تصفق وينبت فيها الجرجير ويخلق الله لها أهلاً يملؤها بهم من مزاجها كما يخلق السمك في الماء، وعالم الهواء في الهواء، وعالم في بطن الأرض لا حياة لهم إلاّ فيها كالخلد، فإذا حصل على ظهر الأرض مات فالغم الذي لنا في ذلك الغم حياتهم، فالسمك إذا خرج إلى الهواء مات وكان في الهواء غمّه فينطفي فيه نور حياته، والإنسان والحيوان البريّ إذا غرق في الماء هلك وكان في الماء غمه ينطفي به نور حياته، وثم حيوان بري بحري يعيش هنا ويعيش هنا كالتماسح وإنسان الماء وكلبه وبعض الطيور وهذا كله بالطبع والمزاج الذي ركبه الله عليه، وقد ذكرنا في هذا المنزل ما فيه كفاية واستوفينا أصوله بعون الله وإلهامه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التسعون ومائتان
في معرفة منزل تقرير النعم من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

بالقول نَشْرحُ ذاتَ القول فاعتبروا ... في شَرْحِ ما هو في التَّحْقيق مَشْروحُ
إن الأساميَ للمعنى مفاتيحٌ ... وفي العبارات تَعْديلٌ وتَجْريحُ
لا يحصل الشَّوْقُ للمُلقَى إليه إذا ... ما لم يكُنْ منك للإلقاء تَلْويحُ
فاكشفْ معارفَ أهل الله في حُجُبٍ ... لا يحكمنَّكَ تَبْيينٌ وتَصْريحُ
وانطُقْ بما تَغْتَذي به النفوسُ ولا ... تنطُقْ بما يَغْتذي بعلمه الرُّوحُ
فالروح يكتم ما يُلْقَى إليه كما ... تُبْدي النفوسُ الذي تَجْري به الريحُ
إن النفوسَ بما تهواه ناطقةٌ ... والروحُ إن زلَّ بالتصريح مَجْروحُ

اعلم أيّدك الله وإيانا أنّ المنعم إذا أبطل نعمته بالمنّ والأذى لا يكون مشكوراً عند الله على ذلك، وإن شكره المنعم عليه لمعرفته بذله وفقره إليه، فمن مكارم الأخلاق أن لا يمن المنعم بما أنعم به على المنعم عليه ولا سيما مع شكره على ذلك، فإذا احتاج المنعم عليه لأمر وأظهر الذلة والافتقار إلى المنعم في طلب ذلك الأمر الذي مسّت الحاجة فيه إليه وذلك الأمر عند المنعم عليه في النعمة التي أنعم بها المنعم عليه فللمنعم عند ذلك أن يعرّفه بما أنعم به عليه ويقرّره على ذلك، وأن الذي طلب منه موجود في نفس نعمته فلماذا يفتقر في غير موضع الافتقار؟ حينئذ يجوز للمنعم أن يذكر للمنعم عليه نعمته عليه، كرجل وهب رجلاً ألف دينار إنعاماً عليه ثم رآه يفتقر إلى ثوب يلبسه ومركب يركبه وأهل يأنس إليه وقد نسي أو جهل أن إرادة المنعم فيما أنعم به عليه أن ينال جميع ما سأله من تلك النعمة، فللمنعم عند ذلك أن يعرّفه بأن جميع ما تسألني فيه تصل إليه بما وهبتك إياه من المال فلماذا تستعجل

الذلة؟ ففي مثل هذا الموطن يجب التقرير بالنعم على وجه التعليم والتنبيه لا على المنّ والأذى، إلاّ أن من مكارم الأخلاق إذا قرّره على ما أنعم به عليه أن لا يخيب سؤاله، إما بعطاء في الوقت وإما بوعد فيبسطه بعد انقباضه لما حصل عنده من الخجل تخلقاً إلهياً. فاعلم أن هذا المنزل يتضمن تقرير النعم على ما ذكرت لك، ويتضمن علم التشريح الذي تعرفه الأطباء من أهل الحكمة، والتشريح الإلهيّ التي تتضمنه الصورة التي اختصّ بها هذا الشخص الإنساني من كونه مخلوقاً على صورة العالم وعلى صورة الحق، فعلم تشريحه من جانب العالم علمك بما فيه من حقائق الأكوان كلها علوها وسفلها، طيبها وخبيثها، نورها وظلمتها على التفصيل، وقد تكلم في هذا العلم أبو حامد وغيره وبينه، فهذا هو علم التشريح في طريقنا.

وأما علم التشريح الثاني فهو أن تعلم ما في هذه الصورة الإنسانية من الأسماء الإلهية والنسب الربانية، ويعلم هذا من يعرف التخلق بالأسماء وما ينتجه التخلّق بها من المعارف الإلهيّة، وهذا أيضاً قد تكلم فيه رجال الله في شرح أسماء الله كأبي حامد الغزالي، وأبي الحكم عبد السلام بن برجان الإشبيلي، وأبي بكر بن عبد الله المغافري، وأبي القاسم القشيري، ويتضمن هذا المنزل التكليف ورفعه من حيث ما فيه من المشقة لا من حيث ترك العمل. فاعلم أن الله تعالىٰ أمر عباده بالإيمان به وبما أنزل عليهم على أيدي رسله، وجعل مع الإيمان إلزاماً من المعاني أمرهم الله تعالىٰ أن يحملوها كلها في بواطنهم حملاً معنوياً وجعل محلها القلوب وعين أموراً عملية أنزلها على ظواهرهم، وحملها جوارحهم ممّا فيه كلفة حسية من عمل الأيدي والأرجل وممّا لا يعمل إلاّ بالأبدان كالصلاة والجهاد، وممّا لا كلفة فيه حسية كغض البصر عن المحرمات والنظر في الآيات ليؤدّي ذلك النظر إلى الاعتبار وتنزيه السمع عن سماع الغيبة والإصغاء إلى الحديث الحسن، فمثل هذا لا كلفة فيه حسية وإنما كلفته نفسية، فإن فيها ترك الغرض وهو ممّا يشق على النفس، وإذا أقيمت هذه الحضرة التي في هذا المنزل ممثلة في صور حسية يقام له توابيت على يمينه وتوابيت على يساره، فالتوابيت التي على يمينه مملوءة دراً وياقوتاً وأحجاراً نفيسة وحللاً ومسكاً وطيباً، ومنها توابيت كبار وصغار، وقيل له لا بدّ لك من حمل هذا إلى موضع معين إلى دار حسنة وروضة مورقة، وقيل له: إذا أوصلت هذه الأحمال إلى هذه الروضة كان أجرك عليها وعلى ما آلمك من ثقلها ما تحوي عليه هذه التوابيت كلها، ولك هذه الدار التي وصلتها بجميع ما تحوي عليه من الملك وهي خمسة أنواع من التوابيت: منها توابيت الأمر الواجب، وتوابيت الأمر المندوب، وتوابيت الأمر المبيح من حيث الإيمان به، وتوابيت النهي الواجب، وتوابيت النهي المكروه، ومن هذه التوابيت ما يختص بك، ومنها توابيت تتعلق بغيرك وكلفت أنت حملها، فكل خطاب شرعي يختص بذاتك لا تتعدّى بالعمل فيه إلى غيرك فهو المختص بك، وكل خطاب شرعي يختص بذاتك وتتعدّى في العمل به إلى غيرك فذلك الذي يتعلق بغيرك، وكلفت أنت حمله كالسعي على العيال وتعليم الجاهل وإرشاد الضال والنصيحة لله ولرسوله

ولأئمة المسلمين وعامتهم، فهذه توابيت أصحاب اليمين، فكما حملت ما هو لك ولغيرك في الدنيا كان لك أجرك وأجر غيرك في الآخرة، ولا ينقص الغير من أجره شيئاً إن كان مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً مثل التكليف الذي يتعلق بك في معاملة أهل الذمّة فلك أجرهم لو كانوا مؤمنين ولا أجر لهم، ولهذا قيد النبي ﷺ هذا الأمر بالعمل فقال: «**مَنْ سَنَّ سُنةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» فالمؤمن لا ينقصه من أجره الأخروي شيء، والذميّ يعطى أجره في الدنيا إما بمنفعة معجلة أو دفع مضرة معجلة يكون ذلك لهذا العامل في الآخرة محققاً، وقد يجمع له بين الدنيا والآخرة، فيرى العامل ما تحمل تلك التوابيت من الأشياء النفيسة ومآلها، وقد حصل له البشرى بأنها له ملك إذا حملها بحيث يفنى في حبها والتعشّق بها فيهون عليه حملها ويخف لحمل الهمة إياها فلا يجد فيها مشقة، وهو حال تلذّذه بالأذى وبما يحسن لأهل الذمّة، وآخر ينظر إلى ثقلها وهو المؤمن الذي لا كشف عنده إلاّ مجرّد تصديق الخبر فيجدها ثقيلة المحمل، فمنهم من يحملها بمشقة وكلفة لغلبة التصديق بما فيها وللحرص الشديد والطمع في أخذها وملكها لكون الآمر يحملها قال له: هي لك في أجر حملك.

ومنهم من ثقلت عليه فأخرج منها جملة طرحها في الأرض ليخف عنه الثقل الذي يجده، فلما خف حمله ببعض ما طرح منها حمل ما بقي وكلما طرحه من ذلك عاد ذلك المطروح حديداً ورصاصاً ونحاساً وزيد في التوابيت التي على شماله والتوابيت التي أقيمت له على شماله كلها مملوءة حديداً ونحاساً وقطراناً وآنكاً وشبه ذلك ممّا يثقل وتكره رائحته وقيل له: هذه التوابيت تحملها على ظهرك على ترتيب ما قرّرناه في توابيت اليمين وتوصلها إلى دار ذات لهب وزمهرير ما تحوي عليه هذه التوابيت ملكك، وهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٣] وقوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» وإن لم يحضر للمكاشف في هذا المنزل صوراً نزلت على قلبه معاني مجردة عن الموادّ وعرف تفاصيلها وألحق كل شيء منها بمقامه ومحله، ولم يجد لذلك كلفة ولا مشقة لأنه لا غرض له مع إرادة سيده منه فهو في عالم الانفساح والانشراح، وإن ضعفت أجسامهم عن حمل بعض ما كلفوه فقد أمر أن لا يحمل إلاّ وسع نفسه، والنفس هنا عبارة عن إكمال الحسّ لأن النفس المعنوية لا كلفة عليها إلاّ إذا كانت صاحبة غرض فكلفت بما لا غرض لها فيه، فلهذا لم يعذر الإنسان من حيث نفسه ويعذر من حيث حسّه لخروج ذلك عن طاقته في المعهود، ويتعلق بهذا المنزل طرف من العلم بنشء الملائكة وأنهم من عالم الطبيعة مخلوقون مثل الأناسي غير أنهم ألطف، كما أن الجن ألطف من الإنسان مع كونهم من نار من مارجها والنار من عالم الطبيعة، ومع هذا فهم روحانيون يتشكلون ويتمثلون، فلو كانت الطبيعة لا تقبل ذلك لما قبله عالم الجن، وكيف ينكر ذلك ومعلوم قطعاً أن الإنسان من عالم الطبيعة الكثيفة وفيه منها خزانة الخيال في مقدم دماغه يتخيل بها ما شاء من المحالات فكيف من الممكنات؟ فكذلك الملائكة عليهم السلام من عالم الطبيعة وهم

عمار الأفلاك والسموات وقد عرفك الله أنه استوى إلى السماء وهي دخان فسوّاهنّ سبع سموات وجعل أهلها منها وهو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] ولا خلاف أن الدخان من الطبيعة وإن كانت الملائكة أجساماً نورية، كما أن الجن أجسام نارية، ولو لم يكن النور طبيعياً لما وصف بالإحراق كما توصف النار بالتجفيف والذهاب بالرطوبات، وهذا كله من صفات الطبيعة.

ثم إن الله قد أخبر عن الملأ الأعلى أنهم يختصمون والخصام من الطبيعة لأنها مجموع أضداد والمنازعة والمخالفة هي عين الخصام ولا يكون إلاّ بين الضدين، ومن هذا الباب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] هذا من طبيعتهم وغيرتهم على الجناب الإلهيّ، فلو وقفوا مع روحانيتهم لم يقولوا مثل هذا حين قال لهم الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] بل كان جوابهم من حيث ما فيهم من السرّ الإلهيّ أن يقولوا: ذلك إليك سبحانك تفعل ما تريد ونحن العبيد تحت أمرك بالطاعة لمن أمرتنا بطاعته. فبالذي وقع من الإنسان من الفساد وغيره ممّا يقتضيه عالم الطبع به بعينه وقع الاعتراض من الملائكة فرأوه في غيرهم ولم يروه في نفوسهم، وذلك لما قرّرناه من أن التعشق بالغرض يحول بين صاحبه وبين فعل ما ينبغي له أن يفعله، ولهذا قال لهم الله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] ثم أراهم الله شرفه عليهم بما خصّه به من علم الأسماء الإلهية التي خلق المشار إليهم بها وجهلتها الملائكة فكأنه يقول سبحانه: أجعل علمي حيث شئت من خلقي أكرمه بذلك، فمن هنا تعلم ما ذكرناه، وسيأتي العلم بهذا الأمر محققاً مستوفى في منزله الخاص به، فإن علوم هذه المنازل على قسمين: منها علوم مختصة بالمنزل لا توجد في غيره، ومنها علوم يكون منها في كل منزل طرف.

واعلم أن القلب وإن كان محل السعة الإلهيّة فإن الصدر محل السعة القلبية، إذ كان إنما سمّي صدراً لصدوره ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٦] فإن القلب في حال الورود يضيق لما يقتضيه من الجلال والهيبة وما يعطيه القرب الإلهيّ والتجلي، وإذا صدر اتسع وانفسح لأنه كون وهو صادر إلى الكون فينفسخ للمناسبة وتتسع أشعة نوره بانبساطها على الأكوان ويبتهج بكونه خصّ بهذا التعريف الإلهيّ على أبناء جنسه، ولهذا إذا عرض له عارض يقبضه في غير محل القبض ينبّهه الحق يذكره ما أنعم الله به عليه ليتذكر النعمة الإلهيّة عليه فيحول بينه وبين ما كان عليه من الضيق، فهو في الظاهر من إلهيّ وفي المعنى رحمة بهذا القلب، فمن هنا يقرّر الحق عبده على ما متن به عليه. فإن قلت: فإن الله قد ذكر أنه يمنّ على عباده. قلنا: إنما جاء هذا لما امتنوا على رسول الله ﷺ بإسلامهم فقال الله له: قل لهم يا محمد: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٧] أي إذا دخلتم في حضرة المنّ فالمنّ لله لا لكم، فهو من علم التطابق لم يقصد به المنّ، فما كان الله ليقول في المنّ ما قال ويكون منه كما قال ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عنِ الرِّبَا وَيَأْخُذَهُ مِنكُمْ**» وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَدُلَّكُمْ عَلى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ مِنَ العَفْوِ وَالصَّفْحِ وَيَفْعَلَ مَعَكُمْ خِلاَفَهُ فإذا وقع منكم من سفساف الأخلاق ما

وقع ردّ الحق سبحانه أعمالكم عليكم لا أنه عاملكم بها من نفسه وإنما أعمالكم لم تتعدَّكم، فللَّه المنة التي هي النعمة والامتنان الذي هو إعطاء المنة لا المن سبحانه وتعالىٰ. وإذا أراد الله تعالىٰ رفعة عبده عند خلقه ذكر لعباده منزلته عنده إما بالتعريف وإما بأن يظهر على يده وفي حاله ما لا يمكن أن يكون إلاّ للمقرّب من عباده، فتنطلق له الألسنة وتنطق بعلوّ مرتبته عند سيده مثل فتحه ﷺ باب الشفاعة يوم القيامة الذي اختصّ به على سائر الرسل والأنبياء فيعلو مناره في ذلك الموطن على كل أحد وهنالك تطلب الرياسة والعلوّ، وأما في الدنيا فلا يبالي العارف كيف أصبح ولا أمسى عند الناس لأنهم في محل الحجاب وهو في موطن التكليف، فكل إنسان مشغول بنفسه مطلوب بأداء ما كلف به من العمل.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم التنكير وهو التجلي العامّ وعلم التعريف وهو التجلي الخاص وهو مندرج في العامّ كالاسم الرب إذا تجلى فيه الحق لعباده فإنه تجلّ عامّ وإذا تجلّى في مثل قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٢] فهو تجلّ خاص وإن كانت التجليات من الربوبية ولكن بينهما تباين، فإن الحال التي لك مع الملك في مجلس العامّة ليس هو الحال التي لك معه إذا انفردت به، فلهذا مقام وعلم خاص، ولهذا مقام وعلم خاص، والتجلي العامّ أكثر علماً وأنفع، والتجلي الخاص أعظم قربة.

واعلم أن أصل الأمور كلها المعرفة عندنا والنكرة عرض طارىء، فإذا عرض وقع الإبهام والإشكال فالعارف من عرفه في حال التنكير فهو نكرة في العموم وعند هذا هو معرفة في النكرة إذا قال القائل: كلمت اليوم رجلاً، فرجل هنا نكرة وهو عند من كلّمه معرفة بالتعيين في حال الحكم عليه بالنكرة، فالذي يشاهد العارف من الحق في حال النكرة، والإنكار من العالم هو عين المعرفة عنده لكونه أبقاه على الإطلاق الذي يستحقه في حال تقيده به العقائد فيجهله العامّة في التنكير وهو مقام عظيم الفائدة للعارفين. واعلم أن العارف في هذا المنزل لا يتمكن له أن يسأل الحق في أمر إلاّ من الوجه الأخص لا من الوجه الأعم، ولا يصحّ له سؤال الحق في أمر هو فيه لأنه شغل عمّا يستحقه ذلك الأمر من الأدب، فإذا وفاه حقّه حسّاً كان ممّا يتعلق بالعبادات البدنية، أو معنى كان ممّا يتعلق بالعبادات القلبية، وأراد الحق أن ينقله من تلك العبادة لم يعرف العارف مراد الحق فيه لأيّ مرتبة ينقله هل ينقله إلى واجب آخر أو مندوب أو مباح أو مكروه أو محظور فيبقى واقفاً بين المقام الذي فرغ منه وبين الأمر الذي إليه في علم الله ينتقل، فعند ذلك يأتيه رسول من الله مظهر في سرّه يقول له: إن الله قد أمرك أن تتضرّع إليه وترغبه وتسأله في هذا الأمر الذي ينقلك إليه إن كانت بقيت لك حياة فليكن من الواجبات وهو المراد، فإن لم يكن فمن المندوبات، فإن لم تسبق العناية بالإجابة فمن المباحات، فإن لم يكن ورأيت لوائح تبرق إليك من خلف حجاب الخذلان وتعلم أنك تنتقل إلى محظور أو مكروه فاسأل من الله الحضور معه في ذلك الأمر الذي تنتقل إليه، واسأله أن يجعل فيك من الكراهة لذلك الأمر ولا يحول بينك وبين معرفتك بأنه شيء يسوءك فعله، وأن العلم الإلهيّ لا يتبدّل فيك بوقوعه منك، حتى أنه إذا وقع منك وأنت على

هذه الحالة لم يبق حكم للمعصية فيك جملة وكان الحكم في ذلك للقدر، فإذا توجهت العقوبة على من هذه حالته لما تطلبه المخالفة من وجه من وجوهها توجه العفوّ والغفور والرحيم وهم الأسماء التي تطلبها المخالفة ويعتضدون بالأسماء التي تطلبها الكراهة التي كانت فيك لذلك الفعل والإيمان بالقدر السابق فيها ويد الله مع الجماعة، فتكون الغلبة والحكم لهؤلاء الأسماء التي تعطيه السعادة والخير مع وقوع المعصية، وتكون معصيته بحضوره فيها مع الله حية ذات روح إلهيّ يستغفر له إلى يوم القيامة، ويبدّل الله سيئها حسناً كما بدّل عقوبتها مثوبة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والتسعون ومائتان

في معرفة منزل صدر الزمان وهو الفلك الرابع من الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

أقسمتَ بالدهر إن الدَّهرَ ليس له ... عينٌ ولكنّه للعقل مَعْقُولُ
فإن حلفتَ به فاحلفْ على عَدَم ... لا في وجودٍ فإن الحَنْثَ تعطيلُ
واعلَمْ بأن الذي لا أُمَّ تُؤنسُهُ ... ولا أبٌ هو في الأحكام مَبْتُولُ
إلاّ الذي رقيَتْ فيه مَعَارفُه ... وكان عنه فذاك الشخص مَقبولُ
كما الذي تاهَ في بحرٍ وليس له ... هادٍ فذلك بالأهواء مَغلولُ
وإن نُقلْتَ إلى فَقْرٍ بغير غنًى ... فإنكم لدليلِ العَقْل مَذلُولُ

اعلم وفّق الله الوليّ الحميم أن لكل شيء صدراً، ومعرفته في هذا الطريق من أرفع العلوم والمعارف، إذ كان العالم وكل جنس على صورة الإنسان وهو آخر موجود، وكان الإنسان وحده على الصورة الإلهية في ظاهره وباطنه، وقد جعل الله له صدراً، فما بين الحق والإنسان الذي له الآخرية وللحق الأوّلية صدور لا يعلم عددها إلاّ الله، فلنعين منها بعض ما يصل إليه فهمك وما يمكن أن يقبله عقلك، ونسكت عمّا لا يصل إليه فهمك ولا يقبله عقلك، فلنبتدىء أوّلاً بالأعلى وننزل إلى آخر درجة فنقول:

إن الصدر في الرتبة الثانية من كل صورة سواء كانت الصورة جنسية أو نوعية أو شخصية، فصدر الواجبات الحياة الأزلية المنعوت بها الحق عزّ وجلّ، وصدر الأسماء المؤثرة العالم، وصدر صفات التنزيه نفي المثلية، وصدر الأينيات العماء الذي ما فوقه هواء وما تحت هواء، وصدر الوجود الممكنات، وصدر الموجودات العقل الأوّل، وصدر الدهر ما بين الأزل والأبد، وصدر الزمان زمان قبول الهيولى للصورة، وصدر الطبيعة كيفية الجسم الأوّل، وصدر الكيفيات تعلق القدرة بالإيجاد، وصدر الكميات تقسيم المعاني، وصدر الأفلاك الكرسي، وصدر العناصر الماء، وصدر الليل مغيب الشفق الأحمر، وصدر النهار إشراق الشمس لا شروقها، وصدر المولدات الحيوان، وصدر الإنسان معروف، وصدر الأمّة زمان إدريس، وصدر هذه الأمة القرن الأوّل، وصدر الدنيا وجود آدم، وصدر الأيام يوم

الاثنين، وصدر الآخرة البعث، وصدر البرزخ النوم، وصدر النار الموبق، وصدر الجنة النزول في المنازل منها، وصدر العذاب والنعيم رؤية أسبابهما، وصدر الدين فلان رسول الله.

واعلم أن لكل صدر قلباً فما دام القلب في الصدر فهو أعمى لأن الصدر حجاب عليه، فإذا أراد الله أن يجعله بصيراً خرج عن صدره فرأى، فالأسباب صدور الموجودات والموجودات كالقلوب، فما دام الموجود ناظراً إلى السبب الذي صدر عنه كان أعمى عن شهود الله الذي أوجده، فإذا أراد الله أن يجعله بصيراً ترك النظر إلى السبب الذي أوجده الله عنده ونظر من الوجه الخاص الذي من ربه إليه في إيجاده جعله الله بصيراً، فالأسباب كلها ظلمات على عيون المسببات وفيها هلك من هلك من الناس، فالعارفون يثبتونها ولا يشهدونها ويعطونها حقها ولا يعبدونها، وما سوى العارفين يعاملونها بالعكس يعبدونها ولا يعطون حقها بل يغصبونها فيما تستحقه من العبودية التي هي حقها ويشهدونها ولا يثبتونها، فما تسمع أحداً من الناس إلاَّ وهو يقول: ما ثم إلاَّ الله، وينفي الأسباب، فإذا أخذته بقوله أونزلت به نازلة شاهد السبب وعمي عمّن أثبته وكفر به وآمن بما نفاه، فإذا اتفق لبعض الناس أن تلك النازلة ما ارتفعت بهذا السبب الذي استند إليه وانقطعت به الأسباب حينئذ يكفر بها ويرجع إلى الله خالق الأسباب، فلم يدرِ بماذا كفر ولا بما به آمن، ولم يدر ما معنى السبب ولا غيره، إذ لو علم أن السبب لا يصحّ إلاَّ أن يكون عنه المسبب لعلم أن السبب الذي استند إليه في رفعه لهذه النازلة لم يكن سببها بوجه من الوجوه إذ لو كان سببها لرفعها، وإنما كان ذلك السبب في منعه رفع النازلة سبباً في رجوعه إلى الله في رفعها، فلم يزل في المعنى تحت تأثير الأسباب فإن الأسباب محال رفعها، وكيف يرفع العبد ما أثبته الله ليس له ذلك ولكن الجهل عمّ الناس فأعماهم وحيّرهم وما هداهم ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٦] بالروح الموحى من أمر الله فيهدي به من يشاء من عباده فقد أثبت الهداية بالروح وهذا وضع السبب في العالم، فالوقوف عند الأسباب لا ينافي الاعتماد على الله، ولهذا جعل سبحانه الأسباب مسببات لأسباب غيرها من الأدنى حتى ينتهي فيها إلى الله سبحانه، فهو السبب الأوّل لا عن سبب كان به، نعم سبب الكون المرتبة لا الذات، وسبب المرتبة الكون، فسبب الكون في الإيجاد المرتبة، وسبب المرتبة في المعرفة الكون فافهم.

فلما أضاء النهار للحركة وقعت الولادة للأشياء بها فظهرت الأعيان في عالم الحسّ غالباً، وهبت الرياح في البحار فتلاطمت الأمواج وجرت السفن ورمت البحار ما فيها لتلاطم الأمواج، ولما أظلم الليل للسكون سكنت الرياح وسكنت الأمواج وأمسك البحر ما فيه غالباً وظهرت الولادة في البرزخ فكانت الأحلام ورؤيا المبشرات والمفزعات كالصورة القبيحة الجميلة في صور المولدات في الحسّ من الأفعال والنشآت، وأغلب وقوع هذا في صدر الليل وفي صدر النهار لأن الرياح لا تهب إلاَّ بعد طلوع الشمس حينئذ تكون الرياح، كما أن رياح النصر لا تهب إلاَّ في صدر العشي وهو بعد الزوال ولهذا يستحب فيه القتال، ولما كان

الليل محلاً للسكون والمسامرة ولا يبيت شخص إلاً مع من يحبه ويسكن إليه غالباً ولا يسامر إلاً من يأنس به لذلك كان الليل أصل المودّة والرحمة حتى إن الذين تعذبهم الملوك لا تعذبهم إلاً بالنهار غالباً وأما الليل فلا لأن المعذب يتعذب بالليل إذا عذب للسهر وعدم النوم والذي يلحقه، فالليل زمان السكون والراحة، والمعذب لا يريد أن يعذب نفسه فيترك العذاب إلى النهار الذي هو محل الحركة، فأصل الودّ والمحبة موجود من الليل وضده موجود بالنهار.

ثم إنّ الغيبة أعني غيبة المحبوب عن المحب غيبة تعليم وتأديب لما تعطيه المحبة، فإن المحب إذا كان صادقاً في دعواه وابتلاه الله بغيبة محبوبه ظهرت منه الحركة الشوقية إلى مشاهدته فيصدق دعواه في محبته فيعظم منزلته وتتضاعف جائزته من التنعيم بمحبوبه، فإن اللذة التي يجدها عند اللقاء أعظم من لذة الاستصحاب كحلاوة ورود الأمن على الخائف لا يقوي قوّتها حلاوة إلاّ من المستصحب فهو يزيد به تضاعف النعيم، ولهذا أهل الجنة في نعيم متجدّد مع الأنفاس في جميع حواسهم ومعانيهم وتجليهم فهم في طرب دائمون، فلهذا نعيمهم أعظم النعيم لتوقع الفراق وتوهم عدم المصاحبة، ولجهل الإنسان بهذه المرتبة يطلب الاستصحاب، والعالم يطلب استصحاب تجديد النعيم والفرق بين النعيمين حتى يقع الالتذاذ بنعيم جديد كما هو في نفس الأمر، وإن لم يعرفه كل إنسان ولا شاهدته كل عين ولا عقل فهو متجدّد مع الآنات في نفس الأمر، وللجهل القائم بهذا الشخص لعدم مشاهدته التجديد في النعيم يقع الملل، فلو ارتفع عنه هذا الجهل ارتفع الملل من العالم، فالملل أقوى دليل على جهل الإنسان بالله في حفظ وجوده عليه وتجديد آلائه مع الأنفاس، فالله يحققنا بالكشف الأتم والمشهد الأعم، فما أشرف عين اليقين وما أسعد صاحب مشاهدة الأمور على ما هي عليه، ولكن راعى الله سبحانه بهذا الجهل أصحاب الهموم فهو رحمة في حقهم، فإنهم لو شاهدوا تحديداً لهم في كل زمان فرد لم يزل عذابه كبيراً عندهم وآلامه متضاعفة، فلما حيل بينهم وبين هذه المشاهدة وتخيّلوا أن الهمّ الأوّل هو الذي استصحبهم لم يقم عندهم مقام فجأته في الفعل، وهان عليهم حمله للاستصحاب الذي تخيلوه رحمة من الله بهم وتخفيفاً عنهم إلاّ في جهنم، فإن أهلها مع الأنفاس يشاهدون تجديد العذاب، وكلامنا إنما هو في هذه الدار الدنيا محل الحجاب إلاّ للعارفين فإن لهم مقام الآخرة في الدنيا فلهم الكشف والمشاهدة وهما أمران يعطيهما عين اليقين وهو أتم مدارك العلم، فالعلم الحاصل عن العين له أعظم اللذات في المعلومات المستلذة فهم في الآخرة حكماً وفي الدنيا حسّاً، وهم في الآخرة مكانة وفي الدنيا مكاناً، ثم يتصل لهم ذلك بالآخرة من القبر إلى الجنة وما بينهما من منازل الآخرة وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٦٤] وهي ما هم فيه من مشاهدة ما ذكرناه وفي الآخرة من القبر إلى الجنة فهو نعيم متصل، فهذا نعيم العارفين وليس لغيرهم هذا النعيم الدائم.

ثم إن الحق سبحانه وتعالىٰ في هذا المنزل أمر عبده المعتنى به أن يكون مع خلقه كما كان الحق معه في مثل هذا المشهد وكل ما يؤدّي إلى سعادتهم، وذلك بالنصيحة والتبليغ ليس

بيده من الأمر غير هذا، فللعارف إيضاح هذا الطريق الموصل إلى هذا المقام والإفصاح عنه وليس بيده إعطاء هذا المقام فإن ذلك خاص بالله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] فلما بلغ قيل له: « ما عليك إلاّ البلاغ » ليس عليك هداهم ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] وما أحسن قوله في الحقائق ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦] فإن العلم إنما يتعلق بالمعلوم على ما هو المعلوم عليه، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٣] فوظيفة الرسل والورثة من العلماء إنما هي التبليغ بالبيان والإفصاح لا غير ذلك، وجزاهم جزاء من أعطى ووهب والدال على الخير كفاعل الخير، فإن الدلالة على الخير من الخير، فيتضمن هذا المنزل من علم الاستناد، والمستند إليه أعظم الاستنادات وهو الاستناد الإلهيّ وهو استناد الأسماء الإلهية إلى محال وجود آثارها لتعيين مراتبها، واستناد المحال إلى الأسماء الإلهيّة لظهور أعيانها فهذا أعلى الاستنادات وأعلى المستندات إليها وقد رمينا بك على الطريق فأدرج عليه نازلاً وصاعداً، ومن هنا يعرف ما تخبط فيه الناس من تفضيل الفقر على الغنى والغنى على الفقر، والخوض في هذه المسألة من الفضول الذي في العالم والجهل القائم به، فإن الحالات تختلف والمنازل تختلف وكل حالة كمالها في وجود عينها فالله يقول: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] فما تركت هذه الآية لأحد طريقاً إلى الخوض في الفضول لمن فهمها وتحقق بها غير أن الفضول أيضاً من خلق الله فقد أعطى الله الفضول خلقه ثم هدى أي بيّن أن من قام به الفضول فهو المعبر عنه بالمشتغل بما لا يعنيه وجهله بالأمر الذي يعنيه، والفقر في عينه كامل الخلق لا قدم له في الغنى، والغني في حاله كامل الخلق لا قدم له في الفقر، ولو تداخلت الأمور لكان الفقر عين الغنى والغنى عين الفقر، إذ كان كل واحد منهما من مقوّمات صاحبه، والضدّ لا يكون عين الضدّ، وإن اجتمعا في أمر ما فلا يجتمع الغنى والفقر أبداً، فليس للفقر منزلة عند الله في وجوده، وليس للغنى منزلة عند العبد في وجوده، فكما لا يقال الله أفضل من الخلق أو الخلق كذلك لا يقال: الغنى أفضل من الفقر أو الفقر أفضل من الغنى، فالفقر صفة الخلق والغنى صفة الحق، والمفاضلة لا تصحّ إلاّ فيمن يجمعهما جنس واحد، ولا جامع بين الحق والخلق فلا مفاضلة بين الغنى والفقر، قال تعالىٰ في الغنى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] وقال في الفقر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فمن قال بعد علمه بهذا: الغنى أفضل من الفقر أم الفقر أفضل؟ كمن قال: من أفضل الله أم الخلق؟ وكفى بهذا جهلاً من قائله.

وأما الذي بأيدي الناس الذي يسمونه غنى فكيف يكون غنى وأنت فقير إليه غير مستغن في غناك عن غناك، فغناك عين فقرك، وهذا على الحقيقة لا يسمّى غنى، فكيف تقع المفاضلة ما بين ماله وجود حقيقيّ وهو الفقر وبين ما ليس له وجود حقيقي وهو غناك؟ وإذا سمي الإنسان غنياً فهو عبارة عن وجود السبب المؤثر عنده فيما له فيه غرض في الوقت فيكون بذلك السبب غنياً فيما يفتقر إليه لوجوده به فهو الفقير الذاتي في غناه العرضي، وإذا لم

يكن عنده وجود السبب المؤثر فيما افتقر إليه سمّي فقيراً من غير غنى فالفقر له في الحالين معاً لأن ذاته له في الحالين معاً، والأمر إذا كان على هذا فطلب المفاضلة جهل بين الوصف الحقيقيّ والإضافي العرضي، وممّا يتضمنه هذا المنزل ما يلزم العالم والمتعلم والسائل والمسؤول، فلنبين من ذلك طرفاً لمسيس الحاجة إليه فإنه يقع من الناس في غالب الأوقات، وذلك أن الجاهل إذا جاء ليسأل العالم في أمر لا يعلمه من الوجه الذي يسأل عنه ويعلم منه قدر الوجه الذي دعاه إلى السؤال عنه كمن سمع حساً من خلف حجاب فيعلم قطعاً أن خلف الحجاب أمراً لا يدري ما هو، أو لا يدري محل ذلك الحسّ ولعله ليس خلف ذلك الستر، فيسأل من يعلم محل ذلك الستر هل خلفه ما يمكن أن يحسّ أم لا؟ وإذا كان فما هو؟ فيتصوّر السؤال من السائل عمّا لا يعلم لوجه ما معلوم عنده يتضمن ما لا يعلم إلاّ بعد السؤال عنه، وعلى هذا المقام أورد بعض النظار أشكالاً وبهذا القدر ينفصل عن ذلك الإشكال، وليس كتابنا ممّا قصد به النسب الفكرية النظرية وإنما هو موضوع للعلوم الوهبية الكشفية، فجرت العادة عند العلماء القاصرين عمّا ذكرناه أن المتعلم السائل إذا جاء ليسأل العالم عن أمر لا يعلمه، فإن كانت المسألة بالنظر إلى حالة السائل عظيمة قال له: لا تسأل عمّا لا يعنيك وهذا ليس قدرك وتقصر عن فهم الجواب على هذا السؤال، وليس الأمر كذلك عندنا ولا في نفس الأمر، وإنما القصور في المسؤول حيث لم يعلم الوجه الذي تحتمله تلك المسألة بالنظر إلى هذا السائل فيعلمه به ليحصل له الفائدة فيما سأل عنه ويستر عنه الوجوه التي فيها ممّا لا يحتمله عقله ولا يبلغ إليه فهمه، فيسرّ السائل بجواب العالم ويصير عالماً بتلك المسألة من ذلك الوجه وهو وجه صحيح، إن فات علمه للعالم الفهم الفطن فقد فاته من المسألة بقدر ذلك الوجه، فاستوى الفهم الفطن مع القدم في عدم استيعاب وجوه تلك المسألة، فما سأل سائل قط في مسألة ليس فيه أهلية لقبول جواب عنها.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ من هذا الباب في تأديب الصحابة ما يتأدّب به في ذلك، وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو بين ظهراني أصحابه فقال: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ ثِيَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ أَخَلْقٌ تُخْلَقُ أَمْ نَسِيجٌ تنسج؟ فَضَحِكَ الحَاضِرُونَ مِنْ سُؤَالِهِ فَغَضِبَ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَتَضْحَكُونَ أَنَّ جَاهِلاً سَأَلَ عَالِماً؟ يا هَذا الرَّجل إِنَّها تَشَقَّقُ عَنها ثَمَرُ الجَنَّةِ**» فأجابه بما أرضاه، وعلم أصحابه الأدب مع السائل، فأزال خجله وانقلب عالماً فرحاً. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ١٠] فعمّم، وإن كان المقصود في سبب نزولها السؤال في العلم لأنه تعليم لحال سابق كان لرسول الله ﷺ وهو قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٧] أي حائراً فأبان لك عن الأمر. فأما السائل إذا جاءك يسألك فإنما هو بمنزلتك حين كنت ضالاً فلا تنهره كما لم أنهرك وبيّن له كما بيّنت لك كما قال له تعليماً لحال سبق له في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٦] فلم يذلّك ولا طردك بالقهر ليتمك وكسرك ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ إذا وجدته ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٩] والطف به وآوه وأحسن إليه. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّه أَدَّبَنِي فَحَسَّنَ تَأْدِيبِي**» فينبغي لنا أن نتبع

الآداب الإلهية التي أدّب الله سبحانه بها أنبياءه مثل هذا، ومثل قوله لنوح: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦] فرفق به في قوله: ﴿أَعِظُكَ﴾ لشيخوخته وكبر سنه، ومخاطبة الشيوخ لها حد ووصف معلوم، ومخاطبات الشباب لها حد معلوم، وقال في حق محمد رسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فأين ذلك اللطف من هذا القهر؟ فذلك لضعف الشيخوخة، وذا لقوّة الشباب، وأين مرتبة الخمسين سنة من رتبة خمسمائة وأزيد، فوقع الخطاب على الحالات في أوّل الرسل وهو نوح، وفي آخرهم وهو محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء. ومن الآداب الإلهية كل ما ورد في القرآن من افعل كذا ولا تفعل كذا فانظره في القرآن تحظ بالأدب الإلهيّ فاستعمله توفق إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والتسعون ومائتان

في معرفة منزل اشتراك عالم الغيب وعالم الشهادة من الحضرة الموسوية

[نظم: البسيط]

اللَّيلُ يستر ما في الغَيْب من عَجَبٍ ... والشمسُ تُظْهِرُ ما الإظلامُ يَسْتُرُهُ
والشخصُ إن كان أنْثَى ليس يَذْكره ... حتى إذا جاءت الأخرى تُذَكِّرُهُ
والجودُ أصلٌ وضدُّ الجود ليس بذي ... أصلٍ ولكنَّ عينَ الجود تُظْهِرُهُ
لا شيء يُغْنيك غير الله فارضَ به ... رباً ولا تكُ ممَّنْ ظلّ يُضْمِرُه
وقم به عَلَماً في رأس رابيةٍ ... وإن شهدتَ هلالاً فهو يُبْدرُه
وإن دعاك الهوى يوماً لمنقصةٍ ... فإن داعِيَه عن ذاك يَزْجرُهُ
عطاؤه منه أولى وآخرةً ... وليس عن عوضٍ كذاك أذكرُه
إن الجزاءَ وفاقٌ لا على عِوَضٍ ... فإن يَكُنْ عوضٌ فلستُ أوثِرُه

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اعلموا يا إخواننا أن هذا المنزل من أعظم المنازل قدراً هو منزل النكاح الغيبي وهو نكاح المعاني والأرواح، ويختص بهذا المنزل علم التجلي الإلهيّ المشبه بالشمس ليس دونها سحاب دون التجلي القمري البدري وهو قوله ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدْرِ**» وليس لهذا التجلي مدخل في هذا المنزل، وكما ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب وهذا المنزل منزله ومن هنا يعرف وهو مظهر إلهيّ عجيب، ومن هذا المنزل يعرف الجود المقيد بالخوف والجزاء، ومرتبة الصدق وإن قبح، ومرتبة الكذب وإن حسن، والغنى المكتسب وهو الغنى العرضي، وعلامات السعادة وعلامات الشقاء، وخيبة المعتمد على الأمور التي قد نصبها الله للاعتماد عليها، ولماذا يخيب صاحبها مع كون الحق نصبها لهذا وأهلها لها، وعلم الإفصاح عن درجات التقريب الإلهيّ من حضرة اللسن، ومعرفة المقام الذي تتألف فيه الضرتان وتتحابان، ومعرفة الاصطلام اللازم، وصفة من أعطي مقام هذا الاصطلام من المقربين من أمثالهم ممّن لم يعطه، والجود بما يجده العارف من كل شيء ممّا لا

يجب عليه وهو خلق الجود الإلهي، وهل يكون الحق عوضاً ينال بعمل خاص أم لا؟ ولنبين إن شاء الله حقائق هذا المنزل فصلاً فصلاً إيماء وتلويحاً فإنه يطول والله المؤيد لا رب غيره.

فمن ذلك النكاح الغيبي المنتج قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٢] وقال. ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢] وقد تقدم الكلام على هذا الفصل في فصل المعارف من هذا الكتاب في باب الآباء العلويات والأمهات السفليات فلينظر هنالك، ولنذكر في هذا المنزل ما يتعلق به وهو أن المعاني تنكح الأجسام نكاحاً غيبياً معنوياً فيتولد بينهما أحكامهما، وذلك حجاب على اليد الإلهيّة الغيبية التي ما من شأنها أن تدرك، ومن ذلك جميع الصور الظاهرة في الهباء، الهباء لها كالمرأة والصور لها كالبعل ولا يوجد عنهما إلاّ أعيانهما، وهذا من أعجب الأسرار أن يكون الولد عين الأب والأمّ لمن هو لهما ولد، والأب والأمّ عين الولد لمن هما له أبوان، وهو الذي أشار إليه الحلاج رحمه الله في قوله: ولدت أمي أباها، ولا يكون الوالد عين الولد لمن هو له والد وهو له ولد إلاّ في هذا النكاح، ومن هذا الباب قوله: ﴿كُن﴾ وهي كلمة أمر التكوين، وقال في عيسىٰ أنه كلمة الله، وفي الموجودات أنها كلمات الله، وما له كلمة في الموجودات إلاّ ﴿كُن﴾ وهي عين الموجود فإنه الكلمة وتوجهها على العيون الثابتة، فالأعين لها كالأمّ فظهرت الكلمات وهو وجود تلك الأعيان عن هذا النكاح الغيبي وكان الولد بينهما عينهما ليس غيرهما وهذا ألطف من الأمر الأوّل، فإن الولد هنا عين كلمة الحضرة فكن عين المكوّن وهو منسوب إلى الله، والأوّل في الدرجة الثانية فإنه منسوب إلى الهباء والصورة، وهذا النكاح مدرج فيه فافهم فقد رميت بك على الطريق.

فالجسمانيات كلها أولاد عن نكاح غيبي، والأجسام كلها منها ما هو عن نكاح غيبي، ومنها ما هو عن نكاح غيبي مدرج في نكاح حسي كنكاح الرياح والمياه والحيوانات والنبات والمعادن وما يتولد في الأجسام العنصرية لا الأجسام الطبيعية، فإن العالم الملكي لا يتولد عنه من جنسه شيء إلاّ أن يكون أباً في وقت لأمّ عنصرية بما يلقي إليها، فما ينتج فذلك الولد بينهما قد يخلق ملكاً وهو المعبر عنه بلمة الملك وهو ما يلقيه إلى النفس الإنسانية، فيتولد بينهما تسبيحة أو تهليلة تخرج نفساً من المسبح والمهلل فينفتح في عين ذلك النفس وجوهره صورة ملكية يكون ذلك الملك الملقى أباها والنفس أمها فترتقي تلك الصورة إلى أبيها وتلازمه بالاستغفار لأمه التي هي النفس الإنسانية إلى يوم القيامة، ومن هنا يحكم في الشريعة للوالد بأخذ ولده عن أمه إذا ميّز وعقل بلا خلاف، فإن هذا الملك يخلق عاقلاً ومن أعجب الأنكحة الإعدام، ولهذا اختلف فيه أهل الكشف، فالله سبحانه علّقه بالمشيئة فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ وعلّق الاقتدار بإيجاد قوم آخرين فقال: ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٣] وكان الله على ذلك ولم يقل ذينك على التثنية، فكانت الإشارة من حيث أحديتها للأقرب وهو الذي أتى به، ومن هذا الباب إرسال الريح العقيم فإنها لإزالة أعيان الصور الظاهرة عن

التأليف لا أعيان الجواهر، فما أنتجت وجوداً فنسب إليها العقم ونفى عنها أن تكون لاقحة، فهذا نكاح لمجرّد الشهوة لا لوجود الولد كنكاح أهل الجنة فما يكون عن كل شهوة كيان، ولا بدّ وجود عيني لنفسه، ومن هنا وقع الخلاف بين أهل الكشف، فمن كشف رجوع أعيان الصور التي كانت موجودة إلى كونها ثابتة غير موجودة قال بأن الريح العقيم قد أنتجت في حضرة الثبوت ما كان قد خرج عنها وهو مشهود للحق وبه تعلقت المشيئة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يردكم إلى الحالة التي كنتم موصوفين فيها بالعدم، وإنما كان هذا عقماً لأنه لم يظهر عنه وجود العين لنفسه وإن كان ظاهراً مشهوداً لخالقه، ومن لم يشهد رجوع أعيان الصور الموجودة إلى العدم عند توجّه المشيئة أو هبوب الريح العقيم قال: إن ذلك لا ينتج شيئاً فإن الإيجاد للاقتدار لا للمشيئة فقط وللريح اللاقحة لا للعقيم، إذ لو ظهر شيء وجودي عنها لم تكن عقيماً فهذا سبب الخلاف بين أهل الكشف، فمتعلق النافي عين الوجود، ومتعلق المثبت عين الثبوت، فما تواردا على شيء واحد فلا خلاف في الحقيقة إذ كان هذا الطريق عند المحققين منا لا يتصوَّر فيه خلاف إلاّ أن يكون مثل هذا وهذا خلاف لفظي، فإذا فسّر كل واحد ما أراده بذلك اللفظ ارتفع الخلاف ويكفي ما أومأنا إليه.

ومن هذه المنزل التجلي الشمسي لما وقع التشبّه عند علماء الرسوم في رفع الشك عن الرائي في المرئي بالشمس والقمر ليلة البدر وهو من بعض الوجوه المقصودة في هذا الحديث، ولكن عرف المحققون زائداً على هذا أن المظهرين مختلفان وأن التجلي المشبه بالقمر ليلة البدر مظهر خاص لأنه قال ليلة البدر ولم يقل في إبداره فأضافه إلى الليلة فإني أشاهده بدراً مع وجود الشمس بالنهار، فما أضافه إلى الليلة إلاّ لأمر عرفه المحققون وليس هذا منزل الكلام عليه، ولكن هذا المنزل يتضمن منزل التجلي في الشمس فإن الحق يتعالى عند المحققين أن يتجلى في صورة واحدة مرتين أو لشخصين، فلا تكرار في أمر عند الحق للإطلاق الذي هو عليه، والاتساع الإلهيّ والتكرار مؤدّ إلى الضيق والتقييد، فاعلم أن التجلي الشمسي أي المشبه بالشمس هو يسمّى عندنا التجلي الأوسع وهو التجلي الذي لا يفنى الإنسان عن رؤية نفسه فيه، وقد أومأنا إليه في أوّل هذا الكتاب في باب الأرض التي خلقت من بقية الطينة الآدمية، وهذا التجلي مظهر ذاتي عجيب ونسب التجلي فيه إلى معلوله لا إلى علته مع ظهور العلة في معلولها عيناً محققة مجهولة الكيفية كظهور الشمس في النهار مع كون النهار معلولاً عن ظهور الشمس، ونور السراج عن السراج المنبسط في زوايا الكون، فمثل هذا يسمّى شهود العلة ومعلولها معاً فكل تجلّ لا يغنيك عنك فهو بهذه المثابة، وإنما سمّي أوسع لأن المشاهد يعمّ رؤيته المتجلي والمتجلى فيه وله، وغير الأوسع لا تشاهد غيره لا نفسك ولا غيرك ولا تعلم شهودك ولا ما أنت فيه حتى تعود إليك ويقع الحجاب، فلو قرع الحجاب كان ذلك التجلي مقيداً ضيقاً إذ قيده الحجاب والأوسع يظهر في الحجاب وفي غير الحجاب ويفرق الشاهد بين الصورتين ولهذا يقال فيهم: ردّوهم إلى قصورهم للإشارة إلى عجزهم أي يحبسون فيه، وهنا بحور تحوي على أنواع من نفيس الجواهر لا يدركها إلاّ كل

غوّاص واسع النفس عاشق في الغيب، فقد بيّنت لك المقصود من هذا التجلي الذي يحويه هذا المنزل وفوائده لا تحصى لو ذهبنا نذكرها ما وسعها ديوان، فإن له التأبيد في العالم العلوي في الدنيا وله التأبيد في العالم الأخروي السفلي، وما ثم تجل يجمع فيما يكون عنه بين الضدين من ألم ولذة إلاّ هذا التجلي وهو كتجلي المحبوب للمحب يعانق غيره ويقبله فهو من نظره في لذة ومن نظره في ألم، ومن هذا المنزل معرفة الجود المقيد بالخوف والجزاء، ومرتبة الصدق وإن قبح، ومرتبة الكذب وإن حسب، والغنى المكتسب وهو الغنى العرضي وعلامات السعادة وعلامات الشقاء.

واعلم أن أسباب العطاء تختلف، فمنهم من يعطي للعوض ويسمّى شراء وبيعاً ففيه من الجود أن المشتري قد أنعمت عليه من كونك بائعاً ما له غرض عظيم في تحصيله وقد أعطاك هو ما هو مستغن عنه، فكل واحد منهما قد جاد على صاحبه بإيصاله إليه ما كان له غرض في تحصيله إذ كان له منع ذلك، فبهذا القدر يلحق بباب الجود من جهة المعطى له اسم مفعول لا من جهة المعطي اسم فاعل، وقد يعطي الإنسان من هذا الباب خوفاً على عرضه أو حلول آلام حسية تحل به، فكأنه يشتري الثناء الحسن والعافية والأمن بذلك العطاء فهو كالأوّل، والفرق بينهما أن الذي اشترى به في الأوّل هو ممّا يمكن أن يكون له فيه غرض، وهذا لا يمكن أن يكون له في الألم وإزالة العافية والأمن غرض أصلاً، ومن يقول بخلاف هذا من أصحابنا إن كان محققاً كأبي يزيد في قوله: [الوافر]

وكــلُّ مــآربــي قــد نــلْــتُ مــنــهــا ... ســوى مَــلْــذوذِ وَجْــدي بــالــعــذابِ

فقد أبان عن مقصوده وهو اللذة وهو ما قلناه وذهبنا إليه، وإن لم يكن محققاً فما هو من أصل طريقنا بالمعنى، وإن ظهر بالصورة فلا كلام لنا معه، ومنهم من يعطي للإنعام وغير ذلك، وليس من هذا المنزل إلاّ ما ذكرناه خاصة، ومن هذا الباب قول رسول الله ﷺ: **«أَحِبُّوا اللَّه لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ»** فأمرنا بمحبته لإنعامه وإحسانه، وهل يكون منه سبحانه في حق العباد أمر وجودي يخرج عن الإنعام بوجه من الوجوه؟ اختلف أصحابنا في ذلك، فمنهم من رأى أن الإنعام فيه عين وجوده ولا يلتفت إلى الأغراض المتعلقة ممّا يعطيه حكم هذا الموجود المنعم عليه بالوجود فإنه قد أنعم على الألم بوجود عينه، وإن كان من يتألم به لا يوافق غرضه فهو نعمة الله على نفسه، ولو توقف الأمر على عموم النعمة على الكل بالعين الواحدة ما كان شيء أصلاً فإن الحقائق تأبى ذلك، فإذا له في كل وجود نعمة، فمن كان مقامه الإيثار يصدق في غرضه بزهده إذا قام به حكم الألم أن يشكر الله على ما أنعم به على الألم من وجود عينه بعد أن لم يكن إيثاراً لجناب الله على غرضه، حيث ظهر في الملك من يساعده على تعظيم الله وشكره لأنه يشاهد شكر الألم لله تعالىٰ على إيجاد عينه، فأعظم شفيع يكون لمن هذه حاله عند الله الألم من الموجودات والاسم المبلي والمسقم من الإلهيات، فيكون نتيجة تلك الشفاعة وجود اللذة ورحلة الألم إما بزوال السبب أو ببقائه فيكون خرق عادة، وهذا من أعظم الخلق الذي يشرف به الإنسان. وأما إيثاره في هذا لإرادة الله فلا يدري

أحد ما يحصل له من اسمه المريد من الخير إلاّ الله الذي خصّه بهذه الحال الشريفة فهذا هو الصدق مع الله في المعاملة وإن قبح، فإنه لو نزل ذلك الألم بغيره فلا بدّ أن تصحبه هذه الحالة، وقبيح عليه في حق الغير أن يراه يشكر الله على ما قام بذلك الغير من الألم، ولا سيما إن كان محبوباً له أو نبياً أو رسولاً، وبما ينتجه هذا المقام من وجود العافية في ذلك الغير ستر القبح الذي كان لبسه هذا المحقق. وأما من ترك العطاء في مثل هذا الموطن الذي ذكرناه فأنت تعرف ممّا بيناه لك ما سبب ذلك الترك وما المشهود لهذا التارك في وقت الترك؟ فإنه يندرج علم ذلك كله فيما قرّرناه فابحث عنه فإنه يطول إن أوردناه، وقد أعطيناك المفتاح وعيّنا لك قفله فافتح ما شئته من ذلك.

وأما الغنى المكتسب في هذا الباب فهو حكمه فإن الإنسان إذا استغنى عن الغير كان دليلاً على جهله بالحقائق إذ كان الغير لا أثر له فيه فقد علّق غناه بغير متعلق، وإن استغنى عن الله تعالىٰ فأجهل وأجهل، فإنه خرج بهذا الوصف عن العلم المحقق وعن الإسلام فلا أخسر منه لأنه لا أجهل منه فالاستغناء لا يصحّ حقيقة، فإذا أضيف الغنى إلى أحد فهي إضافة عرضية لا ذاتية، ولهذا هو الاسم الغنيّ للحق تعالىٰ وصف سلبي سلب عنه الافتقار إلى العالم، ومن افتقر إلى شيء لم يستغن عنه البتة، فالاستغناء على الحقيقة إنما هو بالأسباب من حيث النسب أي من حيث أنها نسب، فكل نسبة أذهبت عنك ضدها فهي الحاكمة عليك، وهل تسمّى بغني أم لا؟ فلك النظر فيها بحسب ما تعطيك حقيقة تلك النسبة، فإن كانت أغنتك عن غيرها فهي غنى وأنت غني بها، وإن لم تغنك فما هي غنى ولا أنت غني بها، فالشبع مثلاً بمجرّد حقيقته لا يقال فيه إنك قد استغنيت به عن الجوع من حيث حقيقة الجوع لأن الجوع ليس مطلوباً لك حتى تستغني بالشبع عنه، ولكن إن كان الجوع إذا قام بك أعطاك من الصفاء والرقة واللطافة والتحقق بالعبودة والافتقار ما يعطيه حقيقته فأنت طالب له غير مستغن عنه، فإن أعطاك الشبع ما أعطاك الجوع من كل ما ذكرناه فقد استغنيت بالشبع عن الجوع إذا الجوع ليس مطلوباً لنفسه وإنما هو مطلوب لما ذكرناه، فإذا وجدنا ذلك في ضده فلا حاجة لنا به إذ الطبع يرده كما أن الطبع يوجده، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجوع ويقول: «**إِنَّهُ بِئْس الضَّجِيع**» وذلك لأنه أيضاً وإن أعطى ما ذكرناه ولكن لا يقطع أن يكون افتقاره ذلك إلى الله بل قد يكون لغير الله، فلذا قال رسول الله ﷺ فيه: «**إِنَّهُ بِئْس الضَّجِيع**» في العموم، فإن شيوخ الطريق يقولون: لو بيع الجوع في السوق لزم المريد أن يشتريه، ومن نظر منهم إلى ما نظره النبيّ ﷺ جعله من أغاليط أهل الطريق كأبي عبد الرحمن السلمي إذ عمل أوراقاً فيما غلطت فيه الصوفية وهو مذهبنا، وللجوع حدّ ومقدار وهو الجوع المحقق بخلاف الجوع المتخيل، فما وقعت الاستعاذة النبوية إلاّ من الجوع المحقق فإنه يكون به الإنسان عاصياً للشرع ظالماً لنفسه إذا كان اختياراً، ولهذا كان رسول الله ﷺ لا يجوع قط إلاّ اضطراراً وهو حال العلماء بالله لأنهم من صفتهم العدل، وقد أبنت لك ما فيه كفاية فإنه تلويح يغني عن التصريح.

وأما أعمال السعادة فعلاماتها أن يستعمل الإنسان في الحضور مع الله في جميع حركاته وسكناته، وأن تكون مشاهدة نسبة الأفعال إلى الله تعالىٰ من حيث الإيجاد والارتباط المحمود منها، وأما الارتباط المذموم منها فإن نسبه إلى الله فقد أساء الأدب وجهل علم التكليف وبمن تعلق ومن المكلف الذي قيل له افعل، إذ لو لم يكن للمكلف نسبة إلى الفعل بوجه ما لما قيل له افعل وكانت الشريعة كلها عبثاً وهي حق في نفسها، فلا بدّ أن يكون للعبد نسبة صحيحة إلى الفعل من تلك النسبة قيل له افعل وليس متعلقها الإرادة كالقائلين بالكسب وإنما هو سبب اقتداري لطيف مدرج في الاقتدار الإلهيّ الذي يعطيه الدليل كاندراج نور الكواكب في نور الشمس، فتعلم بالدليل أن للكواكب نوراً منبسطاً على الأرض لكن ما ندركه حساً لسلطان نور الشمس، كما يعطي الحسّ في أفعال العباد أن الفعل لهم حساً وشرعاً وأن الاقتدار الإلهيّ مندرج فيه يدركه العقل ولا يدركه الحسّ، كاندراج نور الشمس في نور الكواكب فإن نور الكواكب هو عين نور الشمس والكواكب لها مجلى، فالنور كله للشمس والحسّ يجعل النور للكواكب فيقول: قد اندرج نور الكواكب في نور الشمس، وعلى الحقيقة ما ثم إلاّ نور الشمس فاندرج نوره في نفسه إذ لم يكن ثم نور غيره، والمرائي وإن كان لها أثر فليس ذلك من نورها وإنما النور يكون له أثر من كونه بلا واسطة في الكون، ويكون له أثر آخر في مرآة تجليه بحكم يخالف حكمه من غير تلك الواسطة، فنور الشمس إذا تجلى في البدر يعطي من الحكم ما لا يعطيه من الحكم بغير البدر لا شك في ذلك، وكذلك الاقتدار الإلهيّ إذا تجلّى في العبيد فظهرت الأفعال عن الخلق فهو وإن كان بالاقتدار الإلهيّ ولكن يختلف الحكم لأنه بوساطة هذا المجلى الذي كان مثل المرآة لتجليه وكما ينسب النور الشمسي إلى البدر في الحسّ والفعل لنور البدر وهو للشمس، فكذلك ينسب الفعل للخلق في الحسّ والفعل إنما هو لله في نفس الأمر ولاختلاف الأثر تغير الحكم النوري في الأشياء، فكان ما يعطيه النور بوساطة البدر خلاف ما يعطيه بنفسه بلا واسطة، كذلك يختلف الحكم في أفعال العباد، ومن هنا يعرف التكليف على من توجه وبمن تعلق، وكما تعلم عقلاً أن القمر في نفسه ليس فيه من نور الشمس شيء وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وإنما كان لها مجلى وأن الصفة لا تفارق موصوفها والاسم مسماه كذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حلّ فيه، وإنما هو مجلى له خاصة ومظهر له.

وكما ينسب نور الشمس إلى البدر كذلك ينسب الاقتدار إلى الخلق حساً والحال الحال، وإذا كان الأمر بين الشمس والبدر بهذه المثابة مع الخفاء وأنه لا يعلم ذلك كل أحد فما ظنك بالأمر الإلهيّ في هذه المسألة مع الخلق أخفى وأخفى؟ فمن وقف على هذا العلم فهو من أعلى علامات السعادة، وفقد مثل هذا من علامات الشقاء، وأريد بهذا سعادة الأرواح وشقاوتها المعنوية، وأما السعادة الحسية والشقاوة فعلاماتهما الأعمال المشروعة بشروطها وهو الإخلاص قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] ويكفي هذا القدر من العلامات مجملاً والله الموفق لا رب غيره.

وأما خيبة المعتمد على الأمور التي نصبها الله للاعتماد عليها ولماذا يخيب صاحبها مع كون الحق نصبها لهذا الأمر وأهلها له؟ فاعلم أيها الأخ الوليّ أن الأمور التي نصبها الحق للاعتماد عليها ما خرجت عنه ولكن جعلها هذا الخائب أرباباً من دون الله، فاعتمد عليها لذواتها لا على من جعلها فأضرّ به الجهل كما ذكرناه آنفاً، فالآثار الظاهرة عن نور الشمس في مرآة البدر إذا نظر فيه الناظر واعتمد على الشمس في ذلك من حيث هذا المجلى الخاص الذي ربط الله الأثر به فهذا لا يخيب فإنه أعطى الأمر حقه وهذا لا ينكسف البدر في حقه أبداً، والذي يخيب هو الذي ينكسف البدر في حقه فيبقى في ظلمة جهله مع وجود ذات المرآة القمرية، فيكون هذا الخائب مع ذلك المظهر في الظلمات، فإن القمر قد حجب في حق هذا الشخص الذي كان يعتمد عليه ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] وهي الظلمة فإن الظلمة جهنم، وأية ظلمة وأي جهنم أعظم من الجهل وبها شبه الله في قوله ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] فقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] وهو جهل على جهل، وهو من جهل ولا يعلم أنه جهل، فنفى عنه أن يقارب رؤية يده فكيف إن يراها وأدخل اليد هنا دون غيرها لأنها محل وجود الاقتدار وبها يقع الإيجاد أي إذا أخرج اقتداره ليراه لم يقارب رؤيته لظلمة الجهل لأنه لو رآه لرآه عين الاقتدار الإلهيّ، ألا تراه إذا أخرجه في النور الذي هو العلم رأى يده وهو اقتداره، فعلم أن الاقتدار الكوني هو اقتدار الحق لارتفاع الظلمات المتراكمة التي كانت بعضها فوق بعض ولهذا وقع التشبيه بأشد الظلمات، فإن ظلمة الجوّ تقترن معها ظلمة البحر، تقترن معها ظلمة الموج، تقترن معها ظلمة تراكم الموج، تقترن معها ظلمة السحاب التي تحجب أنوار الكواكب فلا يبقى للنور ظهور لا في عينه ولا في مجلى من مجاليه، فظلمة الليل ظلمة الطبع، وظلمة البحر ظلمة الجهل وهو فقد العلم، وظلمة الفكر ظلمة الموج، وظلمة الموج المتراكم ظلمة تداخل الأفكار في الشبه، وظلمة السحاب ظلمة الكفر، فمن جمع هذه الظلمات ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٩] وهذه حالة المعطلة لا غيرهم.

وأما ما يتضمنه هذا المنزل من علم الإفصاح عن درجات القرب الإلهيّ من حضرة اللسن فاعلم أن ذلك معرفة علم الشارع المترجم عن الله الذي أمرنا بالإيمان بمحكمه ومتشابهه ولنقبل جميع ما جاء به، فإن تأوّلنا شيئاً من ذلك على أنه مراد المتكلم به في نفس الأمر زال عنا درجة الإيمان فإن الدليل حكم على الخبر فيعطل حكم الإيمان وجاء العلم الصحيح من المؤمن يقول لصاحب هذا الدليل: أما القطع منك بأن هذا الذي أعطاك نظرك هو مقصود المفصح بما أفصح به فهو عين الجهل وفقد العلم الصحيح، وإن صادف العلم وقد زال عنك الإيمان والسعادة مرتبطة بالإيمان وبالعلم الصحيح عن علم والعلم الصحيح هو الذي يبقى معه الإيمان فعلى العارف أن يبين طريق السعادة نيابة عن الله تعالىٰ في خلقه كنيابة القمر عن الشمس في إيصال النور، فالأنبياء المرسلون عليهم السلام هم التراجمة عن الحق والورثة على درجتهم بما يعطيهم الله من الفهم فيما جاءت به الرسل من كتاب وسنّة، فهذا هو علم الإفصاح مختصر.

وأمّا علم تألف الضرتين فاعلم أن أبا سعيد الخراز قيل له: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين وتلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] أي هو أوّل من عين ما هو آخر وظاهر من حيث ما هو باطن، لأن الحيثية في حقه واحدة وكل ضدين ضرتان، وهذا لا يدرك من قوّة العقل فإن قوّة العقل لا تعطيه، وإنما يدرك هذا من المقام الذي وراء طور العقل الذي كان من ذلك الطور أعطى الواجبات وجوبها، والجايزات جوازها، والمستحيلات إحالتها، والأحديات أحديتها، فهو الذي جعل الواحد واحداً، كما جعل الواجب واجباً بإعطائه الوجوب، وليس في قوّة العقل إدراك ما ذكرناه من حيث فكره، فهذا علم صحيح إلهيّ لا عقلي، فإذا اجتمع الضدان في العلم الإلهيّ فقد تألفت الضرتان وتحابا إذ كانا لعين واحدة فتدبر هذا الفصل بنور الإيمان لا بنور العقل فإنه مردود عقلاً غير مقبول، وكما لم يكن في قوّة البصر أن يدرك المعقولات ولم يتعد حدّه كذلك العقل ليس في قوّته أن يدرك ما يعطيه البصر بذاته من غير واسطة البصر، فإذا عجزت قوّة العقل أن تستقل بعلم المبصرات من حيث ما هي مبصرات وهي مخلوقة وقوّة البصر مخلوقة، فمن له بإدراك ما يخرج عن طوره إلى ما هو أعلى في نسبته إلى الحق، وقد عجز عن إدراك ما خرج عن طوره إلى ما هو أنزل درجة وهو الحسّ في زعمه، ومن افتقر إلى مخلوق مثله في أمر فهو إلى الخالق أفقر، ويكفي هذه الإشارة فيما يعرفه العارفون من ذلك.

وأما معرفة الاصطلام اللازم وصفة من أعطي مقام هذا الاصطلام من المقرّبين من أمثالهم ممّن لم يعطه فاعلم أن الاصطلام نار ترد على قلوب المحبين تحرق كل شيء تجده ما سوى المحبوب، وقد تذهب في أوقات بصورة المحبوب من نفس المحب وهو الوقت الذي يطلب المحب أن يتخيل محبوبه فلا يقدر على تخيله ولا يقيم صورته لقوّة سلطان حرقة لهيب نار الحب، فيقال فيه في ذلك الحال مصطلم وهو الذي أراد القائل بقوله: [السريع]

أودِعْ فؤادي حُرَقاً أَوْ دعِ ... ذاتَك تُوذي أنت في أضْلُعي
وارمِ سهامَ الحبِّ أو كُفَّها ... أنت بما تَرْمي مُصَابٌ معي
مَوْقِعُها القلبُ وأنت الذي ... مَسْكَنُه بذاك المَوْضِعِ

ومن هذه الحال قال قيس بن الملوح مجنون بني عامر صاحب ليلى وكان قد جاءته ليلى وهو مصطلم يأخذ الجليد ويلقيه على صدره فتذيبه من ساعته حرارة الفؤاد وهو يصيح: ليلى ليلى طلباً لها لفقد صورتها من خياله فنادته: يا قيس أنا مطلوبك أنا ليلى، فلم يكن لها في نفسه صورة متخيلة يعرفها بها إلاّ أنه لما سمع منها اسمها قال لها: إليك عني فإن حبك شغلني عنك، فهذا حال الاصطلام، وهو نعت لازم للحضرة الإلهية مؤثر، ولكل اسم إلهيّ مشهود فيه جمال الحق يحول بين العبد وبين تكييف الحق، ويذهب بكل صورة يضبطها أو يتخيلها، ولهذا قال ﷺ: «**أَلِظُّوا بِيا ذا الجَلالِ وَالإِكْرَام**» من الإلظاظ وهو المثابرة، وقرن الجلال بالإكرام، وما ورد الجلال قط في النبوّيات إلاّ والإكرام مصاحب له ليبقى رسم العبد ولا يذهب بعينه، فالجلال الذي هو جلال الجمال يكسوك الهيبة فتهاب المقام وهو الذي

يجده المحب والعارف في نفسه من تعظيم المحبوب فيؤثر جنابه على كل شيء، فإكرام الله به أنه يؤثره على كل شيء، وثم اصطلام يزول في الوقت وهو ما يرد على القلب من مشاهدة المحبوب في صورة الخيال، فما دام هذا الخيال دام اصطلامه، والجلال يمحو هذه الصورة من النفس غيرة من تقييده بصورة وله الإطلاق، فيزول اصطلام تلك الصورة المقيدة بزوالها، ويبقى الاصطلام اللازم الذي هو أثر الجلال في النفس، فيرى المحب يكذب الصورة المتخيلة في نفسه التي تقول له: أنا محبوبك، ويعرض عنها إجلالاً لمحبوبه أن يقيده لمعرفته بأن محبوبه لا يتقيد، فلهذا يحترق في نفسه حيث يريد أن يتمنى أن يضبط ما لا ينضبط لينعم به، ولهذا كان العلم أشرف من المحبة، وبه أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأله الزيادة منه لأنه عين الولاية الإلهية به يتولى الله عباده وبه يكرمهم وبه يعرفون أنه لا يعرف. وأما المحب إذا لم يكن عارفاً فهو يخلق في نفسه صورة يهيم فيها ويعشقها، فما عبد ولا اشتاق إلاً لمن هو تحت حيطته، ولا يزيله عن هذا المقام إلاً المعرفة، فحيرة العارف في الجناب الإلهيّ أعظم الحيرات لأنه خارج عن الحصر والتقييد: [الوافر]

تَفَرَّقتِ الظِّباءُ على خِدَاشٍ فما يدري خِداشٌ ما يَصيدُ

فله جميع الصور وما له صورة تقيده، ولهذا كان يقول ﷺ: **«اللَّهُمَّ زِدْني فِيكَ تَحَيُّراً»** لأَنَّهُ المَقَامُ الأَعْلَى وَالمَنْظَرُ الأَجْلَى، وَالمَكَانَةُ الزُّلْفَى، وَالمظْهَرُ الأَزْهَى، والطَّرِيقَةُ المُثْلَى، ومن هذه الحضرة صدر الإنذار فعدم القرار وحلّ البوار بساحة الكفار، فلم يبق ستر ولا حجاب إلاً مزقه وخرقه هذا المشهد الأسنى، فإن الستر يقيد المستور، والحجاب يحدّ المحجوب، ولا حدّ لذاته ولا تقييد لجلاله فكيف يستره شيء أو تغيب له عين تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر، فمن قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فقد صدق لأنه ما ثم موجود لا يغيب له عين ولا يحصره أين إلاً الله، فجميع الصور الحسية والمعنوية مظاهره فهو الناطق من كل صورة لا في كل صورة، وهو المنظور بكل عين، وهو المسموع بكل سمع، وهو الذي لم يسمع له كلام فيعقل، ولا نظر إليه بصر فيحدّ، ولا كان له مظهر فيتقيد، فالهو له لازم لا إله إلاً هو العزيز الحكيم يمحو وهو عين ما يمحو، قال: ويثبت وهو عين ما يثبت، فليس كمثله شيء في هذا الحكم، وبه شهد له العلم الصحيح الموهوب.

فعلم الدليل ينفيه إذ لم يكن بيده منه ولا له تعلق بسوى صفات السلب والتنزيه، وعلم الكشف يثبته ويبقيه ولا يبدو له مظهر إلاً ويراه فيه، والعلمان صحيحان فهو لكل قوّة مدركة بحسبها ليعرفها أنها ما زالت عن منصبها وأنها لم تحصل بيدها من العلم بالله إلاً ما هي عليه في نفسها فذاتها عرفت ونفسها وصفت، فخرج عن التقييد والحدود بظهوره فيها ليكون هو المعبود، فقد قضى أن لا يعبد إلاً إياه، فكانت الأصنام والأوثان مظاهر له في زعم الكفار فأطلقوا عليها اسم الإله فما عبدوا إلاً الإله، وهو الذي دلّ عليه ذلك المظهر، فقضى حوائجهم وسقاهم وعاقبهم، إذ لم يحترموا ذلك الجناب الإلهيّ في هذه الصورة الجمادية فهم الأشقياء، وإن أصابوا أو لم يعبدوا إلاً الله فانظر إلى هذا السريان الوجودي في هذه

المظاهر كيف سعد به قوم وشقي به آخرون. قال بعضهم: كل ما تخيلته في نفسك أو صوره وهمك فالله بخلاف ذلك فصدق وكذب وأظهر وحجب. وقال الآخر: لا يكون الحق مدلولاً لدليل ولا معقولاً للعقول لا تحصله العقول بأفكارها ولا تستنزله المعارف بأذكارها، فإذا ذكر فبه يذكر وبه يفكر ويعقل، فهو عقل العقلاء، وفكرة المفكرين، وذكر الذاكرين، ودليل الدالين، لو خرج عن شيء لم يكن.

ولو كان في شيء لم يكن، فهذا قد أبنت لك ما أثره الاصطلام اللازم، وأن العلماء هم المقرّبون الذين أدركوا هذا المشهد الأحمى وهذه المعرفة العظمى، ومن سواهم فقد نصب له علامة يعبدها وحقيقة يشهدها وهي ما انطوى عليه اعتقاده لدليل قام عنده أو قلد صاحب دليل فهو عند نفسه قد ظفر بمطلوبه واعتكف على معبوده وسكن إليه واستراح من الحيرة وكفر بما ناقض ما عنده وكفر بلا شك غيره ممن اعتقد غير معتقده، فلهذا يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً دنيا وآخرة. والعالم المحقق لما هو الأمر في عينه يتفرّج في ذاته، وفي العالم ظاهره وباطنه فهو العين المصيبة، وهو المثل المنزّه المنصوص عليه الذي نفى الحق أن يماثل أو يقابل بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثل مثله شيء، فالكاف كاف الصفة ما هي زائدة كما يرى بعضهم، فبعض العلماء يرى في ذلك أن لو فرض له مثل لم يماثل ذلك المثل فأحرى أن يماثل هو في نفسه، وعند بعضهم نفي المثل عن المثل المحقق الذي ذكرناه. سئل الجنيد عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، فأثبت الماء والإناء، فأثبت الحرف والمعنى والإدراك ونفي الإدراك ففرق وجمع فنعم ما قال.

وبعد أن أبنت لك عن مرتبة الاصطلام اللازم فلنبين لك ما بقي من هذا المنزل وهو العلم بالجود الإلهيّ الخارج عن الوجوب، وهل يكون الحق عوضاً ينال بعمل خاص أم لا؟ فاعلم أن لله جوداً مقيداً وجوداً مطلقاً، فإنه سبحانه قد قيد بعض جوده بالوجود فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] أي أوجب وفرض على نفسه الرحمة لقوم خواص نعتهم بعمل خاص، وهو أنه ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] فهذا جود مقيد بالوجوب لمن هذه صفته، وهو عوض عن هذا العمل الخاص، والتوبة والإصلاح من الجود المطلق فجلب جوده بجوده، فما حكم عليه سواه ولا قيده غيره، والعبد بين الجودين: عرض زائل وعرض ماثل.

قال سهل بن عبد الله عالمنا وإمامنا: لقيت إبليس فعرفته وعرف مني أني عرفته فوقعت بيننا مناظرة فقال لي وقلت له وعلا بيننا الكلام وطال النزاع بحيث أنْ وقفت ووقف وحرت وحار، فكان من آخر ما قال لي: يا سهل الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] فعم ولا يخفى عليك أني شيء بلا شك لأن لفظة «كل» تقتضي الإحاطة والعموم وشيء أنكر النكرات فقد وسعتني رحمته، قال سهل: فوالله لقد أخرسني وحيرني بلطافة سياقه وظفره بمثل هذه الآية، وفهم منها ما لم نفهم، وعلم منها ومن دلالتها ما لم نعلم، فبقيت حائراً متفكراً وأخذت أتلو الآية في نفسي فلما جئت إلى قوله تعالىٰ فيها:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] الآية سررت وتخيلت أني قد ظفرت بحجة وظهرت عليه بما يقصم ظهره وقلت له: يا ملعون إن الله قد قيدها بنعوت مخصوصة يخرجها من ذلك العموم فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فتبسم إبليس وقال: يا سهل ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل هذا المبلغ ولا ظننت أنك ها هنا، ألست تعلم يا سهل أن التقييد صفتك لا صفته؟ قال سهل: فرجعت إلى نفسي وغصصت بريقي وأقام الماء في حلقي ووالله ما وجدت جواباً ولا سددت في وجهه باباً وعلمت أنه طمع في مطمع وانصرف وانصرفت ووالله ما أدري بعد هذا ما يكون فإن الله سبحانه ما نص بما يرفع هذا الإشكال فبقي الأمر عندي على المشيئة منه في خلقه لا أحكم عليه في ذلك بأمد ينتهي أو بأمد لا ينتهي.

فاعلم يا أخي أني تتبعت ما حكي عن إبليس من الحجج فما رأيت أقصر منه حجة ولا أجهل منه بين العلماء، فلما وقفت له على هذه المسألة التي حكى عنه سهل بن عبد الله تعجبت وعلمت أنه قد علم علماً لا جهل فيه فهو أستاذ سهل في هذه المسألة، وأمّا نحن فما أخذناها إلاّ من الله فما لإبليس علينا منة في هذه المسألة بحمد الله ولا غيرها، وكذا أرجو فيما بقي من عمرنا وهي مسألة أصل لا مسألة فرع، فإبليس ينتظر رحمة الله أن تناله من عين المنة، والجود المطلق الذي به أوجب على نفسه سبحانه ما أوجب وبه تاب على من تاب وأصلح، فالحكم لله العليّ الكبير عن التقييد في التقييد، فلا يجب على الله إلاّ ما أوجبه على نفسه، فالعارف كذلك في جوده لا يتقيد ولا يعطي واجباً يجب عليه، فإن وجوب العطا إنما سببه الملك ولا ملك للعارف مع الله، فالمال الذي بيد العارف هو لله ليس له، والزكاة تجب في عين المال على رب المال ولا رب له سواه سبحانه، فقد أوجب على نفسه أن يخرج من هذا المال مقداراً معيناً هو حق لطائفة من خلقه أوجبه لهم على نفسه في هذا المال الذي بيد العارف، فيخرج العارف من هذا المال حق تلك الطائفة نيابة عن رب المال، كما يخرج الوصي عن اليتيم بحكم الوكالة فإنه وليّه، ومن هذا الباب زلت طائفة في كشفها لهذا المقام فلم تؤدّ زكاة ما بيدها من المال، ورأيت منهم جماعة مع كونهم يخرجون ما هو أكثر من الزكاة ولا يزكونه ويقولون: إن الله تعالىٰ لا يجب عليه شيء وهذا المال لله ليس لي ويدي فيه عارية، وأنا في هذه المسألة حنفي المذهب، فكما لا يجب على وليّ اليتيم إخراج الزكاة عن اليتيم لأن اليتيم لا تجب عليه الزكاة في ماله لأنه المخاطب فلا أزكيه، فقد بينت لك وفقك الله الجود الإلهيّ وتقسيمه.

وأما هل يكون الحق عوضاً لعمل خاص أم لا؟ فاعلم أن مالك بن أنس رضي الله عنه يقول في الرجل يعطي الرجل هدية ثم إن المعطى له لا يكافئه فيطلبه بالمكافأة عند الحاكم فللحاكم أن يفصل عليه الأمر لما فيه من الإجمال ليترتب الحكم على التعيين فيقول له: حين أعطيته هذه الهدية ما ابتغيت بها؟ هل ابتغيت بها جزاء من الجنة أو معاوضة في الدنيا أو ابتغيت بها وجه الله؟ فإن قال الخصم: ابتغيت بها الأجر في الآخرة من الجنة أو المعاوضة في الدنيا حكم على المعطى إياه برد عين ما أخذه منه إن كانت عينه باقية، وإن كانت العين قد

ذهبت حكم له بالقيمة على الخلاف في ذلك هل تعتبر القيمة في الشيء في زمان العطا أو في زمان القضا، وإن قال: إنما أعطيتها ابتغاء وجه الله لم يحكم له بشيء في ذلك وقال: ليس بيد صاحبك ما قصدته بهديتك، فمن وجه أثبته عوضاً عنها فيما يظهر فإنه لم يصرح مالك بأكثر من هذا، ومن وجه ينفي أن يكون عوضاً فإنه لا يماثله في القدر شيء من مخلوقاته والكل نعمته غير أنه المعاوضة على الله لهذا المعطي في الدار الآخرة ممّا يناسب هديته، فإن زاد على ذلك فمن باب المنة، وقد قيل: [البسيط]

لــكــل شــيء إذا فــارقْــتَــه عِــوَضٌ ... ولــيــس لله إن فَــارقْــتَ مــن عِــوَضِ

والتحقيق في هذه المسألة أن الحق من حيث ذاته ووجوده لا يقاومه شيء ولا يصحّ أن يراد ولا يطلب لذاته، وإنما يطلب الطالب ويريد المريد معرفته أو مشاهدته أو رؤيته، وهذا كله منه ليس هو عينه، وإذا كان منه لا عينه فقد يصحّ أن يكون عوضاً فيكون عمله في الدنيا الذي هو الحضور مع الله في قوله: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فيكون هذا العمل جزاؤه عند الله رؤيته وهي أرفع المنازل، فهي للحاضر هنا في عمله جزاء، وهي لغير الحاضر زيادة ومنّة، فهو عند هذا ليس عوضاً وهو عند الآخر عوض، فيكون الحضور في الدنيا من الجود المطلق من عين المنّة، وتكون الرؤية من الجود المقيد جزاء بما وجبه على نفسه، فمن جوده شهدت جوده فما خرج عنه شيء ولا أوجب مخلوق عليه شيئاً لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم. فإذا أعطى العبد ابتداء لغيره لا جزاء يستحقه ذلك الغير فيكون هذا المعطي لأجل ذلك الاستحقاق تحت قيد الحق فيكون عطاه مثل هذا لا عن استحقاق لا يطلب بذلك إلاّ وجه الله سواء طلبه بنيته أو لم يطلبه، فإن حالة العطاء المبتدأ يعطي ذلك فإنه اتصف فيه بصفة الحق من الجود المطلق حيث لم يكن عطاؤه جزاء، ولما كان حاله هذا فكما أن الله تعالىٰ يطلب الجزاء على ما امتن به من النعم على عباده وهو الشكر عليها ومعرفة النعم منه ويجازى هو على ذلك الشكر وعلى تلك المعرفة، كذلك يعطي هذا العبد المنعم على غيره ابتداء إطلاق لسان المنعم عليه بالشكر والثناء عليه، ثم يتولى الله جزاءه به لا بالجنة حتى اتصف بهذا العطاء بصفته تعالىٰ، فهذا قد أبنت محتملات ما يتضمنه هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والتسعون ومائتان
في معرفة منزل سبب وجود عالم الشهادة
وسبب ظهور عالم الغيب من الحضرة الموسوية

[نظم: الوافر]

إذا مــا الــشــمــسُ كــان لــهــا شُــعــاعٌ ... فــذاك الــنــورُ مــن قِــبَــلــي أتــاهَــا
إذا مــا الــمــوتُ حــلَّ بــكــل نــفــسٍ ... فــذاك الــمــوتُ مــن ربٍّ بَــرَاهَــا
إذا مــا جــنَّــةُ الــمَــأوى تــجــلَّــتْ ... مــزيَّــنَــةً إلــيــنــا فــي حُــلاهَــا

نَعِمْنا بالرياح لما حَوَتْهُ   من الطِّيبِ المُمَسَّك في شَذاهَا
وإن طُمِسَتْ نجومٌ في سماءٍ   فذاك الطَّمْسُ أورثَها زَهَاهَا
وإن دخلتْ نفوسٌ في نفوسٍ   فإن دُخُولَها فيها مُنَاهَا
وعمَّارُ القفار لها شُرودٌ   من الصَّيْد الذي يفني ذَمَاهَا
ولو أن الرَّسُولَ يرى نُفوساً   تردُّ رسالتَيْه لما أتَاهَا
ولو عرضَتْ عليه الحُجْبُ عما   يجيء به المنازعُ ما أبَاهَا
ولو أن الجَواريَ سابحاتٌ   إلى أمَدٍ لحُقِّقَ مُنْتَهاهَا
ولو أن اللَّيالِيَ مُرْسِلاتٌ   غدائرَها لما شَقُّوا دُجَاهَا
ولو أن الصَّباحَ يَرى وجوهاً   مُنَوَّرَةَ الجوانبِ من ضُحَاهَا
لأخْجَلَه ومات بها غراماً   وهيَّمَه وتيَّمه هَوَاهَا
ولو أن الهلالَ يكون بَدْراً   لأربعةٍ وعَشْرٍ ما تَلاهَا
ولو أن البحارَ تكون ماءً   فُراتاً لم يَلَذَّ به سواهَا
ولو أن الأراضيَ ذاتُ سَطْحٍ   لما قال المُهَيْمِنُ قد دحاهَا
وأظْهَرَ فيه زينةَ كلِّ شيءٍ   وأخْفَى حكمةً فيه ثراهَا
ولو أن الديارَ بها أنيسٌ   لكان أنيسَها ربُّ بناهَا
ولكنْ لا يصحُّ الأنسُ عندي   بذاتٍ ما لها صفةٌ تراهَا
ولو أن العَوَاليَ في سَفَالٍ   لكان سَفَالُها أعلى ذُرَاهَا
ولو أن الرَّواسيَ شامخاتٌ   لكان شُموخُها ممَّنْ عَلاهَا
ولكنَّ الشموخَ لها مقامٌ   به ربُّ البريَّةِ قد حَبَاهَا
ولو أن الصَّحيفةَ قيِّدتْ مَنْ   يُقيِّدُها لريّ قد مَحَاهَا
ولو أن الجحيمَ تكون ناراً   بلا بَرْدٍ مَشَيْتُ على هَواهَا
ولكن العذابَ وجودُ ضدٍّ   تراه النفسُ ذَوْقاً في جَنَاهَا
ولو أن المحبَّةَ ذاتُ شَخْصٍ   لأضْعَفَ شَوْقُها منها قُوَاهَا
ولو نَظَرَ المشرِّعُ حين تخلو   بمن تَهْواه شَرْعاً ما نَهَاهَا
ولو أن السماءَ بلا نجوم   لنَوَّرَها قليلٌ من سَنَاهَا
ولو أن الرياحَ جرَتْ رُخَاءً   لزَعْزَعها وافقَدَها رُخَاهَا
ولو أن المياهَ تَغُور غَوْراً   لأحْيَا العالمينَ ندا يَدَاهَا
ولو أن السَّحابَ حَمَتْ حياها   عن الكُفَّار أغْنَاهم حَيَاهَا
ولو أن الجبالَ تسيرُ سَيْراً   لكان سَمَاؤها منها ثَرَاهَا
ولو أن العيونَ تَرَى سَنَاها   بلا حُجُبٍ لحلَّ بها عَمَاهَا
ولو أن الملوكَ تراكَ عَيْناً   إذا أقبلْتُمُ حلَّتْ حُبَاهَا
ولو نَطَقَ الكتابُ بكل حَمْدٍ   على أحدٍ من الدنيا عَنَاهَا

ولو أن المُغيرَ يُغيرُ صُبْحاً ... عليها في الفلاة لما سَبَاهَا
ويَثْبتُ في مواقفَ مُهْلِكاتٍ ... لقوّتها إذا أمرٌ دَهَاهَا
لقد أقسمْتُ بالسَّبْع المَثَانِي ... ومن سُوَرِ الحروف بعين طَه
لقد أبصَرْتُ عينَ الشمس تَخْفَى ... عن الأبصار إذ تُعْطي نَدَاهَا
فتُبْصِرُ جوَّها بيدي سَحَاباً ... وتُبْصِرُ أرضَها تزهو رُبَاهَا
وتُظْهِرُ حُسْنَها لعَمَى عيونٍ ... ويُخْفي طَرْفُها عنا عَنَاهَا
ولما قِيلَ قد رحلَتْ وغابَتْ ... وقد تركَتْ خليفَتَها أخَاهَا
أجَبْتُ رسولَها لما أتاني ... ليسأل أن تكلِّمَني شفَاهَا
فقلتُ السِّتْرُ أوْلَى بي لأني ... رأيتُ فناءَ عيني في فَنَاهَا
فما رحلَتْ لبغضٍ كان منها ... ولكن كان عن حادٍ حَدَاهَا
أجابَتْهُ لأمرٍ واعتناءٍ ... به جُودُ المُهَيْمِنِ قد حَذَاهَا
فصار الكلُّ مُفْتَقِراً إليها ... وصار الكونُ يَرْغَبُ في جِدَاهَا
فكم من حُفْرةٍ قد كنتُ فيها ... ولولاها لمِلْتُ على شَفَاهَا
لعلَّةِ شَهْوةٍ لو أن عيسى ... تؤيِّده الأُسَاةُ لما شَفَاهَا
وكم من طَعْمَةٍ أكلَتْ بحرْصٍ ... لشهوتها ولم تَبْلُغْ أنَاهَا
وكم من شَهْوةٍ نظرتْ إلينا ... ونلناها عُصِمْنَا من أذاهَا
ولم تَكُ نفسُنا يوماً نوتها ... وكان العقلُ قد أخْفَى نَواهَا
مَخَافَةَ أن تطالبه نفوسٌ ... بها والعقلُ يَحْذرُ من جَفَاهَا
ولا خطَرَتْ له يوماً ببالٍ ... ولا حكَمَتْ عليه ولا نَوَاهَا
ولكنَّ الشريعةَ أثبتَتْها ... إلى أهلِ السعادة في خَسَاهَا
فنالوها ولم تُعْقِبْ حجاباً ... وصانَهُمُ المُهَيْمِنُ عن زَكَاهَا

اعلم أيّدنا الله وإياك أن هذه القصيدة وكل قصيدة في أوّل كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها إجمال ما يأتي مفصلاً في نثر الباب والكلام عليه، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب، فلا يتكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر، فلينظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه، ففي الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها إلاّ أن يكون بين المسألتين رابط، فيطلب بعضها بعضاً كالإنسان فإنه يطلب الكلام في الحيوان بما فيه من الإحساس، ويطلب النبات بما فيه من النموّ والغذاء، ويطلب الجماد بما فيه ممّا لا يحسّ كالأظفار والشعر، فيتعلق بالنبات لنموّها ويتعلق بالجماد لعدم إحساسها، وما في الوجود شيء أصلاً لا يكون بينه وبين شيء آخر ارتباط أصلاً حتى بين الرب والمربوب، فإن المخلوق يطلب الخالق والخالق يطلب المخلوق، ولذا كان العلم من العالم على صورة المعلوم وخرج المعلوم على صورة العلم وإن لم يكن كذلك فمن أين يقع التعلّق؟ فلا تصحّ

المنافرة من جميع الوجوه أصلاً، فلا بدّ أن تتداخل المسائل للارتباط الذاتي الذي في الوجود بين الأشياء كلها، فافهم ما أشرت به إليك في هذا الارتباط فإنه ينبيء عن أمر عظيم إن لم تتحققه زلّت بك قدم الغرور في مهواة من التلف، فإنه من هنا تعرف ما معنى قول من قال بحدوث العالم ومن قال بقدم العالم مع الإجماع من الطائفتين بأنه ممكن، وأن كل جزء منه حادث وليس له مرتبة واجب الوجود بنفسه، وإنما هو عند بعضهم واجب الوجود بغيره، إما لذات الموجد عند بعضهم، وإما لسبق العلم بوجوده عند آخرين.

ولولا صحة الارتباط الذي أشرنا إليه لما صحّ أن يكون العالم أصلاً وهو كائن، فالارتباط كائن والمنافرة وعدم المنافرة من وجه آخر، فكل حقيقة إلهية لها حكم في العالم ليس للأخرى وهي نسب، فنسبة العالم إلى حقيقة العلم غير نسبته إلى حقيقة القدرة، فحكم العلم فيه لا مناسبة بينه وبين المقدور، وإنما مناسبته بينه وبين المعلوم، والأمر من كونه معلوماً يغاير كونه مقدوراً، فإذا نظرته على هذا النسق قلت: لا مناسبة بين الله وبين عباده، وإذا نظرت بالعين الأخرى أثبت النسبة فإنها موجودة في الكل فاحكم بحسب ما تراه وما يغلب عليك في الوقت، وإذا تبينت الحقائق لذي عينين فليقل ما حدّ له الشرع أن يقول ولا يقل بعقله، فإن إطلاق الألفاظ منها ما هو محجور علينا مع صحة المعنى، ومنها ما هو مباح لنا مطلقاً مع فساد المعنى، كإطلاق نسبة الظرفية لمن لا يقبل الظرفية، وكنسبة استفادة العلم لمن لا يستفيد علماً، فالإطلاق مشروع والوجه المنافي معقول، كما حجر إطلاق نسبة الولد وأدخله تحت حكم لو، وكما حجر تبديل القول الإلهيّ في قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وأدخله تحت لو، ولا يدخل تحت لو إلاّ الممكن، والعقل يدل على الإحالة في الولد دلالة عقلية، ويدل على الإمكان في هداية الناس أجمعين دلالة عقلية، ويدل على إحالة هداية الناس أجمعين لما سبق في العلم من الاختلاف دلالة عقلية، وتدل لفظة لو على أنه مخيّر في نفسه إن شاء شاء أمراً ما، وإن شاء لم يشأ ذلك الأمر، وهذا ورد به الإخبار الإلهيّ ويحيله العقل، وقد أمرنا الله بالعلم به وجعل الآيات دلائل لأولي الألباب ولكن ما هي دلائل عليه خاصة فلا يخلو الأمر في أمره إيانا بالعلم به هل نسلك في ذلك دلالة الشارع والوقوف عند إخباره تقليداً أو نسلك طريقة النظر فيكون معقولاً؟ أو نأخذ من دلالة العقل ما يثبت به عندنا كونه إلهاً؟ ونأخذ من دلالة الشرع ما نضيفه إلى هذا الإله من الأسماء والأحكام، فنكون مأمورين في العلم به سبحانه شرعاً وعقلاً وهو الصحيح، فإن الشرع لا يثبت إلاّ بالعقل، ولو لم يكن كذلك لقال كل أحد في الحق ما شاء ممّا تحيله العقول وما لا تحيله، وهم قد فعلوا ذلك مع الإيمان بالشرع، ودخلوا بالتأويل في أمور لا حاجة لهم بها، ولو استغنوا عنها لم يطالبهم العقل بذلك ولا سألهم الشرع عن ترك ذلك، بل يسألهم الشرع عن فعل ذلك وهم فيه على خطر، ولا حجة على ساكت إلاّ إذا وجب عليه الكلام فيما سكت فيه.

وقد اندرج في هذا الكلام جميع ما ذكرناه في القصيدة التي في أوّل الباب، فإنه جميع ما عدد فيها من الأمور تطلب حقائق إلهية تستند إليها وتنافر حقائق إلهية، فممّا يتضمن هذا

المنزل تجلّي الحجاب بين كشفين، وتجلّي الكشف بين حجابين، وما في المنازل منزل يتضمن هذا الضرب من التجلّي إلاَّ هذا المنزل، فإن التجلّي المنفرد في المظهر من غير بينية يعطي ما لا يعطيه في البينية، والتجلي المفرد الذاتي في غير المظهر يعطي ما لا يعطيه في البينية، وهذا التجلّي الواقع في البينية يعطي الحصر بين أمرين، وكل محصور محدود بمن حصره، وهذا أعجب المعارف في هذا الطريق أن يكون التجلّي الذاتي الذي له الإطلاق محصوراً، فهو كما يقال عن القاعد في حال قعوده إنّه قائم، فظاهر الأمر أنه لا يتصوّر، فسبحان من تنزّه عن الأضداد وقبلتها أوصافه، قال ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بالظَّهِيرَةِ**» فإن كان أراد النهار بهذا اللفظ فقد عمّ التجليات الذاتية، وإن اختلفت في حكم التجلي كاختلاف صفة تنزيهه باسمه الغنيّ عن الفقر وصفة تنزيهه بالأحدية عن الشريك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١١] كذلك التجليات الذاتية البصرية مثل هذه التجليات الذاتية العقلية، وإن كان أراد بالظهيرة وقتاً معيناً في النهار وهو الأظهر في المعنى المحقق واللفظ، وعليه أولى أن يحمل هذا القول، فإن النهار كله تجلّ ذاتي لأن الشمس فيه ظاهرة بذاتها فإن النهار جلاها للأبصار، وإن كان النهار معلولاً عنها فظهرت بذاتها من أوّل شروقها إلى حال غروبها، ولها تجلٍ وحكم في كل دقيقة يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها، والذي يعرف الكل من ذلك ما امتدّ زمانه، فيفرّقون ما بين حكمها في طلوعها وشروقها، وحكمها في إشراقها، وحكمها في ضحاها، وحكمها في زوالها وهو أوّل غشيها، وحكمها في عصرها، وحكمها في قبض ضوئها وقلة سلطانه عمّا كان عليه فيما يقابله من أوّل النهار وصدره، وحكمها عند سقوطها ولكل تجلّ وإن كان ذاتياً حكم ليس للآخر، فما عدا الطرفين فهو تجلّ ذاتي بين تجليين ذاتيين إلاَّ الطرفين فهو تجلّ ذاتي عقيب تجلّ حجابي، والطرف الآخر تجلّ ذاتي يعقبه تجلّ حجابي، فهو تجلّ ذاتي بين تجلّ ذاتي وحجابي، وقد رمينا بك على الطريق فافهم من حالات تغير الأحكام الشمسية في هذه الآنات ووقوع التشبيه منها في آن معين وهو الظهيرة وحالة الصحو وعدم السحاب بينها وبين الرائي، وخذ أنت في الآنات الباقية آثار التجلي الذاتي.

فاعلم أن النور المنبسط على الأرض الذي هو من شعاع الشمس الساري في الهواء ليس له حقيقة وجودية إلاَّ بنور البصر المدرك لذلك، فإذا اجتمعت العينان عين الشمس وعين البصر استنارت المبصرات وقيل: قد انبسط الشمس عليها، ولذلك يزول ذلك الإشراق بوجود السحاب الحائل، لأن العين فارقت هذه العين الأخرى بوجود السحاب وهي مسألة في غاية الغموض لأني أقول: لو أن الشمس في جوّ السماء وما في العالم عين تبصر من حيوان ما كان لها شعاع منبسط في الأرض أصلاً، فإن نور كل مخلوق مقصور على ذاته لا يستنير به غيره، فوجود أبصارنا ووجود الشمس معاً أظهر النور المنبسط، ألا ترى الألوان تنقلب في الجسم الواحد المتلوّن بالخضرة مثلاً أو الحمرة إذا اختلفت منك كيفيات النظر إليه من الاستقامات والانحرافات كيف يعطيك ألواناً مختلفة محسوسة تدركها ببصرك لا وجود لها في

الجسم المنظور إليه في الشمس ولا تقدر تنكر ذلك، ولا سيما إذا كان الجسم المنظور إليه في الشمس فقد أدركت ما لا وجود له حقيقة بل نسبة، كذلك النور المنبسط على الأرض، وكتقلب الحرباء في لون ما تكون عليه من الأجسام على التدريج شيئاً بعد شيء ما هي مثل المرآة تقبل الصورة بسرعة ولا هي جسم صقيل، وإدراك تقلبها في الألوان محسوس، مع علمك بأن تلك الألوان لا وجود لها في ذلك الجسم الذي أنت ناظر إليه ولا في أعيانها في علمك، كذلك العالم مدرك لله في حال عدمه فهو معدوم العين مدرك لله يراه فيوجده لنفوذ الاقتدار الإلهيّ فيه، ففيض الوجود العيني إنما وقع على تلك المرئيات لله في حال عدمها، فمن نظر إلى وجود تعلّق رؤية العالم في حال عدمه وأنها رؤية حقيقية لا شك فيها وهو المسمّى بالعالم، ولا يتصف الحق بأنه لم يكن يراه ثم رآه بل لم يزل يراه، فمن قال بالقدم فمن هنا قال، ومن نظر إلى وجود العالم في عينه لنفسه ولم يكن له هذه الحالة في حال رؤية الحق إياه قال بحدوثه، ومن هنا تعلم أن علة رؤية الرائي الأشياء ليس هو لكونها موجودة كما ذهب إليه من ذهب من الأشاعرة، وإنما وجه الحق في ذلك إنما هو استعداد المرئي لأن يرى سواء كان موجوداً أو معدوماً، فإن الرؤية تتعلق به.

وأما غير الأشاعرة من المعتزلة فإنها اشترطت في الرؤية البصرية أموراً زائدة على هذا تابعة للوجود ولهذا صرفت الرؤية إلى العلم خاصة، فأما تجلّي الذات بين تجليين حجابيين فلا بدّ أن يظهر في ذلك التجلي الذاتي من صور الحجابين أمر للرائي، فيكون ذلك التجلي له كالمرآة يقابل بها صورتين فيرى الحجابين بنور ذلك التجلي الذاتي في مرآة الذات، كما تشهد الفقر في حال تنزيهك الحق عنه سبحانه الغنيّ الحميد، وإن لم يكن الأمر كذلك فكيف تنزّهه عمّا ليس بمشهود لك عقلاً؟ فهكذا صورة الحجاب في الذات عند التجلي، وأوضح من هذا فلا يمكن، فإذا أدرك العارف صورة هذين الحجابين أو صورة الحجاب والتجلي الذاتي الذي هذا التجلي الذاتي الآخر بينهما أو أدرك التجليين الذاتيين في مجلى الحجاب الواقع بينهما فليكن ذكره وعمله بحسب ما تعطيه تلك الصورتان في ذلك المجلى، والعلة في أنه لا يدرك أبداً في التجلي أيّ تجلٍّ كان إلاّ صورتين لا بدّ منهما لكون الواحد يستحيل أن يشهد في أحديته.

ولما كان الإنسان لا تصحّ له الأحدية وهو في الرتبة الثانية من الوجود فله الشفعية لهذا لا يشاهد في التجلي إلاّ الصورتين الذي هو المجلى بينهما، فلا يرى الرائي من الحق أبداً حيث رآه إلاّ نفسه، فهذا التجلي يعرفك بنفسك وبنفسه، فإن كان التجلي بين حجابين كانت الصورتان عملاً، إن كان في الدنيا فيكون عمل تكليف مشروع، وإن كان في الآخرة فيكون عمل نعيم في منكوح أو ملبوس أو مأكول أو مشروب أو تفرّج بحديث أو كل ذلك أو ما أشبه ذلك بحسب الحجاب، ولهذا إذا رجع الناس من التجلي في الدار الآخرة يرجعون بتلك الصورة ويرون ملكهم بتلك الصورة وبها يقع النعيم ويظهر أن النعيم متعلقه الأشياء وليس كذلك، وإنما متعلق النعيم وجود الأشياء أو إدراكها على تلك الصور الحجابية التي أدركها في

المجلى الذاتي، وإن كان التجلي تجلياً حجابياً بين تجليين ذاتيين كتجلي القمر بين الضحى والظهيرة وتجلي الليل بين نهارين كانت الصورتان في ذلك المجلى الحجابي علماً لا عملاً ولكن من علوم التنزيه، فتتحلى به النفس وتنعم به النعيم المعنوي وتلك جنتها المناسبة لها فافهم.

وإن كان التجلي الذاتي بين تجلّ حجابي وذاتي كانت الصورتان صورة علم لا صورة عمل، فالتجلي الذاتي في الذاتي صورة علم تنزيه لا غير، وصورة التجلي الحجابي فيه صورة علم تشبيه وهو تخلّق العبد بالأسماء الإلهية وظهوره في ملكه بالصفات الربانية، وفي هذا المقام يكون المخلوق خالقاً ويظهر بأحكام جميع الأسماء الإلهية، وهذه مرتبة الخلافة والنيابة عن الحق في الملك، وبه يكون التحكم له في الموجودات بالفعل بالهمة والمباشرة والقول. فأما الهمة فإنه يريد الشيء فيتمثل المراد بين يديه على ما أراده من غير زيادة ولا نقصان. وأما القول فإنه يقول لما أراده ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ذلك المراد، أو يباشره بنفسه إن كان عملاً، كمباشرة عيسىٰ الطين في خلق الطائر وتصويره طائراً وهو قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] فللإنسان في كل حضرة إلٰهية نصيب لمن عقل وعرف، وإن كان التجلّي الحجابي بين تجلّ حجابي وذاتي فالتجلّي الحجابي في الحجابي علم ارتباطه بالحق من حيث ما هو دليل عليه وكونه سبباً عنه وأنه على صورته ونسبة الشبه به. وأما صورة التجلّي الذاتي فهو علم تجلي الحق في صفات المخلوق من الفرح والتعجب والتبشبش واليد والقدم والعين والناجذ واليدين والقبضة واليمين والقسم للمخلوق بالمخلوقين وبنفسه واتصافه بحجب النور والظلم وبحصر سبحاته المحرقة خلف تلك الحجب النورية والظلمية، وقد حصرت لك مقام التجليات في أربع وليس ثم غيرها أصلاً.

ولما أعطت الحقيقة في التجليات الإلهية أنها لا تكون إلاّ في هذه الأربع في العالم كانت الموجودات كلها على التربيع في أصلها الذي ترجع إليه، فكل موجود لا بدّ أن يكون في علمه علم تنزيه أو علم تشبيه، وفي عمله إما في عمل صناعي أو عمل فكري روحاني، ولا تخلو من هذه الأربعة الأقسام، وكذا الطبيعة أعطت بذاتها لحكم هذه التجليات، فإن الموجودات إنما خرجت على صورة هذه التجليات، فكانت الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وهي في كل جسم بكمالها، غير أنه قد تكون في الجسم على التساوي في القوّة وهو سبب بقاء ذلك الجسم، وقد لا تكون في الجسم على السواء في القوّة، فتكون العلل لذلك الجسم مستصحبة وحالات الأمراض تنقلب عليه بحسب غلبة بعضها على بعض، فإن أفرطت كان الموت وإفراطها منها، فإن السبب الموجب لإفراطها إنما وقع منها بمأكول يأكله الإنسان أو الحيوان، فما يكون الغالب في ذلك المأكول أو المباشر يزيد في كمية ما يناسبه من الجسم إن كان حاراً قوي الحرارة، وإن كان بارداً قوي البرودة، وكذلك ما بقي.

ثم إنه لما ألّف بين هذه الأربعة لم يظهر إلاّ أربعاً ولا قبلت إلاّ أربعة وجوه، فإن حقائق تلك التجليات الأربعة أعطت أن لا تأتلف من هذه الأربع إلاّ وزنها في العدد، ولهذا كانت

منها المنافرة من جميع الوجوه والمناسبة كما ذكرناه في الإلهيات في أوّل هذا الباب، وتلك الحقيقة الإلهية حكمت على العالم أن يكون بتلك المثابة إذ كان المعلوم على صورة العلم وعلمه ذاته فافهم، فالمنافرة كالحرارة والبرودة وكذلك الرطوبة واليبوسة، فلذلك لا تجتمع الحرارة والبرودة ولا الرطوبة واليبوسة في حكم أبداً، وأوجد الله العناصر أربعة عن تأليف هذه الطبائع، فكان النار عن الحرارة واليبوسة، ثم لم يجعل ما يليه ما ينافره من جميع الوجوه بل جعل إليه ما يناسبه من وجه وإن فارقه من وجه، فكان الهواء له جاراً بما يناسبه من الحرارة، وإن نافره بالرطوبة فإن للوساطة أثراً وحكماً لجمعها بين الطرفين فقويت على المنافرة لهما، فالهواء حارّ رطب فيما هو حارّ يستحيل إلى النار بالمناسب وغلب الوساطة وبما هو رطب يستحيل إلى الماء بالمناسب، ثم جاور الهواء من الطرف الأسفل الماء، فقبل الهواء جوار النار للحرارة، وقبل جوار الماء للرطوبة وإن نافره بالبردوة كما نافره الهواء بالحرارة، وكذلك جاور بين التراب وبين الماء للبرودة الجامعة لمجاورتهما، فما ظهر عنها إلاّ أربعة لذلك الأصل. وكذلك الجسم الحيواني المولد جعل أثر النار فيه الصفراء، وأثر الهواء الدم، وأثر الماء البلغم، وأثر التراب السوداء، فركب الجسم على أربع طبائع، وكذلك القوى الأربعة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة.

وكذلك قرن السعادة والشقاء بالأربعة: باليمين والشمال والخلف والأمام، لأن الفوقية لا يمشي الجسم فيها بطبعه، والتحتية لا يمشي فيها الروح بطبعه، والإنسان والحيوان مركب منهما، فما جعلت سعادته وشقاوته إلاّ فيما يقبله طبعه في روحه وجسمه وهي الجهات الأربع، وبها خوطب، ومنها دخل عليه إبليس فقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لما ذكرناه، فإبليس ما جاءه إلاّ من الجهات التي تؤثر في سعادته إن سمع منه وقبل ما يدعوه إليه، وفي شقاوته إن لم يسمع منه ولم يقبل ما دعاه إليه، فسبحان العليم الحكيم مرتب الأشياء مراتبها. وهكذا فعل العالم الجسمانيّ العلوي فجعل البروج التي جعل الأحكام عنها في العالم على أربع: نارية وترابية وهوائية ومائية. وكذلك جعل أمّهات المطالب أربعة: هل وما ولِمَ وكيف. وكذلك أمّهات الأسماء المؤثرة في العالم وهو: العالم والمريد والقادر والقائل. فعلمه بكونه يكون في وقت كذا على حالة كذا دون ذلك لا يمكن، فهذا العلم علّق الإرادة بتعين ذلك الحال، فالقائل علّق القدرة بإيجاد تلك العين فعلم فأراد وقال فقدر فظهرت الأعيان عن هذه الأربعة، فالحرارة للعلم واليبوسة للإرادة، والبرودة للقول، والرطوبة للقدرة. فللحرارة التسخين، ولليبوسة التجفيف، وللرطوبة التليين، وللبرودة التبريد. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] فذكر المنفعلين دون الفاعلين لدلالتهما على من كانا منفعلين عنهما وهما الحرارة انفعل عنها اليبوسة وكذلك البرودة انفعل عنها الرطوبة، فانظر ما أعطته هذه التجليات بحصرها فيما ذكرناه.

وكذلك العالم سعيد مطلق، وشقي مطلق، وشقي ينتقل إلى سعادة، وسعيد ينتقل إلى

شقاوة، فانحصرت الحالات في أربع، ومنه: الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وما ثم خامس، وهذه نعوت نسبته مع العالم. ومراتب العدد أربعة لا خامس لها وهي: الآحاد والعشرات والمئات والآلاف، ثم يقع التركيب وتركيبها كتركيب الطبائع لوجود الأركان سواء.

واعلم يا أخي أنه ليلة تقييدي لبقية هذا المنزل من بركاته رأيت رسول الله ﷺ وقد استلقى على ظهره وهو يقول: ينبغي للعبد أن يرى عظمة الله في كل شيء حتى في المسح على الخفين ولباس القفازين، وكنت أرى في رجليه ﷺ نعلين أسودين جديدين وفي يديه قفازين وكأنه يشير إليّ مسروراً بما وضعته في هذا المنزل من العلم بما يستحقه جلال الله ثم يقول: ما دام البدر طالعاً فالنفوس في البساتين نائمة وفي جواسقها آمنة، فإذا كان الظلام ولم يطلع البدر خيف من اللصوص، فينبغي أن يدخل الإنسان المدينة حذراً من اللصوص، فكنت أفهم عنه من هذا الكلام أنه يريد أن النفوس إذا كان شهود الحق غالباً عليها محققة به وفيه عند من يدخل بساتين معرفة الله والكلام في جلاله على ضروبه وكثرة فنونه، فشبه الحق بالبدر، وشبه ما تحويه البساتين من ضروب الفواكه بما تحوي عليه الحضرة الإلهية من معارف الأسماء الإلهيّة وصفات الجلال والتعظيم، وفهمت منه في المنام من قوله إذا غاب البدر وذلك شهود الحق في الأشياء والحضور معه والنية الخالصة فيه كان ظلام الجهل والغفلة عن الله والخطأ وخيف من اللصوص يريد الشبه المضلة الطارئة لأصحاب النظر الفكري وأصحاب الكشف الصوري، فذكر ذلك خوفاً على النفوس إذا اشتدت في الكلام على ما يستحقه جناب الحق فليدخل المدينة يريد فليتحصن من ذلك بالشرع الظاهر وليلزم الجماعة وهم أهل البلد فإن يد الله مع الجماعة. ثم رأيته ﷺ يتقلق قلقاً عظيماً بجميع أعضائه لعظيم ما هو فيه من السرور بما يتضمنه هذا المنزل من المعرفة وكانتا في الليل والبدر طالع حتى كان منه في النهار أرى البدر يضيء في كبد السماء وقائل يقول: لم ير رسول الله ﷺ في قلق عظيم لما يرد عليه من الله ويشهده، واستيقظت فقيدت الرؤيا في هذا المنزل واستبشرت بما رأيته لله الحمد على ذلك.

ويتضمن هذا المنزل علوماً جمّة، وما من منزل إلاَّ ويحتمل ما يحوي عليه من المعارف مجلدات كثيرة، فقلت لأصحابي في هذه الليلة: إنما أجعل من المنزل بعض ما يحوي عليه من المعارف مسألة من مسائله، فسألني بعض أصحابي قال: إذا كان الأمر على هذا فنبهنا على عدد ما يحويه من المسائل بذكر رؤوس أصولها خاصة لنعرفها من غير تفصيل مخافة التطويل، فقلت: إن شاء الله ربما أفعل ذلك فيما بقي علينا من هذه المنازل في هذا الكتاب، فكانت عليّ هذه الليلة ليلة مباركة. فاعلم أن هذا المنزل يتضمن علم التجلي في النجوم على كثرتها في كل نجم منها في آن واحد برؤية واحدة وعلم تداخل التجليات وعلم تجلي التابع والمتبوع، وهل يحصل للتابع ذوق من تجلي المتبوع أم لا؟ فإن المتبوع إنما جاء يدعو إلى الله ما جاء يدعو إلى نفسه فقال: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤] وقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فجعل للتابع نصيباً في الدعاء إلى

الله، فكل علم يستقل به الإنسان من كونه عاقلاً لا يحتاج فيه إلى غيره من رسول ولا دال عليه كالعلم بتوحيد الله وما يجب له، وكذلك ما يحصل له من الفيض الإلهيّ في الكشف في خلواته وطهارة نفسه بمكارم الأخلاق، فمثل هذا يكون له من التجلي مثل ما للمتبوع لأنه ليس بتابع إنما هو ذو بصيرة، إما لدليل عقل سار أو لكشف محقق هو فيه مثل المتبوع، وكل إنسان ما له هذا المقام وكان الذي عنده من العلم بالله أخذه إيماناً من المتبوع ومشى عليه، ويكون ذلك العلم ممّا لا يمكن أن يحصل إلاّ على طريقة الرسول ﷺ وهو علم التقرّب إلى الله من كونه قربة لا من كونه علماً. وكذلك الأعمال البدنية والقلبية على طريق القربة لا تعلم إلاّ من المتبوع، فإذا كان التجلي في هذا المقام لصاحب هذا العلم فلا يلحق فيه التابع المتبوع أبداً، فهو للمتبوع تجلّ شمسي وهو للتابع تجلّ قمري ونجومي فاعلم ذلك.

وممّا يتضمنه هذا المنزل تجلي الحق لأهل الشقاء في غير الاسم الرب مع أن الله ما جعل الحجاب إلاّ في يومئذ مخصوصاً، وفي اسم الرب المضاف إليهم لا في إطلاق الاسم فهم في الحجاب في زمان مختص من اسم مضاف خاص بهم، فلا يمنع تجليه في هذا الاسم الخاص لهم في غير ذلك الزمان وفي اسم الرب المطلق وفي غيره من الأسماء قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ فأضافه إليهم يومئذ ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] فجعله زماناً معيناً فافهم. ويتضمن هذا المنزل أنه ليس كل تجلّ يقع به النعيم، وأن النعيم بالتجلي إنما يقع للمحبين المشتاقين الذين وفوا بشروط المحبة، ويتضمن هذا المنزل بطون عالم الشهادة في الغيب فيرجع ما كان شهادة غيباً وما كان غيباً شهادة، وهكذا ذهب إليه بعض العارفين في نشأة الآخرة أن الأجسام تكون مبطونة في الأرواح، وأن الأرواح تكون لها ظروفاً ظاهرة بعكس ما هي في الدنيا، فيكون الظاهر في الدار الآخرة، والحكم للروح لا للجسم، ولهذا يتحوّلون في أية صورة شاؤوا لغلبة الروحية عليهم وغيبية الجسم فيها، كما هم اليوم عندنا الملائكة وعالم الأرواح يظهرون في أية صورة شاؤوا، ومن منازل أصحاب الكشف الذين أنكروا حشر الأجسام فإنهم أبصروا في كشفهم الأمر الواقع في الدار الآخرة ورأوا أرواحاً تتحول في الصور كما يريدون، وغيب عنهم ما تحوي عليه تلك الأرواح من الجسمية كما غاب عنهم في هذه الدار في البشر الروحانية المبطونة في الأجسام فكانت الأجسام قبوراً لها، وفي الآخرة بالعكس الأرواح قبور الأجسام فلهذا أنكروا ذلك، والكشف التام الذي فزنا به وأصحابنا هنا وفي الآخرة أنا كشفنا الأرواح هنا وغلب الأجسام الطبيعية عليها في الصورة الظاهرة، فلا يرى من الأرواح في ظاهر الأجسام إلاّ آثارها، ولولا الموت والنوم ما عرف غير المكاشف أن ثم أمراً زائداً على ما يشاهده في الظاهر، ومع وجود الموت والسكون وظهور الجسم عرياً عمّا كان له من الآثار ذهبت طائفة إلى هذا المذهب وهم الحشيشية، فما رأت أن ثم خلف هذه الصورة الظاهرة شيئاً أصلاً، فكيف بهؤلاء لو لم يكن موت في العالم.

ويتضمن هذا المنزل معرفة العالم العلوي وترتيب صورته في تركيبه وأنه على خلاف ما يذكره أصحاب علم الهيئة وإن كان ما قالوه يعطيه الدليل، ويجوز أن يكون الله يرتبه على ذلك

ولكن ما فعل، مع أنه يعطي هذا الترتيب ما يعطيه ما ذهب إليه أصحاب علم الهيئة، ويتضمن علم ما أودع الله في العالم السفلي في ترتيبه من الأمور، ويتضمن معرفة المكلفين ومن أين كلفت وما يحرّكهم، ويتضمن علم القربات، ويتضمن علم سبب قصم الجبابرة المتكبرين على الله، ويتضمن إلحاق الحيوان بالإنسان في العلم بالله، ويتضمن علم العواقب ومآل كل عالم، فقد ذكرت رؤوس مسائله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والتسعون ومائتان

في معرفة المنزل المحمدي المكي من الحضرة الموسوية

[نظم: الخفيف]

حـرَّم الله قَـلْـبَ كـل نـبـيٍّ ... وكـذا قـيـل قَـلْـبَ كـلِّ ولـيِّ
ورثـوه وورَّثُـوه بـيـنـهـم ... فـي عـلـوم وفـي مـقـام عَـلِـيِّ
فـإذا مـا نـسَبْـتَ لـلـشَّـرْع عـلـمـاً ... فـاطْـلُـبِ الـعَـلْـمَ فـي حُـروفِ الـرَّوِيِّ
وبـحـارٍ لـهـا مَـعَـارفُ نـورٍ ... فـي شـريـفٍ مُـحَـقَّـقٍ ودنـيِّ
ونـبـيٍّ مـطـهَّـرٍ ورسـولٍ ... وفـقـيـرٍ مُـمَـرْدِكٍ وغَـنـيِّ
ونـعـيـم مـرتَّـبٍ فـي عـلـوٍّ ... وعـذابٍ مُـقَـسَّـم فـي رُكِـيِّ

اعلم أن هذا المنزل يتضمن علم مرتبة العالم عند الله بجملته، وهل العدم له مرتبة عند الله يتعين تعظيمه من أجلها أم لا؟ وهل من خلق من أهل الشقاء المغضوب عليه له مرتبة تعظيم عند الله أم لا؟ وهل التعظيم الإلهيّ له أثر في المعظم بحيث أن يسعد به أم لا؟ وما سبب تعظيم الله العالم؟ وهل لمن عظم العالم من الخلق صفة يعرف بها أم لا؟ وما الأسماء الإلهية التي تضاف إلى المخلوقين في مذهب من يقول: ما أقسم الله قط إلاَّ بنفسه لكن أضمره تارة وأظهره في موطن آخر ليعلم أنه مضمر فيما لم يذكر، وجميع ما يتعلق بهذا الفن يتضمنه هذا المنزل، إن ذكرناها على التفصيل طال الكلام، وممّا يتضمن هذا المنزل علم خلق الإنسان من العالم، وهل الحيوان مشارك له في هذا الخلق أم هو خصيص به، ولم خصّ بهذا الضرب من الخلق؟ وإن كان يشاركه الحيوان فيه فلم عين الإنسان بالذكر وحده؟ ولماذا ذكرت لفظة الإنسان في القرآن حيثما ذكرت ونيط بذكرها إما الذم وإما الضعف والنقص؟ وإن ذكر بمدح أعقبه الذم منوطاً به فالذم كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ﴾ [سورة العصر: الآية ٢] ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [سورة العاديات: الآية ٦] والضعف والنقص مثل قوله: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] وقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [سورة البلد: الآية ٤] والذمّ العاقب للمدح كقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [سورة التين: الآية ٤] هذا مدح ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَـٰهُ أَسۡفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: الآية ٥] هذا ذمّ. ويتضمن علم مآل أصحاب الدعاوى التي تعطيها رعونة الأنفس، ويتضمن تقرير النعم الحسية والمعنوية، ويتضمن التخلق بالأسماء، ويتضمن علم القوّة التي أعطيها الإنسان وأن لها أثراً، وفي ذلك ردّ على الأشاعرة وتقوية

للمعتزلة في إضافة الأفعال إلى المكلفين، ويتضمن علم ما يقع فيه التعاون، ويتضمن علم مآل من عرف الدليل وتركه لهوى نفسه، فهذا جميع رؤوس ما يتضمنه هذا المنزل من المسائل، وهي تتشعب إلى ما لا يحصى كثرة إلاَّ عن مشقة كبيرة. فأما مرتبة العالم عند الله بجملته فاعلم أن الله تعالىٰ ما خلق العالم لحاجة كانت له إليه، وإنما خلقه دليلاً على معرفته ليكمل بذلك ما نقص من مرتبة الوجود ومرتبة المعرفة، فلم يرجع إليه سبحانه من خلقه وصف كمال لم يكن عليه بل له الكمال على الإطلاق، ولا أيضاً كان العالم في خلقه مطلوباً لنفسه لأنه ما طرأ عليه من خلقه صفة كمال بل له النقص الكامل على الإطلاق، سواء خلق أو لم يخلق، بل كان المقصود ما ذكرناه مرتبة الوجود، ومرتبة المعرفة أن تكمل بوجود العالم وما خلق الله فيه من العلم بالله لما أعطاه التقسيم العقلي، فإن وصف العالم بالتعظيم فمن حيث نصب دليلاً على معرفة الله وأن به كملت مرتبة الوجود ومرتبة المعرفة، والدليل يشرف بشرف مدلوله. ولما كان العلم والوجود أمرين يوصف بهما الحق تعالىٰ كان لهما الشرف التامّ، فشرف العالم لدلالته على ما هو شريف، فإن قال القائل: كان يقع هذا بجوهر فرد يخلقه في العالم إن كان المقصود الدلالة. قلنا: صدقت وذلك أردنا إلاَّ أن لله تعالىٰ نسباً ووجوهاً وحقائق لا نهاية لها، وإن رجعت إلى عين واحدة فإن النسب لا تتصف بالوجود فيدخلها التناهي، فلو كان كما أشرت إليه لكان الكمال للوجود والمعرفة بما يدل عليه ذلك المخلوق الواحد فلا يعرف من الحق إلاَّ ما تعطيه تلك النسبة الخاصة، وقد قلنا إنّ النسب لا تتناهى فخلق الممكنات لا تتناهى فالخلق على الدوام دنيا وآخرة، فالمعرفة تحدث على الدوام دنيا وآخرة ولذا أمر بطلب الزيادة من العلم، أتراه أمره بطلب الزيادة من العلم بالأكوان؟ لا والله ما أمر إلاَّ بالزيادة من العلم بالله بالنظر فيما يحدثه من الكون فيعطيه ذلك الكون عن أية نسبة إلهية ظهر، ولهذا نبّه ﷺ القلوب بقوله في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِكَ**» والأسماء نسب إلهيّة، والغيب لا نهاية له، فلا بدّ من الخلق على الدوام، والعالم من المخلوقين لا بدّ أن يكون علمه متناهياً في كل حال أو زمان، وأن يكون قابلاً في كل نفس لعلم ليس عنده محدث متعلق بالله أو بمخلوق يدل على الله ذلك العلم فافهم.

فإن قال القائل: فالأجناس محصورة بما دلّ عليه العقل في تقسيمه وكل ما يخلق ممّا لا يتناهى داخل في هذا التقسيم العقلي إذ هو تقسيم دخل فيه وجود الحق. قلنا: التقسيم صحيح في العقل وما تعطيه قوّته، كما أنه لو قسم البصر المبصرات لقسمها بما تعطيه قوّته وكذلك السمع وجميع كل قوّة تعطي بحسبها، ولكن ما يدل ذلك على حصر المخلوقات فإنها قسمت على قدر ما تعطي قوّتها، وما من قوّة تعطي أمراً وتحصر القسمة فيه إلاَّ ويخرج عن قسمتها ما لا تعطيه قوّتها، فقوّة السمع تقسم المسموعات ومتعلقها الكلام والأصوات لا غير، فقد خرج عنها المبصرات كلها والمطعومات والمشمومات والملموسات وغيرها. وكذلك أيضاً العقل لما أعطى بقوّته ما أعطى لم يدل ذلك على أنه ما ثم أمور إلهية لا تعطى

العلم بتفاصيلها وحقائقها قوّة العقل، وإن دخلت في تقسيمه من وجه فقد خرجت عنه من وجوه، وجائز أن يخلق الله في عبده قوّة أخرى تعطي ما لا تعطيه قوّة العقل فيرد المحال واجباً والواجب محالاً والجائز كذلك، فمن جهل ما تقتضيه الحضرة الإلهيّة من السعة بعدم التكرار في الخلق والتجليات لم يقل مثل هذا القول ولا اعترض بمثل هذا الاعتراض، فإن قال: لا بدّ أن يكون ما خلق تحت حكم العقل وداخلاً في تقسيمه إما تحت قسمة النفي أو الإثبات. قلنا: صدقت ما تمنع أن يكون ما يعلم ممّا كان لا يعلم إما في قسم النفي أو الإثبات، ولكن ما يدخل تحت ذلك النفي أو الإثبات هل يعطي ما يعطي النفي من العلم؟ أو يعطي ما يعطي الإثبات من العلم؟ أو يعطي أمراً آخر؟ فإن النفي قد أعطى من العلم بالله ما أعطى من حيث ما هو نفي لا من حيث ما هو تحت دلالته من المنفيات التي لا نهاية لها، وأن الإثبات قد أعطى من العلم بالله ما أعطى من حيث ما هو إثبات لا من حيث ما تحت دلالته من المثبتين، فإذاً الإيجاد مستمرّ، والعلم فينا يحدث بحدوث الإيجاد.

والمعلوم الذي تعلق به العلم من ذلك الدليل الخاص ليس هو المعلوم الآخر فهو معلوم لله لا للعالم، فكملت مرتبة ذلك العلم بوجوده في هذا العالم الكوني، وكملت مرتبة الوجود الخاص بهذا الموجود بظهور عينه، والذي يعطيه كل موجود من العلم الذوقي لا يعطيه الآخر، ولقد يجد الإنسان من نفسه تفرقة ذوقية في أكله تفاحة واحدة في كل عضة يعض منها إلى أن يفرغ من أكلها ذوقاً لا يجده إلاّ في تلك العضة خاصة والتفاحة واحدة، ويجد فرقاناً حسياً في كل أكلة منها وإن لم يقدر يترجم عنها، ومن تحقق ما ذكرناه يعلم أن الأمر خارج عن طور كل قوّة موجودة كانت تلك القوّة عقلاً أو غيره، فسبحان من تعلق علمه بما لا يتناهى من المعلومات لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وقد بيّن لك في هذه الآية أن العقل وغيره ما أعطاه الله من العلم إلاّ ما شاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٠] ولذا قال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [سورة طٰه: الآية ١١١] عقيب قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي إذا عرفوا أنهم لا يحيطون به علماً خضعوا وذلّوا وطلبوا الزيادة من العلم فيما لا علم لهم به منه، والوجوه هنا أعيان الذوات وحقائق الموجودات إذ وجه كل شيء ذاته، وكل ما خلق الله من العالم فإنما خلقه الله على كماله في نفسه فذلك الكمال وجهه، قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فقد أكمله ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فأعطى الهدى أيضاً الذي هو البيان هنا خلقه، فأبان الأمر لعبيده على أكمل وجوهه عقلاً وشرعاً، ما أبهم ولا رمز ولا لغز: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: الآية ٦٩] ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٤] ولولا البيان ما فصل بين المتشابه والمحكم ليعلم أن المتشابه لا يعلمه إلاّ الله والمحكم يتعلق به علمنا، فلو لم ينزل المتشابه لنعلم أنه متشابه لكوننا نرى فيه وجهاً يشبه أن يكون وصفاً للمخلوق ويشبه أن يكون وصفاً للخالق فلا يعلم معنى ذلك المتشابه إلاّ الله، فلو لم ينزل المتشابه لم يعلم أن ثم في علم الله ما يكون متشابهاً وهذا غاية البيان حيث أبان لنا أن

ثم ما يعلم وثم ما لا يعلمه إلاّ الله، وقد يمكن أن يعلمه الله من يشاء من خلقه بأي وجه شاء أن يعلمه.

وممّا يتضمن هذا المنزل العلم بالأقسام الإلهيّة التي وردت في الشرائع المتقدمة والمتأخرة لما أقسم وإذا أقسم بمن أقسم هل بنفسه أو بمخلوقاته أو بهذا وقتاً وبهذا وقتاً آخر مثل قوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٣] فأقسم بالله وكقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٢] ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] وكقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ١] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [سورة المرسلات: الآية ١] ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١] ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [سورة النجم: الآية ١] ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ [سورة الشمس: الآية ١] وغير ذلك من المخلوقين الذين أقامهم في الظاهر مقام أسمائه، فإن كان أضمر فما أضمر من الأسماء، وعلى كل حال فلها شرف عظيم بإضافتها إليه، سواء أظهر الاسم أو لم يظهر. والقسم العام: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٣٨ ـ ٣٩] فدخل في هذا القسم من الموجودات جميع الأشياء، ودخل فيه العدم والمعدومات وهو قوله: ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ وما تبصرونه في الحال والمستقبل، والمستقبل معدوم، فللأشياء نسبة إلى الشرف والتعظيم وكذلك العدم، فأما شرف العدم المطلق فإنه يدل على الوجود المطلق فعظم من حيث الدلالة وهو ممّا يجري على ألسنة الناس وقد نظم ذلك فقيل: وبضدها تتميز الأشياء، فالعدم ميّز الوجود والوجود ميّز العدم.

وأما شرف العدم المقيد فإنه على صفة تقبل الوجود والوجود في نفسه شريف ولهذا هو من أوصاف الحق، فقد شرف على العدم المطلق بوجه قبوله للوجود، فله دلالتان على الحق: دلالة في حال عدمه، ودلالة في حال وجوده، وشرف العدم المطلق على المقيد بوجه وهو أنه من تعظيمه لله، وقوّة دلالته أنه ما قبل الوجود وبقي على أصله في عينه غيرة على الجناب الإلهيّ أن يشركه في صفة الوجود، فينطلق عليه من الاسم ما ينطلق على الله. ولما كان نفس الأمر على هذا شرع الحق للموجودات التسبيح وهو التنزيه، وهو أن يوصف بأنه لا يتعلق به صفات المحدثين، والتنزيه وصف عدمي فشرف سبحانه لعدم المطلق بأن وصف به نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] تشريفاً للعدم لهذا القصد المحقق منه في تعظيم الله فإنه أعرف بما يستحقه الله من المعدوم المقيد فإنه له صفة الأزل في عدمه، كما للحق صفة الأزل في وجوده، وهو وصف الحق بنفي الأولية، وهي وصف العدم بنفي الوجود عنه لذاته، فلم يعرف الله ممّا سوى الله أعظم معرفة من العدم المطلق.

ولما كان للعدم هذا الشرف وكان الدعوى والمشاركة للموجودات لهذا قيل لنا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] أي ولم تك موجوداً، فكن معي في حال وجودك من عدم الاعتراض في الحكم والتسليم لمجاري الأقدار كما كنت في حال عدمك، فجعل شرف الإنسان رجوعه في وجوده إلى حال عدمه، فلولا شرف العدم بما ذكرناه ما نبّه الحق الموجود المخلوق على الرجوع إلى تلك الحالة في الحكم لا في العين، ولا يقدر على هذا الوصف من الرجوع إلى العدم بالحكم مع الوجود العيني إلاّ من عرف من أين جاء وما

يراد منه وما خلق له، فقد تبين لك من شرف العدم المطلق ما فيه كفاية. وهذه مسألة أغفلها الناس ولم يعقلوها عن الله حين ذكرها.

ولما تبين أن الشرف للموجودات والمعدومات إنما كان من حيث الدلالة وجب تعظيمها فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ والشعائر هي الأعلام فهي الدلالات، فمن عظمها فهو تقي في جميع تقلباته، فإن القلوب من التقليب، وما قال سبحانه إن ذلك من تقوى النفوس ولا من تقوى الأرواح ولكن قال: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٢] لأن الإنسان يتقلب في الحالات مع الأنفاس وهو إيجاد المعدومات مع الأنفاس. ومن يتَّقِ الله في كل تقلب يتقلب فيه فهو غاية ما طلب الله من الإنسان ولا يناله إلاّ الأقوياء الكمل من الخلق لأن الشعور بهذا التقلب عزيز ولهذا قال: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي هي تشعر بما تدل عليه، وما تكون شعائر إلاّ في حق من يشعر بها، ومن لا يشعر بها وهم أكثر الخلق فلا يعظمها، فإذن لا يعظمها إلاّ من قصد الله في جميع توجهاته وتصرّفاته كلها، ولهذا ما ذكرها الله إلاّ في الحج الذي هو تكرار القصد. ولما كان القصد لا يخلو عنه إنسان كان ذكر الشعائر في آية الحج وذكر المناسك وهي متعددة أي في كل قصد، فكان سبب القسم بالأشياء طلب التعظيم من الخلق للأشياء حتى لا يهملوا شيئاً من الأشياء الدالة على الله، سواء كان ذلك الدليل سعيداً أو شقياً وعدماً أو وجوداً أي ذلك كان، وإن كان القصد الإلهيّ بالقسم نفسه لا الأشياء بل المقصود الأمران معاً وهو الصحيح، فاعلم أنه ليس المراد بهذا القصد الآخر إلاّ التعظيم لنا والتعريف، فذكر الأشياء وأضمر الأسماء الإلهيّة لتدل الأشياء على ما يريده من الأسماء الإلهيّة فما تخرج عن الدلالة وشرفها فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٥] أي وباني السماء ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٦] أي وباسط الأرض ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ١] أي ومسقط النجم، فاختلفت الأشياء، فاختلفت النسب، فاختلفت الأسماء، وتعينت المختصة بهذا الكون المذكور فعلم من الله ما ينبغي أن يطلق عليه من الأسماء في المعنى فيما أضمره وفي اللفظ فيما أطلق، إذ لو أراد إطلاق ما أضمره عليه لأظهره كما أظهره في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] فجاء بالاسم الرب بالنسبة الخاصة المتعلقة بالسماء خاصة، واسم الأرض مضمر لأنه للرب نسبة خاصة في الأرض ليست في السماء ولذلك لم يتماثلا، بل السماء مغايرة للأرض لاختلاف النسب، فنسبة الرب لخلق السماء مغايرة للنسبة الربانية لخلق الأرض، ولولا وجود الواو في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي يعطي التشريك لقلنا باختلاف الاسم الرب لاختلاف النسبة، ولكن الواو منعت والقرآن نزل باللسان العربي والواو في اللسان في هذا الباب إذا ذكر الأوّل ولم يذكر في المعطوف عليه حكم آخر دلّت على التشريك، فإذا قلت: قام زيد وعمرو فلا يريد القائل إذا وقف على هذا من غير قاطع عرضي مثل انقطاع النفس بسعلة تطرأ عليه أو شغل يشغله عن تمام تلفظه في مراده فهو للتشريك ولا بدّ فيما ذكر، فالقاطع منعه أن يقول: وعمر وخارج، أو يقول: وعمر وأبوه قاعد، فهذه الواو واو الإبتداء والحال لا واو العطف، فإذا قال: قام

زيد وخرج عمرو فهذه واو العطف أعني عطف جملة على جملة لا واو التشريك، فلهذا جعلنا الواو في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ للتشريك في الاسم الإلهيّ المذكور الذي هو المعطوف عليه، وكان الإضمار في النسبة التي يقع فيها التغاير فافهم فإنه من دقيق المعرفة بالله.

واعلم أنه لما رأى بعض العارفين تعظيم هذه الأمور مشروعاً ألحق كل ما سوى الله بالسعادة التي هي في حق أصحاب الأغراض من المخلوقين وصولهم إلى أغراضهم التي تخلق لهم في الحال، فلم يبق صاحب هذا النظر أحداً في العذاب الذي هو الألم فإنه مكروه لذاته، وإن عمروا النار فإن لهم فيها نعيماً ذوقياً لا يعرفه غيرهم، فإنه لكل واحدة من الدارين ملؤها، فأخبر الله أنه يملؤها ويخلد فيها مؤبداً، ولكن ما ثم نص بتسرمد العذاب الذي هو الألم لا الحركات السببية في وجود الألم في العادة بالمزاج الخاص المحس للألم، فقد نرى الضرب القطع والحرق في الوجود ظاهراً ولكن لا يلزم عن تلك الأفعال ألم ولا بد، وقد شاهدنا هذا من نفوسنا في هذا الطريق وهذا من شرف الطريق، وفيه يقول أصحابنا: ليس العجب من ورد في بستان فإنه المعتاد، وإنما العجب من ورد في وسط النار لأنه غير معتاد، يريد أنه ليس العجب ممّن يجد اللذة في المعتاد وإنما العجب ممّن يجد اللذة في غير السبب المعتاد وهو كان مطلوب أبي يزيد في قوله: سوى ملذوذ وجدي بالعذاب، ولهذا سمّي عذاباً لأنه يعذب في حال ما عند قوم ما لمزاج يطلبه.

وإذا كان الحق يأمر بتعظيم كل ما سواه ممّا هو مضاف إليه وما ثم إلاّ ما هو مضاف إليه إمّا نصاً أو عقلاً فبعيد أن يتسرمد عليه العذاب الذي هو الألم، وقد كان الله ولا شيء معه ولم يرجع إليه وصف لم يكن عليه ممّا أوجده وخلقه فكذلك هو ويكون، وإنما قلنا هذا من أجل من يقول بنفي اسم من الأسماء الإلهية لا أثر له. قلنا: وإن لم يكن له أثر فليس كماله بوجود الأثر عنه فإن العين واحدة فافهم ذلك، وهذه مسألة من أشكل المسائل في هذا الطريق والله يقول: إن رحمته سبقت غضبه، يريد أن حكمه برحمة عباده سبق غضبه عليهم، ولا يظهر السبق في نفس الشأو فإنه قد يكون الفرس واسع النفس بطيء الحركة، والآخر ضيق النفس سريع الحركة والشأو طويل فلا يزال الواسع النفس، وإن أبطأ في الحضر، يدخل على الضيق النفس حتى يزيد عليه ويتركه خلفه فلا يحكم بالسبق إلاّ في آخر الشأو، فمن حاز قصب السبق فهو السابق، ولهذا يطوّل في المسابقة بين الخيل في المسافة، وهو مشروع في معرض التنبيه على هذا المقام، وآخر المسافة هو الذي ينتهي إليه الحكم بالسبق، والرحمة سبقت غضب الله على خلقه، فهي تحوز العالم في الدارين بكرم الله وما ذلك على الله بعزيز، وإن كانوا في النار فلهم فيها نعيم، فإنهم ليسوا منها بمخرجين، ويصدق قوله تعالىٰ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» ويصدق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٩] ويصدق قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦] وقد أظهرت أمراً في هذه المسألة لم يكن باختياري، ولكن حق القول الإلهيّ بإظهاره فكنت فيه كالمجبور في اختياره، والله ينفع به من يشاء لا إله إلاّ هو، وهذا القدر كافٍ من علم هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والتسعون ومائتان
في معرفة منزل الأعداد المشرفة من الحضرة المحمدية

[نظم: الطويل]

تـفـجَّـرَت الأنـهـارُ مـن ذات أحـجـارِ … وغـاصَـتْ بـأرضـي فـي خَـزَائـنِ أسـراري
فـعُـشْـرٌ مـن الـعـلـم الـذي هـو ظـاهـرٌ … ومـا قـد كـتَـمْـتُ مـنـه تـسـعـةُ أعـشـارِ
تُـطـالـبـنـي نـفـسـي بـمَـثْـنَـى وجـودهـا … ويـطـلـبـنـي وِتْـري الـمـصـابُ بـأوتـارِ
فـحـصَّـنْـتُ نـفـسـي فـي مـديـنـة سـيِّـدٍ … بـنـاهـا مـن الـمـاءِ الـمـركَّـب والـنَّـارِ
فـلـم يُـرَ حـصـنٌ مـثـلـه فـي ارتـفـاعـه … تـحـصَّـنْـتُ فـيـه خـلـفَ سـبـعـة أسـوارِ
مَـكَـانَـتُـهـا مـا بـيـن ذلٍّ وعـزَّةٍ … يُـعـامـلـنـي فـيـهـا عـلـى حَـدِّ مِـقْـداري
إلـى أن يـكـون الـنَّـفْـخُ فـي صُـور جِـسْـمِـهِ … إلـى صُـور تَـخْـيـيـلٍ بـبَـرْزخ أَغْـيَـاري
ويـبـقـى دَوَامُ الأمـر فـيـه مُـخَـلَّـداً … إلـى أن يـكـون الـبَـعْـثُ مـن قَـبْـر أفـكـاري
فـأشْـهَـدُه عِـلْـمـاً وعَـيْـنـاً وحـالـةً … بـمَـشْـهَـدِ أنـوارٍ ومَـشْـهَـدِ أَسْـرارِ
مُـنَـوَّعـةٌ تـلـك الـمـظـاهـرُ عـنـدنـا … بـرؤيـة أفـكـارٍ ورؤيـة أبـصـارِ

فهرست ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم: وذلك علم اللوائح وهي مقدمات الذوق، وهي منزلة عجيبة لا تقبل الغفلة والنسيان، وفيه علم دخول التأنيث في العدد وهو مذكر، وفيه علم المانية من أين ضلت وما وجه الحق الذي عندها حتى قادها إلى هذا الاعتقاد، وهل لها عذر مقبول في ذلك يوم القيامة أم لا؟ وفيه علم الدخول وهو طلب الأوتار ولماذا تطلب ولمن يرجع فضلها؟ وهل المغصوب على نفسه بالقتل هل يرضى بذلك أم لا؟ ولأية حكمة جعل ذلك للولي؟ وهل إذا عفا الوليّ عن الدم هل يسقط حق المقتول يوم القيامة أم مثل الحوالة في الدين إذا قبلها صاحب الحق لم يبقَ له رجوع على الأوّل إن أعسر المرجوع إليه عنه بعد رضا صاحب الدين بالحوالة، وفيه علم قرار الغيب حتى لا يشهد ولماذا يقرّ؟ وفيه علم الغيب الذي يجب أن يشهد وطلبه لذلك من الله. وفيه علم العقل ومرتبة صاحبه. وفيه علم الاعتبار. وفيه علم الانتقال في الأحوال والمقامات. وفيه علم الكيفيات والكميات. وفيه علم التعالي ولماذا يؤدّي وأنه مخصوص بأهل البلادة دون الأذكياء. وفيه علم الصلاح والفساد. وفيه علم ما يترتب على الأعمال سواء وقع التكليف أو لم يقع. وفيه من أين أخذ علم أهل النجوم الحاكمون بها الواقفون على ما أودع الله فيها من الأحكام من العلوم الإلهيّة وشرفه على سائر العلوم وذكر الحيوان الذي إذا أكل أعلاه أعطى بالخاصية لمن أكله علم النجوم، وإذا أكل وسطه أعطى علم النبات، وإذا أكل عجزه وهو ما يلي ذنبه أعطى علم المياه المغيبة في الأرض فيعرف إذا أتى أرضاً لا ماء فيها على كم ذراع يكون الماء فيها، وهذا الحيوان حية ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، لا يوجد إلاّ بأحواز شلب من غرب الأندلس، وكان قد وقع بها عندنا عبد الله بن عبدون كاتب أمير المسلمين فقطع رأسها وذنبها بسكين ذي

شعبتين في ضربة واحدة وقسمها ثلاث قطع وكانوا ثلاثة إخوة فأكل عبد الله أعلاها فكان في علم القضاء بالنجوم آية من غير مطالعة كتاب أو توقيف إمام. وأكل أخوهُ عبد المجيد الوسط منها فكان آية في علم النبات وخواصه وتركيباته من غير مطالعة كتاب ولا توقيف أخبرني ولده المنجنيقي بذلك بقونية. وأكل الأخ الثالث القطعة الأخيرة التي تلي الذنب منها فكان آية في استخراج المياه من جوف الأرض، فسبحان من أودع أسراره في خلقه. وفيه علم الفرق في خرق العوائد بين الكرامة والاستدراج. وفيه علم السبب الذي أوجب أن يحب العالم الحيواني الإنساني غير الله وسبب الحب أمران: النسبة والإحسان، والنسبة إلى الله أقرب فإنه مخلوق على الصورة، والإحسان من الله فهو المنعم عليه بإيجاد عينه ثم بكل ما هو فيه فكيف يحب غيره ويفنى فيه؟ وفيه علم الآخرة وما يتعلق بها من حين وقوف الناس على الجسر دون الظلمة إلى أن يدخلوا منازلهم من الشقاء والسعادة، فهذا جميع ما يتضمنه هذا المنزل من العلوم قد نبهتك عليها لترتفع الهمة إلى طلبها، فلنذكر منها مسألة أو أكثر على قدر ما يتسع الكلام مع الاختصار دون الإطالة والإكثار فأقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل:

اعلم أن الله لما خلق الأرواح الملكية المهيمة وهم الذين لا علم لهم بغير الله لا يعلمون أن الله خلق شيئاً سواهم وهم الكروبيون المقرّبون المعتكفون المفردون المأخوذون عن أنفسهم بما أشهدهم الحق من جلاله اختصّ منهم المسمّى بالعقل الأوّل والأفراد منا على مقامهم، فجلال الله في قلوب الأفراد على مثل ذلك فلا يشهدون سوى الحق وهم خارجون عن حكم القطب الذي هو الإمام وهو واحد منهم ولكنه يكون مادته من العقل الأوّل الذي هو أوّل موجود من عالم التدوين والتسطير وهو الموجود الإبداعي، ثم بعد ذلك من غير بعدية زمان انبعث عن هذا العقل موجود انبعاثي وهو النفس وهو اللوح المحفوظ المكتوب فيه كل كائن في هذه الدار إلى يوم القيامة وذلك علم الله في خلقه، وهو دون القلم الذي هو العقل في النورية والمرتبة الضيائية، فهو كالزمرّدة الخضراء لانبعاث الجوهر الهبائي الذي في قوّة هذه النفس، فانبعث عن النفس الجوهر الهبائي وهو جوهر مظلم لا نور فيه، وجعل الله مرتبة الطبيعة بين النفس والهباء مرتبة معقولة لا موجودة، ثم بما أعطى الله من وضع الأسباب والحكم ورتب في العالم من وجود الأنوار والظلم لما يقتضيه الظاهر والباطن، كما جعل الابتداء في الأشياء والانتهاء في مقاديرها بأجل معلوم وذلك إلى غير نهاية، فما ثم إلاّ ابتداءات وانتهاءات دائمة من اسمية الأوّل والآخر، فعن تينك الحقيقتين كان الابتداء والانتهاء دائماً فالكون جديد دائماً، فالبقاء السرمدي في التكوين، فأعطى لهذه النفس لما ذكرناه قوّة عملية عن تلك القوّة أوجد الله سبحانه بضرب من التجلي الجسم الكل صورة في الجوهر الهبائي، وما من موجود خلقه الله عند سبب إلاّ بتجلّ إلهيّ خاص لذلك الموجود لا يعرفه السبب، فيتكون هذا الموجود عن ذلك التجلي الإلهيّ والتوجه الرباني عند توجّه السبب لا عن السبب، ولولا ذلك لم يكن ذلك الموجود وهو قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ فلم

يكن للسبب غير النفخ ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٩] فالطائر إنما كان لتوجه أمر الله عليه بالكون وهو قوله تعالىٰ: ﴿كُن﴾ بالأمر الذي يليق بجلاله، فلما أوجد هذا الجسم الأوّل لزمه الشكل إذ كانت الأشكال من لوازم الأجسام، فأوّل شكل ظهر في الجسم الشكل المستدير وهو أفضل الأشكال وهو للأشكال بمنزلة الألف للحروف يعمّ جميع الأشكال، كما أن حرف الألف يعمّ جميع الحروف بمروره هواء من الصدر على مخارجه إلى أن يجوز الشفتين فهو يظهر ذوات الحروف في المخارج، فإذا وقف في الصدر ظهر حرف الهاء والهمزة في أعيانهما عن حرف الألف، فإذا انتقل من الصدر إلى الحلق ووقف في مراتب معينة في الحلق أظهر في ذلك الوقوف وجود الحاء المهملة ثم العين المهملة ثم الخاء المعجمة ثم الغين المعجمة ثم القاف المعقودة ثم الكاف، وأمّا القاف التي هي غير معقودة فهي حرف بين حرفين بين الكاف والقاف المعقودة ما هي كاف خالصة ولا قاف خالصة ولهذا ينكرها أهل اللسان، فأما شيوخنا في القراءة فإنهم لا يعقدون القاف ويزعمون أنهم هكذا أخذوها عن شيوخهم وشيوخهم عن شيوخهم في الأداء إلى أن وصلوا إلى العرب أهل ذلك اللسان وهم الصحابة إلى النبيّ ﷺ كل ذلك أداء، وأما العرب الذين لقيناهم ممّن بقي على لسانه ما تغيّر كبني فهم فإني رأيتهم يعقدون القاف وهكذا جميع العرب، فما أدري من أين دخل على أصحابنا ببلاد المغرب ترك عقدها في القرآن، وهكذا حديث سائر الحروف إلى آخرها وهو الواو وليس وراء الواو مرتبة لحرف أصلاً، وليس للأشكال في الأجسام حدّ ينتهي إليه يوقف عنده لأنه تابع للعدد والعدد في نفسه غير متناه فكذلك الأشكال.

فأوّل شكل ظهر بعد الاستدارة المثلث، ومن المثلث المتساوي الأضلاع والزوايا تمشي الأشكال في المجسمات إلى غير نهاية، وأفضل الأشكال وأحكمها المسدس، وكلما اتسع الجسم وعظم قبل الكثير من الأشكال، ثم أمسك الله الصورة الجسمية في الهباء بما أعطته الطبيعة من مرتبتها التي جعلناها بين النفس والهباء، ولو لم يكن هنالك مرتبتها لما ظهر الجسم في هذا الجوهر ولا كان له فيه ثبوت، فكانت الطبيعة للنفس كالآلة للصانع التي يفتح بها الصور الصناعية في المواد، فظهر الجسم الكل في هذا الجوهر عن النفس بآلة الحرارة، وظهرت الحياة فيه بمصاحبة الحرارة الرطوبة، وثبتت صورته في الهباء بالبرودة واليبوسة وجعله أعني هذا الجسم الكري على هيئة السرير وخلق له حملة أربعة بالفعل ما دامت الدنيا وأربعة أخر بالقوّة يجمع بين هؤلاء الأربعة والأربعة الآخر يوم القيامة فيكون المجموع ثمانية وسماه العرش وجعله معدن الرحمة فاستوى عليه باسمه الرحمن، وجعله محيطاً بجميع ما يحوي عليه من الملك متحيزاً يقبل الاتصال والانفصال وعمر الأينية الظرفية المكانية، وكان مرتبة ما فوقه بينه وبين العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء وهو للاسم الرب، والله هو الاسم الجامع المهيمن على جميع الأسماء الإلهية فصفته المهيمنية وتوحدت الكلمة في العرش فهي أوّل الموجودات التي قبلها عالم الأجسام.

ثم أوجد جسماً آخر في جوهر هذا الهباء، فإن جوهر هذا الهباء هو الذي عمر الخلاء،

فكل ما ظهر من الصور المتحيزة الجسمية والجسمانية فهذا الجوهر هو القابل لها، وإنما قلنا هذا لئلا يتخيل أن الكرسي صورة في العرش وليس كذلك وإنما هو صورة أخرى في الهباء قبلها كما قبل صورة العرش على حدّ واحد ولكن بنسب مختلفة، فسمّى هذا الموجود الآخر كرسياً ودلى إليه القدمين من العرش فانفلقت الرحمة انفلاق الحب فتنوّعت الرحمة في الصفة إلى إطلاق وتقييد فظهرت الرحمة المقيدة وهي القدم الواحدة، وتميزت الرحمة المطلقة بظهور هذه القدم الأخرى، فظهر في هذه القدم انقسام الكلمة الواحدة العرشية التي لم يظهر لها انقسام في العرش إلى خبر وحكم، وانقسم الحكم إلى أمر ونهي، وانقسم الأمر إلى وجوب وندب وإباحة، وانقسم النهي إلى حظر وكراهة، وانقسم الخبر إلى هذه الأقسام وزيادة من استفهام وتقرير ودعاء وإنكار وقصص وتعليم، فتنوعت الألسن وظهرت الملاحن في الكرسي، فظهر تفصيل النغمات التي كانت مجملة في العرش، فهو أوّل طرب ظهر في عالم الأجسام من السماع، ومن هنالك سرى في عالم الأفلاك والسموات والأركان والمولدات.

ثم أوجد الحق أيضاً جسماً آخر مستديراً دون الكرسي في الرتبة وجعله مستديراً فلكياً غير مكوكب قدر فيه سبحانه اثني عشر تقديراً مقادير معينة سمى كل مقدار منها باسم لم يسم به الآخر وهي المعروفة بالبروج وأظهر منها سلطان الطبيعة فجعل منها ثلاثة من اجتماع الحرارة واليبوسة وجعل أحكامها مختلفة وإن كانت على طبيعة واحدة، ولكن المكان المعين من هذا الفلك لما اختلف اختلفت أحكامها من ذلك الوجه، وبما هي على طبيعة واحدة من الحر واليبس اتفقت أحكامها فتعمل بالاتفاق من وجه وبالاختلاف من وجه، ولهذا ظهر عنها الكون والفساد والتغيير والاستحالات، ولست أعني بالفساد الشرور المعتادة عندنا هنا وإنما أعني بالفساد زوال نظم مخصوص يقال فيه فسد ذلك النظام أي زال كما تأكل التفاحة أو تشقها بالسكين إلى أقسام فقد فسد نظامها فذهبت تلك الصورة بظهور صورة أخرى فيها، وعن هذا الفلك يتكوّن جميع ما في الجنة، وعنه يكون الشهوة لأهلها وهو عرش التكوين.

ثم إنّ الله تعالىٰ أوجد في جوف هذا الفلك الأطلس الذي هو محل لهذه الطبائع التي هي آلة النفس العملية فلكاً آخر في جوهر الهباء كما ذكرنا وبالتجلي الإلهيّ كما ذكرنا، إذ لا يكون التكوين إلاّ له سبحانه، وهذا الفلك هو فلك الكواكب الثابتة والمنازل التي يقدر بها تقسيم البروج المقدرة في الأطلس، إذ كان الأطلس متشابه الأجزاء وهي ثمانية وعشرون منزلة وهي: النطح، والبطين، والثريا، والدبران، والهنعة، والهقعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعوّا، والسماك، والغفر، والزبانَى، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرع المقدم، والفرع المؤخر، والرشا، فهذه ثمان وعشرون منزلة معروفة مسماة يحكم لها بطبائع البروج وهي: الحمل، والثور، والجوزاء،

والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. ولهذا الفلك المكوكب أعني فلك المنازل قطع في الفلك الأطلس فلك البروج، وجعل لكل تقدير في فلك البروج منزلتين وثلث من المنازل المذكورة ولمنازله وجميع كواكبه سباحة في أفلاك لها بطيئة لا يحسّ بها البصر إلاً بعد آلاف من السنين، كما ذكر عن أهرام مصر أنها بنيت والنسر في الأسد وهو اليوم في الجدي ونحن في سنة أربع وثلاثين وستمائة، ثم أوجد على سطح هذا الفلك المكوكب الجنة بما فيها بطالع الأسد وهو برج ثابت فلهذا كان لها الدوام، فإن أصحاب هذا الفن قد سمّوا هذه البروج بالأسماء التي ذكرناها ونعتوها بأمور على حسب ما أطلعهم الله عليه من آثارها العجيبة في حركاتها، فعرفوا منها الثابت والمنقلب وذا الجسدين وغير ذلك، وإلى الفلك الأطلس ينتهي علم أهل الأرصاد، وعلى الحقيقة إنما ينتهي إلى المكوكب، فإن حركات الكواكب والكواكب تعين أفلاكها ولولا ذلك ما عرف عددها، وأما الفلك الأطلس فما استدلوا عليه من حيث أدركوه حسّاً كما أدركوا أفلاك الكواكب، وإنما علموا أن هذه الأفلاك لا تقطع إلاً في أمر وجودي فلكي مثلها فأثبتوه عقلاً لا حساً وسمّوه أطلساً لكونه لا كوكب فيه يعينه للحسّ، ويبطل عليهم هذا الدليل بحركة أقصى الأفلاك فإن حركتها موجودة ولا تقطع في شيء عندهم أصلاً، فما يدريك يا صاحب الرصد لعل هذا الفلك المكوكب يقطع في لا شيء، والحكماء لم يمنعوا أن يكون فوق الفلك الأطلس أفلاك أخر، إلاً أن الراصد لم يبلغ إليها لأنه ما ثم ما يدل عليها بل هي في حكم الجواز عندهم لكن قالوا إن كان هنالك فلك فلا بدّ أن يكون له نفس وعقل ومع ذلك لا بدّ من الانتهاء، ومن هذا الفلك وقع الخلاف بيننا وبين الحكماء من الفلاسفة في ترتيب التكوين، وما نازعونا فيما فوق الأطلس الذي هو الكرسي والعرش وقالوا بالجواز فيه.

فترتيب الأمر عندنا بعد الفلك المكوكب ولم يكن مكوكباً عند خلقه، وإنما ظهرت الكواكب بعد هذا فيه وفي غيره من السموات فيها كانت حركة ما ذكرناه من هذه الأفلاك الموجودة الأربعة التي كملت فيها الطبيعة وظهر سلطانها حسّاً بعدما كان معقولاً، فإن المعاني هي أصل الأشياء فهي في أنفسها معان معقولة غيبية، ثم تظهر في حضرة الحسّ محسوسة، وفي حضرة الخيال متخيلة وهي هي إلاً أنها تنقلب في كل حضرة بحسبها كالحرباء تقبل الألوان التي تكون عليها، فأوّل ما أوجد الأرض وهي نهاية الخلاء وهو أقصى الكثائف والظلم وهو نازل إلى الآن دائماً، والخلاء لا نهاية له فإنه امتداد متوهم لا في جسم، فالعالم كله بأسره نازل أبداً في طلب المركز، وهذا الطلب طلب معرفة ومركزه هو الذي يستقرّ عليه أمره فلا يكون له بعد ذلك طلب وهذا غير كائن، فنزوله للطلب دائم مستمرّ وهو المعبر عنه بطلب الحق فالحق هو مطلوبه، وأثر فيه هذا الطلب التجلي الذي حصل له تعشق به فهو يطلبه بحركة عشقية، وهكذا سائر المتحركات إنما حركتها المحبة والعشق لا يصحّ إلاً هذا، ومن لا يعشق ذلك التجلي وهو المنعوت بالجمال والجمال معشوق لذاته، ولولا ما تجلى سبحانه في

صورة الجمال لما ظهر العالم، فكان خروج العالم إلى الوجود بذلك العشق، أصل حركته عشقية واستمر الحال. فحركة العالم دائمة لا نهاية لها، ولو كان ثم أمر ينتهي إليه يسمّى المركز يكون إليه النهاية لسكن العالم بعضه على بعض بالضرورة وبطلت الحركة فبطل الإمداد، فأدّى ذلك إلى فناء العالم وذهاب عينه، والأمر على خلاف هذا، وإنما الناس وأكثر الخلق لا يشعرون بحركة العالم ولأنه بكلّه متحرك، فيبقى الترتيب المشهود من البعد والقرب على حاله، فلهذا الشهود يتخيلون سكون الأرض حول المركز.

ثم أوجد ركن الماء وهو كان الموجود الأوّل من الأركان، وإنما ذكرنا الأرض مقدمة من أجل السفل والماء كان أوّل العناصر. فما كثف منه كان أرضاً وما سخف منه كان هواء، ثم ما سخف منه كان ناراً وهو كرة الأثير، فأصل العناصر عندنا الماء، ووافقنا على ذلك بعض الناس من النظار في هذا الفن، لكن مستندنا الكشف فيما ندّعيه من هذا وغيره من العلوم، وقد تكون تلك العلوم ممّا تدرك بالنظر الفكري، فمن أصاب في نظره وافق أهل الكشف، ومن أخطأ في نظره خالف أهل الكشف، والحكماء في هذه المسألة على ستة مذاهب: خمسة منها خطأ والواحد منها صواب وهو الذي وافق الكشف والتعريف الإلهي لأهل خطابه من ملك ونبي وولي، وكان وجود هذه العناصر ببرج السرطان، وما من برج إلاّ وقد جعل له الله مدة في الولاية معلومة مع المشاركة لغيره في مدته، فلجميعها مدة معلومة عندنا نسميها أعني الجملة عمر العالم، فإذا انتهت المدد عاد الأمر ابتداء على حاله من الدوام، فلا عدم يلحقه أبداً من حيث جوهره، ولا يبقى صورة أبداً زمانين، فالخلق لا يزال والأعيان قابلة للخلع عنها وعليها، فالعالم في كل نفس من حيث الصورة في خلق جديد لا تكرار فيه، فلو شاهدته لرأيت أمراً عظيماً يهولك منظره ويورثك خوفاً على جوهر ذاتك، ولولا ما يؤيد الله أهل الكشف بالعلم لتاهوا خوفاً، فلما حصلت العناصر وهي الأركان الأربعة محلاً مهيئاً أنوثياً لقبول التناسل والولادة وظهرت الاحتراقات من عنصر النار في رطوبات الهواء والماء صعد منها دخان يطلب الأعظم الذي هو الفلك الأعلى الأقصى، فوجد فلك الكواكب يمنعه من الرقي إلى الفلك الأعلى فعاد ذلك الدخان يتموّج بعضه في بعض، فتراكم فريق ففتق الله رتقه بسبع سموات، ثم إنّه تتطايرت الشرر من كرة الأثير في ذلك الدخان فقبلت من السموات من الفلك المكوكب أماكن فيها رطوبات طبيعية فتعلقت بها تلك الشرر فانقدت تلك الأماكن لما فيها من الرطوبات فحدثت الكواكب فأضاء الجوّ كما يضيء البيت بالسراج، ألا ترى القادح للزناد يعلق الشرر الحراق بما فيه من الرطوبة فيتقد فيكون منه المصباح ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: الآية ١٦] يضيء به العالم وتبصر به الأشياء التي كان يسترها الظلام، فحدث الليل والنهار بحدوث كوكب الشمس والأرض، فالليل ظلمة الأرض الحجابية عن انبساط نور الشمس، والكواكب عندنا كلها مستنيرة لا تستمد من الشمس كما يراه بعضهم، والقمر على أصله لا نور له البتة قد محا الله نوره، وذلك النور

الذي ينسب إليه هو ما يتعلق به البصر من الشمس في مرآة القمر على حسب مواجهة الأبصار منه، فالقمر مجلى الشمس وليس فيه من نور الشمس لا قليل ولا كثير.

ثم إن الله رتب في كل فلك وسماء عالماً من جنس طبيعة ذلك الفلك سماهم ملائكة على مقامات فطرهم الله عليها من التسبيح والتهليل وكل ثناء على الله تعالىٰ، وجعل منهم ملائكة مسخرين لمصالح ما يخلقه في عالم العناصر من المولدات وهي ثلاثة عوالم طبيعية، ويسري في كل عالم مولد من هذه الثلاثة من النفس الكلية صاحبة الآلات أرواح هي نفوس هذه المولدات بها تعلم خالقها ومنشئها، وبها سرت الحياة فيها كلها، وبها خاطبها الحق وكلفها وهو رسول الحق إليها وداع كل شخص منه إلى ربه، فما بطنت حياته سمّي جماداً ونباتاً وانفصل هذان المولدان وتميز بالنمو والغذاء، فقيل في النامي منه نبات وفي غير النامي جماد، وما ظهرت حياته وحسّه سمّي حيواناً والكل قد عمته الحياة فنطق بالثناء على خالقه من حيث لا نسمع، وعلمهم الله الأمور بالفطرة من حيث لا نعلم، فلم يبق رطب ولا يابس ولا حار ولا بارد ولا جماد ولا نبات ولا حيوان إلاّ وهو مسبِّح لله تعالىٰ بلسان خاص بذلك الجنس. وخلق الجان من لهب النار والإنسان ممّا قيل لنا، ونفخ الأرواح في الكل وقدّر الأقوات التي هي الأغذية لهذه المولدات من الإنس والجنّ والحيوان البحري والبرّي والهوائي ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] بما أودع الله في حركات هذه الكواكب واقتراناتها وهبوطها وصعودها في بيوت نحوسها وسعودها، وعن حركاتها وحركات ما فوقها من الأفلاك حدثت المولدات، وعن حركات الأفلاك الأربعة حدثت الأركان، وهذا خلاف ما ذهب إليه غير أهل الكشف من المتكلمين في هذا الشأن، فأودع الله في خزائن هذه الكواكب التي في الأفلاك علوم ما يكون من الآثار في العالم العنصري من التقليب والتغيير فهي أسرار إلهية قد جعل الله لها أهلاً يعرفون ذلك ولكن لا على العلم بل على التقريب والأمر في نفسه صحيح، غير أن الناظر من أهل هذا الشأن قد لا يستوفي النظر حقه لأمر فإنه من غفلة أو غلط في عدد ومقدار لم يشعر بذلك فيحكم فيخطىء فوقع الخطأ من نظره لا من نفس الأمر، وقد يوافق النظر العلم فيقع ما يقوله، ولكن ما هو على بصيرة فيه من حيث تعيين مسألة بعينها.

وهذا العلم لا تفي الأعمار بإدراكه فيعلم أصله من النبوات، فكان أوّل من شرع في تعليم الناس هذا العلم إدريس عليه السلام عن الله فأعلمه ما أوحى في كل سماء وما جعل في حركة كل كوكب، وبيّن له اقترانات الكواكب ومقادير الاقترانات وما يحدث عنها من الأمور المختلفة بحسب الأقاليم وأمزجة القوابل ومساقط نطفه في أشخاص الحيوان، فيكون القران واحداً، ويكون أثره في العالم العنصري مختلفاً بحسب الإقليم وما يعطيه طبيعته، فشروطه كثيرة يعلمها أهل ذلك الشأن، فلما أعطتهم الأنبياء الموازين وعلمتهم المقادير علموا ما يحدث الله من الأمور والشؤون في الزمان البعيد، وعن الزمان البعيد الذي لو وكلهم الله فيه إلى نفوسهم بالحكم المعتاد حتى يتكرّر ذلك عليهم تكراراً يوجب القطع عادة، ورب أمر لا يظهر تكراره الذي يوجب القطع الظني به إلاّ بعد آلاف من السنين، فهذا كان سبب التعريف

الإلهيّ على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، فأعلمت الناس بما أوحى الله إليها ما أمن الله عليها هذه الكواكب المسخرة من الحوادث، ولو عرف الجهال المنكرون هذا العلم قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢] لما قالوا شيئاً ممّا قالوه فما علموا تسخيرها وأنها كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢] كما سخّر الرياح والبحار والفلك هكذا سخّر الكواكب وهل في هذه المسخرات من الكواكب والأفلاك والرياح والبحار والدواب وكل مسخر عالم بما هو له مسخر أم لا؟ هذا لا يعرفه إلاّ أهل طريقنا خاصة. حكى القشيري أن رجلاً رأى شخصاً راكباً على حمار وهو يضرب رأس الحمار فنهاه عن ذلك فقال له الحمار: دعه فإنه على رأسه يضرب، فمن عرف الجزاء كيف لا يعرف ما سخر له؟ وقد رأينا من مثل هذا كثيراً من الجمادات والحيوانات وقد طال الكلام وهذا القدر كافٍ في معرفة ترتيب العالم الذي هو أحد أقسام ما يحتوي عليه هذا المنزل من العلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والتسعون ومائتان
في معرفة منزل انتقال صفات أهل السعادة إلى أهل الشقاء في الدار الآخرة من الحضرة الموسوية

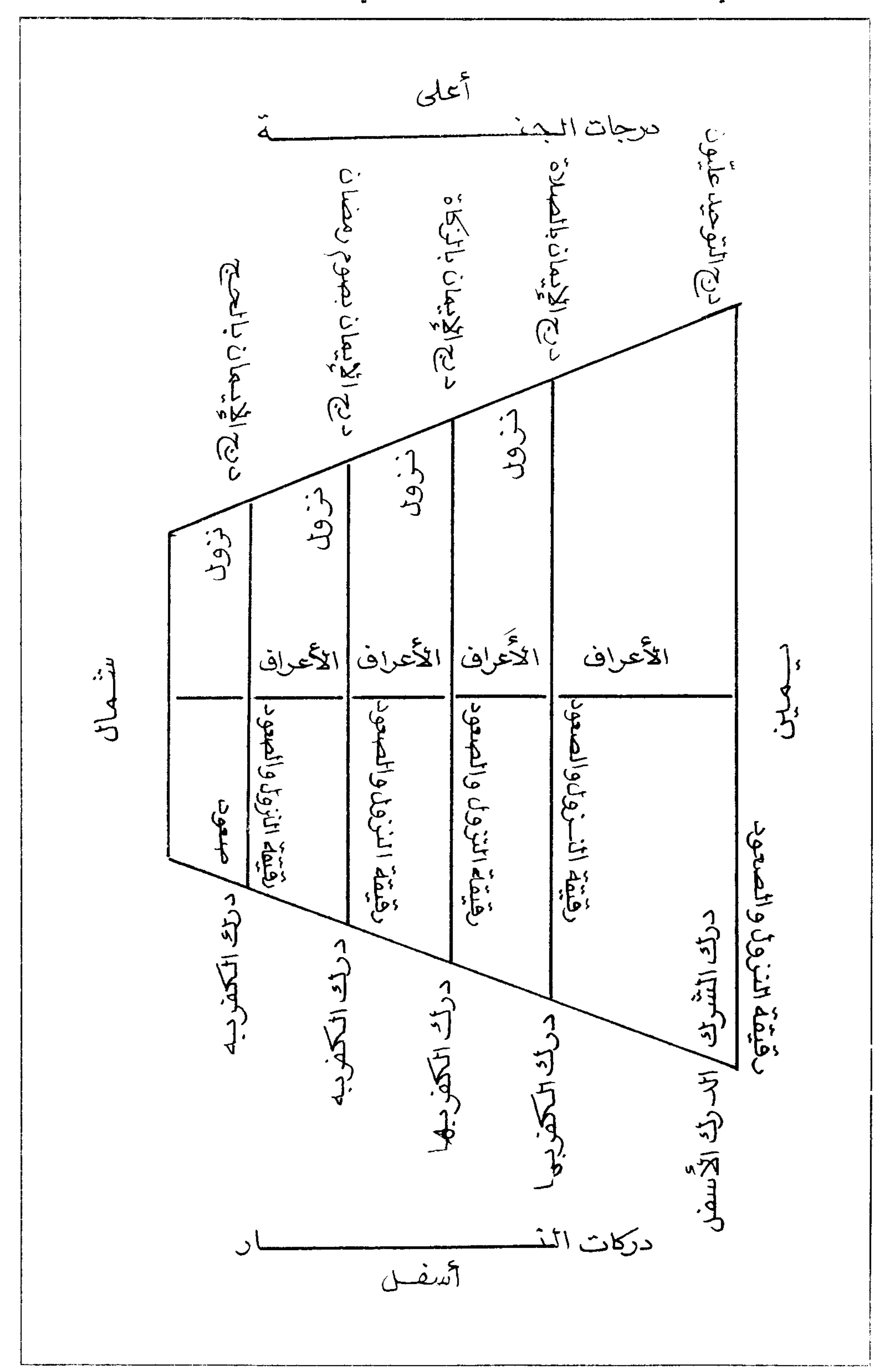
[نظم: الوافر]

غَشِيتُ منازلاً لِمَقام صِدْقٍ ... لها في قلب نازِلِها خُشوعُ
ونارُ الاصْطِلام لها وَقُودٌ ... إذا ما ابتزَّ خِلْعَتَها الضَّجيعُ
وأغْذِيةُ العلوم تَزيد حِرْصاً ... ولا يَفْنى لها عَطَشٌ وجوعُ
ولو طَعِمَ الوجودَ لمات جوعاً ... ويُحْييه الخريفُ أو الربيعُ
بخَلْقٍ ثم صلْبٍ في سطوحٍ ... يُجَلِّيها لرفْعَتِها الرَّفيعُ
فعلِّمْ من تشاءُ بغير قَهْرٍ ... عَسَى وقتاً يكون له رجوعُ

يريد في البيت الخامس قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآية ١٧ ـ ٢٠] يريد الاعتبار في ذلك. اعلم وفقنا الله وإياك أن درجات الجنة على عدد دركات النار، فما من درج إلاّ ويقابله درك من النار، وذلك أن الأمر والنهي لا يخلو الإنسان إما أن يعمل بالأمر أو لا يعمل، فإن عمل به كانت له درجة في الجنة معينة لذلك العمل خاصة وفي موازنة هذه الدرجة المخصوصة لهذا العمل الخاص إذا تركه الإنسان درك في النار لو سقطت حصاة من تلك الدرجة في الجنة لوقعت على خط استواء في ذلك الدرك من النار، فإذا سقط الإنسان من العمل بما أمر فلم يعمل كان ذلك الترك لذلك العمل عين سقوطه إلى ذلك الدرك قال تعالىٰ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥٥] فالاطلاع على الشيء من أعلى إلى أسفل، والسواء حد الموازنة على الاعتدال، فما رآه إلاّ في ذلك الدرك

الذي في موازنة درجته، فإن العمل الذي نال به هذا الشخص تلك الدرجة تركه هذا الشخص الآخر الذي كان قرينه في الدنيا بعينه، فانظر إلى هذا العدل الإلهيّ ما أحسنه وهما الرجلان اللذان ذكرهما الله في سورة الكهف المضروب بهما المثل وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٣٢] إلى آخر الآيات في قصتهما في الدنيا، وذكر في الصافات حديثهما في الآخرة في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥١، ٥٢] وفيها ذكر المعاتبة وفي قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥٦] لما اطلع عليه ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٥٥] وهو قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٠].

وورد في الأخبار الإلٰهية الصحاح عن رسول الله ﷺ عن ربه عزّ وجلّ فيما يقوله لعبده يوم القيامة: «**أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيّ**» فَلْنُمَثِّل لَكَ مِنهَا الأُمَّهاتِ التّي بُنِيَ الإِسْلامَ عَلَيْهَا وَهِيَ خَمْسَةٌ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهَ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَحجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ بِهَا كلِّها فَسَعِدَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهَا كُلّها فَشَقِيَ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِهَا وَكَفرَ بِبَعْضِهَا فَهُوَ مُلْحَقٌ بالكَافِرِ إِلْحَاقَ حَقٍّ وهكذا جميع الأوامر والنواهي التي تقتضيها فروع الشريعة في جميع حركات الإنسان وسكونه في الإيمان بالحكم المشروع فيها والكفر والعمل المشروع فيها بظاهر الإنسان المكلف وباطنه وترك العمل ويحصر ذلك عقد وقول وعمل، وفي مقابلته حل وصمت وترك عمل. هذه مقابلة من وجه في حق قوم ومقابلة أخرى في حق قوم، أو هذا الشخص بعينه وهو عقد مخالف لعقد وقول يخالف قولاً وعمل مخالف لعمل، إذ كان لا يلزم من صاحب الحل أن يكون قد عقد أمراً آخر، فإن الحل إنما متعلقه ذلك العقد الإيماني بذلك المعقود عليه فأسقطه المعطل فلم يرتبط بعقد آخر، وشخص آخر عقد على وجود الشريك لله فحل من عنقه عقد حبل التوحيد وعقد حبل التشريك، فلهذا فصلنا الأمر على ما يكون عليه في الدار الآخرة موازناً لحالة الدنيا، وهذا صورة الشكل في الأمّهات، وعليها نأخذ جميع المأمور بها والمنهي عنها من العمل بالمأمور والقول به والإيمان به وترك ذلك حلاً وعقداً في الكل أو في البعض، وكذلك المنهي عنها من العمل به والقول به والعقد عليه وترك ذلك حلاً وعقداً للكل والبعض صورة درج الجنة ودرك النار والأعراف وهو السور الذي باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، والرقائق النازلة والصاعدة، وضعناها لك لتتصوّرها في ذهنك إن كنت بعيد الفهم، والله المعين لا ربَّ غيره.


أعلى
درجات الجنة
درج التوحيد عليون
شمال
يمين
الأعراف
الأعراف
الأعراف
الأعراف
نزول
نزول
نزول
نزول
نزول
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
رقيقة النزول والصعود
صعود
درك الشرك
الدرك الأسفل
درك الكفر به
درك الكفر به
دركات النار
أسفل

وهكذا درج العمل بالأمر والنهي ودرك ترك العمل بهما ودرج القول بالأمر والنهي ودرك تركهما عقداً وحلاً كلاً وبعضاً، وهكذا مناسبات الجزاء كلها لا تختل، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وقال: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤] وقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٣٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٩] وقال في الجزاء: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٣٤] ثم بيّن فقال: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٣٦] فعمّ بالألف واللام ورد الفعل عليهم. وقال تعالىٰ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] ولهذا سمّي: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٦] ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان جزاء، وقد ورد في المتكبرين أنهم يحشرون كأمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم صغاراً لهم وذلّة ولتكبرهم على أوامر الله، فالجنة خير لا شرّ فيها والنار شرّ لا خير فيها، فجميع علم المشرك وعمله وقوله الذي لو كان موحداً جوزي عليه في الجنة بحسبه يعطي ذلك الجزاء للموحد الجاهل بذلك الأمر والعلم المفرط في ذلك العمل التارك لذلك القول والجزاء عليه الذي لو كان مشركاً لحصل له في النار يعطى لذلك المشرك الذي لا حظ له في الجنة، فإذا رأى المشرك ما كان يستحقه لو كان سعيداً يقول: يا رب هذا لي فأين جزاء عملي الذي هذا جزاؤه؟ فإن الأعمال بمكارم الأخلاق والتحريض عليها الذي هو القول يقتضي جزاء حسناً وقع ممّن وقع، فيقول الله له: لما عملت كذا، ويذكر له ما عمل من مكارم الأخلاق والقول بها والعمل بمواقعها، قد جازيتك على ذلك بما أنعمت به عليك من كذا وكذا، فيقرّر عليه جميع ما أنعمه عليه جزاء لا نعمة في خلقه المبتدأة التي ليست بجزاء فيزنها المشرك هنالك بما قد كشف الله من علم الموازنة فيقول صدقت، فيقول الله له: فما نقصتك من جزائك شيئاً والشرك قطع بك عن دخول دار الكرامة فتنزل فيها على موازنة هذه الأعمال ولكن انزل على درجات تلك الأعمال فإن صاحبها منعه التوحيد أن يكون من أهل هذه الدار، فهذا هو من الميراث الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ونذكر الكلام في هذا الفصل في باب الجنة والنار من هذا الكتاب، فهذا هو الانتقال الذي بين أهل السعادة وأهل الشقاء، فإن المؤمن هنا في عبادة والعبادة تعطيه الخشوع والذلة والكافر في عزّة وفرحة، فإذا كان في هذا اليوم يخلع عزّ الكافر وسروره وفرحه على المؤمن، ويخلع ذل المؤمن وخشوعه الذي كان لباسه في عبادته في الدنيا على الكافر يوم القيامة قال تعالىٰ: ﴿خَشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٥] فإن هذا النظر هو حال الذليل لا يقدر يرفع رأسه من القهر، وذلك الخشوع من الكافر يوم القيامة والذلة والنظر المنكسر الذي لا يرفع بسببه رأسه إنما هو لله تعالىٰ خوفاً منه، وهذا كان حال المؤمن في الدنيا لخوفه من الله، فذلك يوم التغابن حيث يرى الإنسان صفة عزّه وسروره وفرحه على غيره، ويرى ذلّ غيره وغمّه وحزنه على نفسه، فالحكم لله العليّ الكبير.

ويتضمن هذا المنزل من العلوم علم سؤال الحق عباده السعداء عن مراتب الأشقياء

بأيّ اسم يسأل، وعلم المناسبات، وعلم ما تعطيه الأفكار، وعلم الكيفيات وهو على ضربين: ضرب منه لا يعرف إلاَّ بالذوق، وضرب منه يدرك بالفكر وهو من باب التوسع في الخطاب لا من باب التحقق، فإن التحقق بعلم الكيفيات إنما هو ذوق، ولقد نبهني الولد العزيز العارف شمس الدين إسماعيل بن سودكين النوري على أمر كان عندي محققاً من غير الوجه الذي نبهنا عليه هذا الولد ذكرناه في باب الحروف من هذا الكتاب وهو التجلي في الفعل هل يصحّ أو لا يصحّ؟ فوقتاً كنت أنفيه بوجه، ووقتاً كنت أثبته بوجه يقتضيه ويطلبه التكليف، إذ كان التكليف بالعمل لا يمكن أن يكون من حكيم عليم يقول: اعمل وافعل لمن يعلم أنه لا يعمل ولا يفعل إذ لا قدرة له عليه، وقد ثبت الأمر الإلهيّ بالعمل للعبد مثل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٠٠] ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] فلا بدّ أن يكون له في المنفعل عنه تعلق من حيث الفعل فيه يسمّى به فاعلاً وعاملاً، وإذا كان هذا فبهذا القدر من النسبة يقع التجلي فيه، فبهذا الطريق كنت أثبته وهو طريق مرضي في غاية الوضوح يدل أن القدرة الحادثة لها نسبة تعلق بما كلفت عمله لا بدّ من ذلك، ورأيت حجة المخالف واهية في غاية من الضعف والاختلال، فلما كان يوماً فاوضني في هذه المسألة هذا الولد إسماعيل بن سودكين المذكور فقال لي: وأيّ دليل أقوى على نسبة الفعل إلى العبد وإضافته إليه والتجلي فيه إذ كان من صفته من كون الحق خلق الإنسان على صورته، فلو جرّد عنه الفعل لما صحّ أن يكون على صورته ولما قبل التخلّق بالأسماء، وقد صحّ عندك وعند أهل الطريق بلا خلاف أن الإنسان مخلوق على الصورة وقد صحّ التخلّق بالأسماء فلم يقدر أحد أن يعرف ما دخل عليّ من السرور بهذا التنبيه، فقد يستفيد الأستاذ من التلميذ أشياء من مواهب الحق تعالىٰ لم يقض الله للأستاذ أن ينالها إلاَّ من هذا التلميذ، كما نعلم قطعاً أنه قد يفتح للإنسان الكبير في أمر يسأله عنه بعض العامة ممّا لا قدر له في العلم ولا قدم، ويكون صادق التوجه في هذا العلم المسؤول عنه، فيرزق العالم في ذلك الوقت لصدق السائل علم تلك المسألة، ولم تكن عنده قبل ذلك عناية من الله بالسائل، وتضمنت عناية الله بالسائل أن حصل للمسؤول علماً لم يكن عنده، ومن راقب قلبه يجد ما ذكرناه، فالحمد لله الذي استفدنا من أولادنا مثل ما استفاده شيوخنا منا أموراً كانت أشكلت عليهم، ويتضمن هذا المنزل علم التبليغ عن الله إلى خلقه من رسول ونبي ووارث، ويتضمن علم السياسة في التعليم بباب اللطف من حيث لا يشعر المطلوب بذلك، ويتضمن علم الجزاء المطلق والمقيد، فالمطلق مجازاة العبد ربه مثل الشكر على المنعم، ومجازاة الله العبد مثل المزيد فيما وقع عليه الشكر من العبد، والمجازاة المقيدة هي جزاء الله العبد في الدار الآخرة فإنها ليست بدار تكليف قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ في موطن التكليف وهو الدنيا ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] في الدارين معاً دنيا وآخرة، وهذا القدر كافٍ في هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والتسعون ومائتان في معرفة منزل ثناء تسوية الطينة الإنسية في المقام الأعلى من الحضرة المحمدية

[نظم: الوافر]

تـنـزَّهْ أيـهـا الـخَـلْـقُ الـمُـسَـوَّى ... عـلـى صـفـة الـمُـسَـوَّى بـالـسَّـوَاءِ
ولا تـنـظُـرْ إلـى مـا حَـالَ مـنـه ... وجـاء بـه الـرَّسـولُ مـن الـسـمـاءِ
فـإن خـفـتَ الـرَّجَـا أيّـدتَ فـيـه ... بـمـا تُـعـطـيـه مَـأْمَـنَـةُ الـرَّجـاءِ
سُـلَـيْـمـانـيَّـةٌ وقـفَـتْ أمـامـي ... أقـيـمُ بـهـا رُخَـاءً مـن رُخَـاءِ
وقـفـتُ عـلـى الـصَّـفَـا أغـنـو لـسرٍّ ... إلـهـيٍّ بـمَـنْـزلـةِ الـصَّـفـاءِ
وعـانَـقْـتُ الـغـزالـةَ فـي سَـنَـاهـا ... لأعـلـو فـوقَ مَـنْـزلـةِ الـسّـهَـاءِ
وجـاوزْتُ الـعـقـولَ بـغـيـر حـدٍّ ... وخضْتُ حَيَا النفوسِ على حَياءِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فما من صورة في العالم ـ وما في العالم إلاَّ صور ـ إلاَّ وهي مسبحة خالقها بحمد مخصوص ألهمها إياه، وما من صورة في العالم تفسد إلاَّ وعين فسادها ظهور صورة أخرى في تلك الجواهر عينها مسبحة لله تعالىٰ حتى لا يخلو الكون كله عن تسبيح خالقه، فتسبحه أعيان أجزاء تلك الصورة بما يليق بتلك الصورة، والصور التي في العالم كلها نسب وأحوال لا موجودة ولا معدومة، وإن كانت مشهودة من وجه ما فليست بمشهودة من وجه آخر، وعين زمان فناء تلك الصور عين زمان وجود تلك الصور أي عين فسادها هو عين الأخرى لا أنه بعد الفساد تحدث الأخرى.

واعلم إذا علمت هذا أن العالم كله ما عدا الإنس والجان مستوفى الكشف لما غاب عن الإحساس البشري، فلا يشاهد أحد من الجن والإنس ذلك الغيب إلاَّ في وقت خرق العوائد لكرامة يكرمه الله بها أو خاصية أمر ما من الأمور التي تعطي كشف الغيوب، كما أن كل جماد ونبات وحيوان في العالم كله وفي عالم الإنسان والجن وأجسام الملائكة والأفلاك وكل صورة يدبرها روح محسوساً كان ذلك التدبير فيمن ظهرت حياته أو غير محسوس فيمن بطنت حياته كأعضاء الإنسان وجلوده وما أشبه ذلك، كل هؤلاء في محل كشف الغيوب الإلهية المستورة عن الأرواح المدبرة لهذه الأجسام من ملك وإنس وجن لا غير فإنها محجوبة عن إدراك هذا الغيب الإلهيّ إلاَّ بخرق عادة في بعضهم أو في كلهم، وقد عرفت أن الحجر والحيوان والنبات عرف من هذا الباب نبوّة محمد ﷺ وهو من الغيوب الإلهية فيجهل كل روح مثل هذا إلاَّ أن يعرفه الله به إلاَّ من ذكرناهم فإنهم يعرفونه بالفطرة التي فطرهم الله عليها، إذا ظهرنا داهم الحق به في ذواتهم باسمه وإذا حضر بعينه. أخبرني يوسف بن يخلف الكومي من أكبر من لقيناه في هذا الطريق سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله قال: أخبرني موسىٰ السرداني وكان من الأبدال المحمولين قال: لما مشيت أنا ورفيقي إلى الجبل المسمّى قاف وهو جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض وقد خلق الله حية على شاطىء ذلك البحر بين البحر والجبل دارت بجسمها بالبحر المحيط إلى أن اجتمع رأسها بذنبها فوقفنا عندها فقال لي صاحبي:

سلم عليها فإنها ترد عليك، قال موسىٰ: فسلمت عليها فقالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قالت لي: كيف حال الشيخ أبي مدين؟ وكان أبو مدين ببجاية في ذلك الوقت فقلت لها: تركته في عافية وما علمك به؟ فتعجبت وقالت: وهل على وجه الأرض أحد لا يحبه أو يجهله؟ إنه والله مذ اتخذه الله ولياً نادى به في ذواتنا وأنزل محبته إلى الأرض في قلوبنا، فما من حجر ولا مدر ولا شجر ولا حيوان إلاّ وهو يعرفه ويحبه، فقلت لها: والله لقد ثم أناس يريدون قتله لجهلهم به وبغضهم فيه، فقالت: ما علمت أن أحداً يكون على هذه الحال فيمن أحبه الله .

فهذا من ذلك الباب، ومنه شهادة الأيدي والأرجل والجلود والأفواه والألسنة التي هي في نظرنا خرس هي ناطقة في نفس الأمر، فكل مخلوق ما عدا بني آدم في مقام الخشوع والتواضع إلاّ الإنسان فإنه يدعي الكبرياء والعزّة والجبروت على الله تبارك وتعالىٰ، وأما الجن فتدعي ذلك على من دونها في زعمها من المخلوقين كاستكبار إبليس من حيث نشأته على آدم عليه السلام ولذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦١] لأنه رأى عنصر النار أشرف من عنصر التراب وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فلم يتكبر على الله عزّ وجلّ، فاختصّ الإنسان وحده من سائر المخلوقات بهذه الصفة، فلما حصلت مثل هذه الدعوى في الوجود وتحققت من المدعى في نفسه وفيمن اعتقد ذلك فيه مثل فرعون ومن استخف من قومه جعل الله في الوجود أفعل من كذا بمعنى المفاضلة كالمقرر لتلك الدعوى والمثبت لها فقال: الله أكبر، فأتى بلفظة افعل. وقال ﷺ: «**الله أعْلَى وأجَلّ**»، فأتى بأفعل، فكل أفعل من كذا المنعوت به جلال الله فسببه مشاركة الدعوى في تلك الصفة لكن منها محمود ومذموم، فالمذموم ما ادّعاه فرعون والمحمود مثل قوله تعالىٰ عن نفسه أنه ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٤] ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] فأتى بأفعل وأثنى على الرحماء من عباده بأن جعل نفسه أرحم منهم بخلقه. وأما تقريره العام فإن الرحمة منهم حقيقة أوجدها فيهم فتراحموا بها، وأوجد الكبرياء في الإنسان بالصورة فتكبر به. فإن قلت: إذا ورد أفعل فليس هو المقصود به أفعل من. قلنا: فالله يقول: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] وهو هنا أفعل من بلا شك، وكذلك في حق الإنسان قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥٠] فكل موجود فهو على التقويم الذي يعطيه خلقه، وقال في الإنسان إنه خلقه في أحسن تقويم أي التقويم الذي خلقه عليه أفضل من كل تقويم، وما صحّت له هذه الصفة التي فضل بها على غيره إلاّ بكونه خلقه الله على صورته.
فإن قلت: فهذا التغيير الذي يطرأ على الإنسان في نفسه وصورة الحق لا تقبل التغيير. قلنا: الله يقول في هذا المقام: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقال ﷺ: «**فرغ ربك**» وقال: يتجلى في أدنى صورة، ثم يتحوّل عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوه فيها بالعلامة التي يعرفونها فقد أضاف إلى نفسه هذا المقام وهو العلي عن مقام التغيير بذاته والتبديل، ولكن التجليات في المظاهر الإلهية على قدر العقائد التي تحدث للمخلوقين مع

الآنات تسمّى بهذا المقام، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه وكذلك هو فيصحّ ما ذكرناه ويرتفع الاعتراض الوهمي تعالى الله علواً كبيراً.

وممّا يتضمن هذا المنزل من العلوم علم أسماء الأسماء وأن نها من الحرمة ما للمسمى بأسمائها، فالحروف المرقومة في الصحف أعيان كلام يفهم منها كلام الله الذي هو موصوف به ولماذا يرجع ذلك الوصف علم آخر اختلف الناس فيه ولا حاجة لنا في الخوض في ذلك، فالحق سبحانه من كونه متكلماً يذكر نفسه بأسمائه بحسب ما ينسب إليه الكلام الذي لا تكيف نسبته، ولتلك الأسماء أسماء عندنا في لغة كل متكلم، فيسمّى بلغة العرب الاسم الذي سمّى به نفسه من كونه متكلماً الله، وبالفارسية خداي، وبالحبشية واق، وبلسان الفرنج كربطور، وهكذا بكل لسان. فهذه أسماء تلك الأسماء وتعددت لتعدد النسب فهي معظمة في كل طائفة من حيث ما تدل عليه، ولهذا نهينا عن السفر بالمصحف إلى أرض العدو وهو خط أيدينا أوراق مرقومة بأيدي المحدثات بمداد مركب من عفص وزاج، فلولا هذه الدلالة لما وقع التعظيم لها ولا الحقارة ولهذا يقال: كلام قبيح وكلام حسن في عرف العادة وفي عرف الشرع وأمثال ذلك وسببه مدلول هذه الألفاظ في الاصطلاح والوضع، وهذا علم شريف لا يدركه سوى أهل الكشف على ما هو الأمر عليه، فليس بأيدينا سوى أسماء الأسماء، فإذا وقع التنزيه لأسماء الأسماء فتنزيه العبد الكامل أولى بالحرمة لأجل الصورة ولا سيما الوجه، إذ كان الوجه أشرف ما في ظاهر الإنسان لكونه حضرة جميع القوى الباطنة والظاهرة، ووجه كل شيء ذاته. مرّ رسول الله ﷺ على رجل وهو يضرب وجه غلام له فقال له رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ الوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وهو محل الإقبال على الله دون غيره من الجهات فهي الجهة العظمى.

ومن علوم هذا المنزل العلم بالفرق بين الخلق والتقدير، فالتقدير متعلق الاسم المدبر والمفصل لا غيرهما من الأسماء وقد قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وكلا الإسمين تحت حيطة الاسم العالم ولا دخول للاسم القادر في هذه الحضرة، فإن هذه الأسماء الثلاثة راجعة إلى ذات الحق، ولا يكون الحق مقدوراً لنفسه فلا حكم للاسم القادر هنا، فالاسم المقدر هو المعتبر في هذه المرتبة، والخلق يطلب الاسم القادر عقلاً ويطلب الاسم القائل كشفاً وشرعاً، وإنما قلنا كشفاً ليفرق في ذلك بين الوليّ والنبيّ، لأن كل واحد من هذين الرجلين يقول بهذا بخلاف ما يعطيه النظر الفكري للعقل بدليله، فكما تميّز الاسم القادر من المقدر لفظاً ومعنى كذلك تميز الخلق من التقدير لفظاً ومعنى، فبالتقدير يقع البيان في صور الموجودات على اختلاف ذواتها حسيّة كانت أو معنوية من عالم الحروف الرقمية أو اللفظية أو الفكرية، ومن عالم الأعيان القائمة بأنفسها، ومن عالم الأعيان التي لا تقوم بأنفسها، ويدخل في ذلك عالم النسب فبما في هذه الأعيان من التسوية لذوات أشخاصها في عالم الغيب والشهادة يكون خلقاً، ولا يدخل في هذا عالم النسب لأنها ليست أعياناً وجودية، ولا تتصف بالعدم المطلق لكونها معقولة وبما فيها كلها من التمييز الذي يتضمنه أعيانها عقلاً

كان أو حساً يكون للتقدير لا للخلق، فإذا ظهر عين ما ذكرناه من كل عالم للحسّ أو للعقل عن الاسم الخالق أو المدبر المفصل والمقدر علّق نفع بعضه ببعض فنفعت الأعيان بعضها بعضاً ودعاهم الحق إليه من خلف ستر هذه الأعيان عند توجه بعضها لبعض بالمنافع، فيدعو كل صورة من كل صورة إليه، فمنا من يشعر فيعرف من دعاه، ومنا من يلتبس عليه ذلك ولا يعرف كيف الأمر ويجد في نفسه قوّة الفرقان ولا يبدو له وجه الفرقان، ومنا من لا يلتبس عليه ذلك ويكون أعمى مكفوف البصر أكمه فيقول ما ثم إلاّ ما نشاهد وهي أعيان هذه الصور، فنحن ثلاثة أصناف: صنف سليم النظر حديد الطرف، وصنف قام به غشاء في عينيه فلا يتحقق الصور مع معرفته أن ثم أمراً ما ولكن لا يحقق صورته، ومنا من هو أكمه ما أبصر شيئاً قط فهو مستريح الخاطر، وما ثم صنف رابع.

وتختلف منافع هذه الصور باختلاف القوابل والسائلين، وكل سائل يسأل بحسب حاجته وغرضه، وقد يكون ضرورياً وقد لا يكون، وعلى الحقيقة ما ثم إلاّ ضروري ولهذا يتعين العطاء، فإن السائل ما يسأل إلاّ لغرض أحوجه ذلك الغرض إلى السؤال، فالغرض هو السائل واللسان بالحال أو بالمقال هو المترجم عن ذلك الغرض، وليس لذلك الغرض حياة إلاّ بتحصيل ما سأل فيه، فإن لم ينله هلك، فكان المانع له ممّا سأل فيه كان سبب زوال صورته من العالم، فنقص بمنعه صورة من العالم كانت مسبحة لله تعالىٰ، والمحقق يريد أنه لا زاد ولا ينقص، والأغراض قد تكون مذمومة، وإذا مكنت ممّا تطلبه وقع الإنسان في محظور أشد من قتل هذا الغرض بما منع من سؤاله وكيف التخلص في هذه المسألة، فاعلم أنه لا يخاطب بقضاء الأغراض على الإطلاق من هو مقيد معقول في قبضة عقل التكليف، وإنما هذا المقام لأصحاب الأحوال المغلوب على عقولهم. فإن قلت: فالحفظ أحسن كما قال الإمام في وله الشبلي حين قيل له إنه يرد في أوقات الصلوات فإذا فرغ حكم عليه حال الوله وحال بينه وبين عقله الذي يعطيه الصحو، فقال الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب ولم يضف إليه الذنب، ولكن يتعلق به لسان الذنب من حيث الصورة عند من لا يعرفه وهو في نفس الأمر غير مذنب، قال بعض أصحابنا: فلولا أن التنزّه عن جريان لسان الذنب أولى وأعظم لما حمد الله على ذلك هذا الإمام. قلنا: ليس الأمر كما زعمت وأن هذا الإمام خاف على من لم يبلغ هذه الرتبة أن يظهر بها وهو غير محقق بها فيخطىء فيقع في الذنب ولهم الشفقة على العالم، وإما أن يكون من طريق الأفضلية، وكيف يكون ذلك وقد أطلق سبحانه ألسنة عباده عليه وعلى رسله بالذم والسب، فلصاحب هذا الوله فيمن ذكرنا أسوة وعزّ فليس في ذلك فضل عندنا.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم الرحمة التي أبطنها الله في النسيان الموجود في العالم وأنه لو لم يكن لعظم الأمر وشقّ وفيما يقع فيه التذكّر كفاية، وأصل هذا وضع الحجاب بين العالم وبين الله في موطن التكليف، إذ كانت المعاصي والمخالفات مقدرة في علم الله فلا بدّ من وقوعها من العبد ضرورة، فلو وقعت مع التجلي والكشف لكان مبالغة في قلة الحياء من الله

حيث يشهده ويراه والقدر حاكم بالوقوع فاحتجب رحمة بالخلق لعظيم المصاب، ألا تراهم في الأمور المدبرة بالعقل الجارية على السداد العقلي إذا أراد الله إمضاء قضائه وقدره في أمر ما أخفى في ذلك الأمر حكمته وعلمه الذي أجراه له ممّا لا يقتضيه نظر العقل، فإذا أمضاه ردَّ عليهم عقولهم ليعلموا أن الله قد رحمهم بزوال العقل في ذلك الحين لرفع المطالبة، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ نَفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى إِذَا أَمْضَى فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبِرُوا**» وقال ﷺ: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ فَلاَ يُؤَاخِذُهُم اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ**» فأما في الآخرة فمجمع عليه من الكل، وأما في الدنيا فأجمعوا على رفع الذنب، واختلفوا في الحكم وكذلك في الخطأ على قدر ما شرع الشارع في أشخاص المسائل، فمن أفطر ناسياً في رمضان فطائفة أوجبت القضاء عليه مع رفع الإثم، وقوم لم يوجبوا القضاء عليه مع ارتفاع الإثم أيضاً فإن الله أطعمه وسقاه، هذا قول الشارع فيه، فهذا من الرحمة المبطونة فيه أعني في النسيان، وكذلك ما نسي من القرآن ولم يتذكر فينقل إلينا فيكون زيادة علينا في التكليف فرحم عباده بذلك، وقد كان ﷺ يقول: «**اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ**» وقال: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ - للسَّائِلِ عَنِ الحَجِّ فِي كُلِّ عَامٍ - لَوَجَبَتْ**» وكانت الأحكام تحدث بحدوث السؤال عن النوازل، فكان غرض النبيّ ﷺ حين علم ذلك أن يمتنع الناس عن السؤال ويجرون مع طبعهم حتى يكون الحق هو الذي يتولى من تنزيل الأحكام ما شاء، فكانت الواجبات والمحظورات تقل وتبقى الكثرة في قبيل المباحات التي لا يتعلق بها أجر ولا وزر، فأبت النفوس قبول ذلك وأن تقف عند الأحكام المنصوص عليها فأثبتت لها عللاً وجعلتها مقصودة للشارع وطردتها وألحقت المسكوت عنه في الحكم بالمنطوق به بعلة جامعة بينهما اقتضاها نظر الجاعل المجتهد، ولو لم يفعل لبقي المسكوت عنه على أصله من الإباحة والعافية، فكثرت الأحكام بالتعليل وطرد العلة والقياس والرأي والاستحسان: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] ولكن بحمد الله جعل الله في ذلك رحمة أخرى لنا لولا أن الفقهاء حجرت هذه الرحمة على العامّة بإلزامهم إياها مذهب شخص معين لم يعينه الله ولا رسوله، ولا دلّ عليه ظاهر كتاب ولا سنّة صحيحة ولا ضعيفة، ومنعوه أن يطلب رخصة في نازلته في مذهب عالم آخر اقتضاه اجتهاده وشدّدوا في ذلك وقالوا هذا يفضي إلى التلاعب بالدين وتخيّلوا أن ذلك دين وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**» فالرخص ممّا تصدق الله بها على عباده.

وقد أجمعنا على تقرير حكم المجتهد وعلى تقليد العامي له في ذلك الحكم لأنه عنده عن دليل شرعي سواء كان صاحب قياس أو غير قائل به، فتلك الرخصة التي رآها الشافعي في مذهبه على ما اقتضاه دليله قد قرّرها الشرع، فيمنع المفتي من المالكية المالكي المذهب أن يأخذ برخصة الشافعي التي تعبده بها الشارع، وإنما أضفناها إلى الشارع لأن الشرع قرّرها بمنعه ممّا يقتضيه الدليل في الأخذ به بأمر لا يقتضيه الدليل الذي لا أصل له، وهو ربط الرجل نفسه بمذهب خاص لا يعدل عنه إلى غيره ويحجر عليه ما لم يحجر الشرع عليه، وهذا من

أعظم الطوام وأشق الكلف على عباد الله، فالذي وسع الشرع بتقرير حكم المجتهدين من هذه الأمة ضيقة عوام الفقهاء. وأما الأئمة مثل أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل والشافعي فحاشاهم من هذا ما فعله واحد منهم قط ولا نقل عنهم أنهم قالوا لأحد اقتصر علينا ولا قلّدني فيما أفتيتك به بل المنقول عنهم خلاف هذا رضي الله عنهم.

وممّا يتضمنه هذا المنزل الفرق بين تعلّق علمه سبحانه بما يسره العبد في نفسه وبين ما يبديه ويظهره، وهل يرجع ذلك إلى نسبة واحدة أونسبتين؟ ويتعلق بهذا الباب ما يريده الحق بقوله تعالىٰ: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُمْ**» فهاتان حالتان في الذكر والعلم، فاعلم أن للحق سبحانه غيباً ومظهراً، فبما هو غيب له الاسم الباطن وهو ذكره عبده في نفسه وعلمه بما يسرّه، ومع ذلك الاسم يكونُ سر العبد الذي يعلمه الحق وذكر النفس الذي يذكر العبد به ربه وبما له المظهر من الاسم الظاهر وهو ذكره تعالىٰ عبده في ملأ من ملائكته أو ملأ الأسماء الإلهية، وعلمه بما يبديه العبد في عالم الشهادة، ومع ذلك الاسم يكون علانية العبد التي يعلمها الحق وذكر العلانية التي يذكر العبد به ربه. وأما العلم بما هو أخفى من السر فهو ما لا يعلمه إلاّ الله وحده لا علم لهذا العبد به ولا يمكن أن يعلمه إلاّ الله وهو علمه بنفسه، وما عدا هذا العلم فهو إما علم سرّ أو علم علانية، فمتعلق العلم ثلاثة أشياء: الجهر والسرّ وما هو أخفى من السرّ، ومتعلق الذكر أمران: ذكر الملأ وهو نوعان: ملأ الأسماء وملأ الملائكة، والأمر الآخر ذكر النفس فتساوى الذكر مع العلم في التقسيم.

وممّا يتضمن هذا المنزل كون الإنسان قد أودع الله فيه علم كل شيء ثم حال بينه وبين أن يدرك ما عنده ممّا أودع الله فيه، وما هو الإنسان مخصوص بهذا وحده بل العالم كله على هذا، وهو من الأسرار الإلهيّة التي ينكرها العقل ويحيلها جملة واحدة وقرّبها من الذوات الجاهلة في حال علمها قرب الحق من عبده وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ومع هذا القرب لا يدرك ولا يعرف إلاّ تقليداً، ولولا إخباره ما دل عليه عقل، وهكذا جميع ما لا يتناهى من المعلومات التي بعلمها هي كلها في الإنسان وفي العالم بهذه المثابة من القرب وهو لايعلم ما فيه حتى يكشف له عنه مع الآنات، ولا يصحّ فيه الكشف دفعة واحدة لأنه يقتضي الحصر، وقد قلنا إنه لا يتناهى، فليس يعلم إلاّ شيئاً بعد شيء إلى ما لا يتناهى، وهذا من أعجب الأسرار الإلهية أن يدخل في وجود العبد ما لا يتناهى كما دخل في علم الحق ما لا يتناهى من المعلومات وعلمه عين ذاته، والفرق بين تعلّق علم الحق بما لا يتناهى وبين أن يودع الحق في قلب العبد ما لا يتناهى أن الحق يعلم ما في نفسه وما في نفس عبده تعييناً وتفصيلاً، والعبد لا يعلم ذلك إلاّ مجملاً، وليس في علم الحق بالأشياء إجمال مع علمه بالإجمال من حيث إنّ الإجمال معلوم للعبد من نفسه ومن غيره، فكل ما يعلمه الإنسان دائماً وكل موجود فإنما هو تذكر على الحقيقة وتجديد ما نسيه، ويحكم هذا المنزل على أن العبد

أقامه الحق في وقت ما في مقام تعلق علمه بما لا يتناهى وليس بمحال عندنا، وإنما المحال دخول ما لا يتناهى في الوجود لا تعلق العلم به. ثم إن الخلق أنساهم الله ذلك كما أنساهم شهادتهم بالربوبية في أخذ الميثاق مع كونه قد وقع وعرفنا ذلك بالإخبار الإلهيّ، فعلم الإنسان دائماً إنما هو تذكر، فمنا من إذا ذكر تذكر أنه قد كان علم ذلك المعلوم ونسيه كذي النون المصري، ومنا من لا يتذكر ذلك مع إيمانه به أنه قد كان يشهد بذلك ويكون في حقه ابتداء علم، ولولا أنه عنده ما قبله من الذي أعلمه ولكن لا شعور له بذلك ولا يعلمه إلاّ من نور الله بصيرته وهو مخصوص بمن حاله الخشية مع الأنفاس وهو مقام عزيز لأنه لا يكون إلاّ لمن يستصحبه التجلي دائماً، ويتضمن هذا المنزل مسائل ذي النون المشهورة وهي إيجاد المحال العقلي بالنسب الإلهيّة، ويتضمن علم المفاضلة بين المتنافرين من جميع الوجوه، ويتضمن أن كل جوهر في العالم يجمع كل حقيقة في العالم، كما أن كل اسم إلهيّ مسمّى بجميع الأسماء الإلهية وذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] وهذا العلم خاصة انفردت به دون الجماعة في علمي، فلا أدري هل عثر عليه غيري وكوشف به أم لا من جنس المؤمنين أهل الولاية لا جنس الأنبياء. وأما في الأسماء الإلهية فقد قال به أبو القسم بن قسي في خلع النعلين له، فرحم الله عبداً بلغه أن أحداً قال بهذه المسألة عن نفسه كما فعلت أنا أو عن غيره فيلحقها بكتابي هذا في هذا الموضع استشهاد إليّ فيما ادعيته فإني أحب الموافقة، وأن لا أنفرد بشيء دون أصحابي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والتسعون ومائتان

في معرفة منزل الذكر من العالم العلوي في الحضرة المحمدية

[نظم: البسيط]

زَهْرُ المعارف من زَهْر الرِّياضاتِ	وزهرُ روضِكَ من زَهْرِ السَّمواتِ
فللجُسوم علومٌ ليس يُشْبِهها	علمُ النُّفوس لأسبابٍ وآفاتِ
حقائقُ الحقِّ لا تَخْفَى مداركُها	لأن إدراكَها للذات بالذَّاتِ
وما سواها فإدراكٌ بواسطةٍ	بما يراه مِنَ أعْلام وآياتِ
هَزْلُ الأكابر جِدٌّ عن مُشاهدةٍ	في طَيِّهِ عندهم مَكْرُ الكراماتِ
إمهالُهم ليس إهمالاً لعِلْمِهِمُ	بأن ذلك مَرْبوطٌ بأوقاتِ
إن الرجالَ وإن حقَّقْتَ نسبَتَهم	إلى أبٍ واحدٍ أولادُ عَلاَّتِ
إن قلتَ هُمْ فَهُمْ أو قلت لا فَهُمُ	لكونِهم بين آلامٍ ولَذَّاتِ
لأنه ليس تُفْنيهم مَظَاهِرُهُ	وهي المُعَبِّرُ عنها بالسَّتاراتِ

اعلم وفقك الله أن شيخنا أبا العباس العريبي كان ممّن تحقق بهذا المنزل وفاوضناه فيه مراراًفكانت قدمه فيه راسخة رحمه الله. واعلم أن هذا المنزل قد جمع بين المشقة الشديدة

والأمور التي لا تُنال إلاً بالقهر الشديد والآفات المانعة عن إدراك المطلوب، وبين الرفق وارتفاع الآفات والوصول إلى المطلوب بالراحة المستلذة المعشوقة للنفوس، وما بين هاتين الصفتين شدائد عظام، فأوّل علم يتضمن هذا المنزل علم الخروج عن الطبع، فاعلم أن الحركات منها طبيعية ومنها قسرية، فلا تتخيل أن الحركة الطبيعية تعطي لذة، والحركة القسرية تعطي ألماً لخروجك عن الطبع، قد يكون الأمر كذلك وقد يكون على النقيض، فلو وقع الإنسان من علو عظيم لكان نزوله إلى الأرض عن حركة طبيعية، ولكن إذا وصل إلى الأرض ربما تكسرت أعضاؤه وتضاعفت آلامه، وسببه الاضطراب الذاتي وعدم موافقة الاختيار الذي تطلبه ربانيته المودعة فيه التي قيل له أخرج عنها فما فعل، والحركة القسرية هي أن يعرج به فيرى من الآيات والفرح والانفساحات والتنزّه على قدر ما علت به تلك الحركة القسرية التي أخرجته عن طبعه واضطراره ووافقته في اختياره، فلا تفرح بكل ما يقتضيه الطبع فإنه أيضاً ما قبل الحركة القسرية إلاً بطبعه فالطبع لا يفارقه حكمه في الحركتين.

واعلم أن الصفات التي جبل عليها الإنسان لا تتبدل فإنها ذاتية له في هذه النشأة الدنيا، والمزاج الخاص من الجبن والشح والحسد والحرص والنميمة والتكبر والغلظة وطلب القهر وأمثال هذا، ولما لم يتجه تبدلها بين الله لها مصارف صرفها إليها حكماً مشروعاً، فإن صرفت إليها أحكام هذه الصفات سعدت ونالت الدرجات فجبنت عن إتيان المحارم لما تتوقعه من المضرة وشحت بدينها وحسدت منفق المال وطالب العلم وحرصت على الخير وسعت بين الناس بإيصال الخير، فنمت به كما تنم الروضة بما فيها من الأزهار الطيبة الريح، وتكبرت بالله على من تكبر على أمر الله، وأغلظت القول والفعل في المواطن التي تعلم أن ذلك في مرضاة الله، وطلبت القهر على من ناوى الحق وقاواه، فلم تزل هذه النفس عن صفاتها وصرفتها في المصارف التي يحمدها عليها ربها وملائكته ورسله، فالشرع ما جاء إلاً بما يساعده الطبع، فلا أدري من أين ينال الإنسان المشقة وما حجر عليه ما يقتضيه طبعه من هذه الصفات بتبيين المصارف، فما هلك الناس إلاً بسلطان الأغراض، فإنه الذي أدخل الألم عليهم والمكروه، فلو أن الإنسان يصرف غرضه إلى ما أراده له خالقه لاستراح، قيل لأبي يزيد: ما تريد؟ قال: أريد أن لا أريد أي اجعلني مريداً لكل ما تريد حتى لا يكون إلاً ما يريد الحق سبحانه، فما يريد بعباده إلاً اليسر، ولا يريد بهم العسر، ويريد لهم الخير وليس إليه الشرّ، كما ورد في الخبر الصحيح: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» وإن كان الكل من عند الله بحكم الأصل.

ولما كان خروج الإنسان عن أن يكون مريداً محالاً وأنه أوّل ما كان يقدح ذلك في الطاعات فيفعلها من غير نية مشروعة فلا تكون طاعة، وإنما طلب أبو يزيد الخروج عن الأغراض النفسية التي لا توافق مرضاة الحق عزّ وجلّ. واعلم أن المشي في الظلمة بغير سراج وضوء في طريق كثيرة المهالك والحفر والأوحال والمهاوي والحشرات المؤذية التي لا يتقي شيء من هذا كله إلاً أن يكون الماشي فيها بضوء يرى به حيث يجعل قدمه ويجتنب به ما

ينبغي أن يجتنب ممّا يضره من مهواة يهوي فيها أو مهلك يحصل فيه أو حية تلدغه، وليس له ضوء سوى نور الشرع الذي قال فيه تعالىٰ: ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢] وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٠] وقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فإذا اجتمع نور الشرع مع نور بصر التوفيق والهداية بان الطريق بالنورين، فلو كان نور واحد لما ظهر له ضوء، ولا شك أن نور الشرع قد ظهر كظهور نور الشمس ولكن الأعمى لا يبصره، كذلك من أعمى الله بصيرته لم يدركه فلم يؤمن به، ولو كان نور عين البصيرة موجوداً ولم يظهر للشرع نور بحيث أنْ يجتمع النوران فيحدث الضوء في الطريق لما رأى صاحب نور البصيرة كيف يسلك لأنه في طريق مجهولة لا يعرف ما فيها ولا أين تنتهي به من غير دليل وموقف، فهذا الشخص الماشي في هذه الطريق إن لم يحفظ سراجه من الأهواء أن تطفئه بهبوبها وإلاً هبت عليه رياح زعازع فأطفأت سراجه وذهب نوره، وهو كل ريح يؤثر في نور توحيده وإيمانه، فإن هبت ريح لينة تميل لسان سراجه وتحيره حتى يتحير عليه الضوء في مشاهدة الطريق فتلك الريح، كمتابعة الهوى في فروع الشريعة وهي المعاصي التي لا يكفر بها الإنسان ولا تقدح في توحيده وإيمانه، فلقد خلقنا لأمر عظيم، ولكن إذا اقتحمنا هذه الشدائد وقاسينا هذه المكاره حصلنا على أمر عظيم وهو سعادة الأبد التي لا شقاء فيها.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم الوقت الذي يصحبه فيه القرينان من الملك والشيطان، فاعلم أن الإنسان إذا خلقه الله في أمّة لم يبعث فيها رسول لم يقترن به ملك ولا شيطان ويبقى يتصرف بحكم طبعه ناصيته بيد ربه خاصة، فكل ما يمشي فيه في ذلك الوقت فهو على صراط مستقيم، فإن ربه على صراط مستقيم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] فإذا بعث فيهم رسول أو خلق في أمة فيهم رسول لزمه من حين ولادته قرينان: ملك وشيطان من حين يولد لأجل وجود الشرع، وأعطى كل واحد من القرينين لمة يهمزه ويقبضه بها، ولا تقل إن المولود غير مكلف فلماذا يقرن به هذان القرينان؟ فاعلم أن الله ما جعل له هذين القرينين في حق المولود، وإنما ذلك من أجل مرتبة والديه أو من كان فيهمزه القرين الشيطاني فيبكي أو يلعب بيده فيفسد شيئاً ممّا يكره فساده أبوه أو غيره، فتكون تلك الحركة من المولود الغير مكلف سبباً مثيراً في الغير ضجراً وتسخطاً كراهة لفعل الله فيتعلق به الإثم فلهذا يقرن به الشيطان لا لنفسه وكذلك الملك وهو كل حركة تطرأ من المولود ممّا تثير في نفس الغير أمراً موجباً للشرّ أو للخير، فإن كان شراً فمن الشيطان، وإن كان خيراً فمن الملك، وليس للصبي الصغير قط حركة نفسية ولا ربانية حتى يدرك، وإن لم يكن في أمة لها شرع فحركته كلها نفسية من حال ولادته إلى أن يموت ما لم يرسل إليه رسول أو يدخل هو في دين إلهيّ يتقيد به أيّ دين كان مشروعاً من الله أو غير مشروع، حينئذ يوكل به القرينان، إذ لم يكن للعقل أن يشرع القربات، وإن كان على مكارم الأخلاق المعتادة في العرف المحبوبة بالطبع التي يدركها العقل ولكن لا يحكم عليها بحكم

أصلاً يقطع به على الله، وليس له حكم في إثبات الآخرة ولا نفيها، لكن هو متمكن بعقله من النظر في إثبات موجده ولمن يستند في وجوده، وما ينبغي أن يكون عليه موجده من الصفات، وما ينبغي أن يعظه به من نعوت الجلال، لكن لا على جهة المنزلة الأخراوية عنده، ولا يعرف بعقله ما يصير إليه بعد الموت، ولا يدري هذا المدبر لبدنه ما هو ولا أين يذهب من الميت إذا مات، ولولا أن الأمر من آدم كان ابتداؤه بالنبوّة فأخبر بما هنالك ففطنت العقول حيث أعلمت مآل هذه النفوس فذلك الذي حرضها على البحث والنظر في ذلك وحشر النفوس بعد الموت إلى أين يكون وكيف يجمع وصورة ما ينتقل به وإليه، وهل تنتقل مدبرة لمواد أخر أو تتجرّد عن المادة؟ وهل كان لها وجود قبل تسوية البدن في التكوين أم حدثت بحدوث البدن؟ ووقفوا على حكم تأثيرات في العالم فراقبوا الأفلاك وحركات الكواكب ورأوا حدوث الآثار عند تلك الحركات عن تكرار، فعلموا أن ثم نسبة بين هذا الأثر وتلك الحركات، وأما ما لم تدرك الأعمار تكراره فذلك بإعلام النبي عليه السلام الذي كان في زمانهم أتاهم بما أعلمه الله وأطلعه على ما اختزنه في تلك الحركات العلوية من الآثار العنصرية وأعلمهم حكمها في الدنيا والآخرة، وليس مثل هذا كله من مدركات العقول من غير موقف، فلولا التعريف الإلهيّ في هذه الدار والدار الآخرة ما عرف أحد شيئاً ممّا هنالك.

واعلم أن كل مخلوق ما سوى الإنس والجان مفطورون على تعظيم الحق والتسبيح بحمده، وكذلك أعضاء جسد الإنس والجان كلها ولكن لا على جهة التقريب وابتغاء المنزلة العظمى بل التسبيح لهم كالأنفاس في المتنفسين لما تستحقه الذات، وهكذا يكون تسبيح الإنس والجان في الجنة والنار لا على طريق القربة ولا ينتج لهم قربة، بل كل واحد منهم على مقام معلوم، فتصير العبادة طبيعية تقتضيها حقائقهم ويرتفع التكليف ولا يتصوّر منهم مخالفة لأمر الله إذا ورد عليهم، ولا يبقى هنالك نهي أصلاً بعد قوله لأهل النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨] وكلامنا إذا نزل الناس منازلهم في كل دار وغلقت الأبواب واستقرت الداران بأهلها الذين هم أهلها وارتفع شأن أرض الحشر وعادت كلها ناراً وصار كل ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى منتهى أسفل سافلين داراً واحدة تسمّى جهنم تحوي على حرور وزمهرير وبينهما برازخ يكون فيها التكوينات في الجلود التي يقع فيها التبديل عند الإنضاج ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] يريد المدة التي كانت الأرض عليها من يوم خلقها الله إلى يوم التبديل، وكانت العرب التي نزل القرآن بلسانها تطلق هذه اللفظة وتريد بها التأييد وهي منقطعة بالخبر الإلهيّ وتعريف النبي ﷺ إلاّ ما شاء ربك بما يرزقون في النار من اللذة والنعيم بها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٧] وفي الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ من حيث جوهرهما لا من حيث صورتهما، ولهذا قال: عطاء غير مجذوذ، أي غير مقطوع، ويقع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من زوال صورتهما إذ كانت السماء سماء والأرض أرضاً، فإنا نعلم أن جوهر السماء هو جوهر الدخان وتبدّلت عليه الصور، فالجوهر الذي قبل صورة الدخان هو الذي

قبل صورة السماء كما قبل جوهر الطين، والحجر صورة البيت فإذا تهدم البيت ويبس الطين ذهبت صورة البيت والطين وبقي عين الجوهر، وكذلك العالم كله بالجوهر واحد وبالصور يختلف فاعلم ذلك، فيكون الاستثناء في حق أهل النار لمدة عذابهم، ويكون الاستثناء في حق أهل الجنة على معنى: «**إلاّ أن يشاء ربك**» وقد شاء أن لا يخرجهم فهم لا يخرجون فإن الله ما شاء ذلك بقوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٨] ولم يقل في أهل النار عذاباً غير مجذوذ فافهم. فإن الخبر الصحيح المتواتر قد ورد فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٨] ووصف السماء بأنها تصير كالدهان ووصفها بالانشقاق وأنها تمور وقال تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣٧] أي مثل الدهن الأحمر في اللون والسيلان، فهذا كله أخبار عن ذهاب الصورة لا ذهاب الجوهر.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم ما أراد الله من الإنسان أن يشتغل به في حال اعتباره وتفكّره لما يؤدّيه ذلك النظر إليه من المعرفة بخالقه لا بربه، فإنه لكل اسم من أسماء الله في العالم دليل خاص لا يدل على غيره من حيث هو دليل عليه، ومن هنا تعلم أن الأرض خلقت من تموج الماء حتى أزبد فكان ذلك الزبد عين الأرض لأنه انتقل من المائية إلى الزبدية وفي الزبد يكون الأرض، وهذا هو السبب في اختراق الصالحين لها وجلوس الميت في قبره مع ردم الأرض عليه، وحكم كل ما خلق منها حكمها، وحكمها حكم الزبد، وحكم الزبد حكم الماء، والماء يقبل الخرق، وتحرك الأشياء فيه فيجري حكم هذا الأصل في جميع ما وجد عنه سواء كثف كالأرض أو سخف كالهواء والنار، لكن النار للماء بمنزلة ولد الولد، والأرض للماء بمنزلة الولد والهواء، والزبد للماء بمنزلة أولاد الصلب، فالماء لهما أب وهو للنار جد من جهة الهواء وللأرض جد من جهة الزبد، فبين خلق آدم والماء وجود التراب الزبد فهو ولد ولد الولد من حيث كثافته، وكذلك بما فيه من النار وبما فيه من الهواء هو ولد الولد، وأما خلق حواء فبينها وبين الأصل ثلاثة: آدم والتراب والزبد فهي أبعد من الأصل. وأما خلق بني آدم فهم أقرب إلى الأصل من آدم فإنهم مخلوقون من الماء فهم من الماء مثل الزبد فهم أولاد الماء لصلبه والزبد أخ لبني آدم وهو جد لآدم وأب للأرض، فبنو آدم أعمام للأرض، فتكون منزلة آدم من بنيه منزلة ابن الأخ من عم أبيه، ويكون بنو آدم من آدم بمنزلة عم أبيه فهم أولاده وهو ولد ابن أخيهم، فهم في الإسناد من هذا الوجه أقرب إلى السبب الأوّل وهو الجد الأعلى، إلاّ بما في آدم من الماء الذي صار به التراب طيناً ففيه إلحاق بولد الصلب بمنزلة من نكح امرأة وهي حامل من غيره فسقى زرع غيره فله فيه بما حصل له من ذلك السقي نصيب.

وأما خلق عيسىٰ عليه السلام فبينه وبين الماء أمه وحوّاء وآدم والأرض والزبد إلاّ من وجه آخر فهو يشبهنا وقليل من يعثر عليه، وقد نبّه الله على ما أومأنا إليه بقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] لما أراد الله فسرت اللذة بالنظر إليه بعدما استعاذت منه وعرفها أنه رسول الحق ليهب لها غلاماً زكيا فتأهبت لقبول الولد فسرت فيها لذة النكاح بمجرد النظر فنزل الماء منها إلى الرحم فتكوّن جسم عيسىٰ من ذلك الماء المتولد عن النفخ الموجب للذة

فيها فهو من ماء أمه، وينكر ذلك الطبيعيون ويقولون إنه لا يتكوّن من ماء المرأة شيء وذلك ليس بصحيح، وهو عندنا أن الإنسان يتكّون من ماء الرجل ومن ماء المرأة، وقد ثبت عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أنه قال: «**إِذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ أَذْكَرَا وَإِذَا عَلاَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أَنثَا**» وفي رواية: سبق بدل علا، فقد جاء بالضمير المثنى في أذكرا وأنثا، وقد قلنا في كتاب النكاح لنا في هذا الفصل إن المرأة والرجل إذا لم يسبق أحدهما صاحبه في إنزال الماء وأنزلا معاً بحيث أن يختلطا ولا يعلو أحد الماءين على الآخر فإنه من أجل تلك الحالة إذا وقعت على تلك الصورة يخلق الله الخنثى فيجمع بين الذكورة والأنوثة، فإن كانا على السواء من جميع الجهات والاعتدال من غير انحراف ماء من أحدهما كان الخنثى يحيض من فرجه ويمني من ذكره فيعطي الولد ويقبل الولد ممّن ينكحه، وقد روي أنه رؤي رجل ومعه ولدان أحدهما من صلبه والآخر من بطنه، وإن انحرف الماء عن الاعتدال ولم يبلغ مبلغ العلو على الآخر كان الحكم للمنحرف إلى العلو، فإن كان ماء المرأة حاض الخنثى ولم يمن وإن كان ماء الرجل أمنى ولم يحض، فسبحان القدير الخلاق العليم، وهذا من أعجب البرازخ في الحيوان ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ويكفي علم هذا القدر من هذا المنزل فإنه يتضمن مسائل كثيرة أكثرها في تولد العالم الطبيعي بين حركات الأفلاك وتوجهاتها وتوجهات كواكبها بأشعة النور، وبين قبول العناصر والمولدات لآثار تلك الأنوار، فيظهر من تلك الأحكام إيجاد الأعيان والمراتب والأحوال، وهذا علم كبير طويل، ويتعلق بهذا المنزل علم الابتلاء في غير موطن التكليف، ويتضمن علم الديوان الإلهي، ويتضمن علم وجوب الكلمة الإلهية التي لا تتبدل، ويتضمن علم أنه ما في العالم باطل ولا عبث، وأنه حق كله بما فيه من الحق والباطل، ويتضمن لماذا أخّر الله غالباً العقوبات إلى الدار الآخرة في حق الأكثرين وعجلها في حق آخرين وهو المعبر عنه بإنفاذ الوعيد وهو خبر، والخبر الذي لا يتضمن حكماً لا يدخله النسخ فقد ينفذ ما أوعد به لمن خالفه لأنه لم يخصّ بإنفاذه داراً من دار، بل قال في الدنيا: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [سورة الروم: الآية ٤١] وهو من جملة إنفاذ الوعيد.

فالذاهبون إلى القول بإنفاذ الوعيد مصيبون، ولكن إنفاذه حيث يعينه الحق تعالىٰ، فإذا أنفذه في الدنيا بمرض وألم نفسي أو حسيّ يدخله على هذا المستحق بالوعيد كان ذلك ستراً له عن عقوبة الآخرة فهو المعبر عن ذلك هنا بالمغفرة أي لا يؤاخذ بها في الآخرة، وهذه أحوال أكثر السعداء والسعداء الذين لا تمسهم النار ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] ﴿ٱلَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٢] ولهذا عظم ابتلاء النفوس والبلاء المحسوس في الأمثال من الناس كالأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس من رد الحق في وجوههم وما يسمعون من الكفرة ممّا يتأذون به في نفوسهم وقد أخبر الله بذلك، وكذلك ما سلط عليهم من القتل والضرب، كل ذلك من إنفاذ الوعيد لخطرات وحركات تقتضيها البشرية والطبع ممّا لا يليق بالمنصب الذي هم فيه لكن هو لائق بالبشر،

ومن هنا يعرف قول الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فقد قرّر الذنب وأوقع المغفرة، وأفهم من ذلك عباده أنه لا يعاقبهم في الآخرة وما علّق المغفرة بالدنيا لما فيها من الآلام والأمراض النفسية والحسية وهو عين إنفاذ الوعيد في حقهم، ويصحّ قول المعتزلي في هذه المسألة مسألة إيلام البريء، فإن الأشعري يجوّز ذلك على الله ولكن ما كل جائز واقع، وكل ما يحتجون به على المعتزلة فليس هو بذلك الطائل والانفصال عنه سهل، وليس هذا الكتاب موضع إيراد هذا العلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون ومائتان

في معرفة منزل عذاب المؤمنين من المقام السرياني في الحضرة المرادية المحمدية

[نظم: الكامل]

إن البُروجَ منازلٌ لمنازلٍ قد هُيِّئتْ للسَّبعة الأنوارِ
فإذا مَشَتْ بالعدل في أفلاكها تبدو لعَينكَ أعيُنُ الأغيَارِ
فالحقُّ يُجري في المنازل حُكْمَه والكونُ في الأكوار والأدوارِ
والخَلْقُ من تحت المنازل ظاهرٌ والأمرُ من فوق المنازل جَاري
فيُقال في لغةِ الكيانِ بأنه أمرٌ تُصَرِّفه يَدُ الأقدارِ
والكفُ والقلمُ العَليُّ مخطِّطٌ في اللَّوح ما يَبْدو من الأسرارِ

اعلم وفقنا الله وإياك أن هذا المنزل من أعظم المنازل الذي تخافه الشياطين النارية لقوّة سلطانه عليهم وهو منزل عال يتضمن علوماً جمة. اعلم أن الروح الإنساني لما خلقه الله خلقه كاملاً بالغاً عاقلاً مؤمناً بتوحيد الله مقراً بربوبيته، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَأَبَوَاهُ هُمَا اللَّذَانِ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ**» فذكر الأغلب وهو وجود الأبوين فإنه قد يكون يتيماً فالذي يربيه هو له بمنزلة أبويه، فالروح ليس له كمية فيقبل الزيادة في جوهر ذاته بل هو جوهر فرد لا يجوز أن يكون مركباً إذ لو كان كذلك لجاز أن يقوم بجزء منه علم بأمر ما، وبالجزء الآخر جهل بذلك الأمر عينه، فيكون الإنسان عالماً بما هو به جاهل وهذا محال فتركيبه في جوهره محال، فإذا كان هكذا فلا يقبل الزيادة ولا النقصان كما يقبله الجسم لعدم التركيب، ولولا ما هو عاقل بذاته وهو عقل لنفسه ما أقرّ بربوبية خالقه عند أخذ الميثاق منه بذلك، إذ لا يخاطب الحق إلاَّ من يعقل عنه خطابه، هذا هو حقيقة الإنسان في نفسه.

ثم إن الله تعالىٰ جعل له في الجسم الذي جعله الله له ملكاً واستوى عليه جعل فيه قوىٰ وآلات حسية ومعنوية وقيل له: خذ العلوم منها وصرفها على حدّ كذا وكذا، وجعلت له هذه الآلات على مراتب، فالقوىٰ المعنوية كلها قوىٰ كاملة إلاَّ قوّة الخيال فإنها خلقت ضعيفة والقوّة الحساسة، وجعلت هاتان القوّتان تابعة للجسم، فكلما نما الجسم وكبر وزادت كميته

كلما تقوى حسه وخياله، إذ كانت جميع القوىٰ لا تأخذ الأشياء إلاّ من الخيال وهي قوّة هيولانية قابلة لجميع ما يعطيها الحسّ من الصور، وقابلة لما تفتح فيها القوّة المصوّرة من الصور التي تركبها من أمور موجودة قد أمسكها الخيال من القوّة الحساسة، وليس في القوى من يشبه الهيولى في قبول الصور إلاّ الخيال، فإذا تقوّى الخيال حينئذ وجد الفكر حيث يتصرّف ويظهر سلطانه، والوهم كذلك، والعقل كذلك، والقوّة الحافظة كذلك، فلم تكن لطيفة الإنسان من حيث ذاتها مدركة لما تعطيها هذه القوىٰ إلاّ بوساطتها، فلو اتفق أن تعطيها هذه القوىٰ المعلومات من أوّل ما يظهر الولد في عالم الحسّ قبلها الروح الإنساني قبولاً ذاتياً، ألا ترى أن الله قد خرق العادة في بعض الناس في ذلك وهو ما ذكر من صبيّ يوسف حين شهد له بالبراءة، وكلام عيسىٰ عليه السلام حين شهد بالبراءة، وصبي جريج حين شهد له بالبراءة، هذا سبب تأخير التكليف عن الروح الإنساني إلى الحلم الذي هو حد كمال هذه القوىٰ في علم الله، فلم يبق عند ذلك عذر للروح الإنساني في التخلف عن النظر والعمل بما كلفه ربه وأوّل درجات التكليف إذ كان ابن سبع سنين إلى أن يبلغ الحلم، وقد اعتبر الله فعل الصبي في غير زمان تكليفه لو قتل لم يقم عليه الحدّ وحبس إلى أن يبلغ ويقتل بمن قتل في صباه إلاّ أن يعفو ولي الدم، فقد آخذه الله بما لم يعمله في زمان تكليفه، والقصد من هذا التمهيد ليقع الانس بما نورده من عذاب المؤمن، فإن الإنسان كما قلنا خلق مؤمناً، وإن ألحقناهم بآبائهم في دفنهم في قبورهم معهم ورقّهم إذا ملكناهم بطريق الإلحاق لا بطريق الاستحاق تشريفاً وتبييناً لعلوّ مرتبة ظهور الإيمان الذي في الآباء.

وكما أن الكفر عارض كان الاسترقاق عارضاً أيضاً والأصل الحرية والإيمان، فمن إنفاذ الوعيد من حيث لا يشعر به وجود التكليف وهو أوّل العذاب لقيام الخوف بنفس المكلف، فقد عذب عذاباً نفسياً مؤلماً وهو عقوبة ما جرى منه في الزمان الذي لم يكن فيه مكلفاً من الأفعال التي تطرأ بين الصبيان من الأذى والشتم والضرب على طريق التعدي، وكل خير يفعله الصبي يكتب له، وقد قرّر ذلك الشارع حين رفعت امرأة إليه ﷺ صبياً صغيراً وهو في الحج فقالت له: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِهٰذَا حَج؟ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ لَهُ حَجٌ وَلَكِ أَجْرٌ**» وذلك أن لها أجر المعونة التي لا يقدر الصبيّ عليها. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ الصَّبِيَّ إِذَا حَجَّ قَبْلَ بُلُوغِ التَّكْلِيفِ ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ البُلُوغِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ذٰلِكَ الحَجَّ عَنْ فَرِيضَتِهِ، وَكَذٰلِكَ العَبْدُ إِذَا حَجَّ عَبْداً ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ العتقِ**» وهذا الحديث وإن كان قد تكلم فيه من طريق إسناده فإن الحديث الصحيح يعضده، وقد ورد في الصحيح: «**أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي حَقِّ العَبْدِ يَأْتِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيهِ نَاقِصاً قَدِ انْتَقَصَ مِنْهُ شَيئاً أَنْ يُكْمِلَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ مَا نَقَصَ مِنْ ذٰلِكَ**» فقد أقام التطوع مقام الفرض وهو هذا بعينه لأن حج غير المكلف به ليس هو فرض عليه.

قال ﷺ عن الله تعالىٰ في الحديث الصحيح: «**أَنَّهُ أَوّلُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ العَبْدِ الصَّلاةُ فَيَقُولُ اللَّهُ: انْظُرُوا فِي صَلاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيئاً قَالَ: انْظُروا هَلْ لِعَبْدِيَ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ: أكملُوا لِعَبْدِي**

فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، قَالَ ﷺ: ثُمَّ تُؤْخَذُ الأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ» أي فيفعل في الزكاة والصوم والحج مثل ما فعل في الصلاة سواء، فلو لم يعتبر الشرع ذلك لم يحكم بهذا، وكل ما يفعله الصبيّ في غير بلوغ زمان التكليف معتبر في الشرع في الخير وفي الشرّ، غير أن الكرم الإلهيّ جازاه بالخير المعمول في هذا الزمان في الدار الآخرة وادّخر له ذلك. وأمّا الشرّ فلم يدخر له في الآخرة منه شيئاً بل جازاه به في الدنيا من آلام حسية ونفسية تطرأ على الصبيان وهي موجودة لا يقدر أحد على إنكارها وهي عقوبات وعذاب لأمور تطرأ من الصبيان، يعرف هذا القدر أهل طريقنا حكمة أوقفهم الحق عليها وهي في حق المؤمنين كما قلنا عذاب أوجب لهم الكفارة، وفي حق الكفار إذا أدركوا وماتوا وهم كفار وعوقبوا في الآخرة وقد كانوا عذبوا في الدنيا وهم صغار مثل ما تعذب المؤمنون في حال صغرهم فذلك قوله تعالىٰ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٨] يعني الذي عذبوا به في الدنيا وما شاكل هذا، فإن هذا نص في تضاعف العذاب على مراتبه الذي هو واحد من ذلك.

ومن عذاب المؤمنين ما سلّط الله عليهم من أصحاب الأهواء والكفار من الأسر والعذاب والاسترقاق والقتل في الدنيا، كل هذا تكفير لهفوات ومزلات نفسية وحسية على قدر ما وقع منهم، وما يقع هذا من الكفار بالمؤمنين إلاّ لأجل إيمانهم، قال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] فإن وما بعدها بتأويل المصدر كأنه يقول: يخرجون الرسول وإياكم من أجل إيمانكم. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ [سورة البروج: الآية ٨] وعليه يخرج تخليد من قتل مؤمناً متعمداً أي قصد قتله لإيمانه.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم الابتلاء وليس ذلك إلاّ لله قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٥] وقال عزّ وجلّ أيضاً: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وليس للمؤمن أن يبتلي المؤمن إلاّ بأمر إلهيّ فيكون الابتلاء لله تعالىٰ ومنه لا منهم مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١٠] فالله أمر بذلك فامتثل العبد أمر سيده، كالسلطان يأمر بعذاب شخص فيتولى عذابه من أمر بتعذيبه وإن كان شفيقاً عليه ولكن أمر السلطان واجب أن يمتثل للمرتبة لما يقتضيه من الهيبة، فالابتلاء لا يكون إلاّ لله، وكل من ابتلى أحداً من المؤمنين بغير أمر إلهيّ فإن الله يؤاخذه على ذلك، وبهذا المقام انفرد الاسم الخبير وهو من أعجب أحكام الأسماء، لأن الخبرة إنما جاءت لاستفادة علم المخبر المختبر، وهنا في الجناب الإلهيّ العلم محقق بما يكون من هذا المختبر اسم مفعول فلا يستفيد علماً المختبر اسم فاعل فيظهر أنه لا حكم لهذا الاسم، وكان الأولى به العبد لجهله بما يكون من المختبر اسم مفعول والعبد ممنوع من الاختيار إلاّ بأمر إلهيّ، فقد يسمّى الله تعالىٰ بما يستحقه العبد فحكمه في جناب الحق إفادة العلم للمختبر في نفسه بهذا الاختبار لإقامة الحجة عليه وله، فلهذا لا يلحق الخبير بصفة العلم كما ألحقه أبو حامد والاسفرايني وأكثر الناس، ولو كان كما زعموا لكان نقصاً، وإنما أوقعهم في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو حجة عليهم أن لو كان الأمر على ظاهره فإن الاختبار سبب في تحصيل العلم ما هو نفس العلم وبالخبرة سمي

خبيراً، فإذا حصل العلم سمّي عالماً في ذلك الحال، وغاية من نزّه مثل ابن الخطيب وغيره في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ تعلق العلم بهذه الحالة وتعلق العلم محدث ولا يؤدّي إلى حدوث العلم، فبقي العلم على حاله من الوصف بالقدم، وإن حدث التعلق فهذا منتهى غايتهم في التنزيه، ويقولون: لو تعلق العلم بما من شأنه أنه سيكون كائناً أو قد كان فقد علم الشيء على خلاف ما هو به، وكذلك لو علم ما هو كائن قد كان أو سيكون أو علم ما كان هو كائن أو سيكون لكان هذا كله جهلاً والله يتعالىٰ عن ذلك، فأدخلوا على الله الزمان من حيث لا يشعرون، والتقدّم في الأشياء والتأخّر، وما علموا أن الله تعالىٰ يشهد الأشياء ويعلمها على ما هي عليه في أنفسها، والأزمنة التي لها من جملة معلوماته مستلزمة لها أحوالها وأمكنتها إن كانت لها ومحالها إن كانت ممّن يطلب المحال وأحيازها، كل ذلك مشهود للحق في غير زمان لا يتصف بالتقدم ولا بالتأخر ولا بالآن الذي هو حد الزمانين، ولهذا لم يرد مع قوله ﷺ عن ربه: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» وأتى بكان وهي حرف وجودي لا بفعل ولم يقل وهو الآن فإن الآن نص في وجود الزمان، فلو جعله ظرفاً لهوية الباري تعالىٰ لدخل تحت ظرفية الزمان بخلاف كان، فإن لفظ كان من الكون وهو عين الوجود فكأنه يقول: الله موجود ولا شيء معه في وجوده، فما هي من الألفاظ التي ينجر معها الزمان إلاّ بحكم التوهم، ولهذا لا ينبغي أن يقال كان فعل ماض في إعرابه على طريقة النحويين، وقد بوّب عليها الزجاجي وسمّاها بالحرف الذي يرفع الاسم وينصب الخبر ولم يجعلها فعلاً فينجر معها الزمان الماضي والحال والمستقبل، وبهذا القدر المتوهم الذي يتخيل في هذه الصيغة التي هي كان ويكون وسيكون من الزمان أشبهت الفعل الصحيح الذي هو قام ويقوم وسيقوم وجعلوا قائماً مثل كائن فأجروها مجرى الأفعال من هذا الوجه، وإذا كان أمرها على هذا فيطلق من الوجه الذي لا يقبل به ظرفية الزمان على الله تعالىٰ وهو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٦] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٧] وما أطلق عليه الآن لما ذكرناه لأنه نص في الزمان اسم علم له ومعناه الظرف، كما جاء الاستواء على العرش بلفظ العرش ولفظ الاستواء وما هو نص في ظرفية المكان بخلاف اسم لفظة المكان فإنه نص بالوضع في ظرفيته، والمتمكن في المكان نص فيه فعدل إلى الاستواء والعرش ليسوغ التأويل الذي يليق بالجناب العالي لمن يتأول ولا بدّ، والأولى التسليم لله فيما قاله، وردّ ذلك إلى علمه سبحانه بما أراده في هذا الخطاب ونفى التشبيه المفهوم منه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] على زيادة الكاف أو فرض المثل إذ كان لا يستحيل فرض المحال.

وممّا يتضمن هذا المنزل علم العالم العلوي المختص بالفلك الأطلس خاصة ومن عماره، وما تسبيحهم وما يتعلق به، وعمن يأخذ ولمن يعطي، من يتلقى منه، والعطاء الذاتي وهو عطاء العلة، والعطاء الإرادي وهو عطاء الاختيار، ومعرفة الآخرة، ومعرفة ما يحصل من التجلي في نفس العبد، وتأثير الضعيف في القويّ، وما تؤدّي إليه الأغراض والأهواء الربانية السارية في العالم التي يدّعيها كل أحد من الحيوان الإنسان وغيره، ومعرفة الصلاح الذي

تسأله الأنبياء من الله، والتصديق الإنساني خاصة ولمن يصدق وبماذا يصدق وماذا يرد وهل يلزمه التصديق بما يحيله دليل العقل وما منزلته عند الله وأين ينتهي بصاحبه؟ وهل المؤمنون فيه على السواء أو يتفاضلون؟ وهل يقبل الزيادة والنقص؟ أو هل ينقص في وقت عند قيام شبهة على ما وقع به التصديق؟ وهل إذا قام به النقص في مسألة من مسائل الإيمان هل يسري ذلك النقص في الإيمان كله أو يؤثر في زواله بالكلية؟ أو هو مقصور على ما وقعت عليه الشبهة؟ ومعرفة سرعة الأخذ الإلهيّ ما سببها؟ فإنه لما أطلعني الله تعالىٰ على إنزال هذه الآية بالإنزال الذي يرد على أمثالنا ممّن ليس بنبيّ فإن القرآن وكل كلام ينزل على التالين والمتكلمين في حال تلاوتهم وكلامهم ولولا ذلك ما تلوا ولا تكلموا، وهنا لطائف إلهيّة لمن نظر، فقيل لي: اقرأ. قلت: وما أقرأ؟ فقيل لي: اقرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٢] فقرأت هذه الآية على ما كنت أحفظها فقيل لي لما وصلت إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ قيل لي: قل بك، فقلت: ما هو في القرآن ولا نزل كذا، فقيل لي: لا تقل هكذا بل هكذا هو وكذا نزل، قل بك، وشدّد عليّ فقرأت إن أخذه بك أليم شديد، فطلبت معنى ذلك فأقيم لي شخص كنت أعرفه وكان قد افترى عليّ فقيل لي، هذا مأخوذ بك أي بسببك فاقرأ: إن أخذه بك أليم شديد، وهو ممدود بين يدي، فلما فرغ ذلك التنزيل استدعيت بالشخص وقلت له: ما رأيت؟ فتأفف عليّ وأظهر التوبة وخرج عني وهو على حاله من الغرية، فلم يكمل الشهر حتى قتله الله بحجر شدخ رأسه وما أخذ القاتل من ثيابه ولا فرسه ولا ماله شيئاً فشاع الخبر وانتهى إلى السلطان وقرّروا عند السلطان أني كنت سبب قتله فما التفت السلطان، فلما كان بعد ثلاث سنين جاء القاتل واعترف بين يدي السلطان بقتله، فسأله ما سبب ذلك؟ فقال: ما له سبب ولا فعل معي قبيحاً إلاّ أني مررت عليه وهو نائم في خربة ولجام فرسه في يده فزين لي قتله فعمدت إلى حجر كبير فاقتلعته ووازنت رأسه ورميت عليه الحجر فما تحرك ولا أخذت له شيئاً وما طمعت في شيء من ذلك ولا اكترثت، فقتله السلطان به وبعث إليّ الخبر بذلك، وهذا من أعجب التنزلات وجود مثل هذه الزيادة فيعرف العارف من هذا المنزل من أين صدرت وما اسمها وما منزلتها من كلام الحق، فإن الأخبار النبوية المروية عن الله لا تسمى قرآناً مع أنها من كلام الله، ويتضمن هذا المنزل علم بدء الخلق وإعادته وكيفية إعادته، فإن أهل الكشف اختلفوا في الكيفية، فذهب ابن قسي إلى كيفية انفرد بها، وذهب الآخرون إلى غير ذلك على اختلاف بينهم، وكذلك اختلف فيه علماء النظر الفكري، ويتضمن علم المحبة الإلهية وثبوتها وعلم الستور التي بين المحبوبين وبين ما يؤدّي لو وقع من غيرهم إلى عقوبتهم كما قيل: [الكامل]

وإذا الحبيبُ أتى بذَنْبٍ واحدٍ جاءتْ مَلاَحَتُه بكل شَفيعِ

وعلم العرش وعددها وصفاتها، وعلم الإرادة المضافة إليه وما تأثيرها في حال العارفين وهل هي من نعوت الجلال أو من نعوت الجمال؟ ويتضمن علم الاعتبار، ويتضمن علم الوعيد من أي اسم هو، ويتضمن علم النفس الكلية ولماذا لا يلحقها التغيير؟ وما شرف

القرآن على غيره من الكتب والصحف والأخبار المروية عن الله مع أن ذلك كله كلام الله، وينجر مع هذا العلم في نفس القرآن شرف آية الكرسي على سائر آي القرآن بالسيادة، ويس بالقلبية، وإذا زلزلت بقيامها مقام نصف القرآن، وسورة الكافرون مقام ربع القرآن، وكذلك إذا جاء نصر الله وسورة الإخلاص مقام ثلث القرآن، ويس مقام القرآن عشر مرات، ولماذا يرجع ذلك؟ ومن هو الموصوف بهذا الفضل هل الدليل أو المدلول أو الناظر في الدليل؟ ويكفي هذا القدر من هذا المنزل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الرابع من كتاب الفتوحات المكية بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ويتلوه الجزء الخامس، أوله الباب الموفي ثلاثمائة

فهرس المحتويات